سياحة في الشرق

سيرة حياة وتاريخ مليئ بالعبر والطرائف

السيد محمد حسن النجفي القوجاني



سياحة في الشرق

سيرة حياة وتاريخ مليء بالعبر والطرائف



دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - هاتف: 5 / 334 544 9611+ - فاكس: 787 546 9611+ - ص.ب:16/25 الغبيري
E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

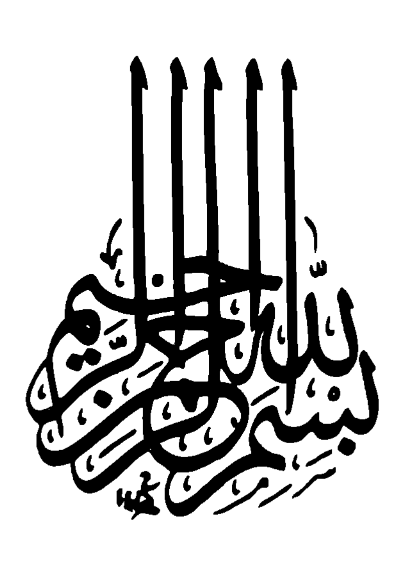
سياحة في الشرق

سيرة حياة وتاريخ مليء بالعبر والطرائف

تعريب: يوسف الهادي

السيد النجفي القوچاني

دار البلاغة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيرة هي الكتب التي تخصصت في تراجم علماء الشريعة. إلّا أنها كانت تقتصر على ذكر اسم المترجَم وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته. ويبقى القارىء في حيرة إذا أراد معرفة نمط حياة أولئك أثناء الدراسة، فيتساءل كيف يدبرون معائشهم وما الذي يختلج في صدورهم؟ وكيف كانوا يواجهون المشكلات العلمية التي تطرأ أثناء البحث والنقاش؟

وهذا الكتاب الذي ألّفه واحد من المجتهدين الذين تابعوا مراحل الدراسة بكافة أطوارها حتى بلوغه الاجتهاد، يجيب على كل تلك الأسئلة ويتوسع فيها. ولا نبالغ إذا قلنا إنه الكتاب الأول في العربية الذي شرح حياة طالب للعلوم الدينية من ألفها حتى يائها. والكتاب موزع على ثلاث مراحل:

١ ـ الطفولة: حيث الدرس في الكتّاب ومساعدته لأبيه في الأعمال الزراعية.

٢ ـ المراهقة والشباب: دراسته للعلوم الدينية في كلّ من: قوچان وأصفهان ومشهد.

٣ ـ سن النضج ورحلته إلى النجف الأشرف التي قضى فيها عشرين عاماً، درس فيها على أيدي كبار العلماء الذين كان في مقدمتهم الملّا كاظم الخراساني صاحب الشهرة العريضة في علم الأصول والمرجع الذي لمع اسمه أثناء الحركة الدستورية في إيران عام ١٩٠٨.

ولد المؤلف في إحدى قرى مدينة قوچان عام ١٢٩٥هـ. وعاش طفولة مرهقة

اشتغل فيها مع أبيه أثناء عطلة الكتّاب في الزراعة. وحديثه عن تلك المرحلة فيه من اللذة وروح البراءة الممتزجة بالفكاهة أحياناً ـ وهو طابع نصادفه كثيراً في الكتاب ـ مما يذكِّرنا بأسلوب سلام الراسي أو مارون عبود الأديبين اللبنانيين عن القرية.

ولمّا كان المؤلف سيداً أي من سلالة النبي ﷺ فقد دأب على لبس الحزام الأخضر وهي، علامة السيادة، والناس يحترمون هذه السلالة احتراماً للذكرى العطرة لرسول الإنسانية ﷺ الذي يرتبطون به برابطة الدم، إضافة إلى روح التعاطف التي يحملونها لآل البيت عليهم السلام الذين عاشوا مظلومين في ظل حُكومات الجور والظلم.

واقعة أليمة:

يذكر المؤلف من طفولته يوماً كلّفه فيه المزارعون العاملون مع أبيه في الحقل أن يذهب بالبقرات والبغل ذي الحمولة إلى البيت. كان يسير في أحد المنحدرات وفجأة انحلَّ ثفَر البغل ـ وهو السَّير الذي يشدّ السرج إلى مؤخر الدابة ـ ومالت حمولته وبدأ البغل يقترب من السقوط في الوادي العميق. كان الوقت عند غروب الشمس. ترى ما الذي يفعله طفل رقيق العظام والعضلات؟ كان البغل يندفع ببطء نحو الأسفل، وهو يسنده، حتى سقط على الأرض وأصيب بجراح، لكنه لم يتوقف عن محاولاته إلى أن جاء أحدهم فعاونه على إنقاذ البغل والحمولة. إلّا أنه احتاج إلى سَير يشدّه إلى مؤخرة البغل ولم يحصل على آخر، فما كان منه إلّا أن حلّ عن وسطه حزام السيادة الأخضر ولفه حول مؤخرة البغل وهو كاره لهذا العمل ويتصوّر ـ ببراءة الطفولة ـ أنّ السماء ستنطبق على الأرض لتلك الإهانة التي ألحقها بحزام السيادة، وذهب إلى أبيه وهو يبكي، بينما ضحك أبوه بعد استماعه لما جرى.

حين أخذه أبوه إلى قوچان إلى أحد أقربائهم ليدرس هناك بكى كثيراً وطلب إلى أبيه أن يعفيه من الدرس كي يعينه في أمور الزراعة. إلّا أن أباه أصرّ على أن يتعلم ويكون كالمجتهد الأكبر الميرزا محمد حسن الشيرازي (قده) المعروف آنذاك.

وهكذا بدأت رحلة العذاب والفقر التي كان يتقبلها أولئك الطلاب المجدّون

برضا وقناعة: التنقل من مدينة إلى مدينة على الأقدام أو على دابة هزيلة، ووعورة الأرض، وشحّ الزاد والماء، والاستغلال الذي مورس ضده من قبل قريبه وأستاذه.

روح التوكل على الله:

تشيْع في الكتاب هذه الروح المتفائلة التي تجعله في أحلك الظروف يرجو تدخل العناية الإلهية، نلحظ اليوم الذي أصيب بقدمه إصابة بليغة وهو يقطع الحطب ليذهب إلى قوچان في اليوم التالي، مما اضطره إلى المكوث بعد ذلك يومين، حيث حدثت في ذلك اليوم زلزلة مريعة بمدينة قوچان دمرتها وقتلت الآلاف من سكانها، وكان من بينهم رفاق درسه الذين سقط السقف على أحدهم وهو يقرأ كتابه فطُحنا تحته معاً.

ونلحظ ذلك في حادثة زواجه التي لم يكن يرى أنه سيتمّ وهو على ذلك الإملاق. وفي غير ذلك من المواقف.

توثيقه لحياة طلاب الحوزات العلمية:

في الكتاب كما قلنا تفصيل لا نجده في أي مصدر آخر لمعيشة أولئك الطلاب الذين يقطعون آلاف الكيلومترات لينهلوا من العلوم التي تؤهلهم للقضاء والفتيا. في مدينة النجف التي كانت شهرتها قد طبقت الآفاق منذ أن جعلها الشيخ الطوسي(قده)، المتوفى عام ٤٦٠ هـ جامعة للعلوم الإسلامية. وفي قطعة رائعة تحدَّث عن مدينة النجف حين رأى مشارفها من بعيد وكأنها قرية صغيرة. ترى أهذه هي النجف التي لا يعدّ المجتهد لدينا مجتهداً إلّا إذا درس فيها ونال شهادته منها؟ أهذه هي النجف التي يتحدث علماؤنا عن مراراتها مشقة الحياة فيها وكأنهم يتحدثون عن السعادة واللذائذ؟..

وما دمنا في الحديث عن مدينة النجف حاضرة العلم والقداسة فلننقل رأي السفير الفرنسي أوزن أوبين الذي زارها في نفس الفترة التي عاش فيها مؤلف هذا الكتاب، والتقى فيها بالملّا كاظم الخراساني الذي هو أستاذ مؤلف الكتاب.

«لمجتهدي النجف منزلة خاصة في العالم الشيعي. فبعد سقوط الدولة الصفوية وموت علماء أصفهان الكبار، ظلت الزعامة الدينية شاغرة لفترة من الزمن. إلّا أن القاجاريين سعوا بهمة إلى تثبيت تلك الزعامة. فمنذ قرنين من الزمان وزعامة الشيعة ومرجعيتهم بيد واحد من الفقهاء الكبار الذي رأوه أفضل من نظرائه من حيث العلم والتقوى. وتفخر المدينة التي يقضي بها ذلك العالم حياته، وتتحول إلى مركز لحوزة العلوم الإلهية. ويقصدها الطلاب والمقلّدون لأجل العلم والتزوّد من التقوى والاستعداد اللازم للقضاء والتبليغ الديني في البقاع الشيعية.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر ـ حيث كان الفقهاء المعروفون آنذاك يدرِّسون في أصفهان وقم ـ انتقلت العاصمة الدينية والمركزية إلى المدن المقدسة الواقعة خارج إيران. وتزايدت أفضلية وأهمية النجف التي تحتوي على ذكرى أول الأئمة ومفسِّر الشريعة. ويوجد بطبيعة الحال فقهاء معروفون في مدينة كربلاء وفي الكاظمين وأحياناً في سامراء.

ولمجتهدي النجف منهج وطريقة أكثر رزانة مما هو لدى مجتهدي كربلاء. فهم علماء بحق وأهل منطق يتجنّبون بشدة نشر الخرافات التي ترتبط أغلب مصادرها بمأساة كربلاء. وهم ـ في عصر غيبة الإمام ـ الآيات والنور المقتبس من الحُسْن الإلهي، الذين ينيرون طريق الهداية لجميع الشيعة.

ويقوم المراجع المعروفون للشيعة بتوزيع ما يأتي من أموال أو ما يأتي من الأوقاف بأنفسهم على الطلاب الشبان في المدارس والحوزات العلمية. وهم يصدرون الأحكام والفتاوى الحازمة في كل المسائل العامة والخاصة التي يُطلب إليهم إبداء الرأي فيها. ويعتبر أكبر أولئك المراجع في الحقيقة ـ الرئيس والزعيم الأكبر للعالم الشيعي. وبعد وفاة أمثال أولئك المراجع فإن قبره يكون موضع تقدير واحترام كل الشيعة، ويبنون له قبة وضريحاً من الكاشي إلى الحدّ الذي تمتلىء المنطقة المحيطة بقبر الإمام علي وفي أماكن من بيوت مدينة النجف بأمثال هذه المقابر.

ويوجد في الوقت الحاضر بمدينة النجف أربعة مجتهدين على قيد الحياة: الآخوند ملّا كاظم الخراساني وهو في الأصل من مدينة مشهد بإيران، ويزيد

عمره على خمسين عاماً، وقد اختار السكنى بجوار العتبات المقدسة، والميرزا حسين ابن الميرزا خليل الطهراني، والسيد كاظم اليزدي. أما الرابع فهو عربي يعرف بالسيد محمد بحر العلوم. إلّا أن أفضلهم بلا منازع هو الآخوند ملّا كاظم الخراساني الذي يُعتبر في الواقع زعيم العالم الشيعي، وفي النهاية، أكبر الشخصيات الدينية في الشرق الأوسط.

استقبلني في بيته الصغير الواقع إلى جوار مرقد الإمام علي. فرأيته شيخاً ذا لحية بيضاء وقوام نحيف ورقيق وعمامة بيضاء كبيرة. تحدث معي عن التعاليم القرآنية السامية وخاصة ما يتعلّق منها بالإنسانية وشمولية الأحكام القائمة عليها. ودعا لي خلال ذلك خفيةً أن تنفتح عيناي يوماً ما على حقائق الإسلام وتستنير بنوره»[(١)].

ثورة النجف:

صوّر المؤلف تصويراً دقيقاً تلك الثورة التي قامت في المدينة إثر مقتل الضابط (مارشال) والحصار الرهيب الذي منعت فيه القوات البريطانية الماء والطعام عن المدينة حتى تسلِّم قتلة المارشال، بينما واصلت المدينة القتال الذي قُتل فيه حوالي سبعماية جندي، ثم استسلمت المدينة على أثره بعد أن سلم بعض الثوار أنفسهم وهم يرون أبناء المدينة يتضوّرون جوعاً وعطشاً. إن تلك الثورة قد فتحت شرخاً واسعاً في العلاقات التي أراد لها الإنكليز أن تكون طيبة ومستقرة مع سكان البلاد كي يستطيعوا الاستمرار باستعماره والاستفادة من ثرواته. إلّا أن تلك الواقعة وما رافقها من قسوة ضد الأهالي لأجل مقتل ضابط إنكليزي واحد أزّمت العلاقات، وفتحت عيون العراقيين مبكراً على المصير الذي أراد الإنكليز جرّ البلاد إليه. كانت الأجواء متشنجة والقيادات الإنكليزية في العراق متشنجين في التعامل والإدارة. يقول الدكتور عبد الله النفيسي:

«كانت السياسة البريطانية في العراق ـ منذ البدء ـ ولا سيّما بعد ضرب

---

(١) إيران اليوم ٤٠٤ ـ ٤٠٥. والمؤلف هو (أوزن أوبين) فرنسي عيّن بمنصب وزير مفوض من الدرجة الثانية، وممثلاً سامياً لفرنسا في إحدى مستعمراتها. انتقل بعدها إلى (طهران) حيث عاش فيها بين ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ كما تنقل في العراق أيضاً في نفس تلك الفترة، وكتب إثر ذلك كتابه هذا المسمى (إيران وبلاد الرافدين).

الحصار على النجف سنة ١٩١٨ وقصفها بمدافع الهاون تقوم على إقصاء جميع الشيعة عن المناصب الرفيعة المسؤولة. ولم يكن بعض الموظفين البريطانيين متجرّدين من الانحياز والتعصب ضد الشيعة. فقد كتبت الآنسة (جروترود بل) سكرتيرة المندوب السامي البريطاني بمناسبة احتجاج الشيعة على أنهم ليسوا ممثلين تمثيلاً عادلاً في مجلس الدولة، تقول: «أما أنا شخصياً، فأبتهج وأفرح أن أرى هؤلاء الشيعة الأغراب يقعون في مأزق حرج، فإنهم من أصعب الناس مراساً وعناداً في البلاد»[١].

ولقد كان بالإمكان تجنّب كل ذلك لو أن القيادة الإنكليزية تعاملت بأسلوب يُجنّب المواطنين ما حلّ بهم.

وفي هذا الكتاب نجد تفصيلات عن الحياة اليومية أثناء الحصار تكمّل ما كتبه المعاصرون لتلك الثورة عنها من العراقيين وغيرهم.

أموال وقف أوده (Aoudh):

أثارت الأموال القادمة من هذا الوقف لتوزيعها على الفقراء وطلاب العلوم الدينية جدلاً بين الطلاب، ومشاحنات بين بعض المتولّين لهذا التوزيع. وقد أخذت مكاناً مهماً من هذا الكتاب لذا لا بدَّ من الحديث عنها.

(أوده) هي مقاطعة في أواسط شمال الهند تقع بين نهري جمنا والغانج كانت تابعة لسلطنة دهلي. وقد أصبحت مستقلة بين ١٧٢٤ ـ ١٨٥٦م. أسس فيها سلالة شيعية سعادت خان الذي كان حاكماً للمغول في أوده وأعلن استقلاله عن دهلي عام ١٧٢٤م واعترف فيها الإنكليز دولة مستقلة عام ١٧٧٤م ومنحوا النواب السابع غازي الدين حيدر لقب ملك. حلّت محل دهلي، وأصبحت العاصمة لكناو مركزاً علمياً وثقافياً عظيماً. أخلص ملوكها للمذهب الشيعي وشيّدوا في لكناو ضرائح لأئمة الشيعة تماثل الضرائح الأصلية. خلع الإنكليز آخر ملوك السلالة واجد علي شاه)عام (١٨٤٧ ـ ١٨٥٦)[٢].

---

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ص١٩٩ نقلاً عن Private paper of G. L. Bell, Box 303/4/3. S. O. S Durham.

(٢) المنجد. مادة (اوَدة).

وقد أثقلت سلطات الاستعمار البريطاني كاهل حكامها بالضرائب حتى أوصلت الدولة إلى الإفلاس. أما عن الأموال التي ترد العتبات المقدسة فيقول الأستاذ جعفر الخياط:

«كان غازي الدين حيدر ملك أوده قد أوقف مبلغاً قدره (١٢١,٠٠٠) روبية في السنة لتصرف صدقات إلى مستحقيها في المدينتين المقدستين ـ كربلاء والنجف ـ فوجدت حكومة الهند التي ورثت مسؤوليات شركة الهند الشرقية نفسها في موقف الناظر على هذا الوقف. وكان توزيع هذا المبلغ في كل سنة يثير عدداً من المشاكل... على أن السير أرنولد ويلسن يورد في كتابه (بين النهرين **١٩١٧ ـ ١٩٢٠م**) بأنّ منشأ هذا الوقف يعود إلى اللورد أمهرست، حاكم الهند العام، الذي كان قد استقرض مبلغاً جسيماً من ملك أوده بمناسبة الضائقة المالية التي حصلت بنشوب حرب في بورما سنة **١٨٢٥م**. وكان القرض بقيمة عشرة ملايين روبية، لكن ملك أوده قد اشترط بدلاً من تسديده إليه أن تقوم حكومة الهند بصرف الربح المستحق عليه إلى الأبد، بنسبة ٥٪، على جهات خاصة منها بعض الناس والطبقات في النجف وكربلاء. وقد حصلت بعد ذلك تعقيدات كثيرة بسبب غموض الوقفية والشروط المدرجة فيها وخشي الأتراك من أن تُتّخذ مدفوعات هذا الوقف لأغراض تخريبية تتجاوز حدود الوقفية.

أما الدكتور جون هوليستر مؤلف كتاب (شيعة الهند) فيقول: إن ملوك أوده كانوا قد وضعوا للاستثمار في قروض حكومية مبلغاً يقدر بثلاثة ملايين ونصف المليون باوند استرليني، ليصرف على أفراد أسرهم ومتعلّقيهم. وظل نسل هؤلاء يتقاضون ربح ذلك المبلغ بالنسبة الأصلية بحيث يبلغ مجموعه في كل سنة شيئاً يزيد على أربعة عشر لكاً من الروبيات. وقد كان البعض من مستحقي هذا الوقف متعودين على توزيع بعض المبالغ في العتبات المقدسة الموجودة في مكة والمدينة وكربلاء والنجف الأشرف، ونظراً لأن قسماً منهم لم يخلّف وريثاً أو وصية خاصة في هذا الشأن فقد ظلّ ما يستحقونه يُبعث كله إلى العتبات المذكورة»[١].

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة الجزء الأول من القسم الخاص بمدينة النجف (ص٢١٤ ـ ٢١٧).

وقد شرح لوريمر في كتابه عن الخليج في القسم المخصص للعراق الذي دوّن فيه وثائق شركة الهند الشرقية بالتفصيل ملابسات توزيع أموال ذلك الوقف وأورد أسماء الذين كانوا يستلمون رواتب ثابتة أو من يقومون بتوزيع تلك الأموال[١].

نهاية الرحلة:

دخل المؤلف مدينة النجف الأشرف في ١٦ رجب عام ١٣١٨هـ. ومكث فيها عشرين عاماً حيث غادرها في غرة شعبان عام ١٣٣٨هـ، ثم عاد إلى إيران وأقام في مدينة قوچان بقية عمره وهي خمس وعشرون سنة، حيث أدار هناك الحوزة العلمية، واهتم بخدمة الناس، وقد دفع عن المدينة ـ مرتين ـ خطراً أحدق بها من هجمات مسلحة. توفي ليلة الجمعة ٢٦ من ربيع الثاني عام ١٣٦٣هـ، في سن الثامنة والستين. حيث خرجت المدينة بأسرها لتشييع جنازته، ودُفن بعدها في إحدى غرف منزله التي أصبحت مزاراً لعشاقه.

مؤلفاته:

١ ـ **سياحت غرب**: وهو في وصف عالم البرزخ والروح بعد الموت.

٢ ـ **سياحت شرق**: وهو الكتاب الذي بين أيدي القراء.

٣ ـ شرح الرسالة التفاحية لأرسطو.

٤ ـ رسالة قصيرة عن سفره إلى بعض المناطق المحيطة بقوچان.

٥ ـ **رسالة العذر الأقبح من الذنب**: وهو مزيج من النثر العربي والفارسي.

٦ ـ **شرح دعاء الصباح**.

٧ ـ **شرح كفاية الأصول** للآخوند الملاّ محمد كاظم الخراساني.

نترك القارىء الآن مع هذه الرحلة الممتعة بمعلوماتها العلمية والتاريخية والفولكلورية والله الموفق.

يوسف الهادي

٥ محرم ١٤١٢هـ

---

(١) دليل الخليج، (ص٢٣٦٩ ـ ٢٤٠٦).

الفصل الأول

التجربة الأولى من قوچان إلى مشهد

إن تاريخ حياة واحد من أهل العلم وأحداث حياته وماضيه مما رأى وسمع ووعى وما جرى له، كُتب كما هو مجرّداً من الكذب والبهتان، لن يكون عديم الفائدة، وإن أُخذ بعين العبرة، فسيكون ضماناً لتنبيه الغافل وإيقاظ النائم.

وُلدت في إحدى قرى قوچان[1] حيث الجوّ اللطيف والمناظر البهيجة والجبال الشامخة والمياه العذبة والينابيع الوفيرة والمروج والرياحين الطبيعية والأشجار المثمرة.

في تلك الأجواء الجميلة، مرضتُ وأنا في الثالثة من عمري، فلم يبق مني سوى عظام رقيقة يكسوها الجلد، وكنت عندما أقف يتجعد جلدي الذي لم يبقَ تحته من اللحم شيء، وكان الدم ينزف من بطني، وقد شارفت على الاحتضار مرات عديدة، حتى أن جدي لأبي طُلب إليه أن يذهب لاستدعاء والدي من المزرعة ليأتي لدفني، فلم يطاوعه قلبه وعاد أدراجه، ولأنني الابن الوحيد فقد كنت موضع حب واعتزاز جدي وجدتي، وكانا يقضيان أغلب الليالي بالدعاء

---

(١) قوچان: اسمها القديم خبوشان، مدينة في شمال خراسان، تنتج بالدرجة الأساس الحنطة والشعير والأفيون ـ فيما مضى بطبيعة الحال. إذ إن زراعته قد مُنعت منعاً باتاً بعد قيام الثورة الإسلامية إضافة إلى الحبوب كالعدس والحمص، وأنواع الفواكه كالأعناب التي منها النوع المدعو بالكشمش. (فرهنگ معين) قال عنها (محمد تقي خان حكيم) في كتابه (گنج دانش) ص٧٠٨: «أهلها من بلدان وقبائل شتى ومن الأنسب أن يقال أن سكانها عرب وليسوا أكراداً».

والمناجاة لقاضي الحاجات وبالبكاء، وكان الطب في القرى آنذاك مقتصراً على العجائز ودوائهنّ الذي كان هو الآخر مقتصراً على أنواع محدودة من الأعشاب مثل: عرق السوس والزعرور والشيح، حيث يضعونها داخل الشاي المغلي وفي الصباح يشربه المريض بدلاً من الشاي. ولمعالجة وجع الرأس يعجنون طحين الحنطة مع الملح الكثير ويضعونه على رأس المريض؛ وأما وجع العين فيضعون محّ البيض عليها ويلفونها بخيوط زرقاء، ويغطونها أحياناً بقطع السكر الأبيض أي الروسي الذي يجلبونه من المدينة حيث كان يستخدم آنذاك لوجع العين؛ ويستخدمون لإزالة الإمساك الخاكشير (الحوبة) أو ماء رؤوس الأغنام المطبوخة أو التحاميل المحتوية على جوهر الملح الحجري اللامع كالبلور. وأما الحمى فيزيلونها بإخافة المصاب وكذلك الحمى النافضة. ويداوون المريض أحياناً بأن يجيزوا به النار ثلاث مرات لثلاث أربعاءات. وكان لهم اعتقاد بالأدعية والأحراز ويعملون بها.

وقد استمر مرضي ثلاث سنوات، وبعد شفائي منه ـ وبرغم أنني لم أشفَ تماماً ـ فقد ختمت القرآن الكريم على يد أبي في شتاءين. وفي سنّ السابعة ذهبت إلى الكُتّاب فأتقنت الفارسية والمسائل العملية وقواعد التجويد وحساب الجُمل[1] ونصاب الصبيان[2] وغوامض عديدة، بعضها على والدي والأخرى على المُلا، وطبيعي أن يكون ذهاب الأطفال إلى الكتاب في القرية في الفترة الواقعة بين أول الشتاء والربيع، بينما يؤخذون في الفصول الثلاثة الأخرى من السنة إلى المزارع والبساتين والصحارى والمراعي، وبما أن الأطفال يكرهون الكتاب أكثر من أي مكان آخر لأنهم يفقدون فيه حريتهم ويرون فيه العذاب النفسي والبدني، فإنهم ينجزون أعمالهم الأخرى بشوق وجدية وعلى أفضل الوجوه، وخاصة إن كان الطفل بطبعه ذا همّة وحمية، ولهذا فقد كنت أواصل العمل في المزارع والبساتين حتى إلى ما بعد عيد النوروز بشهر كامل حسب طاقتي، حيث كانت زراعة

---

(١) هو الحساب بالأحرف الأبجدية حيث يكون لكل حرف رقم ثابت يقابله.

(٢) كتاب شامل للكلمات العربية وما يماثلها من الفارسية وهو منظوم. ألّفه أبو نصر الفراهي الذي عاش أوائل القرن السابع الهجري. وهو من الكتب المقرّرة مع الطلاب في المراحل الأولية.

الأفيون[١] هي المتعارفة آنذاك، إذ يزرعه الناس في داخل أسيجة المزارع، وكان لديهم مزارع التوت الكثيرة التي تدرّ عليهم كل عام محصولاً وفيراً من حرير دود القز، وبما أن النساء هن اللواتي كنّ يشتغلن في جمع الحرير، ولم يكن للرجال يد فيه، إذ إنهنّ إما أن ينسجنه أو يبعنه ويشترين بدلاً منه القطن ويغزلنه ويحكنه ويصبغنه بالألوان الخضر والسود والزرق، ويصنعن منه كل ملابس الرجال والنساء، الصغير منها والكبير، وكذلك الأغطية والستائر والفراش والمساند وأغطية الرفوف وسائر ثياب جهاز العرائس، بحيث لم يكنّ بحاجة إلى شراء كل ذلك من خارج البيت، فنظراً لذلك الدور الذي كانت تمارسه النساء فقط، ولم يكن للرجال عائد نقدي مباشر يعود عليهم من مزارع التوت، ولقصر أنظارهم وهم يرون أن المنّ الواحد من الخشخاش يُشترى بين ١٠ ـ ١٢ توماناً، ولتصورهم أن الثروة والملكية هي بالمال فقط، فإنهم قطعوا أشجار التوت، بل جميع الأشجار التي كانت تحيط بمزارعهم، ولم ينجُ من ذلك حتى أشجار الجوز القديمة التي كانت تعطي بين ٣٠ ـ ٤٠ ألف جوزة في السنة، لأنها كانت تظلّل تلك الأراضي. والحقيقة هي أن الثروة والملكية لعائلةٍ ما أو بلدٍ ما ليست بزيادة النقد بل بوفرة المواد، من قبيل المزروعات التي يحتاجها الإنسان من الأشجار المثمرة وغير المثمرة ومزارع الحبوب، وما هيأه الله في هذه الجبال والصحارى من المعادن، والغابات والمروج والآجام، والرياحين والنباتات المفيدة للإنسان والحيوان، حيث إن الله قد خلق في كل أرض ما تحتاجه المخلوقات فيها تكويناً

---

(١) قال (كرهي كرماني) في كتابه (تاريخ ترياك وترياكي در إيران) ص٨ نقلاً عن كتاب persia من تأليف R. Neligan ص١٠: «يشتري الإنجليز أفيون إيران بأسعار جيدة حتى أن المزارعين بدأوا يهجرون زراعة الحنطة ويتجهون إلى زراعة الخشخاش حيث خصصوا قسماً كبيراً من أراضيهم ذات الناتج الوفير من الحنطة لزراعة الخشخاش.... وكان الإدمان على شرب الأفيون قد بدأ في خراسان وانتشر منها إلى الأماكن الأخرى».

وفي كتاب (تاريخ روابط سياسي إيران وانگلستان در قرن نوزدهم) ص٩: «لأجل إشاعة الإدمان على الأفيون فقد أرسل وفد ضخم من الشيوخ الهنود والمرشدين لأجل حلّ أحد المشاكل السياسية في إيران حيث ظهروا في خراسان أولاً».

وفي نفس الكتاب ص ٤٨ إن زراعة الخشخاش في (طهران) قد بدأت لأول مرة عام ١٢٦٧ هـ (١٨٥٩م) ثم بدأ انتشاره بسرعة بعد هذا التاريخ. (ش).

وتعليماً، بشكل لا تحتاج معه إلى ما هو خارج عنها، بل إن أهلها إذا اجتنبوا محرَمات المعيشة كالإسراف والتبذير والتزموا القناعة ـ التي هي من مستحبات الشرائع ـ سيتمكنون حتى من توفير احتياجاتهم الدفاعية أمام الأعداء، وبمعنى آخر إن كان لساكني أرض ما عرق ينبض من الغيرة على العمل واتخذوا من (الكاسب حبيب الله) شعاراً لهم، ولم يلهثوا وراء جمع المال، واقتصروا في مكاسبهم على جمع ما ذكرناه من مزروعات ومحاصيل، ولم يسرفوا ويبذروا والتزموا القناعة، لبنوا استقلالهم وأثمرت جهودهم، بل إنهم سيصبحون من الأثرياء لأن زيادة البضاعة لديهم ستجذب محتاجي الأموال إلى أبواب بيوتهم.

وإنما قلت إنّ المال ليس هو الثروة، لأن أغلب الناس مولعون غاية الولع بجمعه، وبواسطته يصلون إلى السلطة، ثم إنهم بعد حصولهم على ما كانوا يأملون، ينزلقون في طريق الآمال الباطلة، فيخسرون ما جمعوه ويعودون فقراء كما كانوا، وإما أن يتبعوا أوهامهم الكاذبة، فيكتنزون أموالهم ليوم لا ريب فيه، ذلك اليوم الذي لن يروه إلى آخر العمر، حيث يقضون كل أعمارهم بالفقر والفاقة. وحتى أولئك الذين ينفقون أموالهم بتعقل، أي أنهم يستوردون البضائع الأجنبية التي يحتاجونها، فعلى الرغم من أن ذلك نوع من المعاملة إلّا أنه مظهر للاحتياج ومجلبة للذلة، ويجب على الإنسان أن يفكر في الوسائل التي استطاع بها أولئك الأجانب أن ينتجوا ذلك المحصول، فإن أمكنه أن يوفر تلك الوسائل فعل، وإن لم يستطع ولم يكن ذلك الشيء من ضروريات الحياة ويمكن الاستغناء عنه، فلا ينبغي له أن يصبح شحاذاً للأعداء، وإن كان من ضروريات الحياة كالآلات الحديدية التي نحن بحاجة إليها مؤقتاً، فليكتفِ بشراء حاجته منها فقط.

وعلى أي حال فقد قام الرجال آنذاك وبسبب تعلّقهم بالكسب السريع للمال باقتلاع أشجار التوت والأشجار الأخرى التي هي أصل الثروة والحياة، وزرعوا مكانها الخشخاش، وكنت آنذاك مع أبي من ضمن العاملين بزراعة الخشخاش وسائر أنواع المزروعات، وعندما يحين موعد إحداث الفتحات في الخشخاش لجمع ما يترشح منها، ولأن الناس كانوا لا يعلمون كثيراً عن ذلك آنذاك، فقد كانوا يأتون من يزد و(كرمان) وخصوصاً أولئك الذين يريدون تعلّم إحداث

الفتحات في الخشخاش بالموسى، إذ كانوا يجتمعون في بيتنا. أما أنا فبعد السنة الثانية لممارستي ذلك العمل اكتسبت فيه مهارة جعلتني أصبح مرافقاً لهم في العمل، بل إنني أصبحت مستقلاً عنهم في العمل الثاني والثالث. وكنت أذهب إلى الكتاب في الشتاء فقط، وعند موسم حصاد الحبوب كنت أقوم بالعمل بين الجبال المرتفعة والبيدر الذي هو قريب من القلعة، مع تحملي كل أعمال الحصاد، من قبيل إحضار الماء من النبع العذب، والمحافظة على نار النارجيلة، والانتباه إلى المواشي كي لا تخرب الزرع، كما كنت أقوم بسقيها الماء، حتى أنّ العاملين مع أبي في الحصاد اعترفوا بأنني على صغر سني كنت أعمل أكثر منهم، وهم الذين كان عددهم يتراوح بين ٣ ـ ٤ أشخاص. لم يكن أبي يأتي بسبب كثرة مشاغله في البساتين ومشاغله الخاصة؛ كان العمل مرهقاً وفوق قدرتي، وخاصة نقل الحزم المحصودة إلى البيدر عبر الطرق الضيقة الصخرية والمنحدرة، التي كان طولها يبلغ فرسخاً في بعض الأحيان.

وحدث في عصر أحد الأيام أن أبي لم يحضر، وقد شدّوا حزمتين من سنابل القمح ووضعوها على جانبي أحد البغال، وأضافوا إلى ذلك حملاً من الشعير وضعوه على ظهر البغل في المنطقة الواقعة بين حملي القمح، وانحدرنا جميعاً من أعلى الجبل ومعنا اثنتان أو ثلاث من الأبقار، إضافة إلى بقية المواشي، وعندما لم يبق سوى ربع فرسخ من الطريق للوصول إلى البيدر، وحيث ينفصل الطريق الذاهب إلى البيدر عن الدرب المؤدي إلى البساتين، طلب إليّ الفلاحون الذين كانوا معي ـ وبهدف الراحة والذهاب لاقتطاف الفاكهة من البساتين وأكلها ـ أن أذهب إلى البيدر وأنزل الحمولة هناك، وأن آخذ المواشي معي إلى المنزل، بعد أن قالوا إنهم سيسلكون طريق البساتين.

غادرتهم، وحين صرت على بعد مئتي متر من البيدر حيث يضيق الطريق بين أحضان الجبل لينتهي بوادٍ عميق، ولما كانت إحدى الأبقار خلف الحمولة، فقد أردت جرّها إلى الأمام كي أراقب الحمولة بصورة أدق، إلّا أن البقرة اتجهت من الأعلى إلى الأمام وبما أنها لم تنحرف كثيراً عن الطريق، فقد ضربت بجانبها حمل الشعير الذي كان وسط الحمولة، عندها سقط البغل والشعير، والبغل وإن

لم يكن كرة حقيقية، إلّا أنه كروي من حيث الشكل بالمقدار الذي يجعل انحداره مع حمولته سريعاً في ذلك الوادي وتحطمه إرباً إرباً. وعلى الرغم من أن وزني لم يكن يتجاوز آنذاك أربعة أمنان، بينما كان وزن البغل مع حمولته يتراوح بين ٤٠ ـ ٥٠ مناً فإنه ما إن هوى البغل وتدحرج، ولهول المفاجأة وخوفي من العواقب ومبادرتي في محاولة لمنع سقوطه. فقد مددت يدي من أعلى لتهوي على الشبكة التي كانت على ظهره، في الوقت الذي كانت فيه تلك الكرة (البغل والحمولة) تهوي إلى الأسفل، وبمجرد أن تعلقت يدي بالشبكة فقد رفعتني وقذفتني نحو الأسفل على الأرض الصخرية الملأى بالشوك، على بعد ذراع واحد من تلك الكرة المتدحرجة، ولخشيتي من أن تصلني تلك الكرة وتسقط عليّ فتكسِّر عظامي وترسلني إلى عالم العدم تصرفت بسرعة كحبة حرمل وضعت في النار، ودون أن أتفحص في أي موضع جُرحت من جسمي وأي عظم مني قد كُسر، أنهضت قامتي الصغيرة ودفعت كتفي تحت الحمولة بينما أنشبت أصابعي بحبال الشبكة، وسمرت قدمي في الأرض لمنع الكرة المتدحرجة (البغل والحمولة) من السقوط في ذلك المنحدر الحاد. ومع اقتراب الغروب فتحت عينيّ لأرى إن كان هناك فيما حولي من يعينني فلم أجد أحداً.

إن ثقل أي جسم هو عبارة عن الميل نحو المركز، وبديهي أنه كلما ازداد ثقل الجسم كان أكثر ميلاً للوصول إلى المركز، وثقل البغل والحمولة كان أربعين مناً على الأقل، والطريق إلى المركز منحدراً. لذلك لم يكن هناك مانع يمنع انحدار هذا العاشق نحو ذلك المعشوق الكبير سوى إرادتي ورغبتي في المحافظة على البغل والحمولة، وعلى الرغم من صغر بدني، فإن روحي كانت كبيرة من حيث الهمة وقوة الإرادة، ومعلوم أن الشجاعة والقدرة هي في رباطة الجأش وسعة النفس فقط، ولا دخل للجسم فيها، هذا الجسم الضعيف المنهك، خاصة بعد مرور ربع ساعة على بقائه تحت هذا الحمل الثقيل وقد أرهقه الانجذاب الهائل إلى أسفل، بينما كانت السيقان ترتعش لشدة التعب والوهن، ودماء جراحي المنبعثة من رأسي ويدي ورجلي تقطر على الأرض بعد أن نفذت من خلال

الملابس. ولأن جُلّ تفكيري كان متمركزاً حينها في المحافظة على البغل، فلم أشعر بالألم إلّا قليلاً، سوى ما كان من جرحي العميق الذي في فخذي والذي كان يمكن للجوزة أن تستقر في حفرته، والمحافظة على البدن كانت على عاتق الروح أيضاً.

أما البغلان الآخران فقد كانا بمعيّة الأبقار منشغلين بأكل حمولة البغلين الآخرين حيث وجدوا منفعتين في ذلك العمل بتخفيف الحمولة، وسدّ الجوع.

وأخيراً رآني أحدهم عن بُعد فدعوته، وجاء لنجدتي إذ تعاونا على الخلاص من تلك الورطة، ولم نصل إلى البيت إلّا بعد ساعتين من حلول الظلام، وعلى الرغم من أن أبي كان قد عاتب وعاقب العاملين، لكن ذلك كان دون جدوى.

وحدث مرة أيضاً أن حمّلنا بغلين اثنين بالحمولة واتجهنا نحو البيدر حيث كان والدي يومها قد ذهب إلى الحصاد، ولما كان الطريق منحدراً فقد انقطع ثَفَر[١] أحد البغلين. فاندفع الرّحل عن ظهره واتجه إلى رقبته وأوشكت الحمولة أن تسقط، وكان سقوطها دائماً يثير حزني وغمي وبكائي لكون عملي ظل ناقصاً ولم يبلغ الكمال، فبادرت فوراً إلى إدارة رأس البغل باتجاه المرتفع، وبعد أن دفعته بضع خطوات إلى أعلى واستطعت بعد عناء أن أسحب الحمولة والرحل إلى الخلف، عادت إلى ظهره كما كانت، وقد أدى عدم ربط الثفر وقصر الحبل إلى مضاعفة المشقة، فلو كان البغل يسير نحو الأسفل لشارفت الحمولة على السقوط كما حصل في المرة الأولى، وذلك مما لا يطاق، ولما كان معي حزامي[٢] - وهو قطعة من النسيج مصبوغة باللون الأخضر للدلالة على السيادة، فقد بادرت إلى حله عن وسطي بحكم الضرورة وشددته تحت ذيل البغل، مع أن ذلك يعتبر إهانة كبيرة لمقام السيادة، وباعتقادي البريء والنقي فقد تصورت ذلك شبيهاً بإهانة (أبي جهل) للمقام النبوي المقدس، إلّا أنني وطبقاً لقاعدة الضرورات تبيح

---

(١) الثَّفْر والثَّفَر: سير من الجِلد في مؤخر السرج.

(٢) دأب السادة المتحدرون في نسبهم من النبي ﷺ في العراق وإيران أن يشدوا إلى أوساطهم حزاماً أخضر دلالة على انتسابهم له ﷺ.

المحظورات، ربطته إلى البغل شئت أم أبيت، وقد بلغ بي التأثر حدّاً أن استولى علي الحزن والأسى وانخرطت في البكاء، وظللت أبكي بصوت عالٍ في ذلك الجوّ الحار، حتى لم يبق من الطريق إلّا نصف فرسخ، وكنت خائفاً جداً: ترى ما الذي سيحدث لو أن البغل بال أو راث ولوّث ذلك الحزام؟ إما أن العالم سيتزلزل أو أن بلاء ما سينزل عليّ أو أصبح كافراً لا تقبل توبته؟

ومهما يكن فقد وصلت إلى البيدر، حيث كان والدي، وأنا أبكي وأنشج، وبادرت على الفور بفتح الحزام عن مؤخرة البغل وقبّلته ثم شددته على وسطي وأنزلت الحمولة، وركبت البغل الذي كان سبباً في تلك الإهانة وضربته على رأسه عدة ضربات بالعصا، إلّا أن أساس غضبي كان من والدي لكون شخص عاقل مختار مثله يظهر مثل تلك اللامبالاة فيشدّ حبلاً بالياً تحت ذيل البغل.

وصلت إلى أبي، وبديهي أن من يبكي ساعة، حتى لو توقف عن البكاء، فإن آثاره ستظل مدة على وجهه، من احمرار العين وبلل ياقة القميص واستيلاء الحزن والتقطيب، وعندما وقعت عيني عليه؛ ظهرت علي آثار الحزن والغيظ كمن قُتل أبوه، وعندما رآني فهم بدوره أن حادثاً ما قد وقع، فسألني: لِمَ تبكي يا بني؟

استولى عليّ الحزن فخنقني وكتم أنفاسي فلم أتمكن إلّا من البكاء دون أن أستطيع أن أُخرج حرفاً واحداً من فمي، ومرت علي عشر دقائق وأنا على ذلك الحال، بينما كان أبي واقفاً يتطلع إليّ بحيرة وقد أمسك المنجل بيد، وأمسك في الأخرى مجموعة سنابل، وصممت أنا الآخر أن أجيب على سؤاله، إلّا أن بكائي اشتدّ فلم أتمكن من ذلك، وكان هو مصراً على معرفة ما حدث.

وبما أنني كنت مؤدباً مع أبي، ولم يحدث أن رددت عليه يوماً حتى لو كان كلامه أو تصرفه خطأ، فلم أستطع إلّا أن أجيبه بعد فترة وأنا باكٍ بهذه الكلمات:

لست إنساناً، وليست زراعتك ووسائلها كوسائل زراعة الآخرين، وليس حمارك بحمار، وليس له ثفر تحت ذيله كذلك الذي يشدّه الآخرون لحميرهم، وعبثاً سميت نفسك مزارعاً. لقد تعجبت، لماذا لم تقع السماء! ولماذا لم تتزلزل الأرض، تمنيت ساعتها لو أن يدي شُلّت، فلماذا لم أدع الحمولة تقع، بل أن يموت البغل، يا إلهي أي عمل قبيح حدث؟ وأي ذنب عظيم اقترفت؟ طفل بريء

لي ثماني سنوات من العمر، لم أعد مسلماً، بل أصبحت كافراً، ولا أدري هل سيقبل الله توبتي؟ و. . . و. . . و.

قال لي أبي: ما الذي حدث يا بُنيّ؟

أجبت وأنا أنشج، ماذا كنت تريد أن يحدث أكثر من الذي حدث، حيث اضطررت وللحيلولة دون سقوط حمولتك المشؤومة، أن أشد حزام سيادتي على مؤخرة بغلك كي أوصل حنطتك التي تزيد على خمسة أمنان إلى البيدر، فهل رأيت حتى الآن أحداً فعل ذلك؟

ضحك أبي وقال: يا لك من مجنون. وعاد إلى عمله في حصاد الزرع، بينما ذهبت أنا خلف أكداس السنابل المحصودة وبدأت أفكر: لقد تلقى أبي هذه الحادثة على عظمها باللامبالاة، وهو أعقل منّي وأكثر فهماً، فما الذي استوجب أن أخطئ فأعطي الموضوع هذه الأهمية التي جعلت أبي يدعوني بالمجنون؟ فحزامي صنعته أمي، وهي التي صبغته باللون الأخضر، والقطن كثير في العالم، وكذلك اللون الأخضر. والقطن الأخضر اللون كثير أيضاً، كالقباء والجبة اللذين لدي ولدى والدي وسائر الناس، ونحن لا نحترم أيّاً منها، بل إنني لا أخشى حتى لو سقط واحد من تلك الملابس في المرحاض وأصبح نجساً، إذ إنني أستطيع أن أطهره بعد ذلك، لماذا إذاً كل هذه الحرقة والبكاء الطويل، فإن وجود فرق بين قمري وبين القمر الذي في الفلك، هو كوجود الفرق بين السماء والأرض، إذ إن اتفاق الاسمين وحده ليس كافياً، بل حتى الاتفاق في الآثار: الخال الذي في الوجوه الملاح أسود، وحبة الفلفل أيضاً سوداء، وكلاهما يحرق الروح، لكن أين هذا من ذاك؟

والحزام الأخضر علامة السيادة وعلامة أهل البيت والانتساب إلى أركان الإيمان أولئك، وإلى تلك العائلة، وهو (موضوع) ومستعمل في هذا المعنى الشريف، والمعنى هو روح اللفظ، حتى أن الحسن والقبح يسريان إلى اللفظ.

ألا ترون إلى أسماء المخدّرات مستورة كالمخدرات ذاتهنّ، وإذا أردنا الإشارة إليهنّ استخدمنا الكناية، وإن حبّك للمعاني الحسنة التي تحبها دائماً وتحب استحضارها ورؤيتها، يجعلك تحب ألفاظها وأسماءها أيضاً، وتكرّر ذكرها في المقام المناسب. .

فالحزام الأخضر أو العمامة الخضراء يختلفان عن القباء والجبة الخضراوين، حتى لو كانا لأحد السادة، إذ ليس لهما هذا المعنى الشريف والروح الطيبة. وذلك نظير ما يُصنع في أضرحة الأماكن المشرفة، إذ لا أحد يقبّل التراب والحجر والفضة والحديد ولا يحترمها، فعلامَ إذاً تقبّل الباب وحائط الذهب والفضة وتحترمها في الأماكن المقدسة؟

إن عباءة وعمامة العالِم محبوبتان ومحترمتان لأنهما علامة العلم والديانة، وإذا رأيناهما غير محترمتين في (بخارى) فلأنهما لا تعنيان هناك المعنى الذي ذكرناه، وإلّا فالعيّار العازف على الطبلة يلبس العمامة أيضاً.

بل إنّ من المسموعات أنّ العشاق يعشقون كل ما ينسب إلى معشوقيهم حتى ولو كان وسخاً وسيئاً بذاته، إذ إنهم يعشقونه لكونه منسوباً إلى المعشوق على حدّ درجة الانتساب، فهو يحب أقرباء المعشوق إلى أن يصل إلى خادم البيت، كما أنه يحب الناس الذين هم في بيت محبوبه أكثر من حبّه للجمّال، ويحب نعجته أكثر من حبّه لكلبه، ويحب كلبه أكثر من حبّه لخيل الآخرين، بل حتى من الآخرين، ولو تردد الأمر بين إنقاذه كلب حبيبه وكلباً آخر لواحد من الناس، فإنه يختار كلب حبيبه، ولا إبهام في هذا الموضوع، بل هو أمر وجداني يدركه كل واحد على قدر طاقته، بل لا يوجد مخلوق بلا عشق ومحبة، فهو عين الحياة التي تسري في كل الموجودات، ومن الذرّة إلى الدرّة، ومن المقدّمين إلى المتأخرين، جميعهم يسعون في طريق الوصال بالمعشوق، فإن وجد مانع في طريقهم طوعوا طريقهم، وإن أحاطت بهم الحواجز قاوموها ليزيلوها أو يفنوا وجودهم.

تأمل في أغصان الشجرة وجذورها، وفي عشاق الدنيا والله والأئمة والدرهم والدينار. بديهي أن العشق ممدوح ومحمود، وهو يتجه نحو مبدئه. ولكون كل الموجودات مخلوقة وهي ظل للحق ومنسوبة إليه، فيجب أن تُحب جميعها حتى لو كان الشيطان، لكن بحدّ الانتساب فقط، الذي هو في الشيطان عبارة عن حيثية الوجود التي هي في غاية الضعف. ومن البديهي أن أحداً لو تسبب في إيقاع أذى أو إهانة بسبب غفلته أو لأسباب أخرى، فإنه سيكون مذموماً ملوماً.

وواضح أنني أحب النبي وأئمة الهدى عليهم السلام، وأفخر بالانتساب إلى تلك

الأنوار الطاهرة التي كنت يوماً ما في أصلابها الطاهرة، وأنّ هذا الحزام الأخضر الذي أشدّه حول وسطي، إنما أحبّه ـ ويجب أن أحبه ـ لكونه علامة السيادة والانتساب إلى النبي، ولو أن أحداً أراد إنزال الإهانة بما يُنسب إلى المحبوب، فينبغي منعه ومقاتلته، ولو أهان العاشقُ نفسه بشكل ما شيئاً مما ينتسب إلى معشوقه، فيجب أن يلوم نفسه بنفس مقدار محبة ودرجة تعلقه وفنائه في محبوبه إلى الحد الذي قد يموت معه همّاً، أو يُقتل على طريق الاعتذار والخدمة التي هي ألذّ لذائذ العاشق بحكم الضرورة والوجدان.

إذاً فقد ضحك والدي ودعاني بالمجنون، تُرى ما السبب؟ إنه أكثر إدراكاً مني للإسلام والتعلّق بالمثل العليا، بل إنني لا يمكن أن أُدعى الآن مسلماً إلّا بحكم التبعية، إذاً لا بدّ أنه قد أخذ بنظر الاعتبار المنفعة الآنية التي هي مجهولة لي.

ثم عدت إلى نفسي فأدركت أن تلك الحادثة قد أثرت في لكون قلبي طاهراً نقياً لم ينفذ إلى فطرته التي فطر الله الناس عليها صدأ المعصية وقسوة الأخلاق الذميمة، إلّا أن والدي الذي ذاق لسنين طويلة مرّ الحياة وحلوها، ومارس التجارب لم يكن لأمثال هذه المسألة تأثير عليه، وكنت في نظره مجنوناً.

مهما يكن فقد كان أمراً حسناً أن يوافقني ظاهراً ويواسيني لأن الطفل مقلِّد وتابع للغير خصوصاً لأمه وأبيه، حيث إنه يتعلم الكلام منهما ويستوحي الأعمال والأخلاق والعقائد منهما أيضاً، فإن تعلم منهما القبائح والأعمال الدنيئة فإنه يصعب إعادته إلى الطريق الصحيح عند البلوغ، وترك العادة عسير. وقد سمعت أن رسول الله ﷺ قال ما معناه: عِدْ زوجتك ولا ضير من عدم الوفاء بالوعد ولا إشكال في الكذب[١]، أما وعدك لأطفالك فاعتبره واجب الوفاء وأوفِ لهم ولا تكذب عليهم ولا تفعل معهم أيّاً من المساوىء الأخرى، وسمعت أيضاً أنّ الطفل يولد مسلماً إلّا أنّ أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يجعلانه يدين بديانات باطلة ويُلجئانه إلى ارتكاب الأعمال السيئة. إذاً يجب أن يُحرص على تربية الأولاد والأطفال.

---

(١) نُقل هذا الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام ونظراً لكون سند الحديث ضعيفاً فللفقهاء اختلاف حول مضمونه (ش).

كنت غارقاً في هذا التفكير وأنا أراقب المواشي اللواتي أعلنّ التحرك، فاتجهنا جميعاً نحو البيدر، ومن هناك إلى المنزل حيث العشاء الذي كان عبارة عن ماء اللحم[١] مرة في الأسبوع أو مرتين، والذي كان يوضع فيه الحمص أو العدس، وكان العدس هو المستعمل في الغالب، وقد يخلو ماء اللحم من الحبوب أحياناً. أما عند ذهابي إلى المرعى فقد كان طعامي خبزاً يابساً، إلّا أن اللبن الخاثر كان موجوداً في أغلب الأحيان وفي موسم الفاكهة كنت آكل الخبز مع الإجاص أو الخيار، وكنت آكل خبز الشعير في فصل الشتاء وأوائل موسم الحصاد، وجميع تلك الأنواع من الأغذية كانت تسبب انتفاخ البطن وتألمها، ونظراً لكوننا نعيش في محيط نقي ومياه عذبة وتنقل دائم، فإن ذلك لم يكن يؤثر علينا، فالماء والهواء يؤثران كثيراً في هضم الغذاء وصحة البدن، ولهذا السبب يكون القرويّون أصحاء المزاج أكثر من ساكني المدن، وساكنو الخيام في الصحراء أصح بدناً من القرويين، لأن إحاطة المنزل بسياج تلوث الهواء إلى حدٍّ ما.

عندما عدت من الكتّاب إلى البيت لتناول طعام الغداء، وكانوا يستدينون لي رغيفاً من خبز الحنطة من الجيران إذا كان خبزنا ذلك اليوم شعيراً، إلّا أنهم لم يحصلوا في ذلك اليوم على رغيف حنطة، فجاءت أمي برغيف من الشعير ووضعته قرب النار لتسخنه، وفي أثناء ذلك كانت تسهب في مدح خبز الشعير الحار وكونه لذيذاً، فعلمت أن الهدف من هذا الشرح الطويل هو أن تحثّني على تناول رغيف الشعير. كنت طفلاً صغيراً قد جاء يستريح من الكتّاب لساعة، وكان قلبي رقيقاً إلّا أنني كنت أشعر أنه رأس القيصر، لذا فقد ثارت ثائرتي وأمسكت بالرغيف ومسحته بأرضية الموقد فتلوث بالرماد وقلت: ها قد أصبح ألذّ من السابق، واعلمي أنني لن آكل خبز الشعير خاصة عندما يكون بلا إدام. ضحكت أمي حتى تمايلت، ثم نهضت وأحضرت شيئاً من السمن المخلوط بالسكر ومسحت ذلك الرغيف به، فقلت: الآن أصبحت لذيذة لا كما كانت. كالكردي الأحمق[٢].

---

(١) أكلة شائعة في إيران والعراق يوضع فيها اللحم مع الحمص والبصل والتوابل ويطبخ الجميع وبعد نضجه يثرد الخبز في مائه ويؤكل مع محتوياته الأخرى.

(٢) ذكر المؤلف أن قرب قريتهم قرية يسكنها الأكراد.

أما غذاء الشتاء حيث لا يمكن الحصول على اللحم مدة أربعة أشهر أو خمسة، فقد كانوا يسمّنون خروفاً أو اثنين في فصل الخريف وذلك بأن يجعلوهما في البساتين ويعتنون بغذائهما حتى يكبرا ويسمنا حيث يذبحونهما ويملِّحون لحمهما ويعلقونه في السقف وسط أحد الحجر، أما عظامهما الرقيقة فيكثرون من تمليحها ثم يجعلونها في جرة من الفخار، ويكتفون بتمليح الرأس وعظام اليدين والرجلين ويعلقونها نيئة إلى السقف، وكان اللحم يقتصر على ذلك في فترة تقارب خمسة أشهر. ولم يكونوا يطبخون في ماء اللحم سوى العدس، وكانوا يطبخون بين كل ١٠ ـ ١٥ وجبة مرق أقل من نصف كيلو من العدس ليسدّوا به رمق ٥ ـ ٦ أشخاص من ماء اللحم هذا أو من الخبز المنقوع فيه، وأي طعام آخر يعدّونه كانت الحنطة أو دقيقها أو اللبن أو الزيت جزءاً منه. أما الرز فلم يكونوا يشترون منه طيلة العام إلّا ٢ ـ ٣ أمنان ويخصصونه لأيام عيد النوروز، حيث كان تناول الرز فيها واجباً، وكان لوحده بلا لحم أو مرق.

وعندما يتأمل الإنسان في حياتهم، يجد أنهم لم يكونوا محتاجين لشيء من الخارج من أي أمر من أمور معاشهم إلّا في الوسائل الحديدية، فيا لها من حياة طيبة طاهرة.

وكانوا ينشغلون بعد انتهاء أيام النوروز في الاستجمام والرياضات البدنية والنفسية كالمصارعة وغيرها في التجمعات الواسعة، حيث كان الشيوخ يستمرون في ذلك إلى اليوم الرابع عشر بعد العيد، بينما يستمر الشبان حتى اليوم العشرين، والأطفال إلى شهر كامل.

وقد جرت العادة في ليالي الشتاء أن تُعقد جلسات في المنازل، حيث يخبر أحدهم الآخر بأن مجلساً سيُعقد بعد الطعام وسيكون في بيت فلان من الساعة الخامسة حتى السادسة، إذ يقضون ساعة من الليل في الحديث بالمسائل الدينية والمطالعة في كتاب **معراج السعادة**، فيقرأ أحدهم بينما يشرح آخر، وكذلك يقرأون في كتاب المثنوي[1]، كما يتحدثون بقدر لا بأس به عن أمور دنياهم بدون

(١) **معراج السعادة** كتاب في الأخلاق للشيخ النراقي أما المثنوي فهو ديوان شعر شهير لجلال الدين الرومي يحتوي على قصص أخلاقية وعرفانية مستفادة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة انتهى تأليفه عام ٦٦٠هـ فرهنگ معين.

حقد أو غش أو غلّ أو عداوة لبعضهم، وكانت الجلسات تعقد في الغالب في بيتنا.

كان أبي طالبَ علم ومحبّاً للخير، وكانت نفقات هذا المجلس الذي كان يضم بين **٢٠ ـ ٣٠** شخصاً تنحصر في شرب الغليون وإشعال الحطب، حيث كنا قد حصدنا في سنة واحدة حوالي **٤٠** منّاً من التبغ، وقد نفد في ثلاثة أشهر من التدخين في الشتاء. وكان الناس في غالبيتهم أقوياء البنية أصحّاء المزاج وقلّما يمرضون.

لم يكن هناك من مرتكبي الحرام إلّا اثنان من آكلي الربا، أحدهما لم يذهب لزيارة كربلاء، والآخر ذهب إلّا أنه لم يذهب لزيارة النجف وسامراء بحجة أن أقارب الإمام الحسين كثيرون وليس من الواجب أن نزورهم جميعاً وننفق ما لدينا من المال!! كما لم يذهب لزيارة الإمام الرضا عليه السلام حيث جرت العادة أن يصطحب كلٌّ زوجته وأطفاله بعد الانتهاء من أعمالهم أواخر الخريف لزيارة مدينة مشهد، إذ يحملون معهم طعام السفر المكون من الخبز المجفف والسمن ونوع من الخبز الدسم. وقد اعتزله الناس لعدم زيارته، حتى أنه كان قد أعطى بعضهم قراناً ليشتري له ختماً، فذهب وجاءه بختم حُفر عليه (عدو آل علي هو كلب أسود ومغبر). وعندما عاد هذا الشخص ـ واسمه سبزه علي ـ وجاء الناس لاستقبال العائدين من مدينة مشهد، وقف بينهم وبدأ يختم لأولئك الزائرين البسطاء أوراقهم وهو مسرور وينثرها عليهم، وقد وقعت بينهم مشاجرة إثر ذلك.

كان للناس آنذاك ولع وشوق للعلوم الدينية، وكان متعارفاً أن يقع بينهم النقاش والبحث في المسائل العلمية والتجويد والقراءة ومعاني أشعار (المثنوي) وغير ذلك. وإن حدث أن أحداً كان عند والدي، وأراد والدي مني شيئاً دون أن يفهم ذلك الجالس، فإنه كان يقول ذلك بطريقة حساب الجمل. فلو أراد مني الذهاب لشراء لحم من القصاب فإنه يقول لي هكذا: رأسان اثنان، ومئتا يد، وستة كروش، وعين واحدة، وسبع آذان، وأربعة أنوف، وعشرون رقبة، وحاجب واحد، وخمسون كراعاً، وعشرون إصبعاً، وثلاثمائة ضلع، وأربعمائة فم،

وشفتان، وعشرون سناً، وعشرة ألسن، ومئتا لحية. فكنت أقوم بجمع تلك الحروف، وإلى أن يصل إلى قوله «مئتا لحية» أكون قد ذهبت لجلب اللحم. وكان أحياناً يتكلم بلغة «صلاچنان»[١]، فأذهب فوراً لإحضار ما طلب. وفي كل الحالات كان الجالس لا يفهم شيئاً مما قيل، وغالباً ما كانت القرانات قديمة، ولم يحدث أن رأيت لدى والدي عشرة قرانات في أي وقت من الأوقات، كما كان المسكوك النحاسي الأسود الذي كانت كل ثمانين قطعة منه تعادل قراناً واحداً، وكذلك تلك النقود المدورة السوداء والبيضاء. وربما كانت قلة النقود هذه واحداً من أسباب انخفاض نسبة المعاصي، لأنّ هذه النقود سريعة الإصابة لقضاء الحوائج وتحقيق أماني النفس والشغف بالمحذورات.

ثم إنّ الناس كانوا قانعين في حياتهم بما ينتجونه بأيديهم حين كانوا يتعاملون مع الله، وكان ذهابهم إلى الخارج محدوداً، ولو قال العلماء الأعلام وعقلاء المسلمين ألف مرة عن المصنوعات الأجنبية: «كل شيء لك طاهر حتى تعلم نجاسته، وكل شيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام»، فإنهم يعنون بذلك النجاة من العقاب الأُخروي. وأما تأثيراتها النفسية في الدنيا فإنها ستظهر، كقساوة القلب وضَعف الإيمان والجُرأة على المعاصي وكذلك الأمراض القلبية والبدنية، فمثلاً لو أنني شربت الخمر ظنّاً مني أنه ماء، فلن أعاقب، إلّا أنني سأُصبح سكراناً، وربما كان ذلك السكر كافياً لإتلاف نفسي ومالي أو ارتكاب معاصٍ أخرى. وحكم المنتوجات الأجنبية كحكم الخمر، الذي يُتصور أنه ماء مباح، وكذلك الذهاب إلى البلدان الأجنبية.

كلا العين والقلب متألّمان وكلّما رأت العين تذكّر القلب

وعندما يكون المال كثيراً في الكيس اشتهى القلب القمار أو ارتكاب الفحشاء أو قتل إنسان أحياناً و. . . و. . . و. . . إلى ما لا حصر له من الأهواء والرغبات النفسية، حيث توسوس لك النفس، وإن لم يكن لك المال الكثير فهناك دكاكين التجار، ولا يكلفك الأمر أكثر من أن تنقب سقف الدكان، وأما الحارس الليلي

---

(١) هي اللغة المعمّاة التي ذكر لنا المؤلف نموذجاً منها آنفاً.

فهو إنسان من جنسنا نتفق معه أو أن نتفق مع الحاكم وننكر في المحكمة، ولا يتطلب الأمر سوى قَسَمٍ نؤديه يتلاشى في الهواء بعد خروجه من الفم.

اصنع خنجراً جديداً من الفولاذ وافقأ به عينك ليتحرّر القلب

بل إن الأرض والسماء قد تغيرتا، وإلّا فما الذي حدث كي يقل محصولنا عما كان عليه في السنوات الماضية، فبعد أن كان أقل ما يأتينا منه هو عشرة أحمال وفي أغلب السنوات يصل إلى ثلاثين حملاً، أصبح يتراوح ما بين مئة منّ إلى حملين اثنين فقط، فالأرض هي تلك الأرض والسماء هي تلك السماء، وكذلك الهواء والسحاب والضباب والشمس والفلك، فما الذي حصل لمنتوجنا الزراعي؟

سمعت أن أحد المعصومين عليه السلام قال: لكل ملك حمى، وحمى الله المعاصي[1]، والشبهات أطراف ذلك الحمى، فمن ترك نعجته ترعى قرب الحمى فإنها ستدخل إلى الحمى تدريجياً، ومن الشبهات، جميع المنتوجات الأجنبية التي تحتمل فيها شبهة الحرمة والنجاسة ويعتبرها عامة المسلمين ـ بحسب ما ورد عن أئمتهم ـ طاهرة وحلالاً، أي أن الله لن يُدخلهم إلى جهنم لاستعمالهم إياها، إلّا أنها تكون سبباً للوقوع في الحرام الصريح والدخول إلى الحمى الذي نهى الله عن دخوله وتكون بالتالي سبباً لدخول النار.

وكنت أنهمك ـ بعد الانتهاء من الحصاد ـ بدرس الأحمال لعزل الحبوب عن القش. ولم يكن في تلك المرحلة ما يضايقني، إذ إن جانباً من العمل يكون بيد الله، فحينما يكون الهواء رطباً لا يمكن درس الحبوب، وعند تذريتها يجب أن تكون الريح شمالية فقط وإلّا ذهب القش هباء. وكانت الريح تؤاتي أحياناً ولا تؤاتي في أخرى، ولذلك كان العمل مريحاً على الرغم من وجود أعمال أخرى في البساتين من قبيل حصاد البرسيم والريّ، وفتح الماء على الألواح المهيئة للزراعة في السنة القادمة، إلّا أن ذلك كان مدعاة للتنويع في الأعمال، مما يوجب الترويح عن النفس التي تملّ من تكرار العمل الواحد.

---

(١) في لسان العرب: (حمى) الحِمى: موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يُرعى.

وكانت الفاكهة ـ من قبيل العنب والبطيخ ـ قريبة من البيدر والطريق إلى البيت قريبة أيضاً.

وعلى أي حال فقد كان العمل في البيدر والريّ ملائماً لي جداً، إذ كنت نشطاً غير تعب، وكنت أوزع الماء على تلك الأرض الواقعة على السفح المنحدر للجبل، بحيث كان يصل إلى كل جزء منها ما يكفيه، فلا ينجرف ترابها ولا يذهب شيء من الماء هدراً، حتى أنك لو وقفت ونظرت عكس اتجاه الشمس وتطلعت إلى الأرض لرأيت الماء في كل أرجائها يتلألأ على ارتفاع شبر وأربع أصابع بالتساوي، كمحموم تصبّب عرقاً من رأسه حتى قدمه، كل ذلك من مهارتي في العمل. وكنت أستريح بعد ذلك، وأجلس لتناول طعام الغداء المكوّن من الخبز واللبن الرائب أو البطيخ، في ذلك الجوّ البديع والهواء النقي، ثُم آخذ بعدها الخراف التي كنا نسمّنها لفصل الشتاء للاستفادة من لحمها، حيث أصطحبها لوحدها مع خرافها الصغيرة وبعض من هو قريب منها إلى البساتين وحقول البرسيم لتعتلف، أما في الليالي فكنا نُعطيها الشعير وأغصان الصفصاف التي كنتُ أكسرها وأجعلها حزماً وأعلقها بالحبل كي تأكل منها حتى الصباح متى شاءت.

وحدث مرة أن ذهبت لأجل تهيئة العشاء لتلك الخراف حاملاً معي المنجل المربوط إلى خشبة طويلة لغرض قطع الأغصان التي لا تصلها يدي، وتسلّقت أحد أشجار الصفصاف حاملاً تلك الخشبة، فوضعت طرفها الأسفل على جذع الشجرة وأسندت طرفها الأعلى إلى أحد الأغصان الدقيقة للصفصافة كي أصعد عليها إلى الأغصان العالية وأقطعها، ولكن ما إن تسلقت حتى انزلق طرف العصا الأسفل عن جذع الشجرة وهويت معه إلى الأرض التي قبل أن أصلها نشب المنجل المربوط برأس الخشبة ـ والذي أصلحت أسنانه تواً ولم يمسّ خشبة بعد ـ بأصابع قدمي الخمسة من أصولها وأخذ في قطعها، وإلى أن استطعت فكاك قدمي منه، كانت تلك الخشبة المعلقة في الهواء قد أرجحتني يميناً وشمالاً عدة مرات، وقد بلغ المنجل آنذاك عظام قدمي بل نفذ إليها، فأمسكت بالمنجل ونزلت، وقبل أن ألتفت إلى قدمي، أحسست برغبة في الانتقام من هذا المنجل، وطرأت فكرة القصاص على ذهني، فبحثت حتى حصلت على قطعة من الحجر ثقيلة، فجلست وأمررت ذلك الحجر على أسنان المنجل، وكنت حريصاً آنذاك

على أن لا يُفلت أي سنّ من أسنانه فأتممت بريها جميعاً حتى كأنه لم يكن فيه أسنان البتة.

تطلعت بعد ذلك إلى قدمي التي كان الدم النازف منها يسيل على الأرض، ولم يكن بيني وبين المنزل سوى مئتي قدم، فركضت باتجاهه حيث ضمّدت أمي جراحي، إلّا أنني لم أذق طعم النوم ليومين كاملين وبقيت لا أستطيع المشي بصورة طبيعية لما يقرب من شهر حتى شفيت تدريجياً.

وفي عام **١٣٠٥**، عندما كنت في العاشرة من عمري وكنت سئمت من الكُتّاب، وكنت أكثر ميلاً إلى العمل في المزرعة على ما فيه من مشقات تفوق طاقتي وبليات متعددة، قلت لأبي: إنني قد تعلمت القراءة والكتابة بالفارسية بقدر كافٍ، إضافة إلى أشياء أخرى لا تنفع في القرية أكثر من ذلك، وأنتَ وحيد في عملك، وأنا بحمد الله غير كسول وخفيف الحركة وبحكم طبيعتي لا أستطيع أن أترك العمل الذي بدأته ناقصاً، وسوف أستقل بجميع الأعمال بعد ثلاث أو أربع سنوات وحينها ستستريح من العمل. والأمر الآخر أن ذهابي إلى الكتاب يتطلب منّي أن أدرس بالعربية، وليس عندي كتاب بالعربية، أما زميلي فلان الذي يدرس العربية فقد استعار كتابه من أبيه وهو يقول إن الكتاب ثمين جداً وقيمته حوالي خمسة قرانات، وهو ما يعادل قيمة خروف مسمن في الربيع ليُذبح في فصل الشتاء ويؤكل لحمه طيلة ستة أشهر. فلم يُصغ والدي لذلك وأرسل بيد أحدهم أربعة قرانات إلى قوچان فاشترى لي كتاب **جامع المقدمات**، فأخذته وذهبت إلى الكتّاب. فابتدأ الشيخ قائلاً: اعلم أن المصدر هو أصل الكلام وينقسم إلى تسعة أبواب، يتفرع من كل منها أربع عشرة صيغة. فقلت له: ما هو المصدر في الفارسية التي درستها وما هو أصل الكلام فيها، وهل لجميع أنواع الكلام مصدر واحد أم أن لكل طائفة مصدراً خاصاً؟ فقال: اسكت أيها الغلام، فسكتُّ.

وكان لي زميل في الدرس من إحدى القرى الكردية، ولم يكن يتقن الفارسية، فكنت أقول: طريف جداً أن ندرس العربية في تلك القرية الكردية، ومهما يكن فأنا أعلى رتبة من أبي الذي لم يدرس العربية، ولن يستطيع بعد الآن أن يتعالى

علي كما في السابق، إذ حتى لو كان قد قرأ **النصاب** فأنا قد قرأته أيضاً، وعندما يسألني عن نسب أوزان الفلزّات إلى بعضها كنت أقرأ:

ذهب، زئبق، سرب، رصاص، فضة، زاج.

وأنا الآن لا أسأله كما كنت فيما مضى عن البروج الاثني عشر ليجيبني على الفور: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، بل أسأله عن تصريف الفعل (ضَرَبَ) فيحار.

انتهى الشتاء وعدنا أيضاً إلى عملنا على نحو ما سبق. وفي الشتاء الثاني درسنا (صرف مير) إلى باب (قال). وفي الشتاء الثالث وجدنا أننا قد نسينا ما قرأناه، فقضينا أكثر من شهر في المراجعة، عرفنا بعدها أن الأستاذ أيضاً لم يكن يعرف ما بعد باب (قال)، فتداولنا معه في بعض الأبواب الأخرى، مثل (دعا) و(رمى)، وبعد أن انتهينا منها جاء العيد فتحرّرنا، لنقضي بعدها ـ كما جرت العادة ـ شهراً في اللعب والرياضة، ثم انشغلنا بعدها بالأعمال المقررة في الزراعة والبساتين ورعي الأغنام، وكنت أُكثر من التصاقي بالعمل وأداء الأعمال الكبيرة لسببين: الأول رغبتي في العمل، والآخر لإقناع والدي بإعفائي من الذهاب إلى الكتّاب.

كان والدي يكلّفني بالأعمال الشاقة مستنداً إلى قاعدة تقول إن الطفل يجب أن يشبّ كادحاً جلداً كي يكوّن نفسه، وإلّا نشأ مدللاً لينتهي إلى الكسل والخمول ويصبح بعدها عديم الأهمية. وحدث أن مرض أحد الشيوخ من فلّاحينا مرضاً شديداً، وعندما كان الكبار يسألونه عن سبب مرضه، كان يقول ليس هنالك من سبب، سوى أني ذهبت ليلاً إلى مخزن العلف التابع للسيد لأجلب منه شيئاً للثيران، فرأيت جنّياً قبيح الشكل يضرب كفيه ببعضهما ويشير إلي بهما وهو يضحك مكشّراً عن أسنانه القبيحة أيضاً، فخفت ومرضت.

وعلى أثر تلك الحادثة كان والدي في الليالي التالية يقف في باب مخزن العلف ويطلب إليّ أن أملأ سلةً منه ليضعها أمام الثيران، ولما كنت قد سمعت بخبر تلك الحادثة فقد كنت أفعل ذلك وأنا مليء بالمخاوف. وكان هدفه من ذلك تثبيت قلبي، وإلّا فإنه لم يكن يخشى حتى الثعابين.

وحدث مرة في شهر رمضان وكان الوقت صيفاً وكنت صائماً وعمري آنذاك يزيد على الحادية عشرة ـ وكنا نُمنّى نحن الأطفال الصائمين بهدية في المساء ـ وعندما لم يبق من الغروب الذي كنت أنتظره إلّا ساعة قال لي أبي: إن نوبتنا في السقي ستكون غداً، فاحمل المسحاة واذهب إلى المزرعة الفلانية واغلق حوض الماء الذي هناك، واغلق الفتحة الفلانية أيضاً، فذهبت وعدت إلى المنزل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ومع أنّ شرب الشاي لم يكن مألوفاً آنذاك، فقد رأيته قد وضع لي الشاي، وهو نادم على إرسالي لوحدي في ذلك الوقت للعمل.

عندما طلب إلي العودة إلى الكتّاب في بداية الشتاء قلت: ما فائدة الكتّاب، وأنا أؤدي لك ألف عمل هي أفضل من معرفتي أنَّ (ضرب) هي أصل (الضرب)، وإذا حذفنا (أل) المصدرية ووضعنا فتحة على (عين الفعل) و(لامه) أي حركناه فسيصبح (ضَرَب)، هكذا فعل علماء الصرف وهكذا فعلنا بدورنا، فمتى وأين فعل علماء الصرف ذلك؟ ترى هل كانوا موجودين قبل أن يُخلق (يعرب بن قحطان) وبنوا قواعد هذه الألفاظ ووضعوها كلقيمات الخبز في أفواه أولادهم؟ إنّ الكلمات لا تختلف عن بعضها إلّا في كوننا نبني (زد) من (زدن)[١] بعد حذف النون المصدرية وتسكين حرف الدال، وهل قمت أنت بنفسك بهذا العمل أو استخرجت (مي زند) من (زد) إذ إن (مي زند) كانت في الأصل (زد) فأضفت إليها (مي) التي هي علامة الاستقبال، ووضعت نوناً مفتوحة بين الزاي والدال فأصبحت (مي زند)، وهل سمعت أن أحداً من شيوخ القدماء فعل هذا؟ وعلى فرض أنه فعل فهل أن تقليده واجب علينا، وهو الذي لم يفعل ذلك إلّا لكونه عاطلاً عن العمل؟ وإن كان هو عاطلاً عن العمل، فإن لدينا ألف عمل، وإن كان مجنوناً فنحن نعلّم ألف عاقل، وعليه فإن علماء الصرف لم يفعلوا هذا، كما أننا لا نريد إضاعة أعمارنا ولن نفعل ذلك، ومتى شئنا فإننا نستطيع أن نقول (ضرب) و(يضرب) و(ضارب) بنفس السهولة التي نأكل فيها الرز المحمّص الذي في قعر القدر، حيث إنه يتحول بعد المضغ الطويل إلى الرز المعهود، وأنا أفضّل أن آكل

---

(١) (زد) بالفارسية تعني ضَرَبَ. و(زدن) تعني الضَّرْب أي المصدر.

الرز منذ البداية. ترى هل يعقل أن نقول إن أحدهم فعل هذا فنحن أيضاً نفعله؟ ولو أن أحدهم أكل «خـ. . .» فلا ينبغي لنا أن نقلّده أياً كان وخاصة في الأعمال المالية، فإن لنا عقلاً ويجب أن نتبع حكمه والسلام.

قال والدي: ما هذا الهراء؟ لو كان الكلام الذي في هذا الكتاب بالشكل الذي تقول، لما أنفق الرجل ما يقارب الثلاثمائة تومان ليطبع هذا الكتاب، ولو لم يكن صحيحاً وحقّاً لما تحمّل لأجله المشقّات، ثم إنّ هذه المواضيع لو كانت عديمة الجدوى بهذا الشكل لما كانت موضع اهتمام عامة الطلاب والعلماء. فقلت إنّ طباعة الكتاب وإثارته لاهتمام أولي الألباب ليس دليلاً على كونه حقّاً، وإلّا فكتب الضلال التي تُطبع على ورق أنيق ينبغي أن تكون حقاً بل أكثر أحقية. وقد قلتَ: إنه لا ينبغي تقليد أيٍّ كان وإنما الأعلم العادل، والتقليد إنما يقع في فروع الدين وليس في أصوله، وهذه ـ تكوين صيغ الأفعال والمصادر بالشكل المتعارف عليه ـ ليست من أصول الدين أو فروعه، وليست من الأخلاق الحميدة، فأنا منذ أن أصبحت قارئاً للعربية وتعلمت هذه الأباطيل ملأت رأسي العنجهية بحيث أصبحت لا أعتبر أياً من أهالي هذه القرية آدمياً، بل إنني درست في العام الماضي بعض المواضيع الغامضة التي أعترف الأستاذ نفسه بأنه لا يعرفها، وقد شرحت بعضها على قدر فهمي لها بالتداول معه. ومع أن شيوخ الكتاب يرون أنفسهم في مستوى أعلى من العرش، ولا يطيقون رؤية النجوم فوق رؤوسهم خصوصاً أمام الطلاب حيث تقتضي سياستهم ذلك، إلّا أنهم استسلموا أمامي واعترفوا بجهلهم، مما زاد في غروري وتكبّري وجعلني أردّ على كلامك يا والدي، وأنا في خدمتك، وقد ذكرت مصدر كل ذلك، وإلّا متى وأين كنت أجرؤ على الكلام أمامكم وأكون عديم الحياء هكذا؟ وأضيف أنني لو تعلمت أكثر من هذه العلوم البالية فإنني أخشى أن أصل إلى مرحلة عقوق الوالدين التي هي داء عضال، وما دمت لم أبلغ ما هو أسوأ، أستحلفك بالله أن تعفيني من الذهاب إلى الكتّاب. وبغض النظر عن هذا فما الذي سأتعلمه؟ معلوم أن مادة الألفاظ الواضحة المعلومة بالحسّ والعيان نفسية تتحول في رئة الإنسان إلى صوت يمرّ في قصبة الحنجرة ويصطدم بمخارج الحروف ويتقطع ويظهر بكيفيات مختلفة

يسمّى كل صوت منها حرفاً من حروف الهجاء، وأن الألفاظ تتركب من الحروف، إذاً الأصل والمادة المكونة له لفظياً بغض النظر عن كونه مصدراً أو غير ذلك هي حروف تهجٍّ في عرض واحد، ومادة الحروف هي الصوت ملفوظاً بطريقة خاصة، ومادة الصوت النفَس، والنَّفَس من ضروريات الحياة للإنسان، هذا هو الحق والصواب، فلنسلّم جدلاً ونعترف بوجود مجمع علماء الصرف الذي لم يكن له وجود في العالم، ثم جاؤوا وقرروا حسب آرائهم أن (الضَّرْبَ) كانت في الأصل (ضَرَبَ) وأن (مضروب) كان أصلها (يُضرب) مجهولاً ويجب أن تشتق منه، وقلت أنا الآن عكس ذلك أي أن (ضَرَبْتُ) يجب اشتقاقها من (ضرباً) و(يضرب) من (مضروب) فلماذا الترجيح بلا مرجح؟

قال والدي: لا تتكلم أكثر من هذا، فلن أصغي إليك أبداً، وكما تقول أنت فإنك أصبحت وقحاً وعديم الحياء، فهل أن جميع العلماء والفضلاء لا يفقهون وأنت وحدك الفهّامة أيها الجحش؟ يجب أن تذهب إلى الكتّاب، لقد تعودت على اللعب واللهو. فأجبت: إلى أي كتّاب أذهب؟ لقد قلت إن الأستاذ لا يعرف أكثر من هذا. فقال: جئني بكتابك لأنظر كم قرأت. وعندما جئته به قلّبت الأوراق من أول شرح الأمثلة حتى باب (قال) فكان عدد الأوراق **١٠ ـ ١٢** ورقة، وقلت: إلى هنا قرأت، فأحصى هو بقية أوراق الكتاب حتى نهايته، وغرق في التفكير، ثم قسم القرانات الأربعة ثمن الكتاب على عدد أوراق الكتاب فوجد أنه لم يُستفد سوى من عُشر القرانات الأربعة، وأن البقية ستذهب هدراً، فأمرني أن أحضر النارجيلة وبدأ يفكر.

شعرت بالسرور لأنني سأتحرر من هذا الكتاب والسجن المظلم، وهيأت النارجيلة ووضعتها أمامه بكل أدب وجلست أنتظر ماذا سيقول، بينما بدا عليه أنه هو أيضاً كان يفكر فيما سيقوله.

وبعد لحظات قال: يجب أن تذهب إلى المدرسة وتكمل قراءة هذا الكتاب الذي دفعت فيه أربعة قرانات ولم يقرأ منه شيء يذكر حتى الآن، بل إن الكتب الجيدة منه لم تُقرأ، لأنني عرفت أن هذا الكتاب هو عبارة عن خمسة أو ستة كتب ألصقت إلى بعضها، ويبدو أنه كتاب جيد يستحق القرانات الأربعة بشرط أن

يُقرأ، وفي قول الأستاذ أنه لا يعرف أكثر من هذا دليل على أن علوماً خارقة قد كتبت فيه، وأن عدم الانتفاع من هذه الكتب التي وضعت بين دفتيه هو خسارة لا تُحتمل للقرانات الأربعة، لذا يجب أن تذهب إلى المدرسة.

فكرت مع نفسي، لقد كان همّي واحداً وهو الغربة والسجن المظلم، فأصبح اثنين، فلم أشكر الله، فصارت ثلاثة.

انتفضت بشدة في وجه والدي قائلاً: هل كان أبوك قد ذهب إلى المدرسة أم جدك أم أنت كي أرقص أنا على نغماتكم؟ ما هذا الحمل الثقيل الذي تحملني إياه يا أبي المزارع الوحيد؟ بينما أتعهد أنا لك أن أقوم بكل أعمالك طيلة حياتي وبمنتهى السرور وكل الحرص، تتمنّع عليّ؟ فكم من الناس من يتحسر على ابن مثلي، اشكر هذه النعمة واسترح من العمل، وإن شئت فاشتغل بالعبادة، فلو لم أكن موجوداً لما حصلت على نصف هذا المحصول، ترى هل أن الفلاح أو الحاصد الغريب أكثر حرصاً مني على أعمالك؟ إنّ راحتك ورفاهيتك منوطتان بوجودي، وأنا لا أريد الذهاب إلى المدرسة، أريدك أن تُخرج صورة المدرسة ـ التي لا نفع لك فيها ـ من ذهني.

ردّ أبي قائلاً: كُن مطمئناً من جانبي، فأنا لست ممن يلهث وراء الراحة، ولست عديم الحياء لأرى الراحة في الكسل، كما أحب أن أنجز كل أعمالي بيدي، وإذا حدث أن رأيتني أجلس وأرسلك إلى العمل، فإنما أريد أن أجعلك مثلي تعتاد تحمل الصعاب والكدح، وليس لأنني لم أوفق في المدرسة وأريد أن تحقق لي أمنيتي، بل إنني أرى نفسي فيك وأريدك أن تذهب إلى المدرسة.

أجبت: إن لم تكن حريصاً على راحتك، فاحرص عليّ أنا الذي تعلم أنت علم اليقين بأنني عليل المزاج وضعيف البنية وتؤثر في نفسي أصغر الأشياء، وقليل الأكل بطبعي وليست لي رغبة في لذائذ الطعام، وإن لم تكن تعلم هذا من قبل، فاعلم أن قطعة الخبز التي كنت آخذها معي إلى المزرعة كنت أعيدها عند المساء وهي كسر يابسة وأُعطيها لأمي، أو كنت أعطيها لحَمَل أو جحش، ولم أكن حتى لأذوقها، وأن حياتي وصحتي مرهونتان ـ على الرغم من تلك المشقات ـ بالرياضة والهواء النقي والماء العذب ورؤية الجبال والأعشاب، وبهذه الخراف وسماع غنائها وشدو البلابل. إنك لا تعلم مدى اللذة التي أحصل عليها من

اصطحابي الأغنام إلى المرعى وإيابي منه، واستماعي إلى أصواتها المختلفة وكيف آنس بها، بل إننا نفهم رغبات بعضنا حتى كأنني أعرف لغاتها وتعرف هي لغتي، فلو حُبست هناك في سجن مظلم، فستكون هناك الآلاف من الأشياء التي تسليني، وتكون سبباً لاستمراري حياً معافًى، بينما لو ذهبت إلى المدرسة، التي هي أسوأ ألف مرة من الكتّاب حيث لا يوجد فيها أيّ من مقتضيات حياتي، فسأكون غريباً في المدرسة، غريباً في البيت، غريباً في المدينة، غريباً في الأزقة، فلا مؤنس ولا أنيس.

تطلعت إلى البحر فازددت رعباً   وحين نظرتُ الصحراء ازددت خوفا

حيثما نظرت رأيت الجبال والوديان والسهول   وليس من أنيس يكون معي

ليس لي أمل في البقاء

قال والدي: سآخذك معي، ففي الليل تستطيع المبيت في بيت فلان وهو صديق غادرَ قريتنا حديثاً وسكن المدينة، وفي النهار تقيم في حجرة فلان طالب الحوزة، وهو من قريتنا أيضاً، فاذهب إلى هذين المكانين وتعرّف إليهما. وعلى فرض أن الإحساس بالغربة سيتملكك فإنه سيكون مؤقتاً وستألف وضعك الجديد بسرعة، وإذا افترضنا أنك لن تألفه فإنك ستُنهي هذا الكتاب بأسره في سنة أو سنتين وتغادر المدرسة عائداً إلينا.

بعد عدة أيام ـ وكان عمري آنذاك ثلاثة عشر عاماً ـ جاء بي أبي على بغل مع قليل من اللوازم إلى مدينة قوچان ودخلنا منزل أحد المعارف، وهو الذي قال أبي إنه هاجر حديثاً من القلعة إلى المدينة. وفي النهار ذهبنا إلى المدرسة حيث حجرة ذلك الذي هاجر من قريتنا أيضاً، فرحّب بنا وأظهر البشاشة، وهناك طلب أبي أن يحضر الدرس هو أيضاً، ثم قال لي بعد أن رأى الدرس: ادرس جيداً لتصبح عالم دين وسأقوم بتوفير كل أنواع ما تحتاجه من خدمات.

فاستأذنت من أبي الذي كان يدخن النارجيلة في أن أذهب إلى المدرسة وأنتظره هناك.

كانت غرفة ذلك السيد في الجهة الشرقية من الطابق العلوي، ونزلت إلى أسفل فلاحظت أن في المدرسة تسعاً وعشرين غرفة موزعة على الطابقين وعلى

جانبي الباب الرئيس لها، إضافة إلى غرفة واحدة تقع في ممر المدرسة. وحين تأملت في بناء وهندسة المدرسة التي لم أكن قد شاهدتها من قبل، لم تجد لها مكاناً في قلبي، فقلت: لا بدّ أن شرف المكان بالمكين، وانتحيت جانباً وأنا أراقب أوضاع الطلاب وأساتذتهم، فرأيت أحد أولئك الأساتذة يتوضأ، فكان أول ما عمله أنه حمل ماء بكفه وألقاه بسرعة على وجهه، ثم أدخل إصبعه عدة مرات في أنفه وأخرجه ونظر إليه، انتقل بعدها إلى المنخر الثاني، فقلت ربما كان في أنفه دم، فنحن لا نتوضأ هكذا. وأعمال الأساتذة هي درس لنا أيضاً. ثم رفع عمامته حتى وصلت قمة رأسه، وألقى على رأسه ماء، وكرر ذلك أربع أو خمس مرات، حتى بلغ لحيته فدهشت وتساءلت مع نفسي لماذا ابتدأ بالغسل من منتصف رأسه ولم يكتفِ بغسل ما بين منبت الشعر إلى اللحية؟ ولماذا أهرق كل هذا الماء ولم يكتفِ بكفّ واحد منه؟ إن ذلك لم يُذكر في **الرسالة العملية**. فسألت أحد الطلاب القريبين منّي وكان منشغلاً بمطالعة كتابه: لماذا يلقي هذا الأستاذ بكل هذا القدر من الماء على رأسه ووجهه؟ لقد كتب في **الرسالة العملية** إن كفاً واحدة من الماء تكفي لغسل الوجه من منبت شعر الرأس حتى اللحية، فقال إن هذا يُسمى الإسباغ[١]، فقلت وما الإسباغ؟ فقال: لا يبدو عليك أنك لا تعرفه. فقلت: ماذا تقرأ؟ قال: كتاب **العوامل**[٢]. والعوامل في اللغة هي الثيران العاملة، فأخذني الضحك وقلت له: أنت إذاً تقرأ كتاب الثيران العاملة. فانزعج ولم يقل شيئاً.

ورأيت طالباً آخر وهو يدير ناراً حول رأسه في غرفته كما كنا نفعل في قلعتنا بعد أن نشعلها ونلعب حولها[٣] فسألت: لماذا يفعل هكذا وفي أي شيء وضع تلك النار؟ فقال: لقد وضع الفحم وسط شبك من الأسلاك الرقيقة وهو يديره كي يحترق الفحم جيداً ويحمر ويكون جاهزاً لرأس النارجيلة. ثم قال: يبدو أنك قد

---

(١) الإسباغ هو الإتيان بالوضوء مع الأعمال المستحبة التي تترافق معه. (ش).
(٢) من كتب النحو المعتبرة تأليف عبد القاهر الجرجاني.
(٣) من التقاليد الشعبية القديمة في إيران أنه بعد انتهاء شدة فصل الشتاء يشعلون ناراً ويلعبون حولها. (ش).

جئت من رأس الجبل ولم تعش بين الآدميين. قلت: الأمر كذلك، فأنا لم أقرأ كتاب **الثيران العاملة** بعد. ثم سألته عن مرحاض المدرسة، فأشار إلى إحدى الزوايا، فذهبت لأجد طريقاً طويلاً شديد القذارة وتفوح منه العفونة. وما أن قطعت حوالي عشرين قدماً حتى وجدت أربع أو خمس حفر للبول كان فوقها سقف. وكانت جميع أطرافها قذرة جداً، فخرجت وجئت إلى وسط المدرسة لأسمع مشادّة كلامية حادة تنطلق من إحدى الغُرف السُّفلى، وقد أوشك المتنازعون أن يضرب بعضهم الآخر، فسألت عما بهم، فقيل: إنهم في مناقشة علمية. فقلت: هذا حسن، فقد عرفت معنى المناقشة العلمية التي لا تختلف عن غيرها من المعارك سوى في طريقة الضرب، حيث يضربون هناك بعضهم البعض بالعصا على الرأس، وهنا يضربون بأيديهم على الكتاب والأرض، إلّا أنّ الصياح والسّباب لا يختلفان مطلقاً.

وفجأة دخل المدرسة رجل وقور له لحية كبيرة وعمامة كبيرة أيضاً، يرتدي عباءة جديدة وجوارب رقيقة وحذاء أسفله ملوّن وجميل الشكل، فاحترمه الأشخاص الذين كانوا في طريقه، فسألت: من يكون هذا الرجل؟ فقالوا: إنه الملّا عبد الوهاب المايواني، وهو خبير بعلوم الدين، قد عينه شجاع الدولة الأمير حسين خان[١] مدرساً في هذه المدرسة، وهو منجّمه، ومن طلاب الملّا هادي السبزواري[٢].

ثم نزل أبي من غرفة السيد أستاذي، وأشار إليّ بأننا سنذهب، واتجهنا نحو البيت فسألني: لماذا نزلت؟ قلت: لأتفحص بعين المشتري وضع المدرسة وأهلها. فسألني: هل أعجبتك؟ قلت: لم تعجبني حتى الآن، وإنّ مثلي فيها هو مثل الغزال الذي جاء به الصياد إلى حظيرة الحمير والثيران فحبسه فيها، وهو خائف أشد الخوف إلى الحين الذي يألف فيه المكان. فقال: ستألفه سريعاً، ولن

---

(١) قال عنه جورج كرزن الذي زار إيران في ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ حين التقى به في قوچان: «رجل عاطل وطالب شهرة ولا نهاية لغروره. . . وأشهر ما عُرف به بين الكتاب الإنجليز الذين ذكروه هو إدمانه لشرب الخمر» انظر إيران وقضية إيران، الطبعة الفارسية ١: ص١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) من العلماء والفلاسفة الكبار في عصره. ولد عام ١٢١٢ وتوفي عام ١٢٨٩ هـ. أشهر مؤلفاته منظومته في المنطق والحكمة وهي باللغة العربية وسترد الإشارة إليها كثيراً في هذا الكتاب باسم المنظومة.

تؤثر عليك الغربة، خاصة وأنني قد أكدت على أستاذك أن يهتمّ بك، أما عن تعرّفك إلى أهل الدار، فمع أن بيته مثل بيتنا وأولاده جميعاً من ذوي الشفقة والرحمة والمحبة، إلّا أنني سأكرر عليه وصيتي بك للتأكيد.

قلت: إن البيت وأهله ليسوا على ذلك القدر من الأهمية، فمهما يكن من أمر فإنهم جاؤوا لتوّهم من القرية، وأنا آلفهم وسأكون حراً بينهم، إلّا أن قلبي غير مطمئن لذلك السيد الأستاذ حيث استنتجت من رؤيتي لوضع حجرته ونظافة فراشه وأثاثه وهيئة ملابسه وطريقة كلامه وتقطيب وجهه أنّ وجودي في حجرته وكوني طالباً عنده سيسلبني كل حريتي، حتى إنني لن أكون مرتبطاً بما يقتضيه وضعي كإنسان. فألف رحمة على ذلك الكتّاب الذي كان في نظري سجناً مظلماً إذ كانت فيه بعض الحرية إضافة إلى أن الأستاذ كان يراقب فيه أكثر من سبعين طالباً، حيث يكون نصيب كل واحد منهم من مراقبته قليلاً، أما أستاذي الجديد هذا الذي أحاط نفسه من الداخل والخارج بكل هذه القيود، فسيركز انتباهه عليّ لوحدي، علاوة على أغلال المجتمع التي ستلتفُّ على عنقي، ومع كل ذلك، أين ومتى يمكن لقريحتي وذهني أن يتفتّحا لروحي أن تنشط وأعي المقصود بالتّرقي والتطور؟ بعبارة أخرى إنني سأركز انتباهي وأنا في حضور هذا الشخص على صيانة نفسي من سيف ملامته وهراوة أسئلته، ولن تتاح لي فرصة أبدي فيها رأيي أو أفكر في هدفي والانشغال في درسي. وإن نصف الساعة التي نزلت فيها إلى الطابق الأسفل كانت ثقيلة علي، وهي نصف ساعة فقط، وإذا كنت قد تقبّلت شيئاً من المدرسة، فإنما هو تلك الحرية التي تجعل كل طالب من طلبتها مشغولاً بنفسه ودرسه، هذه الحرية التي سأفتقدها في غرفة السيد.

قال أبي: أنت على خطأ، فالأمر ليس كذلك. ثم تطلّع إليّ وابتسم برضا.

قلت: أنت تختلف عني، ولن أستطيع أن أُفهمك كيف سيكون مستقبلي ها هنا، ولكن كل ما هو مقدّر واقع لا محالة.

عندما تكون بين مخالب الأسد المفترس فأيّ ملجأ لك سوى الاستسلام والرضا؟

قال لي: أنت تكثر من الكلام عن الحرية، وذلك ليس محموداً أيضاً، إذ حين يكون الطفل طليقاً متسكعاً فسيصبح لصاً محتالاً، وإن تكرارك الحديث عن الحرية حديث صبياني، فقد قيل: إن الميت لو تُرك وشأنه للوّث كفنه.

قلت: أنا لا أستطيع إفهامك، نعم لا ينبغي أن يكون اللص المحتال طليقاً، أما الإنسان الذي يريد سلوك طريق صالح فيه خيره وخير الآخرين، فلا يجوز تكبيله بالأصفاد والقيود، بل يجب أن يكون حرّاً. والبغل الحَرون والكلْب الكلِبُ يجب أن يُقيّدا، ولكن هل يُعقل أن يسجن البغل الذي يُجهّز للسفر؟ أو أن يُقيد الكلب المعيّن لحراسة القطيع ويوضع في آخر القطيع لكي يجيء الذئب ويأكل الغنم؟ إنّ ما أقوله هو أن العقل يحب أن يكون حراً ملكاً في تفكيره لمعرفة الحق والصواب، وأما خدام العقل كاللسان والقلم واليد والرجل وغيرها فيجب أن تكون حرة أيضاً لكي تنفذ ما فهمه العقل، والسلام.

قال: ابقَ الآن لأنظر ماذا سيحدث، ولمّا كنت قد رجوته ووافق هو على ذلك، لم أرَ مناسباً أن أطلب شيئاً آخر.

أما قريبنا الذي كان بيته قرب البوابة السُّفلى التي على جانب الطريق المتّجه إلى القلعة، فقد أجّر نصف البيت بعد أن باع سهماً له في ذلك بالقرية بما يعادل مئتي تومان، وكان له أخ استثمر رأس ماله في دكان لبيع العلف قرب الميدان الكبير، ولم يمضِ على إقامتهما في مدينة قوچان أكثر من شهرين أو ثلاثة، أما النصف الثاني من البيت فقد كان يسكنه مالكه.

عند الصباح غادر أبي منزل ذلك الشخص الذي كان مقرراً أن أبيت عنده في الليالي، بعد أن أوصاه بي خيراً، وعاد إلى القلعة، وقد ذهبت لتوديعه حتى بوابة المدينة. وتحت شجرة على جانب الطريق ربط أبي البغل، وعندها سألته: ما الذي يدور في خلدك؟ أتنوي إبقائي في المدرسة سنة أو سنتين، أم أظل أدرس بها حتى النهاية كي أُصبح عالماً كالعالم الذي هو في قوچان مثلاً؟

قال: وماذا تريد أن تقول بعد ذلك؟

قلت: مهما يكن، فقد عقدت عزمي ـ شئت أم أبيتَ على أن أبقى هنا فترة، ولن آتي إلى القرية معك حتى لو كنتَ راضياً، ولكنني ـ وعلى فرض رضاي ـ أودّ معرفة رغبتك الحقيقية.

قال: بطبيعة الحال فإنّ رغبتي الأكيدة ـ إن كان ذلك ممكناً ـ هي أن تكون مثل الميرزا حسن الشيرازي[١] الموجود في سامراء ويقلّده المسلمون.

قلت: إنّ ذلك ليس ممكناً، فالمثل يقول: من السهل أن تكون عالماً، لكن ما أصعب أن تكون إنساناً. وأنا أقول إنه بمقدوري أن أصبح كالميرزا حسن، ولكن الصعب أن أكون مثله في الرئاسة والسياسة: إنّ مئات الآلاف من الأطفال قد ذُبحوا حتى أظهر الله كليمه موسى، وعلى الأقل فإنّ هناك مئات الآلاف من طلبة العلوم الدينية من الهند والسند وبخارى والقفقاس وإيران والعراق ومصر والشام قد عانوا ما عانوا إلى أن ظهر من بينهم الميرزا حسن وبلغ هذه الدرجة، ثم إنه قد أنفق ما يعادل حوالي عشرة أضعاف وزنه من مال أبيه حتى أصبح يُشار إليه بالبنان. ولو بعتَ حضرتك جميع ما تملك؛ فلن يبلغ وزن إحدى قدمي الصغيرتين، فمصاريف طالب العلم لا تقتصر على المأكل والملبس، إذ إن ذخائر العلماء هي آلاف الكتب، وأنت تنظر دائماً بعين واحدة:

ليس قلندرياً[٢] كل من لم يحلق رأسه فهناك الآلاف من الأسرار التي هي أدق من الشعرة

قال: إن لم تصبح الميرزا حسن فكن أقل درجة منه.

قلت: إنّ الذين هم أدنى درجة منه هم قسمان: إما أن يكون قد ورث مالاً من أبيه، أو أن أبويه يستطيعان توفير ما يحتاجه دون أن يبذل جهداً لسدّ احتياجاته، وهكذا يقضي عمره حتى النهاية سعيداً، وإما أن يكون معدماً. وأنا لست من الصنف الأول. وأما الصنف الثاني الذين لا يملكون مالاً وذهبوا فدرسوا إلى أن بلغوا الاجتهاد وعادوا فهم على نوعين: إما أن يكونوا ذوي قدرة بدنية على العمل والكدح في الزراعة لتحصيل معاشهم بالكسب الحلال وكدّ

---

(١) الميرزا محمد حسن الشيرازي: من علماء الشيعة الكبار توفي عام ١٣١٢ هـ بمدينة سامراء ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف. ارتبط اسمه بفتواه الشهيرة التي حرم فيها التدخين وتداول التبغ بعد أن أعطى ناصر الدين شاه حق احتكاره لشركة أجنبية. مما اضطر ناصر الدين شاه بعد ذلك إلى إلغاء العقد المذكور مع الشركة.

(٢) القلندرية: فرقة صوفية اشتهر أفرادها بكونهم يحلقون شعور رؤوسهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم وفي مقدمة ابن خلدون، ص٢٠٤ «كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية». انظر (يادداشتهاي قزويني) ٦: ص١٧٧.

اليمين دون أن يطمعوا بما في أيدي الناس، أو أن يكونوا فاقدين لتلك القدرة البدنية، وأنا أيضاً لست من الصنف الأول، والسنة المؤاتية تُعرف من ربيعها. فلو أنني لم آتِ إلى المدرسة وكنت من الآن مشغولاً في العمل الزراعي، فربما أصبحت أكثر نمواً وقوة، ولزال عنّي هذا الهزال والضعف بواسطة الرياضة في الهواء الطلق وراحة البال، بل أنا على يقين من ذلك، إضافة إلى أنك ستكون أكثر راحة بمرور الأيام. أما الآن وقد أتيت إلى المدرسة، فيتحتم عليّ الجلوس في مكان واحد، وبذلك لن يهضم الطعام في معدتي، وسأنكبّ على الدراسة حتى منتصف الليل، إضافة إلى حملي هم عدم فهمي للدرس من جهة، وهمي لكيفية تدبير معاشي من جهة أخرى، وسأكون بعيداً في قوچان دائماً وبعيداً عنك، كما لن تكون توصياتك المتكررة بي لعمرو وزيد ـ كما تظن ـ مجدية، ففي بلاد الغربة البعيدة هذه التي لا أنس لي فيها ولا معين، سأموت، وإن عشت فسيزداد هزالي وتضعف قوتي، ولن تكون لي بعدها القدرة على العمل في الزراعة وما إليها. وعلى فرض عودتي سالماً وصيرورتي مجتهداً، وامتلاء جعبة استعدادي من العلوم، إلّا أنني سأكون غير قادر على العمل، ومن المؤكد أنني لن أطمع بغيري، وأرى أن العلماء الذين يطمعون بما في أيدي الغير أو يظهرون الاحتياج إليه، قد وقعوا في الكفر أو هم على شفا حفرته، وذلك لن يكون منّي حتى الموت. وقد قرأت في كتاب **مئة كلمة** أن الإمام علياً قال: ذلّ من طمع ولن أرتضي الذل لنفسي أبداً، وحينها ستكون إما حيّاً وعاجزاً عن العمل، أو ميتاً لا سمح الله، فماذا سيفعل هذا الولد الذي جعلته بإرسالك إياه إلى المدرسة كالبنت العمياء الكسيحة؟

فقال: وهل أنّ الله سيكون ميتاً آنذاك؟

قلت: إنّ الله لم ولن يموت، لكن التواريخ تذكر أنّ الله قد أمات سبعين من أنبيائه جوعاً بين الصفا والمروة أو بين الركن والمقام، ولم يتأثر لذلك.

قال: إن كان مقدّراً لك أن تموت أنت أيضاً من الجوع، فإن مئة ألف دولة لن تمنع عنك ذلك، فاذهب ـ كما هو مقرر ـ إلى المدرسة نهاراً، وعند الغروب

إلى بيت قريبنا. فقلت: سمعاً وطاعة. ثم ودّعته بعد أن أخذت ذلك الكتاب الذي اشتراه أبي بأربعة قرانات، وتوكلت على الله، واتجهت إلى المدرسة حيث كان عمري ثلاثة عشر عاماً، وذلك في عام ١٣٠٨هـ.

خادم في المدرسة:

وصلت المدرسة فرأيت السيد الأستاذ وقد أمسك بيده مكنسة ينظف بها الغرفة التي كانت نظيفة، وربما وجد فيها شيئاً من غبار أو عيدان الثقاب وأمثال ذلك. قال لي: يا صبي، انظر وتعلم الكنس.

كانت الغرفة مفروشة بلبد، وقد فرش مكان جلوسه بالسجاد النفيس، وكان لحافه ومخدته نظيفين وملبّسين بالحرير. إلّا أنني رأيته يهوي بالمكنسة بسرعة من أعلى على اللبد وكأنه يريد طرد الغبار عنه بواسطة حركة الهواء دون أن يدع المكنسة تمسه وتقتلع ولو شعرة واحدة منه. واستمر على هذا المنوال، بينما كنت أنا أنظر بدقة حتى أتقنت هذا الدرس.

قال: ينبغي عليك أن تكنس الغرفة جيداً مرتين كل يوم في الصباح وعند الغروب، على أن تحافظ على نظافتها فيما بين ذلك بحيث لا يسقط فيها عود ثقاب أو قطعة ورق أو قشة.

قلت: سمعاً وطاعة. فأعطاني المكنسة وقال: اذهب واكنس الشرفة، ثم اكنس بعد ذلك السلّم ـ وكان مكوناً من ثمان أو تسع درجات ـ وانزل إلى الأسفل لتكنس الممر وتجمع التراب وتلقيه في سطل المدرسة، ولكن ليس ضرورياً أن تكنس السلم مرتين في اليوم.

قلت: سمعاً وطاعة.

وبعد أن أنهيت الكنس أعطاني مبلغاً من النقود وقال لي: اشترِ فحماً من دكان الفحّام الذي قرب ميدان المدينة، ثم اذهب إلى دكان العطّار الواقع في وسط السوق فإن لي معه حساباً وقل له إن فلاناً يقول أعطني خمسة أكياس من التبغ، وأتِ بها سريعاً.

ذهبت من فوري وأتيت بها ووضعتها في الشرفة مرتبة كلاً في مكانه. لكن ما أسرع ما جاءني قائلاً: انظر وتعلم. ثم أخذ كاسة من الفخار ملأها بالماء إلى

نصفها وأضاف إليه نصف التبغ الموجود حتى غمره الماء، ثم رفع التبغ بعناية من داخل الماء حتى لم يبق منه شيء، وهزّ الكاسة وسكب الماء وأعاد التبغ في نفس القدح، وأخذ يفرك التبغ لعدة دقائق وسكب عليه بضع قطرات من الماء بمقدار خمسة وسبعين غراماً، ثم أقام النارجيلة وضغط على أطراف التبغ حتى تعادل، وكان وسطه مخروطي الشكل. وقال: هل فهمت تفاصيل هذا العمل جيداً وتعلمتها؟ قلت: نعم.

نحّى رأس النارجيلة جانباً ثم وضع قليلاً من الفحم في الموقد وأشعله بعود ثقاب ثم وضعه جانباً، وقبل أن يشعل الفحم كان قد أدخل في قعر النارجيلة الزجاجية عصاً في رأسها حزمة من الخيوط الحمراء تشبه ما يعلق في صدور العباءات للزينة، فسألته: ما هذا يا سيدي؟ فقال: إنه غاسل ومنظف العنق، ثم نظف به عنق النارجيلة حتى غدت كالمرآة، ثم سكب ماءها وأفرغ الإبريق الذي كان مملوءاً بماء بئر المدرسة فيها، وكان يزيد في الماء مرة وينقصه أخرى، ثم جاء بالموقد وكان أغلب فحمه قد تحول جمراً، وأداره مرة أو مرتين حتى لا يبقى فيه شيء من دخان وأفرغه في رأس النارجيلة، ورتب الجمرات برأس إصبع يده بشكل دائري يشبه استدارة الماعون، ثم شرع بعد ذلك بالتدخين قائلاً: هل تعلمتَ جيداً خصوصيات وجزئيات هذه العملية؟ قلت: نعم. فقال: متى ما طلبتُ نارجيلة فعليك أن تفعل هكذا وهكذا، رش على التبغ بضع قطرات من الماء كل ساعة أو ساعتين بحيث لا يكون أكثر أو أقل رطوبة من هذه الدرجة التي هو عليها، ولو رأيتك مرة تتعدى حدود ما سمعته أو رأيته فسأضربك حتى تموت أيها الجحش.

تملكني الخوف والرعب حتى أنني أخذت بالارتعاد، وقلت لنفسي: هذا حسن! فعلى الرغم من أنني لم آتِ بأي عمل مخالف بعد، فهو يقول لي: أيها الجحش!.

ثم طلب إليّ أن آخذ الإبريق وأملأه من الحوض شريطة أن أغمره في الماء حتى يغطيه من أعلاه إلى أسفله مرتين وأضعه بعد ذلك في مكانه. فذهبت وفعلت ما أمرني به وجئت به وهو ينظر إلي. وحين وضعت الإبريق على الأرض نهض صارخاً: أيها الجحش! لماذا لم تلملم أطراف ثوبك عن حافة الحوض حين كنت

تملأ الإبريق كي لا يبتلّ، أيها الكلب النجس، ثم صفعني على قفاي. فقلت وأنا أتحامل على نفسي: بسم الله الرحمن الرحيم.

جلست متألماً في إحدى الزوايا، وحين انتهى من تدخين النارجيلة خرج من الغرفة فقلت لنفسي: لا بدّ أن درسي في هذا اليوم، هو ما كلفني به من أعمال، فأنا الذي لم أنتهِ من دروس السطوح قد قرأت اليوم دروس البحث الخارج[١]! عجيب أن أترقى بهذه السرعة! إن أبي الذي أصرّ على ذهابي للمدرسة كان فاهماً جداً.

وأخيراً وعندما أحسست بالجوع خرجت واشتريت خبزاً من السوق ولبناً رائباً وجئت به وأكلت غدائي.

عندما عاد ظهراً ـ وهو مقطّب دائماً كمن تجرّع سمّ أفعى ـ أعطاني خشبة معلّمة وطلب إليّ أن أذهب إلى السوق وأشتري له من الخباز الفلاني خبزاً محمصاً بين نارين ذا حَب من النوع الخاص، فذهبت وأعدتُ هذه الألفاظ بالترتيب على الخباز، وعندما أخذت الخبز وجدت على وجهه حبيبات السمسم المقشور والحبة السوداء والخشخاش، فأدركت معنى (ذي حَب)، فوضعته مع قليل من الجبن أمامه، فانشغل بالأكل، أحضرت بعد ذلك النارجيلة بعد أن هيأتها بالطريقة التي فهمتها في الصباح، ولما رأيته قد ظل ساكتاً فهمت أنني أتقنت درس النارجيلة التي ما أن فرغ منها حتى قال: خذ الجرّة الكبيرة واذهب، فإذا اجتزت ذلك الباب الصغير الواقع قرب اصطبل الأمير حسين خان شجاع الدولة حيث مجرى الماء المخصص للبناء، فاملأها وجئني بها، ثم املأ السماور بالماء واشعل ناره، إذ إنني سأغفو قليلاً، وعندما أفيق سأقوم بنفسي بإعداد الشاي.

نام هو، بينما قمت بتنفيذ ما عهده إليّ من أعمال، لكن بحذر شديد خشية أن أحدث صوتاً يجعله يصحو قبل ميعاده. وحين غلى الماء نهض وأعد الشاي ووضع صينية الأقداح قربه، وعندما أزاح المنديل الذي كان يغطيها، بدت الأقداح براقة كأنها اشتُريت الآن.

---

(١) دروس البحث الخارج هي الدروس التي إن انتهى منها طالب العلوم الدينية أصبح مجتهداً في الفقه. وتسبقها مرحلة السطوح.

حين أصبح الشاي جاهزاً، ملأ قدحين وضع أحدهما أمامي والآخر أمامه، فاستجمعت شجاعتي وقلت: إنني لا أشرب الشاي، فأنا عليل وهو يُضرني، إضافة إلى أن أبي قد أوصاني بعدم شربه. فلم ينبس ببنت شفة، وشرب شايه بينما أخذ قدحي ووقف على الشرفة وسكبه مع قطع السكر في باحة المدرسة، ثم جلس وملأ قدحين آخرين، وضع أحدهما أمامي أيضاً، وجلس ساكتاً مقطباً، فقدّرت أنه قد صمّم على أن لا يقبل منّي عذراً هذه المرة، وإن رفضت فسيأخذ القدح ويسكبه مع قطع السكر في باحة المدرسة مرة أخرى، ويستمر على ذلك حتى ينفد ماء السماور، ولا يمكن التكهن بعد ذلك الإصرار والغيظ بما سيحدث، ولشدة خوفي واستكانتي رفعت القدح وشربت الشاي، فأحسست أني لو كنت قد شربت سماً زعافاً لكان أحلى منه، وقلت لنفسي بأنني لم أرَ أو أسمع بحالة كهذه.

خادم له ولضيوفه ولبقرته أيضاً:

حين جاء العصر جاء اثنان من الوجهاء برفقة واحد من أمراء شجاع الدولة ومرة أخرى جاء دور الشاي والنارجيلة. وقد استمر جلوسهم ساعتين كنت خلالها في حركة دائبة لجلب الفحم وماء السماور، أو إخراج السماور من الغرفة وغلي مائه، وإحضار النارجيلة بالطريقة الفلانية والذهاب إلى السوق. ولما لم يبقَ على الغروب سوى نصف ساعة، غادر هؤلاء فاستأذنت وذهبت إلى دكان أقاربي ـ الذي كان مقرراً أن أبيت عنده ـ لنذهب سوية إلى البيت، فقال لي: إنّ البقرة السوداء ذات القرون القصيرة التي كنت تراها مرتين أو ثلاثاً يومياً في البيت قد أرسلناها إلى المرعى، فاذهب سريعاً إلى البوابة السفلى حيث يعود القطيع وخذها إلى المنزل، وإذا لم تعرفها فاسأل الراعي، ثم خذ معك حوالي الكيلو والربع من دقيق الشعير وامزجه بالقش وضعه في الإصطبل لتأكل منه، ولا تنس أن تأخذها معك صباحاً قبل ذهابك إلى المدرسة إلى حيث بوابة المدينة السفلى وتسلمها للراعي، ثم تعود بها قبل الغروب بنصف ساعة وتصنع لها طعامها للعشاء، وسيكون هذا من أعمالك المقررة كل يوم.

قلت: حسناً. ثم ذهبت بسرعة وجئت بالبقرة، ولم أخرج من الإصطبل إلّا

بعد مرور نصف ساعة على الليل وهنا أعطاني قراناً وقال: خذ هذه الزجاجة واشترِ لنا ٧٥٠ غم من النفط، ولما ذهبت إلى العطار استقلّ المبلغ ورفض أن يبيعني الـ٧٥٠ غم من النفط بقران واحد، وقال: إن الثمن هو قران واحد وخمسة شاهيات، فقلت: إذاً ضع في الزجاجة ما يعادل قراناً واحداً[1]، فملأها لي وجئت بها إلى قريبي فقال: أجئت بما يعادل قراناً واحداً؟ قلت: ربما أكثر من ذلك، فقد امتلأت الزجاجة حتى رأسها، ففرح الأحمق متصوراً أنني اشتريته رخيصاً، وقال: لقد سألت بنفسي عن سعره فقيل لي إن كل ٧٥٠ غم منه بقران واحد وخمسة شاهيات. إذاً فكلما نفد النفط اذهب واشترِ لنا من نفس المكان.

ثم أمرني قائلاً: انزح لنا سبعة أو ثمانية دلاء من الماء لتملأ بها الحِباب والقدر الكبير والأباريق للشرب وغير ذلك، لأنّ النساء لا تستطيع ذلك، قلت: حسناً. فقال: إن إخراج الماء سيكون عملك ليلياً، قلت: ما دام الثلج لم يتكدس بعد فسأفعل.

وبعد ثلاث ساعات على حلول الظلام تناولنا العشاء، ثم لعبت مع الأطفال الصغار ساعة ونمنا بعد ذلك، وأنا أقول لنفسي: ما أحسن دراستي! إن أبي المسكين يتصوّر الآن أنني سأصبح مجتهداً بعد عدة أيام.

بداية الدروس:

بعد خمسة أيام ابتدأ السيد الأستاذ بتدريسي **العوامل** إلّا أنه كان يترك تدريسي ليوم أو يومين، ولم أكن أجرؤ على الدرس في مكان آخر، كما لم أجرؤ أن أسأله عن المسائل الغامضة في الدرس، إذ كان لا يفهم شيئاً مع أنه كان يقرأ **المعالم والمطول**[2]، وإن الذي جعله معزّزاً محترماً مقدساً إضافة إلى الاسم هو علاقته بالتجار ومعاشرتهم. وكان يُعطى مالاً كثيراً ينفق منه بسخاء على نفسه إذا ما قيس ببقية من في المدرسة.

---

(١) يبدو أن الزجاجة كانت صغيرة.

(٢) المطول هو شرح سعد الدين للتفتازاني المتوفى عام ٧٩٢ هـ على تلخيص المفتاح في المعاني والبيان للشيخ جلال الدين القزويني المعروف بخطيب دمشق المتوفى عام ٧٣٩هـ. أما المعالم فهو معالم الدين وملاذ المجتهدين للحسن ابن الشهيد الثاني المتوفى عام ١٠١١هـ. كما في الذريعة ١٤: ص٧٠.

في أوائل الشتاء وضع في الغرفة مدفأة أجنبية لم يكن يمتلك مثلها إلّا شجاع الدولة بينما كان الناس في سائر البيوت يستخدمون الكرسي[١] وسائر المواقد المتعارفة. وكنت أكسر كثيراً من الخشب الرطب واليابس مرتين في اليوم لما يكفي مدفأته التي كان جمرها يظل متقداً طيلة الليل والنهار. وقد أطلق أصدقاؤه على حجرته تلك اسم المقهى وكنت أنا القهواتي وصبي القهواتي والخادم الذي يذهب للسوق وكل شيء. وفي البيت الذي كنت أبيت فيه، ازدادت طلباتهم يوماً بعد يوم، فقد كنت أهيىء لفائف الأفيون داخل الورق حتى الخامسة، وفي يومي الخميس والجمعة اللذين لم يكن لي فيهما درس، كنت أجلب إلى بيت أقاربي هؤلاء حزمتين أو ثلاثاً من الحطب وقوداً للتنور. ولقد ظللت بهذه التفاهات لما يقرب من سنة واحدة لم أقرأ فيها من شرح **قطر الندى** إلّا عدة أوراق فهمت من تدريسه لها أنه غير كفؤ.

قال لي الأستاذ يوماً: اذهب وادرس **السيوطي** عند الطالب فلان. وعندها أحسست كأنه قد أعطاني الدنيا بأسرها، لأنه قد مرّ عليّ وقت طويل لم أدرس فيه شيئاً. إلّا أنني بكيت وتألّمت كثيراً، إذ إن الأستاذ قد ترك الثلث الأخير من كتاب قطر الندى. فقال لي: إذهب إلى الطالب فلان وادرس الجامي وبذلك فقد حلّ عقالي من السيوطي ووضع لجام الجامي[٢] بدلاً من ذلك في رأسي، إلّا أنني لم أزل أقوم بأعمال حجرته على أحسن وجه، ولقد كنت سعيداً على الرغم من أنني كنت آتي بالماء من قرب أسطبل شجاع الدولة حيث فتحت فتحتان للسقاية إذ إنه لم يكن هنالك ماء بتلك النظافة في أي بيت من البيوت، وقد بقيت لفترة أذهب فيها مرتين في اليوم وأنا أحمل الجرّة إلى خارج البوابة لأملأها من أعلى القناة من الماء النقي.

---

(١) الكرسي طريقة مستخدمة للتدفئة في إيران يوضع فيها ما يشبه الكرسي على موقد النار الذي يوضع وسط الغرفة ثم يلقى عليه ببطانية أو لحاف بحيث تماس كرسي الخشب فقط ثم يجلس أفراد العائلة متحلقين وقد أدخلوا أرجلهم تحت ذلك اللحاف.

(٢) المقصود بالسيوطي جلال الدين المتوفى عام ٩١١هـ كتابه جامع المقدمات وأما الجامي فهو الشاعر والصوفي الإيراني الشهير عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨هـ ومؤلفه في النحو هو الفوائد الضيائية المعروف بشرح الملّا جامي.

وخادم لزوجته أيضاً:

وقد تزوج الأستاذ بعد ذلك، فكنت أقضي أغلب أوقاتي بالخدمة في بيته ليلاً ونهاراً، وكان ذهابي إلى المدرسة قليلاً، إلى أن جاء يوم أصيب به بالاستسقاء، ثم ذهب للإقامة في القلعة، فأصبحت حرّاً.

كان لديّ حرص عجيب على الدرس. وعلى الرغم من كوني أذكى من زملائي في الدرس، وأنهم كانوا قد تجاوزوني فيه، إلّا أنني استطعت إتمام كتاب الجامي بثلاثة أشهر. كنت أقرأ كل ليلة ثلاثاً أو أربعاً من أوراق الجامي وفي اليوم التالي كنت أقول للأستاذ: لا تؤخرني بالشرح والتفسير، ما عليك إلّا أن تقرأ فقط وأنا أشير إليك بالموارد التي لم أدركها فتشرحها لي. كما أنهيت **شرح النظام** بثلاثة أسابيع وكذلك **حاشية الملّا عبد الله** ولكن لم أكد آخذ بضعة دروس من **مغني اللبيب** حتى جاء الوباء. وكانت الإصابات به قليلة في قوچان إلّا أنه كان عاماً في مدينة مشهد وأطرافها. بلغني نبأ وفاة السيد الأستاذ في القلعة فأصبحت حرّاً فارغ البال. كنت متعطشاً للدرس، لذا لم يداخلني الخوف من الوباء الذي فرق الطلاب من حولي.

وكان شجاع الدولة قد ذهب ليسلم فيروزة[1] إلى الروس، إلّا أن حصانه قتله على بعد أربعة فراسخ من قوچان، فذهبنا إلى خارج بوابة المدينة لاستقبال جنازته التي نُقلت فيما بعد إلى مشهد.

---

(١) قصبة تابعة لقوچان تقع على الحدود الإيرانية ـ الروسية (روى لي شخص من الثقاة كان هو وأبوه من موظفي شجاع الدولة: أن الأمير شجاع الدولة لم يكن راغباً في أن يسلم هذه المنطقة المهمة من حدود البلاد للروس، إلّا أن ضغوط الحكومة المركزية ووصول اثنين من ممثليها الكبار إلى المنطقة اضطره إلى الذهاب معهما. ولدى وصول الجيش إلى فاروج التقى شجاع الدولة بأحد السادة الذي طلب إليه أن يطلب إلى رئيس القرية إعفاءه من ضريبة مقدارها ثلاثة قرانات غير قادر على أدائها. وبعد أن أوصى شجاع الدولة رئيس القرية بإعفاء السيد من الضريبة التفت إلى من حوله وقال: ادعوا الله أن لا أوفق فيما أنا ذاهب فيه. فإذا لم يتم ذلك فعلاً فسوف أعطيك يا أيها السيد حملاً ونصفاً من محصول قرية ملك الطويل. وإن لم يستجب دعاؤك فإنني سأضرب عنقك لدى عودتي.
ولم يكد يقطع نصف فرسخ من القرية حتى حدث ما أدى إلى سقوطه عن فرسه ووفاته وذلك يوم الأحد ١١ ربيع الأول ١٣١١هـ). (ش).

ومن المقادير الإلهية التي تجري شئنا أم أبينا، أن عرض عليّ الطلاب الذهاب إلى مجلس للعزاء الحسيني، وكان اليوم خميساً ولا درس لدينا، فلما وصلنا رأيت مجلساً للفاتحة وقراءة القرآن، وكنت منذ طفولتي المبكرة أتقزز من الطعام الذي يصنع عادة في اليوم الثالث على وفاة أحد الأشخاص، إلّا أنني لم أتمكن من ترك المجلس، خاصة وأن السماط قد فُرش ونثرت عليه الصحون. وبمجرد أن دخلت رائحة الطعام إلى أنفي دخل في روعي أن لحم الميت الذي مات بالوباء قد وضع وسط هذا الطعام، ولحيائي فقد وضعت لقمة منه في فمي، إلّا أن معدتي لم تنجذب إليه، فازدردتُ اللقمة كارهاً، ثم نهضت من ذلك المجلس وقلبي ملآن بالمخاوف، وذهبت مسرعاً إلى دكان قريبي الذي ما أن اطلع على الأمر حتى هوّن عليّ وقال: إن مخاوفك لا موجب لها، ومع ذلك إن كنت غير مطمئن فاركب البغل واذهب.

العودة إلى القرية:

ولم أضِع وقتي، بل وضعت لحاف المدرسة على ظهر البغل وتركت كل لوازمي وذهبت إلى القرية، حيث بقيت هناك عشرين يوماً، إلى أن جاءتني رسالة من زملائي في الدرس يخبرونني فيها أن أسرع في الذهاب، فقد جاء الطلاب وبدأت الدروس.

ولما كان الشتاء على الأبواب فقد جمعت حزمتين من سيقان الأشجار للوقود وشددتها وهيأتها كي أغادر في اليوم التالي.

ذهبت عصراً إلى المزرعة، حيث كان أبي قد زرع أقلاماً للعنب، فأخذت المِسْحَاة وبدأت بتقليب التربة، إلّا أنني لم أدرِ ما الذي حدث عندما انزلق النعال من قدمي، فأهوت قدمي على حديدة المِسْحَاة التي اندفعت فيها وهي تشقّ الجلد واللحم، فانفصل جزء من قدمي وظلّ معلّقاً، لا أدع قطعة اللحم تلك تظلّ متأرجحة فقد بادرت فوراً وجذبتها وألصقتها بقدمي ودفعتها في النعال وشددت سُيُوره، ذهبت إلى البيت حيث قامت أمي بإحراق خرقة ووضعتها على جرحي وشدّته، وقد نزف منّي الكثير من الدم، ولم أذق طعم النوم ثلاثة أيام بلياليها لشدة الألم، بل إنني كنت أبكي وأتأوّه، وأحبو متنقلاً في أطراف الغرفة.

الجرح سبب في النجاة الزلزال:

ولم يكد يمضِ أسبوع، وبعد مرور ساعتين من الليل، بينما كنت أنا وأمي في الشرفة نستعد للنوم، إذ حدثت زلزلة دمرت الجبال التي تصاعد غبارها حتى حجب ضوء القمر وحوّل الدنيا ظلاماً تاماً، فقفزت إلى وسط البيت وقد نسيت الألم الذي في قدمي وأنا أدفع والدتي إلى هناك بالشتائم لتنجو. استمرت الزلزلة ـ على ما أذكر ـ عشر دقائق، وفي الصباح جاء الخبر بأن قوچان وبعض نواحيها قد دُمرت تماماً.

كان في الحجرة التي أقيم فيها في المدرسة بقوچان ثلاثة في تلك الليلة فقتلوا جميعاً، أما في حجرة الدرس حيث كان زملائي الذين أتباحث معهم الدروس عادة، فقد انكفأ منهم ثلاثة كانوا يستذكرون دروسهم، على كتبهم المفتوحة وهُرسوا فيها. [وقعت الزلزلة مساء الثامن من جمادى الأولى عام ١٣١١هـ].

مات في تلك الزلزلة اثنا عشر ألف إنسان، بينما لم ينهدم من قريتنا حتى ولا حائط متداعٍ، على الرغم من شدّتها التي فتحت فيها سلسلة حديد كانت مشدودة في حجرتنا طالما حاولت فكّها فلم أفلح، كما دمرت كثيراً من الجبال الشاهقة.

شكرت جرحي، بل عدم ارتياحي الذي جاء بي من قوچان إلى القرية بعد فراري من مائدة الطعام التي أقيمت في مجلس العزاء بالمدينة، والذي كان سبباً في نجاتي.

البقاء في القلعة:

ظللت في القلعة شهراً كاملاً حتى التأمت جراحي، وكنت أرى طوال تلك الفترة في كل يوم بل في كل ساعة زلزلة في الهواء، حيث كنت أسمع أولاً صوت ريح شديدة، مع أن الهواء كان ساكناً، ولاحظت أن التزلزل كان يبدأ من طرف القبلة متجهاً نحو الشمال بالتدريج، إذ تهتز الحيطان والبيوت أولاً، ثم ترتجف الأشجار الموجودة في باحة البيت، وأخيراً يهتزّ السقف والحيطان التي نحن تحتها، إلّا أنني ما كنت ألاحظ أي حركةٍ في الأرض، فرأيت أن هذا النوع من الزلازل لا تنطبق عليه أوصاف الزلازل المعروفة إطلاقاً. إنّ الله فعّال لما يشاء ويفعل ما يريد.

انتفاضة بوجه أبي:

قال لي أبي: إنّ سبزوار قريبة فاذهب إلى هناك للمدرسة.

قلت: سأذهب، لأنه لا أحد من المعارف هناك، ولا قيود تمنعني من الدرس، كما لو كان لك فيها معارف وأقرباء نظير أولئك الذين استودعتني لديهم، ووالله لو ذهبت إلى هناك لعلمت ما فعل بي ذلك القريب الذي جعلني تلميذاً في بيته، بل خادماً، أعطي الحيوانات علفاً مرة، ومرةً مربية لأطفاله، بل أصبحت ربة البيت أتعهد أعمال بيته، من الكنس إلى إشعال التنور إلى تهيئة العجين ونقله قرب التنُّور، بل كنت أحياناً أُخرج الخبز من التنور وأهيىء الغداء، وآخذ البقرة إلى خارج بوابة المدينة وأعلفها، وأسقي البستان يومياً، وأجلب سلة من العنب من البستان القريب من فيلاب[١]، وأفرك الأفيون ليصبح فتائل وألفه داخل الورق، وأحمل الفانوس أمامه إذا أراد أن يذهب إلى مكان ما في الليل. ولقد خدمت عنده شهراً أو شهرين لم ينفق عليّ خلالها قراناً مما أعطيته أنت، بل كان ينفق على نفسه من نقودي التي سلّمتها له.

أما النقود التي أخذها منك ثمناً للصابون، فأقسم بالله أنني لو غسلت قميصي بالماء القراح لكانت أنظف مما لو غُسلت بذلك الماء الذي تملؤه الدسومة، وكان يضع فيه كمية قليلة من الصابون ربما لكي لا يكون كاذباً حينما يقول إنه قد وضع صابوناً في الماء الذي كان أسود لكثرة الدسومة فيه، وكان يضع ملابسه المليئة بالدسم ويدعكها. وعندما أخرج قميصي منها وأجفّفه أجد أنه أصبح أكثر سواداً ودسومة مما كان عليه قبل الغسل. أتذكر يوم كنت تعطيه مصاريفي وقلت له: تومان واحد يكفي للصابون؟ فقال لك: بل تومانان؟ لقد سمعت ذلك ولم أقل شيئاً.

وعلى الرغم من أنك كنت تعطيه مائة منٍّ من الطحين في السنة لطعامي، فإنني كنت قد أكلت من خبز السوق ثلاثة أمنان ونصفاً في مدة ثلاثة أشهر. وبذلك يصبح مجموع ما آكله خمسة عشر منّاً في العام الواحد. ولنفرض أنه

---

(١) من قرى قوچان وتبعد عنها بستة كيلومترات (ش).

سيكون عشرين منّاً، فأين هذا من المائة منّ من الطحين الديمي الذي أعطيته له؟ وقس على ذلك بقية الأشياء.

ومع كل ذلك، فقد كنت أشعر بحرية في البيت لم أكن أجدها في المدرسة التي كنت أتحمل فيها ـ إضافة إلى عملي قهواتياً نظيفاً دقيقاً لا أستريح إلّا ساعتين فقط وسط النهار من مشاغل الشاي والنارجيلة لوحدي دون مسعف أو معين ـ كنت أتحمل العذاب النفسي لسوء خلق الأستاذ ولسانه البذيء، إضافة إلى عدم إعطائي الدرس ليومين أو ثلاثة ولأسبوع أحياناً، كما أنه لم يكن يسمح لي بالدرس في مكان آخر، ولم يسمح لي حتى بالسؤال عما يقع فيه هو من أخطاء في الدرس، مما تسبب في تقدّم زملائي عليّ في الدروس، وكثيراً ما كنت أختلي بنفسي وأبكي على حالي.

قال أبي: لِمَ لمْ تخبرني؟ ترى هل كنتُ أسلمتك للأسر؟

قلت: لقد ألححتُ عليك، بل كادت نفسي أن تتلف في سبيل ذلك، وقلت لك: ليس لديّ رغبة في المدرسة منذ البداية. إلّا أنك أصررت وأرسلتني، والآن تريدني أن أذهب إلى سبزوار.

ما كنت لأتأوه من الغرباء   إذ إن كل ما ومع (عليّ) كان من المعارف

علاوة على أنني ما ذقت حلاوة العلم، إلّا أن قلبي يحترق لأجلك، إذ بينما تدبّر أمور المعيشة بالمشقة، أحتاج أنا إلى مصاريف كثيرة، ومصاريفي هي النقود فقط، والنقود قليلة في يديك، ولن تستطيع تحمل ضغوط نفقاتي التي تصل إلى خمسة عشر قراناً في الشهر، أي ثمانية عشر توماناً في السنة.

قال: إنني متشبّث جداً في أن تظل في المدرسة، وأنا راضٍ حتى لو اضطررت إلى أن أكون شحاذاً وأرسل لك المصاريف.

قلت: إن كان الأمر كذلك، فإن الله لن يدعك تشحذ. ووضعتُ شيئاً من اللوازم التي أحتاجها في خرج، ثم امتطيت ظهر بغل لأذهب مع مجموعة من رجال قريتنا الذين اعتادوا التعامل مع تجار مدينة سبزوار. وكان ذهابي إلى هناك في أواخر الخريف.

الوصول إلى سبزوار[١]:

وقد وصل إلى المدينة أيضاً اثنان أو ثلاثة من الطلاب الذين كانوا معي بمدينة قوچان فكنّا مستأنسين ببعضنا في مدرسة الحاج ملّا هادي[٢]، وكنا نقيم في حجرة حفيده الشيخ شهاب، وكان في الغرف الأخرى بعض الطلاب أيضاً، ومن بينهم ابن المرحوم السيد عبد القيوم الذي كان حياً آنذاك، وكبير السن، وكان يتولى إدارة المدرسة.

لم يكن الفقه والأصول يدرّسان في تلك المدرسة؛ بل كانت الدروس مقتصرة على علوم المنطق والمعقول، وكنت أنا الوحيد الذي يدرس **شرائع الإسلام**[٣]، بينما كان حفيد الحاج عماد شقيق شهاب قد درس **شرح اللمعة**[٤] ولذا كانوا يلقبونه بلقب **شريعت مدار**.

كان جوّ مدينة سبزوار طيباً خاصة في فصل الربيع إذ يكون باعثاً على النشوة والفرح.

شجار ومواجهة:

وفي أحد الأيام ضُرب خادم المدرسة، وكان سيداً شيخاً كبيراً، من قبل أحد رجال الأمن، فما كان من السيد خادم المدرسة إلّا أن استنصر بطلاب المدرسة الذين هرعوا لنصرته، وكان الطلاب القوچانيون في مقدمتهم، وأمسكوا برجل الأمن وجاؤوا به وبدأوا بضربه وسط المدرسة. وما أن انتهوا من ذلك حتى نهض الرجل وقال لهم: سأشكوكم إلى الحكومة التي ستحرق آباء ذوي العمائم.

---

(١) سبزوار: مدينة في إقليم خراسان بين نيسابور وشاهرود كانت تدعى في القرون الأولى للإسلام ببيهق.

(٢) هادي بن مهدي السبزواري. فقيه إمامي. نعته صاحب الذريعة بالفيلسوف المتأله، من أشهر مؤلفاته منظومته التي أشرنا إليها فيما مضى.

(٣) كتاب في الفقه الشيعي الإمامي الاثني عشري، مؤلفه العلامة جعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلي المتوفى عام ٦٧٦هـ ويدرّس في أول مرحلة من مراحل العلوم الدينية.

(٤) شرح كتبه الشهيد الثاني (٩١١ ـ ٩٦٥هـ)، وهو من أعاظم فقهاء الإمامية، على كتاب اللمعة الدمشقية التي ألفها فقيه آخر من كبار علماء الإمامية هو الشهيد الأول المقتول عام ٧٨٦هـ في عهد السلطان برقوق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة، في حادثة شهيرة.

ولما كان القوچانيون ذوي جرأة، فقد أمسكوا بالرجل المذكور ثانية وأشبعوه ضرباً، ثم ألقوا بذلك المسكين داخل حوض الماء، وكلما أراد الخروج من أحد أطرافه جاؤوه وضربوه وأركسوه في الحوض، وأخيراً تركوه لحاله، فذهب وهو حاسر الرأس حافي القدمين مبلول الثياب ملطخاً بالطين إلى الحاكم واشتكى لديه، فأمر الحاكم بإلقاء القبض على خادم المدرسة، فألقي القبض عليه وسط السوق وحُبس.

عندما وصل الخبر إلى الطلاب ذهب وفد منهم يقدّر بعشرة طلاب إلى دار الحكومة لتخليص الخادم.

جاء المأمور وقال: إن الحاكم يطلب إليكم أن تنتخبوا من بينكم اثنين من الكبار ليمثّلوكم ويشرحوا الأمر. فتقدم اثنان من القوچانيين وكانا كباراً ذوي لحى، فدخلوا. سألهم الحاكم. ماذا تبغون؟ قال أحدهما: إن لدينا طلباً، فقاطعه الحاكم قائلاً: إن تقديم الطلب لا يتلاءم مع التجمهر والهجوم. ثم أمر بصفع هذين الأستاذين، فصفعا، وقد قام المأمور المذكور بعد ذلك بضرب ذلك الخادم بالعصا ضرباً مبرحاً.

كنا في الخارج ننتظر، فخرج خادم المدرسة مع أحد أولئك الاثنين اللذين دخلا لمقابلة الحاكم[١]، ففهمنا حقيقة ما جرى، وذهبنا وأوصلنا الخادم إلى المدرسة، واتجهنا من هناك، وكنا حوالي الخمسة وعشرين شخصاً، إلى دائرة البرق والبريد. فأبرقنا إلى حاكم نيسابور ـ وكان والد حاكم سبزوار ـ برقية بأننا سنقدم شكاية إلى طهران إذا لم تبادر وتعزل ابن الحمار هذا من منصبه. وقد بادر الرجل إلى عزل ولده واستدعاه إلى نيسابور. فخرجنا نحن من دائرة البريد. وفي الحقيقة، فإن العصر كان عصر وحشية، ولم يكن لائقاً أن تصدر تلك الوحشية من أهل العلم والدين. وكان الأثر الذي يمكن أن تتركه عريضة مقدمة من خادم المدرسة يشير فيها إلى كونه من ذرية رسول الله ويشرح فيها ظلامته ويقدمها إلى الحكومة، كان يمكن للأثر الذي تخلّفه أن يكون أفضل من ذلك الذي جرى، فلا

(١) كان الحاكم آنذاك هو شجاع الدولة الذي ألمحنا إليه فيما مضى.

يُصفع الأستاذان، ولا يُضرب السيد بالعصا، بل إن الحاكم سيصل الخادم بصلة ترضيه وتختم المسألة بشرف.

وعلى أي حال، فقد كان ذلك عصراً يختلف عن عصرنا هذا، وقد عوّض الله عن ذلك خيراً.

أنهينا ـ خلال تلك الأشهر الخمسة التي درسنا فيها ـ حوالي سبع أوراق من المطول ومثل هذا المقدار من كتاب **الشرائع** ونصف **الشمسية**.

وفي ربيع تلك السنة اتفقنا ـ وكنا ثلاثة طلاب من أهل قوچان وثلاثة من أماكن أخرى ـ على الذهاب سيراً على الأقدام لزيارة مدينة مشهد.

سافرنا، وعندما أصبحنا على بعد ثلاثة فراسخ من نيسابور هبّت عاصفة حوّلت الدنيا ظلاماً لشدة ما فيها من الغبار والتراب، حتى إننا كنا نرى بعضنا بصعوبة، وكانت الريح تأتي من ورائنا، وكان الحصى الصغير يضرب أرجلنا حتى أدماها، فرأينا أن الأمر يستدعي أن نتحرك وإلّا فإن سكوننا ووقوفنا يعني أننا سندفن تحت الرمل والتراب خلال نصف ساعة. وحيثما رفعنا قدماً من أقدامنا عن الأرض كان يغطيها الرمل والتراب فوراً.

كنا اثنين وثالثنا من أهل قريتنا أيضاً. وضعنا عباءتينا على رأسينا وكنا نسير متلاصقين، فإن ابتعد أحدنا عن رفيقه كان يصيح فيجده، أما الآخرون فقد أضعناهم.

الوصول إلى نيسابور:

أخيراً، وصلنا نحن الاثنين إلى نيسابور، وكنا خائفين على مصير الآخرين الذين لم نعلم أين صاروا.

قضينا المساء في غرفة أحد طلبة العلوم الدينية بإحدى المدارس، وعند الصباح ذهبنا للتنزه في المدينة، ونمنا في المساء في أحد المقاهي. حيث أفقت ـ والليل لم ينقضِ بعد ـ على أصوات أجراس قافلة جمال متجهة إلى مدينة مشهد، تصورت أن الوقت كان السَّحَر. فأيقظت رفيقي وقلت له ينبغي أن نذهب مع هذه القافلة كي لا نضيِّع الطريق، ثم نهضنا ومشينا مع القافلة، فرأينا أنها سارت

طويلاً ومع ذلك لم تطلع الشمس. فتقدمنا إلى قائد القافلة وسألناه عن الوقت، فقال: نحن الآن في منتصف الليل. فعلمنا أننا قد بدأنا سيرنا مع هذه القافلة منذ بداية المساء.

سرنا مسرعين حتى إذا أدركنا الفجر، وصلنا إلى نهر كبير ملآن بالماء المتدفق، وكان الجوّ بارداً جداً، والماء مرتفعاً حيث لم تكن لدينا الشجاعة للعبور. نزلنا قليلاً في الماء فوجدنا النهر واسعاً يفترش مساحة كبيرة، رفعنا ملابسنا إلى أعلى وأمسكنا بأيدي بعضنا لنستطيع مقاومة تيار الماء إذا أراد أن يغلبنا، ونزلنا إلى الماء، فبلغنا الضفة الأخرى بعد خوف شديد ومشقة، وكانت أبداننا مبللة إلى النصف وملابسنا أيضاً. توضأنا بينما كانت رياح الشمال الباردة تلفحنا، واتجهنا إلى القبلة نصلي ونحن نرتجف. ولو كان ذلك الارتجاف من خشية الله لكانت صلاتنا مقبولة بالتأكيد.

سرنا بعد انتهائنا من الصلاة، وما أن قطعنا ساعة بعد طلوع الشمس حتى وصلنا فخر داود ونمنا خارج أحد نزل القوافل تحت أشعة الشمس ولم نستفق إلّا عند الظهر حيث زال عنا النعاس والتعب وبرد المساء.

تحركنا نحو شريف آباد حيث قضينا الليل هناك، وفي الصباح اتجهنا نحو مشهد فبلغنا جبلاً عالياً حيث كان الطريق مقوّساً بقدر ثلاثة فراسخ على شكل نصف دائرة، إلّا أن وتر تلك الدائرة عبارة عن خط منحنٍ يمر عبر أرض مسطحة وتملؤه المنخفضات في بدايته فقط، وطوله فرسخ واحد فقط.

قلت لرفيقي: إن القوافل تختار للوصول إلى ذلك الوادي هذا الطريق الطويل المقوّس، أما نحن المشاة على الأقدام فنستطيع الذهاب عن طريق هذا الوتر، وذلك أقرب وأكثر راحة لنا. فقال: لا ضير في ذلك. نزلنا من ذلك الوادي ثم صعدنا قليلاً لنكتشف وادياً أعمق وأشد وعورة، لم نستطع الصعود منه إلّا بمشقة عظيمة، وما أن أصبحنا في أعلاه حتى رأينا وادياً آخر وهلمّ جراً، حتى عبرنا أكثر من خمسة وديان في الوتر الذي كان ذلك القوس أقصر منه، إضافة إلى الأشواك والصخور. فعلمنا أن الحيوانات وقطعان الغنم لم تعبر من هنا في أي

يوم من الأيام. كان الجوّ حاراً والأرض وعرة، وقد أخذ التعب والعرق المتصبّب منا والعطش والخوف من الحيوانات المفترسة والزاحفة مأخذاً جعلنا نيأس من الحياة، وقد لامني رفيقي مرة أو مرتين خلال ذلك.

ولخوفي وخجلي كنت أجدّ السير ولم أكن أرى أي أثر لقدم مرّت على هذا الشوك وتلك الصخور أو عدّلت بمرورها شيئاً من وعورة الأرض. ولذا فإن قدميّ قد أدميتا حتى سيقانها.

بعد أكثر من ساعتين وبالمشقة البالغة والخوف العظيم قطعنا ذلك الوتر ووصلنا إلى الطريق الرئيس. جلسنا نصف ساعة لنستبدل المشقة بالراحة والخوف بالأمان والغمّ بالفرح.

قال لي رفيقي: لقد كاد علمك الهندسي أن يهلكنا، ولن أطيعك بعد الآن.

قلت: إنني لا أعلق على كلامك. ومشينا.

في مواجهة الذئب:

لم نقطع أكثر من فرسخ حتى رأيت ذئباً على بعد مئتي قدم يمشي متجهاً إلى الصحراء، إلّا أن رأسه كان منكّساً وذنبه متراخياً، يمشي بهدوء وتأنٍّ.

قلت لرفيقي: ألا ترى هذا الذئب كيف يمشي هادئاً منهكاً خلافاً لطبيعته؟ من المؤكد أنه مريض إضافة إلى تأثير الجوّ الحار والذي قد يجعله مصاباً بالجرب ويختار الانزواء، فهو ولا يصاب بحالة الترنح هذه إلّا في الأربعين يوماً التي يشتد فيها البرد عندما يزداد سقوط الثلج. ولسنا نحن الآن في الشتاء وليس هناك ثلج. ولأنه مؤذ كثيراً، أليس من المناسب أن نؤذيه؟ صحيح أننا لا نستطيع عمل شيء إذ لا رمح أو خشبة في أيدينا، إلّا أن كلاً منا يستطيع أن يرميه بقطعة حجر ونُخرج من أفواهنا أصواتاً مخيفة تجعله يصاب بالرعب ويهرب فنتفرج عليه، وعلينا أن لا نضيع هذه الفرصة من أيدينا.

قال لي رفيقي: لا ضير في ذلك.

التقط كلٌّ منّا حجراً صغيراً وتقدمنا أكثر من خمس خطوات باتجاه الذئب وصوبنا إليه أحجارنا التي أطلقنا معها أيضاً أصواتاً مخيفة طويلة. ووقعت أحجارنا على بعد خمسة أو ستة أقدام، إلّا أن الذئب وبدلاً من الخوف والفرار

تقدم باتجاهنا بضعة اقدام، ثم توقّف وبدأ يصوّب نظراته إلينا بوجهه المرعب الذي يرتجف له قلب الأسد. فكيف بقلوبنا نحن الصبيين الاثنين ذوي الستة عشر عاماً اللذين لا يحملان في أيديهما حتى القلم والمقطعة؟

تسمّرنا في مكاننا ووقفنا أمامه متبلدين بلا حراك لما يقرب من نصف ساعة، كنا لخوفنا منه ننظر إليه ونحن لا نعلم ما الذي كان يجول في رأسه المنحوس عن الكيفية التي سيهجم بها علينا.

أخيراً، وبهدوء ولامبالاة عجيبين أدار لنا مؤخرته وواصل مسيره بالشكل الذي رأيناه عليه أول مرة. أما نحن فقد بادرنا إلى الهروب كالغزال النافر، أو كالباز الذي رأى صيداً، فقطعنا نصف فرسخ بسرعة البرق دون توقف، ثم ألقينا بعد ذلك نظرة إلى الخلف وتنفسنا الصعداء.

قلت لرفيقي: أرأيت كيف أخافنا مع كل تلك الإجراءات التي قمنا بها أمامه وكيف أدار لنا مؤخرته لامبالياً؟ فقال لي: رحم الله أباه إذ اكتفى بهذا القدر، ولم يتقدم نحونا أكثر، وإلّا فلو كان تقدم عدة أقدام أخرى نحونا لأغمي عليّ.

قلت: من المؤكد أنه كان مريضاً أو مصاباً بوجع في قلبه فلم يهجم علينا، وإلّا فهو قد علم أننا ضعفاء.

قال: مهما يكن فقد منحنا الله أعماراً جديدة، ولقد تسبّبت أنت في أن نقترب من الموت مرتين في يومنا هذا، إلّا أن الله أنقذنا، وعليه فلن أطيعك بعد هذا.

قلت: إنني لن أبدي رأياً بعد هذا أيضاً.

البحث عن المشاكل:

ومشينا حتى وصلنا قريباً من القرية التي كنّا قد شاهدنا أشجارها ونحن في الوادي، فرأيت أعمدة البرق الواقعة خلف الطريق الممتد على حافة الجبل. وكان هناك تل مرتفع يمتد مع امتداد سلك البرق على مدى ثلاثة أو أربعة أعمدة، وكان السلك يمر أعلى ذلك التل على ارتفاع شبر واحد. فقلت لرفيقي: اذهب واجلس هناك على التل قرب العمود الأخير وضع أذنك على السلك واستمع حيث سأقوم أنا بالطرق عليه من هذا الجانب من التل، لأرى هل سيصلك صوت الطرقة على

السلك في هذه الفاصلة التي تصل إلى أربعة أعمدة أم لا؟ إذ إنني لم أفهم حتى الآن كيف يصل الصوت في هذا السلك إلى البلاد البعيدة ويُسمع من على كل تلك المسافات، حتى أنني سمعت أن الأسلاك التي تخرج من طهران تصل بين غرب أوروبا وأمريكا، وبين أمريكا وشرق الهند، وبعدها تصل الهند بشيراز، ثم تتصل من هناك بطهران في نفس الغرفة التي يجلس فيها المبرِق، وأن الكلمات التي يضربها المبرِق على سلك الغرب، تصل نفس تلك الكلمات بعد ثماني ثوانٍ إلى شيراز بعد أن تكون قد قطعت ثمانية آلاف فرسخ. إن لديّ شكاً في ذلك يمكن أن يزول بالاختبار، حيث إن السلك قريب من الأرض وفي متناول أيدينا، والمكان عالٍ ولن يضايقنا أحد وهي فرصة نادرة، وهدفنا من كل هذا المجهود هو تقليل الجهل وتكثير العلم، أي استبدال المجهولات بالمعلومات، سواء في المدرسة أم في الخلاء، وسواء من الأستاذ ومشاهداته، أم من التجارب.

فقال لي: لا ضير في ذلك.

قلت: إن هذه هي المرة الثالثة التي تقول لي فيها لا ضير في ذلك، بينما كان هناك ضرر وكبير أيضاً.

ومهما يكن فقد ذهب هو إلى أعلى التل وجلس قرب السلك، كما جلست أنا على بعد أربعة أعمدة على الجانب الآخر من التل، ثم ناديته أن يصغي إذ إنني سأطرق على السلك بعد أن أمسكت بيدي الأخرى السلك من أمام لتكون مانعاً من انتقال صوت الطرقة ـ وكان هو لا يرى ذلك ـ ثم ضربت بصخرة صغيرة كانت في يدي برفق على السلك، فما كان من رفيقي إلّا أن صاح من الطرف الآخر: نعم لقد سمعتها.

قلت له: اصغِ مجدداً، ثم ضربت على السّلك في أماكن مختلفة، فكان يشير إليّ أنه قد سمعها في كل تلك الحالات.

أخيراً قال لي: لقد جاءت نوبتي هذه المرة. فوضعت أذني على السلك لأستمع إلى طرقاته، إلّا أنني لم أسمع شيئاً، نظرت إليه فرأيته يتطلع إلى أسفل الوادي فنظرت بدوري إلى هناك فرأيت أكثر من ستة فرسان وأربعة مشاة، والجميع مسلحون بالبنادق والأسلحة الأخرى إضافة إلى اثنين أو ثلاثة بغير

سلاح، وهم وسط الطريق متجهين نحونا. وكنت قد سمعت فيما مضى من الكبار أن لأسلاك البرق تلك حراساً يجيئون بمجرد استماعهم لصوت حجر أو خشبة تضرب على تلك الأسلاك، حيث يقومون بمعاقبة الفاعل. وعندما رأيت أولئك الرجال أيقنت أنهم هم الحراس وقد جاؤوا من مشهد أو من الطرق القريبة، وربما من هذه القرية التي لا تبعد كثيراً عنا، لإلقاء القبض علينا. ونظراً لكلّ ذلك، فقد تسمّر رفيقي في مكانه وكذلك أنا. ولم تكن هناك فرصة للهروب أو الإنكار. لم يكن هناك إلّا احتمال ضعيف في أن لا يأتوا إلى الجهة التي نحن فيها. ولا يمكن معرفة ذلك إلّا بعد أن يأتوا إلى جهتنا ثم يتجاوزوننا.

جلسنا نحن الإثنين كلّاً في مكانه ساكنين ساكتين، وقد ركزنا عيوننا على الرجال ننتظر ما الذي سيحدث، إلى أن جاؤوا ومرّوا بمحاذاتنا واجتازونا. فنهضنا ونزلنا من التل واتجهنا إلى الطريق، ونقسم بأننا لم نتوقف إلّا في مشهد، ولم تفلح كل مغريات اللهو واللعب التي كانت تملأ رؤوسنا في جرِّنا إليها، بعد أن كاد جنوننا أن يوقعنا في الموت ثلاث مرات. لقد سترنا الله، بينما قال لي رفيقي: كان دمي سيقع في رقبتك.

فقلت: إنما دعوتك فاستجبت، فلُمْ نفسك ولا تلُمني.

فقال لي: بما أنني أصغر منك سنة في العمر، فالديّة على العاقل. قلت: إن جوابي هو ذلك الذي قلته لك، فإن ألقى الله يوم القيامة بذنوب البشر على عاتق الشيطان فسيكون أمر دمك كما قلت، وإلّا فلا.

كنا قريبين من مشهد وسندخلها الآن، وكنا لفرط سرورنا نتراشق بذلك المزاح.

فقلت: بل إنني كنت أتوقع أن يثيبني الله أيضاً، والدليل على ذلك حفظ الله لنا الذي صرف عنا ذلك الذئب وهو أشد الحيوانات افتراساً وأكثرها جرأة. فلو فكرت بهذا الأمر، علمت أنه كان كرامة لنا.

فقال لي: طمئن قلبك بذلك.

فقلت: إن قلبي مطمئن على أي حال، ولي أيضاً حسن ظن بالله الذي قال: «أنا عند ظن عبدي المؤمن».

الوصول إلى مشهد:

وبقينا على ذلك حتى وصلنا مشهد[١] بعد الظهر، حيث ذهبنا من فورنا إلى الحمّام لننظف أجسادنا ونغتسل غسل الزيارة. وعندما وصلنا الصحن القديم، شاهدنا أحد السادة الطلاب من أبناء قريتنا وهو يريد الذهاب إلى القرية، قلنا له: أبلغ أهلنا أننا سالمون كما رأيتنا، وقد وصلنا الآن مدينة مشهد من سبزوار، وليس هناك مجال للكتابة. فاكتب على صدرك ما يلي: قل لوالدينا، لقد جئنا إلى مشهد بهدف الإقامة فيها، فإن كنتما راضيين فارسلوا إلينا ما تيسّر من النقود، وإن أردتم أن نعود إلى سبزوار فاكتبوا لنا بذلك.

عدنا إلى الحرم وأدينا الزيارة، ثم ذهبنا إلى المدرسة حيث مكثنا ثلاثة أيام في غرفة أحد الطلاب من أبناء قريتنا إلى أن عُثر لي على حجرة خربة في الطابق الأسفل.

لم يكن للطلاب معاش من موقوفات المدرسة، فقد كان المتولّي عليها يأخذها. إلّا أن همّنا لم يكن متجهاً إلى ذلك، بل إلى الدرس والمناقشة فيما بيننا.

كان لي درس في كتاب **المطوّل** لدى الفاضل الطهراني من أول كتاب **المعاني**. أما درس البيان فقد كنت أتباحث فيه مع أخيه الأصغر.

أنهيت **المطول والشمسية** في ستة أشهر، كما درسنا: شرح اللمعة والقوانين والمعالم والمغني وشرح المطالع وشرح تجريد القوشجي أيضاً.

وقد درسنا **شرح المطالع** وشرح **التجريد** بصورة سرية حيث كنا نذهب قبل أذان الفجر إلى المدرسة الجديدة الواقعة خلف مسجد گوهر شاد لندرس هناك، ونعود والوقت ما يزال ظلاماً أيضاً، إذ إن علماء وطلاب مدينة مشهد كانوا في الغالب يرون أنفسهم منزهين عن كتب الفلسفة التي كانوا يرون فيها بأسرها كتباً للضلال. فإن رأوا نسخة من كتاب **المثنوي** في حجرة أحدهم، اعتقدوا بكفره.

---

(١) المدينة التي تضم ضريح الإمام الثامن من أئمة المسلمين من أهل بيت النبي ﷺ، الرضا عليه السلام وهي الآن مركز إقليم خراسان.

وكانوا يرون أن كتب الفلسفة نجسة، ولا يمسّون بأيديهم غلافها حتى لو كانت جافة، بل يرون أنها أكثر نجاسة من جلد الكلب والخنزير، وبما أنهم لم يقرأوها ولا يعرفون ما فيها، وبما أنهم كانوا يتظاهرون بالأعلمية من جهة أخرى فلا بدّ لهم من أن يجدوا عذراً لجهلهم بها. لذا فقد كانوا يردّون فوراً على أي سؤال عنها بقولهم: يجب عليك صيانة نفسك ولسانك من هذا الكفر والضلال. وبهذه الوسيلة كانوا في راحة من همّ الجواب، لأن البحث في تلك المسائل حرام ويؤدي إلى الكفر في آخر الأمر. وحيث إن عبارة (لا أعلم) لا تتناسب ومقامهم، وهي ثقيلة عليهم كجبل أبي قبيس، فقد كانوا يلجأون إلى إشاعة أمثال تلك الافتراءات و«الناس أعداء ما جهلوا»[١]. بينما الحقيقة أن لبّ لباب الفلسفة هو توحيد ذات وصفات وأفعال الحق تعالى، وذلك أصل الدين، وقد قيل إن أول الدين معرفة الله، فإذا كان ذلك هو الكفر فما هو الدين إذاً؟

كنا نطالع تلك الكتب ونتباحث فيها مع طالب من زملائنا في سنّي وربما كان أصغر مني وكان ذكياً جداً، وهو في الأصل من أهل يزد إلّا أنه مشهدي مولداً ومسكناً.

كنت أكتفي بتومان واحد في الشهر لمصاريفي، وقد مرت بي أوقات عصيبة كنت لا أجد فيها ثمن الخبز، وفي إحدى الليالي لم يكن لدينا ثمن خبزنا ولم يتيسّر حتى بالقرض. قلت لنفسي: إن الإنسان لا يموت لو ظلّ بلا طعام لليلة واحدة، وطالب العلم يجب أن يتوقع ما هو أسوأ من ذلك. وأرحت بالي من ذلك الهمّ، وفي اليأس راحة.

عقد زواج سبب للرزق:

فتحت كتابي وانشغلت بالمطالعة، وبعد أن مرّت ثلاث ساعات على الليل، طُرق الباب، ففتحته لأجد أحد الأساتذة ومعه جندي. فقال ذلك الأستاذ: إن هذا الشخص يبغي الزواج، لذا سأكون أنا وكيلاً عن المرأة، بينما تكون أنت وكيلاً عنه ونجري العقد.

---

(١) من الكلمات القصار للإمام علي عليه السلام. (ش).

بعد الانتهاء من ذلك وضع ذلك الجندي قراناً ونصفاً أمام الأستاذ، الذي بادر إلى وضع نصف قران أمامي، فنهضت من فوري واشتريت خبزاً وإداماً، ثم اتجهت إلى الإمام الرضا عليه السلام وقلت له: أ«حيّي غيرتك التي لم تشأ أن أبيت جائعاً وأنا بجوارك حتى لليلة واحدة».

العمل في مزارع الأفيون:

في الصباح قال لي رفيقي: الآن وقد أصبحنا بلا مال، فما الذي نصنع؟

قلت: إذا لم تكن طالباً كسولاً، تعال لنعمل ما كان يعمله الطلاب قديماً.

قال: ماذا أفعل؟

قلت: نصبح عمالاً نشتغل في مزارع الأفيون، وأنا أعرف العمل فيها جيداً.

قال: أنا لا أعرف ذلك.

قلت: نعمل سوية فلا تبتئس.

استدان كل منّا ثلاثة قرانات وحمل سكّيناً وموسى وذهبنا إلى قرية قريبة من قبر الربيع[1]، وطلبنا إليهم أن تكون أجورنا السّدس أو السّبع من ناتج ما نعمل من الأفيون فلم يوافقوا، وقالوا إنهم سيعطوننا أجوراً يومية قدرها قران ونصف إضافة إلى تحملهم نفقتنا.

رضينا بذلك ـ شئنا أم أبينا ـ وفي غروب اليوم التالي قدم علينا أحد الطلاب من أبناء بلدتنا، وكان يبحث عنّا منذ الصباح، إذ إن أحد أئمة الجماعة من أهل قوچان الذي كان تعباً قد جاء وراءنا. وبعد عتاب طويل قال: لا بدّ لي من أن آخذكم معي وأنقذكم من هذا الذل والعار الذي يجعل طلاباً للعلوم الدينية مثلكم يعملون أجراء.

قلت: ليس في الأمر شيءٌ من ذلك، العار الذي يجعل البعض يأكلون أموال الناس بشتى أنواع الحيل والتدليس. كيف أصبح العمل الذي هو سنّة الأنبياء

---

(١) الربيع بن خيثم: من أصحاب الإمام علي شارك في فتح خراسان، وتوفي بطوس ودُفن هناك، وله الآن فيها ضريح قرب مدينة مشهد. (ش).

والأئمة وسبب رفعة شأنهم وافتخارهم عاراً؟ إنّ أساتذة العلوم الدينية لديهم مناهج يهتدون بها، وإن كتبنا التي ندرسها ومصنّفيها من قديم الزمان تقول ذلك، فالشهيد يقول في **آداب المتعلمين**:

«إذا استطاع طالب العلم أن يعمل نصف يوم لتحصيل معاشه، ويدرس في النصف الآخر، فلا يجوز له أن يأخذ من مال الزكاة. ولو لم يفعلوا ذلك فإن آراءهم سيشوبها الباطل، إذ إن مأكلهم مشوب بالحرام والمكروه، وإنما يتولد الدم من المأكول الذي إن كان غير طاهر فإن أبخرته التي تتصاعد إلى الذهن غير طاهرة، وستكون الصور الفكرية قذرة وسوداء: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[(١)]».

ولما كان الوقت غروباً فقد بات الشيخ معنا، وفي الصباح ألحّ علينا في الذهاب. ونحن وإن وعدناه أن نذهب معه، إلّا أن عملنا الذي بدأناه بالأمس ظلّ ناقصاً، إذ كان ينبغي علينا أن نجمع المستحلب المتحدّر من الفتحات التي أحدثناها بأمواسنا في ثمر الخشخاش يوم أمس، ولذا فإننا لن نستطيع العودة إلى المدينة إلّا بعد الظهر. وعليه فقد ذهب الرجل قبل الظهر، ولما انقضى الظهر غادرنا نحن إلى المدينة.

كان مع كل واحد منا ثلاثة قرانات من النقود، وقد بعنا السّكين والموسى أيضاً فكان ثمنهما نصف قران، وكان ذلك يكفي لمصروف ثلاثة أو أربعة أيام.

النجاة من زراعة الأفيون:

وحدث بعد ذلك أن دعاني ذلك الشيخ الذي كان قد جاء خلفنا إلى المزرعة إلى منزله وأعطاني أربعة تومانات، وقال لي: كلما احتجت النقود فأخبرني، ولا تذهب للعمل أجيراً. والحمد لله لم يحدث بعدها أن احتجت تلك الحاجة التي توصل السكين إلى العظم[(٢)] كما لم أذهب إلى ذلك الرجل.

قبل يوم من عيد النوروز قال لي رفيقي في طريق سبزوار: لقد مضى علينا ما

(١) سورة الواقعة، الآية ٧٩.

(٢) وصل السكين إلى العظم: مثل مستخدم في إيران والعراق ويعني نفاد الصبر وبلوغ السيل الزبى.

يقرب من السنتين لم نذهب فيهما إلى أهلنا، أليس من المستحسن أن نغادر ليلة العيد إلى هناك؟

قلت: الآن وقد ذقت حلاوة الدرس فلن آتي.

قال: إنما أطالبك بالذهاب إلى هناك لأمر يتعلق بك.

قلت: وهل ماتت أمي؟

قال: نعم.

قلت: إن كانت ماتت، فقد ماتت. ثم انصرفت إلى الدرس والبحث مع اثنين من زملائي حتى الليل. وفي الليل أيضاً قضيت أكثر من أربع ساعات في تحضير الدروس.

عندما أويت إلى فراشي أخيراً بكيت وأنا تحت اللحاف لذكري أمي، ثم غلبني النوم.

في الصباح شغلت كالعادة في الدرس والبحث ونسيت ما عداهما. كان الدرس يتطلب جهداً عالياً فلم أسترح حتى لساعة واحدة، وكان زملائي أكثر من ثلاثة، إلّا أن أكثرهم ذكاءً، وأشدّهم حبّاً إلى نفسي كان ذلك الصديق اليزدي الأصل.

الانتقال إلى غرفة جديدة:

وحدث بعد سنتين على بقائي في تلك الغرفة الخربة، أن غادر أحد الطلبة القوچانيين المدرسة، وكانت غرفته في الطابق العلوي، وقد قيل إنه لن يأتي إليها بعد الآن ولا رغبة له فيها. فسكنت أنا في تلك الغرفة، ولم يمضِ عليّ إلّا حوالي الأربعة أشهر حتى بلغني أنه يقول: لو أعاد فلان الحجرة لي فسأكون سعيداً.

قلت: لأنني كثيراً ما بقيت بلا مأوى، فقلبي لا يطاوعني على الخروج منها. وكانت إدارة المدرسة والإشراف عليها قد انتقلت آنذاك من المشرف الأول الذي لم يكن يعطي الطلاب شيئاً من موقوفاتها، إلى أحد أئمة الجماعة وكان من مدينة رشت، حيث أخذ هذا يعطي لكل طالب خمسة قرانات شهرياً. وقد وافق على

إعطاء تلك الغرفة التي كنت أقيم فيها إلى ذلك الطالب بعد التملّق والاحتيال، وبعد أن وعدني أن يعطيني أول غرفة يخليها أحد الطلبة، ثم أكد ذلك بأن وضع يده على لحيته.

وافقت على الانتقال إلى غرفة أخرى، وبعد انقضاء سنة على ذلك أُخليت إحدى الغرف، فأردت الانتقال إليها، إلّا أن نفس الطالب الذي ذكرناه عارض ذلك. وقد أخلف صاحبنا إمام الجماعة المذكور وعده، ولم يبرّ بقسمه.

إحباط وغضب:

بلغ بي الغضب حدّاً جعلني أتخلى حتى عن الدرس والبحث والمدرسة. إذ كنت أعتقد أن العلماء وخصوصاً أئمة الجماعة هم الأكثر عصمة من الجميع. ولذا فقد رأيت أن خلف الوعد والحنث بالقسم من نتائج العلم والتقديس الذي يتظاهر به هؤلاء العلماء المتظاهرون.

قلت لنفسي: رحم الله تلك الوحوش التي تعيش في الجبال، إذ إنها لو ارتكبت عملاً قبيحاً فإنما ترتكبه لجهالتها وعدم معرفتها، أما هؤلاء الفاهمون العالمون، فعذابهم سيكون مضاعفاً، بل إنني لو عشت مع تلك الوحوش لكان لي طريق إلى النجاة. فواأسفاً على تلك المشاق التي تحملتها في هذا البيت الخَرِب ـ المدرسة ـ الذي بدلاً من أن يهدي شخصاً واحداً، كان يدفع الناس أفواجاً إلى طريق سقر.

وعليه فلو بقيت ـ بعد هذا ـ في المدرسة، فسوف أتعلّم بالتدريج حِيَلهم وأصبح مثلهم مشركاً ومرائياً، وإن ذهبت إلى العيش في الصحراء، فهذا تعرّب بعد الهجرة.

أخيراً فضّلت أن أترك المدرسة وأعود إلى القرية، فلو أردت العودة مرة أخرى إلى المدرسة لجنّبت نفسي معرفة هذا النوع من الناس.

ذهبت إلى القلعة وأمضيت شتاء كاملاً. وجاء شهر رمضان وجاء معه رفيق الدرس اليزدي إلى هناك. وبعد شهر رمضان ذهبنا إلى مدرسة بريزاد في غرفة نفس ذلك الرفيق، وكلما ألحّ رفاق المدرسة بأن يخلوا لي غرفة هناك أقيم فيها،

ويُخصص لي مرتّب قدره تومان واحد، كنت أصيح بأنكم لو ملأتم تلك المدرسة بالجواهر لما أتيت، وأنا متردد حتى في بقائي بمشهد، إذ إنّه الصعب علي أن أرى هذه النماذج من الكذابين والدجالين خوفاً من أن أكون بعد التعلّم والتديّن مثلهم.

وفي الليالي حين كنّا ننتهي أنا ورفيقي من المطالعة كُنّا نذهب للنزهة خارج المدينة أو نذهب نهاراً، حيث إنه لم يكن راغباً في الانفصال عني. وكان طلاب ذلك الوقت يفعلون ما يحلو لهم، خصوصاً أولئك المعروفون بالقوچانيين من قبيل: الدرگزيين والبجنورديّين والباميّين والصفي آباديّين وأبناء أعلى مدينة نيسابور والقوچانيين أنفسهم.

وكان هؤلاء في الواقع مجموعة واحدة عندما يتنازعون مع أي أحد من الأتراك أو السادة الرضويين فيتغلبون عليهم. وكانوا يحملوننا دائماً على الانضمام إلى طائفتهم حيث «لك ما لنا وعليك ما علينا». وكنا بطبيعتنا نكره التحزُّب ومشاغله. ولو أردنا إظهار ذلك لترتّب عليه وقوع آلاف المفاسد والتّرهات. وعلى هذا فلن يكون بمقدورنا أن نستمر في الدرس في مشهد كما نشتهي وبجدية.



الفصل الثاني
رحلة المخاطر والآلام من مشهد إلى أصفهان

قلت لرفيقي: إنني أجد في الخروج من مشهد والذهاب للسكنى في سبزوار أو طهران نفس المحذور الذي أخشاه في مشهد، إذ سيكون هناك طالب أو طالبان من قوچان، كما أن الوقت لا يزال مبكراً على الذهاب إلى النجف إضافة إلى أننا لا طاقة لنا على ذلك، لذا سأذهب إلى أصفهان.

فقال لي: وأنا لن أنفصل عنك، إضافة إلى وجود والدي في مشهد وعدم إحساسي بالغربة، إذ إن الدرس في الغربة سيكون أفضل، وأن لي ميلاً في الذهاب إلى أصفهان وأفضّلها على أي مكان آخر، لقربها من وطني الأم يزد، ولي فيها خالة وابن خالة وابن عم يعينوننا على دنيانا.. واختيار أصفهان ينفعني من ناحيتين: الأولى لأنك اخترتها، والأخرى لمصلحة تنفعني وتنفعك. فبما أن معرفتي جيدة بالزائرين اليزديين الذين يفدون إلى مدينة مشهد، لذا سنرسل كتبنا الدراسية معهم إلى يزد، ثم نذهب نحن بعد ذلك إلى هناك. ثم نرسل الكتب أيضاً من يزد إلى أصفهان، وهم لن يأخذوا منا أجرة كل ذلك. وبما أن أصفهان بعيدة عن متناول والديّ، فسنبيع أحد الكتب إذا اضطررنا إلى ذلك لنستعين بثمنه.

قلت: نعمَ ما رأيت. ثم جمعنا كتبنا وأرسلناها مع اليزديين، بينما سافرنا نحن بعد بضعة وعشرين يوماً على وفاة ناصر الدين شاه[1]، وبعد أن أخذنا الإذن

(١) قتل بعد خمسين عاماً إلّا شهراً من الحكم الفاسد الجائر بإطلاقات نارية من مسدس أحد طلاب العلوم=

من أبوينا في أن نعمل ما نراه مناسباً. وضعنا أثاثنا المتواضع على بغل هرم جاء به رفيقي، وكان عبارة عن بساط رقيق ووعاء نحاسي يوضع فيه الخبز وكاسة وأدوات الشاي وسماور، إضافة إلى كتاب (الكشكول) و(الكلمات المكنونة).

عودوا.. وإلاّ:

وفي طريق مجدب اتجهنا نحو يزد، وقد جاء بعض رفاقنا لتوديعنا، ثم رجعوا بعد ذلك إلّا رفيق طريق سبزوار الذي أصرّ على المجيء معنا حتى وصلنا شريف آباد وهناك بتنا ليلتنا، وما أن حل منتصف الليل حتى أفقت على صوت يسأل أحد الأشخاص عن طلبة للعلوم الدينية وكان يعطي أوصافنا، رفعت صوتي وصحت: تعال، فنحن هنا.

كانا اثنين أحدهما الشقيق الأكبر لرفيق طريق سبزوار، وكان بيد كل منهما هراوة. وقد طلبا إلينا العودة إلى مشهد. أيقظت رفيقيّ وصنعنا شاياً فشربا وشربنا. وقد ظلاّ مصرّين على عودتنا جميعاً إلى مشهد.

قلنا: إن ذلك مستحيل. لكن إن أردتَ فخذ أخاك معك.

امتحان علمي في الطريق:

وبعد أذان الفجر، صلينا. ثم تحرك الأشخاص الثلاثة إلى مشهد، بينما اتجهنا أنا ورفيقي اليزدي إلى جهة تربة حيدرية[١]. وكنا نسير لوحدنا في أغلب الطرق التي مررنا بها. إلّا أننا لم نكد نصبح قريبين من قلعة كافر حتى برز علينا من جهة القفر فارس مسلح وقد أردف خلفه امرأة. أما نحن فقد امتلأنا رعباً. وعلى الرغم أننا لم نكن عطاشى، فقد طلبنا منه ماء، فناولنا وشربنا. عندها سألنا: من أنتما وإلى أين تنويان الذهاب؟

=الدينية الميرزا رضا كرماني بتشجيع من السيد جمال الدين الأسد أبادي الذي التقاه في استانبول في نفس العام، وكان مقتل ناصر الدين شاه في ١٧ ذي القعدة لعام ١٣١٣هـ ـ (١٨٩٦م) أثناء وجوده في مرقد السيد عبد العظيم الواقع في الريّ قرب طهران الحالية.

(١) من مدن إقليم خراسان وتقع إلى الجنوب من مشهد.

قلنا نحن طالبان للعلوم الدينية كنا في مشهد ونريد الآن الذهاب إلى أصفهان.

قال: ولِمَ تذهبان إلى أصفهان؟

قلنا: إنّ الدراسة أفضل في الغربة.

قال: أين وصلتم في دراستكم؟

قلنا: لقد درسنا: النحو والمعاني والبيان والمنطق، وشيئاً من الفقه والأصول.

قال: اعربا هذا البيت:

وما بتا وألفٍ قد جُمعا   يُكسر في الجرِّ وفي النَّصبِ معا

قلت: الواو للاستئناف، و(ما) موصول وهو مبتدأ، (بتا) جار ومجرور متعلق بـ(جُمعا) و(ألف) عطف، (قد) حرف تحقيق، (جُمعا) فعل مجهول ونائب الفاعل ضمير يعود على الموصول، و(جُمعا) صلة الموصول. (يُكسر) خبر للمبتدأ، (في الجرّ) متعلق بـ(يكسر)، (وفي النصب) عطف على في الجر، (معاً) حال، وقوله (في الجر والنصب) يعني أن ما يُجمع بإضافة ألف وتاء إلى آخره، تكون حركته الكسرة في حالتي النصب والجر.

فقال: اعربا هذا البيت:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسِقْطِ اللِّوى بين الدَخول فحَوْمَلِ

قلت لنفسي: عجيب أن يحصل الماء العذب في هذا القفر، وأن يكون هذا الغريب الجلف أنيسنا الوحيد. كان الماء الذي سقانا إياه ماء الحياة، وبإعطائه الماء لنا أصبح واضحاً أنه ليس قاتلنا، ومن سؤاله عن أشعار السيوطي ثبت أنه طالب مثلنا ومن صنفنا. وقد أردنا بجوابنا على أسئلته أن نعلمه أننا أهل علم ولم نحمل اسم (طالب) جزافاً. كان ذلك البحث بيننا سبباً لزوال الرعب عنّا، ولأن الأذى يمكن أن يصدر من بعض الطلاب، فقد ظلَّ احتمال صدور الأذى منه قائماً.

ونظراً لأن الغلبة في البحث قد تكون سبباً للشفقة مما يجعله يخلي سبيلنا، فقد قلنا له: إننا لا نعرف إعراب البيت الثاني، فما كان منه إلّا أن لكز حصانه وولّى عنا.

محاججة الصوفيين:

وهكذا مضينا نحن الإثنين في سبيلنا إلى أن بلغنا حدود گناباد[١] فنزلنا في أحد النُزل التي بناها الشاه عباس حيث إن الناس هناك من أتباع الملّا سلطان فأحاطت بنا مجموعة من الدراويش المتصوفة وكانوا يرومون تحويلنا إلى مريدين لشيخهم، فقال أحدهم: إن المقصود من غزل الشاعر حافظ الشيرازي الذي يقول فيه:

تجلّى بوجهه الذي رآه ملاك العشق الذي لم يعشق فأخذته صعقة الغيرة وأحرق العالَم

إلى آخر الأبيات، إنما كان أمثال شيخنا وليس الصعاليك.

قلنا: ليس الأمر كما تصورتم، وربما كان المقصود ذلك العالِم غير المعروف الذي يجلس بين يديه متأدباً شيخكم لسنين طويلة كي يقتبس من علمه شيئاً، بل إن شيخكم الذي يطلب الشهرة ويطلب المريدين هو غير كامل حتى الآن، ومرتكس في الأنانية، وما دام جَبَل الأنانية باقياً فهو لم يطهر، ولأنه قد قيل: «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب»، وما دام لم يتطهر من أنانيته، فلن يهتدي إلى طريق الحق الذي ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٢]، بل إننا نعلم أفضل من شيخكم مع اعترافنا بأننا ما زلنا طلبة صغاراً، ينبغي علينا أن نجهد أنفسنا سنين طويلة في المشاق لنسير في طريق العلم والهداية لحضرة المعشوق، ونعلم أننا إن لم نتحول إلى (لاشيء) لا نغدو (شيئاً)، أي أن نفنى لنبقى في الحق كالحديدة المحمّاة، ترى هل يستطيع شيخكم الذي يغدو بواسطتكم ساعة بعد ساعة أكبر وأوسع شهرة، أن يصل مرتبة (الفناء)؟ بل إنه يكذب فيما يدّعيه من أنه أصبح كالحديدة المحماة يفعل فعل النار، إن مجرد طلب المجالس الحاشدة والرياض المونقة يجعله شبيه الفرعون في طلب الرئاسة.

كانوا أكثر من أربعة أشخاص، سيطر عليهم الغضب ولم يكن لديهم جواباً، فانسحبوا، ثم بعثوا بهم في أثر أحد الروحانيين الذي جاء وكان ذا عمامة صغيرة وشارب طويل، وبعد أن حيّانا وسأل عن أحوالنا وعن وجهتنا في السفر، قلنا إننا ذاهبون إلى أصفهان بهدف الدراسة، فقال:

إن العلم الشائع هو الاجتماع على القيل والقال فلا ينتج عنه كيف ولا حال

---

(١) مدينة في خراسان قريبة من «تربة حيدرية» المذكورة آنفاً.

(٢) سورة الواقعة، الآية ٧٩.

قلنا: إن هذا الشعر للشيخ البهائي، ولكن النبي ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» و«اطلبوا العلم ولو في الصين»، والمراد من العلم الواجب هو العلم بالشرع والدين من العقائد والأخلاق والأحكام الفرعية.

فقال: نعم، ولكن هذا القدر إنما هو لعوام الناس، والمقصود من الشعر الذي قرأته الخواص من الناس الذين إذا أرادوا الحلول في الأحوال وحصول المكاشفات فلا بدّ لهم من هادٍ ومرشد. وبعبارة أخرى: يجب عليه أن يكون سالكاً في إحدى الطرق، وأن لا يعكف على دراسة مسائل الطهارة والنجاسة والحيض والنفاس كفقهاء هذا الزمان الذين خاطب الله أمثالهم بقوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[1].

قلنا: الادعاء بأن ديانة الخواص هي غير الشريعة التي هي لعوام الناس هو كلام غامض فهلا أوضحتموه؟ فإذا كانت (الطريقة) دين غير القرآن، فينبغي أن يُنزّل قرآن آخر لـ(الطريقة)، ولم يُنزّل قرآن بذلك، وإن كان الذي ورد في القرآن: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2] هو خطاب للجميع، فكذلك قوله: ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3] و﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[4] هو خطاب للجميع أيضاً.

وبصورة عامة، فإن الله قد أمر عامة الناس أن اسعوا في مدارج الكمال وكونوا من خواصّي ليكون مقامكم في جواري، والنتيجة هي أن أولئك الذين عملوا بأوامره أطلق عليهم أسماء (الخواص) و(أولياء الله) و(العارفين)، أما الذين تقاعسوا وقصّروا في العلم والعمل، فهم الذين يقال لهم العوام والفسقة والجهلة وأمثالهم.

إذاً، فنحن نرفض أن يكون شيخكم من خواص وأولياء الله، لأنه وبكل وضوح من طلاب الدنيا والرئاسة وقد قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٥٢.
(٢) سورة النور، الآية ٥٦. وأيضاً وردت في سورة المزمل، الآية ٢٠.
(٣) سورة البيّنة، الآية ٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآيتان ١و٢.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، وإذا افترضنا جدلاً أنه من الخواص، فالخواص كثيرون، وليس ذلك منحصراً بفرد، بل إنه يوجد من هو أكثر خاصّية من شيخك الذي أنت مريده، فكل العلماء العاملين من الخواصّ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فإن حصلت له الأعلَميّة أثناء ذلك فلا بدّ من تشخيصه والإشارة إليه مثل: الشيخ مرتضى[٢] في عصره والميرزا الشيرازي الذي توفي في أيامنا، والآخوند الملّا كاظم الخراساني[٣] الذين ثبتت أعلميتهم، فأصبحنا مقلّدين لهم، فما يريد شيخكم أن يقول بعد هؤلاء، عندما تسمونه القطب والمرشد وتسيرون خلفه وتخطّئون الآخرين، بينما الحقيقة أن ذلك الذي يدّعيه هو خارج الديانة، لأنه معلوم لدينا أن الديانة الإسلامية لم تهمل شيئاً من العقائد الحقّة والأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة، ولم يقصّر العلماء أو يتقاعسوا عن بيانها والترويج لها. وإن كنتم لا تقولون شيئاً سوى نفس قول أولئك العلماء فالعلماء إذاً منهم، فلا لزوم لما يقوله شيخكم (أنا لوحدي المرشد الكامل) وما إلى ذلك من التغنّي الذي يُروّج له في الهند والسند ومصر والشام بواسطة بعض الشياطين بأساليب الوعد والوعيد.

قال: إنك قد تطاولت كثيراً، وإن جناب شيخنا لا يبخس إطلاقاً من أقدار العلماء والمجتهدين، بل إنه قد قال مراراً وتكراراً إنهم في اختصاصهم وعلمهم بالفروع أفضل مني، وكثيراً ما كان يفتح الرسالة العملية للميرزا الشيرازي عندما تطرح عليه مسألة شرعية، وينظر إلى ما فيها، ويجيب ما هو مطابق للرسالة التي ألّفها مجتهدك ومقلّدك، بل إنه يقول: إن رأيي لا اعتبار له في الشريعة:

أخذنا لبّ القرآن ورمينا قشوره إلى الحمير

---

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.

(٢) مرتضى بن محمد أمين الأنصاري (١٢١٤ ـ ١٢٨١) فقيه إمامي ورع كان مقيماً في النجف وتوفي فيها من أشهر مؤلفاته كتاب المكاسب.

(٣) ولد عام ١٢٥٥ وتوفي عام ١٣٢٩ هـ علم من أعلام الشيعة الإمامية وأبرز علمائهم في الحركة الدستورية التي قامت في إيران عام ١٩٠٦ م كان يلقب بـ(أبو الأحرار) أما شهرته العلمية فقد سارت بها الركبان وهو المبرز في علم الأصول وألّف فيه كتابه المعروف الكفاية وسوف يأتي في الكتاب الكثير من أخباره.

فإذا سألت عن لبّ القرآن قلت لك: إننا وضعنا لبواطن القرآن اسم الطريقة والحقيقة، وباب هذا العلم منحصر بحلقاتنا، فإذا رجعت القهقرى إلى التاريخ وجدت أن للنبي ﷺ ولكل واحد من الأئمة عليهم السلام أصحاباً على نوعين:

فللنبيّ نجد أصحاب السرّ أمثال: زيد بن حارثة، وسلمان الفارسي، وعلي بن أبي طالب. وأصحاب الظاهر أمثال: ابن عباس وسائر الأصحاب.

وأما الإمام علي عليه السلام فله من أصحاب السرّ: ميثم، وكميل، ومحمد بن أبي بكر وأمثالهم، ومجموعة أخرى من أصحاب الظاهر.

ونجد لبقية الأئمة من أصحاب السرّ: معروف الكرخي، وبشر الحافي، وأبا يزيد البسطامي. ومن أصحاب الظاهر: زرارة بن أعين، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم، والقميين في زمان الإمام الحسن العسكري. وكما أن الأحكام الشرعية قد وصلت في أيدي أصحاب الظاهر على مرور الأزمان إلى المجتهدين، فأصبح الناس لهم مقلِّدين، فكذلك سرّ أسرار العالم التي قد جاءت بأيدي أصحاب الباطن حتى وصلت إليّ، ولا بدّ للناس الذين يريدون معرفة الأسرار وتصفية البواطن أن يتَّبعوني.

قلنا: إننا لا نفهم اصطلاحات السرّ واللبّ في القرآن، فمدار الأمر على خلوص النية التي لا تصحّ إلّا برفض الأخلاق الذميمة واستبدالها بالأخلاق الحميدة، وبديهي أن ذلك يحتاج إلى الجهاد الأكبر والرياضات كما قيل: «عليكم بالجهاد الأكبر». والآخر: حفظ الأمانة الكبرى والولاية العظمى بواسطة مجتهد أهل بيت الزهراء عليها السلام وكلّ من ملأت رأسه تصورات الاغتصاب والخيانة لهذا المجتهد كأمثال شيخك المدّعي لمقام الولاية والتصرف في البواطن، سوف يحشر مع الغاصبين من الصدر الأول للإسلام.

جاء مدّع إلى حلقتنا ليشاهد فامتدّت يد الغيب ولكمته في صدره

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1].

فإن كان هدف جناب الشيخ من التصوف هو الزهد، فهو ليس بزاهد. وإن كان تصفية الباطن، فقلبه ملآن بحب الدنيا والرئاسة. وإن تحوّل إلى الستر

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

والعزلة فهو ساعٍ إلى الشهرة وغارق في عبادة نفسه، ولا يوجد شرك أسوأ من عبادة النفس. فياً من تجرأت ففتحت دكاناً ينبغي عليك أن تخاف ذلك اليوم الذي يُدعى فيه كل أناس بإمامهم، فانظر بأي إمام اقتديت ومن أيّ عالِم أخذت؟

استمر ذلك النقاش حوالي أربع ساعات، قلنا بعدها: اذهبوا إلى بيوتكم فقد تعبنا كثيراً، وإن وراءنا غداً سفراً، وننصحكم أن تكتفوا بهذا القدر، وبقليل من التأمل والتفكير كي لا تضيع جهودكم. فنهضوا وذهبوا وكل واحد منهم يعضّ على أصابعه حسرة وندماً: ترى إن كانت ادعاءات ذلك المدّعي صحيحة، فلِمَ كل هذا الانغماس في الشهرة والدنيا ولذائذها بينما لم يكن كذلك أي من العرفاء المعروفين، بل كانوا مستورين ومنعزلين ومهاجرين في الفلوات؟

مغادرة الصوفيين:

وفي الصباح تحرّكنا، وعلى الرغم من أن الوقت كان في أوائل الربيع إلّا أن القفار كانت تلفحنا برياح حارة كأنها خارجة من تنوّر، وكنا دائماً نتّقيها بوضع اليد على جانب الوجه، وكانت تلذع بدورها وجوهنا وعيوننا.

عند انتصاف النهار رأينا عين ماء حلوة وقد أحاطت بها أشجار الطرفاء مع خضرة جميلة، ولما لم نكن نتوقع ذلك في تلك الفيافي المقفرة فقد ألقينا أحمالنا من أيدينا على الأرض، وأطلقنا البغل ليسرح بحرية في تلك الأعشاب، ثم وضعنا عمامتينا على أغصان الشجرة ووضعنا عليها عباءتينا فصارتا لنا كحاجز جهزنا في ظلّه الشاي وشربناه بسعادة، وكأننا في بيت الخالة، مع أنه كان بيننا وبين أقرب مكان مأهول ما يصل إلى سبعة فراسخ، إضافة إلى حرارة الجوّ والطريق الملآن بالمخاطر خاصة وإن الشاه قد مات للتّو.

تحرّكنا بعد أن انتهينا من شرب الشاي، فوصلنا عند الغروب إلى إحدى القرى، ولما كان النّزل القادم يقع على عشرة فراسخ فقد قلت لرفيقي الشيخ: إن نزل (فرداً) بعيد، ولو بقينا في هذه القرية وتحركنا في السَّحر فليس مستبعداً أن تؤذينا كلابها، لذا فأنا أقترح إن كان هناك ماء قريب من هذه القرية، أن نذهب ونمسي هناك، وبعدها تكون حركتنا مناسبة في أي وقت من الليل. فوافقني رفيقي على ذلك الرأي، ولما سألنا الأهالي عن أقرب ماء من القرية قالوا: إنه يبعد بمقدار فرسخ واحد منا.

غادرنا القرية، ولكي لا نثقل على البغل حمولته فقد سكبنا ما كان عليه من الماء القليل الذي كنا نحتفظ به.

مضى على حلول الظلام ساعة، ولم نصل بعد إلى الماء الذي لو كان على مسافة ستة أقدام لما رأيناه لشدة الظلام. وقفنا ثم ذهبنا مئة قدم في كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة مخافة أن نكون قد خلّفنا حوض الماء وراء ظهورنا وابتعدنا في سيرنا عنه، فلم نهتد إلى شيء. ولخوفنا أن نموت عطشاً فقد ألقينا رحلنا في ذلك المكان ووضعنا المخلاة في عنق البغل ليأكل، بينما امتنعنا نحن عن الأكل مخافة العطش، ولخوفنا من اللصوص الذين قد يرون على البعد شعلة عود الثقاب فقد امتنعنا عن تدخين النارجيلة أيضاً.

نام رفيقي دون أن يعبأ بشيء، أما أنا فقد ظللت يقظاً حتى الصباح تملؤني المخاوف من الحيوانات واللصوص، وكنت خلالها أنطرح أحياناً وأجلس أخرى.

عطاشى عند الماء:

عندما أطلّ الفجر اكتشفت أن حوض الماء كان أمام الطريق بمسافة عشرين قدماً، فأيقظت رفيقي وذهبنا إلى الحوض، وتوضأنا وأقمنا الصلاة، ثم جهّزنا الشاي وشربناه، وأردنا أن نقطع سريعاً الفراسخ العشرة تلك، ولكن بما أننا لم نرَ الحوضَ في الليل، فقد عزمنا على أن نمكث هناك نصفاً أو قريباً من نصف الوقت الذي قضيناه في الليل، ولذا فقد تحركنا من هناك قرب الظهر فوصلنا إلى أحد محطات القوافل في الساعة الرابعة مساء، ووصل مع وصولنا شاب متسكع كان قد رفع أطراف ثوبه إلى أعلى ودفع طاقية رأسه إلى الخلف، ثم قال ناصحاً مخوِّفاً: ما الذي جاء بكما أيها الصبيان في هذا الليل عبر هذه الفلاة المليئة بالمخاطر، فالطرق غير آمنة، والشاه مقتول، والبلد في حالة عدم استقرار؟

لصٌّ أم سائح؟

فتيقنت أن ذلك الشاب كان لصاً، وأنّ ذلك النّزل كان يبعد مائة قدم عن القرية التي لم تكن عوائلها لتزيد عن خمس أو ست عوائل، لذا فقد آليت أن لا ألقي الهراوة من يدي، وأبقيت نفسي بعيداً عن البغل وعن ذلك الشخص.

قلت لرفيقي: أنزل الأمتعة عن ظهر البغل وضعها في هذا الإيوان النظيف، وافرش السجادة وهيىء السماور، وكنت وأنا أصدر تلك الأوامر له ما أزال أحمل الهراوة بيدي حَذَراً من ذلك الشخص المتسكع، بينما كنت أتظاهر بالانشغال بأموري الخاصة.

وعندما رتّب رفيقي الأمتعة في الإيوان، جلست على السجادة وقد وضعت الهراوة إلى جانبي وأردت تدخين الغليون. فسأل رفيقي الغافل ذلك الشخص عن مكان الماء الذي كنا محتاجين إليه، فقال: إنه في خارج النزل، إلّا أنه عميق وينبغي أن تنزل إليه سلماً يبلغ خمسين أو ستين درجة، فأعطني الجرة كي آتيك بالماء. فقال رفيقي: لا تكلف نفسك، إذ يكفي أن تدلّني على الطريق وسأذهب بنفسي لإحضار الماء. ثم حمل الجرة ليذهب برفقة ذلك الشخص الذي بدأت الآن أشك في كونه لصاً. إلّا أنني وعلى سبيل الحيطة قلت لرفيقي: إن لي عندك حاجة فلا تذهب، وسيتحمل هو مشقة جلب الماء. فأخذ ذلك المسكين الجرة من يد رفيقي وذهب لجلب الماء، بينما كان هذا ينتظر مني أن أقول له ما حاجتي. وهنا قلت له: أيها الطالب المغفل، إنك لم تعرف هذا الشخص حتى الآن، فكيف تريد في هذا الليل البهيم مرافقته والنزول خمسين أو ستين درجة داخل البئر؟ فلو خنقك بصمتٍ فمن يكون هناك ليمنعه من ذلك؟ ولماذا تكون على هذا القدر من البلادة، ولماذا المجاملة في غير محلها؟

ثم جاء ذلك الشخص بالماء فأعددنا منه الشاي وشربناه معاً وأكلنا وأطعمناه أيضاً. وتبيّن من خلال مواصلة الحديث معه أن الرجل لم يكن لصّاً وإنما هو سائح. وعندما حان الوقت لم ينم بجانبنا، بل نام قرب باب النزل، لشكّه في اطمئناننا إليه.

ولقد عجبت لأمر الناس واختيارهم السكنى هناك، إذ إنني لم أجد في تلك الأراضي غالباً نباتاً أو عشباً حتى ولو بقدر خلال الأسنان، وكانت أحجار الجبل هناك سوداء لشدّة الحرارة كالمحترقة بالنار، أما الماء فقد كان يُجمع في الأحواض من الأمطار لشربهم وشرب دوابهم. وإذا أرادوا تهيئة مؤنة سنتهم من طعامهم وعلف دوابهم، فقد كانوا يجلبونها من مسافة عشرة أو عشرين فرسخاً. وحين يحدث أحياناً أن ينضب حوض الماء، فإنهم يذهبون إلى هناك ويجلبونه من

تلك المسافة البعيدة. وليس لديهم ما يربطهم بتلك الأرض سوى منازل حقيرة بلا أبواب وسقوفها ذات قباب لا تستحق البقاء لأجلها.

تحرّكنا صباحاً فوصلنا في المساء إلى قرية محمد الواقعة على بعد عشرة فراسخ من طبس، وكان محتماً علينا أن نذهب إلى طبس لشراء ما نحتاجه من السكر والشاي وعلب الثقاب والشمع والتبغ وغير ذلك، وإلّا فإن طريقنا كان يؤدي بصورة مباشرة إلى يزد ولا يحتاج إلى المرور بطبس.

رفاق سوء:

وضعنا رحالنا مع أذان المغرب في خان تلك القرية، وقد اتفق أن نزل معنا فارسان اثنان مع مرافق لهما وبغل قوي وضع عليه كيس نقود، اقتربوا منا وسألونا عن وجهتنا فقلنا: نريد طبساً.

فقالوا: نحن أيضاً نريد الذهاب إلى هناك، وإذا رضيتم بصحبتنا فسنتحرك هذا المساء لنصل إلى طبس مع أولى نسيمات الصباح الباردة، فلا نعاني شيئاً من حرارة الشمس.

قلنا لهم: إننا حين نتحرك في حرارة النهار بسبب عدم وجود رفيق يرافقنا، وإلّا فإن السير في الليل لطيف يصبح فيه الطريق الطويل قصيراً، بل إن معراج النبي ﷺ كان في الليل. والآن وقد وجدنا فيكم الرفاق الذين يعلمون الطريق بسهله ووعره فيا له من توفيق. فاتفقنا أن حركتنا ستكون في الثانية عشرة ليلاً.

كانوا من جباة ضرائب الدولة العاملين في طبس وعندما تحرّكنا كنا خمسة أشخاص: ثلاثة مشاة وأمامهم بغلان وفارسان اثنان يحملان بندقيتهما مع عتادهما، وكانت السماء ملبدة بالغيوم والظلام حالكاً، وعندما أصبحنا في الفلاة رأينا جمهوراً غفيراً يغطي مساحة واسعة طولها فرسخ وعرضها فرسخ أيضاً، كان الناس منتشرين في تلك الفلاة الواسعة، ولهم ضجة وصخب، وأصوات متداخلة حيث ينادي كلّ واحد رفيقه: كَلْ حسين، وكَلْ محمد[1]، والشيخ علي، وحاج جعفر. تعال هنا، أو اذهب إلى هناك. بينما كان في يد كلّ منهم مشعل أو

(١) كَلْ: مرخّم كربلائي. وتعني الشخص الذي رزق زيارة كربلاء.

فانوس أو عود نصف مشتعل، كما لو كان هناك احتفال وزينة أو ألعاب نارية في أحد معسكرات الجيش.

وبعد مرور فترة من الوقت. وبعد تلك الضجة المزعجة المضحكة بدأوا يبتعدون عنا قليلاً قليلاً إلى أن غابوا عن أبصارنا وانطفأت مشاعلهم وخيّم الصمت على المكان. لقد كانوا مسافرين من أهل يزد ذاهبين للزيارة، فأضلّوا طريقهم ثم اهتدوا إليه أخيراً.

بعد أن انتهينا من ذلك المشهد، وانتبهنا إلى أنفسنا، اكتشفنا أننا أيضاً قد أضعنا الطريق وكنا نسير على غير هدى. ولما يئسنا من العثور على الطريق عاد واحد من الفارسين إلى القرية، وما أن انقضى شيء من الوقت حتى جاءنا وهو يسوق بالسّوط اثنين من أهل القرية كان قد أيقظهما من نومهما وجاء بهما ليدلّانا على الطريق، فلما وصلا إلينا توسلا إلينا أن نتركهما وشأنهما فإنهما لا يعرفان الطريق. وبطبيعة الحال فإن جباة الضرائب لم يعيروهما انتباهاً بل وأسمعاهما بذيء الكلام. فاضطرا إلى السكوت مجبرين وسار أحدهما خلفنا بينما تقدم الآخر إلى الأمام.

بعد برهة من الوقت اكتشفنا أن القروي الذي كان يسير في الخلف قد لاذ بالفرار، فقال الفارسان: إننا سنجبر ابن الملعون هذا على الذهاب معنا حتى مدينة طبس. إلّا أننا وبعد أن قطعنا مسافة فرسخ واحد في السير بين الأشواك لم نجد للطريق أثراً. فسأل الفارسان ذلك القروي: إذاً أين الطريق؟ فردّ عليهما: ما الذي يدريني، لقد قلت لكم منذ البداية إنني لا أعرف الطريق. فاستيقن الفارسان أن الرجل صادق في كلامه. ومع ذلك فقد ترجّلا عن حصانيهما ثم انهالا بالضرب على رأس ذلك المسكين وشتماه بكل ما يعرفان من الألفاظ البذيئة، ثم قالا له: يا ابن اللعين، خذنا الآن إلى قريتك، أم تراك لا تعرف الطريق إليها ايضاً؟

قال: لنعد ولننظر ماذا سيحدث. ثم عدنا أدراجنا، ولمَّا يبقَ إلّا ساعتان إلى الصباح، وبعد السير الشاق بين الأشواك والسهر، وصلنا إلى قرية أخرى غير تلك التي انطلقنا منها.

ذهب الفارسان ومرافقهما إلى بيوت القرية، بينما بقيت أنا ورفيقي في الظلام أمام باحة مسقوفة كان خلفها بيت لكنه بغير باب، فظهر كما لو كان مسجداً.

فرشنا السجادة على الأرض وأنزلنا أمتعتنا أيضاً ونحن نعجب من أمر سفرنا في الليل ومن هذا المنزل.

جاء الذئب.. ضاع البغل:

ربطنا البغل على حافة جدول بعد أن علّقنا المخلاة في عنقه ثم نمنا. وكالعادة، فبينما تعالى شخير رفيقي، لم يزر النوم عينيّ. وكانت كلاب القرية تنبح بصورة متواصلة، فدار في خلدي أن ذئباً قد هاجم بغلنا، وأن نباح هذه الكلاب هو لأجل ذلك. وفجأة ـ وأنا سارح في تلك التصورات ـ سمعت صوت سقوط البغل في الماء فاستيقنت من صحة تصوراتي، وصرخت وأنا أقفز من مكاني، فهبّ رفيقي متسائلاً، فقلت: إن ذئباً قد هاجم البغل، فقفز هو أيضاً لهول المفاجأة، وركضنا نحو البغل، فرأيناه قد وقع فعلاً في الماء فحسب، ولم تظهر منه سوى أذنيه، وقد رفع مقدمة فكيه خارج الماء مخافة الاختناق، تعاونّا على إخراجه من الماء، فواحد أمسك به من ذيله بينما أمسكه الآخر من أذنيه، كما أعاننا هو أيضاً، ومع ذلك لم نخرجه من الماء إلّا بمشقة. كان الماء يتقاطر منه وحتى من برذعته، وبينما كنا منشغلين في أمر البغل بدأ المطر يتساقط بقطرات كبيرة وبشدة فضاق الأمر بنا، فتركنا البغل تحت رحمة المطر وخشية الذئب، وسحبنا أمتعتنا تحت سقف البناء الذي كان مفروشاً بالسرقين (فضلات الحيوانات) فقلت لرفيقي: إن هذا اصطبل وليس مسجداً ولا هو من المشمولين بـ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

كان لدينا نصف شمعة فأشعلناها ونام رفيقي، بينما رأيت أنا أنه لا مجال للنوم وأذان الفجر قريب.

أشعلت النار في السماور وانتظرت حتى لم يبق على طلوع الشمس إلّا ساعة، فجلسنا نشرب الشاي. ولما لم يمضِ إلّا ساعة على طلوع الشمس، حتى بدأت تصلنا الرسل من رفاق المساء الماضي جباة الضرائب يطلبون إلينا فيها التريّث لكي يذهبوا معنا. فأخذني الغضب وقلت: وأي علاقة لنا بهم كي ننتظرهم؟ هل يريدون أن يضلّونا ويتعبونا كما فعلوا الليلة الماضية؟ إن هؤلاء

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٥.

اللعناء من مدمني الأفيون، فمع مرور كل هذا الوقت على طلوع الصباح ما زالوا في بيوت الناس بالرغم من عشرة فراسخ بقيت أمامهم ليقطعوها.

تحرّكنا فوصلنا إلى مزرعة ملأى بالمياه والأشجار، فاسترحنا ساعة حيث أردنا المغادرة قبيل الظهر، وبينما نحن نريد ذلك، لحق بنا مخرّبو البيوت، جباة الضرائب، فقالوا: لا تستعجلوا، وانتظروا إلى أن نستريح نحن ساعة من هذا الجوّ الحار، ولم يبق من الطريق إلّا ثلاثة فراسخ، فإذا تحركنا بعد الظهر فسنصل إلى طبس قبيل الغروب. أما الآن فانشغلوا في أكل التوت اللذيذ لهذه الأشجار.

مع رفاق السوء ثانية:

ومرة أخرى أصبحنا حمقى، فوافقنا على طلبهم غافلين عن الحكمة التي تقول: من جرّب المجرَّب حلّت به الندامة.

مكثنا هناك إلى أن تحركوا فتحركنا معهم، وعندما حلّ الغروب، كنا لا نزال على أحد الجبال العالية، فتراءت لنا طبس من بعيد وما يزال بيننا وبين الوصول إليها فرسخان. فما كان من الفارسين إلّا أن همزا حصانيهما وتقدّما إلى الأمام، بينما بقينا نحن في الظلام، فأضعنا طريقنا وسلكنا طرقاً وعرة قادتنا خلال المزارع. وبعد مرور أربع ساعات على حلول الظلام نقدّر في كل ساعة منها أننا طوينا فرسخاً، كنا نسير في الظلام حيث كان رفيقي في المقدمة، بينما كنت أنا أسير خلف البغل، فأحسست بزحف أفعى هائلة بين الزرع الواقع على جانب الطريق، كانت تبدو ضخمة وطويلة بحيث إنني قدّرت طولها من خلال حركتها بمحاذاتنا فكان أكثر من خمسة أقدام، ولخوفي فقد ابتعدت وبدأت أسير جانباً. وكلما أمعنت النظر لم أرَ شيئاً بسبب طول سيقان الزرع حتى اجتازتنا.

قلت لرفيقي: هل أحسست شيئاً، كأفعى هائلة مثلاً مرت من جانبنا؟ فقال: لا، لم أشعر بشيء. وظل يكرر: لقد تعبنا وأضعنا الطريق أيضاً، فلنبقَ هنا حتى مطلع الفجر. وكنت أجيبه: تقدم قليلاً عدة خطوات فإن آثار العمران بدأت بالازدياد، ويبدو أن بلدة ما قريبة منا. ثم دخلنا في زقاق أحد البساتين الذي أفضى بنا إلى وسط السوق، فرأينا الدكاكين بأسرها مقفلة إلّا دكاناً لعلاّف كان يستعد لإقفال دكانه، فاستحلفناه بالله أن لا يُغلق الدكان، إذ لم يكن معنا طعام أو

علف للبغل. فلا شاي ولا خبز ولا إدام وقد أخذ منا التعب كل مأخذ، فالأقدام تؤلمنا والبطون جائعة والأجسام منهكة، وبغلنا كذلك.

قال الرجل: ليس في دكاني إلّا العلف، وأنتم بحاجة إلى علّاف وخباز وعطّار وبقّال. قلت: صحيح أن الدكان لعلّاف، إلّا أن صاحب الدكان هو كل شيء. أليس الله الخالق والصانع والرازق والزارع والحاكم والناظم والحافظ... إلخ، ثم أليس الإنسان مظهره التام وخليفته؟ فافعل ما تؤمر واسأل إني لك من الناصحين.

قدّم المسكين للبغل ما كان لديه في الدكان من علف. كما أعطانا سبع بيضات وسمناً ووقوداً. وبينما كنا نعدّ البيض، ذهب العلّاف وجلب لنا من بيته خبزاً وسكراً وشاياً كي نقضي ليلتنا هناك، حيث أجّلنا سفرنا إلى الغد، واعتبرنا ذلك اليوم يوم استراحة. اشترينا بعدها ثلاثة أرباع الكيلو من اللحم، وأعطيناه للخباز ليعدّه لنا، بينما ذهبنا إلى الحمام. وعند خروجنا ذهبنا للتفرج على بستان عماد الملك الذي كنا قد سمعنا عنه كثيراً كما قلنا شعراً في ذلك حينه:

ولما فرغنا من الغسل والدلك سألنا عن بستان عماد الملك

فتجوّلنا في البستان حيث رأينا تطعيم النخل الذي لم نكن قد رأيناه سابقاً. ثم جلسنا على حافة حوض كبير لندخّن النارجيلة، وكان هناك أكثر من خمسة بستانيين جاؤونا بمقدار من الإجاص الباكورة، وقد غيّرت الشمس وجوههم ـ كما وصفناهم في حينه ـ فاسودّت، كأنهم زوجات طُلّقت فاعتدّت.

التزود للسفر الشاق:

ذهبنا للسوق فاشترينا مؤنتنا من الثّقاب والشمع والتبغ والسكر بالقدر الذي يكفينا حتى وصولنا إلى يزد ثم عدنا عند الظهر إلى مقر إقامتنا في دكان العلاّف، فأكلنا غداءنا (ماء اللحم) ونمنا القيلولة. وعند استيقاظنا شربنا الشاي، فذهب عنّا شيء من التعب، إضافة إلى أننا سننام هذه الليلة بهدوء. كنا سعداء نتجاذب الحديث عن طعام العشاء. وعندما لم يبقَ إلى الغروب إلّا ساعة، وصل العلّاف وسألنا: إلى أين ستسافرون؟ فقلنا إلى يزد فقال: أليس معكما رفيق آخر؟ قلنا: لا، إضافة إلى عدم معرفتنا بالطريق، حتى إننا لم نصل إلى هنا إلّا بعد سؤالنا عن الطريق مرحلة مرحلة.

قال: إن الأمر سهل، ولكن في طريقكم وممر عبوركم عقبة كؤوداً، فعلى بعد أربعة فراسخ خارج المدينة يوجد رمل يقال له (رمل الجِمال)، لم يبقَ على حاله فهو كالدنيا التي تتّخذ في كل ساعة شكلاً ولوناً آخر. فإذا انحرفتم قليلاً نحو الشمال ستجدون جبالاً من الرمل لا تستقر في مكان واحد، بل هي متحركة، ومثلها الوديان والمنخفضات حيث لا يبقى على أثر ذلك طريقٌ واضح أو جغرافيا ثابتة ليتخذ الإنسان منها علامات ثابتة لتحديد مسيره. وكان الشاه عباس قد بنى على طول هذه الفراسخ الأربعة، أربعة أعمدة طول الواحد منها بطول الإنسان، قد خربت، وهي عديمة الفائدة أيضاً، إذ إنها غالباً ما تغرق بكاملها أو بعضها في الرمال، وعلى فرض سلامتها من أن تغطيها الرمال، فمن الممكن أن تقيم الرمال المتحركة بين كل عمود وآخر جبلاً عالياً يحجب رؤية العمود الأول عند الانتقال إلى الثاني فلا يعلم موقع الثاني على التحديد ليتحرك الإنسان في ذلك الاتجاه. ولو كان بناء الأعمدة قد تمَّ بحيث يوضع لكل واحد منها ذراع أو يد ممدودة باتجاه الطريق لكان الحال مجدياً، إلّا أن الأعمدة الأربعة تلك قد بنيت ملساء من جميع الجهات، وكأنها إنسان أخرس أصم لا يستطيع أن يعبّر عمّا يكنّه ضميره.

والخطر الآخر هو أن الرمل يبلغ من الهشاشة حدّاً يغوص فيه الإنسان أو الحيوان إلى الساق في جوٍّ جاف يسبّب العطش، لأن الأرض ليس فيها رطوبة، فحرارة الجوّ والشمس تجففان الهواء، إضافة إلى أن التعب والنشاط يجففان رطوبة البدن. فلو كان الجوّ رطباً بالقدر الذي يكفي لتنفس الإنسان، فإن ذلك يمكن اعتباره بمثابة الماء، حيث سيكون سبباً لترطيب الرئة والكبد، إلّا أن الهواء هناك كالدخان الذي لا رطوبة فيه إطلاقاً، وليس في الأرض رطوبة لتتصاعد بخاراً مع حرارة الشمس، وتدخل رئة الإنسان وكبده مع التنفس، فيعوّض البدن بسرعة عما يفقده، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الماء ملازماً للحياة عندما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]، وعندما ينعدم عنصر الماء هناك فستنعدم حياتكم أيضاً.

ومن الممكن أن لا تضلّوا الطريق بالاستعانة بمواقع النجوم الثابتة، حيث

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

يمكن ملاحظة وقوع النجم على أي عضو من أعضاء البدن، أو بملاحظة موقع النجم وعلى أي حال يكون، تماماً كما يُفعل خلال السفر في البحر. أما أنتم فلستم ممن سلك هذا الطريق سابقاً، ولم تسمعوا بعلامات نجوم السماء، ومن المؤكد أنكما لو سلكتما الطريق لوحدكما فستموتان في ذلك الرمل، إما من العطش أو من التيه، فعرضه أربعة فراسخ، أما طوله فالله أعلم.

قلنا: كم هي المسافة بيننا وبين ذلك الرمل؟

قال: أما بالنسبة للزائرين من أهالي يزد الذين لا يمشون في الطريق كسائر بني آدم، فهي أكثر من خمسة أيام بلياليها.

فتساءلنا: بأي شكل سيكون طريقنا ممكناً لاجتياز جسر الصراط هذا؟ فقال: لقد علمت أن مجموعة من الزائرين اليزديين سيحطون رحالهم غداً في نزل يبعد عشرة فراسخ، وسيتحركون من هناك ليلاً، فإن استطعتم اللحاق بهم من الآن حتى عصر يوم الغد، فسيكون بإمكانكم مرافقتهم واجتياز تلك المنطقة الرملية، فلربما نجوتم، وإلّا فلا.

لم يكن بأيدينا ونحن نستمع إلى تلك القصة المؤلمة من الطبسي إلّا أن نقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

بدء مسيرة المشاق:

تحركنا عصراً على أمل اللحاق بالقافلة كي نستريح بعدها، لكن أية راحة لنا في هذه الدنيا التي ليس فيها إلّا المتاع القليل من السعادة القصيرة.

قلت لرفيقي: لم يبقَ مجال للصبر، انهض لنسأل عن طريق تلك القافلة. ثم تحركنا إلى خارج المدينة حيث كان الطريق واضحاً ما دام هنالك ضياء، فلما أجنّنا الليل، ظهرت الأرض السبخة التي لا ينمو فيها عشب ولا زرع أمامنا قطعة واحدة بيضاء. كان الدرب وعراً وكنّا كلما قطعنا عدة أقدام أشعلنا عود ثقاب وجلسنا نتفحص الأرض لمعرفة الطريق. وبينما نحن كذلك وقعت أعيننا على قطع من روث بغل فسررنا كمن أعطي الدنيا، وكان سرورنا يكبر كلما كان الروث رطباً، وظللنا على هذا المنوال إلى أن لم يبق على أذان الصبح إلّا ساعتان،

وصلنا بعدها إلى الطريق العام، فجلسنا تملؤنا أحاسيس الرهبة والفرح، بعد أن قضينا ليلة كان فيها الأمل بالحياة معلقاً برؤية روث البغال الذي كان نعمة كبيرة وجب علينا شكرها.

وصلنا أخيراً إلى حوض ماء بُني في مقدمته إيوان مسقوف، بعد أن استخدمنا علبتي ثقاب كاملتين في المساء، فقررنا إلقاء رحالنا هناك للاستراحة مما عانيناه في الطريق.

أضأنا الشموع وأعددنا الشاي، استولت الرهبة عليّ وأنا أسرح بصري في تلك المساحات الواسعة من الظلام التي لم يكن فيها من الضوء سوى بقعة صغيرة عند حوض الماء. إلّا أن المغامر بنفسه لا يعبأ بالأهوال.

توكلنا على الله وشربنا الشاي ودخّنا الغليون. وعند اقتراب الفجر رأينا عدة أشخاص يسيرون في نفس طريقنا ثم تجاوزونا، فلملمنا أمتعتنا بسرعة ووضعناها على البغل، وانطلقنا خلف أشباحهم السوداء التي كانت دليلاً لنا أفضل من الاستدلال بالروث!.

كنا قد وصلنا مع طلوع الشمس إلى إحدى القرى، فسألنا عن حوض للماء فقيل إنه يبعد فرسخين من هناك، لذا لم نحمل معنا شيئاً من الماء من القرية مراعاة لحال البغل الذي كنا نحبه كواحد منا، لأننا نعلم جيداً أن ما حمّلناه لم نكن ببالغيه إلّا بشق الأنفس، فله الحمد والشكر.

عندما أصبحنا على نصف فرسخ من القرية رأينا أحد الرعاة، فسألناه عن المسافة المتبقية إلى حوض الماء فقال إنها فرسخان. لم نكن عطاشى ونحن في الصباح الباكر، إلّا أن التعب والإرهاق والسهر قد أخذت منّا مأخذها، فانتحيت جانباً واستلقيت على الأرض لإراحة أعصابي، فتذوقت من ذلك طعم الراحة، تلك الراحة التي تفهمها البغال ـ التي دأبت على ممارسة الاستلقاء ـ أكثر من الإنسان.

سار الرفيق ونام الشفيق:

قلت لرفيقي ـ وأنا مستلقٍ ـ تقدم إلى الأمام مع البغل، وسألحق بك. فذهب، بينما استولى النوم عليّ وغلبني. وبطبيعة الحال فلن يكون بمقدوري أن أفيق بسرعة منه.

وحين أفقت كنت مبلّلاً بالعرق نظراً لحرارة الشمس وظمآناً، تطلعت بهلع إلى الشمس فوجدتها قد انتقلت من موقعها الذي كانت عليه عند أول نومي وهو أوّل الأفق، إلى دائرة منتصف النهار، وتذكرت قول الراعي الذي قال إن الباقي للوصول إلى حوض الماء فرسخان. وقدّرت أن عمري لن يطول أكثر من نصف ساعة، لن أستطيع أن أقطع فيها أكثر من نصف فرسخ، ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[1]. نطقت بالشهادتين وعقدت العزم على قطع الطريق ركضاً، مع يقيني أن الركض لنصف ساعة لن يوصلني إلى حوض الماء، الذي لم يكن البقاء متصوراً دون الوصول إليه. لكن حب البقاء هو الذي دفعني إلى ذلك.

يتّضح أن الأمور الكونية الطبيعية ولو حتمت وقوع الإنسان في اليأس، فإنّ الأمل المستند إلى ما وراء الطبيعة يكفي حافزاً للتحرك، على الرغم من عدم انتباه الإنسان إلى ذلك. وأن منتهى كمال الإنسان هو في التوجه إلى ما يستند إليه وهو معنى (شرح الصدر) المسمى ـ اصطلاحاً ـ التيقن من العلم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾[2] أي أن الجمادات والحيوانات تسبّح إلّا أنها لا تعلم بتسبيحها، بخلاف الإنسان الذي يعلم ذلك.

وربما أدت غفلة الإنسان إلى أن سبب الركض ليس الأمل بالله، لأن وقوع المعجزة ممكن في تلك الحالة دون اللجوء إلى الركض، والجواب على ذلك هو أن عطاء الله مستور عنا خلف حجاب، وقد أبى الله أن يُجري الأمور إلّا بأسبابها، على الرغم من عدم وجود علاقة ظاهرية. ومما هو رائج على ألسنة العوام: (منك الحركة ومن الله البركة) وهذا هو مقام التوكل، أي أن يكون أساس العمل منك، أما التأثير والنتيجة فمن الله: (اعقل وتوكّل).

العثور على الرفيق:

ركضت بمقدار نصف فرسخ كانت الريح خلالها في مواجهتي، فرأيت جداراً عالياً على بعد مئة قدم على جانب الطريق، فتسلقته وقد بلغ منّي الظمأ مبلغه وأنا

---

(١) سورة الزمر، الآية ٥٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

في يأس من العثور على حوض الماء. ولكنّي رأيت هذا الحوض أمامي فصعقت لشدة فرحي. كان رفيقي نائماً، والبغل واقفاً وقد انهمك يأكل من المخلاة المعلقة في عنقه، وإبريق الشاي على السماور الذي توقف عن الغليان وبرد ماؤه. ذهبت إلى الحوض وشربت قليلاً من الماء فوجدته بارداً وعذباً وصافياً، فعُدت وأيقظت رفيقي وسقيت البغل الماء. فمن احترق قلبه يعرف محروق الفؤاد.

ملأت مخلاته بالعلف، ومسحت على رأسه، وأشعلت السماور ثانية، وجمعت الحطب وأوقدت النار ووضعت عليها إبريق الشاي ثانية، وقلت: أيها الطالب، صبّ الشاي وائتني به، لأتناوله على حافة الحوض كي تسرّ عيني أيضاً من إبريق الماء ومنظره الصافي. قال: لِمَ كل هذا التفنن؟ قلت: أنا واحد من الذين قدموا من أواسط جهنم إلى الجنة. أو واحد ممن أُعيد إلى الحياة بعد موته ليعمل صالحاً. فأيّ طالع حسن عندي، وأي حظ أبيض، وأي مرحمة، فلتوّي كنت معذباً في جهنم، ثم دخلت الجنة ونعمت بلذائذها. يا إلهي! هل إن الجنة والنار هو ما يراه الإنسان؟ وإلّا فإن نصف الفرسخ السابق لا يختلف في شيء عن هذا، فالسماء والأرض والشمس هي نفسها لم تتغير!

قال رفيقي: يبدو أن أمامنا أكثر من ثلاثة فراسخ للوصول إلى قافلة اليزديين. فلنعجل علّنا نلحق بهم.

قلت: وما اليزديون؟ إنني لن أتحرك من هنا قبل أن أشرب ثلاثة أو أربعة أقداح من الشاي على حافة هذا الحوض الجميل وأدخن ثلاثة غلايين من التبغ. إن الربَّ الذي أنجاني بدون اليزديين من هذا البلاء المفاجىء بعد أن يئست تماماً من كل الأسباب الطبيعية، سينجينا من (رمل الجمال) المتحرك. فرد عليّ: إن كل الحوادث والأمور الدنيوية منوطة بأسبابها. قلت: إن أصل الأسباب لا سببية له. وقد سميت الأسباب أسباباً بدون ملاك. فحين تُنكر تأثيرات الكواكب وخاصية الإحراق في النار، فما قيمة سببية اليزديين؟ نعم إن أفعال الله مثل الماء المنساب من ساقية طويلة إلى البستان، فلو قالت النباتات إن وجود هذه الساقية هو سبب رغبتنا في الماء، لقلت إن النباتات عمياء.

إنّ إرادتي أن أرى سبب وجود العين كي أميط الحجب من أساسها

والأسباب في حقيقتها هي حجب مانعة من رؤية الحق، أي أن الحق غنيٌّ بذاته، وقد حجب نفسه عن الغرباء بحجب الأسباب، وينبغي بذل الجهد الكبير والجدّ الهائل والتوسل الخارق لكي نراه. والله يحب أن يكون عبده كادحاً وعاملاً ومتحملاً للمشاق في سبيله ويكره الكسل والتواكل. (أعوذ بالله من الكسل والفشل). وإلّا لأتمّ كل الأعمال بيده دون الحاجة إلى وزير ومعاون. وإلّا فأين الكذب في قول أهل القرية والراعي من أن المتبقي من المسافة كان نصف فرسخ؟ ربما كانوا صادقين في قولهم ذاك، وأراد الله أن أنجو من العطش، فطوى لي الأرض فجعل لي الفرسخين نصف فرسخ، ثم أرخى تلك الطرق مرة أخرى فعادت إلى حالها الأولى. ولعلنا سنكون مخطئين في تصوّرنا بأننا لن نجتاز المنطقة الرملية المسمّاة (رمل الجِمال) إلّا إذا رافقنا اليزديين. فربما نزلت صاعقة قرب الرمل وأفنت اليزديين، ثم أمر الله الرياح أن تزيل جبال الرمل وتشقّ لنا طريقاً مستقيماً لا عوج فيه حتى نهاية تلك المنطقة لنجتازه بلا مشقة وبسرعة.

قال رفيقي: إن كنت معتقداً بهذا الشكل، فلماذا تحملت المشاقّ منذ الليلة الماضية من أجل اللحاق باليزديين؟

قلت: إن هذا من النقص الموجود فينا، حيث نتأثر بآراء وعقائد عوام الناس ونقلدهم بالجبر.

قال: ما دام هذا النقص موجوداً فينا فلنتحرك وربما أدركناهم.

اللحاق باليزديين:

تحركنا فوصلنا إلى خانَيْن اثنين، كان أحدهما على جانب الطريق على بعد فرسخ واحد منهُ، وكان الآخر وسط الطريق وبقي للوصول إليه فرسخ واحد، ولما كنا لا نعلم على التحديد في أيٍّ منهما كان اليزديون، ولا يجوز الترجيح بلا مرجّح، فقد وقفنا في مكاننا حائرين. ثم ارتأينا أن يظلّ أحدنا هنا مع البغل واقفاً، على أن يذهب الآخر إلى النزل المحاذي للطريق ـ الذي يبعد مسافة فرسخ واحد عن حافة الطريق ـ فإن وجد اليزديين هناك، صعد إلى سطح النزل وأشار

إلى رفيقه ليلتحق به، وإن لم يكونوا هناك فينبغي عليه أن يتحرك من هناك ويتجه إلى النزل الآخر الذي في وسط الطريق، فيراه رفيقه فيتحرك هو أيضاً باتجاه النزل مع البغل.

قال رفيقي: سأذهب أنا وابق أنت وضع عينيك على تلكما النقطتين.

قلت: ليكن ما تراه.

ذهب وبقيت أنا أتابعه بعيني إلى أن وصل النزل فعلقت عيني على سطح النزل وعلى الطريق الواقع بين النزلين، فلم أشاهده لا فوق سطح النزل ولا في الطريق المتجه إلى النزل الآخر. فاتجهت إلى النزل الواقع وسط الطريق فوصلته ووجدت الزائرين اليزديين هناك إلّا أنني لم أجد رفيقي.

وضعت كيس الأمتعة جانباً في الإيوان وعلّقت المخلاة في عنق البغل ليأكل، ثم ذهبت إلى أحد التلال فوقفت عليه واتجهت صوب النزل الآخر وأخذت أنادي بكل ما لدي من قوة على الرغم من إيماني بأن صوتي لن يصل إلى هناك. ولما مرّ وقت طويل على تلك الحال ولم أرَ رفيقي الذي كان ينبغي أن يصل خلال ذلك، فلا بدّ أن بلاءً ما قد أصابه، إذ ربما قتله أحد اللصوص، أو لدغته إحدى الحشرات أو افترسه حيوان مفترس.

كانت كل تلك الاحتمالات في محلها، إذ إن المنطقة هناك لم تكن مأهولة، وهي مأوى للصوص. ومن جراء تلك التصورات انفجرت بالبكاء، ثم بدأ بكائي يختلط بنداءاتي بشكل عفوي بهيئات مختلفة.

بعد مرور نصف ساعة على ذلك، رأيت رفيقي، فلما أصبح قريباً أبديت له بمودة ومحبة ما كان يدور من مخاوف بذهني، ثم سألته: لماذا جئت متأخراً؟

قال: وجدت هناك ظلّاً بارداً فاستلقيت ونمت.

قلت: لقد أكلتَ الخـ...، أيها الطالب الحمار، هل كان هناك بيت خالتك لتستريح ساعة، لم يبق لي خلالها حلق أو لسان، وكان قلبي كحبة الحرمل الموضوعة على نار التصورات تقلّبها وجهاً لبطن؟

اتجهنا إلى النزل حيث أعلن اليزديون أنهم سيتحركون، لم يكن الوقت يسمح بشرب الشاي. صلّينا ثم تحركنا بعد مرور ساعة من حلول الظلام.

دعَونا الله أن يحفظنا مع هؤلاء اليزديين القرويين ذوي الأقبية والجبب المفتوحة حتى حوافِّ جيوبهم، والأكمام المفتوحة حتى المرافق، والقلانس وأغطية الرأس اللبودية القذرة، والوجوه المسودّة، والأفواه الواسعة والكلمات السّمجة الممطوطة لدى التلفظ.

كانوا حوالي العشرين ومع كل منهم بغل جيّد، كنا نركب حيناً ونسير على الأقدام حيناً آخر، حتى طوينا تسعة فراسخ بحلول ظهر اليوم التالي، وبلغنا نزلاً، فأكل كل منهم قطعة خبز، ثم أداروا وجوههم نحو بغالهم وناموا، فلا طبخ ولا شاي. أما نحن الاثنين فقد كان إعداد الشاي وشربه وتدخين الغليون وأكل الخبز يستغرق منا الساعتين، إذ كنا نكثر من شرب الشاي والتدخين، أي أن لدينا رغبة مفرطة فيهما، وغالباً ما يكون المسافر ـ على قدميه ـ هكذا، حيث إنهما يُزيلان التعب وهما في الحقيقة علاج نافع.

ما إن انتهينا من الأكل والشرب حتى حزموا أمتعتهم وتحركنا. وبعد مرور أكثر من ساعة على الليل قطعوا ثمانية فراسخ وألقوا رحالهم عند إحدى القرى، انتهوا من مشاغلهم المختصرة، وأخذوا إغفاءة قصيرة إلى أن انتهينا نحن من عملنا الطويل. فأعلنوا بدء التحرك فوصلوا عند ظهر اليوم التالي إلى نزل بعد أن قطعوا عشرة فراسخ وألقوا رحالهم ونزلنا معهم، وكالمعتاد فقد قضوا حوائجهم وحوائج بغالهم، وبعد أكثر من ساعة تحركنا، وهلمّ جرّاً.

رحلة لا نهاية لها:

مضت خمسة أو ستة أيام بلياليها، كنا خلالها نسير باستمرار، لا ننام فيها ليلاً ولا نهاراً، إلّا أن النوم كان يستولي علينا بين الطّلوعين ونحن في الطريق، فكنا نهوي ونحن نسير على الأرض الصخرية الوعرة ولا نشعر بالألم حتى لو شُجّت رؤوسنا أو جُرحت أيدينا أو ازرقّت جوانبنا، كمن استلقى على فراشه الوثير، وكنا نقاوم رغبتنا في البقاء على الأرض فننهض مجبرين، متأسفين على حالة الاستلقاء تلك. وحين كنت أتطلّع إلى وجه صاحبي أجده كوجه مَن مات منذ عشرين يوماً وخرج من القبر لتوه، لشدة ما غارت عيناه وتهدّل أنفه وذبل

واصفرّ وجهه وجفّت شفتاه واغبرّ وجهه. وكنت أنا طبعاً أسوأ حالاً منه، قلت له: موتوا قبل أن تموتوا. وثبت أن المؤمن مرآة المؤمن، فقد شارف البدن على مفارقة الروح، فتغدو الروح خاوية لا تجد ما تستند إليه، وتتخلف عن تحقيق أهدافها ومآربها، ونموت ونحن لم ننضج بعد كالفاكهة الفجّة. قال:

حين تكون بين مخالب أسد مفترس فلا حيلة لك سوى الاستسلام

وعند غروب أحد الأيام وصلنا إلى قرية بعد جهد وعناء طويلين، كان بينها وبين منطقة (رمل الجِمال) ثلاثة فراسخ، إضافة إلى أربعة فراسخ هي طول المنطقة الرملية، يأتي بعدها سبعة فراسخ لا ماء فيها ولا زرع. وواضح أن غداً هو موعد يوم القيامة والحشر الأكبر، حيث إن كل ما تحمّلناه حتى الآن من المشاق والسهر مما يفوق طاقتنا كان لأجل النجاة من يوم غد. فكم هو مناسب أن يكون المؤمن على مثل هذه الحال في أمر دنياه وآخرته كما أخبر الله ورسوله. فهل أن ما أخبرنا به الله ورسوله من أمر الآخرة، أضعف مما أخبرنا به ذلك العلاّف الطبسي؟

لا والله، لأننا فهمنا جيداً أن نبيّنا هو واسطة فيوضات الحق على جميع الموجودات من الذرة حتى المجرّة، وليس هناك من المخلوقات من هو أقرب وأكبر وأشرف عند الله منه صلى الله عليه وآله. والله الذي خلق هذا الوجود أكبر من أن يوصف بوصف أو بيان، حتى أن النبي ﷺ نفسه وهو على تلك العظمة يركع أمامه عاجزاً ويقول: ما عرفناك حق معرفتك.

وأما أن يكون القصور فينا لشدة تعلقنا بالعالم الدنيوي، وتجذّرنا في أعماقه، فغطّت ستائر الغفلة والقسوة قلوبنا وعيوننا وآذاننا، كما أخبر عن حالنا بأن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[1]، فلا تؤثر فينا تلك الأخبار عن الله ورسوله.

نحن في الدنيا أذكياء يقظون وفي الآخرة حمقى وصم وعميان

ولشدة تعبي وإعيائي ورؤيتي رفيقي على هيئة من مات منذ عشرة أيام وهو

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

مرآة نفسي وجسمي وحالي، قلت له: لن أرافق هؤلاء هذه الليلة بل أقسم على ذلك حيث إننا سنكون قد قتلنا أنفسنا بأنفسنا قبل الوصول إلى تلك الكارثة. وموتنا في تلك الرمال محتمل، وعلى فرض وقوعه فهو لأسباب خارجية وليس باختيارنا، فنحن لن نرتكب معصية، بل سنكسب ثواباً لقوله عليه السلام: «من مات في طلب العلم مات شهيداً». وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

وواضح أن ذهابنا إلى يزد وأصفهان هو لأجل طلب العلم وليس لحسن تلكما المدينتين. وما الذي فيهما كي يُعشقا خاصة من قبل الخراسانيين. فقد اجتمعت في خراسان بركات وخيرات الدنيا والآخرة، أما يزد فليس فيها خير الدنيا حيث كانت سجن يزدجرد، ولا خير الآخرة، إذ معلوم أنه لم يسمع أن عالماً أو مجتهداً قد نبغ فيها إلّا اثنان حملا هذا الاسم وهما ميرسيد علي الذي خرج عن اليزديين، والسيد محمد كاظم الذي فيه إشكالات أيضاً، بل إن ما يقرب من ثلثي سكان المدينة باقون على مجوسيتهم.

وأما أصفهان فهي وإن كانت جميلة دنيوياً، إلّا أن آثار الآخرة قليلة جداً فيها.

فإن قلت: لا ينبغي الذهاب لهاتين المدينتين ولو لطلب العلم، فالجواب أن ما قاله النبي صلى الله عليه وآله: «اطلبوا العلم ولو في الصين» لم يُقصد به بعد الطريق فقط، بل إن المقصود هو: ولو كان في بلاد الكفر، وهناك أخبار أخرى تؤيد هذا.

اليزديون وفنونهم:

وقد استنتجت مما سمعته هذه الأيام من القصص عن اليزديين وهذه الصحارى القاحلة، أن أهل هذا الوادي غير ذي الزرع قد رزقوا صفتين في هذه الدنيا هما: العمل والكدح، والقناعة في مصروفاتهم الخاصة. فلو أن غير اليزديين كان قد سكن هذه المساكن والمواطن لما رأت تلك الصحارى شيئاً من

(١) سورة النساء، الآية ١٠.

الإعمار. وجميع أهلها من أصاب الباع الطويل في الشحاذة، وبهاتين الصفتين تعمر الدنيا، بل إن هؤلاء اليزديين في أي بلد حلّوا وأي عملٍ مارسوا، كانوا فيه الأوائل والمقدّمين.

انظروا إلى الأسواق ودكاكين التجار في أي مدينة من مدن خراسان لتعلموا صدق هذا القول.

ويصدق ذلك أيضاً على الزراعة والحراثة وبذر البذور وكري القنوات وتربية المواشي والبستنة في صحارى خراسان التي نعرف مقداراً منها، ولاحظوا أنه حيثما حلَّ اليزدي فإنه يكون مشهوراً ومستفيداً وأستاذاً في فنّه، ولقد سمعت مراراً وتكراراً من الكربلائيين والحجاج، بأن اليزديين يديرون محلات التجار والأسواق كما في مدن: بغداد والبصرة والنجف وكربلاء وجدة ومكة والمدينة وفي الفلوات، وأنهم مقدّمون متفوقون، حيث يرتقون في قليل من الزمان من العمل بالأجور اليومية إلى المقامات العالية، ولهم في كل عمل تعلّق وفهم عميق.

كما أنهم ذوو يد طولى في القناعة وعلم المعيشة، فتاجرهم حتى لو كان من ذوي الثروة والغنى لا يتعدى أن يكون غداؤه أكثر من الجبنة والخضراوات والخبز. وهو لا يطبخ الرزّ في بيته في الأسبوع الواحد لأكثر من ليلتين أو ثلاث، فإن حدث اضطراراً أن تجاوز ذلك، عدّه معصية كبيرة بحسب معتقده يسعى إلى تلافيها والتوبة من ذلك الإسراف. وأن لا يكررها ثانية.

وحتى في الولائم التي يدعى إليها، فإنه يأكل القليل كما اعتاد أن يفعل في بيته، مخافة أن يتخلّى عن عادته ويتّخذ من التخمة عادة.

وبطبيعة الحال فإن العمل إذا اقترن بهذه القناعة وفي كل بيت وبلد ودولة، كان أهلها ذوي ثروة ومنعة، مرفوعي الرأس فخورين، أصحاء الأبدان، نشيطي الروح، أذكياء العقول، لكونهم رياضيين قليلي الأكل.

أما مواطنونا الخراسانيون فهم سفهاء نوعاً ما، منهمكون في الأكل حتى يموتوا.

ألم ترهم ـ اليزديين ـ يا صاحبي، كيف صنعوا في الأيام الخمسة الماضية

وكيف كان سيرهم في الطريق، لا يُراعون فيه ليلاً ولا نهاراً ولا نوماً ولا طعاماً، وبما أن أصلك وجبلّتك يزدية، فقد صبرتَ وسكتَّ، أما أنا الذي نفد صبري ووصل السكين إلى عظمي، فقد عزمت على أن لا أمشي مع هذه المخلوقات.

لم يكن اليزديون قد أقاموا في الخان الذي كان في تلك القرية، بل فضّلوا إلقاء رحالهم في الساحة المواجهة له، أما نحن فقد أقمنا في إيوان داخل النزل منفتح على الخارج ومطلّ على هؤلاء. قلت لرفيقي: سأعدّ الشاي والطعام، وأعتني بالبغل، فاذهب أنت وأتنا بالخبز.

رفيقي اليائس:

فذهب وبعد نصف ساعة عاد خالي اليدين قائلاً: لم أجد خبزاً في هذه القرية، وقد شاهدت بعض هؤلاء اليزديين يعودون مثلي يائسين، ليحضّروا غداءهم مما كان لديهم من الحبوب والطحين الذي ادخروه معهم، أما نحن فقد كنا محتاجين لما نأكله الليلة وظهر الغد وعشاءه، وليس من قرية في الطريق ولا ماء ولا خبز ولا عشب يتغذى به الإنسان. فالمشكلة متعددة الجوانب. قلت: لقد عاد اليزديون اعتماداً على ما في أحمالهم، فلم يكلّفوا أنفسهم طول البحث، أما أنت فليس معك شيء فلماذا عدت معهم؟ تعال واجلس لمراقبة الشاي واشرب منه متى يصبح جاهزاً ودخّن غليونك ولا تحمل همّ الطعام، فإن رزق كل مخلوق جار جريان نفسه وحياته. لن يستطيع أحدهم أن يسبق الآخر، فكل شيء مرتب وفق الميزان الإلهي. سأذهب الآن وأطوف في سكك ودروب هذه القرية. وفي نفس تلك اللحظة رأيت أربعة أو خمسة أشخاص من اليزديين عادوا من وسط القرية وهم يقولون لرفاقهم: لا تجلسوا يائسين حائرين في هذه القرية الميتة.

طعام الجنة والحور العين:

أما أنا فقد اتكلت على الله وذهبت إلى القرية، فلما صرت في أزقّتها مددت رأسي في باب أول بيت صادفته ـ وكان مشرعاً ـ علّي أرى أحداً أسأله إن كان لديه خبز. رأيت امرأة في باحة البيت تقف إلى جانب تنور وهي تفرش أقراص العجين لتضعها فيه، تراجعت إلى الخلف ـ كما هو شأن طلبة العلوم الدينية إذا

نظروا إلى امرأة أجنبية ولو كان نظرهم بدون ريبة، ورفعت صوتي: أيتها الأم هل لديك خبز؟ قالت: نعم، فادخل. فدخلت المنزل وهي تقول: كم تريد؟ قلت: منّاً واحداً. قالت: هل تريد شيئاً آخر؟ قلت: إن كان لديك إدام، فنعم.

قالت: لدي اللبن الرائب واللبن والحليب والجبنة، كما أن لدي زبدة طازجة لذيذة.

قلت: أعطني نصف كيلو من الزبدة، فأمرت ابنتها أن تعطيني ما طلبت. فسألتها عن ثمن كل ذلك، فقالت: الخبز بنصف قران، والزبدة بقران واحد، وأخرجت خمسة أرغفة من التنور وأعطتها لي، كان الخبز ممتازاً من الحنطة المزروعة ديماً، طول الرغيف الواحد نصف ذراع، أبيض نظيفاً، لم نشاهد مثيلاً له منذ مغادرتنا مدينة مشهد، إذ لم نرَ في كل القرى التي مررنا بها إلّا الخبز الأسود والمخلوط الذي لم يكن للحنطة فيه أثر.

وصلت إلى رفيقي وأنا أحمل الخبز والزبدة، وقلت له: لقد شربت أنت عدة أقداح من الشاي، فقم الآن وأخرج الخوان وضع عليه هذا الطعام وتناول شيئاً من الزبدة وضعه في وسط الخبز الذي ما زال ساخناً لكي ينقع كلا جانبي الرغيف وكُلْه لقمة لقمة. فنهض وانهمك في الأكل، بينما كنت أنا أحتسي الشاي وأدخّن الغليون.

قال: إنني لم أرَ مثل هذا الخبز جودة إلّا في قوچان من أين جئت به؟ قلت: مما وراء الطبيعة. قال: إنك تمزح. قلت: هل رأيت في هذه القرى ما عدا ما في حدود طبس، لبناً رائباً طازجاً أو زبدة ولو قذرة ومليئة بالشعر، فضلاً أن تكون بهذه النظافة، وفي قرية كهذه هل رأيت بقرة أو خروفاً؟ فلو لم تكن بنفسك قد فتّشت هذا الريف المتواضع فإن الزائرين قد فتشوه وهم أعرف مني ومنك به، ومع ذلك عادوا يائسين خلو الأيدي. وانظر كيف أنهم الآن بعد يأسهم قد أقاموا هذا المحشر الكبير المليء بالهرج والمرج. وإن لم تصدّق فسأعطيك عنوان ذلك البيت إن كنت ستجده، وإن وجدته فكيف لك بالعثور على تلك الأم وابنتها والتنور الحارّ. فالبيت كان من بيوت الجنة ونساؤه من الحور العين، وخبزه وزبدته وجبنته ولبنه كله كان في الجنة. وإلّا هل سمعت بمنّين من الخبز بقران واحد؟ أو أن زبدة منّها بثماني قرانات؟ كل ذلك في مثل هذا الوادي غير ذي

الزرع. وليس من المؤكد أنهم سيبيعونك. فربما أراد الله بذلك ـ أي عدم حصول اليزديين على الطعام من القرية ـ أن يؤخر هؤلاء هذه الليلة في هذا المكان كي نستريح نحن ونتحرك معهم قبيل الفجر فلا نموت لدى اجتيازنا المنطقة الرملية، فكُلِ الآن هذا الغداء اللذيذ واشكر الله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

قال: في الحقيقة إنه لذيذ جداً.

قلت: إن شيئاً من لذته هذه يرجع إلى اختصاصه بنا، وإن كنا غير منتبهين لذلك. لأن الوجود الارتكازي للأشياء مؤثر أيضاً، بل إن كل موجبات اللذة والمتعة في هذا العالم ناشئة فقط من الإضافة إلى أو الاختصاص بأحدٍ ما، فالوجود الخارجي المحض من الدرهم والدينار والبستان والمزرعة وغير ذلك إن لم تكن مضافة إليك وإن لم تصبح مالاً مختصاً بك، لا تكون موجبة للذة والمتعة. فعندما يصبح المال لك ومختصاً بك يستولي عليك الفرح فوراً فتود لو ترقص، وتتورد وجنتاك ويفترّ فمك عن الابتسامات، ولو كنت مؤمناً فستشكر الله. ولو تلف شيء مما هو مختص بك فإنك تموت حزناً عليه. ولو افترضنا أن الله تعالى قد ساوى في عطائه بين الناس جميعاً بدون أي اختلاف في عطائه النعم، فليس في تلك النعمة أية لذة ومتعة، وحين لا تكون اللّذة لا يكون الشكر أيضاً. وقد قيل: إن السمك سُئل يوماً عن الماء، فقال: إننا لم نرَ الماء إطلاقاً لأننا غارقون فيه دوماً، ولكن عندما يرى السمك اليابسة، يدرك آنذاك أية نعمة كبيرة كان الماء بالنسبة له. ولذلك قالوا: تعُرف الأشياء بأضدادها.

وربما كان واحداً من أسرار وحكم وجود الاختلافات بين الناس في النعم هو لأجل معرفة الحق تعالى وشكره.

انتهينا من غدائنا واستلقينا ندخّن الغليون، بينما كانت أعيننا وآذاننا تراقب السماور.

هذا حالنا، فما هو حال اليزديين؟:

أما حال اليزديين في إعداد طعامهم فقد اتخذ أوضاعاً وأشكالاً غريبة مضحكة حيث كنا نسمع:

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(كَل حسين) ائتنا بهذا ثم اجلب الملح من الكيس. أشعل النار ريثما آتيك بالخبز. إن الحطب رطب أعمى عيني. هيه! اركض واجلب الماء. لماذا تقف يائساً حائراً؟ إنك ستموت غداً همّاً وحزناً إن بقيت هكذا. إنني لم أعطِ الشعير للبغل. إن الرز والماش في الكيس القطني. أعطني قليلاً من الدقيق. هل لديك يا (كَل محمد هادي) قليل من اللوبياء لأنني أريد عمل حساء اللفت. يا ويلي لقد ضاع منّي الخوان.

وكانوا يوائمون بين كل تلك الكلمات المتنافرة بواسطة التحريك والتسكين والتمطيط والتطويل. فظللت أنا ورفيقي مشغولين بمشاهدة تلك السينما والتمتع وشرب الشاي والغليون وشكر الباري تعالى حتى منتصف الليل.

بدأ شخير رفيقي الذي كان مستلقياً يتصاعد تدريجياً، ثم خلدت أنا إلى النوم. ولما كنّا قد صممنا على الرحيل معهم، فقد أفقت سريعاً قبيل أذان الفجر، وأشعلت السماور، وسقيت البغل الماء، وعلقت المخلاة في عنقه بعد أن ملأتها بالشعير والتبن. أعددت الشاي ثم صليت، ولم أوقظ رفيقي ـ رأفة به ولكي يشبع نوماً ـ إلى أن اقترب موعد شروق الشمس، إذ لا شيء مثل النوم يستعيد الإنسان به قواه البدنية والعقلية.

أفاق رفيقي وأدى الصلاة وشرب الشاي. وعندما حزم اليزديون أمتعتهم حزمناها نحن كذلك. ثم تحرّكنا وكانت قِرَب الماء مليئة إلى النصف، فوصلنا المنطقة الرملية قبيل الظهر. رأينا نهراً قليل الماء طعمه مالح، فأعلنوا أن عليكم أن تملأوا القِرَب من هذا الماء للطريق حيث إن قيمة كل شربة منه تعادل دية إنسان، وفقدانه مؤدٍ إلى الهلاك.

تماماً كما يفعل الأنبياء عندما يوصون أن يحمل كل إنسان حسب استعداده ومقدرته ما يستطيع عليه من هذه الدنيا المالحة والمتاع القليل زاداً لآخرته ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[1].

أخرجوا أوعيتهم الفخارية من الأحمال واصطفوا صفاً طويلاً كما يُفعل في صلاة الجماعة، ولقد كان اتجاه وجوههم ـ مصادفةً نحو القبلة، وبدأوا يملأون

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٨٨.

القِرَب بواسطة تلك الأوعية الفخارية. جلسنا نحن في الصف مثلهم، إذ إن تقليدهم كان واجباً علينا. ومن ذلك الماء المالح أعدوا طعام الغداء ثم توضأوا وصلّوا صلاة الوداع. أي كما لو كانت هذه هي آخر صلاة لهم في الدنيا وأنهم لن يبلغوا صلاتي المغرب والعشاء.

صحراء ورمال متحركة:

كان الرمل يمتد أمامنا إلى جهة القبلة. وكان لونه أبيض مخيفاً، وتلاله الصغيرة المتناثرة كأنها أمواج البحر اللاهبة بفعل حرارة الشمس. لم يكن في أجوائه طائر بل حتى بعوضة. كان جهنم ولكن بغير شهيق ولا زفير ولا صوت أو نداء ولا غبار، كان جافّاً بدون أي أثر لبخار الماء.

صلّى كلٌّ منا أربع ركعات على حافة ذلك الرمل كانت شبيهة في هيئتها بصلوات الأنبياء والأولياء. ثم شددنا بعد ذلك أحزمتنا بقوة ونحن نردّد: (اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا). وتوغلنا في الرمل الذي كانت أرجلنا وأرجل الحيوانات تغوص فيه وبينما كان الهجير يلفحنا بحرارته قلت لرفيقي: إلى الحد الذي يغدو فيه ذلك ممكناً، لا ينبغي لك أن تفتح قربة الماء المعلّقة إلى جانب البغل والتي كان فيها ما يقرب من منّين من الماء، ولن أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا، فما لم أشرب أنا لا ينبغي لك أن تشرب، وفائدة ذلك هو أن النفس عندما تكون في أمان من الخطر المحتمل وتجد ما تلجأ إليه وتصبح في حالة من الطمأنينة والسّكينة أي أن تصبح مطمئنة ـ وقد امتدح الله النفس المطمئنة ورضي عنها ـ على عكس ما لو كانت فاقدة لما تلجأ وتطمئن إليه، فتصبح متزلزلة تملؤها الوساوس. وتلك حالة تجعل حتى المرتوي ظمآناً، بل إنه لا يهدأ لخوفه، فاسمها الأمّارة، هذه النفس الأمّارة التي توردە في النهاية مورد الهلاك.

فلسفة العطش:

قال رفيقي: ربما كانت الصفراوية والسوداوية في بدنك أقل مما هي في بدني، ورطوبات بدنك تجفّ أبطأ مما في بدني. فإلى أن تشرب أنت الماء يكون الدخان قد تصاعد من جمجمتي. فأنى لك أن تجعل من مزاجك مقياساً تقيس به مزاجي أيضاً. وأمزجة الناس مختلفة على الرغم من اتحادهم في الشكل والخلقة

بصورة عامة، وقد يبلغ هذا الاختلاف حدّ الاختلاف ما بين الأرض والسماء، بل إنك لن تجد اثنين يتشابهان من جميع الجهات، وإن الخبر الذي ورد عن رسول الله ﷺ من أن: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» لا يتنافى مع ما تقدمتُ به الآن، لأنّ ما هو من الذهب أو الفضة يختلف أيضاً فيما بينه. وقد قال الحكماء: إن كل مزاج يكون قريباً للاعتدال عرضاً وسيعاً وسعة عريضة. ولأمزجة أفراد بني الإنسان مراتب لا تُحصى. بل هي لامتناهية، وبناء على ذلك فالنفوس الناطقة لامتناهية لأن لكل نفس مزاجاً خاصاً.

قلت: ربما كنت سأظمأ أسرع منك، وربما كانت صفراويتي وسوداويتي أكثر مما هو لديك. وهو كذلك حتماً لأنك وفي الليالي التي نلقي رحالنا فيها في الفلوات الموحشة يستولي عليك النوم فوراً، وهذا دليل على كثرة رطوبات بدنك. بينما كانت التصورات السوداوية تحاصرني فلا أجد النوم حتى الصباح.

دواء الصفراء:

قال: حتى لو كان الأمر كذلك. فأنا ـ وكما يقول الأطباء ـ سأظمأ أسرع منك أيضاً. لأنّ المزاج الرطب يمتصّ الماء بكميات أكبر. والآن فلندع كل ذلك جانباً. فإمّا أن تظمأ أنت أسرع مني أو العكس ولا توجد قاعدة محددة. وعليه فكل من يظمأ أسرع من صاحبه يشرب الماء. قلت: إن لم تكن هناك قاعدة، بحيث يؤثر القليل من الصبر على زيادة شدة العطش، فإن هذه القربة ستنفد بعد مئة قدم، لأنني الآن ظمآن ولا بدّ أن تكون أنت أيضاً كذلك. فإذا شرعنا الآن بشرب الماء والماء مالح فسوف يزداد عطشنا. وكما قلتُ فالماء سينفذ بعد مئة قدم وسيهلكنا خوف قلة الماء بعد ذلك حتى لو لم نكن حقاً عطاشى. لذا سأعطيك الآن دواء يُهدّئ من صفراويتك وسوداويتك، ويثبتنا في مواجهة هذا الماء المالح، والعنصر الحياتي ملجأ أنفسنا المليئة بالوساوس، فربما نجونا من هذه الأرض الشبيهة بجهنم ونصل إلى يزد ـ خرّبها الله ـ التي أصبحت الآن بمثابة الجنة لنا. وضمير ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1] يعود إلى هذه الرمال اللاهبة ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[2] من الماء المالح، ونذر الشاربين فيها جِثياً.

---

(١) سورة مريم، الآية ٧١.

(٢) سورة مريم، الآيتان ٧١ و٧٢.

أعطيت رفيقي أربع إجاصات وقلت له: ضع إحداهن في فمك واكتفِ بمصّها ولا تدع أسنانك تمسها، فإن انتهيت منها فالقِ بنواتها الخالية تماماً من أي أثر للإجاصة، ثم ضع الثانية في فمك واصنع بها ما صنعته في الأولى، وهكذا إلى أن تنتهي منهنّ جميعاً، فستجد فمك مليئاً بالماء وسَتَقِرّ صفراويتك، وسوف تُشغل عن الظمأ، ولن يكون لك عذر بعد ذلك، إذ ينبغي أن يكون صبرك على شرب هذا الماء المالح أكثر من صبري. كما سأضع أنا أربع إجاصات في فمي على التوالي أيضاً. سأمتحنك بهذا لأرى هل ستلوكهنّ بأسنانك أم ستمصهنّ مصاً؟

قال: إنني أحبك إلى الدرجة التي لا يعوقني فيها مانع عن الامتثال لأوامرك ولو كان الموت، وينبغي لك أن تكون قد عرفت هذا.

قلت: أنا أعرف ذلك، ولهذا ولمعرفتي بطبيعة طينتك، فأنا أحبك أيضاً وينبغي لك أن تدرك ذلك. فإن الحكماء قد حكموا عن طريق العقل بأن الحب يجب أن يقع بين طرفين اثنين، ذلك أنّ شدة المعرفة، والقلوب إذا صفت وتقابلت تصير كالمرايا المتعاكسة، يتحد بعضها ببعض كلّ اتحاد على حسب درجات المحبة.

وأما عن طريق التجربة، فإن احتمال وقوع خطر عليك عندما غبتَ عني قد جعلني أبكي، لأنني لم أكن قريباً منك لأصدّ عنك الخطر بنفسي، إذاً فبكائي في حال غيبتك دليل على كوني فدائياً لك في حال حضورك «ولئن أخّرتني الدهور، وعاقني عن نصرك المقدور، لأندبنّك صباحاً ومساءً...».

قال: إذاً لا موجب لكل هذا التضييق والتعقيد من ناحيتك. فيجب أن تتسامح أنت من جانبك، وأما من جانبي فاطمئن بأنه لن يصدر عني ما أخالفك فيه، وليس في الأمر قيود ملزمة.

قلت: إن ذلك امتحان ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1] وربما وضع الصائغ الخبير الذهبَ الخالص في بوتقة الصهر.

قطعنا ـ ونحن نتجاذب أطراف ذلك الحديث ـ ما يقارب نصف الفرسخ،

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٢.

وفرسخين آخرين ونحن نمتصّ الإجاصات الأربع، فلم يبق إلّا نصف فرسخ وبيننا وبين الغروب ساعتان، حيث بدأنا بشرب نصف كمية الماء تقريباً عند نهاية فرسخ واحد من المسافة، إلّا أنّ مشارفة المنطقة الرملية التي كنّا نسير فيها على الانتهاء، واعتماد النفس على برودة الهواء وقت الغروب، ورطوبته في المساء رفع عنا القلق والاضطراب من انعدام الماء.

قلت لرفيقي: لو كنّا شربنا هذا الماء، ونفد ونحن في وسط المنطقة الرملية، لكنّا الآن أمواتاً من أوهامنا عن العطش. وافقني رفيقي ذو النظر البعيد المتحسّب للعواقب.

الخروج من صحراء جهنم:

انتهينا من المنطقة الرملية، وأصبحنا خارجها، فألقينا رَحلنا. ولكي نؤدي الصلاة فقد ذهبنا إلى حوض عميق اتُّخذ مخزناً للماء، فنزلنا أكثر من ستين درجة فيه، لنجد في قعره كمية قليلة من الماء المالح. كان الظلام حالكاً، فتناول كل منّا كمية من الماء في يده ووضعها على وجهه مبتدئاً الوضوء، إلّا أنّ الماء لم ينحدر على وجوهنا كما توقعنا إلّا بعد أن مسحناه بيدينا لنكتشف أنه قد لذع أيدينا ووجوهنا وعيوننا، فعرفنا أنه لم يكن ماء، بل ملحاً رطباً. أزلناه عن وجوهنا بأطراف ثيابنا، وظلّت عيوننا تؤلمنا لفترة من الزمن، فصعدنا إلى أعلى فتيمّمنا وصلينا.

أعلن اليزديون بعدها: ليملأ كلٌّ منكم مخلاة بغله بالشعير، ليأكلوا سريعاً، إذ ينبغي أن نتحرك.

قلت لرفيقي: لنفترض أننا صبرنا هذه الليلة على انعدام الماء، فأنّى لنا بالصبر عن الشاي والطعام؟ إنها ليست مشكلة واحدة. ولخوفنا من ازدياد عطشنا فقد كان ينبغي أن لا نأكل طعاماً. قال: يجب علينا أن نفكر بحلٍّ.

قلت: أنت يزدي الأصل ويمكنك أن تنسجم معهم، كما أنك أكثر جرأة مني، إضافة إلى كونك طالباً معمّماً، وهؤلاء ليسوا بعيدين عن الاتصاف بالكُدية. وما عليك الآن إلّا أن تظهر بمظهر المُكدي الغني.

قال: ماذا أصنع؟

قلت: إن أمامنا سبعة فراسخ لنصل إلى أول قرية مع الصباح. فانهض وارفع عقيرتك سائلاً عن شخص يقرضنا ما يملأ قصعة صغيرة من الماء كي نردّها له ضعفين يوم غد. ففعل رفيقي ذلك، عندها ارتفع صوت من أحد الزوايا قائلاً: تعال لأقرضك قرضاً حسناً دون أن أطلب منك رباً، ثم ضحك.

ذهب رفيقي وجلب منه الماء، فوضعناه في السماور حيث شربنا عدة أقداح من الماء المحلّى بالسكر، وأكلنا بضع لقيمات من الخبز معه. فحصلت لنا من ذلك فوائد: إننا غنمنا قصعة ماء، وأكلنا طعامنا مع شربنا الشاي. وعندما يكون الإنسان فقيراً فإن علمه بفن المعيشة سيوسع عليه أمره.

لم تكن البغال المسكينة قد فرغت من أكل شعيرها كما لم تتمكن من التمرّغ في التراب أو النهيق، عندما أعلن اليزديون عديمو الإنصاف عن التحرّك.

وصلنا قرية بعد ساعة من طلوع الشمس طوينا خلالها سبعة فراسخ. فمكثنا حتى الظهر هناك ثم تحركنا.

أخبرونا أننا سنُلقي رحالنا عند عين ماء في منطقة مقفرة تقع على بعد خمسة فراسخ. وعندما سمعنا بمسافة الخمسة فراسخ، وكنا قد استرحنا سويعات في النزل الذي غادرناه، فقد تحركنا معهم كما هي العادة. ولما لم تكن مصاحبتنا لهم واجبة، فقد تركت رفيقي ينام وهو على البغل، بينما كنت أنا أسوسه برفق.

الانفصال عن رفاق الدرب:

تأخرنا عن القوم، فلما وصلنا عند الغروب إلى ذلك الماء، كان اليزديون قد تحركوا من هناك ولم يبق منهم إلّا اثنان لأجل الصلاة، فسألناهما عن القوم فقالا: ذهبوا إلى النزل الذي يبعد فرسخين من هنا. ثم ذهبا بينما وقفنا نحن للصلاة. تحركنا بعدها، حيث بدأ الظلام بالحلول تدريجياً حتى أصبح حالكاً.

كنا نرى من بعيد نيران القوم فكنا نسير على هُداها. وعلى الرغم من كون الأرض سهلية إلّا أنها كانت منحدرة مليئة بنبات الطرفاء والأشواك. ولو لم نكن نرى نيرانهم لما اهتدينا إلى شيء من الطريق. ولأننا كنا نسير ببطء ولامبالاة فقد

أصيبت سيقاننا بالتعب الشديد وكان ألمها حاداً حتى أننا لم نعد نسيطر عليها. وبعد مرور أربع ساعات على حلول الظلام لم نقطع خلالها إلّا فرسخين، تيقنّا آنذاك أن اجتيازنا للمنطقة الرملية كان بقوةٍ وعونٍ إلهيين خارقين.

كانت نيرانهم تبتعد عنّا كلما تقدمنا نحوها. وإلى أن لم يبق بيننا وبينهم إلّا مئتا قدم، توقفت عن المشي وألقيت نفسي على البغل المسكين لأبلغ القوم، وحين وصلت لم يكن باستطاعتي المشي.

التعب والإنهاك بلغا حدّهما:

صلّيت المغرب والعشاء بمشقة وأنا جالس. وقد ارتفعت آهاتي دون اختيار مني لشدة إحساسي بألم ساقيّ. اتكأت وأنا على جلستي تلك على الخُرج، فلم ينقضِ إلّا قليل حتى أعلنوا عن التحرك.

ولما لم تكن لدي طاقة على الحركة فقد قلت لرفيقي: إنّ الأمر لا يحتمل المجاملة أو العناد. فقم واسأل إن كان أحد مستعداً لأن يُكرينا بغلاً لقاء مبلغ من المال لقطع الفراسخ السبعة التي أمامنا. فإن لم يوجد فقم أنت وارتحل معهم، واتركني هنا وليفعل الله ما يشاء. قال: إنني سأطلب ذلك. لكن إذا أردت البقاء فسأبقى معك، ولن أتحرك قدماً واحداً إذا لم تكن أنت معي.

استئجار بغل:

أعلن رفيقي عن طلب كراء البغل، فاستجاب أحدهم وأعطانا إياه لقاء قران ونصف.

أنهضوني واركبوني على البغل، فتحركنا بينما كان رفيقي يقود بغلنا. وبعد مرور ساعتين على مسيرنا وصلنا إلى نزل. فرأيت أن قدميّ قد ارتفع ورمهما إلى الركبتين ولم يكن بالإمكان معرفة الأصابع الخمسة لكل منهما لشدة انتفاخهما. كانتا ثقيلتين ولم أستطع تحريكهما، حتى أنني سحبت نفسي بالاتكاء على يديّ من على البغل حتى إيوان النزل دون أن أضع قدمي على الأرض.

تحركنا بعد الظهر، ولما كان القوم من قرويي يزد، فلم تكن هناك حاجة إليهم بالنسبة لنا نحن الذين كنا نريد مدينة يزد نفسها، فطريقهم سينفصل عن طريقنا.

كنا راغبين في السير إلّا أننا لم نكن نجد في أنفسنا القدرة على ذلك، وكأننا (دوال)[١] فجلست ولا حيلة لي. ثم قلت لرفيقي: ضع الخرج على البغل واذهب خارجاً، فإن رأيت نفسي غير قادر على السير فسنعود أدراجنا.

الشفاء العجيب:

وضع الخرج على البغل وخرج، فخرجت أنا على أثره بعد عناء من الإيوان حيث كنت أتوكأ على عصا كانت بإحدى يديّ، بينما استندت باليد الأخرى على حائط النزل، وأخيراً خرجت فوقفت وقد استندت بكلتا يدي على العصا فأصبح ثقل جسمي كله عليها. فتحركت بمشقة مسافة خمس أو ست خطوات، وبدأت ألقي ثقلي تدريجياً على قدميّ، عندها لاحظت أن الألم قد زال عنها، فمشيت عدة خطوات أخرى بغير العصا فلم أشعر بألم أيضاً، ضاعفت من سرعة سيري فرأيت أنني أمشي أفضل مما في السابق ولا أحس بأي تعب، ونظرت إلى قدمي فرأيت الورم قد زال عنهما، ورأيت أنني قد تغيرت حقيقة فأصبحت مليئاً بالنشاط والحيوية. ناديت رفيقي الذي ابتعد عني مسافة خطوة واحدة: انظر! ثم ركضت نحوه كالغزال. فلما بلغت البغل قفزت على كلتا قدمي وصرت على ظهر البغل ثم انحدرت إلى الأمام لأقع على الأرض من جهة رأس البغل. كنت أنا ورفيقي في حيرة نتساءل عن ذلك الألم البليغ الذي ألم بقدميّ. أين ذهب؟ لكأن الورم الذي كان ملأ بالانتفاخ قدميّ وساقيّ قد تسرب خارجاً ـ لدى تحرّكي وركضي تلك الخطوات القليلة ـ من رؤوس الأظافر والتشققات التي في القدمين.

الانطلاق مجدداً:

بعد الانتهاء من ذلك الاستعراض وشكر الباري تعالى الذي أنجاني من ذلك البلاء ومن المصيبة الكبرى بمرافقتنا لليزديين الذين لم نلق من صحبتهم إلّا البلايا. ولأننا اعتدنا أن نسير ليلاً ونهاراً، فقد تحركنا بعد أداء صلاة المغرب وتناول الطعام، على أمل الوصول صباحاً إلى يزد. فلما مضت أربع ساعات من

(١) مخلوق خرافي شبيه للإنسان وهو جميل جداً وليس في ساقيه وقدميه عظام. (ش).

الليل وصلنا إلى مضيق وجبل عالٍ، وليقيننا أن جبلاً صخرياً ووادياً ضيّقاً طويلاً ممتداً لن يكون خالياً من الحيوانات، لذا فقد ألقينا رحلنا عند شِعْب قريب.

كانت الليلة هادئة مقمرة، وكالعادة فقد غرق رفيقي في النوم، وبقيت أنا يقظاً، فرأيت إحدى الزواحف التي كانت أكبر قليلاً من العصفور من النوع المسمى بالرتيلاء. تناولت العصا وهجمت عليها ففرّت فتبعتها فأضعتها. عدت إلى مكاني وجلست وأنا أراقب كل ما حولي مخافة أن تعود مرة أخرى فتؤذي أحدنا. ولم أنم لشدة تفكيري بها، وفجأة رأيتها على الخرج وهي تنزل بسرعة، فنهضت وطاردتها عدة خطوات إلّا أنها اختفت أيضاً. عُدت إلى مكاني وجلست وأنا أشد اضطراباً لأنني تيقنت من أنها كانت مصممة على إلحاق الأذى بنا، ولهذا فقد ضاعفت من مراقبتي لما حولي. وبعد برهة عادت مسرعة فنهضت وركّزت عيني عليها وتبعتها، فلما وجدت أنني كنت أسرع منها أخذت تتحرك بطريقة ملتوية ومعوجة ومنحنية، فأخذت أنا أتابعها بنفس الطريقة. وكلما اقتربت من أصل إحدى النباتات، كنت أضرب بعصاي هناك عدة ضربات خشية أن تكون تحته. ولكنها كانت تبتعد. وبقيتُ على ذلك وأنا أحس أن الأمر أصبح يختلف عما كان في المرات السابقة، حتى أضعتها أخيراً بعد مئتي قدم من المطاردة. وعلى الرغم من أنني لم أكن أتوقع عودتها بعد ذلك، إلّا أنني ظللت حذراً يقظاً مترصداً حتى مطلع الفجر.

أيقظت رفيقي فصلّينا ثم تحركنا. وبعد أن اجتزنا ذلك المضيق وبدأنا نصل إلى الرمال المحيطة بأطراف مدينة يزد، لم نشاهد في المدينة بساتين إلّا في الدرب المسمّى بيگك، أما بقية أطرافها فهي كوادي برهوت جافة لا ماء فيها ولا زرع ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[1].

يزد وأهلها:

كانت منافذ التهوية ومخازن المياه وأحواض البيوت تبلغ من الكثرة حدّاً يتراءى معها للناظر خارج المدينة أنها بستان مليء بالأشجار. لم ندخل المدينة،

(١) سورة الواقعة، الآية ٤٤.

بل أقمنا في بيت خالة رفيقي وابن عمه الواقع في درب بيگك خارج المدينة. قضينا ثلاثة أيام في الاستراحة والاستجمام وزيارة أقارب رفيقي. ونظراً لحرارة الجوّ فقد أخذنا مضيفونا إلى البستان حيث كانوا قد بنوا حوضاً في أعلاه، فأقمنا هناك حيث كنا نتفسح أحياناً، وكانت ثمار الإجاص قد نضجت لتوها.

لم ننفق طوال مدة مكوثنا هناك إلّا الشاي والتبغ، أما الغداء والعشاء فكان على نفقة أولئك المساكين، إذ كنا نذهب إلى البستان مع الصباح ونظلّ هناك ظهراً لنتغدى، ولا نغادر المكان إلّا عند الغروب أو بعد ساعة من حلول الظلام. وعندما نصل البيت كنا نشرب الشاي مع السكّر اليزدي اللذيذ الطعم جداً خاصة وأن الشاي الذي كان هناك قد نما في جو يزد الجاف الصحو. إذ إن الشاي والتبغ بصورة عامة يفقدان شيئاً من لذتهما في الأجواء الرطبة، وعلى العكس من ذلك فإنهما يزدادان طيباً في الأجواء الجافة الحارة، حتى لو كانا من النوع الرديء.

حادث جديد:

ولأننا قد استرحنا من ذلك السفر الشاق وأصبحت أمزجتنا رائقة مستقرة، فقد شربنا كثيراً من الشاي، حتى أننا أنفقنا ما بقي في قعر الكيس من التومانات وكانت ثلاثة أو أربعة، على الشاي والسكر. وبدلاً من العشرة أيام التي قررنا أن نقيم فيها هناك، قبل أن نغادر إلى أصفهان أقمنا أربعين يوماً. وفي أحد الأيام حلقت رأسي في البستان، ولما كان قد أدمي بفعل الموسى، وكان الجوّ حاراً فقد ذهبت إلى الحوض ونزلت فيه لتطهيره. فلما انتهيت من ذلك حضر رفيقي ولمّا أزل على حافة الحوض. قال لي: هل تستطيع أن تسبح في الحوض كما يفعل السبّاحون؟ أجبته بنعم مع أنني لم أعرف ذلك، ثم قفزت من فوري إلى الماء، ولم أدر ما الذي كان في قعر الحوض، زجاجة أم سكيناً أصابت أسفل قدمي، فصرخت متألماً وخرجت من الماء، لأكتشف أن قدمي قد قُدت من أصل الكعب حتى أصول الأصابع. فضمّدناها على عجل بالقطن والقماش. وقد أرسلوا بعد ذلك في طلب عجوز مجوسية فكانت تأتي يومياً إلى البستان لتداوي جرحي. وكنت أنتقل بين البستان والمنزل صباح مساء على ظهر بغل، وكنا قد بعنا بغلنا. وفي المنزل، كنت أسحب نفسي هنا وهناك بمعونة يديّ وركبتيّ. ولم

يشفَ جرحي قبل مرور أربعين يوماً. وقد ذهبت راكباً مرتين خلال ذلك إلى طبيب المدينة. حتى استطعت أخيراً السير عدة خطوات وأنا أتوكأ على عصا، وكنت أتماثل للشفاء. وكان المجوس يحترموننا كثيراً، حتى إننا لمّا كنا نمر على جماعة جالسة منهم كانوا يقومون احتراماً لنا ويبدأوننا بالسلام والسؤال عن أحوالنا. ولا يجلسون إلى أن نجتازهم ببغلنا. كما كانت تلك العجوز المجوسية تُظهر لي الرأفة والشفقة.

كانت مدينة يزد قليلة المياه، وعمق آبارها يتراوح بين ٧٠ ـ ٨٠ ذراعاً، وكان أهلها عميقي التفكير، سريعي البديهة، كادحين، وعيونهم واسعة جميلة، يأكلون طعامهم بغير ملح، وإن كان ساخناً تركوه حتى يبرد، وكانوا أكثر وقاراً من غيرهم، ولا يستنكفون عن مزاولة أي عمل ولو كان بسيطاً. كما كانوا يزاولون الزراعة بالمساحي التي طول الواحدة منها نصف ذراع أو أكثر. ويقولون إن الحراثة بمعونة الثيران لا تحيي الأرض ويقل محصولها.

وكانوا يملأون حياض مخازن المحلات في الشتاء بالماء الذي يأتي من قناة تبعد عدة فراسخ، وكانوا يضعون في قعر كل حوض ١٠ ـ ١٥ منّاً من الملح كي لا تعيش فيه الديدان. وكان لكلّ حوض منها أربع فتحات للتهوية، ولذا فماؤها بارد وعذب في الصيف، بحيث لا يستطيع أحد أن يشرب منه الكثير لشدة برودته. وينحصر ماء شرب الأهالي طيلة العام بتلك الأحواض.

وقد بنى المجوس[١] لهم مقبرة على رأس جبل يبعد أربعة فراسخ عن المدينة يأخذون أمواتهم إليها، حاملين التابوت على الأكتاف ولا يضعونه على الأرض حتى يبلغوا المقبرة. فيأخذ منهم متولّي المقبرة مبلغاً من المال ويجعله من أهل الجنة. أما الفقراء الذين لا يملكون مالاً كثيراً، فإن الغراب الذي يأكل جثته هو الذي يحدِّد فيما إذا كان من أهل الجنة عندما ينقر عينه اليمنى، أو من أهل النار إذا نقر عينه اليسرى.

وأغلب أهالي يزد محبّون للشجار، ومعاندون ومتكبّرون ومستقلون في آرائهم.

---

(١) المجوس هم الزرادشتيون.

وقد لاحظت أن قدمي التي أصيبت في حوض الماء كانت هي نفسها التي أصيبت من قبل مرتين: مرة عندما كنت صغيراً وتسلقت شجرة الصفصاف فانزلقت رجلي ووقعت على المنجل، والثانية حين انزلقت من النعل ونزلت على حافة المسحاة وقد كان جرحها سبباً أنقذني من الزلزال الذي ضرب قوچان وهي نفسها التي أصيبت للمرة الثالثة في يزد، ولا بدّ أن يكون من مصلحة في ذلك أو كفارة للذنوب على الأقل.

وعلى أي حال فقد شكرت رب العالمين. ومن يزد كتبت رسالة إلى أبي شرحت فيها كل ما جرى عليّ وكيفية علاجي على يد العجوز المجوسية، كل ذلك على هيئة قصيدة منها هذه الأبيات:

كان لقدميّ قدرة جبرئيل — تأمران وتنهيان بأمر ذي المنن
فهما حين الأمر تتسمران في الأرض كالفولاذ — وهما في السفر كالبعير في سرعته
وعند النهي تنسج الجروح حولي — نسيجاً كنسيج العنكبوت

أرسلنا كتبنا التي كنا قد أرسلناها من قبل من مشهد إلى يزد، أرسلناها إلى أصفهان، أما نحن فقد ذهبنا بعد أن وضعنا أمتعتنا القليلة على ظهر بغل كان لأحد أقارب رفيقي. وكنت ـ وبسبب جرحي الذي لم يكن قد شُفي تماماً بعد ـ أركب البغل أحياناً.

حمام عام أم الجنّة؟:

بعد أربعة فراسخ، وصلنا عند الظهر إلى قرية، فألقينا رحالنا وذهبت إلى حمّام القرية العام الذي ربما لم يكن له مثيل في الحسن في كل الدنيا، إذ كانت أرضيته وكل جدرانه وإلى ارتفاع ما يزيد على ذراع من المرمر الأخضر الشفاف؛ وكان في وسطه حوض مبني بأسره ـ وأرضيةً وجدراناً وحوافَّ ـ من المرمر. إضافة إلى أحواض صغيرة زُيِّنت حوافها ودكّاتها بنقوش أخّاذة محفورة فيها. كما كانت سلالم مخزن الماء الحار وقاعه وجدرانه وحوافه بأسرها من المرمر الصقيل المتلألئ، كان الماء صافياً إلى الدرجة التي كان قاع مخزن الماء والأحواض يبدو من خلاله. كما وُضعت على النوافذ التي في سقفه قطع شفافة جداً من ذلك

المرمر باللونين الأحمر والأصفر بدلاً من الزجاج، مما كان يعطي الحمّام ألواناً جذابة عندما تنفذ أشعة الشمس من خلال تلك القطع الشفافة فتقع على أرضيته، ثم تنعكس ألوانها من هناك على دكّاته وزواياه فتملأ كل الحمام بالشمس فيبدو وكأنه مفتوح إلى السماء، أو أن الشمس نفسها كانت تطلع من داخله:

أي حمّام كان باقة من الورد ليس فيه أشواك أو ما يخز
طلع فيه وجه القمر وكأنه ينافس السماء
أصبحت حيران وأنا في ذلك السرداب ترى إن كانت هذه هي الجنة فأين الحور العين؟

نزلت في الماء آسفاً وخرجت منه بالآهات والحسرات، وتعزيةً للنفس أنشدت:

ربيع الحِسان لا يدوم أكثر من أسبوع مثل البنفسج الذي على ضفاف الأنهار

قلت لرفيقي: لقد كان حماماً حسناً:

ومن الأسف أن يكون هذا الحمام هنا كأنه يوسف وقد وضع في السجن

ولقد كنت آسفاً حقيقةً على دخولي إلى حوض الماء الحار الذي سألوّثه بوساخة بدني، إذ كان لا يليق به إلّا النظر والمتعة الروحية، وليس وساخة الأبدان، فهو محل لتطهير الروح.

أخيراً تحركنا فاجتزنا مبيد بعد حلول الظلام، ولم نكن في سفرنا هذا مع قافلة، بل وحيدين في الفلاة التي كان اللصوص قد أغاروا فيها على قافلة في الليلة الماضية.

اجتزنا ذلك المكان بعد أربع ساعات من حلول الظلام الذي كان ينيره ضوء القمر. وقد قُدِّر لنا أن نضلّ الطريق، فننحرف عن الطريق الرئيس، فوصلنا إلى إحدى القرى عند منتصف الليل. وفي الصباح سألنا أهل القرية عن طريق أصفهان، فقالوا: لقد انحرفتم عن الطريق الرئيس، إلّا أن الطريق الذي يأتي بعد فرن الآجر الذي أمامكم، هو طريق أصفهان.

جنان من الفاكهة:

انطلقنا فوصلنا عند الظهر إلى وادٍ واسع كانت فيه أربع مزارع، فحللنا في واحدة منها عند حوض ماء جارٍ، وجلسنا في الظل وشربنا الشاي وتناولنا طعام

الغداء، كانت الأشجار هناك كبيرة وهي جميعها من أشجار توت الشام الذي كان ناضجاً وأسود.

ظهر أحد الفلاحين وقال: تسلّقوا هذه الأشجار وكلوا منها ما تشاؤون. فتسلقنا أنا ورفيقي تلك الأشجار وأكلنا حتى شبعنا. فالفاكهة التي تؤكل وهي في شجرتها تكون ألذّ طعماً. وقد صُبغت ثيابنا بلون التوت. انتهينا من الأكل، ثم سألنا عن الطريق وذهبنا حتى خرجنا من ذلك الوادي الذي كان طوله فرسخين وعرضه كذلك، وأصبحنا في عرض الفلاة، فنزل علينا الظلام ونحن في ذلك الفضاء الواسع المليء بالحيوانات إلى الدرجة التي كنا فيها نسمع أصوات الثعالب وبقية الحيوانات وهي تصل عنان السماء بصخبها ونغماتها المختلفة الإيقاع بين الزير والبمّ[١] فكأن القيامة قد قامت بكل ضجيجها وعجيجها.

جلس رفيقي ليبول، وهو يقول لي: اصبر فأنا خائف.

قلت: إن الإنسان أشرف من الحيوان، فلماذا تخاف؟

قال: العاقل جبان، لأنه يفكر في العواقب، فيخيفه توقعه أن يُغلب، وقد قال الشيخ الرئيس [ابن سينا]: لم تجتمع الشجاعة مع العقل إلّا في علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه.

قلت: أوّلاً: إنّ (الشيخ الرئيس) لا يقول كلاماً سخيفاً كهذا، وثانياً: إن كان قال هذا فينبغي البحث عن تفسير وتأويل له.

وإنّ الشجاعة ملك للعقل. فإن وُجدت في الحيوانات المفترسة كالنمر والأسد والفهد التي تلقي بأنفسها دون مبالاة في المهالك، فإن ذلك إنما هو التهوّر الذي يسمى في علم الأخلاق بالجنون وهو من الرذائل، بينما تُعدّ الشجاعة من الأخلاق الحميدة. فإن صحّ ما نُسب إلى الشيخ، فينبغي أن يكون مراده التهوّر، لأن التهوّر والعقل لا يجتمعان وهو نوع من الجنون، وعلى هذا يكون الاستثناء الوارد في كلام الإمام علي لا معنى له، لأن عليّاً لم يجمع بين التهور والعقل، إذ سيقع عندها الجمع بين المتناقضين، إلّا أن يكون الاستثناء منقطعاً ولا معنى له هنا.

---

(١) قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم ص٢٣٨ وهو يتحدث عن آلة العود إن أوتارها أربعة، أغلظها البمّ ثم تتدرج فتصل إلى رابعها الزير وهو أدقها.

انتهى رفيقي من تبوّله ونهض وهو يقول: لقد قلت إن الإنسان أشرف من الحيوان، وهو شجاع وليس جباناً، وأنا أوافق على ذلك. لكن الموضوع يتعلق بصغر السّن إذ إنني لست أشرف من الحيوان فأنا الآن في صورة الإنسان أما في الحقيقة، بل أنا حيوان، لأن الإنسان لا يقع عليه التكليف الذي يدور مدار العقل حتى يبلغ الخامسة عشرة من العمر. بل إن التساهل والمهلة تصل حتى سن الثامنة عشرة، فيصبح معلوماً آنذاك أن شعاعاً من العقل قد أشرق على الثمانية عشر عاماً تلك، ولم يستحكم بعد. ولما كنتُ الآن في الثامنة عشرة فما زالت الحيوانية وأخلاقها مستحكمة فيّ، ومعلوم أنّ الحيوانات يخاف بعضها الآخر. ولم أكن أنا واحداً من الجبناء المشهورين. بل إنني لا أخاف من أصحاب تلك الأصوات (الحيوانات) حين تكون واحداً أو اثنين وفي أثناء النهار. ولكن حين أكون في هذا الليل البهيم، الليل الذي يجلب بطبيعته الخوف، ومع هذا الحشر العظيم الذي لم أره حتى الآن، فمن الطبيعي أن يغلب الخوف عليّ وعلى سائر الناس. فأي توبيخ هذا الذي توجهه لي؟

قلت: كان الهدف الرئيس من محاورتي تلك أن أشاغلك ونفسي، لنقطع هذا الطريق الموحش ونصل إلى أحد المنازل، والحمد لله، ها نحن قد وصلنا.

اللوذ بمراقد الصالحين:

كان أمامنا قبر لأحد أبناء الأئمة ينتصب لوحده في تلك الفلاة، فيشكِّل بقعة صغيرة عامرة، وجدنا فيها الماء، فألقينا رحلنا، وبعد مضيّ أربع ساعات على حلول الظلام وفراغنا من العشاء والشاي، نمنا، أعني أنه هو الذي نام ولست أنا.

انطلقنا في الصباح فوصلنا عند الظهر إلى نزل كانت طيقانه [جمع طاق] نظيفة. تناولنا غداءنا وشربنا الشاي ودخنّا. وكان السماور لم يتوقف بعد عن إطلاق آهاته، فكأنه عاشق ولهان الفؤاد، أو مجنون ليلى العامرية وقد ابتلي بالفراق. استلقى رفيقي بينما وقفت أنا أقرأ ما كُتب من ذكريات على حائط ذلك الطاق والتي كان أغلبها من الشعر، وكان بعضها مضحكاً. كنت أقرأ بصوت عالٍ ورفيقي يسمع، وكنت غالباً أطالعها قبل أن أقرأها بصوت عالٍ، ولما وصلت إلى شعر كان قد كُتب بخط واضح فقد قرأته بصوت عالٍ فوراً، ودون أن أنتبه إلى أن

كاتب الشعر قد كتب في البيت الثاني منه شتماً لقارئه، فقرأته، وإني وإن كنت قد ضحكت في الظاهر، كما ضحك رفيقي، إلّا أن صدري كان يتميز غيظاً، فتناولت القلم وكتبت تحته شعراً شتمت فيه كاتب الشعر ثم وقّعتُ كي يعلم من أين تلقّاها. ومع ذلك فإن غيظي لم يبرد.

حوار فلسفي:

قلت لرفيقي: إنّ هؤلاء الذين دأبوا على كتابة ذكريات على جدران الخانات والموقوفات والمقابر والمراقد المقدسة والمساجد ـ وهو مألوف في إيران ـ يسيئون صنعاً ويرتكبون إثماً. لأنّ في ذلك تصرّف في الأوقاف وتخريبٌ لها وإيذاء القرّاء وإضاعة عمر الكاتب والقارىء فيما لا يُجدي نفعاً. وهي تجعل العقلاء يتساءلون عمن علّمهم ذلك وبأي هدف يواصلونها؟ فليت لإيران مربياً مقتدراً، ينصرف الناس في ظل تربيته عن هذا اللغو، ويتّجهون إلى الأمور العقلانية التي إن لم يكن فيها خير الآخرة فإن فيها خير الدنيا.

قال رفيقي: لا بدّ لهذه الأمور العادية من باعث، ليس لأن النبي ﷺ قد قال: «وهم يد على من سواهم» وقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[1] وهو صريح في أنه عين دين الإسلام فحسب، بل لأنّ هدف كل قانون من القوانين التي يشرّعها المشرّع هو الاتفاق والاتحاد بين المسلمين، بل إنّ المعلوم من الآية الشريفة أنه لو فُرض حصول الإلفة بين كل مَن في الأرض، فلا غبن في ذلك، لأنه اشتُري بثمن عادل بل أرخص، كما أنّ سرّ التوحيد الذي هو الأساس الأصيل للديانة الإسلامية، هو توحيد القلوب، إضافة إلى الجمعة والجماعات والاجتماعات في المحافل الخيرية، وفي منى وعرفات، وقد ورد عنهم: «الكتابة نصف الملاقاة»، وبما أن الناس لا يعرفون جميعاً بعضهم الآخر كي يتراسلوا فيما بينهم، لذا كان لا بدّ لهم أن يتعارفوا على الأقل

(١) سورة الأنفال الآية ٦٣.

عن طريق كتابة هذه الذكريات [على الجدران]. وأول لقاء وتعارف هو بذرة المعرفة والاتحاد، بل إن الله تعالى يتعهد بغيث رحمته هذه البذرة لتنمو وتصبح حبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[١].

فالباعث والحكمة من كتابة هذه الذكريات هو حقيقة وروح الديانة الإسلامية لإيجاد الاتحاد والألفة بين المسلمين. وبناء هذه المجامع والمساجد والأضرحة والأوقاف، وإن كان لها هدف مأخوذ بنظر الاعتبار، إلّا أن أفضل فوائدها هو إلفة واتحاد هذه القوافل والزائرين الذين يحققون اللقاء الحقيقي بمواجهة بعضهم، ويحققون نصف لقاء بكتابتهم أمثال تلك الذكريات. وعلى هذا يمكن القول إنّ كل من كتب تذكاراً، فله ما يساوي نصف ثواب باني هذا النزل، ومن أراد مسحه بالتسويد أو الحفر فإنه سيلحق الضرر بهذا الوقف، ولا فائدة ترجى من عملك هذا بالقياس إلى ذلك الثواب العظيم.

وأما الأذى الذي يقع لأمثالك من القرّاء، فبديهي أن الكاتب لا يهدف إلى إيذاء القرّاء الذين هم غير معروفين له، بل هدفه المزاح الذي يؤدي للسرور. وبطبيعة الحال فإن إدخال السرور على قلوب المؤمنين فيه الثواب. وإن شُكَّ في ذلك، فينبغي حمله (بأصالة الصحة) على الوجه الحسن، كي لا يقع الشجار والجفاء بين المسلمين، حتى أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كذِّب سمعك وبصرك عن أخيك»، أي إذا رأيت عملاً سيئاً أو سمعت به عن أخيك، فكذب أذنك وعينك فيما رأت وسمعت، ولا تتألم من أخيك. وإذا دقّقنا النظر في هذه الأحكام الشرعية، يتّضح أن الاتحاد والأخوة لهما أهمية كبيرة في رأي صاحب الشريعة الذي رأى أن تخطئة العين والأذن في أمثال هذه الأمور أهون من الوقوع في البغضاء والعداوة والتصرُّف مع المسلمين بما يؤدي إلى التفرقة.

قلت: السنّة إذا قيست مُحق الدين، وعقول الرجال قاصرة عن فهم مصالح الأحكام. وتريد أنت الآن بفهمك القاصر أن تحلل هذا الضرر الجزئي بتسويد هذه الكتابة أو اقتلاعها من جدار الوقف وهو حرام صراحة، بناءً على الملاكات

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١.

التي أقمتها في ذهنك؟ إن في هذا جرأة منك كبيرة على الشارع المقدس الذي قال بوضوح: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه». وأنا الآن لست سالماً من يد أو لسان هذا الكاتب بحكم (أن القلم أحد اللسانين). نبيك يقول: إن هذا الشخص ليس مسلماً، وأنت تقول: إن أفضل المسلمين من أدخل السرور على قلب المؤمن؟ فإن أدخل السرور إلى قلبك، فقد أدخل النار في قلبي. لو وقع هذا اللعين في يدي لأهدرت دمه. فهو إضافة إلى إيقاعه الضرر بالوقف، قد آذى مسلمين كثيرين. وأوقع الفرقة بين الإخوة، وأسرف في المداد، وأضاع دقيقة أو أكثر من عمره الشريف في العبث، ولم يعرض عن اللغو. وكل تلك العناوين من الأمور المحرّمة، في حين تريد أنت أن تجعلها حلالاً اعتماداً على (أصالة الصحة). بينما الأمر هو: إذا غلب الفساد على الزمان فالحمل على الصحة عجز وتحلّم كتحلّم معاوية. والتمسك بالحلم في موضع الغضب أسلوب يتخذه طالبو الرئاسة. وأنا الآن أسيء الظن بك، فلربما كنت من أتباع الأستاذ الكبير الشيخ معاوية. إذ تظهر نفسك ـ وأنت بهذا السنّ الصغير وقلة العلم ـ بأنك قد ارتقيت السلالم سريعاً. إن حميّة العلم هذه وما يقتضيه أصلك اليزدي هما اللذان سيطرا عليك وأخذاك بعيداً بهذه الأماني، شيء جميل أن تخجل قليلاً:

لا تكن صاحب غارة ومدّ رجليك على قدر اللحاف

يجب علينا ـ نحن المتخصصون في المذهب الجعفري ـ أن نلتزم بالظواهر ونصوص الألفاظ وهي حجتنا، ولا نستطيع أن نكون مثل العامة فنغير أحكام الله في ضوء الحكم والمصالح التي نفهمها. وعلى فرض أننا فهمنا بفكرنا القاصر ذلك الحكم والمصالح على الوجه الصحيح، فمن المحتمل أن تكون في نظر الشارع خصوصيات أخرى بحيث لم يدركها لحد الآن من هم أكبر منا ولن يدركوها. ومن كان مثلنا لا يحيط علماً بواقعيات الحكم، فعليه أن يسلّم لأوامره ونواهيه. كما ينبغي أن لا نتصف بصفات الشيطان ونشمخ بأنوفنا لأننا تعلّمنا بضع كلمات ونقول: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[1] مع أن الشيطان كان أكثر منا ملّائيّةً:

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٦١.

مـا أسـهـل أن يـصـبـح الإنـسـان أسـتـاذا لـكـن مـا أصـعـب أن يـكـون إنـسـانـا

فاحذر من غرور العلم الذي ألقى بالنعمان إلى الهاوية.

تحركنا فوصلنا ليلاً إلى نزل قريب من مشارف أصفهان، فآثرنا الإقامة هناك. ولم نكن نعلم في أي نقطة أصبحنا في الطريق الرئيس المؤدي إلى أصفهان. وكل ما كنا نعلمه هو أننا لم نشاهد خلال سيرنا مدينتي كوپا ونائين اللتين اشتهرتا بنسجهما للعباءات الإيرانية الجيدة الواقعتين في الطريق بين يزد وأصفهان.

بعبارة أخرى، كان بين يزد وأصفهان ستة منازل، مررنا باثنين منها في أول الطريق وبواحد آخر في نهاية الطريق، أما المنازل الثلاثة الأخرى، فلم نمرّ بها، إذ سرنا بها في غير الطريق الرئيسي.



الفصل الثالث
أصفهان وما أدراك ما أصفهان

الوصول إلى أصفهان:

تحركنا صباحاً بعد أداء الأعمال اليومية المعتادة لنذهب إلى أصفهان وكان واضحاً من منظرها الذي ظهر لنا أنها واقعة في سهل واسع. وصلنا عصراً إلى مشارفها. دخلنا بعد ذلك من الجهة الشرقية التي كان فيها بوابة وسور، ونحن نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، واتجهنا إلى خان يقع وسط السوق مخصص للغرباء والمسافرين، أقمنا فيه ثلاثة أيام بلياليها حتى تبين لنا أمر الكتب وعند أي تاجر كانت، ثم أعطينا البغل لليزديين ليأخذوه إلى يزد.

حين فرغنا من تلك الأمور حملنا المظروفين اللذين جئنا بهما من مشهد وكان أحدهما موجّهاً للسيد النجفي والآخر لأخيه ثقة الإسلام. اتجهنا إلى مسجد الشاه وسألنا عن منزل السيد النجفي، فلما وصلنا إليه قبّلنا يده وسلمناه المظروف الذي كان باسمه. وكان أهم ما فيه هو تعيين غرفة لنا في إحدى المدارس. قرأ السيد الرسالة، وعلم أننا قادمان من خراسان لأجل الدراسة، فأكثر من احترامنا والسؤال عن أحوالنا، ولكثرة احترامه وترحيبه بنا ظننّا أن المسألة الأساسية لنا ـ وهي تعيين غرفة ـ قد حُلّت، إلّا أنه سألنا بعد عدة دقائق عما ندرس. وللأسف فقد أجبناه خفضاً للجناح وتواضعاً للعلم: **شرح اللمعة والقوانين**. مع أننا كنا قد انتهينا من قراءة أغلب ما في هذين الكتابين.

التعرف على أساتذة أصفهان:

حين سمع بذلك لم يعبأ بنا ولم يسألنا شيئاً بعدها. انتظرنا لمدة ساعة لكن دون جدوى، فأشرت إلى رفيقي أن ينهض، وذهبنا. قلت لرفيقي: لقد يئس السيد من حضورنا درسه، ولما رآنا صبيين قارننا بطلاب أصفهان الذين يحضرون درسه ولما يكملوا **كتاب السيوطي** فينعشون مجلسه، بينما لا يعلم المسكين أنهم لا يفهمون شيئاً، فهؤلاء الأساتذة لا يهتمون بتربية الطلاب بأن يمتحنوهم ليروا إن كانوا يستطيعون حضور درس البحث الخارج أم لا. بل كانوا يفكرون في إحياء حوزاتهم بغض النظر عما إذا كان هذا الطالب يفهم شيئاً أم لا. والظاهر أيضاً أن الطلاب هم طلاب دنيا، فحيثما وجد المال وأثمرت معرفتهم بشخصٍ ما، قصدوا ذلك المكان، وبالمقابل فإن السيد يوزع نعمته على أهل حوزته ولا يعرف سواهم أو ربما اعتبرهم عابثين. ولأجل هذا فإن العلم والتعليم قد اجتُثّا من جذورهما ولم يبق منهما إلاّ الظاهر، وهذا أيضاً إنما هو للعوام فقط. وبديهي أن الصورة الخالية من الروح ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[1] ثم لا تلبث تلك الصورة أن تزول، فما هو تصور الطالب أو الأستاذ؟ ضعف الطالب والمطلوب. اللهم اكشف سرّ هذا اللغز.

ذهبنا إلى منزل الشيخ محمد علي المعروف بثقة الإسلام وهو الأخ الأصغر للسيد النجفي، وأعطيناه المظروف الموجّه إليه وقبّلنا يده وجلسنا. كان أحد تلاميذه من الشيوخ حاضراً لديه. وحين قرأ الرسالة سأل ذلك الشيخ: هل الغرفة الفلانية من حجرات مسجد الشاه خالية أم لا؟ قال الشيخ: إنها خالية. فقال له: خذ هؤلاء السادة وأسكنهم هناك حتى نحصل لهم على غرفة في إحدى المدارس.

أخذنا الشيخ إلى البيت الملحق بالمسجد حيث توجد غرف في الطابق الأعلى الذي كان صحن طاقه يقع في مقابل المسجد. كان الشيخ يقيم في إحدى غرف ذلك المنزل. عندما دخلنا المنزل صعدنا أكثر من عشر درجات لنصل إلى أعلى،

---

(١) سورة النور، الآية ٣٩.

فرأينا غرفة واحدة هناك واقعة بمحاذاة المنارة الغربية للمسجد، التي لا ترتفع عن غرفتنا أكثر من قامة رجل أو قامتين. أخذنا مفتاح الغرفة وذهبنا إلى الخان وجلبنا أمتعتنا القليلة مع الكتب إلى الغرفة، حيث أعددنا الشاي وسقينا الشيخ المقيم في المنزل عدة أقداح منه. قدّمنا بعدها شكرنا له، ثم سألناه عن اسمه وأحواله فقال: اسمي الشيخ علي بابا فيروز كوهي، وأدرس الآن البحث الخارج(١) فإذا شئتم دراسة **القوانين والرسائل** فتعالوا إلي فأنا أدرسهما.

قلنا: هذا حسن، ثم بدأنا بدراسة كتاب **القوانين** الذي كنا قد درسناه في مدينة مشهد، لعلنا نوفق إلى نيل رضاه، ثم ذهبنا إلى المدارس نبحث عن الأساتذة، فوجدنا في مدرسة الصدر أستاذاً يدعى الشيخ محمد كاشي، وكان شيخاً كبيراً حدثنا عن طلابه كثيراً، وكان يدّعي أنه مجتهد في اثنين وعشرين علماً، إلاّ أنه مع كبر سنّه لم يتزوج لا زواجاً دائماً ولا مؤقتاً، كما ادّعى أنه وصل إلى مقام الشهود والفناء. وكان صادقاً في ادعائه ذاك. وقد درسنا عليه **منظومة السبزواري** وله فيها تحقيقات دقيقة.

كما تعرّفنا إلى عالم آخر من العلماء الورعين في تلك المدرسة يدعى جهان گيرخان وهو من قبائل بختياري في لورستان أو من القشقائيين، ولم يكن له من دنياه إلّا غرفة في المدرسة. وكان إماماً للجماعة، ومع أنه كان كبير السن إلّا أنه كان يتزوج أحياناً زواجاً بالعقد القصير، وكان تمسكه بالشرع أكثر من ذلك الشيخ الكاشي على الظاهر. وقد ذهبنا إلى درسه مرة أو مرتين لدرس **إشارات الشيخ الرئيس** فلم يرُق لنا، فلم نذهب إليه بعدها.

أما الأستاذ الآخر فهو الشيخ عبد الكريم الگزي(٢) وهو من العلماء الكبار. وقد قرأنا عليه **رسائل الشيخ** وكان كثير التدقيق والتنقيح، وهو من تلاميذ الملاّ كاظم الخراساني.

---

(١) من المراحل الدراسية التي تسبق الاجتهاد بقليل.

(٢) من علماء إيران المعروفين. انشغل بالتدريس بعد أن فرغ من دراسة الفلسفة. وله تلاميذ كثيرون أصبحوا من علماء وأدباء إيران. توفي عام ١٣٢٨هـ. (ش).

كما كنا نذهب أحياناً إلى درس السيد النجفي وأخيه ثقة الإسلام والسيد نور الله الذي كان الضجيج والعجيج والهرج والمرج في مجلسه أكثر مما هو عليه في حمّام النساء، فلا الأستاذ كان يقول شيئاً، ولا الطلاب يفهمون ما يقول، إلّا أن المجلس كان مفيداً للتفرج فقط.

وكان السيد النجفي يصلنا بين الحين والآخر بالخبز أو النقود عندما كان يقسّمها، فيصلنا منها أكثر من سبعة قرانات.

ولقد كان للمائة وخمسين أو المائتين طالب الذين يحضرون دروس أولئك السادة أهداف أخرى لا علاقة لها بالدرس، إلّا السيد محمد باقر درچه الذي كان الفضلاء فقط يذهبون إلى درسه، ولم يكن تحيط بهذا الأستاذ أهداف دنيوية، وكان الجميع يدوّنون درسه. وبعد فترة وعند انتهائنا من **القوانين** أصبحنا ـ وبإصرار من ذلك الشيخ ـ نحضر درس البحث الخارج عند هذا الفاضل.

وكنا نأخذ أيضاً درساً في الأصول وآخر في الفقه، إلّا أنه كان صعباً جداً لأن الأستاذ كان من تلاميذ الميرزا حبيب الله الرشتي وكان يسهب في الشرح والتفصيل، مثل إيراد الإشكالات والوجوه العديدة في رد كل إشكال منها و(قلتَ) و(قلتُ) الموجودة فيما بينها والتي كان ينسى منها واحداً أو اثنين أثناء الكتابة أو يتغير مكانها من حيث التقديم والتأخير، مع أنه كان يقرر كل درس مرتين، الأولى عند الصباح ويعيده في الأخرى عصراً حيث يحضر نصف الطلاب الذين نسوا ـ وكنا من ضمنهم أحياناً ـ التقرير الثالث. أي أنه كان يكرّر كل درس ثلاث مرات، ولما كان يدرّس في اليوم الواحد ثلاثة دروس ف٣×٣ تصبح تسعة وهو مجموع ما يدرّسه في الواقع، وهو ما يؤدي إلى انتزاع روح الطالب إضافة إلى انتزاع روح الأستاذ الذي كان يكتب فهرساً برؤوس أقلام الدرس على أوراق مهملة ويضعها تحت العباءة، فإذا نسي أحياناً ترتيب المواضيع نظر إلى ذلك الفهرس. وكان يبذل جهداً كبيراً في المطالعة والتفكير، وكان يقضي الليل والنهار في المدرسة، كما لم يكن له بيت في المدينة، وكان يقضي يومي الخميس والجمعة في القرية ويعود إلى المدرسة عصر الجمعة حاملاً معه الخبز واللبن الرائب لبقية أيام الأسبوع، وكان يشتري من السكر والشاي ما يكفيه حتى نهاية

الأسبوع أيضاً. وهكذا كان يبقى في المدرسة طيلة أيام الأسبوع كغيره من الطلاب غير محتاج للذهاب إلى السوق. فإن احتاج إلى قليل من اللحم اشترى له ذلك أحد الطلبة، إذ كان فقيراً.

كان يحيي الليالي بالسهر ويجهد نفسه في الدرس والبحث. ولأنه كان ضعيف الحال كطلبته، فقد دعوناه مرتين أو ثلاثاً في أيام الخميس التي لم يذهب فيها إلى القرية، حيث قضى لياليه تلك في غرفتنا بالمزاح ونام لدينا أيضاً. وعلى الرغم من كون الشيخ عبد الكريم الگزي هذا فاضلاً جداً، إلّا أنه كان فقيراً وعباءته بالية. وبالرغم من أن هذا وأمثاله أفضل في الفضل والكمال من السيد النجفي وإخوانه، فإن الدولة والرئاسة كانت من نصيب أولئك، والفقر والفاقة من نصيب هؤلاء. إن الدنيا لا تعرف أصحاب الفضل والكمال، وهم بدورهم يتعاملون معها تعامل الغرباء. وكما أن الجفاء لا بدّ أن يكون من الطرفين، فكذلك الصداقة ينبغي أن تكون من الطرفين، وأما حين تكون من طرف واحد فهي متعبة.

بعض يحبّ المرض والآخر يحبّ الدواء — بينما يحبّ البعض الفقر وآخرون الثراء
ومنهم من يحبّ الموت ويحبّ غيرهم السجن — ومنهم من يحبّ العري وآخرون الكساء
ويفضّل آخرون الفضل والإحسان — وبعضهم الوصل وبعضهم الهجران
ومنهم من يفضّل الجفاف وآخرون المطر — أما أنا فمن بين كل ما يريده البشر
أحب ذلك الذي يحب الأرواح

الانفصال عن الرفيق:

ولم تكن معيشتنا هانئة في البداية إذ أمضينا الشهرين الأولين في تلك الحجرة العالية في المسجد التي قارب ارتفاعها ارتفاع عالي قابو[(١)]. إلّا أننا عثرنا بعد ذلك على غرفة في مدرسة العرب القريبة من منزل الحاج نور الله التي كان هو قد عمّرها. فقررنا نحن الاثنين أن يذهب أحدنا إلى الغرفة الجديدة، بينما يظل الآخر في الغرفة الأولى التي كادت أن تصل في ارتفاعها إلى البيت المعمور، إلى

(١) بناية في أصفهان بناها الشاه عباس الكبير لتكون محلاً لاستقبال الضيوف والسفراء الأجانب وإقامة مراسم البلاط وهي أكثر الأبنية ارتفاعاً في ذلك الزمان.

الوقت الذي يتم فيه العثور على غرفة أخرى في المدرسة. فنحن وإن كنا رفيقين متفاهمين وليس لدينا ما يفصلنا عن بعضنا في أي أمر من الأمور، إلّا أن الاستقلال في كل شيء هو أمر محبّذ بحدّ ذاته خصوصاً للطلبة، إذ إن انفراد الطالب في غرفته يمكّنه من تركيز فكره في الدرس والمطالعة.

اتفقنا على ذلك وقلت لرفيقي: إن كنت راغباً في الإقامة في المدرسة فاذهب، فأنا أقدم رغبتك على رغبتي. قال: بما أن الطلاب مجتمعون هناك، فأنا راغب بالذهاب إلى هناك، ولو أنك ذهبت لما بقي لي أنيس هنا، وسيكون ذلك صعباً. أما أنت فإنك تأنس إليّ فقط، ولا تأنس لغيري، لذا فالإقامة في غرفة تكون لك في المسجد أو في المدرسة سيان لديك.

قلت: هو كذلك. اذهب فالغرفة لك، وسأبقى هنا أناجي وأباحث ربي في الليالي وآنس بذلك.

ذهب الشيخ وأقام في غرفته بالمدرسة، وكان يأتي إلي نهاراً فنتباحث ونتناول طعامنا سوية ونحضّر الدرس، ثم نفترق عصراً هو إلى المدرسة وأنا إلى المسجد.

استكشاف أصفهان:

وفي يوم خميس قلت له: لقد دخلنا أصفهان من شرقها واتجهنا قليلاً نحو الغرب، ثم اتخذنا اتجاه القبلة حتى مسجد الشاه. وبما أننا اليوم بلا عمل فلنذهب باتجاه الغرب لنعرف هل أن هذا الاسم والشهرة من (أن أصفهان نصف العالم) وأن فيها فواكه كثيرة ـ إذ إننا لم نر في جانبها الشرقي بستاناً كي نرى الفاكهة ـ فهل أن ذلك حقيقة أم ادّعاء؟ وإن كان صدق ذلك أو كذبه لا فائدة فيه، إذ إن الهدف الأساس هو السياحة و«إن أمتي سيّاحون».

اتفقنا وتحركنا باتجاه الشمال بعد أن اجتزنا سوق الشيرازيين ومن هناك خرجنا من المدينة فوجدنا أنفسنا وسط البساتين. سرنا حتى انقضى الظهر حيث جلسنا على حافة نهر، وأكلنا خبزاً ولبناً جلبناه معنا، وقد أخذ التعب منّا مأخذه، قلت لرفيقي: صحيح أننا رأينا نهاية المدينة إلّا أنه ليس معلوماً أن نصل إلى نهاية البساتين بسرعة.

وجدنا شخصاً فسألناه عن المسافة بين هذا المكان ومسجد الشاه فقال: تزيد على فرسخ. قلنا: فكم بقي لنا لنجتاز هذه البساتين ونصل إلى الفلاة؟ قال إذا سرتم نحو الغرب فسيبقى من الطريق نصف فرسخ، وإن سلكتم هذا الطريق فإن ما بقي منه أكثر وربما بلغ فرسخاً. قلت: عجباً! لقد ستر الله هذه المدينة التي يقع ثلثها إلى جهة القبلة ونهر زانيره فلم يخرب إلّا هذا الطرف على أيدي الغزاة الأفغان[1]. أية مدينة هذه التي لا حياء لأهلها لها، إذ هي بهذا الطول والعرض ولا يسكنها سوى ثمانين ألفاً، كلهم من البخلاء الجبناء الذين كان مجرد دخول أقل من ألف جندي إلى مدينتهم ومكوثهم فيها ليلة واحدة، توجهوا بعدها في اليوم الثاني إلى شيراز قد رفع سعر الخبز وباقي المواد وجعل الفوضى تعمّ المدينة. ليبارك الله في باقي المدن وخاصة المقدسة منها، بل حتى القرى الواقعة على الطرق المؤدية إليها التي يُحمل منها ويُنقل إليها في الشهور الثلاثة من فصل الخريف آلاف الأحمال.

مكثت في غرفة المسجد لمدة ستة أشهر أخرى، حصلت بعدها على غرفة خربة في مدرسة العرب فانتقلت أنا أيضاً إلى هناك، وقد انقضت السنة الأولى بصعوبة ومرارة عليّ وعلى رفيقي الذي كان يشاركني الطعام إلى الحدّ الذي كنا نخرج فيه في الرابعة ليلاً لنأتي بقشور البطيخ الملقاة خارجاً ونأكلها. واتفق مرة أن قضينا ـ أنا ورفيقي ـ ثلاثة أيام لم يصلنا فيها شيء، وعندما حل وقت الغداء من اليوم الثالث وبعد أن انتهينا من الدرس والمطالعة، طلبنا من أصدقائنا أن يقرضونا شيئاً، فلم يكن لديهم ما يقدموه لنا. فقررنا أن يذهب كل منا إلى غرفته وينام كما فعلنا في اليومين الماضيين وننتظر أمر الله.

بِعتُ كتابي لأؤمن قوتي:

غادرني رفيقي إلى غرفته، بينما استلقيت أنا في غرفتي فوقع بصري على رفّ الكتب حيث كان لديّ منها ما يتراوح ثمنه بين ١٠ ـ ١٢ توماناً. والآن وقد أُحلّ لنا أكل الميتة، فإن بيع الكتب أكثر حلالاً من ذلك. كيف غفلنا عن بيع هذه

(١) دخلت الجيوش الأفغانية إلى أصفهان عاصمة إيران آنذاك في ١٤ محرم (الموافق ١٧٢٢م)، بقيادة محمود أفغان وأعملت فيها النهب والسلب والقتل.

الكتب بينما كنا ومنذ ثلاثة أيام تكاد أرواحنا تفارق أجسادنا من الجوع؟ من المؤكد أن الله أراد اختبارنا، ولذلك جعلنا نغفل عن ذلك، وإلّا فما كنا لنصبر يوماً واحداً. نهضت فوراً إلى رف الكتب وكلما مددت يدي إلى أحدها وجدته مما يدرس ويبحث بين اثنين مثل: **المطوّل**، **والمغني**، **وشرح المطالع**، **وشرح التجريد**، **ومنظومة السبزواري**، **والرسائل**، **والمكاسب**، **والقوانين**. وجميعها كتب الدرس والبحث والمطالعة، وفكرت في **حاشية الآخوند على المكاسب والرسائل وحاشية الشيخ محمد تقي على المعالم** فكانت أيضاً من كتب مطالعتنا. وأخيراً وبعد التفكير العميق والجرح والتعديل أخذت **كتاب المعالم** الذي كنت قد اشتريته من مشهد بأربعة قرانات، وذهبت إلى محل لبيع الكتب يبعد عن المدرسة حوالي ألف قدم. قال لي الكتبي إنه مستعد لشرائه بقرانين، إلاّ أنني طلبت منه ثلاثة فرفض. تنازلت فقلت بقرانين ونصف. فرفض أيضاً. حملت الكتاب وذهبت إلى مكتبة أخرى تبعد عن هذه المكتبة بحوالي مئتي قدم. ابتعدت وأنا آمل أن يوافق الكتبي الأول على طلبي فيدعوني، إلاّ أنني لم أسمع شيئاً.

بيع الكتاب والجدل البيزنطي:

كانت مفاصل رجليّ قد تعرقت وارتخت لشدة الضعف، فعدت إلى الكتبي وأعطيته الكتاب وأخذت القرانين، واشتريت بهما خبزاً وكباباً كافيين، كما اشتريت سكنجبيناً[١] ونعناعاً وثلجاً. وهكذا أنفقت القرانين بكاملهما. ذهبت إلى غرفتي وبسطت الخوان وأذبت الثلج في السكنجبين ثم ذهبت إلى غرفة رفيقي فأيقظته. جاء وهو يتثاءب وجلس إلى الخوان وحين دخلت رائحة الكباب منخريه فتح عينيه فرأى ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، قال: من أين لك كل هذا؟ قلت: بعت **كتاب المعالم** واشتريت هذا الغذاء. وهو أيضاً لا ينفعنا. قال: لماذا بعته؟ وهل يبيع الطالب كتبه؟ لقد كان رفيقي يملك كتباً أكثر مني. فقلت: يبدو أنك لم تكن غافلاً عن كتبك، ومع هذا صبرتَ على الجوع. أشهد أنك يزدي حقاً. أما أنا

---

(١) السكنجبين. شراب حلو. قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم (ص١٧٦) (هو المركب من الخل والعسل. ثم يسمى بهذا الاسم وإن كان مكان العسل سكّر، ومكان الخل رُبّ السفرجل).

فقد كنت غافلاً. وقد صحوتُ من نوم الغفلة عندما وقعت عيناي على الكتب فوجدت أنني أمتلكها. ولمتُ نفسي قليلاً على تلك الغفلة. ثم خطر على بالي أن غفلتي تلك كانت من الله الذي أراد بها أن يضيّق علينا كي نتعلم الصبر ونصبح من الآدميين. لأنّ التحول إلى الآدمية ليس منوطاً بالدراسة فحسب، بل يجب أن نتحلّى بمكارم الأخلاق والصبر أحدها: الصبر على أداء الواجبات والمستحبات، والصبر على ترك المحرمات. وهذا الصبر الذي صبرناه حتى الآن كان شاملاً للنوعين، لأنّ الجوع يدعو إلى ترك بعض المباحات وفعل بعض المحرمات. وها نحن قد صبرنا. وقد بقي نوع آخر من الصبر وهو ليس في اختيارنا وأعني به نزول المصائب والبلايا. وينبغي لنا أيضاً أن نسأل الله تعالى التوفيق للصبر عليها.

يجب على الطالب أن لا يبيع كتبه، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يموت فيه جوعاً. إذ لن يبقى حينذاك طالب واحد كي يقتني تلك الكتب، ولن ينفع الكتاب بعد موت الإنسان. بل إنّ الإنسان سيحمل عبء دمه ويقتل نفسه بنفسه. وحفظ النفس من أوجب الواجبات.

قال: ليس الأمر كما تقول، لقد بعت الكتاب الذي فيه العلم وغذاء الروح، واشتريت بدلاً منه طعاماً أكلته فأصبح غذاءً للبدن. والروح ميتة بدون العلم. إذاً فقد قتلت الروح من الجوع وأحييت البدن، وبعت الآخرة وربحت الدنيا. وأتلفت الأصل وتمسكت بالفرع. تركت الواجب وأدّيت ما هو متعارف. وليس من عاقل يفعل ما فعلت. وقد شاء الله أن يكون الجسد تحت تصرف الروح دائماً. بينما فعلت أنت الآن عكس إرادة الله فسلّطت البدن عليها.

قلت: هذا عجيب! إذ إن رقي الروح مرهون بالجسد، والدنيا مزرعة الآخرة، لذا ينبغي حفظ الجسد بقدر المستطاع بما يضمن له البقاء وليس أكثر من ذلك كي تسمو الروح، والمزرعة يجب إعمارها إلى الحدّ الذي يكون محصولها جيداً ووفيراً. فمثلاً لو لم نكن قد حصلنا على الطعام في هذا اليوم أيضاً فمن المؤكد أننا لم نكن ـ لشدة ضعفنا من الجوع ـ لنستطيع تأدية الصلاة أو الدراسة. وربما شتمنا من سلّم علينا، وذلك لضيق صدورنا. بل ـ والعياذ بالله ـ ربما عاتبنا خالقنا على ما حصل، وعندها سنكون مرتدّين لأن رتبة النفس البشرية الضيق والعجز، وليس لها القدرة على التحمل وخاصة بالنسبة لأمثالنا حيث إننا نشبه الشتلة الحديثة الزرع.

وأما ثانياً فأنا لم أفهم كلامك الذي قلت فيه إن غذاء الروح في الكتاب. هل تصورت أننا بأخذنا العلم في الكتاب سيتحول كل سطر فيه إلى لقمة نضعها في فم الروح، أو أن مضامين كلمات الأستاذ ستدخل في بطون أرواحنا وتصبح الأرواح عندها عالمة وكبيرة؟ لا، ليس الأمر هكذا، بل إنّ هذا وهمٌ باطل. فالعلم هو إلهامات غيبية وفيوضات باطنية، تنهمر من المقام الشامخ للعقل الفعال على أراضي القلوب العامرة والمستعدة. وأخيراً فإن مطالعة الكتب بإمعان والإنصات لكلمات الأستاذ والتفكّر فيها يهب القلوب الاستعداد، تماماً مثل إعادة حراثة الأرض أو وضع السماد فيها مرة أخرى، وعلى أي حال فـ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]. والرزق سواء أكان بدنياً أم روحياً فإن التفكر في الآيات هو الذي يورث الاستعداد، بغض النظر عن كون الكلام من لفظ الأستاذ مباشرة أو مدوّناً في كتاب. والآيات الإلهية إما أن تكون آفاقية وأنفسية وهي التي يعبر عنها بالتكوينية، أو أن تكون تدوينية أو ملفوظة بلسان النبي والإمام، فإن لم تكن مدونة في الكتب، فإن الكتب الأنفسية والآفاقية موجودة بين أيدينا، فلو كنا طلاب علم حقاً ودارسين، فإن لدينا كتباً كثيرة لنطالعها، بل هي أفضل من هذه الكتب المدونة المليئة بالمخاطر والأخطاء.

إنّ كل العالَم هو كتاب الحق تعالى لدى ذلك الذي روحه متجلّية بالله
والإعراب هو (العَرَض) لـ(جوهر) الحروف ومقامات أمثال تلك الآيات الوقوف عليها

بل إنّ كل موجود من الموجودات هو كتاب من الحق تعالى يدل أصل حدوثه على ثبوت ذات القديم وعظمته وحسنه ودقة صنعه وعلى كمال القدرة، وأنه لطيف خبير.

ردّ على الطبيعيين والماديين:

فمثلاً لننظر بدقة إلى أي نبات صغيراً كان أم كبيراً، وأي عنصر غذائي يتناول من الأرض وأي قوة ومقسِّم أرزاق يوجد في ذلك النبات بحيث يصل إلى كل غصن وورقة وثمرة ما يستحقه من ذلك العنصر الغذائي. من أين تعرف تلك القوة

(١) سورة الذاريات، الآية ٢٢.

درجة استحقاق الغصن الكبير أو الصغير؟ وكيف تميّز درجات الأوراق؟ وبأي ميزان تعرف مقدار غذائها؟ وهذه الألوان التي قسمت بين أجزاء النبات بحيث لا تتخلف عن هذا القانون، إذ يجب أن يكون لون الإجاص أصفر ولون ورقه أخضر؟ فالطبيعة عديمة الشعور تخطىء في تحديد هذه الأعمال الدقيقة الحتمية الوقوع على شكل ومقدار معينين. فها نحن ذوي الشعور والأذكياء بل الذين نعلّم الشيطان دروساً، نرتكب في أحيان كثيرة أخطاء كبيرة في تقسيماتنا ومقاييسنا، فكيف يكون الحال بالنسبة للطبيعة المسكينة غير الشاعرة؟ نعم، إنّ الطبيعة الواحدة لا يصدر منها سوى فعل واحد، كالصخرة التي شأنها أن تسقط إلى الأسفل، أو الدخان الذي يتصاعد إلى أعلى. إلّا أن الأفعال المتنوعة المنظمة المتقنة لا يمكن صدورها عن الطبيعة التي لا تعي شيئاً إلّا إذا كانت فيها قوة علمية أو كانت خارجة عن الطبيعة وهو المربي والرازق والموجد لجميع الطبائع الموجودة التي يمكن أن يُعرف الله سبحانه في أيٍّ منها.

الخلاصة: إنهم دعوا الله في الصورة الأولى بالطبيعة، وقد أساؤوا في فعلهم هذا، لأن أسماء الله سبحانه توقيفية. ونحن إذا عرفنا ـ بواسطة مطالعتنا لشجرة أو حيوان، أو من خلال مطالعتنا لأنفسنا، ونحن كتاب الله الكبير ـ الخالق والرازق والحاكم والسلطان العالم العادل القاهر النافع والضار والكريم والرحيم، فيجب أن نكون شاكرين وممتنين ومتواضعين ومحبين له وخائفين من عصيانه والتمرد عليه. ولمّا كان من المحتمل أن يحب منا الشكر والتواضع بشكل خاص ولا يحبه بشكل آخر، إذ نحن لا ندرك ما يحب وما لا يحب، وما يليق به وما لا يليق، إذاً فنحن بحاجة إلى من يعلّمنا المرغوب وغير المرغوب. ومن البعيد عن لطفه ورحمته وحكمته أن يتركنا حيارى متورطين في تلك المصيبة.

يجب علينا إذاً، نحن الذين عرفنا الله أن نبحث عن الرسول والمعلم والهادي لنجد أمثال سلمان وأبي ذر، لا أن يأتوا هم في زماننا.

وسواء أسعينا نحن لنفع أنفسنا وبحثنا عنه، أم شملتنا رحمته وجاء هو إلى باب دارنا وعرّفنا نفسه بأنه جاء من قبل ربّ العالمين لهدايتنا وإرشادنا، فعلينا بعد ذلك أن نتّبعه في الأعمال والأخلاق والعقائد، ونتّخذه مشعلاً لطريقنا في

ظلمات الجهل. وإجمالاً للقول، حينما تفهم عقولنا النبوة المطلقة، بل النبوة الخاصة، يصبح الحكم علينا إلزامياً. ولا بدّ لنا من اتباع شخص النبي في زمان حضوره أو زمان غيبته ورحلته.

زوال حقيقة التعليم والتعلم من بين العلماء:

نحن ملزمون بالرجوع إلى القرآن وإلى من جعلهم مترجمين ومفسرين لهذا الكتاب، كما قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». والرجوع إلى هذين الاثنين ليس منوطاً بهذه الكتب، فسواء أكان لدينا مشترك لفظي أم لم يكن، فإنّ هناك المشترك المعنوي، أو أن استعمال لفظ ما لمعنيين جائز، أو أنّ النهي يدلّ على الفساد أو لا يدل. وما علاقة هذه الأمور بكلام الشارع مع أن كل بحث من تلك المباحث يتضمن الكثير من الأقوال المنقولة والمجادلات و(إن قلتَ) (قلتُ)، حتى أنّ الإنسان يصاب بالدوار، ويضيع أصل الموضوع؛ بل إنّ المؤلفين أنفسهم يضيّعون أصل الموضوع، ويعودون إلى بدايته، ثم يتنازعون في مسألة (أي شيء كان موضوع النزاع) فيقول أحدهم: إن بحثنا كان حول الموضوع الفلاني. فيرد الآخر قائلاً: كلا، بل حول الموضوع الفلاني. وهذا الميرزا أبو المعالي[1] الذي هو من العلماء المتبحرين المعاصرين لنا، وهو من المتدينين، حتى بلغني أنه يخرج زوجته وأطفاله خارج البيت حين الصلاة كي يكون تفكيره مركزاً في الصلاة فقط، وهو كثير التفكّر لدرجةٍ أنّه كان مرة في الحمام العام وفي القسم المخصص للطلاء بالنورة[2]، غارقاً في تفكيره، فلم ينتبه إلّا والنورة قد خدشت بشرته، وظل بعد هذا يعالَج لدى أحد الأطباء فترة طويلة. كان يجهد نفسه كثيراً في تأليف الكتب، حتى أنه كان يصطحب معه مقلمته وأجزاء كتابه إلى الحمام العام،

(١) محمد بن إبراهيم الكلباسي (١٢٤٧ ـ ١٣١٥هـ) عالم فاضل متجرد كثير التتبع، حسن التقرير، كثير الاحتياط، شديد الورع، كامل النفس. مدفون بتخت فولاذ بأصفهان. (ش).

(٢) مسحوق أوكسيد الكالسيوم، ويستخدم بعد عجنه بالماء لإزالة شعر البدن.

وكان يكتب حتى لو كانت يده ملطخة بالحناء، وفعلاً كانت بعض أوراق الكتاب ملطخة بالحناء، وقد استنسخها بعد ذلك. وأنت تعرفه أكثر منّي. هذا العالم طبع كتاباً ووزّعه على الطلاب بالمجّان وقد وصلتني نسخة منه. وحين تفتح الكتاب تجد أنه قد صنّف كتاباً مستقلاً لتوضيح موضوع بحث العلماء الفلاني، أي أنه كتب بعد بسم الله والحمد لله: رسالة في تحرير محل النزاع بين العلماء في دلالة النهي على الفساد أو عدمه، وتعيين مورده... إلخ. وهكذا وإلى نهاية ذلك الكتاب اقتصر البحث على ذلك الأمر، وقد أطالوا البحث في ذلك الموضوع وفصّلوه متوخّين بذلك إظهار الفضل، حيث تصوروا أنّ كثرة الفضل في كثرة الكلام وضخامة الكتاب. وقد أخطأوا في ذلك أيضاً. وقد قيل (العلم نقطة كثّره الجاهلون). لقد أطالوا في الموضوع وإن شاء الله يكون هدفهم سليماً، إلّا أن الطلاب لا يفهمون، وقد أضاعوا أصل الموضوع بين تلك الترهات. والمضحك أنّ المصنّفين، أي الأساتذة أنفسهم، قد أضاعوا هم أيضاً أصل الموضوع. ويجيء الآن جناب السيد الفلاني ليؤلف كتاباً في الحصول على أصل الموضوع في البحث الفلاني، وقد وجده ـ حسب رأيه ـ ثم يأتي آخر بعده ويؤلف كتاباً في الردّ عليه وهلمّ جرا. ترى أية منفعة تعود على الطلبة من كتب كهذه يا حضرة الرفيق غير إضاعة العمر وعدم الاستفادة من الدين وحقيقة علم القرآن والأخلاق والعقائد، ومغادرة المدرسة ـ بعد بياض اللحية وبلوغ الشيخوخة ـ خالي الوفاض؟

إنني قد فعلتُ حسناً حين بعت الكتاب لعدم احتياجي إليه، واشتريتُ بدلاً منه خبزاً وكباباً، وأنقذت بذلك نفسين محترمتين من الموت، ومع ذلك ما زلتَ تُدمدم؟

رفيقي معجبٌ بي:

بعد أن شبع صاحبي تماماً، وأكمل تدخين غليونه، انتفض بوجهي وهو يقول: من أين تعلّمت كل هذه التحقيقات العميقة؟ وبطبيعة الحال فإنّ السماع من الأساتذة ومطالعة هذه الكتب تؤيد حقيقة أنّ كل الأسباب منتهية إليه [إلى الله

سبحانه]، وتؤيد أيضاً حقيقة أن لا مؤثر في الوجود إلّا الله ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[(١)] وهو شامل للرزق البدني والروحي، حيث إن رزق البدن الذي هو في الأرض حين يكون من السماء، فمن باب أولى أن يكون رزق الروح سماوياً، إلّا أنه لا بدّ له من أسباب تنزله من السماء، حيث إنه لا يأتي جاهزاً لوحده، اللهم إلّا أن يكون الإنسان كعيسى عليه السلام الذي أنزل الله له بشكل إعجازي مائدة من السماء. ونحن لسنا كذلك، والعين بصيرة واليد قصيرة.

إذاً فالكتاب والمذاكرة مع الأستاذ وغيرها، أسباب للعلم والرزق الروحي، فهذه الكتب المدوّنة والعلوم المترتبة عليها هي علل معدّة لجذب الإلهام الغيبي، وظهور بواطن القرآن الذي هو علم سماوي. وما لم تتصل هذه المعدات ببعضها، وتصبح طويلة كعصا موسى، وما لم تصل إلى أغصان شجرة طوبى، وبدون هطول غيث العلوم على الأغنام الأرضية، وبدون أن يكون لك ما تستند إليه وتدفع به أعداءك وأعداء أغنامك، ينبغي لك أن تحافظ على عصاك كي تتلو: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[(٢)] فهي [الكتب] أنيسك وجليس وحدتك، لا تحتاج إلى إنفاق أو مشقة أو خدمة منك لتتحدث. فهي طوع إرادتك إن شئتَ تكلّمت، وإن لم تشأ سكتت. ترى هل يمكن لمن يملك عصا موسى أو خاتم سليمان أو سيف حيدر الكرّار، أن يبيعها لقاء وجبة غذاء يفرغها بعد ساعات في المرحاض، لقد خسرت الصفقة. فأيّ لئيم أصلٍ وحقير طبعٍ ذلك الذي يدنو من معاملة كهذه؟

قلت: أيها الطالب، لقد تعلمت أنت أيضاً تدريجياً كيف تنحرف عن أصل الموضوع، وتغيير محل بحثه. هلاّ نظرت إلى آخر جملة من كلامي أين انتهت؟ فأنا لم أقل إنّ الكتاب سيّئ بحدّ ذاته، أو أنّ كلام الأساتذة لا فائدة فيه. بل أقول إن كتباً مثل **القوانين والفصول** لا يبلغ فيها مبحث (السببية) أكثر من فصلين، وليس في بقية الفصول إلاّ احتمالات، إما أن تكون مستحيلة أو بدون جدوى.

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٢٢.

(٢) سورة طه، الآية ١٨.

فلماذا كتبوها وهي التي لا يجني منها الطلبة المساكين إلاّ إضاعة العمر ووجع الرأس؟ لماذا كتبوا مثلاً مبحث (الصحيح والأعمّ) بتلك التفاصيل الطويلة والاحتمالات البعيدة. وأخيراً يكتشف الطلاب أنه ليس هناك من فرع يتفرع منها ولا فائدة ترجى من السهر عليها وابتلاع دخان الفوانيس، ولا شيء يترتب عليها إلاّ قولهم: (وتظهر الثمرة في النّذر) بأنّ أحداً لو نذر نذراً يعطي بموجبه درهماً لمصلٍ، وأعطاه ذلك الدرهم، وأدّى ذلك الرجل صلاة باطلة، فهل وفّى بنذره بإعطائه الدرهم أم لا؟

فبالله عليك أصدقني القول في حال الطلاب الذين يقضون شهراً كاملاً في التفكير والسهر واللهاث في البحث، ليكتشفوا بعدها أن لا فائدة من كل ذلك، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ومن هذا القبيل مباحث كثيرة في الكتب، حتى أصبح مشتهراً أن بحث النّذر هو ثمرة ما لا يُثمر. وكذلك دروس الأساتذة في هل أن الحرف موجود وقائم بنفسه، أم موجود بحكم الربط مع غيره. وكذلك بحث الأعراض وما يطرأ على المعاني المستقلة. أية فائدة تُرجى من هذا؟ ومن هذا القبيل البحث الذي يأتي بعد إثبات الظنون الخاصة، وهو في دليل الانسداد، مع مقدمات طويلة بعيدة ملتوية ربما امتدت ستة أشهر أو سنة كاملة، تُدمى فيها قلوب الطلاب ليعرفوا في آخرها أن النتيجة قد انتهت إلى حجية الظن المطلق. إلّا أنه من غير المعلوم هل أن ذلك كان بحكم العقل أم كاشفاً عن الحكم الشرعي؟ علاوة على أنّ البحث هو بحث افتراضي يُبنى عليه افتراض آخر. حيث يحار الطلبة في تلك الافتراضات والتحديدات العجيبة كلّ على مذهبه في تعيين واحد منها بعد أن تبلغ أرواحهم التراقي أو يموتوا بهمومهم أو يصبحوا كهولاً، لأنّ أمواج بحور العلم متلاطمة. وهكذا يكدس الأستاذ الاحتمالات والفروض النادرة على بعضها مما يجعله يغرق هو فيها وتصيبه الحيرة، فكيف بالطالب البائس؟

أما عن حضورنا دروس الأساتذة، فقل لي بربك هل تفهم منها سوى ما ينقله الأستاذ عن الردود والاعتراضات والنقاشات بصوته متعدد النبرات بين الخشونة والرقة من على المنبر؟ هذا إضافة إلى الضجّة التي تحصل تحت المنبر جرّاء حضور ما بين مائة إلى مائة وخمسين طالباً تتداخل أصواتهم مع بعضها مما يعطي

انطباعاً عن يوم الحشر أو حمّام النساء، حتى حدث في أحد الأيام أنّ طالباً من قبائل اللور البختيارية، كان يُجسّد في شكله العام شكل جني وله صوت منكر، وضع يده على إحدى أذنيه، واندفع يترنّم بكل ما أوتي من قوة بأشعار لورستانية بمختلف النغمات. ولم ينتبه أحد وسط ذلك الزحام إلى ما كان يقوله، إلّا أنا الذي كنت بجانبه. وإلّا فإنّ الأستاذ وبقية الحاضرين ربما تصوّروا أنه أحد الفضلاء، وأنه بعمله ذاك كان يناقش أحد الآراء التي ذكرها الأستاذ، أو أنه يعترض على أحد الطلبة الذين كانوا يؤيدون رأي الأستاذ. وفي كل ذلك كان الأستاذ مسروراً من تلك الضجة وتداخل الأصوات وأننا مشغولون بالجهاد في سبيل الله.

لم تكن تلك الضجة بأقل من ضجة ليلة الهرير بصفين، سوى أن الإمام علياً عليه السلام وجيشه كانوا يحاربون مصاديق الجهل، بينما نحن نحارب حقيقة الجهالة، وحسب القاعدة فإنّ ثواب هذا الجهاد ينبغي أن يكون أكبر.

الحيلة بين الأستاذ والتلاميذ:

بل حدث يوماً أن الأستاذ أغلظ في القول لتلاميذه وقال: إنكم لا تتيحون لي الفرصة كي أدرّسكم، فأيّ ضجة هذه؟ فما كان من الطلاب الفضلاء إلّا أن اتفقوا على أن لا ينبسوا ببنت شفة في درس اليوم التالي. ليتركوا للأستاذ فرصة الحديث، وفعلاً فعلوا ذلك. أما أولئك الطلبة الذين ليست لديهم بضاعة من العلم فإنهم لم يرفعوا أصواتهم ويحدثوا الضجة وإلّا افتضحوا بجهلهم. عندها أصبح واضحاً أن الأستاذ لم يقل طوال ساعة الدرس إلّا أربع كلمات، أما بقية الزمن فقد انقضى بنقاشنا نحن.

وفي اليوم التالي جلسوا صُمّاً بُكماً، فافتتح الأستاذ درسه بالبسملة، ثم قرأ سطراً واحداً نقل فيه قول أحد العلماء، ثم بدأ يتلفّت يميناً وشمالاً وهو يتساءل عن صحة الدليل الوارد فيه أو عدمها، فلم يرتفع صوت يجيبه من أي طالب. ومرّت خمس دقائق على قراءة الأستاذ قال في نهايتها: أيها السادة، من منكم استوعب هذا الكلام؟ أجابه أحدهم: لا أحد.

قال الأستاذ: واضح أن السادة الطلاب لم يطالعوا الدرس. ثم نزل عن

المنبر. فقال الفضلاء: أما نحن فقد طالعنا الدرس، إلّا أننا أردنا أن يكون معلوماً أن الأستاذ هو الذي لم يقرأ الدرس. وهكذا لم تكن الدروس في حقيقتها إلّا مسرحاً ومكاناً للتفرج، فلماذا نفرح بالكذب؟

إنّ درس السيد محمد باقر على أهميته، والطلبة يكتبونه دائماً ويُتعبون أنفسهم فيه، والهدف واضح فيه للأستاذ والطالب، وكان مطوّلاً ومفصلاً، وكنا نستمعه ثلاث مرات، ومع ذلك كنا ننساه. كانت الوجوه المتعددة للمسألة الواحدة تُطرح من قبل الأستاذ بكثرة. حيث ينقلها أولاً عن أحدهم. ثم يورد عليها ردوده من جميع النواحي. بعدها يدّعي أنه هو صاحب هذا الرأي، ويأتي بستة أدلة على صحته. ثم يورد عدة اعتراضات على كل دليل منها، ويردّ عليها بنفسه. وربما بلغ الاعتراض أحياناً ثلاثة أسطر، والردّ عليه ستة أسطر. فيحلّل كل نسيج المسألة، ولا يخفى على كل ذي عقل أن كل ذلك هو من اللغو، بينما الطلاب في حيرة وهمّ كيف يفهمون ويرتبون هذه الوجوه المتسلسلة بشكل ببغائي ويكتبونها؟

ولقد بلغني عن الميرزا حبيب الله الرشتي الذي كان أستاذاً لأستاذنا هذا ـ والذي لم أحضر أنا درسه ـ أنّ تدريس دورة كاملة من علم الأصول حسب طريقته ومنهجيته يستغرق ستمائة عام. فقل لي بربك، هل تنفع دروس كهذه أحداً، حيث يحتاج فيها الطالب والأستاذ أن يستدينا علاوة على أعمارهم خمسمائة عام أخرى كي يتمّوا دورة واحدة في علم الأصول[١]؟

بين وضوح النبي ﷺ وتعقيدات العلماء:

لقد أوضح النبي الكريم ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً فقط أصول وفروع وعقائد وأخلاق الدين بكل فروعها ودقائقها، وقد أدركها تلامذه إدراكاً عالياً. بينما ينبغي علينا أن ننفق أعمارنا في الأصول فقط، ولن نصل بعدها إلى شيء. فليكشف الله لنا الغطاء عن هذا السرّ.

(١) ينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن المؤلف ينتقد علم الأصول. فهو ينتقد الطريقة البطيئة في تدريسه التي تستهلك عمر الإنسان. وللمؤلف كتاب في هذا العلم هو (شرح كفاية الأصول) شرح فيه كتاب الآخوند الخراساني. وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة آية الله المرعشي بقم.

إنّ صاحب **الجواهر**[١] شرح (شرائع الإسلام) في ستة مجلدات ضخمة. ومن المضحك ما سمعته من أن أحد العلماء كتب شرحاً للجواهر سيقع في أربعة وعشرين مجلداً ضخماً، وهكذا ضاع الفقه. بينما دخل فيه علم الأصول الذي لا أصل له، والذي ما زال النزاع قائماً حتى الآن في بحث الموضوع الذي يختص به هذا العلم. لأنّ لكل علم حالات وطوارىء تطرأ عليه. ولم يعرف حتى الآن ـ وبعد كل هذه المجلدات التي أُلفت بمرور الزمن في علم الأصول ـ ما هي الحالات التي يبحثها أو لا يبحثها هذا العلم.

قال صاحب **القوانين** إنّ الأدلة أربعة. فردّ صاحب **الفصول** على ذلك بأنه لمّا كانت حجية الأدلة من لوازم الأدلة، فينبغي أخذ موضوع ذوات الأدلة الأربعة بدون لحاظ الحجّية إلى أن يُبحث موضوع الحجّية. وقد ردّ عليه آخر بقوله إنّ الكتاب والسنّة ـ وهي قول الله سبحانه وتعالى والنبي والإمام والبحث فيها ـ هو من مسائل علم الكلام في عصمة أولئك المكرّمين عن الكذب، وليس لذلك أي علاقة بعلم الأصول.

ومما شجر بين العلماء الأعلام في هذا الميدان الواسع مدة طويلة ولا زال غباره متصاعداً قول بعضهم إن علم الأصول لا أساس له، وليس فيه جامع بين موضوعات مسائله. وحتى الآن لم يقل أيّ من المتخاصمين إن لبنه حامض[٢].

ومع العثور على موضوع علم الأصول الذي لا لزوم له ومعرفته ليست واجبة، فليس في ذلك خيرٌ في الدنيا، ولا هو مما يُسأل عنه في القبر أو في يوم الحساب.

فأيّ شجار هذا الذي وقع بيننا بسبب كتاب كنتُ قد أفدتُ منه، وبعته لأجل حفظ النفس وسدّ الرمق، الذي هو من الواجبات؟ ومع ذلك تعاتبني لماذا بعت

---

(١) هو محمد حسن باقر المتوفى عام ١٢٦٦ هـ مرجع الشيعة في عصره، تخرّج عليه كبار المجتهدين، اشتهر بكتابه **جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام** فأصبح لقبه (صاحب الجواهر) وعرفت أسرته من بعده بآل الجواهري. (قاموس المنجد).

(٢) أي: لا أحد يقول إن رأيه هو الخطأ حتى لو كان خطأً. كما أن بائع اللبن لا يقول عن لبنه إنه حامض وإن كان حامضاً.

غذاء الروح واشتريت بدلاً منه غذاء البدن، وأضعت الآخرة واشتريت الدنيا. ثم لا تخجل من ذلك! يا حضرة الرفيق إن حدث ـ لا سمح الله ـ بعد هذا كالذي حدث لنا اليوم، فإنني سأبيع كتبي التي كنت قد قرأتها. بل إنّ ذلك واجب عليك أيضاً. أي أن تبيعها تدريجياً. وإننا قد أحضرناها من مدينة مشهد بهذه النية. إنك لم تكن تريد بيعها للؤم أو بخل، وليس لأنها غذاء الروح المندرج في الأوراق التي تتغذى عليه. أين اليزدي وأين العلم؟

أراد أن يعترض ويجيب، فعاجلته: هذا يكفي، فأنا أخشى أن يُهضم الأكل الذي استقرّ في بطوننا سريعاً، وبالتالي لا يحقق كتابي الذي بعتُه الفائدة المرجوة، وأكون كمن خسر الدنيا والآخرة ـ كما زعمت ـ.

من تلامذة إلى أساتذة:

ومع مرور الوقت أصبح لنا نحن الخرسانيان طلاب ندرّسهم. وكان طلاب تلك المدرسة يتكونون من طالب أصفهاني واثنين أو ثلاثة من شيراز. أما البقية فقد كانوا من البختيارية. وقد رأوا أننا أكثر منهم في العلم. وكنا آنذاك من مقلّدي الملّا محمد كاظم الخرساني. وكان أغلبهم ـ وخاصة البختيارية ـ من مقلّديه.

في ضيافة التلاميذ:

ولما كان طلابنا من أهل نجف[1] آباد فقد استأنسنا بوجود أكثر من خمسة منهم في تلك المدرسة. إذ اصطحبونا معهم إلى نجف آباد عندما حلت عطلة عيد النوروز. وقضينا فترة ضيافة هناك في بيوت رفاقنا. وكنا نذهب في النهار إلى البساتين للنزهة واللعب، وكان سكان المدينة على ما بلغنا أربعين ألفاً، وهي كثيرة البساتين وأغلبها من أشجار الرمان واللوز. وكان ما يقرب من نصف فرسخ على جانبي الطريق مزروعاً بأشجار غير مثمرة ضخمة، قيل إنها زُرعت على عهد الصفويين وقيل إنها موقوفة. كما شاهدنا المنارة المتحركة وهي من عجائب الدهر خارج بساتين أصفهان على الطريق المتجه إلى نجف آباد، شاهدناها في ذهابنا وإيابنا، وقرأنا الفاتحة على روح شيخ كان مدفوناً تحت سقف طاقها. وكانت

---

(١) مدينة قريبة من أصفهان.

هناك حديقة جميلة، فأعددنا الشاي. وقد رأينا منارتين[1] كل واحدة منهما في طرف من الطاق يُرتقى إليهما بسلم. وقد حركنا الاثنين. وهو شيء عجيب لم نر مثله حتى الآن. وقد سمعنا أن فرمان فرحا الذي كان حاكم أصفهان قد نقّب في إحداهما إلى النصف، فلما لم يجد إلّا الآجر والجص فقد أمر بإعادة بنائها مرةً أخرى.

وقد قرأنا هناك منظومة الملّا محمد الكاشي وكان رجلاً محققاً وأستاذاً يجيد فنّ التدريس. وعلى الرغم من كونه مشهوراً بالاجتهاد في الفلسفة والرياضيات، فقد كان متديناً ومن أهل الرياضات. بل كانت لديه وساوس كثيرة في أمر الطهارة والنجاسة. حتى لقد قال مرة: عندما أحتلم وأجد نفسي جنباً، كنت أغتسل في الحمّام العام على دفعتين: أرتمس في الحوض بنية الغسل في سبيل الله. وعندما أنتهي من ذلك أذهب فأصلي الصلاة بذلك الغسل. ثم أعود مرة أخرى إلى الحوض فأرتمس فيه ما يزيد على عشرين مرة أخرى بنية الغسل من الجنابة، أخشى في كل مرة أن لا يكون الغسل قد وقع. إلّا أنني أقول إنه قد تمّ ثم أخرج.

وكان يعظ دائماً قبل أن يبدأ الدرس بربع ساعة، بما يترك تأثيراً عميقاً فينا إلى الدرجة التي كنا نصمم فيها على ترك الدنيا وما فيها، وأن نتجه إلى الآخرة. ولكن ما إن ينتهي الدرس، وننطلق مع رفاقنا فنأكل الكباب أو غيره، تبدأ أوضار الدنيا بتسويد صفحات القلب، فتدعه غافلاً.

مرض الحصبة عاجلني:

وحدث أن أُصبت بالحصبة. فبدأت بتناول الدواء لأكثر من عشرة أيام، إلّا أنني لم أعرق خلال تلك المدة. وصرت في حال يئست فيها من الحياة. قال الطبيب لرفيقي الوفي: سوف يصبح الأمر عسيراً إذا لم يعرق بدن صاحبك هذا اليوم أو هذه الليلة.

---

(١) من الأبنية التاريخية لأصفهان، هاتان المنارتان المقامتان على قبر أحد الصالحين وقد كتب عنهما السياح الأجانب الذين رأوا حركتهما بواسطة خشبة قرب قاعدة إحداهما التي ما أن تُحرّك حتى تتمايل المنارة، ثم تتمايل الأخرى تبعاً لذلك. انظر مثلاً: كتاب الرحالة الفرنسية مدام ديلافوا: إيران، كلده وشوش، ص٢٩٦.

علاج رفيقي القاسي:

أعدّ لي رفيقي حساءً ساخناً وقال: وإن كنت لا تشتهي الطعام، لكن احتسِ هذا الحساء بأكبر كمية منه، فلعلك تعرق. احتسيت عدة ملاعق، ثم نمت وتدثّرت بلحافٍ جاء به. ألقى فوقه لبّادة، ثم وضع لحافاً آخر أيضاً، إضافة إلى جُبتينا[١]. قلت: لقد ضاق نفسي وأكاد أختنق. فجاء بلبادة مزدوجة، وألقاها علي. وبينما كنت أصرخ بشدّة محذراً من أنني سأختنق حالاً. ألقى بنفسه كالضفدعة فوق كل تلك الأثقال التي كانت تغطيني وفتح يديه ورجليه على الأغطية كي يمنعني من التململ أو التحرك. أصبحت أتنفس بصعوبة، تحاملت على نفسي، وحاولت أن أزيح ذلك الطالب الحمار، فلم أتمكن لضعف بدني. ومهما قلت من شتائم لم تُجد نفعاً في إزاحة ذلكِ الأحمق العنيد. فانخرطت في البكاء ورجوته وأقسمت له أنني سأموت فاتركني كي أموت بهدوء. إلّا أنّ ذلك لم يجد نفعاً حتى بُحّ صوتي وتقطّعت أنفاسي، فسلّمت أمري لهذا العزرائيل اليزدي الذي لا حيلة لي معه، وانكفأت آيساً من الحياة عارفاً بالموت إلّا أن العرق بدأ يتصبّب منّي، ويتصبّب بغزارة جعلت ملابسي واللحاف الملاصق لجسدي تغرق فيه. بدأت أهدأ قليلاً وزال ضيق نفَسي، فصرخت: قم عني الآن فقد تصبب العرق منّي وعدتُ من الموت.

قال: سأنهض شرط أن لا تؤاخذني بشيء آخر.

قلت: سمعاً وطاعة.

حان دور علاج رفيقي:

نجوت من المرض أخيراً. إلّا أن رفيقي كان يعاني من مرض جلدي، وسمع أن ماءً معدنياً يوجد على بعد ثلاثة عشر فرسخاً من المدينة مفيد لحالته. قال لي: لو ذهبنا سوية إلى هناك لكان أفضل إذ إنّ سفري وحيداً فيه مخاطر، نظراً لوجود قطّاع طرق بين الجبال.

---

(١) تعتمد هذه الإجراءات على الطب القديم إذ ذكر الطبيب الشهير أبو بكر الرازي في كتابه الجدري والحصبة ص ١٤: (يسرّع إبراز الجدري والحصبة، التدثر والتدلك والكون في المواضع التي ليست بقوية البرد...).

قلت: سأجيء معك بطبيعة الحال. لكن كان من الأفضل لو قلتَ ذلك أول الصباح. إذ لو انطلقنا صباحاً لكنا وصلنا مع المساء إلى هناك. أما والوقت الآن قد أصبح قريباً من الظهر، فيا حبذا لو استطعنا التحرك الآن ـ وكان يوم الخميس ولدينا عطلة عن الدرس ـ على أن نعود يوم السبت صباحاً كي لا يفوتنا الدرس الأول.

عجّلنا في جمع متاعنا وكان عبارة عن إبريق الشاي وقدحين وشيء من السكر والشاي والخبز، ثم تحركنا بعد أن سألنا عن الطريق. وبعد مرور ثلاث ساعات على حلول الظلام قطعنا فرسخين من الطريق، فوصلنا إلى قرية كانت خارجها خرائب ملأى بروث الحيوانات وكانت مسقوفة. فقررنا أن نستريح هناك ساعة أو أكثر، وحين رأينا شخصاً يريد دخول القرية بادرناه بالسؤال عن الطريق المتّجه إلى المياه المعدنية، فأشار بيده إلى جانب أحد الجبال. قلنا إن كان الأمر كذلك فسنبدأ حركتنا منتصف الليل. ثم عدنا إلى ذلك الإسطبل الخرب، فأعددنا الشاي متّخذين من الروث الموجود هناك وقوداً. فشرب كل منا ثلاثة أقداح. ثم ملأنا إبريق الشاي بالماء مرة ثانية ووضعناه على النار، فكنا ندخن الغليون حيناً وننفخ النار لنؤججها حيناً آخر. ثم شربنا الشاي وتناولنا الطعام ودخنّا وبدأنا بعد ذلك سفرنا.

كان الليل حالكاً وكنّا نسير متجهين إلى الجهة التي أشار الرجل إليها. إلّا أننا ـ وبعد أن قطعنا فرسخاً في سيرنا ـ لم نهتد إلى الطريق. اتجهنا إلى اليمين ثم إلى اليسار، فلم نهتد إليه أيضاً، بل أضعنا طريقنا الأول. وكان من الصعب علينا أن نعود ـ بعد كل هذا السير ـ إلى القرية لنستعلم عن الطريق ثم نتحرك في الصباح. إلّا أننا لم نجد في النهاية بدّاً من العودة.

المياه الكبريتية:

ولم نكد نرجع حوالي مائة قدم حتى رأينا رجلاً يقود بغلاً وقد أركب عليه طفلاً صغيراً. سألناه عن الطريق المؤدي إلى عين المياه المعدنية فقال: لا علم لي.

قلت: أنت من أبناء هذه المنطقة فكيف لا تعلم؟

قال: لا أدري.

فقدّرت أن الرجل قد تصوّرنا قطاع طرق في تلك الليلة الحالكة. إذ إن كل واحد منا كان يحمل بيده هراوة، منحدرين من جانب الجبل.

تقدمت إليه وأنا أقول: يا عم! انظر إلى عمامتي الخضراء التي هي دلالة كوني سيداً، وانظر إلى حضرة الشيخ ذي العمامة البيضاء، وانظر إلى هاتين العباءتين. كل ذلك يدل في ظاهره أننا لسنا لصوصاً. ولو كنا كذلك لذهبنا إلى المدينة ولم نجئ إلى هنا. إننا من طلبة العلوم الدينية. جئنا نبحث عن عين للمياه المعدنية هنا طلباً للاستشفاء، ويجب أن نذهب إلى هناك. فدلّنا على المكان.

قال إنها على بعد مائة قدم من جانبكم الأيسر. اتجهنا إلى هناك فوجدناها. ولما كنا قد تأخرنا في العثور عليها فقد أسرعنا بُغية الوصول إليها، وكان الوقت قريباً من أَذان الصبح. سمعنا صوت خرير الماء يأتي من الجبل، كان جارياً، فجلسنا قربه كي نتوضأ. وما أن مددت يدي فيه حتى اكتويت بحرارته، ففزعت في أول الأمر. إلّا أنني سُررت عندما اكتشفت أن الماء كان حاراً ليس إلّا. بشّرت رفيقي بوصولنا، ثم بدأنا بتتبع مجرى الماء صعوداً فوصلنا إلى أعلى الجبل، فوجدنا بناءً مسقوفاً بلا باب يحتوي على عدة غرف مظلمة، وفيه أحواض مبنية من الرخام ملأى بالماء تقع تحت السقف. كان الماء في أحدها حاراً، وفاتراً في الثاني، وبارداً في الحوض الثالث. تفحصناها جميعاً، ثم خرجنا فرأينا في إحدى الزوايا غرفة قد أُقفلت بسلسلة. فقلت: لا بدّ من رؤية ما فيها. فتحناها فوجدنا في وسطها قبراً عالياً. قرأنا سورة الفاتحة، ثم توضأنا وصلّينا الفجر.

خلع رفيقي ملابسه، ونزل في الحوض البارد أولاً، ثم انتقل إلى الفاتر. ونزل أخيراً في الماء الحار. أما أنا فقد ملأت إبريق الشاي بالماء الحار من العين التي كانت في المقبرة، ووضعته على النار، ثم شربت الشاي.

مجاراة الرفيق:

دعاني رفيقي ـ الذي كان يغتسل وسط حوض الماء الحار ـ إلى أن أخلع ملابسي وأنزل إلى الماء قائلاً إن ذلك لن يكون عديم الفائدة. فامتنعت من ذلك

إذ كان ينبغي عليّ النزول أولاً إلى الماء البارد قبل استحمامي بالماء الحار وإلّا عرض لي عارض في بدني ـ على ما يقال ـ ولم أشأ أن أنزل في الماء البارد والوقت لمّا يزل في أول الفجر، وجوّ الجبل بارد.

استجبت أخيراً لإلحاح رفيقي، وخلعت ملابسي، ثم مسحت صدري ورقبتي ورأسي بقليل من الماء البارد. وبكمية أكبر من الماء الفاتر. نزلت بعدها إلى حوض الماء الحار، فاغتسلت على عجل، ثم خرجت لأشرب الشاي مع رفيقي.

انتهينا من الاستحمام، فتحركنا من ذلك المكان، ووصلنا قرية فأكلنا الغداء ونمنا. وبعد الظهر تحركنا فأصبحنا على بعد أربعة فراسخ من أصفهان وذلك بعد حلول الظلام بأربع ساعات.

كان الجوّ بارداً، وكان هناك خان يقع خارج القرية فطرقنا بابه. ولكوننا متعبين فقد جلسنا وبدأنا بطرق الباب، ثم اتكأ كل منا على طرف من طرفي الباب ونمنا. وفجأة انتبهت من نومي على صوت مرعب لقطٍّ وحشي كان يريد الهجوم عليّ وتمزيق وجهي بمخالبه، إلّا أنه ولى هارباً بعد أن رفعت يدي باتجاهه. كان يبدو كمن كُلِّف بإيقاظنا من النوم. تذكرت أننا لم نصلِّ صلاتي المغرب والعشاء. لم نكن نعلم في أي ساعة من الليل كنا.

أيقظت رفيقي وذهبت إلى حافة نبع قريب وبدأت بالوضوء وأنا أدعوه: تعال يا شيخنا فنحن لم نصلِّ بعدُ. وهنا رأينا شخصاً يريد دخول القرية فناديناه: يا عم! ألا يوجد في هذه الخرائب مسجد نلجأ إليه، إذ لا قدرة لنا على تحمل البرد؟

قال: هذا هو المسجد. ثم دخل القرية، فذهبنا إلى ذلك المسجد الذي كان دافئاً نوعاً ما، وصلّينا المغرب والعشاء. ولم ينقضِ وقت طويل حتى صلّينا الصبح بنفس ذلك الوضوء. قلت لرفيقي: أخشى ـ مع كل هذه المشقات والسّهر ـ أن لا ندرك الدرس الصباحي الأول. تحركنا بسرعة فوصلناها في الواحدة والنصف بعد الظهر، حيث فاتنا الدرس.

عارض جديد:

لم يمضِ وقت طويل حتى أُصبتُ ببثور في جسدي حيث ظهرت واحدة منها في وجهي، واثنتان صغيرتان في يدي، وكان ذلك يؤذيني بشدة خاصة عند

الوضوء، فأكون كمن هو في عزاء. اضطررت للذهاب إلى الطبيب فأعطاني أقراصاً أضع منها واحداً كل يوم على القروح. وقبل الغروب بساعتين وعندما كنت أذرّه عليها كنت أشعر كأنني وضعت فيها النار. فأُمسك وجهي بكلتا يدي لاشعورياً، ثم أدور في فناء المدرسة وأظلّ هكذا إلى أن يحين الغروب. وتدريجياً بدأت أتوقف عن إظهار التألم بعد أن ابتليت مدة طويلة بتلك الأقراص.

أخيراً نصحني الطبيب أن أستعين بثماني علقات[1]، أضع أربعاً منهنّ على وجهي وأربعاً على يدي. وحين سألت عن ثمنها وجدت أن المبلغ الذي لدي يكفي لشراء أربع فقط. فقلت: أشتري الأربع وأضعهنّ على وجهي وفي الغد أشتري الباقي.

علاج بالعلق:

وضعت العلقات الأربع على وجهي فامتلأت بالدم، ثم تهاوت على الأرض. استعنت بعد ذلك بقطعة قماش وضعتها على وجهي كي لا يلوث الدم الخارج منه شيئاً من جسمي أو ثيابي. وقبل أن أصل المدرسة كانت قطعة القماش قد غرقت في الدماء، وهكذا كان مصير قطعة قماش أخرى أخرجتها من كيس كان معي. حين وصلت غرفتي ألقيت بنفسي على الأرض على أحد جانبيّ وجعلت رأسي إلى الجهة التي أخلع فيها حذائي كي لا يصل شيء من الدم إلى شيء في الغرفة. كان النزف متواصلاً جعل كل وجهي ولحيتي وشاربي وحاجبي وجبهتي تُغطى بالدماء. وقد أدى ذلك إلى أن يتشابك شعر وجهي ولحيتي وأجفاني مع بعضه، فأصبح كأنه قطعة صخر صلبة. وحاول رفاقي أن يعالجوا الموقف بتذرية الكلس أو خيوط العنكبوت، لكن دون جدوى. أغرقت الدماء رقبتي أيضاً وياقة قميصي بكاملها، وكذلك عتبة باب الغرفة.

وحين أذهب إلى المرحاض كنت أضع نقاباً على وجهي مخافة أن يراني أحد فيصاب بالرعب. وإلى أن حان وقت الغروب كنت قد نزفت كثيراً، واستطعت

---

(١) العَلَقة: دويبة سوداء تمتص الدم اسمها العلمي هو Sangsue. وكانت تستخدم في معالجات الطب القديم.

بعد مشقة عظيمة إيقاف النزف بواسطة الكلس وخيوط بيت العنكبوت، وعندما حان وقت طعام العشاء أخذت صحن الطعام وانتحيت جانباً كالطفل اليتيم المتّسخ، وأكلته. وقد صليت الصبح على أي حال بتلك الدماء، ثم ذهبت إلى الحمّام وبقيت فيه ساعتين حتى نظّفت تماماً مواضع الجرح. وقد تماثلت للشفاء تدريجياً بعد شهرين أو ثلاثة من ذلك المرض الذي استمر تسعة أشهر، كنت خلالها في عذاب. فدعوت الله قائلاً: اللهم احفظني من البلاء الثالث، إذ (لا تثنّي إلّا وقد تثلّث).

تغيير السكن:

وعند انقضاء العام الثالث من إقامتي في أصفهان قمنا بالانتقال ـ داخل المدرسة ـ من غرفتينا المتباعدتين فيها إلى غرفتين متجاورتين نظيفتين في الضلع الشرقي من المدرسة. وبتأثير من مواعظ أستاذنا الكامل الكاشي الذي درسنا لديه **منظومة السبزواري** وما تقتضيه المعارف التي وعيناها منه بدأنا نميل تدريجياً إلى إحياء الليل بالدعاء والصلوات، والعزلة عن الناس قدر الإمكان.

ولغرض ممارسة الرياضات كنا نذهب إلى المكان الذي كان الشيخ البهائي يتريّض فيه الواقع في تخت فولاذ[1]، وسط المقبرة في سرداب حجمه بحجم القبر، مسقوف بالرخام الخشن، في حفرة ذات درجتين، إلّا أنها كانت باتجاه القبلة، وبما يسمح بالسجود والركوع. وارتأيت أن آخذ معي قليلاً من الأرز المطبوخ، ثم أذهب إلى نهر زانيده للتطهر الحقيقي، وأجفّف بدني، وأفطر بذلك الأرز القليل المطبوخ.

السير والسلوك في المقبرة:

أظهرت لرفاقي أنني ذاهب إلى طهران ثم جئت إلى ذلك السرداب حيث كنت أقضي نهاري فيه، وفي الليالي أخرج إلى فضاء المقبرة بجوار الموتى محاولاً التخلي عن رذائل النفس والتحلي بالفضائل، وسائحاً في مقامات ومنازل

---

(١) يوجد قبر يدعى تخت فولاذ في المقبرة القديمة لمدينة أصفهان.

العارفين، وبقيت على ذلك التصوّر مدة. ثم تصوّرت في أحيان أخرى أن ذلك العمل كان رهبانية صرفة، وقد ورد أنه: «لا رهبانية في الإسلام». وتصوّرت أيضاً أن جملة «في الإسلام» لها ظهور في النوع، أما بالنسبة للأشخاص فلا عيب فيها. إلّا أن تلك الأفكار قد بدأت تتغيّر تدريجياً، فأخذت بدلاً من ذلك بإقامة مجلس عزاء حسيني أنا ورفاقي. ونأتي بكمية من الثلج نضعها في المدرسة داخل الحِباب ليشرب الناس منها، ونقرر أن نظل مستيقظين حتى الصباح منشغلين بالدعاء وتلاوة القرآن الكريم والأوراد، كما كنا نقرأ زيارة عاشوراء بين الطلوعين إلى أن غادرت تصورات تخته فولاذ رأسي إلى الأبد. وأنهيت تلك الفترة التي كنت فيها واقعاً في اختبار عظيم وامتحان روحاني شغلني كثيراً.

وعلى الرغم من أن تلك الفترة دامت سنة كاملة، إلّا أنني قد عُدمت الاستقرار والنوم والأكل في ستة أشهر منها. والغريب أنني كنت أبكي وأنوح رجاء الخلاص من تلك الحالة، إلّا أنني كنت أرجو أن لا يستجاب دعائي. ولكثرة انهماكي في الدرس والبحث لم يكن وضعي طبيعياً. فقد كانت تنتابني رعشة أحياناً. وأخرى أجهش بالبكاء. وأحياناً أحسّ كأنّ الأشجار والباب والجوار وسائر الموجودات المحيطة بي كانت تراقبني وترصدني. فيستولي الرعب علي. وقد تحملت رغم أنفي تلك الرياضة. ولمناسبة كون غرفتي وغرفة رفيقي متجاورتين فقد ثقبنا الجدار المشترك بينهما، ومددنا في ذلك الثقب حبلاً كان كل واحد منا يضع طرفاً منه عند رأسه لدى النوم. وكل من استيقظ منا قبل صاحبه حرّك الحبل فيوقظ الآخر من غير أن ينادي أحدنا الآخر لما في ذلك من محاذير إيقاظ الطلاب الآخرين أو إشغالهم عن المطالعة أو الكتابة ممّا لا يرضيهم. انهمكنا كذلك في المطالعة، فدرسنا طبقاً لذلك شيئاً من كتاب المكاسب عند شيخ من أهل خراسان كان قد عاد من النجف الأشرف وسكن أصفهان. وكان ذكياً. حاولنا ـ من خلال إجباره على أن يكون إماماً للجماعة لعدة أيام ـ أن نجعله يصل الرئاسة أو مقاماً ما. إلّا أن ذلك لم يتأتّ له.

وخطر يوماً ببالي أن آخذ رسالة توصية من السيد النجفي إلى بعض وجهاء قوچان يطلب فيها من شجاع الدولة [حاكم قوچان] تخفيض الضرائب المترتبة

على أبي، وأن يزيد في الأجور التي تعطى له. وقد تشاورت مع أصحابي في هذا الأمر عدة مرات، فوافقوني على ذلك.

التخفيف عن الوالد:

وفي أحد الأيام جاء السيد النجفي إلى مدرستنا لزيارة بعض السادة فيها، فعرضت عليه هذا الاقتراح فقال: إنني لا أعرف ذلك الشيخ القوچاني.

فقلت: ينبغي أن يكون معروفاً لديك. فقد أمضى سنوات طويلة يدرس في النجف الأشرف في نفس الوقت الذي كنت فيه تدرس هناك.

فقال: أكتب له أنت عن لساني ورقة وسأوقعها.

فكتبت للسيد القوچاني بعد السلام والدعاء والثناء: منذ فترة وفلان بن فلان القوچاني منهمك في الدرس هنا. وهو في وضع صعب. بلّغ سلامنا إلى الحاكم شجاع الدولة واطلب إليه في نفس الوقت أن يخفّض من الضرائب الحكومية المترتبة على والده بمقدار مائة منّ سنوياً، ليوفّر من ذلك ما يعين به ولده على الدراسة، والدعاء لكم.

قدمتُ الورقة إلى السيد النجفي فوقّعها. وقد خفضت الضرائب إثر ذلك لعدة سنوات عن والدي. ثم إنه قطع بعدها القرانات القليلة التي كان يبعث بها إليّ. وكما يقول المثل: فإن الدجاجة إذا سمنت ضاق مخرجها. وقال سبحانه وتعالى: «لأقطعن أمل كل مؤمّلٍ غيري»[١].

قلت لنفسي: لا يهم أن يقطع والدي تلك المعونة. فإن كان مرتاحاً فهذا أيضاً نوع من صلة الرحم. وسأكون مسروراً بسعادته. ولا بدّ أن يكون تصرّفه ذاك بنيّة منفعتي. فقد كان في وضع جيد. وخشيت أن يغلب عليه الطمع فيطلب منّي أن أرسل إليه مرتّباً. بينما الإنسان يستطيع أن يقوم في حالة الوساطة بأعمال يستنكف عن الإتيان بها لو كان الأمر متعلقاً به.

---

(١) حديث قدسي.

العطلة السنوية:

وعند اقتراب عيد النوروز طلب منّي أصحابي من أبناء مدينة نجف آباد ـ وكالعادة ـ بإصرار أن أذهب معهم لعدة أيام إلى هناك للتنزه. فوافقتهم، وكنت راغباً في ذلك. وكان معنا شيخ من أهل لوي الواقعة على بعد تسعة فراسخ من أصفهان، أصرّ على أن أقضي أنا لوحدي ليلة العيد في منزله بلوي. قلت له: إنّ أصحابي جميعاً سيذهبون إلى نجف آباد فكيف يتسنّى لي أن أنفصل عنهم؟ إضافة إلى أن الطريق إليكم بعيد.

فقال: إن ذلك غير ممكن. ستقضي لدينا ثلاثة أيام، تذهب بعدها إلى نجف آباد حيث رفاقك، وبُعد الطريق لا يشكّل عقبة أمامك، أنت الذي اعتدت على كثرة السفر.

أخيراً ذهبت أنا معه، بينما ذهب رفيقي مع البقية إلى نجف آباد وبعد أن قطعنا أكثر من ستة فراسخ وصلنا إلى قرية لم يبق بينها وبين لوي سوى ثلاثة فراسخ. قال لي الشيخ: عندما تعود من زيارتك لنا، وتصل هذه القرية، فإنّ طريق نجف آباد يقع إلى الغرب من هذه القرية، حيث ستلتحق برفاقك. فعيّنت مكان تلك القرية، وذهبنا فوصلنا مع المساء إلى منزل رفيقي، حيث استقبلني أبوه وأُمه استقبالاً حسناً، وبالغا في احترامي، وكانا سعيدين ومبتهجين بأن يكون أول داخل إلى بيتهما في العام الجديد سيداً متديّناً، سيجعل شآبيب البركات تمطر على ذلك البيت. على الرغم من أنه لم يكن لي منزلة أو قرب من الله سبحانه. إلّا أنهم بحكم نواياهم يبلغون مناهم: «تفاءلوا بالخير تجدوه» و«أنا عند حسن ظن عبدي المؤمن، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ»[1].

إلى نجف آباد:

وفي اليوم الثالث، حيث كان مقرراً أن أغادرهم فيه، أصرّوا على أن أظلّ حتى الظهر لتناول طعام الغداء. وبعد الظهر غادرت لوي لوحدي حيث وصلت مع الغروب إلى القرية التي يتجه الطريق منها إلى نجف آباد.

---

(١) حديث قدسي.

كان الجوّ بارداً، فدخلت القرية، واجتزت مسجدها على أمل أن أجد منزلاً أبيت فيه، فأتدثر بلحاف بدلاً من النوم في المسجد والتدثر بعباءتي فيصيبني البرد. وصلت إلى أحد الأزقة، فرأيت شخصاً لا بأس بهندامه، فعلّقت أملي عليه. وبعد تردد وخجل طويلين قلت له: إن الليلة باردة، وأود لو أحصل على مكان في بيت يقيني البرد، ولن أكلّفك شيئاً آخر.

قال لي: اذهب إلى بيت خالك.

فاستشطت غضباً ـ وكانت بيدي عصا ـ إلّا أنني سألته: ماذا قلت؟

قال: إنني لا أمتلك بيتاً ملائماً.

قلت لنفسي: يكفيني هذا، حيث لم أتعظ وأنصت إلى قول الحق تعالى: «ولأقطعن أمل كل مؤمل غيري». فلو كنت منذ البداية ذهبت إلى المسجد فلم يكن مستبعداً أن يأتي هذا الوضيع أو شخص آخر فيأخذني إلى منزله. وأنا الآن أخشى أن لا يقبلني الله في بيته لأني عنيد.

أنا والميت سوياً:

وشئت أم أبيت، فقد اتجهت إلى المسجد الذي كان فيه طاق، في وسطه باب يفضي إلى رواق مسقوف. حين فتحت الباب رأيت سلّماً ذا درجتين في ذلك الرواق. فوقفتُ فيه أصلّي المغرب، ورأيت أنّ الرواق كان دافئاً ويصلح للنوم بدون لحاف ودون أن أُصاب فيه بالبرد. وأثناء الصلاة أحسست بدخول بعض الأشخاص، وكان واضحاً من لهاثهم أنهم يحملون شيئاً ثقيلاً. انحنيت للركوع وعندما رفعت رأسي رأيت أمامي تابوتاً وضعوه على الأرض. قال أحدهم: من يبقى منكم قرب الجنازة هذه الليلة؟ أجابه آخر: لا داعي لبقاء أحد، إذ يكفي وجود هذا السيد هنا هذه الليلة. ثم انصرفوا. وبعد أن أتممت صلاتي وأصبح الليل حالكاً فكرت فيما أفعله مع هذه الجنازة. استولى الفزع علي، ثم ضحكت أيضاً. إذ إن تقديري كان في محله عندما توقعت أن لا يعطيني الله طريقاً إلى بيته.

حرب مع الكلاب:

نهضت من مكاني، وأغلقت باب الرواق، ثم جلست تحت الطاق على حصير

بالٍ أُدخن الغليون، ثم استلقيت عليه ولم أنم. ودخنت غليوناً آخر. وبعد مضي أربع ساعات من الليل رأيت ما بين العشرة والخمسة عشر كلباً دخلوا باحة المسجد من باب كان مفتوحاً على الزقاق. كان كل كلب منها كالأسد، قامت بينهم حرب طاحنة تناوبوا فيها الكرّ والفرّ في باحة المسجد. ودون أن أنتبه إلى كوني غريباً في تلك المنطقة كوّرت عباءتي على يدي متدرّعاً بها. بينما حملت في الأخرى عصاي، ثم هجمت على تلك الكلاب هجوماً عنيفاً أخرجتها فيه من المسجد، ثم أقفلت الباب المؤدي إلى الباحة مخافة أن تعود مرة أخرى، ثم جلست أدخن الغليون. وعلى سبيل الاحتياط لم أنم حتى الصباح بسبب البرد أو الخوف من الكلاب التي توقعت أن تعود مرة ثانية. إذ إن حائط المسجد لم يكن مرتفعاً.

كانت الليلة الأولى لتلك الجنازة في القبر بعهدتي أنا. وعند أذان الفجر أديت الصلاة، ثم غادرت تلك القرية أخربها الله، فوصلت إلى نجف آباد قرب الظهر، حيث كانوا يتهيأون لتناول طعام الغداء، فسُررت بهم واسترحت.

العودة إلى أصفهان ووفاة الوالدة:

بعد مجيئي إلى أصفهان رأيت في المنام الموت متجسداً في هيئة حيوان فمه مفتوح مثل فم البعير، وكذلك أسنانه، وليس له رقبة كالخنزير، وجلده رمادي اللون، وبطنه ضخمة كالثور الذي أكثر من أكل العلف، بينما كان طول كل قائمة من قوائمه الأربع شبراً واحداً، إلّا أن أظافرها طويلة، كان يحلّق في الهواء دون أن يكون له ريش، وحجمه حجم عجل ذي عام واحد، يتبعه ثلاثة أو أربعة من أولاده وهم أصغر منه حجماً. وأثناء طيرانهم عبروا من فوق منزلنا الواقع في قوچان، إلّا واحداً من أولاده، فقد جلس على حائط بيتنا.

كتبت إلى والدي أستعلم منه عن أحوالهم، وأنني قلق عليهم، وقبل أن تصل رسالتي إلى أبي، وصلتني منه رسالة يقول فيها: إن أمي قد توفيت. كما كتب في الرسالة أنه كان قد استدان قبل عشر سنوات اثني عشر توماناً لأجل زيارة العتبات المقدسة. ولم يسدّدها حتى الآن. وقد ارتفع المبلغ إلى ثمانين توماناً بعد تراكم الأرباح عليه. وأنّ كل ملكيته الآن لا تصل إلى ثمانين توماناً.

طلب الحاجة وتحققها:

نويت أن أقوم بزيارة الإمام الحسين عليه السلام لأربعين يوماً، وذلك بأن أقرأ زيارة عاشوراء من سطح مسجد شاه سائلاً الله أن يقضي لي ثلاث حاجات هي: قضاء دين أبي، وطلب المغفرة، وزيادة العلم والوصول إلى درجة الاجتهاد.

كنت أبدأ بالزيارة في الضحى، فأنتهي بعد ساعتين، وهكذا إلى أربعين يوماً. ولم ينقضِ شهر على ذلك حتى وصلتني رسالة من والدي، قال فيها إنّ الإمام موسى الكاظم قد أدى عنّي الدين.

فكتبت إليه: بل سيد الشهداء هو الذي أدّاه، وكلهم نور واحد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1].

ونظراً للأثر السريع الذي أحدثته زيارة عاشوراء حيث عجزت الأسباب الظاهرية. فقد قوي قلبي على السؤال إلى الله عن أهم مطلب لديّ. فأخذت بزيارة عاشوراء لأربعين يوماً آخر، كنت خلالها أقف على قدمي مدة ساعتين متجهاً إلى القبلة في مواجهة الشمس:

أجهد نفسك فالأمر عظيم والنقع المثار من أرجل القطيع هو كحل لعيني الذئب

الاستجابة الثانية:

وعند انقضاء الأربعين يوماً، رأيت في منامي أن مطلبي سيتحقق، لكن بعد مدة. ثم رأيت في يوم آخر أنني قد ذهبت لَى النجف، وأنني في مقبرة المرحوم الميرزا الشيرازي حيث كانت فيها عدة غرف يجلس فيها الطلاب. كان يجلس في واحدة منها أحد سادة قوچان الذي سبقنا في الذهاب إلى النجف، حيث كان مقيماً في إحدى غرف المقبرة. ثم ذهبت بعد ذلك إلى مقبرة الشيخ الطوسي[2]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٢) الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) مؤسس جامعة النجف ولد بطوس وتوفي ودفن بالنجف. درس في بغداد وأقام فيها وأصبح فقيه الشيعة في عصره أُحرقت كتبه لما دخل طغرل بك السلجوقي إلى بغداد. ارتحل إلى النجف فكان ذلك بداية تأسيس الدراسة في النجف. لُقّب بشيخ الطائفة. من مؤلفاته: الاستبصار والتهذيب وهما من كتب الحديث الأربعة الكبرى عند الشيعة. (المنجد).

فرأيت الآخوند جالساً على المنبر وهو يلقي درساً، إلّا أن الطلاب لم يزيدوا عن خمسة أو ستة. وبعد أن تجوّلت حول المسجد وتفحّصته، عدت إلى المجلس وجلست تحت منبر الآخوند فقال لي ذلك الشيخ القوچاني: لقد انتهى التقرير، ونحن نريد النهوض، فلماذا تجلس؟

فلم أعره اهتماماً، وجلست وأنا أقول له: إن التقرير الأول قد انتهى، أما الثاني فلا.

فقال لي: ليس للآخوند تقرير ثانٍ.

رأيت نفسي بعد ذلك، وأنا أنحدر في عربة صغيرة متجهة إلى مسجد الهندي. ورأيتني وأنا في ذلك الانحدار ـ أنحدر من رأس الجبل القريب من قريتنا في قوچان وأصل إلى منزلنا. ولأنني لم أرَ النجف فلم أُعر الحلم ذاك أهمية إلّا قول ذلك الشيخ القوچاني: إن الآخوند ليس له تقرير ثانٍ. وقد استعلمت عن ذلك من النجفيين، فقالوا: نعم إنّ الأمر كما قيل، فلا يوجد للآخوند وغيره إلّا تقرير واحد فقط للدرس. عندها آيست من فهم درس الآخوند الذي سمعت من جميع المجتهدين الدارسين في النجف أنهم قد درسوا عنده. وعجبت لدرسٍ بهذه الصعوبة أن يُقرَّر مرة واحدة، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

تحقق الحلم وزرت النجف:

وحين سافرت فيما بعد إلى النجف وجدت كل ما رأيته في المنام مطابقاً للواقع. بينما لم أكن فكّرت آنذاك في الذهاب إلى النجف بسبب قلّة ذات اليد وعدم معرفتي للغة العربية وصعوبة الدروس، وبُعدي عن الوطن؛ إذ إنّ التنقل سهل في كل مناطق إيران التي تتكلم بلغة واحدة، حيث يشعر الإنسان كأنه في بيته وبسبب وحدة المجتمع ووحدة الدولة يشعر الإنسان بالأنس بينه وبين أفراد المجتمع، وإن لم يعره أولئك الأفراد اهتمامهم.

انتابني شعور بالفرح الغامر صباح ذلك اليوم الذي رأيت فيه رؤياي تلك والتي جاءت بعد زيارة عاشوراء حيث تحققت من حصولي على مرامي. فقلت هذا الشعر:

تقول لي: استسلم وارضَ   بنوازل الليل والنهار، فالزمن دوّار

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

كيفية طلب الحاجة:

إنّ الشيء المهم أن يكون الإنسان إنساناً حقاً، ويدرك صفاء الباطن، وبحسب ما فهمته وما حصل لي بالتجربة أنّ هناك ابتلاءين: الأول بدني وحيواني، والآخر باطني نفسي.

وبعبارة أخرى: ينبغي مفارقة المشتهيات النفسية والصبر عليها والجدّ في إخفائها؛ أي أن يكون في الناس ولا يكون منهم، أن لا يظهر مشتهيات نفسه، ولا يطلب شيئاً من الناس، ولا يطلب إلّا في سرّه من الله وحده؛ بل أن لا يطلب منه أيضاً؛ وإنّما يسلّم الأمر إليه، ويكون كرةً لضربات صولجانه، ويعلم أنه ربه ورب العالمين، ويسلب عنه إرادته واختياره وينتظر الواردات[1]. وأن لا يمدّ عينيه إلى الماديات، ويأنس عند انتصاف الليالي بالخلوات، وأن يضع قواه الباطنية لسيطرته، ويتصرف فيها بحيطة، كي يكون التكوين والاختيار شيئاً واحداً، فإذا أشرف إلى سرّ القدر؛ استراح ولم يطلب شيئاً.

السيرة المطلوبة للطالب:

ينبغي لطالب العلم أن يضع الله نصب عينيه دائماً، ويطلب منه التوفيق في زيادة العلم، وأن لا يتناول الأغذية الثقيلة وإن أكل فلا ينبغي له أن يأكل كثيراً وكأنه يظل جائعاً، وأن يرى في الجوع نعمة وتوفيقاً إلهياً مقدَّراً لأنّ فم البدن هذا إذا أغلق، فسينفتح فم الروح، ويشكر الله الذي أعطاه مثل هذا التوفيق. كنا حين يصبح الجوع نصيبنا نرى فيه شيئاً نحرص عليه ونخفيه عن أصدقائنا، ولا نستدين منهم إلّا حين تصل السكين إلى العظم، أي نفقد قوانا البدنية حيث يقوى الظّن بحصول الضرر وقرب الموت. عندها ـ وبحسب التكليف الإلهي ـ يمكننا أن نستدين. وبحيث لو اعتذر ولم يعطنا أحد شيئاً، نكون سعداء بارتفاع التكليف وبقاء الجوع.

يجب على الطالب الديني أن يكون مجدّاً في فهم المواد، وأن يكون ذا غيرة وينافس من هو أعلى منه في ذلك. وكثيراً ما حدث أن أظلّ أطالع سطراً واحداً لأربع ساعات من الليل، فإن لم أفهمه أخذني البكاء. وأنام وعيناي مبلّلتان

---

(١) الواردات بحسب الاصطلاح الصوفي: ما يرد إلى القلب من الفيوضات الربانية.

بالدموع. وحين أستفيق سحراً أبادر بتلهُّف للنظر إلى ذلك السطر، فأكتشف أنني فهمته من تلك النظرة، وأتساءل في أي وادٍ كنت طيلة أربع ساعات من الليل. وبقليل من التفكير أعرف أنّ أمثال تلك الوقائع هي امتحانات للطلبة عشّاق فهم المعارف، الذين ينبغي لهم التحلي بالصبر عند مفارقة المعشوق الذي قرب وقت وصاله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وإنّ التفكير والفهم هما سير معنوي، وينبغي له أن يكون مجدّاً في السير[2] كما في السفر الجسماني. فإن لم يكن جاداً فما أكثر ما يرد الهلاك. كما حدث لنا عند اجتيازنا المنطقة الرملية في الطريق إلى يزد. فلو لم نحرّم النوم لأسبوع واحد على أنفسنا، ونصل الليل بالنهار في المشي، كنّا قد هلكنا في ذلك القفر المجدب، وما أكثر العقبات والقفار القاحلة في السفر الروحي للطالب وفي الهجرة إلى الله.

ويجب على الطالب أن يعقد العزم، ويتحلّى بالصبر، وأن لا يخدعه الشيطان أو الجاه أو حلاوة ونعومة الدنيا، لأنّ في ذلك الهلاك الأبدي. ومن البديهي أن من يدرس لأجل الدنيا لا يوطن نفسه على تحمّل المشاق، وبذلك لن يفهم شيئاً. وسيكتفي بالقليل من الألفاظ والجمل الجاهزة. ألا ترون أولئك المتظاهرين بالقداسة والورع أنهم لا يملكون شيئاً من العلم؟ وكذلك الذين يتلهّفون للرئاسة ويحاولون الوصول إليها بشتى الوسائل. بينما العالِم الحقيقي لا يأسف عليها لأنه غير متعلّق بعالَم المادة، ولأن صفات الكمال الواقعي قد اجتمعت فيه. وهو مستمتع مع نفسه وكمالاته، ويحاول زيادة تلك المتعة. ويرى أن الدنيا تتناقض مع تلك المتعة وهي مرّة ـ الدنيا ـ بالنسبة له. وأي عاقل يفضل المرارة على الحلاوة والمعاناة على السعادة؟ ولسان حاله في الدنيا يقول: إنما جئت كي أجمع كمالاتي وأرحل. خاصة وأنه يعلم أن الله تعالى قال: «جعلت الرزق موكولاً بالسعي والاجتهاد وقد ضمنتُ رزق الطلاب «فينبغي له أن يقنع بما يعطيه الله له. وما يقع عليه من العسر واليسر، فإنما هو بحكم المصالح ولأجل التربية فقط. والحمد لله ربّ العالمين لا سواه.

لقد عشقت غضبه ولطفه   فما أعجب أن أعشق كلا الضدّين

---

(1) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(2) السير عند الصوفية: الاتجاه إلى الله بقصد الوصول إلى الحق والحقيقة.

بل لا عجب فيه، إذ قهره لطف ورحمة. ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[١]. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٢]، ورحمته وسعت كل شيء. وما أكثر قصيري النظر، وضيعي النسب، الذين يطلبون العلم لأجل العلم فقط كغالب أبناء زماننا. ولقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يتحسّر على طالب علم واحد يجده، فلم يكن موجوداً حين قال: «إنّ ههنا لعلماً جماً لو أصبتُ حملة».

أرسطو وأفلاطون:

روي أنه جيء بأرسطو إلى أفلاطون ليقبله تلميذاً ويعلّمه الفلسفة، فرفض قبوله لأنه وضيع الأصل، إلّا أنّ إلحاح من جاؤوا به وتلاميذه جعله يقبله لديه كي يعوّض عن وضاعة الأصل بالكمال. وحتى ذلك الوقت لم يكن الفلاسفة قد دوّنوا مصنفاتهم إلّا بشكل مختصرات ورموز ورؤوس أقلام، وكانوا يحفظونها في صدورهم ويتناقلونها. وكان كتابهم المشروح هو أنفسهم وأرواحهم.

قال أرسطو يوماً وهو في درس أفلاطون: هلموا لنكتب أسس الفلسفة والموضوعات المبرهنة في كتب مشروحة كي يستفيد من ذلك الناس جميعاً، إذ ربما حدث وباء عام، أو حدث أمر ما أدى إلى موت كل الأساتذة والطلاب، فتضيع هذه العلوم بسبب ذلك. وهنا التفت أفلاطون إلى تلاميذه وقال: لقد رفضت منذ اليوم الأول الذي جيء بأرسطو إليّ أن أقبله تلميذاً، والسبب هو هذا: إنه يريد أن يضع هذه الجواهر ـ التي ظلّت مصونة سنين طويلة عن غير أهلها ـ في أوراق تقع بأيدي كل من هبّ ودبّ ليتخذ منها وسيلة للعيش والإغارة على الآخرين.

ومضمون كلام الإمام علي عليه السلام الذي قال فيه: «اللهم بلى، أصيب لقناً يجعل الدين آلة الدنيا» هو نفس هذا الذي قاله أفلاطون.

منزلة العلم:

إذاً فمقام العلم مقام شامخ، ولا ينبغي أن يعلّم لعشاق الدنيا وذوي الأخلاق الذميمة. ووضع السلاح في يد الظالم إعانة له على ظلمه، بل هو أسوأ من بيع الأسلحة للكافر الحربي. وإعطاء إجازة الاجتهاد لهؤلاء الأشخاص ـ حتى لو كانوا

---

(١) سورة الحديد، الآية ١٣. (٢) سورة الأنعام، الآية ١٢.

مجتهدين فعلاً ـ حرام. على الرغم من أنّ بعضهم لم يصل الاجتهاد فعلاً، بل لم يكمل تعلم اللغة العربية، ولا يستطيع قراءة سطر منها دون أن يلحن في إعرابه، وقد رأينا الكثير من هؤلاء الطلاب. ومثل هذا التصرف إهانة لمقام العلم في أنظار العامة، وهو مجلبة لنوع من النقمة الكبيرة على أهل العلم، بل مؤدٍّ إلى ذهاب العلم من بين الناس، فلا يبقى بعد هذا منه إلّا اسمه. لأنّ العلم الحقيقي فيه غيرة، فلا ينبغي أن ترتكب باسمه الانحرافات والضلالات. وشكر العلم يكون بالعمل به. وإهماله هو الكفران، والكفر بالنعمة يُخرجك منها. وبطبيعة الحال فإنّ رأي أفلاطون في هذه المسألة هو أقرب إلى الصواب. فأئمتنا كانوا قد أخفوا علومهم إلّا في الحالات النادرة ـ وهي معدودة ـ لأنّ نشر العلم بين من هم ليسوا أهلاً له، فيه مفاسد كثيرة. كما أن دليل أرسطو في ضرورة تدوين العلم مرفوض، إذ إنّ الوباء العام لن يقضي على كل العلماء ـ إلّا بأمر الله سبحانه ـ وسنّة الله لا تتغير، وقد قال في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾(١).

وعلى فرض أن الله تعالى أراد أن يزيل العلم في زمن من الأزمنة، فإنّ الآفات التي يمكن أن تُصيب تلك الكتب المدونة كثيرة، من التّلف بالماء أو الاحتراق بالنار، أو أن تأكلها الأرضة وغير ذلك.

وعلى العموم ينبغي لطالب العلم أن ينشغل أولاً بتطهير باطنه بصورة جدّية ويعود كما لو كان طفلاً لم يتنجّس بعدُ أو يتلوث باطنه وأن ينتبه كي لا يتلوث. وفي البداية ينبغي له أن يقلِّد في أعماله وأخلاقه، ثم ينشغل بعد ذلك في تحصيل العلم لكونه مطلوباً ومرغوباً ومندوباً إليه لأمرٍ آخر.

وعلى فرض أن الأساتذة قد أحسنوا تربية وتوجيه طلابهم، فإنه لا ينبغي للممتازين منهم أن يتخذوا من ذلك وسائل لطلب الرئاسة واصطياد عوام الناس.

زيارة مراقد أهل البيت عليهم السلام:

وفي أحد الأيام قررت زيارة العتبات المقدسة [في العراق] ليس لغرض الدرس والإقامة؛ بل للتنزه والزيارة، وعلى أمل أن أجد فرجاً لي من الأزمة النفسية التي أرهقتني كثيراً.

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

بعثُ كل ما لدي من الكتب إلّا اثنين أو ثلاثة رأيتها نافعة لوالدي، فأودعتها مع الأثاث المتواضع الذي كان لديّ، عند رفيقي. وقد كان مجموع ما حصلت عليه من بيع تلك الكتب تسعة تومانات فقط.

حين تحركت جاء معي رفيقي وسائر الأصدقاء لتوديعي، حيث وصلوا معي إلى نجف آباد وهناك قضينا ليلة واحدة. وكان من بينهم طالب قرأ عليّ **كتاب المطوّل** وهو من أهل شيراز اسمه الميرزا حسن فباع كتابه ذاك بثلاثة تومانات كي يسافر معي. وقد نصحته كثيراً أن لا يسافر معي وهو لا يملك إلاّ ذلك المبلغ الضئيل، ففي ذلك مخاطر كثيرة، إلاّ أنه لم يُصغ لنصيحتي وتحرك معي.

كان متاع السفر سماوراً من الصفيح مع إبريق شاي وقدحين وبطانية واحدة أستخدمها للجلوس على الأرض مع كاسة.

ذرفت ورفيقي اليزدي الدموع غزيرة لحظات تحركنا من نجف آباد كما بكى الآخرون. ثم وقفوا بعدها بينما بدأت بالتحرك أنا ورفيق سفري الميرزا حسن بسرعة، وعيوننا مغرورقة بالدموع حتى ابتعدنا عنهم ونحن نردد:

يقولون إنّ الموت صعبٌ على الفتى   مفارقة الأحباب والله أصعب[1]

مشينا فبلغنا تيرون وهناك قضينا الليل، وتحركنا عند الصباح، حيث حملت أنا المتاع حتى وصلنا إلى أحد الخانات، فوجدنا قافلة من الزوار هناك فرأينا أن الوضع سيكون أفضل معهم من حيث معرفتهم الطرق والخانات.

جلسنا في إحدى الزوايا، وكان الجوّ لطيفاً، أي أنه كان في حدود برج الميزان وفي أول شهر جمادى الآخرة. ولما كنت قد عاينت المشقّات في اجتياز الطريق الطويل البعيد إلى يزد والسير على القدمين، فقد رأيت في سفري هذا إلى العتبات المقدسة والذي لم تكن لتزيد المسافات بين خاناته ونُزله على خمسة فراسخ نوعاً من التفسح والنزهة، ولذا فقد أعددنا الشاي في تلك الزاوية وجلسنا نشربه براحة والتذاذ.

بعد أن شرب رفيقي الشيرازي شايه أحسَّ بالارتياح وزوال التعب وقال: أرى بين هؤلاء الزوار سيداً شيرازي الأصل وهو خطيب حسيني، وأنا أعرفه،

---

(١) شعر قاله الإمام علي عليه السلام بعد استشهاد عمار بن ياسر في معركة صفين. (ش).

وسأذهب لرؤيته. قلت له: إذهب، وليجعل الله عواقب أمورنا خيراً. فذهب إليه ثم عاد قائلاً: إن السيد يودُّ رؤيتك، فذهبت إليه.

وبعد قليل من المجاملة المتعارفة قال: لقد استأجرت من هؤلاء الزوار الأصفهانيين بغلاً وضعت عليه متاعي من فراش وأدوات طبخ، وهو يكفي لأكثر من نفر، ولذا أرجو منكما ـ ولأنكما مشاة ـ أن تأتيا بمتاعكما البسيط كي نكون نحن الثلاثة رفاق سفر نأنس ببعضنا وننفق سوية في الخانات التي تمرُّ بها.

قلت: إن السعادة في السفر لا تنحصر باستكمال متاعه، بل باتفاق أخلاق رفاق السفر. وإننا موافقان على طلبك لكننا (لسنا من أهل بيت خدعة) وشرطُنا أن يكون لنا (خيار فسخ) هذه المبايعة والمعاهدة بعد ثلاثة أيام، كما في خيار الحيوان الذي كان لدى النبي ﷺ.

ضحك السيد وقال: لن يكون هناك فسخ لما بيننا ـ إن شاء الله ـ والحيوانات ليس لديها غلٌ أو حقد، وهم يأنسون ببعضهم.

نقلنا متاعنا بعد ذلك قرب السيد، وجلسنا على بساط واحد.

كنا ثلاثة: هو راكب ونحن مشاة، وسيدان وعاميّ، وشيرازيان وخراساني، وطالبان وخطيب حسيني.

قلت لهما: بما أني أكثر سفراً منكما، ورأيت من المشاق مما لم يشاهده إلّا القليل من المسافرين فقد علمت حقاً: أنّ السفر قطعة من سقر[1]، وفي الأسفار تُعرف جواهر الرجال. وأرى نفسي أكثر نشاطاً منكما.

رأيت فيما بعد في الميرزا حسن إنساناً كسولاً سريع التعب في الطرق بين المنازل التي لا تبعد عن بعضها أكثر من ستة فراسخ. وكنت خلال نزولنا أُعنى بالميرزا حسن وأرعاه. وكانت الترتيبات المتعلقة بالطبخ وإعداد الشاي وغير ذلك بعهدتي أيضاً و﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]. ولم يكن للخطيب الحسيني من عمل ـ بعد أن يراني انتهيت من تهيئة وإعداد كل شيء ـ إلّا النزول عن بغله ليستريح من العناء، وتدبّ فيه روح النشاط كي يقرأ لنا شيئاً من ديوان

---

(١) في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٣٣٨ قول للإمام علي عليه السلام هو: (السفر قطعة من العذاب، والرفيق السوء قطعة من النار).

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٣.

المثنوي، أو شعر حافظ، نرفع بعدها أصواتنا بـ(أحسنت، أحسنت) لأدائه البليغ، ونشير إليه ببنان القبول والإطاعة. وقد أصبح واضحاً أنّ السيد الخطيب ـ إضافة إلى كونه كسولاً ـ لم يكن يجيد أي عمل.

كانت القافلة تسير في الليل غالباً لأنّ الجوّ ملائم آنذاك، حيث كنا نتحرك في منتصف الليل، ونصل بعيد طلوع الشمس بساعة أو ساعتين إلى أحد الخانات. كان سفري هذا ـ قياساً لسفري إلى يزد كالجنة بالنسبة إلى جهنم، نظراً لقصر المسافات بين المنازل وكثرة القرى ووجود الماء والاستراحة التامة طوال اليوم في الخان.

الوصول إلى خونسار:

وصلنا خونسار الواقعة في وادٍ، وفيها ما يقرب من فرسخين من البساتين على شكل مستطيل ممتد على الطريق. والحلوى المسماة بـ(من السما)[1] الشهيرة إنما تأتي مادتها الأولية من خونسار.

غادرنا من هناك مساء حتى ابتعدنا عن بساتين خونسار. كنت أسير مع القافلة، إلّا أنني أسرعت بالسير قليلاً حتى تقدَّمتها بمقدار نصف فرسخ، وكان يسير إلى جانب الطريق خمسة أشخاص لورستانيين، دخلوا بعدها إلى الطريق نفسه. فظللت أنا أسير في نفس الاتجاه، ثم دخلت في جمعهم مسرعاً ظانّاً أنهم لم يكونوا يعبأون بي. إلّا أنني لاحظت تدريجياً أنهم كانوا يقتربون مني الواحد بعد الآخر ويتفحصونني من قمة الرأس حتى أخمص القدم. ولأن الوقت كان ليلاً، فقد راعوا في عملهم ذاك الحيطة والحذر، وكانوا يراقبون ما حولهم بدقة، فتيقنت أنهم لم يكونوا سذّجاً، بل كان لهم هدف ما. وبعد عدة خطوات جلست فجأة إلى جانب الطريق كي أبول، ثم عادوا هم مرة أو مرتين فرأوني ما زلت جالساً وقد أطلت جلوسي عامداً حتى سمعت جرس القافلة يقترب منّي، بينما أصبح اللورستانيون بعيدين عنّي فأحسست بالنجاة.

بلغنا گلبايگان عند طلوع الشمس، فذهبت للحمّام العام، وقد انشغلت بعدها

---

(١) في مقدمة الأدب للزمخشري: ٣٢٩ أن اسمه بالفارسية هو گزانگبين وهو شيء يسقط من السماء على الشجر يشبه العسل فيجتنى.

بإعداد وترتيب طعامي الغداء والعشاء، كما كنت أفعل ذلك أينما حللنا، غادرنا بعدها إلى خمين[١].

وفي الليالي كنت والميرزا حسن نتقدم على الزوار في المشي حتى نصل إلى الخان. وفي إحدى الليالي تجاوزنا في سيرنا الخان الذي كان مقرراً أن ينزل الزوار فيه، فوصلنا إلى قريتين مليئتين ببساتين الكشمش (الزبيب) حيث كان الفلاحون قد نشروا الكشمش ليجفّ في حرارة الشمس. كانت إحدى القريتين من قبيلة بري والأخرى من قبيلة زنگنه. ولمّا كنّا متعبين، فقد دخلنا إلى بيت أحد الفلاحين الواقع بين البساتين، وقد أكرمنا صاحبه وقدّم لنا الخبز، فأكلناه مع الكشمش. سألناه عن الخان الذي ينزله الزوار عادة، فقال: لقد تجاوزتموه بمقدار فرسخين، ولم يبق لكم إلّا أن تقطعوا نصف فرسخ كي تصلوا إلى إحدى القرى، حيث يبقى لكم للوصول إلى دولت آباد التي هي محط رحال الزوار فرسخ ونصف. نهضنا فوصلنا إلى القرية، وجلسنا في مقهى صغير فيها، فشربنا الشاي. قلت للميرزا حسن: إذا استطعنا أن نسير من هنا إلى دولت آباد دون توقف، فإننا سنبيت هناك. فقال: ليست لديّ قدرة على الحركة. قلت: إذاً لننم هنا هذه الليلة في هذا المقهى. ولمّا لم يكن معنا من المتاع سوى فانوس يدوي صغير، إذ كنا قد أودعنا متاعنا لدى المكاري الذي وضعه على بغاله، فقد طلبنا إلى القهواتي أن يسلق لنا ست بيضات، أكلناها ونمنا.

زعامة مزعومة:

استيقظنا عند أذان الصبح فسألنا القهواتي عن الحمّام العام، فأشار بيده إلى مكان بعيد. طلبت من الميرزا حسن أن يشعل الفانوس ـ وكان فيه نصف شمعة ـ فأشعله وتقدّمني بعمامته وعباءته، بينما وضعت أنا عباءتي على كتفي وحملت بيدي عصاي التي أعددتها للسفر، وسرنا في ذلك الليل البهيم الذي يُظهر القطة كالسمّور[٢]. التقى بنا بعض أهل القرية وكانوا يسلّمون علينا بمنتهى الاحترام

(١) مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة محلات.

(٢) قال المعلوف في معجم الحيوان ص١٦٧ إنه من فصيلة السراعيب وهي من فصيلة اللواحم أي آكلات اللحوم، طوال الأبدان، قصار القوائم، تشمل: ابن عرس والدلق والسمّور وكلب الماء...

وينحنون لتقبيل أيدينا. قلت لرفيقي: امشِ بتأنٍ، فقد حصلنا على الرئاسة عن طريق الخطأ في هذا الليل الحالك السواد. وهو ما لن نتحسّر عليه بعد ذلك. كان واضحاً لي أنّ سيداً ما مقيماً في هذه القرية له نفس قامتي وقيافتي، وأنّ الناس تصوروا أنني هو. وهكذا أصبحت رئيساً بسؤالي القهواتي عن الطريق الذي أسلكه إلى الحمّام. وقد بلغ الأمر مداه عندما مرّ بنا أكثر من خمسة أشخاص قبّلوا أيدينا. وكان صعباً علينا أن نسأل عن طريق الحمّام، لأنّ ذلك سيؤدي إلى سقوطنا من عرش الرئاسة إلى الحضيض. وقد أسعفنا الحظ إذ كان الزقاق قريباً منّا على اليمين، إلّا أننا عندما ولجناه وصلنا إلى مفترق ثلاثة طرق، فظللنا بوادي الحيرة والجهالة واقفين. وكان شرط الخروج من تلك الحيرة أن نتخلى عن الرئاسة. وأخيراً وبعد طول تردّد وتفكير في أنّ عدم سؤالنا سيؤدي بعد دقائق إلى طلوع الشمس، ويوم تُبلى السرائر يكون الخزي الأكبر حين يُفتضح المتفرعنون، فأيّ فائدة تُرجى لنا بعدها بعدم السؤال؟ إضافة إلى أنّ التأخير عدا عن كونه سيؤدي إلى ضياع الصلاة، فإنه سيؤدي إلى أن يصل الزوار إلى الخان الذي نريده ويغادروه. تخلينا عن التفرعن، وسألنا أحد المارة، فدلّنا على الحمّام ودخلناه. ولما انتهينا أعطينا الحمامي أجرته، وحين أراد أن يعيد لنا البقية لم يكن معه عملة صغيرة، فأخذ بالبحث هنا وهناك، وأضاع بذلك شيئاً من أعمارنا. وأخيراً ـ وبعد كل ذلك التأخير والمذلة ـ قال أحد الناس هناك: اذهبا وسوف أدفع أنا نيابة عنكما. ولقد أخذ منّا الخجل مأخذاً، أخرج معه الرئاسة التي ملأت أنوفنا ونحن في الزقاق.

قلت: يا ربي، حقاً أننا لم نكن من طالبي الرئاسة. لقد تشبّهنا بطالبيها فقط، ولم يكن ذلك يستحقّ كل هذا التخجيل والإحراج، فوقر في نفسي أن (من تشبّه بقوم فهو منهم): لقد تشبهت بفرعون لدقائق قليلة، فذقت كل هذا الخزي والذل، أي أنّي كفرعون الذي أصبح أضحوكة حين أراد التشبّه بموسى لدقائق وغرق.

تحركنا، فبلغنا قافلة الزوار، ودخلنا معاً قصبة دولت آباد حيث مكثنا الليل هناك. وقبيل طلوع الشمس تحركنا، وكنت محتاجاً أيضاً إلى الاغتسال، ولم يكن هناك من سبيل إلى الحمّام، تيممت وأديت صلاتي. ذهبنا بعدها فبلغنا أحد الخانات، رأيت في وسطه ساقية يتلألأ الماء فيها، فقررت أن أغتسل فيه بعد استراحتنا. تغدّينا وشربنا الشاي. ورأيت أن أنزل في الماء عندما يكون الآخرون

نائمين. إلّا أنني رأيت الماء بارداً على الرغم من حرارة الجوّ، وبما أن القرية قريبة، قررت أن أذهب إلى الحمام، إذ إنّ النزول في الماء البارد لا يخلو من ضرر، ودفع الضرر الاحتمالي واجب لدى العقلاء.

في مواجهة الكلاب:

توجهت إلى القرية وعند وصولي إلى أول زقاق، ولأجل حماية نفسي من كلابها، رأيت طفلاً في حوالي السادسة، فأعطيته قطعتي نقود كي يوصلني إلى الحمّام. ولم نكد نخطو خطوات قليلة حتى هجم علينا أحد الكلاب، وقد طرده ذلك الطفل، وبمجرد أن مشينا خطوات أخرى هجم علينا كلب آخر، فطرده هذا الطفل أيضاً، وبقينا على هذا المنوال، يهجم أحد الكلاب فيطرده هذا الطفل عنّا. إلّا أن تأثير عملية الطرد تلك كان لا يتعدى إسكات الكلب عن النباح فقط، إذ إنه يظل يمشي وراءنا، وهكذا عندما بلغنا باب الحمّام أحصيتُ الكلاب التي كانت تسير خلفنا، فكانت سبعة عشر كلباً اصطفّت على بعد عدة أقدام منا.

أوصلني الطفل إلى باب الحمّام، وذهب إلى بيت الحمامي القريب وأعلمه بوجودي وغادرني. جاءت امرأة الحمامي، وأبلغتني أن الوقت في الحمام الآن مخصص للنساء، وطلبت إليّ الانتظار ريثما يحين الموعد المخصص للرجال. جلست متكئاً في ظل حائط الحمام، بينما اصطفّت على بُعد أقدام منّي الكلاب السبعة عشر، وحين كانت تصدر منّي أي حركة، كنت أراها تهجم عليّ، وحين أعود للجلوس أو الاستقرار تعود إلى الاصطفاف مرة ثانية، وهكذا إلى أن بقيت جالساً، بينما استلقت هي على الأرض وعيونها مسمّرة عليّ مخافة أن أحرّك رأسي، حتى أنه لم تكن لي الجرأة أن أمدّ يدي لأحك إبطي إذ إنها كانت ستهاجمني.

بقيتُ نصف ساعة في ذلك الظّل منتظراً، وظلّت الكلاب على اصطفافها أمامي، إلّا أنها فكرت ورأت أنني لست شحاذاً ولا صوفياً ولا قلندرياً، ولا مهرجاً أو محباً للشجار أو حاوياً، كي أوقع بها ضرراً وأنقصها شيئاً من أرزاقها. كما لم ترَ فيّ لصاً متستراً أو جابياً للخمس والزكاة أو قوّالاً وكاتباً للأدعية والرُّقى أو من مأموري الأمن والضرائب. ولست ممن يريد إيقاع ضرر بأصحابها أيضاً. ولم يكن لهذا العبد لله من هدف سوى أن يدفع قليلاً من المال للدخول إلى الحمّام. فدعتها طيبتها الذاتية إلى الانصراف واحداً بعد الآخر، إلّا كلباً منها

أسود سيّئ المنظر قبيح الوجه عنيداً، آثر أن يبقى في مكانه، وفي الحمام أيضاً بقيت امرأة واحدة لا تريد الخروج.

جاء الفرج:

قلت لنفسي: لا بدّ أن تكون هذه المرأة زوجة رئيس القرية أو حاكمها أو أحد إقطاعييها بحيث إنها لا تعرف الله ونبيه ولا زوار كربلاء. وقد كانت كما توقعتها حين خروجها من الحمام الذي أضحى خالياً فدخلته. وهناك بدأت في التفكير في أمر التومانات الخمسة أو الستة التي كانت معي والتي هي أساس حياتي، وكيف أحفظها. ولما كنت في عجلة من أمري لم أهتدِ إلى أخذِها معي ووضعها في زاوية قرب حوض الماء الذي سأسبح فيه. أغلقت عليّ باب الحمام وبدأت بخلع ملابسي وتخيّلت أن أحداً ربما أراد الدخول إلى الحمام، عندها سيفتح له الحمامي الباب، ولذا فإنّ نقودي ستكون في خطر. لذا فقد أخرجتها من جيبي ووضعتها تحت حصير بالٍ، ثم وضعت ملابسي على ذلك الحصير. ومع كل تلك الحيطة الدقيقة لم يفارقني الخوف من اللص وأنا في الماء. لأن من البديهي أن المال في الدنيا هو نظير الدين والأعمال الصالحة في الآخرة. فكما أن الحياة في ذلك العالم منوطة بالأعمال الصالحة، كذلك أهمية المال في هذه الدنيا.

المال وما أدراك ما المال؟:

«استر ذهابك وذهبك ومذهبك»[١]، الذهب والمذهب مترافقان، إلّا أنّ أحدهما للدنيا والآخر للآخرة، والمال في الدنيا نعمة كبيرة. ومن يمتلك المال يكون لديه كل شيء، ويقضي كل حاجاته ويأتي بكل ما يريد، إنّه يقرّب البعيد، ويجعل الماشي راكباً، والجائع شبعان، والعاري مكسواً، يوصل الناس إلى المناصب ويعطي العزة والرئاسة، كما يوفر المرأة، بل إنّ الآخرة يمكن أن تؤخذ بالمال «الدنيا نعم العون على الآخرة»[٢]. وقال الحريري: (وحق مولى أبدعته فطرته، لولا التُّقى، لقلتُ جلّت قدرته).

هو ميزان التعامل والتبادل التجاري، ورافع الخصومات بين الأنام بل هو

---

(١) حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام (ش).

(٢) حديث شريف. (ش).

بحدّ ذاته منظّم ومصلح كل الاختلافات بالشكل العادل. وهو مدير الدنيا، بل السلطان العادل، والقاضي العادل، والقاسم بالسوية، والعادل في الرعية، ولهذا السبب فإن اكتنازه وإخفاءه من المحرمات الشديدة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. لأنّ الكنز في الحقيقة هو حبس هذا السلطان العادل، وتعطيل ميزان وناظم أمور عباد الله في الدنيا والآخرة. فمثلاً لو أراد إنسان لديه الاستطاعة الحج إلى بيت الله الحرام. وأراد أن يهيىء من الطعام أقل ما يكفيه في ذهابه وإيابه، فإنه سيحتاج إلى حمل بعير من الطحين، وحمل من الرز والسمن، وحمل من الماء ينفعه في الأماكن التي لا ماء فيها، وحملين أو ثلاثة من الحطب للطبخ في الفيافي التي ينعدم فيها الحطب، وحصان للركوب، ومعاون مع حصان لركوبه، ولوضع علف تلك الخيل عليه من الماء والتبن ودقيق الشعير، حيث ينبغي تهيئة ثلاث قوافل مقابل كل قافلة تحمل الحجاج وأمتعتهم. إذ إن كل بعير حامل للطعام سيحتاج إلى ثلاثة جمال تحمل طعامه وهلمّ جرا. ومثل هذا السفر وبهذا الشكل غير ممكن بل لا يمكن أن يسافر المرء إلى أي مكان، لا للتجارة ولا لأي شيء آخر، وبذلك يختلّ نظام معاش ومعاد العباد. وقد أصبح كل شيء بفضل النقود منظماً ميسّراً، حيث تُقضى كل الاحتياجات، ويتوصل إلى تحقيق الآمال الصعبة. وهي التي تجعل الطبيب يقطع المسافات ليقف على رأس المريض.

ومع كل ذلك فهي لا تصلح بذاتها لشيء، لا للّباس ولا للطعام، ولو صُنعت منها الأواني فإنّ النبي ﷺ حرّم ذلك أيضاً، حيث إنّ ذلك نوع من السجن أيضاً.

وقد منح الله هذه النقود ـ أي الذهب والفضة ـ العزة، وأتاح لها الحرية بالتنقل في البيوت والممالك لقضاء حوائج العباد من خلال المعاملات التجارية التي هي مدعاة لوجود الارتباط والاتحاد بين البشر.

ومن البديهي أنّ أحداً لو أراد دفن مثل هذا المنظّم المقتدر تحت الأرض، أو صنع منه أدواته وأوانيه، فإنه علاوة على الظلم الذي سيُنزله بهذا العزيز الوجود، ـ وسيكون ذلك كما لو أوكلنا إلى النبي أو الإمام أو الحاكم العادل أن ينشغلوا بالكدح وكسب المعاش ـ فإنه سيكون كالحجر عديم الجدوى المدفون تحت الأرض، بينما

(١) سورة التوبة، الآية ٣٤.

يكون المعدن الوضيع الأصل يؤدي عمله في مطابخ البيوت حيثُ تُصنع منه أدوات وأوانٍ، وعلاوة على كل ذلك، فإنّ ظلماً فاحشاً سينزل في ساحة عباد الله، إذ إن المال لو لم يحبس، لأدّى أعمالاً جليلة ويسّر حوائج المحتاجين. والعجيب هنا أنّ البشر جميعاً يعشقون هذا الذي لا فائدة فيه بحدّ ذاته، وهو أقلّ فائدة حتى من تراب الحجر، بل يرونه أعزّ من أرواحهم، فمن أين جاء ذلك ولماذا؟

السبب هو عدم وجود مطلوبية ذاتية فيه، إذ من المؤكد أنّ من يأخذه لا يبغيه بحدّ ذاته، فالرغبة فيه وعزّته عارضة عليه، وعزّته تلك ليست ناشئة عما يترتب عليه من فوائد؛ بل إنّ فوائده ناشئة عن تلك العزة والرغبة فيه، فمِن المستبعد والمحال أن تكون تلك العزة والمحبة أيضاً بلحاظ تلك الفوائد، ومع ذلك ففي المسألة تخلّف أيضاً، إذ إنّ الجرذان وبعض بني الإنسان يحبّونه دون أن يضعوا في حسبانهم فوائده المترتبة عليه. وعلى هذا فلا تتوهمنّ أن تلك المحبة ذاتية وليست عارضة. إذ إنّ قليلاً من التعمّق يُريك أن لا محبوبية ذاتية له، وإلّا كان سببها ثقله أو لونه أو طعمه أو رائحته أو شكله أو زينه أو تركيبه أو صفاؤه. وهي صفات يشترك فيها الذهب مع غيره من الأجسام الأخرى، فلماذا لا تُحبّ تلك المعادن لنفس هذه الصفات، بينما يُحبّ الذهب؟ إنّ العلل لا تتخلف عن معاليلها. إذاً ليس في ذاته ملاك للمحبوبية إلّا من جانب ربّ العزة: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فهو مسهّل الأمور والمفيض للخيرات وفاعل الحسنات.

خرجت من الحمام وأنا في تلك الأفكار، فوصلت إلى رفيقيَّ قبيل العصر. فرأيتهما نائمين، فأعددت الشاي وأيقظتهما فصليا. ثم جلسنا جميعاً جذلين.

قرأ السيد الخطيب شيئاً من المثنوي فتواجدنا وغرقنا في بحر الفناء، بل عُدمنا من ظهور الناسوت في الجبروت، بل بمروجه في اللاهوت، وعدنا إلى الله سبحانه.

أرزاق دارّة ببركة الزيارة:

حين تحركنا من هناك وصلنا إلى فرسبه حيث كان هناك مكان يوصل طريقي

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

خراسان وطهران بطريقي العراق وأصفهان فتصبح واحدة هي مجمع البحرين بالنسبة لزوار الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

كان هناك حشد كبير أغلبهم من الزوار الذين كانوا مع دوابّهم، وبعضهم مع زوجته وأطفاله، وآخرون من المشاة وقد جلبوا معهم أنواعاً من المتاع ومن الطعام والمستلزمات الضرورية للوقود والإنارة. وعلى الرغم من كون المكان قرية ذات خمسين بيتاً، إلّا أنه يحدث أن يحطّ بها أحياناً ألفان من الزوار في الذهاب وألفان في الإياب، فإذا افترضنا أن كل دابة من دوابهم تحتاج منّاً من الشعير ومنّين من التبن؛ يكون مجموع ما تحتاجه أربعين حملاً من الشعير وثمانين حملاً من التبن في الليلة الواحدة. وإن افترضنا أنّ طعام كل إنسان يكلّف ما وزنه ٧٥٠ غم، فإنّ المطلوب هو عشرة أحمال لغذاء الزوار، وعشرة أحمال حطب، وثلاثون منّاً من النفط للإنارة. فإذا كان ذهاب وإياب هؤلاء الزوار سيستغرق شهراً فإن على كل مكان يحطون فيه رحالهم أن يهيىء الكمية المذكورة مضروبة بثلاثين يوماً. حيث يصبح الشعير والتبن في هذه الحالة ألفين ومائتي حمل للشعير، وثلاثة آلاف ومئتي حمل من التبن. وقس على ذلك سائر ما ذكرناه. كل ذلك لتغطية احتياجات أربعة آلاف زائر فقط في قرية صغيرة نسبياً. وكيف يمكن لتلك القرية الصغيرة أن تهيىء كل ذلك القوت في الوقت الذي لا يمكن حمل تلك الأحمال إليها إلّا من مناطق تبعد عنها فرسخان ونصف من جهة الأمام على الطريق إلى الشمال، ومثلها من جهة الخلف، فيصبح المجموع خمسة فراسخ. وإذا أخذنا عرض الطريق نجد أن أقرب القرى إليها تقع على بعد عشرة فراسخ عن يمينها وعشرة عن يسارها. وهكذا يصبح مخزن غلال هذه القرية التي ينزلها الزوار ممتداً على مساحة خمسين فرسخاً، ومن جهة أخرى فإن الملاحظ على أغلب أراضي إيران أنها غير مزروعة ومتروكة، فمن أين كل هذا المحصول؟

ومن ناحية أخرى فإنّ في ذلك رحمة إلهيّة واسعة من حيث فتح باب التجارة والتبادل السّلعي على أهالي تلك القرى الذين لا طاقة لهم على السفر لبيع ما لديهم من محاصيل. إذ تدخل هذه الرحمة بيت كل امرأة عجوز أو مُقعد ليس لديه ما يتّجر به سوى بيضتي دجاج أو منّين من الحطب أو قرصي رغيف. فانظر كيف ساق المشتري إلى باب دارها رحمة منه عليها وعلى مثلها.

وإذا قدّرنا عدد الزوار بخمسين ألفاً على الأقل، فذلك ليس بمستبعد، سواء من الإيرانيين أو من القادمين من خارج إيران، ويمرّون من خلالها. إذ سمعت أنه حدث مرة في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المسماة بزيارة عرفة أن اجتمع هناك ثلاثمائة ألف زائر كان أغلبهم من الإيرانيين، إضافةً إلى قليل من العرب وغيرهم ممن لا يصل عددهم إلى عشرين ألفاً. وقد زاد عددهم في ذلك العام على زوار بيت الله الحرام. وعلى هذا فليس من المبالغة القول أن خمسين ألف زائر يصلون إلى هناك على مدار السنة.

وهنا ينبغي علينا أن نحسب ما يحتاجه الزوار في تلك الأماكن التي يمرّون بها ذهاباً وإياباً مضاعفاً، حيث يصبح طعام مائة ألف فارس مائتي وخمسين حملاً من الحنطة، وألف حمل شعير وألفي حمل تبن وخمسمائة حمل من سيقان الأشجار وستة أحمال من جذوع الأشجار لعشرين منّاً من الشمع، آخذين بعين الاعتبار أنهم يمرون بخمسين محطة خلال حركتهم في إيران.

وعلى هذا يكون طعام كل ذلك العدد في كل المحطات التي ينزلونها في إيران لوجبتي الغداء والعشاء ما يعادل ٢٥٠٠ حملاً، وطعام دوابهم ٥٠,٠٠٠ حمل شعير و١٠,٠٠٠ حمل تبن. و٢٥,٠٠٠ حمل من سيقان الأشجار و٤٠٠ حمل شمع وزيت للإنارة. وبطبيعة الحال فإن ما يبيعونه للزوار يبيعونه بسعر مضاعف. وعليه فإذا أخذنا الحدود المتوسطة للأسعار حيث كل مَنّ من الخبز بقرانٍ واحد ونصف. والشعير بقران واحد للمنّ الواحد والتبن والأخشاب كل منّين بقران واحد، والشمع والنفط معاً بقران واحد لكل ٧٥٠ غم، يكون مجموع كل ما ذكر أعلاه هو: طعام الزوار ٤٠٠,٠٠٠ تومان. والشعير ٥٠٠,٠٠٠ تومان. والتبن ٥٠٠,٠٠٠ تومان، والأخشاب ٢٠٠,٠٠٠. والشمع وزيت الإنارة ٨٠,٠٠٠ تومان. ويكون المجموع على أقل تقدير أكثر من مليون ونصف المليون تومان أي حصيلة ما ينفقه زوار الإمام الحسين بن علي عليه السلام على أهالي المنازل والمحطات التي يجتازونها في طريقهم من إيران إلى كربلاء. وبهذا المبلغ يعيش أهالي تلك الديار الفقيرة، حيث ينقسم عليهم بحسب التقسيم والتقدير الإلهي.

بعد أن شرب السيد الخطيب شايه وانتعش، اتكأ على متاعه، بينما بدأت أنا بتدخين غليوني مفكراً، وأما حسن فقد استلقى وهو يئن من التعب والسير على القدمين.

حوار اقتصادي:

اتجه السيد نحوي وسألني: بم تفكر؟

قلت: في رحمة الله سبحانه التي يفيضها على الزوار وأهالي هذه المناطق الفقيرة وما حولها. وكيف أن الله يهيىء الأسباب لنأتي نحن من الفجاج العميقة إلى أبواب هؤلاء لنشتري احتياجاتنا، فنرتدّ نحن راضين، ويعيشون هم بما يبيعون. بل إنّ صفة (رحيمية) الله تعالى تظهر عليهم، إذ من البديهي أنهم يرغبون في كثرة الزوار ويبتهلون إلى الله من أجل ذلك، ويتحملون مشقة في ذلك مما فيه أجر أُخروي لهم.

وأما بالنسبة إلى الزوار القاصدين زيارة العتبات المقدسة فإنّ ظهور صفة (رحيمية) الله تعالى واضحة، إذ إنّ لهم بكل خطوة أجراً، بل إنّ بركة (الرحمانية) تنالهم أيضاً لأنهم يسيحون، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

وبديهي أنّ السير في الأرض موجب لزيادة البصيرة والاعتبار وحصول الامتحانات. وقد قال الإمام علي عليه السلام: «وسافر ففي الأسفار خمس فوائد». فالسفر تحصل منه فوائد علمية في الجغرافيا الطبيعية والاقتصاد والأخلاق والزراعة والتجارة. ولهذا السبب تبدأون ـ أنتم خطباء المنبر الحسيني ـ كلامكم عند صعودكم المنبر بقولكم (السلام عليك يا رحمة الله الواسعة ويا باب نجاة الأمة)، ولو انحصرت رحمة الله بمجالس الوعظ كما تتصورون أنتم الخطباء لضاق بنا الأمر. إلّا أن باب الرحمة هذا واسع إلى الحد الذي يشمل فيه أسماك البحر والطيور التي تحلق في الهواء، بل يسع كل الموجودات.

قال السيد: كل ما قلته صحيح، ولكن لو كان هنالك خط لسكة الحديد في إيران لكان في ذلك راحة للزوار. وإذا كنت أنا الراكب للبغل قد تخلّعت عظامي لكثرة حركته فكيف هو حالكم أنتم المشاة؟

فجأة اعتدل الميرزا حسن في جلسته وهو يقول: والله إن السيد الخطيب قال حقاً. إذ لو كان هناك خط لسكة الحديد، لتوجّه ربما نصف سكان إيران للزيارة في كل شهر. وأما راكبو السيارة فلهم نصيبهم من الراحة. وإلّا فأي راحة أكثر

(١) سورة الأنعام، الآية ١١.

من جلوس عدة أشخاص في غرفة واحدة يحتسون الشاي ويتسامرون بينما تُطوى لهم الأرض بسرعة البرق. إنّ المقصود بـ(السفر قطعة من سقر) إنما قيل بخصوص إيران، وأما السفر في الخارج فهو قطعة من الجنة.

ثانياً حين تستغرق السفرة شهراً أو شهرين، نضع فيها متاعنا كل يوم ونفتحه ثم نحزمه مرة أخرى، وننام في الخانات المليئة بالزواحف والحشرات، حتى أننا إذا أردنا أن نأكل لقمة من (ماء اللحم) أو أن نشرب شاياً، فينبغي أن نُجهد أنفسنا في إعداد ذلك بما يزهق الأرواح. وحين نجلس لتناولها ننشغل بالقمل والبرغوث الذي التصق بملابسنا. فنمد يداً إلى قدح الشاي بينما تكون الأخرى منشغلة بالجهاد الأكبر أي بالحكّ تحت الإبط والظهر والخاصرة، فأيّ حياة هذه؟ ومع ذلك تطلبون مني أن أشرح وأقرأ لكم من **المثنوي**. والآن هل تقول لي أي رحمة نحن للفقير والعاجز، فهل أصبحنا ضامنين لهؤلاء الفقراء الذين لا أرتاح حتى لمجرد وجودهم؟

ومن البديهي أن كل تلك المشاق ستزول وستنخفض النفقات في حالة وجود خط لسكة الحديد، كما أن عدد الزوار سيتضاعف.

قلت: إنّ كل ما ذكرته واقعي، إلّا أنّ كل تلك البيانات مرتبطة بالمنافع الشخصية وراحة المسافرين وقصيري النظر الذين لا يتجاوزون بإدراكهم أبعد من أنفسهم. ومن الطبيعي أن هذه المشاق في المحطات والخانات، من حيث التعب والوساخة وعضّات القمل والزواحف، من مستلزمات الدنيا التي هي (سجن المؤمن). وليس هناك تلاؤمٌ بين خط سكة الحديد وبين زيارة الإمام الحسين بن علي عليه السلام. بعبارة أخرى إن السرور والراحة غير لائقة في هذا الطريق. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ويل لمن اصطحب ـ وهو ذاهب للزيارة ـ الخبز واللبن. اقنعوا بالخبز اليابس الذي يسدّ الرمق كي يحصل لكم التشبه بالحسين عليه السلام الذي كان مسافراً غريباً عطشان جائعاً. إذ إن حقيقة الزيارة ليست تقبيل هذا الحديد وهذه الفضة التي في الشبّاك الموضوع على القبر. إضافة إلى المنافع والفيوضات التي ستنال الشيعة والفقراء الذين هم في الطريق الموصل للزيارة وكلُّها ستزول عن هؤلاء البائسين عند وجود خط سكة الحديد، بل إن هذه القرى ستدمر بكاملها. كما سينقطع رزق أصحاب الدواب الذين استأجرت منهم بغلك وأولئك الذين يحملون الأمتعة وأنواع التجارة إلى المشرق والمغرب. أما في بلاد الإفرنج فلا يوجد بغل أو بعير. ولقد سمعت أنهم كما يضعون الأسد

والنمر في أقفاص حديقة الحيوانات، يضعون الحمار والبعير هناك أيضاً كي يتفرج عليهما الناس.

قال السيد: بديهي أن باباً من أبواب رحمة الله لو أُغلق، فسيُفتح باب آخر، وإن زال سبب حدثت أسباب ولا ينقطع الفيض.

لا يحتمل الوجه الملائكي أن يكون مستوراً   إن سُدّت عليه الباب برز من الشبّاك

إنّ أهالي هذه القرى سيشتغلون آنذاك بالزراعة، وكذلك أصحاب الدواب والمكارون.

قلت: هل يوجد من أهالي إيران من يستطيع أن يمدّ خطوط شركة سكة الحديد؟ وعلى فرض وجودهم كم فرداً يمكن أن يأخذوا هذا العمل على عواتقهم؟

قال: لا علم لي.

قلت: أنا أعلم أن خطين رئيسين لسكة الحديد يتقاطعان في مركز البلاد، أحدهما يأتي من الشمال إلى الجنوب، والآخر من الشرق إلى الغرب. وينبغي أن تتعهد العمل في هذين الخطين شركة واحدة. وإن طول هذين الخطين خمسمائة فرسخ، سيُكلف كل فرسخ منها نصف مليون تومان. وإن على الشركة الإيرانية التي ستتعهد بهذا العمل أن تضم ألف فرد، يُعطى كل واحد منهم ربع مليون تومان لتغطية نفقات العمل، وهذا ممكن في إيران، حيث يمكن أن تؤخذ المبالغ من العلماء والتجار والملّاكين والوزراء. ويمكن أيضاً مدّ الخطوط الفرعية الأخرى بواسطة هذه الشركة أو شركات أخرى تنشأ لهذا الغرض. ويمكن أن لا يزيد مجموع ما يحتاجه كل هذا العمل على خمسة آلاف فرد. كما يمكن تنظيم الحركة في تلك الخطوط بواسطة خمسة وسبعين ألفاً. عشرون منهم لتهيئة الفحم الحجري. وعشرون آخرون يعملون في المحطات ما بين محاسب وسكرتير وجابٍ وعمال آخرين للماكنات. يضاف إلى ذلك عشرون ألف حمّال في المدن والموانىء. فإذا افترضنا أنّ عدد العمال سيكون أكثر، فنضيف إلى ذلك خمسة وعشرين ألفاً فيكون المجموع مائة ألف من أصحاب الدواب وأصحاب الجِمال وأصحاب البغال والحمير وما يُحمل عليه المسافرون ومتاعهم. كل هؤلاء يصبحون عاطلين عن أعمالهم ويذهبون للعمل في الأعمال الآلية. وإلى هنا لا ضرر في المسألة، بل سيكون الأمر أفضل حيث بُدّلت وسائل النقل المتعبة

بوسيلة سهلة، ودخل أولئك المائة ألف في هذا العمل الجديد، وأصبحت أوضاعهم المعيشية أفضل من السابق. ولكن هذا العدد من الماكِنات ستشتريه نفس الشركة المكونة من خمسة آلاف فرد، ويؤتى به إلى إيران. وبذلك تنتقل الثروة إلى بيوتهم. ولو استوردوا مثلاً ماكنة الزراعة وماكنة الحراثة وماكنة الدرس والحادلة والطاحونة وماكنة الخبز، ستنخفض اليد العاملة التي تحتاجها المزرعة من مائتي عامل إلى خمسة وعشرين عاملاً على النحو التالي: فماكنة الزراعة المستوردة ستحتاج إلى خمسة عمال. وماكنة الحراثة إلى خمسة أيضاً. وخمسة آخرين للحادلة. خمسة للطحن. وللخبز خمسة كذلك.

وبذلك ينجز خمسة وعشرون عاملاً في مدة قليلة ما كان ينجزه مائتان. ولأن العمل أصبح أكثر تنظيماً فسيكون بإمكان أولئك الخمسة الأوائل القيام بكل الأعمال المتبقية. ونسبة الخمسة إلى المائتين هي واحد على أربعين. وإذا أخذنا أيضاً ماكِنات الغزل والنسيج والخياطة فستكون النسبة أيضاً قريبة من هذا بين العاملين بالماكِنات والعاملين بالأيدي. وإذا افترضنا أن النساء يعملن أيضاً كما في أوروبا، وكذلك أهل العلم والدراويش وخطباء المنبر الحسيني والمنجمون والقوّالون والحواة وضاربو الطبول ومدمنو المخدرات، يصبحون جميعهم عمالاً. لو افترضنا أن نصف عدد سكان إيران الذي يقارب العشرين مليوناً هم من الإقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال الذين يملكون قوت سنتهم، والنصف الآخر عمال أي ليسوا من الملّاكين، وأن مليوناً وربعاً من هؤلاء العشرة ملايين هم عمال بقوت يومهم فإن الباقي منهم سيظلون عاطلين عن العمل وكسب العيش لأنّ وسائل العمل والإنتاج قد سُلبت من أيديهم. والله لا يُجري الأمور إلّا بأسبابها.

وفلسفة للرزق أيضاً:

قال السيد الخطيب: أَوَ ليس الله ضامن رزق هؤلاء؟

قلت: إن الله ضامن رزق جميع المخلوقات، إذ لا صمد إلّا هو. وقد جعل رزق الجميع في هذه المائدة العامة المفروشة على جميع أنحاء الأرض. ووعد الجميع بالضيافة. إلّا أن هذه الشركة الأولى المكونة من خمسة آلاف فرد قد اختطفت رزق هؤلاء الذين ظلّوا بلا عمل، وهو موجود الآن في بيوتهم حيث يكدّسون الذهب والفضة فوق بعضهم بالمجرفة كروث الأبقار والحمير، بينما يموت الناس جوعاً.

ولأن سبب موتهم من الجوع محقق ومشخّص فليس بعيداً أن يشنّوا الغارة على أهل الشركة والعاملين فيها فيقتلونهم وينهبونهم لأنهم لا يهابون الموت. ويمتلئ العالم بالهرج والمرج. وكل هذه المفاسد المعلومة نهايتها ناشئة من تلك المنافع الشخصية التي كان هدفها مد خط سكة الحديد والمكننة.

أما إذا بقي الوضع على هذا النحو الذي نحن عليه، فليست الفوارق الطبقية حادة حتى ولو وُجد أشخاص معيّنون كالوزراء والرؤساء الجائرين أو ذوي الحظوظ العالية ممن يمتلكون نصف مليون أو مليون تومان فهم قلة بحيث إن عامة الناس لا ينظرون إليهم بعين الحسد. أما بقية الناس فليسوا جياعاً. والفوارق هنا هي أن البعض يأكل الخبز اليابس، بينما آخرون يأكلون الرز واللحم، وبعد الشبع لا يعبأون من أي شيء شبعوا، إما قناعة منهم بما قسم لهم الله وصبراً وشكراً لتخفيف أعبائهم يوم القيامة، أو خوفاً من ارتكاب بعض المحذورات التي لا يتورّع بعض الأثرياء والسلاطين وعلماء البلاط عن ارتكابها. وفي بعض النفوس الشريرة تكون مفسدة هذه الفوارق المتعلقة بالمنافع فقط باعثاً على الفحشاء والسرقة والارتداد، وهو نادر، والنادر كالمعدوم. بل إن أكثر الأثرياء يعملون بتكاليفهم الشرعية وواجباتهم المالية. وكذلك متولو الأوقاف والصدقات والوصايا كما أمرهم الشرع. وعليه لن تحدث تلك الحالات النادرة، وسيكون الناس جميعاً متعاونين في الحياة والمنافع وتعمُر بذلك دنياهم وأخراهم.

وفي حالة تقليدنا للأوربيين فإن الفوضى ستملأ دنيانا، وخراب الدنيا سبب خسران الآخرة واضمحلال الدين.

وحسن أن لا تتبع دولة الشيعة هذه، أعني إيران ـ صانها الله من الحدثان ـ الأوربيين في الحياة الدنيا بمدّ سكك الحديد والمكننة إلّا بمقدار ما تحتاجه في الدفاع والحرب وحفظ الدولة الإسلامية لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1]، وهذه الوسائل يمكن الحصول عليها بسهولة إذا تملّكت الإيرانيين الغيرة والإحساس، وامتنعوا لسنتين عن استيراد نوعين فقط من البضائع الأجنبية أحدهما: السكر والشاي الخارجي، والآخر: القماش الخارجي. وبالمال المتحصل من ترك

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

هذين المستوردين يمكن بناء معمل لصناعة الأسلحة، ومد خطين رئيسين لسكة الحديد. إذ إن إيران تستورد ما يعادل مائتي مليون تومان من الشاي والسكر تذهب إلى جيوب الأجانب، ومائة مليون تومان ثمن الأقمشة لأنّ كل فرد من العشرين مليوناً من سكان إيران يستهلك خمسة وسبعين غراماً من السكر، أي ما يعادل نصف مليون مَنّ في اليوم الواحد. فلو فرضنا أن ثمن المنّ الواحد منه تومان واحد، يكون المجموع ١٨٠ مليون تومان في العام الواحد. وبطبيعة الحال فإن وسائل إعداد الشاي من السماور والفحم وإبريق الشاي والشاي نفسه وغير ذلك ستكلف عشرين مليوناً أخرى. فيكون المجموع لسنتين أربعمائة مليون.

وأما القماش فإنّ نصف سكان إيران يشتري كل منهم ما يساوي عشرة تومانات منه في العام الواحد، فيكون المجموع مائة مليون تومان، ومائتي مليون في السنتين. فيكون المجموع بأسره ستمائة مليون، وهو مبلغ نستطيع أن نمدّ بمائتين وخمسين مليون تومان منه خطاً لسكة الحديد، ومائتين وخمسين مليون لإنشاء مصانع صهر الحديد وصناعة الأسلحة، ومائة مليون لمعامل صناعة القماش والسكر. وكل هذه المعامل وخط سكة الحديد هي ملك للشعب وموقوفة عليه لإصلاح الدولة وحفظ الثغور، وهي مقدمة بقاء ورواج الدين والمذهب قربة إلى الله. وستكون أرباحها ـ بعد خصم نفقات الصيانة والعمل ـ عشرة ملايين على الأقل. أي أن أرباح خط سكة الحديد ومعامل النسيج والسكر ستكون عشرة، وهي كافية لسدّ نفقات ١٠٠,٠٠٠ جندي من حيث الطعام واللباس والخيل والعتاد، ويكونون جاهزين للقتال كل سنة. وينبغي عندها أن ترفع ضريبة الأملاك لمدة من الزمان عن شعب غيور ذي إحساس. كما يجب منع زراعة الأفيون، كي لا يكون هذا المقدار من الغيرة الذي افترضناه وعمّرنا به إيران من قبيل الفروض المستحيلة لأنّ الأفيون واستخدامه يسلب الإنسان غيرة عمل الدنيا والآخرة، بل يُخرج الإنسان عن إنسانيته، حتى أنني أرى أن ما قاله الشاعر (بابا طاهر العريان):

لم أعمل لآخرتي ولا لدنياي كالنخلة اليابسة العارية من السعف

إنما خاطب به مدمني المخدرات.

قال السيد الخطيب: أنت إنسان مكثار الكلام، وما قلته صدّعت به رؤوسنا، وكم هو حسن لو تصبح وزيراً للمالية أو الحرب، أو رئيساً للوزراء في إيران،

أنت يا من تنوح وتضرب بيديك على صدرك من أجل الشعب والأمة، وما أنت إلّا طالب من طلاب العلوم الدينية. ينبغي على الإنسان أن لا يعلّق كثيراً بصره في السماء، ويفكر في نفسه وغطاء رأسه الذي قد يقع.

قال الميرزا حسن: انظروا إن كان نضج (ماء اللحم) فأحضروه لنأكل، فأنا تعب وقدماي تؤلمانني، إضافة إلى أن ما لديّ من نقود قد نفد ـ كانت نقوده وهي ثلاثة تومانات قد نفدت في هذا الخان ـ وينبغي أن تتحمل نفقاتي حتى كربلاء.

قلت: أنت تعلم أنني لا أملك أكثر من خمسة أو ستة تومانات، وهذا السيد الخطيب شيرازي مثلك، ويعرف كل منكما الآخر، وستعودان معاً إلى شيراز بعد الزيارة، فلتكن نفقتك عليه، وعند عودتكم أعطه دَينه.

قال: لقد طلبتُ إليه ذلك فأبى.

قلت: ليس لي بعد أن رفض هو ذلك، إلّا أن أوافق على تحمّل نفقتك، وكنتُ قد وضعتُ نصب عينيك كل هذه المحاذير منذ اليوم الأول فلم تقبل نصحي، وليس من اللائق أن أرميك على قارعة الطريق.

إلى كرمانشاه:

تحركنا مع القافلة، وعند السحر أخذ التعب مأخذه من الميرزا حسن وداعب النعاس عينيه، فبدأت أقصّ عليه قصة خرافية لأشاغله. وكنا كلما حططنا رحالنا في منزل من المنازل كان الجميع يستلقون للاستراحة، وغالباً ما كانوا يئنّون ويتأوهون من التعب، بينما يُلقى عبء خدمتهم على كاهلي.

وعلى أي حال فقد وصلنا إلى كرمانشاه أخيراً، وألقينا رحالنا للاستراحة وترتيب أمورنا. وهنا وجه إليّ السيد الخطيب عتاباً قال فيه: لماذا جئت متأخراً؟ ولماذا لم تطبخ الطعام؟ ولماذا لم تشعل السماور؟ وقد رددت على كل ما تفوه به، بكلمات طيبة كنت أعتذر فيها. فرأيته وقد ملأه الغرور بعد كلامي ذاك. ورأى نفسه مستحقاً للخدمة. وقد جرّنا الحديث إلى التباحث في هذا الأمر فقهياً، وقام بيننا جدال قال فيه: لقد قرأت **شرح اللمعة** حتى تاء تمّت، بل أنا أحفظ متن الكتاب.

قلت: أنا من شارحي اللمعة، أما أنت فكحاطب ليل عندما قرأته.

وانتهى بنا الأمر إلى عدم قبول أي منا لوجهة نظر الآخر. وأخيراً قال: هل تقبل بحكم علماء كرمانشاه؟

قلت: نعم إذ إنّ أقل الطلاب علماً ـ إن كان لديه ذرة من شعور ـ سيحكم بفساد رأيك. وإن فساده أوضح من النار على المنار، وأظهر من الشمس في رابعة النهار لأنه كان يقول إن الوكالة الواردة ضمن العقد اللازم يمكن أن تنتفي بعزل الوكيل أو فسخ الوكالة، لأن الوكالة عقد جائز. بينما كنت أقول إن هناك فرقاً بين شرط النتيجة الذي لا ينتفي بعزل الوكيل، وبين شرط وقوع عقد الوكالة. كأن يُشترط ضمن العقد اللازم بتوكيل شخصٍ ما بصيغة مستقلة لغرضٍ ما، فالشرط الذي يلزم الوفاء هو وقوع عقد الوكالة بالحدّ الذي يقول فيه المشروط عليه: وكّلتكَ، بينما يقول الطرف الثاني: قبلتُ.

فلو فُسخ العقد بعد ساعة؛ انفسخ عقد الوكالة، وعُزل الوكيل عن وكالته. ولكن بخلاف الشكل الأول الذي اشتُرطت فيه النتيجة حيث إن الوكيل يصبح وكيلاً للشرط ذاته وليس لوقوع الوكالة.

وما سمعته من أن الوكالة جائزة، ليس شرط الوكالة لأن الشرط يتبع المشروط.

ولسنا ندري كيف ظهر السيد ريحان الله وهو من العلماء المتظاهرين بالقداسة؟ وهل قدم حديثاً من النجف أم أنه ساكن في كرمانشاه أو قادم من طهران. أطلَّ علينا بهيئة المقدّسين وقد ارتدى عباءة رقيقة. وكان قد سمع أن اثنين أو ثلاثة من المعممين كانوا في القافلة من بين الزوار وقد نزلوا في الخان فجاء لرؤيتنا.

استعان عليّ، فغلبته:

قال السيد الخطيب: إن سماحة السيد ريحان الله قد جاء لزيارتي، وهو من العلماء الأجلّاء، فهل ترضى أن نعرض عليه موضوعنا؟

قلت: موافق طبعاً.

وحين أتى السيد، وبعد المصافحة والمعانقة والقبلات المتبادلة بين الطرفين. جلسنا لنعرض المسألة. وبعد التي واللتيا سُئل سيدنا عمّا كنا فيه من البحث والجدال. فوافق السيد ريحان الله على رأيي. فانطلق السيد الخطيب يجادل السيد ريحان الله، وقد خشيت أن يتردّد السيد ريحان الله في تلك المسألة، أو أن ينخدع بلحية السيد الخطيب ومظهره. فبادرت بعد تصديق السيد ريحان الله لي

إلى توضيح شقّي المسألة، وذكرت آراء العلماء المطابقة لرأيي، وأتبعت ذلك بقولي مترنّماً: (كفى وضوحه عن البحث والجدال، والسؤال والاستدلال، كبياض الملح وسواد الفحم والزغال)(١).

ابتسم السيد وقال: الصواب ما قاله، وليس في الأمر إشكال.

الاحتفاء بالنصر:

جلست قرب السماور أقدّم الشاي وأشرب، وكأنني في احتفال كاحتفال موسى عليه السلام عندما غلب فرعون. بينما جلس السيد الخطيب يحتسي شايه كمن كان في مجلس عزاء لعزيز عليه غادر الدنيا، إلّا أنني عدت إلى حمل أعباء الخدمات مرة أخرى بطيبة نفس ورضا خاطر وشوق، وقد نزل السيد أيضاً عن تكبّره وصار معنا.

بُخلٌ يضاف إلى مصاريفه:

وفي اليوم الذي تحركنا فيه من كرمانشاه قال الميرزا حسن: إنني أشعر بالحمّى، فإن استطعت اذهب واستأجر لي بغلاً يقلّني..

وسواء كان كاذباً أم صادقاً، فإنّ كل ذلك سيكون في عنقه. وذهبت واستأجرت له بغلاً بقران واحد. تحركنا بعدها فوصلنا هارون آباد ومن هناك مشينا إلى كرند قبيل العصر، وقد تحسنت حالة الميرزا حسن ورأيت أحدهم يحمل طائِرَيْ حجل، فاشتريتهما منه، ونظفتهما كي أطبخهما في الخان.

مشكلة جديدة:

بعد ساعتين من حلول الظلام تحركت قافلة الزوار. وما أن مشينا قليلاً حتى بدأت أسبقهم بسيري، إلى أن تقدمّتهم بمقدار نصف فرسخ في الظلام الحالك. وصلت إلى غابة موحشة، فجلست أدخن غليوني حتى جاءت القافلة، فأخبرني أحدهم وكان أصفهانياً: إن رفيقك قد بقي في المقهى، وهو يعاني من الحمّى، وقد أوصاني أن أخبرك أن تنتظره في قرية ميان طاق حتى يأتيك خبر منه.

---

(١) الزغال: بالفارسية هو الفحم. وقد جاء بها المؤلف للتقفية والمزاح.

سألت الرجل: وكم بيننا وبين قرية ميان طاق؟ قال: ما يقرب من فرسخ ونصف.

قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ذهبت القافلة، بينما غرقت في بحر ظنوني: تُرى هل أعود أدراجي كي آخذ منه البغل الذي سيحين موعد تسليمه لصاحبه غداً. أم أنتظره كما قال في ميان طاق وبالتالي أصبح بعيداً عن رفيقي وبعيداً عن الزوار، علماً أنّ بعض متاعنا قد حملناه مع القافلة التي إن لم أصلها يصبح السفر شاقاً بدون المتاع. وإن بقيت في مكاني حتى الصباح، فبالإضافة إلى الرعب الذي سيصيبني في هذه الغابة المظلمة التي لا تقل وحشية سكانها الأكراد عن الحيوانات المفترسة، فإن رفيقي ربما لن يصل غداً بسبب شدة المرض أو لخوفه من السفر وحيداً أو لطبيعة الكسل التي فيه.

بقيت ساعة في حيرتي أدخن غليوني وأقلّب الأمر من جميع وجوهه. وذلك من أسوأ الأمور عليّ. وأخيراً قررت التحرك والوصول إلى القرية التي قال رفيقي إنه سيلحق بي إليها، حيث لن أكون وحيداً خائفاً كما أنا الآن. فتحركت وكان الطريق صخرياً وعراً، كنت أحسّ أنّ صخوره تنزلق تحت قدمي فأكاد أسقط بين الحين والآخر، إضافة إلى الألم الذي كان يعتصر قلبي لهذا الخلاف الذي وقع بيني وبين رفيقي. لذا فقد استولى عليّ تعب شديد، ودبّ الألم في ساقيّ إلى الدرجة التي لم يعد باستطاعتي تكملة السير على ذلك الطريق الصخري. ففضلت الخروج عن الطريق الرئيس هذا، وبدأت السير على طريق في الوادي الذي كنت لا أكاد أرى معالمه إلّا بصعوبة في ذلك الليل البهيم وبين أشجار الغابة. كانت أغلب النقاط على ذلك الطريق موحلة بسبب المطر. ولغفلتي عن ذلك ولكون الأرض منحدرة، فقد كنت أنزلق فلا أجد مفراً من أن أمد يديَّ كي أسند جسمي عليهما. وقد أدى ذلك إلى أن تصاب يداي بجروح سبّبت لي ألماً شديداً جراء اعتمادي عليهما حين سقوطي على الحصى الذي كان مدبباً كمسامير الحديد. لذا فقد تخلّيت عن الاعتماد عليهما، وتركت لجسمي، حينما يسقط، أن يتدهور حتى يستقر في إحدى الحفر، حيث أنهض بعدها غير آبه بالجروح والدماء التي ملأت

رأسي ويديّ وقدميّ وساقيّ وكنت في كل ذلك السقوط والنهوض والانحدار والصعود والانزلاق والتدهور مرات عديدة في الحفر، أقرأ هذا البيت من الشعر:

إنّ هـذا طـريـق الـعـشـق الـصـعـب قصة دامية والطريق دامٍ وأنت بلا ملجأ

وأخيراً وبعد ذلك العناء وصلت إلى قرية ميان طاق وحين لم يبق لأذان الصبح إلّا ساعة واحدة وضعت قدمي في زقاق من أزقتها، إلّا أنني لم أجد فيها أحداً فقد كان أهلها نائمين. ولم يكن هناك إلّا الكلاب التي قدّرت من خلال سماعي لنباحها أنها كانت مجتمعة في مكان واحد، وأنها حوالي العشرين كلباً، إلّا أن نباحها الجماعي وتردد صداه بين الجبال يظهرها وكأنها كانت مائتي كلب. وواضح أنها لو رأت شخصاً غريباً في هذا الليل داخل أحد الأزقة فإنها ستقطّعه إرباً إرباً. كنت أعدو للخروج من القرية قبل أن تكتشفني الكلاب، وأخيراً وصلت إلى أحد الطرق الذي ربما لم يكن هو الطريق المتجه إلى كربلاء ولعله طريق قرية أو أي مكان آخر. كنت أتوقف عن العدو أحياناً متلفتاً حولي لعلّي أجد من أسأله عن الطريق.

اشتد نباح الكلاب مرة أخرى فضاعفت من سرعة عدوي إذ لو صادفتني لكان في ذلك حتفي. وبينما كنت في تلك التصورات اكتشفت أنني قد أضعت الطريق. فبدأت أمشي بهدوء حتى اهتديت إليه، وترحّمت آلاف المرات على تلك الغابة المرعبة معقباً ذلك بإرسال اللعنات على هذه القرية وقد بلغت السكين العظم. تلفتّ فرأيت خلفي فارسين، ثم رأيتهما تجاوزاني فرأيت فيهما ـ وأنا غارق في وادي الحيرة وبلوغ الروح الحلقوم ـ مدداً غيبياً، وبادرت إلى سؤالهما: هل أنتما ذاهبان إلى كربلاء؟

أجابا: نعم.

سررت كثيراً بجوابهما. وعلى الرغم من أنني لم أكن قادراً على السيطرة على قدمي لشدة التعب فقد ركضت حوالي مائة قدم خارج القرية خلف الشبحين الأسودين للفارسين المذكورين حتى وصلت إلى الطريق الرئيس البعيد عن القرية ونجوت من هجمات الكلاب. إذ إنّ الكلاب تزداد شراسة حين تكون بجوار أصحابها، فعملها سيكون آنذاك رياءً وتملقاً لهم.

حين نجوت من المحذورين جلست أدخن غليوني وأنا أفكر برفيقي وبنفسي: هل أذهب إلى المحطة القادمة التي يلقي فيها الزوار رحالهم، والتي لم يبق من

المسافة إليها إلّا فرسخ ونصف. فإذا جاء رفيقي غداً إلى هنا ولم يجدني فسوف يلحق بي إلى هناك، إذ إن البقاء في هذا القفر لا فائدة فيه؟ أم أبقى في مكاني هذا كما اتّفق رفيقي معي بحسب الوصية التي أرسلها لي، ولعله يأتي غداً ـ رغم ما يعانيه من الحمى ـ على أمل أن يجدني هنا. فإن لم يجدني سيستولي عليه اليأس ويبقى هنا حيث لا توجد لديه أية قطعة نقدية، إضافة إلى كونه غريباً لا يعرف أحداً. وهذا هو الظلم الفادح الذي سأنزله به بعد أن مددت له يد البيعة والصداقة، وسواء أردتُ أم لم أرد فقد قبلتُ صداقته. ولن يوافق ضميري على التخلّي عنه وهو بهذه الحال من الغربة والبؤس ومغادرة المكان، خاصة أنني قد تلقيت وصيته التي كانت على شكل استنصار لي. فلو تركته فسأكون عديم الرحمة والإنصاف. وهذا مما لا يجوز حتى لو كان الرفيق كافراً.

عاد بي التفكير مرة أخرى إلى نفسي فرأيت أن بقائي هنا هكذا دون استراحة أو شاي هو صعب أيضاً. لذا فمن الممكن أن أذهب إلى محطة القوافل القادمة وأستريح حتى الظهر، فربّما حصلت على خبر من رفيقي وإلّا عدت من هناك إلى هذا المكان، وسوف لن يكلفني ذلك إلّا ثلاثة أو أربعة فراسخ في الذهاب والإياب. وأمثال هذه المشقة في طريق زيارة الإمام الحسين بن علي عليه السلام نعمة كبيرة ينبغي شكرها. بل إنني حتى وصولي إلى هذه المنطقة لم أكن شاهدت شيئاً من العناء حيث قضيتها بالحبور والراحة، ولذا كنت في يأس من قبولي في الديوان الحسيني، والحمد لله الذي هيأ لي في هذا المكان سبباً للقبول. فلأنهض إذاً ولأذهب إلى المحطة القادمة، ولأنظر ماذا كتبت لي المقادير، فإما أن يلحق بي رفيقي أو أعود ظهراً إلى مكاني هذا فأصطحبه ونصل مع الغروب إلى محطة القوافل حتى لو استأجرنا دواباً.

ملأت الغليون ثلاث أو أربع مرات بينما كنت سابحاً في تلك الأفكار، ولمّا زال عنّي التعب قليلاً، نهضت وطويت عباءتي على رقبتي وكتفي وأمسكت بعصاي ـ وكانت من شجر اللوز المر ـ بيدي ومشيت. ومن بعيد تراءى لي عمود دخان فتصورته صادراً عن مقهى، فلما بلغته رأيت شجرة كبيرة من أشجار الغابة وقد اشتعلت النيران فيها فأضاءت ما مساحته عشرون قدماً من كل طرف من

أطرافها. عجبت كثيراً إذ لم يكن هناك أحد قريب منها فكيف اشتعلت فيها النيران؟ تطلعت نحو السماء. يا إلهي لم يبق إلا: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾(١) و﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾(٢).

حورية في الصحراء:

غادرت المكان وقد طلع الفجر، وكنت أنوي الوصول إلى مقهى أجد فيه ماء لوضوئي إذ لم يكن يوجد ماء في ذلك القفر. كانت أنوار الفجر تزداد وضوحاً عندما رأيت فجأة شابين اثنين يمشيان، وكانت تسير خلفهما فتاة في ربيعها الثاني عشر أو ربما الرابع عشر، فكأن القمر المنير أو شمس نيسان قد طلعت عليّ. مشيت وراء القوم تجذبني قوة غريبة. كنت أنا تعباً بينما ظهر أنّهم قد انطلقوا لتوّهم. ومع ذلك حثثت السير تشدّني قوة الروح التي تريد السير خلف تلك التي كانت كنجمة أول الليل. ولبدني علاقة حميمة بالروح منذ القدم. كانت روحي هي التي تشدّني وتتحرك. إلّا أنني لم أكد أسير إلّا قليلاً حتى تغلبت عليّ الطبيعة الظلمانية، فاستولى الضعف عليّ. كنت كالشجرة المعمرة المنجذبة لغصن الفتاة اليافع والفاكهة الناضجة. انطلقت هي إلى الأمام، بينما بقيت أنا في الخلف. وكم توسّلت الروح إلى القدمين كي تتحركا فلم تطيعاها، واستولى على ركبتيّ التعب المميت، وحصل لي اليأس من الوجود، وأيقنت بالفراق. فحدثت نفسي: لم أكن أتصور ما قاله نظامي عن شيرين(٣). أما الآن فقد رأيته رأي العين. لم يكن نظامي مبالغاً فيما قال بل قال أقل مما ينبغي، فأي تكوين هذا الذي بناه الله خالق العجائب من الطين المظلم؟ بديهي أن مظاهر الحسن هذه ليست من الصلصال، بل من شعاع الجمال.

تجلّى بوجهه الذي رآه ملاك العشق الذي لم يعشق فأخذته صعقة الغيرة وأحرق العالَم

وصلت إلى المقهى على بعد نصف فرسخ. بينما كانت الشمس تقترب من

---

(١) سورة طه، الآية ١٢.

(٢) سورة طه، الآية ١٧.

(٣) نظامي هو جمال الدين الياس بن يوسف أحد كبار شعراء إيران المتوفى حوالي ٦٠٢هـ أشهر دواوينه خمسة نظامي المشتمل على خمسة كتب، دوّن في أحدها قصة العشق الشهيرة (خسرو وشيرين).

الشروق. فلم أجد مجالاً للوضوء فتيممت على عجل ثم صلّيت. وما أن وصلت إلى آخر الصلاة حتى رأيت الفتاة جالسة أمامي أي في طرف القبلة، فقلت: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وبعد الصلاة سجدت سجدة الشكر لله الذي جعلني غافلاً في أول الصلاة عن هذه الحورية السّماوية التي أبدعها، وإلّا لم يكن معلوماً أن المخاطب بخطاب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هو الله خالق هذه الفاتنة. وكررت شكري لله أنني لم أصبح كافراً ومُشركاً في الصلاة.

وعلى الرغم من أنني لم أكن أشتهي الشاي إلّا أنني ارتأيت أن أشرب قدحاً منه وأنا جالس أمامها تقرباً إليها وتزوّداً مما عليها.

ذهبت إلى المقهى فرأيت القهواتي شيخاً ذا لحية بيضاء، لم يغسل وجهه منذ ولادته، ولا عرفت يداه ورجلاه الماء إطلاقاً، كثّ الشاربين وقد غطيا فمه بشعرهما الذي كان لونه مزيجاً بين البياض والصفرة لمرور دخان الغليون سنين طويلة من منخريه عليهما وربما بسبب الأخلاط الخارجة منهما. حتى أنني لم أكن رأيتُ إنساناً على تلك الدرجة من القذارة. ونظرت إلى أدواته التي يعدّ بها الشاي: إبريق الشاي الغاطس في الرماد أسود من الدخان، وليس هنالك ما يدل على نوعه إلّا بياض في مقبضه يثبت أنه في الأصل من الخزف الصيني، وقدحين أو ثلاثة مع أوانيها الصغيرة وُضعت على الأرض تبدو وكأنها طُليت بلعاب الدبابير.

طلبت منه أن يأتيني بقدح شاي إلّا أنه لم يُعرني التفاتاً وظلّ منشغلاً بتدخين الأفيون. خيّل إليّ أنه إما أن يكون أصمّ أو أنه اعتاد الدلال قبل تقديم شايه. وإن كنت قد ندمت فيما بعد على طلبي ذلك الذي لم يكن في الحقيقة إلّا سمّاً قاتلاً.

التفت إلى الناحية التي كانت فيها الفتاة وألقيت نظرة واحدة عليها وأنا أقول في سرّي: إنها تستحق أن يحدث لي لأجلها ما يحدث، ثم رفعت صوتي بطلب الشاي. صبّ لي من ذلك الإبريق الشاي، بل الدواء المُقيّىء في القدح الذي وصفته، وقدّمه لي مع قطع السكر القذرة. اتكأت بظهري على حائط المقهى متجهاً بوجهي نحو القبلة الحقيقية، كي أتطلع مع كل جرعة أرتشفها منه إلى ذلك الوجه الجميل. إلّا أن الجرعة لم تنزل من حلقي إلى جوفي، ولو نزلت لكانت أكثر إثارة للغثيان من المُقيّىء. وإنما كان شربي لذلك السمّ لأجل ذلك العسل.

ومع كل العناء الذي تحملته لم تنزل تلك الجرعة إلى جوفي. كالرز المحمص في قعر القدر، يتحول بعد العناء والمضغ إلى رز مرة ثانية.

نهضت والحسرة تملأ قلبي متجهاً نحو الخان، بينما مرّ على شروق الشمس نصف ساعة. دخلت الخان فشاهدت السيد الخطيب قد وضع متاعه على الأرض واتكأ عليه، ولم يكلف نفسه حتى أن يضع بساطاً تحته. سألته إن كان يعرف خبراً عن الميرزا حسن فقال: ليس لدي شيء.

قلت له: كان ينبغي عليك أن تعدّ الشاي على الأقل.

قال: لا علم لي بموضع الماء كي آتي به، ولا أعرف كيف أشعل النار.

قلت: يا تنبل بغداد! إن ماء النهر الوفير على بعد مائتي قدم، وهو يتلألأ تحت أشعة الشمس. أما كان بإمكانك أن تكلف المكاري بجلب الماء؟ إنّ هذا يعني، أنني حين لا أكون معك فإنّ حياتك في هذا الطريق ستنقضي على أسوأ الوجوه.

قال: ما قلته صحيح. إلّا أنّ الله مسبب الأسباب، والناظر في أمور العباد. فلو لم تكن أنت لأوجد لي سبباً آخر.

التقطت الجرّة وذهبت إلى ضفة النهر، فرأيت هناك امرأتين سوداوين تجلسان على الضفة الأخرى للنهر، وكانت جرتاهما مليئتين بالماء. وما أن وقع بصرهما عليّ ـ ودون أن تخجلا من عمامتي السوداء التي تدل على السيادة ـ أشارتا إليّ إن كانت لديّ رغبة في....

ملأني الحياء والخوف من الله، فعُدت مسرعاً والجرة خالية بيدي بعد أن عجبت من انعدام حياء الغجر الذين لم أكن قد سمعت بهم حتى ذلك الحين.

مكثت في الخان قليلاً ثم عُدت إلى النهر، فوجدت الملعونتين قد حملتا جرتيهما وغادرتا. فملأت جرتي وجئت فأشعلت السماور بعد أن ملأته بالماء. ثم مددت البساط ورتبت المتاع وجمعت شيئاً من الروث كان متناثراً قريباً منا وأشعلت فيه النار على بعد عشرة أقدام.

سألني السيد: ما الذي تفعل؟

قلت: ما عليك إلّا أن تراقب السماور، فإذا غلى الماء فأعدّ الشاي ولا تجادلني، فكل ما أعمله موافق للصلاح والحكمة.

أخرجت القدر ووضعت فيه الحجلتين اللتين نظفتهما في كرند وأضفت إليه الماء والتوابل والملح ووضعته على النار التي كنت قد أعددتها. ثم أخذت أقداح

الشاي وغسلتها على ضفة النهر، ثم أتيت بها وجلست وملأت اثنين منها بالشاي قدّمت أحدهما للسيد، وبينما كنت أحتسي شايي قلت: ليت تلك الفتاة كانت أمامي.

قال السيد: أي فتاة؟

فقصصت عليه أحسن القصص.

قال إن هذا الكلام وهذه التصورات لا تليق بما نحن فيه من نية الزيارة.

قلت: يا سلام! ألمثلي تقول هذا الكلام؟ آهٍ من العناء الذي تحملته الليلة الماضية لأجل الميرزا حسن، وأنا على يقين أن تلك الحورية قد ظهرت لي لتنفخ فيّ شيئاً من الحياة الجديدة كي أهيئ لك وسائل الأكل والشرب. ولو لم تأتِ تلك العيسوية الصورة لم أكن أعرف إن كنت سأصل إلى هنا، وإذا وصلت فسأكون جثة هامدة.

قال: ما معنى الحور العين؟ وكيف أصبح الميرزا حسن؟ وفي هذه الأثناء نظرت إلى الطريق علّي أجد رفيقي فلمحت من بعيد أشباح عدة أفراد يمشون على الطريق. ألقيت قدح الشاي ونهضت لاستقبال القادمين. وما أن ابتعدت مائتي قدم عن الخان حتى وجدته من بينهم وهو يتحدث ويضحك، سألته عن صحته.

فقال: إنها حسنة.

قلت له: أين ارتفعت درجة حرارتك؟

قال: لم أعانِ من شيء.

قلت: إذاً لماذا تأخرت عنا؟

قال: جلست للثرثرة مع مجموعة من الأشخاص، قمنا بعدها وكنّا مرتاحين طول الطريق، ولم تكن بي حمى كما لم أرَ أي مكروه.

قلت: يا أيها الأصفهاني السيّئ:

إن لسعة العقرب ليست لحقدٍ بل لما تقتضيه طبيعتها

قال: وكيف؟

فقصصت عليه كل ما مرّ بي الليلة الماضية، وكيف أنّ الشيطان اللعين قد أوقعني في الحفر، والأذى الذي لحق بي. ولو رأيت وجهه النحس لكنت فعلت به ما فعلت.

جلسنا بعد ذلك مجتمعين نحتسي الشاي، وأنا أقول: إنّ هذا أول شاي أشربه بعد شربي لذلك السمّ القاتل.

قال السيد الخطيب: وما أمر الحور العين؟

قلت: لقد نسيتها وإنما كانت وسيلة لتسليتي حين لم يكن معي الميرزا حسن. والآن إقرأ لنا شيئاً من المثنوي. فزمان القبض قد ولى، وجاء وقت الانبساط. (الحمد لله الذي يرتبنا بالبلاء والولاء والخصب والرخاء. والقبض والانبساط، والهم والنشاط. والأخذ والصفح، والمدح والقدح. أرحني يا بلال بتذكار الوصال، إلى الحسن القائم بالاستقلال. فإن القائم بالمواد مرقاة إلى ذات الجلال والجمال ونحن لا نحتاج إلى المرقاة).

ميرزا حسن! إنّ الحجلتين الآن قد نضجتا، لنأكل خبزنا منقوعاً في مائهما وقت الغداء، أما لحمهما فسنأكله عند العشاء مع الرز. هذا هو كل مال دنياك. وحين نكبر وتصبح رجلاً إن شاء الله، فستصل إلى الأشياء التي لا عين رأتها ولا أذن سمعتها، ولا خطرت على قلب بشر. أتظن السير في هذا الطريق قليل الثمن أو عديمه؟ بل له ثمن وأي ثمن.

قال السيد الخطيب: لماذا لا تدعني أقرأ **المثنوي**؟

قلت: أرجو المعذرة، فالروح مفعمة بالأنوار والنشاط المنبعث من الباطن المواج المتلاطم. فأنا راضٍ جداً وشاكر لربي. وأريد منه بحقه هو الذي حقيقته ملكه وخاصة به. وأصبح الآخرون به هم، أن يرضى عنّي أنا اللاشيء الذي أصبحت بفضله كل شيء: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. اقرأ يا سيدي رحمك الله ورحم الملّا الرومي.

قال السيد: وإنني أرى نفسي أكثر تنوراً من علماء العصر الحاضر الذين يعتبرون الروميّ كافراً، وكتابه من كتب الضلال ويتجنّبون كل من يرونه بيده. وأنا أعتبر كتابه جيداً ولا أعتبره كافراً.

---

(١) سورة المائدة، الآية ١١٩.

جدل حول الرومي:

انتقلنا بعد هذا إلى النقاش في مذهب جلال الدين الرومي. قال السيد الخطيب إنه سنّي.

قلت: كيف عرفت أن هذا الشخص الذي عاش في القرون السابقة، ومات، وكان بالتأكيد مسلماً عارفاً، أنه سنّي؟

قال: أولاً: إنّ آباءه وأجداده كانوا من السنّة.

قلت: ليس بالضرورة أن يكون الابن سنّياً لمجرد كون آبائه وأجداده من السنّة.

قال: ثانياً: كان يشغل منصب قاضي قضاة أهل السنّة، وكان متديِّناً بمذهبهم عاملاً به.

قلت: هذا ليس دليلاً أيضاًعلى تديّنه بمذهبهم، فما أكثر رؤسائهم الذين كانوا يبطنون التشيع. ويتظاهرون بمذهبهم تقيةً، إما لأجل الدنيا، أو لمصالح يرونها مثل علي بن يقطين الذي كان وزيراً لهارون الرشيد، وأراد الاستقالة عدة مرات إلّا أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام منعه من ذلك.

قال: ثالثاً: امتدح الخلفاء وبجّلهم في مواضع كثيرة من **المثنوي** دون أن يكون هناك داعٍ لذلك أو موضع تقية. حيث إنه اعتزل آنذاك الرئاسة والناس وآثر الوحدة.

قلت: صلاح التقية غير منحصر بحفظ الروح والمال والعرض، بل إنه مدح أولئك لينتشر كتابه بين السنّة والشيعة، إلى يوم القيامة ليهتدي الناس ـ إلّا القلائل منهم ـ من شرح وبسط المعارف الحقة والأخلاق الكريمة. وهو أسلوب لطيف لدخول من هم خارج الولاية إلى حصنها الكلي الإلهي العلوي الحصين.

قال: على فرض تسليمي لأجوبتك، فإنها لا تثبت تشيعه. وفي النتيجة هو مجهول الحال، وينبغي أن نقول عليه ما عليه.

قلت: لقد أردت الطعن بأدلتك، وإن أردت دليلاً على تشيّعه فديوان المثنوي ملآن بالأدلة، ويحضرني الآن قوله في بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غدير خم: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».

مَن المولى الذي يعتقك ويفك قيد العبودية عن رجليك؟

وهناك مواضع أخرى كثيرة لا تحضرني. والدليل الرئيس هو أن من لديه كل

هذا الفهم وانشراح الصدر في المعارف والأخلاق والأعمال، بل الإحاطة بكل الكائنات، لا يمكن أن يخفى عليه الحق والباطل في هذه المسألة، وهو جوّاب الآفاق ومفسر الكائنات الذي قال فيه الشاعر:

لا أقول إن ذا المقام الشامخ هذا نبيّ، إلاّ أن لديه كتابا[١]

وقد قال النبي ﷺ: «اذكروا موتاكم بالخير».

إذاً رحمه الله حيث خلّف فينا هذا الكتاب. وإذا كان الشيخ محمد الغزالي قد فسّر الإنسان والملاّ محمد النيسابوري قد فسر الأمر الإلهي، فإن الملّا محمد الرومي قد فسّر الكائنات من الألف إلى الياء ومن الصغير إلى الكبير. وقدر كلٍّ منهم بمقدار كتابه. (والكتابة بالقلم. والقلم أحد اللسانين. ولم يتفق شيء حتى وصلنا القصر وهو في الحدّ الغربي من وطننا المحبوب المألوف. والغد أول يوم الفراق ويوم الغربة ويوم الذلة ويوم الوحشة والمملكة العثمانية والدولة الشعبانية).

من المثنوي إلى البطيخ:

اشترينا رقيّة [بطيخة] واحدة كبيرة بعد أن أشركنا ثلاثة آخرين في شرائها معنا. حملها اثنان منهم إلى مقرّ إقامتنا. جلس الميرزا أمامي ووضع الرقيّة في الوسط وخبّأ رأسه خلفها قائلاً: هل تراني؟ فكنت أقول: لا. نهض وهو يقول إنني لم أرَ شيئاً كهذه. وتناولت السكين وقطعتها من دائرتها العظيمة التي كانت بمنزلة معدل النهار وفلك الأفلاك، وقسّمتها من مركزها الحقيقي إلى قسمين متساويين فتحولت إلى حوضين مستديرين: وضعت أحدهما أمام أولئك الثلاثة، والآخر بيننا، وكان ريّانَ أحمر. وتناول كل منا صحن شاي وانشغل بالحفر في إحدى زواياها. وقد أكلنا إلى الحدّ الذي خرج من أنوفنا. ومع ذلك لم تصطدم نهايات مساحينا ببعضها.

وكان الميرزا حسن يكرر: أنا لم أر شيئاً كهذا.

---

(١) بيت الشعر هذا لبهاء الدين العاملي بحق المولوي وديوانه الشهير المثنوي.

قلت: يا ميرزا حسن إن رقّيّة الجنة التي لم ترها عين الدهر ربما كانت بحجم فلك الأفلاك.

قال: وما نفعها لبطني ذات الحجم الصغير؟

قلت: لو أن أحداً في هذه الدنيا أعطاك ألف رقية بهذا الحجم وحملها إلى منزلك، فهل سترفضها؟

قال: ولماذا أرفضها؟

قلت: وما نفعها لبطنك الصغيرة؟

قال: لا أدري ولكنها الرغبة والميل النفساني.

قلت: إن الله يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1]. فهناك كل ما تطلبه وتشتهيه، وليس هناك من يفقد حبيبه.



(١) سورة الزخرف، الآية ٧١.

الفصل الرابع
السفر إلى العراق والمكوث فيه

تحركنا من هناك، فوصلنا مدينة خانقين فاشتريت لحماً لطعام العشاء، وقلت لرفيقيّ: إن كنتما تشتهيان كباباً في العشاء فسأهيئه لكما.

قالا: كما تحب.

قبيل الغروب أشعلت النار. وكان السيد الخطيب يكرر إصدار أوامره علينا تحكماً منه فينا. فاحتملناه مرةً ومرتين إلّا أن صبرنا عيل في النهاية، فقلنا: يا سيدنا! أما تزال رياح العجرفة والتفرعن تملأ أنفك؟ إننا لم ولن نكون خدّاماً لأحد. انهض أنت واستخدم يديك ورجليك غير المشلولة واعمل.

ثم خرجت من الغرفة للنزهة ولم أعد إلّا في الغروب حيث أدّيت الصلاة.

أصيب الميرزا حسن بالحمى. فلما وضعت قصعة الكباب أمامه قال: لن آكل فأنا محموم.

وقال السيد أيضاً: أنا شبعان وأخشى أن أُصاب بالحمى.

فأكلتُ لقمة أو اثنتين، وزالت شهيتي للطعام. وضعت المتبقي من الطعام في سلّة وغطيته.

عند السَحَر تحركنا. فوصلنا قزل رباط[١] وزالت هناك حمى الميرزا حسن. ومنها سرنا فبلغنا شهربان[٢] ومن هناك إلى بعقوبة. ولكنّ الحمى ما لبثت أن

---

(١) هي مدينة السعدية الحالية من توابع محافظة ديالى (بعقوبة) في العراق.

(٢) ناحية قرب مدينة الخالص.

عادت وبشدة إلى الميرزا حسن، وعندما تحرك الزوار في السَّحَر لم تكن به طاقة للحركة، فانهار في طاق الخان، وارتفع أنينه. وربما كان كاذباً يتخذ من الحمى ذريعة لتسويغ كثرة الكسل. ويمكن إيجاد الحمى كذباً بحبس الأنفاس وما شابه.

ومهما يكن ولأنّ المتاع كان بعهدتنا فقد نشطنا للبحث عن دوابّ نحمله عليها، فوصلنا إلى خان خورشيد الذي يبعد عنا مسافة أربعة فراسخ، إضافة إلى أربعة فراسخ أخرى من هناك حتى مدينة الكاظمية.

بعد ساعة من طلوع الشمس وحيث خلا الخان من الزوار وقفت خارجاً أمام المقهى الذي غالباً ما كان المكارون يتواجدون فيه، أبحث عما أحمل عليه المتاع، بينما كنت أتفقد أمر المريض بين الحين والآخر.

قال أحد الزوار الأتراك الذي كان يجلس على بوابة المقهى: إن لدي محملاً خشبياً ذا عِدْلين لا أحتاجه يمكنك أن تستفيد منه، فأنا قد استأجرت عربة تقلّني إلى الكاظمية. إن رغبت سأؤجرك أحد العِدلين بقرانين اثنين.

قلت: أن رفيقي مريض وليس لديه طاقة في السير على قدميه، وهو فقير لا يملك النقود التي تطلبها. أما أنا فسأعطيك قراناً واحداً، على أن تحتسب الباقي خالصاً لوجه الله.

قال الرجل: كنت أمزح معك، فأنا لن آخذ شيئاً من الشيخ.

قلت: رعاك الله. فلتوصِ خاصتك بنا، بينما اذهب أنا لإحضار الشيخ وأودعه لديهم. وكان ذلك التركي يريد أن يحمل عياله وأخاه وخادمه بالحِدْج[1] إلى الكاظمية.

نهض التركي وقمت أنا باقتياد حضرة الشيخ إلى حيث منزل ذلك التركي، حيث فرشت المحمل الخشبي له ببطانية كانت لدينا، وطويت عباءتي أربع طيات ووضعتها أيضاً تحت الميرزا الكسول المريض الأكول كي يكون فراشه ناعماً. ثم إن ذلك الرجل أوصى أخاه قائلاً: أريد منكم الاعتناء جيداً بهذا الشيخ حتى توصلوه إلى الكاظمية.

---

(١) الحدّج والحداجة وجمعها حدائج: ما تركب فيه النساء على البعير كالهودج.

قلت له: هل سمعت يا ميرزا حسن؟ سوف تركب حتى الكاظمية التي هي على بعد مرحلتين، وليس فقط حتى يرت خان، كل ذلك سيكون مجّانياً. وأرى أنّ الحمى ستفارقك لفرط السرور.

قال: لا تقل شيئاً، بل ربما زالت عنّي فعلاً.

قلت: بما أن السيد غادرنا منذ مدة، فسأتركك الآن كي أرتب المتاع وأعدّ الشاي ـ إذ إن ذلك المسكين أكثر عجزاً منك ـ إلى أن تصلَ حضرتك إلى الخان وستفارقك الحمى حتماً.

قال: اذهب يا رفيقي إلى السيد، وكن مطمئن البال من جانبي، يا لسعادتي! من المؤكد أنّ الحمى قد فارقتني، إلّا أنني أخشى أن أموت فجأة.

ودّعته وخرجت من الخان سعيداً مبتهجاً غير قلق على أي شيء. وقد أصبحت أخف حملاً بعد أن فرشت عباءتي تحته. كان الجوّ معتدلاً فاجتزت جسر المدينة وأنا أدندن، وغذوتُ السير بحيث وصلت برت خان أو خان خورشيد في أقل من أربع ساعات. فوجدت السيد الخطيب جالساً في طاق الخان بهيئة الغرباء، وقد وضع يديه تحت إبطيه. ففرشت الطاق وجئت بالماء وأعددت الشاي. وحينها وصل الميرزا حسن يسبقه صوت الجرس المعلق في عنق البغل. جئت به ومتاعه إلى منزلنا وأحنيت رأسي للأخ التركي تمهيداً لركوب الميرزا غداً.

قدمت الشاي للميرزا الذي جلس يحتسيه بهيئة إقطاعيي منطقة زوارم[١]. قلت: تبدو اليوم أفضل من باقي الأيام.

قال: نعم، كالفرق بين السماء والأرض. فأنت لا تعلم أية متعة يبعثها ركوب المحمل، وكل ما أستطيع قوله إن الأمر فيه لذّة كبيرة، وهو من مجموعة التسعة التي لا أستطيع بيانها أي أنها لا توصف (يدرك ولا يوصف) نظير الملاحة والفصاحة والغنج والدلال. ما أروع ركوب المحمل! إلّا أنني سمعت خادم الرجل التركي الذي كان راكباً أيضاً يقول لزملائه مزمجراً بالتركية: إن الشيخ في صحة جيدة وهو متمارض. وينبغي أن لا يركب غداً.

---

(١) قرية من توابع مدينة شيروان بإيران.

وعلى هذا فالخادم سيمتطي غداً بغلي وأخشى أن ينفّذ ما دار بينهم من حديث هذا اليوم. ينبغي عليك أن تعمل شيئاً يضمن لي الركوب غداً.

قلت: ستذهب غداً سيراً على الأقدام إن شاء الله.

نهضت في الصباح وبعد تناول الشاي بينما كان الزوار يحزمون أمتعتهم. كان الميرزا حسن يتفقد المحمل بين حين وآخر. ويقول لي: إنهم ما يزالون جالسين هادئي البال. وحين غادر الزوار الخان جلست جانباً أدخن الغليون وأنتظر أن يحزم الشيخ أمره. وفجأة جاءني وهو يلهث قائلاً: أتجلس هادئاً والزوار يحزمون أمتعتهم، وقد شغل خادمهم المحمل بعد أن وضع فيه فراشاً ووسادة؟ لقد اتخذوا قرارهم بحملي على البغل فقط. انهض وافعل شيئاً لأركب في المحمل.

قلت: كيف أجرؤ على التحكم بهؤلاء وقد زالت الحمى عنك بحمد الله. ومهما يكن فالركوب خير من السير على الأقدام. ترى ماذا سيكون حالك لو منعوك من ركوب البغل أيضاً. اشكر الله واذهب وكن أمام أنظارهم كي يركّبوك على البغل. فأنا لم أسلّم نفسي لذل السؤال حتى الآن. فلا تخجلني.

قال: أتضحّي براحتي لخمس ساعات لأجل خمس دقائق من الخجل؟ حسناً سنذهب معاً إليهم وهناك أحني قامتي وقل لهم أنتَ: إن رفيقي يشكو من المغص ولا يستطيع أن يستقرّ على البغل، وينبغي أن يركب في المحمل. وبما أن لديك عذراً فسيكون خجلك أقل.

قلت: أي أشعب طماع أنت؟

حملت البطانية والعباءة وذهبت إلى مقر إقامة الترك، فوجدت الخادم قد احتلّ المحمل. فقلت للأخ التركي إنّ صاحبي هذا الذي حلّ كالبلاء المفاجىء على رأسي أصيب بمغص شديد، ولا يستطيع أن يجلس على البغل، فهلاّ تفضلت وجعلته يركب في المحمل. قلت ذلك وتصبّبت عرقاً من الخجل.

قال التركي للخادم شيئاً بالتركية، فتح هذا فمه بالسباب والشتائم على كل المعمّمين، وقذف بكل ما كان في المحمل كل قطعة في جانب. كنت أقف خجلاً جداً ممسكاً بالبطانية والعباءة أنتظر إخلاء المحمل. بينما كان الميرزا حسن يقف محنيّ الظهر ممسكاً خاصرته بيده وهو يئنُّ من ألم المغص!.

وبمجرد أن خلا المحمل من المتاع فرشت البطانية والعباءة فيه للميرزا صاحب المغص المزمن، ثم همست في أذنه: قتلك الله بهذا المغص الكاذب لأنك قتلتني خجلاً. حقاً إنك روحاني، بل أنت عصارة الروحاني.

وخرجت مسرعاً من الخان، فوصلت إلى قافلتي، وسرنا حتى دخلنا مدينة الكاظمية. أقمنا في حجرة بالخان، وبعد تناول الغداء وإعداد الشاي جاء الميرزا حسن بروح منقبضة وفم مليء بالحسرات. قلت كيف حالك؟

قال: بمجرد ذهابك منعوني من ركوب المحمل، وأركبوني على البغل الحرون. ولشدة وعورة الطريق فقد تحوّل مغصي الكاذب إلى مغص حقيقي.

زيارة الإمامين الكاظم والجواد عليهما السلام:

قضينا ثلاثة أيام في زيارة الكاظمين عليهما السلام صباح مساء. عرضنا خلالها حاجاتنا هناك في تلك السّدة السنية، فشملتنا الفيوضات الربانية والمراحم السّبحانية. وقد قرر الزوار والسيد الخطيب بعد ذلك أن يتشرفوا بزيارة سامراء ولم نستطع أنا والميرزا حسن مرافقتهم لأنّ ما لدينا من النقود قارب على النفاد.

قررنا نحن الإثنين الذهاب إلى كربلاء. إلّا أن حمى شديدة أصابتني فتناولت العشاء، وكالعادة التحفت بعباءتي ونمت. فبدأ الألم ينخر في عظامي بشدة. وانشغلت في عالم الفكر والخيال بالمناجاة القلبية والمحادثة الروحية مع موسى ابن جعفر عليه السلام قائلاً: لقد قطعت الفيافي والقفار تاركاً حميتي التي كنت أستعين بها في حفظ صحتي، فلم يصبني أي بلاء أو مرض. والآن وقد وصلت تواً إلى تقبيل قدميك والوقوف تحت رايتك ودخلت حصن ديارك الحصين واسترحت من العناء وأمنت من الخوف والرعب في ديار الغربة هذه، مع ملازمتي للفقر والبؤس والسّير على الأقدام غداً. فعلاوة على أنك لم تخفف شيئاً من أعباء قلبي يأتي حِمل هذا الألم ليُضاف إلى أعبائي؟

أنت يا من لم تحمل شيئاً من أعبائي   لماذا تضيف حملاً عليها؟

فديتك. لقد أحسنت ضيافتك لنا. ولو لم تكن لي نية قطع ستة فراسخ من السير على الأقدام غداً، لما عبئت بشيء من الألم والحمى، ولما تفوّهت بكلمة

اعتراض، وأنت تعلم مدى قدرتي على التحمل والصبر في الشدائد. ولكن ما الحيلة في الفراسخ الستة التي ينبغي عليَّ أن أمشيها غداً إضافة إلى تمريضي الميرزا حسن. فكر أنت، في أي ظروف أصابتني هذه الحمى؟

وبينما كنت غارقاً في أفكاري تصبّب العرق مني، فارتحت لذلك، واستولى النوم علي.

التوجه إلى كربلاء:

نهضنا في الصباح. وبعد الزيارة شربنا الشاي وودّعنا السيد الخطيب الذي غادر إلى سامراء. بينما اتجهنا نحن إلى كربلاء. كنت لخفة روحي ونشاطي أحس كأنني لم أكن مُصاباً بالحمّى. حملنا متاعنا القليل وعباءتينا على أكتافنا وسرنا. وبعد أن قطعنا خمسة فراسخ، ولم يبق إلى المحمودية إلّا فرسخ واحد انتابتني الحمى بصورة شديدة آلمت عظامي وكل جسمي إلى الدرجة التي كنت أرى فيها كل خطوة أخطوها فرسخاً. قلت لصاحبي: يبدو أن حدود حرم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تنتهي هنا، والآن وقد أصبحنا خارجها لازمتني الحمىّ بوقاحة. وعلى هذا الحال من العناء قطعنا الفرسخ المتبقي أيضاً، فوصلنا إلى خان المحمودية فدخلناه وأعددنا الشاي وشربناه.

قلت للميرزا حسن: انهض وائتنا بشيء من الرز والسمن والحطب لنعُدّ حساءً، فالخبز اليابس لا يُناسب هذه الحمّى. ذهب وعاد بما طلبته. فاستعرت من الزوار قدراً أكبر من الذي عندي، ووضعت فيه مستلزمات الحساء إلّا أن الحطب كان رطباً. فاضطررت إلى أن أُواصل النفخ فيه من الغروب حتى الثانية عشرة ليلاً فأصابني الدّوار. فتركت قدر الحساء وأديت صلاتي على علّاتها. ولم يغلِ الحساء لأكثر من مرتين بحيث لم ينضج الرز، فأكلنا منه عدة ملاعق على حالته تلك.

عند السَّحَر تحركت القافلة، فطلبت إلى الميرزا أن يستأجر لي بغلاً أركبه، فخرج وعاد وهو يقول: ليس هناك بغل. وأرسلته ثانية وثالثة، فعاد بنفس الجواب مضيفاً أن قافلة الزوار قد غادرت المكان. ولخوفنا من أن نظلّ وحيدين فنضيّع الطريق، فقد حملنا متاعنا إلى خارج الخان، وهناك وضعت عباءتي على

رأسي وقلت لرفيقي سأتقدمك في السير ببطء، أما أنت فكن خلفي. فإذا حصلت على بغل الحق بي، فأنا لا أستطيع المشي. وغادرته.

بعد ربع ساعة وصلني الميرزا حسن خالي اليدين، وكان الجوّ بارداً فرفعت رأسي إلى السماء التي كانت نجومها تتلألأ وقلت: أريد عونك يا إلهي، فصاحبي لا يحسن عمل شيء. وهنا لاح لي من خلال الظلام أحد العرب. اقترب منّا ثم بدأ يتكلم معنا. وكنا نفكر أثناء حديثه في معنى كلامه في كيفية اشتقاقه وتصريفه فلم نهتدِ إلى فهمه. إلّا أننا فهمنا في النهاية (وعلى الجملة ومنضماً إلى القرائن الخارجية والإشارات المكثّفة بالأيدي والألسن، ظهر لنا أنه يريد أن يُكرينا قاطره والاغه)[١].

قلت له: أين؟ أشار بيده إلى الفلاة. طلبت إليه أن يذهب ويأتي بالبغل. فابتعد عنا بمقدار ألف خطوة، ثم بدأ بمناداة رفيق له. لم نكن نفهم ما كان يقول إلّا أن ارتفاع صوته بالنداء دلّل على بُعد رفيقه عنه. ثم التفت إلينا وهو يقول بالفارسية: صَبْرْكُنْ[٢]. ولم يكن يعرف من الفارسية إلّا تلك الجملة التي ظل يكرّرها حتى أثار شكوكي فقلت لصاحبي: ألا تحتمل أن يكون هذا الرجل لصّاً رآنا في هذا الليل البهيم اثنين وبأيدينا هاتان العصوان غير المشذبتين فخشي أن لا يستطيع وحده سَلْبنا ما علينا، فأخذ ينادي رفيقه ليعينه على ذلك، وإلّا كان ينبغي له أن يضع بغله قريباً منه على قارعة الطريق، إذ ما الداعي لوضعه على بعد نصف فرسخ؟

قال صاحبي: والله إنّ الأمر كما تقول.

قلت: إذاً لنسرع.

نسيتُ الحمى وانطلقنا كالبرق ولم نلتفت لنداءات الأعرابي الذي ظل يكرّر: صبركن، صبركن. بل قلت له: أيها الحمار الأحمق! إننا نستطيع غلبة ألفٍ من أمثالك. فإن كان لديك حمار لماذا وضعته بعيداً في البرّ كالكلب؟ إنك كاذب، أتتصور أننا سنُخدع؟ إنّ أحدنا روحاني والآخر سيد، واحدٌ يأكل الموتى والآخر

---

(١) الجملة بين قوسين وردت بالعربية والقاطر للبغل بالفارسية والاغ تعني الحمار.

(٢) أي: اصبرْ.

الأحياء! ونستطيع القضاء عليك أنت وصاحبك كالذين كفروا بضربكما بهاتين العصوَيْن على رأسيكما.

طوينا نصف فرسخ بسرعة تعادل سرعة عشرين بغلاً، فتبعنا اثنان من العرب قائلين: من أراد الركوب فليركب إذ إننا نريد إبعاد بقية البغال عن جادة الطريق قلنا: وَلِمَ تفعلان ذلك؟

قالا: السخرة، السخرة[١]. ولم نفهم ما قالا.

قلنا: وعند من نضع النقود والبغل في المسيّب[٢]؟

قالا: ستجدان عند رأس الجسر من يأخذهما منكما.

ركبت أنا أحد البغلين وتمنّيت في نفسي أن يراعي الميرزا حسن قلة نقودنا وحالته الصحية الجيدة فلا يركب البغل الثاني، إلّا أنه لم يلتفت لذلك، وركب البغل. خجلت ولم أقل شيئاً.

تحركنا فوصلنا جسر المسيب فوجدنا من أخذ منّا البغلين وأجرة الركوب فسألناه عن معنى كلمة (سخرة) قال: إنّ مأموري الدولة يأخذون منهم بغالهم، لذا فهم يضعونها بعيداً عن الطرقات.

قلت للميرزا حسن: إن أولئك العرب المساكين الذين أسأنا الظن بهم وحسبناهم لصوصاً مبتلون أيضاً، وقد أخفوا بغالهم خوفاً من اللصوص.

اكترينا بغلين من المسيب أيضاً للذهاب إلى كربلاء، بينما لم تفارقني الحمّى.

الوصول إلى كربلاء:

كان اليوم السادس من شهر رجب حين دخلنا كربلاء. قضينا اليوم الأول في زيارة سيد الشهداء وأبي الفضل. وكان طلاب العلوم الدينية في النجف قد قدموا للزيارة بمناسبة منتصف رجب. وقد قدم الملّا محمد كاظم الخراساني إلى هناك

---

(١) كان مأمورو الدولة يستولون على تلك البغال ويسخرونها في أعمالهم ولا يعطون أجرتها وربما صادروها.
(٢) مدينة على الطريق المتجه من بغداد إلى كربلاء.

أيضاً في الأول منه ليظلَّ حتى منتصفه، وكان يلقي محاضرات خلال الأسبوعين المذكورين على طلبة النجف الذين كانوا يرون في حضور درسه غنيمة. وقد ضُربت في تلك الفترة سكة مدرسية باسمه. وكان معروفاً في أوساط الفضلاء والمجتهدين أنه لم يظهر في الإسلام حتى ذلك الحين مدرّس على تلك الدرجة من النجاح[١].

أشتم نفسي دون أن أدري:

بدأت الحمّى تشتد عليّ يوماً بعد آخر. وكنت في اليوم الثاني قد تجولت في حرم سيد الشهداء ـ بعد انتهائي من أداء مراسم الزيارة ـ حتى وصلت إلى المسجد الواقع خلف الضريح من جهة الرأس. نظرت في آخر المسجد، فرأيت رواقاً كان أعلى من مستوى أرض الحرم بدرجة واحدة، وقد وُضعت نسخ من القرآن على قبور بُنيت فيه، ولم يكن هناك أحد من القراء. ارتقيت إلى ذلك المكان، وبدأت أمعن النظر في النقوش والكتابات التي على الكاشي. فرأيت وسط ذلك الرواق مما يقابل الضريح المطهر مرآة بحجم نصف ذراع على الحائط. كنت أنظر في تلك المرآة متصوراً أنها كوّة. رأيت حرماً مرتباً وضريحاً فاخراً وزواراً منشغلين بالطواف والزيارة. استولى عليّ العجب ترى لمن هذا الحرم القريب من حرم الإمام الحسين؟ إن حرم العباس عليه السلام بعيد من هنا. انتبهت فجأة إلى وجود سيد كان يركز بصره عليّ. أطرقت برأسي خجلاً، ورمقته بطرف بصري لأرى فيما إذا كان حوّل بصره عنّي كي أعود للتفكير في هذا الحرم، فرأيت أنه هو الآخر يراقبني بطرف عينه ويتفحّصني. قلت في نفسي: يا له من حمار مصرّ على مراقبتي رغم عدم معرفته بي. إن من يكيل السباب لغيره في الدنيا، إنما يسبّ نفسه في واقع الأمر.

---

(١) قال الشيخ عبد العزيز الجواهري محقق ديوان السيد الحبّوبي في مقدمته ص ٩: (إن أول مخترع للطريقة الحديثة بالتدريس هو رجل المسلمين المصلح العلامة الكبير الإمام الشيخ محمد كاظم الخراساني. فقد هذّب علمي الأصول والفقه من التطويل والزيادات، وجعل الطالب المجدّ يحصّل في أربع سنين ما كان يحصّله بانقضاء عمره الطبيعي. وقد نحى على طريقته كثير من طلاب الفرس فبرعوا وحصّلوا بأيسر زمان).

تلفتّ حولي علّي أجد من أسأله عن صاحب ذلك الحرم، فلم أجد أحداً. عدت لتفحص ذلك الحرم مرة ثانية فلاحظتُ أن تجهيزاته بقدر تجهيزات الحرم الآخر، بل أفضل، وزواره أكثر كذلك. يا إلهي أيعقل أن إمامين اثنين مدفونين في كربلاء؟ وقع بصري مرة أخرى على ذلك السيد الذي كان قد ركّز كل اهتمامه عليّ. يا إلهي، ماذا يريد هذا السيد المسمّر في مكانه مني؟ كنت على وشك أن أقذفه بعدة شتائم حينما انتبهت إلى أن تلك الكوّة لم تكن إلّا مرآة كانت تعكس صورة الحرم البعيد من خلفي. وأن صورتي كانت تنعكس خيالاً، كلما التفتُّ أو تحركت تحرك معي ذلك الخيال الذي أردت شتمه. وبطبيعة الحال فإنّ كل ذلك هو شبيه بانعكاس ضوء عيني عليّ. أو هو شبيه لأعمال ابن آدم في الدنيا التي تعود عليه في الآخرة: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾[1] و﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾[2] إنما هي أعمالكم تردّ إليكم. كل ما تعمله من عمل صالح أو سيّئ فإنما هو لنفسك.

الحمد لله أنني انتبهت مبكراً، ولو كنت بدأت بالشتم والمجادلة والضرب فمن المؤكد أن المرآة كانت ستكسر. كان ذلك توفيقاً. وبمجرد انتباهي لذلك تلفتُّ حواليّ وانصرفت ضاحكاً من نفسي وعُدت إلى رشدي، تماماً كالذي يقع بعد الموت عندما يصحو الإنسان من غفلته ويضحك أو يبكي على نفسه.

غادرت الحرم الحسيني. وبعد يوم أو يومين اشتدت عليّ الحمى، إلّا أنني كنت أذهب إلى درس الآخوند. وكان ذهابي طلباً للثواب، إذ لم أكن أفهم شيئاً لانشغالي بنفسي، فقد يئست من الحياة لعدم وجود من أعتمد عليه أو من يُعنى بي ولكوني بغير نقود.

اتخذنا في مدرسة حسن خان محطاً لرحالنا. وكانت الحمّى قد عاودت الميرزا حسن بعد ذلك. فكان يستلقي في ركن من الغرفة وهو يئن، بينما كنت أنا أئنُّ في ركن آخر منها، كان التهكّم من حالنا يستولي علينا أحياناً فنعتدل في جلستينا ونواصل الضحك. ثم نستلقي مرة أخرى.

---

(١) سورة يونس، الآية ٥٢.
(٢) سورة النساء، الآية ١٠.

طال مكوثنا في كربلاء إلى ما بعد منتصف شهر رجب، حيث قضينا هناك تسعة أيام. قلت للميرزا حسن إنني أروم الذهاب إلى النجف. قال لي: أما أنا فأنوي البقاء هنا لأن مجموعة من الزوار من أبناء مدينتي شيراز سيصلون إلى هنا اليوم أو غداً فلعلّي أستطيع أن آخذ منهم بعض النقود.

إلى النجف وحيداً:

قلت: وأنا لم يبق معي سوى بضعة قرانات، ثمّ أعطيته منها اثنين كي لا يموت جوعاً حتى وصول الزوار. ثم أرشدني بعض الصحاب إلى طريق طويريج وهي قرية تقع على بعد ثلاثة فراسخ من كربلاء على ضفة نهر الفرات، يستطيع من لا يقدر على السير أن يركب منها مركباً في النهر للذهاب إلى الكوفة. ونظراً لعدم قدرتي وارتفاع درجة حرارتي فقد اخترت ذلك الطريق، وتحركت لوحدي فوصلت إلى هناك عصراً، حيث رأيت هناك زورقاً طويلاً عالياً قد قسّم إلى ثلاثة أقسام وكان ممتلئاً بالزوار وهو على وشك الحركة.

ناداني الملّاح: هل تريد الذهاب إلى الكوفة يا سيد؟

قلت: نعم. قال: أسرع.

بادرت ـ وكنت تعباً لم أتناول شيئاً ـ إلى الصعود حيث أشار بيده إلى مكان فجلست فيه. سألته عن الأجرة، فقال: حالك حال الناس نصف قران، فوافقت.

تحرك الزورق فوراً وسط الشطّ. وحين بدأ بالابتعاد عن القرية لاحظت أن فيه ما يقرب من ثلاثين امرأة من النساء العربيات، وليس هنالك من رجل إلّا أنا والملاح البائس الذي كان منشغلاً في إدارة دفة الزورق. بينما كنت إضافة إلى غربتي منشغلاً بنفسي وارتفاع درجة حرارتي، أئن أحياناً لاإرادياً. كان يجلس في القسم الذي أجلس فيه سبع أو ثمان نساء ملتصقات ببعضهنّ، وإلى جانبي جلست عجوز بدينة سوداء الوجه قبيحة. وحين كنت أئنّ أحياناً كانت هي تعاكسني بتقليد أنيني. ولمّا كانت تجلس على أمتعتها فقد كانت أعلى منّي مجلساً بحيث إنها تميل وتلقي بنفسها عليّ تدريجياً، أنا الذي لم أكن قد شاهدت قلة حياء من النساء ـ وخاصة الزوار ـ بهذا الشكل. انزعجت كثيراً لذلك، فنخستها بخاصرتها

ـ ولو لم تكن عربية لحدثت مشكلة ـ ومع ذلك فقد قهقهت النساء من حولنا، وشرعن بالتصفيق والضحك، فاشتركت الجالسات في الزورق جميعهنّ بذلك.

وبعد عدة دقائق عاودت العجوز عبثها فأبعدتها عنّي بيدي، فالتهبت أكفّ النساء اللواتي في الزورق بالتصفيق وأخذن يضحكن. تطلعت إلى الملاّح علّه يمنعهنّ إلّا أنه لم يعبأ، وكان منشغلاً بإدارة الزورق ومراقبة حركته في النهر، حيث كان أحياناً يدفع بخشبة طويلة في يده إلى قعر النهر ليندفع الزورق بعدها بسرعة. كانت النساء من جانبهنّ غير عابئات به. وقد تكرر تحرّشهن بي وأنا على جلستي تلك، حيث كان وجهي إليهنّ وظهري مستنداً إلى حافة الزورق. ولكي أُبعد نفسي عن ذلك العبث نهضت ووضعت عباءتي على رأسي وجلست مديراً ظهري للنساء، بينما كان وجهي إلى الماء، متكئاً على متاعي. كان الوقت ليلاً، فأسندت رأسي إلى جانب الزورق وقررت النوم. ألقت العجوز بنفسها عدة مرات عليّ إلّا أنني لم أنبس ببنت شفة ولم أحرك ساكناً. فرفعت يدها عن رأسي، تماماً كعجوز الدنيا التي تهزأ بك يا بن آدم وتنصرف عنك إذا أدرت لها ظهرك ولم تعبأ بها، ويغرقك عرق الصحة والرحمة. غلبني النوم وحين صحوت منتصف الليل كان العرق البارد الهانئ يتصبب مني. ومن طرف عباءتي المفتوح كان النسيم البارد يداعب قطرات العرق التي على وجهي وكأنه نسيم الجنة بينما النجوم تتلألأ في السماء والجوّ رائع صافٍ. قلت لنفسي: لقد غادرتني الحمى إلى غير رجعة.

وصلنا الكوفة صباحاً. ذهبت إلى المسجد مع أحد الناس فصلّينا الصبح وزرنا مقام مسلم بن عقيل. وبعد خروجنا اتجهنا إلى النجف الواقعة على بعد فرسخ واحد. حين بلغت منتصف الطريق لاحت لي من بعيد معالم النجف وبيوتها على هيئة قرية خربة. سألت رفيق الدرب: أهذه هي النجف؟

قال: نعم.

قلت: يا إلهي! إنّ أصفهان على عظمتها وبساتينها ومياهها الجارية، أو كربلاء لم تنل أيّ منهما لدى كبار الشخصيات هذه الشهرة والصيت اللذين لهذه المدينة التي تبدو كالقرية الصغيرة. كيف طبقت شهرتها الآفاق حتى أن كلّ مجتهدينا يفخرون بأنهم قد ذهبوا إليها، ويتحدثون عنها بحلاوة ولا يشبعون من

لذة الحديث. وحتى حديثهم عن المصائب والجوع هناك ـ وهي أمور ينبغي ذكرها بمرارة ـ ينقلونه بسرور وحبور وكأنهم يتناولون الحلوى، وتتهلّل أساريرهم، ويفخرون بأنّ مالك البيت قد ألقى بأثاثهم في الزقاق لعدم تمكّنهم من دفع الإيجار. ولم يكن هذا التحمل بسبب زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام، لأنّ سائر الناس يأتون للزيارة ولا تصاحبهم مثل هذه الضجة إلّا ما يراه المسافر في سفره، ولا بسبب الدرس لوحده، إذ يمكن أن يدرسوا في أماكن أخرى، وإنما هو لأجل الابتلاءات والرياضات التي يُجبرون على تحملها في ذلك الوادي غير ذي الزرع، والفلاة المقفرة التي لا بستان فيها ولا ماء، كما اشتُهر أنه عليه السلام قال: «إنّ ها هنا زيارة الأمير وخبز الشعير وماء النمير»[١].

وإن وسائل الحياة والرفاهية متوفرة إلى حدٍّ ما في أماكن أخرى. ومن النادر أن يلهث الإنسان بإرادته خلف رياضة النفس عند توفر وسائل العيش. ومن البديهي أن التكامل الإنساني مرهون بترويض النفس. وهذا متوفر في هذه الأرض وليس في إيران. وربما كان هذا هو السبب الذي دعا الإمام علياً أن يوصي بدفنه هنا، لأنّ ذلك العظيم كان يحثّ أصحابه على الرياضة والمجاهدة كما ورد عنه في كتابه لعثمان بن حنيف:

«ألا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألّا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمريه ومن طُعمِهِ بقرصيه...». وكان يعلم أن الشيعة في آخر الزمان سيتحلّقون حول مرقده، بل سيكون دار العلم، ولهذا السبب اختار قبره في هذا الوادي الذي لا زرع فيه. صلوات الله الملك المنان عليه وعلى شيعته وأحبائه، حيث يسوق شيعته طوعاً وكرهاً نحو الله.

فلذة الحديث عن تلك الرياضات والمصاعب تعود إلى مذاق هذه اللذة الواقعية التي تُستطاب، و«حُفّت الجنة بالمكاره» إنما هو كناية عن المشتهيات والمرغوبات.

دخلت النجف وبإرشاد من الرفاق من أبناء وطني ذهبت لمقبرة الميرزا حسن الشيرازي التي تُجاور الصحن المطهر. ومن الجانب الملاصق للضلع الشمالي

---

(١) المشهور: خبز الشعير وماء البير.

للصحن، كانت هناك غرفة لشيخ خراساني يذهب أحياناً في الليالي لموعد أو غير ذلك ويُقفل باب الغرفة، فأظلّ ثلاث أو أربع ساعات بعد حلول المساء واقفاً على السلالم المفضية لباب الغرفة، متصوراً أنه ربما لم يكن راغباً في مجيئي لغرفته، فلم يعطني مفتاحاً، كنت أبكي في ذلك الليل البهيم غربتي وتشردي، ولخوفي من أن ينظر إلي صاحب الغرفة بعدم الارتياح، فقد كنت في تلك الأيام التي قضيتها معه أقوم بخدمته فأجلب الماء وأهيىء الشاي وأشتري اللحم من عندي وأطبخه. وإذا حدث أن روى قصة أو نكتة كنت أصغي بكل حواسّي إليه حتى لو كان علمي بها أكثر وأفضل منه، وأكون كمن يسمعها لأول مرة. كنت أظهر التعجب والضحك في المواضع التي تقتضي التعجب والضحك من القصة، ثم أضحك على تعجبي وضحكي الكاذبين.

سألت الشيخ ذات مساء: إن أردت أن أغسل ملابسي فأين يكون الماء الجاري لمدينة النجف؟

قال: في البحر المسمى الجريّ حيث يمكنك أن تسير خلف السقّائين وحين تصبح خارج المدينة يكون الموضع واضحاً.

في الليل، رأيت في منامي وكأنني ذهبت إلى المقبرة التي كان المرحوم الميرزا الشيرازي مدفوناً فيها والتي بُني عليها المسجد. فرأيت فيها مسجداً آخر قد بُني في سرداب المقبرة لم أكن قد شاهدته في يقظتي قبلاً. ورأيت كأن هناك ساقية صغيرة يجري فيها الماء من جهة القبلة حيث كان صحن الإمام علي. كان الماء يمرّ من قرب مقبرتَي الشيخ الطوسي والسيد بحر العلوم ويخرج من هناك إلى خارج النجف. قلت أي ماء هذا؟ سأملأ هذه الجرة التي كانت بيدي بالماء، ثم أغسل بعد ذلك ملابسي. لقد أراد الشيخ أن يرسلني إلى الجريّ دون أن يكون له علم بهذا الماء.

انحنيت كي أملأ الجرة فلم تصل يدي إلى الماء وأنا على السّلم، فتحركت قليلاً إلى طرف القبلة فرأيت بعض الأوساخ كالزَّنَد والشوك والتبن، أزلتها ثم ملأت الجرة وصعدت إلى أعلى. كانت تلك الرؤيا من الرؤى الصادقة حيث

أحسست أنني سأملأ نفسي بقدر استعدادي وأنا بجوار هذا النور الإلهي من الكمالات والعلوم الصافية كما ملأتُ الجرّة.

بعد أكثر من أربعة أيام قدم الطلاب الذين كانوا قد ذهبوا إلى كربلاء وكان من بينهم طالب مقيم في النجف وهو الذي دلّني على طريق طويريج عندما كنت في كربلاء وهو الذي هداني إلى غرفة هذا الشيخ. جاء هذا الطالب لرؤيتي. وقال لي: لقد عرفت مكان إحدى الغرف في الصحن. قم معي لننظر فيما إذا كانت خالية لعلك تقيم فيها.

ذهبنا إلى الضلع الشمالي من الصحن قرب الباب المؤدي إلى المراحيض، فولجنا باباً أفضى بنا إلى مدرسة قديمة خربة تتكون من طابقين، مجموع الغرف فيهما حوالي العشر وينفتح بابها على وسط الصحن. كانت الغرفة في الطابق الأرضي وهي خربة لا يسكنها أحد خشية سقوطها أو لكثرة أوساخها وهي واسعة أيضاً امتلأ نصفها بالتراب وقطع الحجارة المحطمة. رأينا بابها مُقفلاً فسألنا طلاب المدرسة فقالوا: أقفلها أحد العاطلين ممن لا يأتي إليها في الليل أو النهار. ولما كان أولئك الطلاب يعرفونه معرفة جيدة. فقد ألحّوا علينا أن نكسر القفل.

قلنا: إننا لا نعرف صاحب هذه الغرفة، ولعل من غير الجائز أن نفتحها بدون رضاه. ولو أحرزنا رضاه كسرنا قفل الباب بيسر.

قالوا: إن استطعت كسر القفل فافعل فإن الجواز الشرعي مُحرز والذنب في أعناقنا. خلعت مداسي وبضربة واحدة على القفل انفتح وسقط على الأرض.

دخلنا الغرفة فوجدنا حصيراً بالياً يمتد من باب الغرفة حتى ربعها، وسريراً متداعياً بصورة كلية احتل الربع الثاني من الغرفة، أما النصف الثاني منها فقد كان ملآن بالنفايات وقطع الحجارة. وكان هناك شق كبير في سقفها إذا تحركت فيه الجرذان انهال منه التراب. كانت حيطانها، كما الباب، مسوّدة وقديمة حتى يمكن القول إنها إما أن تكون قد بُنيت مع بناء الصحن، أو أن تكون خاناً من الخانات التي كان الزوار يقيمون فيها، ثم حُولت بعد ذلك في العهد الصفوي إلى مدرسة.

ومع كل عيوب تلك الحجرة كنت سعيداً إذ وجدت مكاناً في نهاية الأمر ـ إذا

تمّ لي ذلك ـ وبينما كنت أنا وأولئك الطلاب جالسين على ذلك الحصير البالي، دخل علينا شيخ قصير القامة مهيب الطلعة. كان صاحب الغرفة وهو من أهل ساوة[١]. ما أن وقعت عيناه على الطالبين اللذين يعرفهما حتى بدأهما بالسلام وأظهر لهما مودة، فقالا له: إن هذا السيد قد ورد حديثاً، ولمّا لم يكن له مكان يؤيه وأنت لا تأتي في الليل إلى هذه الغرفة فقد جئنا به إلى هنا، وهو سيد فاضل ومقدَّس و... و... و...

ابتسم الشيخ ابتسامة ملأت وجهه، وقال بلهجة ودية: أنا ممتنٌّ لكم. وإن شاء الله سأكون في خدمة السيد. إن هذه الغرفة لا تساوي شيئاً وأنا أضع روحي في خدمته، وحتى إذا احتاج كتاباً فسأحضره له من البيت. أحنينا له رؤوسنا احتراماً.

كنت سعيداً في داخلي لأنني وجدت بهذه السرعة غرفة مستقلة تحت تصرفي. وعلى ما قيل فإن ذلك الشيخ غير منهمك في الدرس، وإنما في حضور المجالس والولائم. ولمّا كان له بيت وزوجة لم يكن يأتي إلى الغرفة إلّا يوماً أو يومين في الأسبوع، وهو أمر يمكن تحمله.

لم يكن قد بقي لي في تلك الأيام من النقود التي كانت معي في الطريق إلّا قرانان فقط، مع بطانية عتيقة كنت قد جلبتها معي وعباءة بالية سميكة من النوع الكوپائي، وسماور من الصفيح وإبريق شاي وقدح واحد، وذلك هو كل ما أملك.

حين يجنّ الليل كانت العباءة لحافي، واثنتان أو ثلاث طابوقات وسادتي. وفي النهار يتحوّل لحاف الليل إلى عباءة مرة أخرى.

ذهبت في الليلة الأولى إلى درس الآخوند[٢] بهدف الاستطلاع وتغيير الجوّ ـ إذ لم أكن قد قررت حتى تلك الليلة أن أبقى في النجف أو أدرس فيها ـ إلّا أنني حين استمعت إلى درسه ورأيت ذلك البيان الساحر، أسفت على العمر الذي مرّ بدون درس، وأصبحت مأخوذاً بدرس أستاذي الآخوند.

جاءني أحد رفاقي في اليوم التالي ـ ولم أكن قد أنفقت القرانين اللذين كانا

---

(١) مدينة تقع قريباً من قم في إيران.

(٢) اللقب الذي اشتهر به الملّا محمد كاظم الخراساني وتعني الكلمة الأستاذ بالفارسية.

لديّ ـ وأخبرني أن زواراً من قرى قوچان قدموا المدينة، وسألوا عنك، ويريدون رؤيتك، ومن ضمنهم صهرك. قلت: إنني مفلس تماماً، وأخجل أن أظهر لهم ذلك. فأخبروهم بذلك في حال غيابي، واطلبوا إليهم أن يقرضوني شيئاً من المال فأكتب لهم حوالة كي يأخذوا المبلغ من والدي لدى رجوعهم.

وبعد ساعة جاؤوا إليّ وأعطوني خمسة تومانات، إضافة إلى لبّادة كانوا يضعونها على ظهر الحصان واحتسبوها عليّ بتومانين، فكتبتُ لهم حوالة بالمبلغ المذكور إلى والدي.

زال عني خوف الضائقة المالية في ذلك الوادي المقفر، وعدم وجود أصدقاء ممّن يملكون المال. وكنت كلما مرت عليّ ليلة في درس الآخوند ازددت شوقاً وحبّاً له. وما أن انقضى أسبوعان حتى بدأت بإعداد الورق والدواة والقلم وصمّمت على الإقامة في النجف والدراسة فيها. وجلست يومي الخميس والجمعة وكتبت في كرّاستين كل ما درسته في الأسبوعين المنصرمين، ولم يفتني منه شيء. وقد تحقق ما رأيته في المنام وأنا في أصفهان من أن السيد الآخوند بل كل الأساتذة في النجف كانوا يُلقون دروسهم لمرة واحدة على التلاميذ. بينما كنا في درس السيد محمد باقر بأصفهان نستمع إلى الدرس ثلاث مرات ومع ذلك نظل في حيرة منه في المساء فأين هذا من ذاك؟

اتفقت مع عطّار وخبّاز على أن يبيعاني السكر والشاي والسجائر والخبز دَيناً لحين حصولي على المال. ولم أتمكن من طبخ شيء في تلك الغرفة لمدة ستة أشهر. وكان أكلي للطعام المطبوخ منحصراً بحضور دعوة ما، وهو نادر جداً في النجف.

وما لبث أن حلَّ النصف من شهر شعبان حيث سيغادر كل الطلاب الذين في النجف إلى كربلاء للزيارة، وكنت أرغب في أن أسافر معهم، إلّا أنه لم يكن معي من النقود إلّا أربعة قرانات فقط. وفي اليوم الثالث عشر وهو آخر يوم ينبغي أن يذهب فيه من أراد الزيارة جلست وفكرت ملياً، فرأيت أن السفر غير ممكن ذهاباً وإياباً بهذه القرانات الأربعة، فالأمر يتطلب أكثر من ذلك.

قررت أخيراً أن أذهب في اليوم الخامس عشر من شعبان ـ إذا لم تتيسر لي اليوم

المغادرة ـ إلى وادي السلام[١] فأقرأ زيارة عاشوراء أولاً ثم أشكو إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام قائلاً: كنت عاشقاً لأن تكون الزيارة تامة بالوصول إليك، إلّا أن أباك علياً عليه السلام لم يعطني من النقود ما يمكنني من ذلك. وإنني لست ممن يطلب النقود لنفسه كي يقال له ينبغي عليك أن تصبر عنها طبقاً لـ«فإن لكل مأموم إماماً يقتدي به». وكما هو معلوم فإنّ مستلزمات السفر هي غيرها في الحضر إذ إنها تتطلّب ما يمكن الاطمئنان إليه. فكما أنّه عليه السلام حين كسر سيفه في معركة أُحد قد قال للنبي صلى الله عليه وآله أعطني سيفاً، كذلك أنا أريد نقوداً إضافة إلى القرانات الأربعة التي هي نظير سيفه في أُحد. وليس ذلك للدنيا، بل لطلب الآخرة ولا يتنافى مع الرياضة والمجاهدة. بل إنّ السفر خاصة على القدمين وبدون أن يحمل الإنسان فيه أمتعة هو بحدّ ذاته رياضة كبيرة وإن كان كيسه ملآن بالنقود.

وتيسّرت زيارة الإمام الحسين عليه السلام:

وبينما كنت في تلك التصورات وأنا جالس في غرفتي، دخل عليّ طالبان خراسانيان من رفاقي، وجلسا وتجاذبا معي أطراف الحديث، ثم إنّ أحدهما ناولني ستة قرانات قائلاً: لقد أخذتها لأجلك من السيد محمد كاظم اليزدي[٢]. ثم ذهبا.

خرجت إلى السوق فاشتريت رغيفاً واحداً وضعته في منديل، ثم اتجهت إلى خارج المدينة فرأيت أنّ قوافل الزوار المتجهين إلى كربلاء قد اختفت عن الأنظار. كان الوقت قريباً من الظهر. وضعت مداسي ورغيف الخبز في عباءتي وألقيتها على كتفي. كنت أحس بالاطمئنان لوجود تومان في جيبي وهو أكثر من القرانات الأربعة التي يحتاجها سفري.

انطلقت بسرعة البرق، فوصلت القافلة الأخيرة، ثم اجتزتها إلى التي أمامها ثمّ إلى الثالثة وهلمّ جراً إلى أن أدركت القافلة الأولى في خان المالح الواقع على

---

(١) مقبرة النجف.

(٢) من كبار فقهاء الشيعة ومراجع التقليد، كان تلميذاً للميرزا محمد حسن الشيرازي. انتهت إليه رئاسة الشيعة بعد وفاة الملّا محمد كاظم الخراساني. اشهر مؤلفاته **العروة الوثقى**. في الفقه. توفي عام ١٣٣٧هـ. وسيرد ذكره كثيراً في هذا الباب.

ستة فراسخ وسط الطريق. ولأنني كنت وحيداً ولا أعرف أحداً فقد اخترت الجلوس على تخت كان في وسط الخان، ثم ذهبت بعد ذلك إلى المقهى الذي كان هناك فأكلت رغيف الخبز مع قدحين أو ثلاثة من الشاي، واعتبرت ذلك غداءً وعشاءً. صلَّيت الظهر على تخت المقهى، واستلقيت عليه أدخن سيجارتي وأتفحص أوضاع الزوار. كان أمامي حجرتان من حجر الخان وبمحاذاتهما كان ثمانية من أفراد الشرطة العثمانية ممن عُينوا للنظر في أمور الزوار، منهمكين بصنع الطعام. بعد الانتهاء منه وضعوه في صينية كبيرة، وكان مكوناً من الأرز ـ وقدَّرته بكيلوغرام ونصف ـ وعليه المرق واللحم. أمرهم رئيسهم قائلاً: ضعوا هذه الصينية أمام هذا السيد أولاً ليأكل منها حتى يشبع، ثم نأكل نحن من بعده. نفّذ الأفراد أمره ووضعوها أمامي وقالوا: كُل يا سيدنا.

قلت: أنا شبعان وقد تناولت غدائي للتو. تكررت منهم كلمة (كُلْ) وقابلتها أنا بـ(أنا شبعان) حتى جاء رئيسهم وسط الطاق وطلب إليّ أن آكل.

وعلى الرغم من رغبتي في الطعام خاصة وأنّ المسافر لا يشبع من رغيف خبز خالٍ، فهو إن لم يأكل بعده بمقدار ما يأكله اثنان من ذلك الأرز فعلى الأقل سيأكل بمقدار ما يأكله شخص واحد. ومع ذلك ورغم استمرار رئيسهم في التماسي أن آكل شيئاً أصرّيت على قولي إنني شبعان. غادر الرجل وسط الغرفة غاضباً وهو يقول لأفراده: شيلوه. هذوله مو أوادم. ومعنى كلامه هو: ارفعوا الصينية، فإن هؤلاء العجم ليسوا آدميين.

قلتُ لنفسي: لقد صدقتَ عندما قلتَ إنني لست آدمياً. فديت نفسي لطيبتكم النقية وإنسانيتكم.

رفعوا الصينية من أمامي وذهبوا. ولقد ظللت بعدها ألوم نفسي كلما تذكرت ذلك الجفاف في المعاملة من جانبي. وفي الواقع فقد كان من السيّئ أن أردّ أولئك المساكين ذوي النيات الطيبة الذين التمسوا منّي أن أشاركهم بهدف التبرّك، واعتبروني إنساناً، وأنا عديم الفهم أظهرت نفسي حيواناً، فتباً لهذه الجهالة التي تجعل الإنسان محروماً في الدنيا والآخرة.

العودة إلى النجف:

في اليوم التالي تشرفت بالزيارة، ثم عدت إلى النجف عن طريق النهر فوصلت الكوفة حيث زرت مسجد السهلة ومسجد صعصعة، كما زرت زيداً وقمت بأعمال الزيارة، وسلّمت كذلك على مسلم وهاني وميثم وكميل الذين كانوا مدفونين هناك وقرأت الفاتحة.

دخلت النجف وأنا مبتهج مرفوع الرأس، وتشرفت بزيارة الإمام عاي عليه السلام وطمأنت نفسي بأن زيارتي تُقبلت إن شاء الله بعودتي من كربلاء.

الميرزا حسن ثانية:

دخل عليّ عند العصر حين كنت جالساً في غرفتي الميرزا حسن الشيرازي رفيق سفري، وأخبرني أنه جاء ضمن قافلة للزوار الشيرازيين الذين سيأخذونه معهم حتى مدينة شيراز. ثم سألني: كم أنفقتَ عليّ من المال منذ أن نفدت نقودي قرب كرمانشاه؟

قلت: حوالي ثلاثة وعشرين قراناً.

قال: لقد حاولت كثيراً أن أستدين من هؤلاء الزوار ما أوفيك به حقّك فقالوا إنهم لا يملكون المبلغ. وأنهم يتعهدون بإيصالي إلى شيراز فقط. ولذا ينبغي عليك أن تصبر حتى يمكنني أن أرسل لك المبلغ من هناك.

قلت: إنني لم أطلب منك النقود، ومع ذلك تطلب أنت منّي العهد والميثاق؟

أخيراً غادر الميرزا حسن مع الزوار إلى بلده عن طريق البصرة واسترحت منه.

حلول فصل الشتاء:

أخذ الجوّ بالبرودة تدريجياً. وفي الليالي كنت أحس بالبرد ينفذ إليّ من خلال عباءتي، إذ لم يكن لدي لحاف أو وسادة. ليس لي ما أتدثر به إلّا تلك العباءة وعدة طابوقات قديمة كنت أرتّبها في طرف البطانية وأضع رأسي عليها.

دخلت النجف عام ١٣١٨ للهجرة في زمن ملك إيران مظفر الدين شاه وكان

عمري آنذاك واحداً وعشرين عاماً، اتخذت من تلك الغرفة سكناً. وكان صاحبها يأتي أحياناً إليها ويمكث نصف ساعة ثم يذهب.

حلّ شهر رمضان فأصبح الجوّ في غاية البرودة. كانت الشمس في برج القوس. وكنت أقتصر في الإفطار والسحور على تناول الخبز والفجل. لم يُطبخ طعام في تلك الغرفة حتى ذلك الحين، وكانت حياتي صعبة، ولم تكن لي معرفة بأحد من داخل المدرسة أو خارجها باستثناء اثنين من أهل خراسان كان لديهما بيتان لم أكن أعرف عناوينهما. وكنت بطبيعتي لا أتعرف إلى أحد إلّا أن يكون هو قد تعرف إليّ. وبعبارة أخرى لم أكن ابتدئ أحداً بالمعرفة إلّا أن يبادر هو إلى ذلك أولاً، لذا فإن تعرفي إلى الآخرين يأتي متأخراً.

لم يكن لي في ذلك الجوّ البارد إلّا عباءتي. وفي أسحار شهر رمضان المبارك وبعد تناولي الطعام كنت أذهب إلى حرم الإمام علي عليه السلام حيث أزور وأصلي خلف السيد محمد كاظم اليزدي. ثم أقرأ القرآن بعد الانتهاء في الجهة الواقعة أمام الرأس الشريف إلى أن تطلع الشمس. أستلقي بعدها بين بابي الحرم وأنام حتى الظهر أو قبله، ثم أذهب إلى المدرسة فأتوضأ وأعود إلى الحرم لأن جوّه كان دافئاً بالقياس إلى الخارج، حيث أصلي الظهر والعصر وأقرأ القرآن والزيارة، ولا أخرج من هناك إلّا قبيل الغروب، فأشتري خبزاً للإفطار والسحور. وبعد مكوثي في الغرفة مدة ساعتين بعد الإفطار، كنت أذهب إلى الحرم أيضاً ولا أخرج إلّا قبل ساعتين من الأذان.

وعلى هذه الوتيرة قضيت شهر رمضان، إلّا أن الأربعينية الباردة من الشتاء جعلت البرد لا يُطاق في الليل بعباءة واحدة. وحين يجيء وقت النوم كنت أستعدّ وأرتب وضعي بحيث أجعل أحد طرفي اللبادة التي كان طولها بطول الحصان وعرضها ذراعاً ونصفاً، أجعله تحتي، ثم أستلقي على اللبادة، وأتدحرج وأنا ممسك بطرفها إلى الطرف الثاني الذي يكون سائباً، وبذلك تلتف اللبادة عليّ لفتين أو ثلاث، ثم أسحب العباءة على جسمي بكامله بينما أضع رأسي على الوسادة المصطنعة (الطابوقات) وأُدخل كلتا يدي داخل اللبادة وأسحب قدميّ إلى داخلها بحيث لو ضربني أحدهم لما استطعت منعه أو الردّ عليه، بل إنه سيؤدي

عمله بحرية تامة نظير صيد الحرم. وحين أنهض في الصباح كان غبار اللبادة يغطي وجهي ورأسي وملابسي كالميت الذي غادر قبره تواً. فأقضي بعض الوقت في إزالته عنّي. وكنت أعاني الخوف النفسي أيضاً:

فعلاوة على الرهبة التي تبعثها طبيعة الليل وخصوصيات بعض الأمكنة، كانت الفئران تحثو عليّ التراب من شقوق السقف وكأنها كانت تستريح في النهار، وتبدأ عملها من الساعة الرابعة ليلاً وما بعدها. مما كان يحتّم علي أن أنفض التراب عن اللبادة عند نهوضي في السحر. بل إنني لم أستطع النوم في إحدى الليالي لكثرة ما ألقت الجرذان عليّ من تراب، بشكل ظننت معه أن السقف سيهوي، وتملكني الخوف الشديد فنهضت وألقيت عباءتي على كتفي، وأقفلت الباب، وتوضأت وذهبت إلى الصحن فرأيت أبواب الحرم ما تزال مقفلة، فنمت في الرواق عند إحدى المنائر مغطياً رأسي بعباءتي، وكان الجوّ بارداً جداً، والأرض من تحتي كالثلج. كنت أرتجف والبرد يطوقني من فوقي ومن أسفل منّي. ومع ذلك تمكنت من النوم، وأفقت قبل نصف ساعة من الأذان.

وقد ضاعف من قساوة برودة ذلك الشتاء كون باب مدرستنا مفتوحاً على الصحن، وكان هناك في مؤخرة حجرتي فتحة تقع بمواجهة بابها، مما يكوّن تياراً هوائياً بارداً متدفقاً. بحيث إنّ النسيم غير المحسوس في الخارج يتحوّل إلى ريح صرصر حين دخوله الغرفة، مما لا يسمح حتى باشتعال عود ثقاب لأنه إذا وضع أمامه فسرعان ما ينطفىء. لذا كنت أقضي أغلب أوقاتي في الحرم نظراً لدفئه ولكون أرضيته مفروشة.

شتاء العراق وشتاء إيران:

سألت: لماذا برد الشتاء قارس هنا أكثر من جوّ إيران على الرغم من كون هذه المنطقة من المناطق الحارة، ولا يهطل فيها الثلج ولا تتجمد مياهها؟ ولماذا لا يُصاب الإيرانيون بالبرد بالرغم من برودة شتائهم، بينما أُصاب أنا كثيراً به ها هنا؟

قالوا: إن الناس في إيران يستعدّون للشتاء بالملابس وغيرها. أما هنا فليس من عاداتهم التهيؤ وإعداد المقدمات، ليقينهم أن المنطقة حارة وعمر شتائها قصير.

قلت: لقد جرّبوا لسنة، فيجب الاستعداد على قدر فترة البرد، وفي تصوّري أنّ رقة الهواء هنا تقتضي أن ينفذ الهواء البارد بصورة أكبر إلى أعماق البدن مما يجعل تأثيره أكثر. ولكن هواء إيران ملوث ولا ينفذ إلى أعماق الأجسام، وقلما يُحس تأثيره الذي هو سطحي فقط. ونسبة الهواء هنا إلى أجسامنا يشبه نسبة عشرة أمنان من الدُّخن التي تُلقى على حمل من الجوز، حيث لا يبقى في أعلى الحمل منها شيء، بل تنفذ من خلال الفراغات الموجودة بين الجوزات. إلّا أن نسبة هواء إيران إلى أجسامنا كنسبة عشرة أمنان من الجوز تُلقى على حمل من الدُّخن فلا تنفذ أية جوزةٍ منها إلى عمق الدخن، بل تتجمع كلها على سطح الحمل، ولهذا فإن الإنسان هنا يكون أكثر عرضة للإصابة بالبرد بالرغم من كون برودة إيران أشدّ. ويمكن القول عن البرد هنا إنه برد الله الذي يطّلع على الأفئدة. أو لعلّه واحد من الامتحانات التي ينبغي أن يجتازها من جاء حديثاً إلى النجف ونوى الإقامة فيها. فتكون تلك المصائب من همّ الغربة والجوع والبرد وغير ذلك امتحاناً، ليفرّ من لا طاقة له بها، أو من لا لياقة له لمجاورة أمير المؤمنين.

وهكذا فقد قضيت الأشهر الأربعة الأولى وأنا محروم من كل شيء إلّا من البرد. كنت بلا مأوى ولا ملابس ولا طعام ولا طبخ ولا أنيس ولا من يتحدث بلغتي.

كان من عادتي كتمان حقيقة حالي، وعدم إظهار الحاجة حتى لله، أو بث الشكوى لعلي عليه السلام وما زلت كذلك، فأنا أرى أنّ الشكوى من العوز للمخلوق حتى لو كانت بعنوان التعريف فهي درجة من درجات الكفر. وإذا كانت لله أو للأولياء فإنها تنافي التسليم. وكنت أرى في لزوم السكوت والاحتراق بصمت سُنّة حسنة. وكنت في ذلك غيوراً؛ ولو صدر عن غيري لساءني، وقد صبرت على هذا الحال حتى تبدلت مرارته حلاوةً، وجوعه بالمنّ والسلوى، وأحمده في مورد الشكوى وحضور البلوى.

السعادة المعنوية والشقاء المادي:

كانت سعادتي وبهجتي منحصرة في فهم درس الآخوند وكتابته وزيارة حضرة الأمير عليه السلام والتقرّب بخدمة ذلك العظيم، حتى أنني كتبت مرة رسالة وألقيتها داخل

الضريح خلاصتها: إنني أودّ رؤيتك أو رؤية ولدك حجة العصر عجل الله فرجه، وضمّنتها عدة أبيات من الشعر نظمتها في مدحه. وقد لمتُ نفسي بعد إلقائي الرسالة في الضريح على حماقتها، إذ إن ذلك كان من أعمال العوام وهو عديم الفائدة، لأنّ الرسالة لن تعود إليّ لأرى فيها جواب الإمام علي عليه السلام بـ(نعم) أو (لا). إلّا أنه وقع في قلبي أن أتناول إحدى نسخ القرآن الموضوعة من جهة رأس الضريح وأفتحها، وما سأقرأه في أول الصفحة المفتوحة سيكون هو جواب الإمام علي عليه السلام لي. وتناولت القرآن وبعد عدة صلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتحته فإذا في أول الصفحة: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

قبّلت تلك الآية الكريمة كلمة كلمة، وكانت الجواب الشافي لي.

ذهاب فصل الشتاء:

جاء الربيع، وجاء خلفه الصيف. واسترحت من البرد، ولكن ما الفائدة وقد لازمتني مصائب أُخر، بل كانت عوضاً عن البرد. جاء الحر وهو لا يقل أذىً عن البرد، إلّا في حجرتي التي كانت أكثر برودة من الخارج، حتى ليمكن للإنسان أن ينام فيها في منتصف النهار.

أما ذلك الشيخ الساوجي[2] صاحب الغرفة فقد كان يمرّ إليّ بين الحين والآخر. لم يكن مؤذياً، بل إنه اتخذني صديقاً مع مرور الوقت. وقد قرأ عليّ بضع صفحات من كتاب **شرح اللمعة** فعرفت أنه لا يفهم شيئاً. وحين وصلت إلى موضوع تحديد الوقت والقبلة حيثُ تتقاطع دائرة معدل النهار مع منطقة البروج، وتتحقق نقطتا الاعتدال الربيعي والخريفي، وتفترض فيها نقطتا الانقلاب الصيفي والشتوي أيضاً، ويُتحصل ذلك من تقاطع الأفق الحقيقي مع منطقة نقطتي المشرق والمغرب. أُسقط في يد ذلك الشيخ الحمار، ووقف مبهوتاً ثم ترك الدرس بعد ذلك. إذ إن حضوره إلى المدرسة وجلوسه في الدرس كان للسُّمعة ومقدمة لنيل الدنيا. فهو كان مرتبطاً بمجموعة من المعمّمين الراغبين في كثرة المريدين وسماع:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٥.

(٢) نسبة إلى مدينة ساوة.

(بارك الله فيكم) والحصول على لقمة العيش. وكان منّي على طرف نقيض، وقد سعد لعلاقته بي لأنه لم يجد فيّ مزاحماً له في دنياه، ولا حجر عثرة أمام تطلعاته، كما دعاني مرة أو مرتين إلى بيته.

رفيق غرفة:

وفي أحد الأيام دخل غرفتي خطيب بليد ممن كنت أعرفهم في أصفهان وطلب إلي أن أسمح له بالإقامة معي في الغرفة لأسبوع واحد، إذ إنّ متولي المدرسة الشيخ مهدي صديق عمه قد وعده ـ أن يعطيه غرفة هناك بعد هذا الأسبوع.

قلت: إن هذه الغرفة غير صالحة للسكن، وإذا رضيت أنت أن تقيم فيها فلا مانع لدي.

جاء الشيخ الأصفهاني بلبادة وفرشها في الغرفة. وكان يذهب في أغلب الأوقات إلى منزل عمه، أو إلى الدرس حيث يدرس **كتاب القوانين**. ولم يكن هناك أحد يذاكر معه. فكان يجلس لوحده في أحد أروقة الصحن القريب من المراحيض، وينزع عمامته لشدّة حرارة الجوّ، ويفتح كتابه، ويفترض وجود أحد يتناقش معه، ولأجل ذلك كان يرفع صوته في النقاش المفترض. وكان يغضب ويسخط على ذلك الشخص المفترض بحجة أنه لا يفهم، ويترحّم على الأخفش الذي كانت له معزى على الأقل. ولأنه كان خطيباً لم يكن يخجل من ذلك الأسلوب، بينما كان بقية الطلاب يعتبرون صدور مثل تلك الحركات ممن يرتدي زيهم أمراً مخجلاً.

وبعد أيام جاء الشيخ صاحب الغرفة فشاهد اللبادة الغريبة مفروشة فقال: لمن هذه؟

أجبته ـ وأنا مستلقٍ على بطني منكباً على كتابة درس الآخوند ـ: إنّها لأحد رفاقي الأصفهانيين الذي لن يطول مقامه هنا، وسيذهب بعد أيام.

قال: يا سيدنا، إنك ضيف في هذه الغرفة ولست صاحبها، وها أنت ذا تستضيف أحداً فيها؟

أجبته ـ وأنا لم أزل على وضعي الأول ـ: الغرفة ليست لأحد وهي ملكي أتصرف فيها كيف أشاء. وحين أسمح لك بالدخول فإنما هو فضل منّي عليك، ويجب أن تكون شاكراً.

أكمل الشيخ قائلاً: سيدنا، هنا ليست خراسان لتكون اليد الطولى للشقاوات. هنا النجف التي تنطفىء فيها الفتنة الخراسانية.

استولى عليّ الغضب فنهضت واعتدلت في جلستي وقلت: أيها الحمار! مهما يكن فأنا خراساني، ولا أعبأ بهذا المكان أنى يكون، وسأُحرق أباك.

حين سمع منّي هذا التهديد، طوى السلم بسرعة وغادر الغرفة إلى وسط الصحن. فتصورت ـ بما أن له علاقة بجميع الطلاب الذين كانوا آنذاك متحلّقين مجاميع في الصحن ـ أنه ذهب ليأتي بعدد من العمالقة مستعيناً بهم، وسآكل علقة قاسية في هذا المكان المنعزل، لذا فمن الأفضل أن أجلس مستعداً لئلا يقع المحذور، ثم نهضت وجلبت عصاي الخشنة التي جئت بها من بلاد العجم، وكنت أطرد بها عنّي الكلاب في الطريق، فوضعتها إلى جانبي وأحكمت شدّ حزامي وشمّرت عن ساعديّ، وعُدت إلى مواصلة الكتابة. وبعد قليل عاد الشيخ الحمار، ولا أدري لماذا كان منفرج الأسارير مقهقهاً، هل خاف ولم يخبر أحداً؟ أو أخبر ولم يُعره أحد أذناً صاغية؟ أو أنه استشار فلاموه؟ وعلى أي حال فقد ابتدرني قائلاً: يا لك من سيّد ناكر للجميل، وذئب يرتدي زي الحمل، وظالم تتظاهر بالمظلومية.

قلت: أيها الشيخ! انظر إلى عصاي وهيأتي وأشكر الله على أن هذه الحجرة لا تليق وليست مكاناً لإنسان. وإلّا لما كنت الآن في النجف، ولذهبت إلى جهنم أو بلاد العجم.

نهضت ووضعت العصا جانباً وأرخيت حزامي وأسبلت أكمامي، والشيخ يراقبني، فلما رأى أني سأحول أقوالي إلى أفعال، اضطر إلى مداراتي وقد جعله الرعب والخوف يستكين أمامي ثم غادر المكان.

حُلّت معضلة زميلي:

مكث الشيخ الأصفهاني حوالي أسبوعين معي، وفي عصر أحد الأيام وحين كنت منشغلاً بكتابة درسي أطل من الباب وهو يضحك بملء فيه قائلاً: إن عمي

قد حصل لي على غرفة وسأذهب إليها غداً. فأظهرت سروري لذلك وقلت: الحمد لله، لقد نجوتَ من هذه المزبلة واسترحت. وواصلتُ كتابتي ولم أنهض إلّا قبيل الغروب، فتوضأت لأذهب وسط الرواق وأصلّي خلف الآخوند صلاتي المغرب والعشاء. جلست وبدأت أفكر في الستة أشهر التي مرت علي وأنا في هذه المزبلة التي تحملت فيها المضايقات والضغوط المختلفة حتى كادت روحي أن تزهق ونفد صبري، أنا السيد المنتسب إلى علي عليه السلام والذي يبدو حالي من حيث الأدب والتدين أفضل من حال هذا الأصفهاني الذي وجد له عمّه بهذه السرعة والسهولة خلال عشرة أيام غرفة دون أن يعاني أو يتحمل مشقة. تُرى هل أن الله سبحانه الذي هيأ بهذه السهولة واليسر أسباب الراحة لهذا النكرة الذي لا يُعرف، لا ينظر إليّ أنا المسكين البائس بعين الرحمة وألقى بي في زاوية النسيان؟

وبينما كنت في تلك التصورات، وقد أحسست بالضيق وآثار الحزن والغم ظاهرة على قسمات وجهي، رأيت نفسي قريباً من باب حرم الإمام علي عليه السلام فدخلته دون سلام أو كلام، وبدأت بالحديث معه عليه السلام قائلاً: بعد تحملي هذه المدة المديدة، المضايقات الشديدة، ألم يكن بوسعك أن تقوم بعمل يوازي عمل عمٍّ لي؟ ثم وقفت في صلاة الجماعة وعيناي مغرورقتان بالدموع.

بعد انتهاء الصلاة قال لي أحد الطلاب الخرسانيين: توجد غرفة في أحد المنازل الموقوفة، على وشك أن تكون خالية من ساكنها، وهي تحت تصرف الآخوند فاذهب وخذ منه إذناً بذلك لتصبح لك.

لم أعره أذناً صاغية إذ كنت في يأس من الحصول عليها، لأنّ الآخوند لا يعرفني، ولا يعرف شيئاً عني أو عن مكاني.

في صباح اليوم التالي، وبعد انتهاء درس الآخوند الذي كان يلقيه في مسجد الهندي وقبل أن أخطو حوالي الثلاثين خطوة، أخبرني ثلاثة من الطلاب الأفاضل على التوالي، أي كان كل واحد منهم يخبرني، أن الغرفة المذكورة على وشك أن تخلو من ساكنها، فاذهب وخذ إذناً من الآخوند بسكناها قبل أن يأخذها غيرك.

قلت: إنها مسألة عجيبة. وأرى أنّ الآخوند لن يعطيني الغرفة إذ إنّ هناك المئات من الطلبة المعروفين أكثر منّي في درس الآخوند لا يملكون غرفاً، وقد

حصل أشخاص عديدون منهم بإذن من الآخوند على غرف، وإلى أن يصل دوري يكون العمر قد انتهى. إن هؤلاء الطلبة الذين قدموا النجف ومن هم أمثالي مِمَّن لا قدرة لهم على الإيجار، كثيرون، والمدارس قليلة. وبالتأكيد فإن أقل واحد منهم مقاماً هو أكثر شجاعة ـ عند طلبهِ لشيء ـ وجرأةً وبلاغة وجسارة مني. ويعرفون كيف يقيمون علاقاتهم مع الآخوند وغيره في أسرع وقت. ومن أين سيعرف الآخوند أنني طالب ومحتاج لغرفة، أنا الذي لم ألتقِ به طوال هذه المدة المديدة، لذا أنا في يأس من ذلك.

قال لي ثالث الثلاثة: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[1]. ما عليك إلّا أن تذهب وتكلمه في الأمر، أما التوفيق فهو ليس بيدك. إذ إنّ الله هو الذي ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2] وكذلك روح كل شيء وفائدته بيده أيضاً. أما الجسم والحرم والناسوت فهو بيد العبد. ولا يمكن ـ في هذه الدار الظلمانية والوادي المخيف التي يحتاج فيها الإنسان متاعاً ـ أن يتحرك أحد بدون عصا يتوكأ عليها. فاذهب وخذ الإذن من الآخوند في سكنى الغرفة.

قلت: سأتولى الأمر بنفسي، وعند خروجه من درس العصر سأخاطبه في أمر الغرفة. ومع ذلك كنت يائساً تماماً، ومتعجباً لكون أربعة أشخاص منذ الليلة البارحة وحتى اليوم قد حبّذوا لي هذا الأمر، وكأنهم كانوا يبحثون لي حتى ذلك الحين عن غرفة. وكنت قد نسيت اللهجة الحادة التي تكلمت بها الليلة الماضية مع الإمام علي عليه السلام فمن يدريني أنهم لم يكونوا رسله؟

طلبت... فحصلت:

وعند العصر وحين كان الآخوند ما يزال جالساً على منبر الدرس، تقدّمت إليه وأخبرته بأمر الغرفة التي توشك أن تكون خالية في أحد منازل الوقف، وأنني محتاج لإذنه في ذلك إذ ليس لي سكن مناسب. فرفع صوته عالياً وقال: منذ هذه اللحظة أيّ مكان يصبح خالياً سيكون من نصيب هذا السيد.

أقفلت راجعاً حتى وصلت الباب الخارجي، فأخذ شيخ خراساني كان واقفاً

(١) سورة يوسف، الآية ٨٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٨٨.

هناك بيدي وقال: تعال معي، إن الحجرة هي لي وقد أخليتها، إذ أنني تزوجت حديثاً وذهبت إلى مكان آخر دون إذن الآخوند. إذ إنه لا يوافق على زواج الفقراء من الطلاب هنا، ويقول إنّ الطالب نفسه يحتاج إلى زوج يتكفل بنفقاته، لا أن يُعيل هو شخصاً آخر.

قلت: لقد صدق، فزواج من هو مثلي ومثلك حرام هنا. فكيف تجرأت على الزواج؟

قال: لقد اتكلت على الله.

قلت: هل أعددتَ نفسك لأن تذهب أوقات الغداء والعشاء خالي اليدين إلى بيتك وأنت خجل من زوجتك التي تطلب منك شيئاً، بينما أنت تأمرها وتنصحها وتعظها بالصبر كي تهدأ، أم أنها ستكيل لك السباب وتطالبك بالمهر والطلاق منك؟

قال: لست مستعداً لذلك، ولن يأتي الله بذلك اليوم. وقد تزوجت على أي حال. فتعال لنذهب واجلب أمتعتك إلى غرفة الوقف.

انطلقنا، فحملت أنا اللبادة والقِدر بينما حمل هو السماور والإبريق. ثم أقفلت باب الغرفة كي لا تُسرق لبّادة الأصفهاني الذي كان معي فيها. ووضعت المفتاح في مكانه الخاص. وتحركنا نحو المسكن الجديد الواقع في محلة العمارة وكان يحتوي على سبع غرف، يقيم في كل واحدة منها طالب. فأعطاني ذلك الشيخ مفتاح الحجرة وذهب.

غرفة.. ولكن:

فتحت الباب فرأيتها غرفة صغيرة جداً يقل عرضها عن الذراع بحيث لو نام فيها اثنان جنباً إلى جنب فإن عرضها يكفيهما بالكاد. وطولها أقل من ذراع ونصف بحيث لا أستطيع مد رجليّ فيها إلّا إذا وضعت رأسي في زاوية ورجليّ في الزاوية الأخرى. وقد كانت في حقيقتها قبراً واسعاً رأى الإمام علي عليه السلام أنني أستحقه. وقد كنت أحب الغرفة الصغيرة. طويت اللبادة طيّتين كي تسعها الغرفة وفرشتها. بينما وضعت القدر والسماور والفانوس في رفٍّ بأعلى الغرفة. إذ إن مساحتها لا تتسع لشيء غيري.

وبعد مضيّ عدة أيام جاء مقسِّم الشيخ المامقاني إلى البيت وأعطى كل طالب مجيديين[١] اثنين، وقد أعطاني أنا أيضاً وذهب. فعجبتُ لأني كنت قد سمعت أن تسجيل اسم الطالب الفقير في دفتر المامقاني يحتاج إلى جهد ومشقة وإحضار شهود. قلت لأصحابي في المنزل إنني سمعت هكذا ورأيت الآن عكس ذلك.

قالوا: إن منزلة هذا البيت لدى المامقاني عظيمة، وهو يرى أن المقيمين فيه يدخلون الجنة بغير حساب، ولذلك فهو يُعطيهم هذا المال.

الزواج المؤقت:

في اليوم التالي رأيت مجموعة من النساء ممن بلغن سنّ اليأس يترددن على المنزل فاستولى عليّ الضحك وقلت: وهذه هي الحور العين في هذه الجنة التي تضيق حتى على البعوضة. وبعد تردد طويل وتحريض وترغيب من رفاقي الذين كانوا يحثّونني على التزوج بواحدة منهنّ، ارتفع خجلي شيئاً فشيئاً.

وحدث أن التقى بي الشيخ الأصفهاني فسألني: أين ذهبت؟

قلت: لقد أصبحت صاحب غرفة، وأنت لماذا لم تذهب إلى الغرفة التي كان عمك قد حصل لك عليها؟ قال: لم أحصل عليها حتى الآن. وفي الليل أخاف أن أنام في حجرتي الحالية. فإن كان لديك مكان فاقبلني معك.

قلت: لنذهب إلى هناك ونتغدى سوية، وإذا رغبتَ فابقَ معي. حين جاء ذلك المسكين معي ورأى ضيق الغرفة استولى عليه الخجل.

قلت له: يمكنك أن تنام معي على السطح في الليالي التي يمكن النوم فيها عليه. ولم ينقض وقت طويل حتى اضطر ذلك المسكين ـ بسبب عدم حصوله على غرفة ـ أن يغادر النجف، ويعود إلى أصفهان. وبذلك أفهمني الإمام علي عليه السلام أنه يعمل خيراً من الأعمام، وأن غرفتي وإن كانت مكاناً كالقبر وُضع تحت تصرفي ـ هي أوسع من الدنيا والآخرة. بأبي هو وأمي ونفسي وروحي ومالي.

الأنس بالنجف:

ومنذ ذلك اليوم الذي رآني فيه الإمام علي عليه السلام مستحقاً لتلك الغرفة

---

(١) المجيدي: عملة عراقية في ذلك الزمان.

وجعلني فيها مالكاً ومتصرّفاً؛ أصبحت نجفياً حقيقياً وعاشقاً للنجف. وحيثما سافرتُ كنت أشعر بالانقباض وتأثير الغربة فيّ، ولذا فقد كنت أسارع بالعودة إليها وكأنها وطني. بينما لم أستطع أن أقيم في (كربلاء) على الرغم من دعوة شيخ لي من أهل صنعة الكيمياء أن أبقى هناك لخمسة عشر يوماً يعلّمني فيها بعض طرق ذلك العلم. فلم أوافق على ترك النجف والبقاء حتى تلك الفترة القصيرة.

كان لي داخل سور النجف وبين أهاليها أصدقاء كثيرون على الرغم من كون أغلب الأهالي هناك يُعدّون من (شقاوات)[1] العراق إلّا أنهم حسنو الأخلاق، محبّون للمزاح. وكان أطفالهم مؤذين وشياطين يجعلون العاقل يفقد أعصابه بسرعة، ويحدث أحياناً أن يورطوا كبارهم في مشكلاتهم فيؤيدونهم فيما يأتون.

وأرض النجف صحراء مقفرة ليس فيها بساتين أو ماء أو خضرة، بل ليس فيها تراب. إذ إنها تتكون من مزيج من الجص والرمل، بل هي مقبرة ومجمع للأفاعي والنمل. ومع ذلك تستشعر فيها الروحانية التي لا يمكن إدراكها في بساتين كربلاء والكاظمين والأنهار الجارية فيها. قال علي عليه السلام في حقّها: «ما أروح ظهرك وأطيب باطنك».

وحين يحدث أن ننقل جنازة لأحد رفاقنا إلى الوادي لدفنها، كنا نتمنى أن نكون نحن في ذلك القبر خاصة في فصل الصيف لكثرة نظافته، وكون كل جوفه من الرمل الدريّ اللامع بدلاً من التراب.

ولأنّ النجف خالية من الرطوبة، فإن كل ما فيها نظيف: الهواء الصافي والأرض الطاهرة، حيث يشعر المرء بروحانية غريبة عند غروب الشمس وطلوعها، وكأنما يهب من باطنها الذي هو وادي السلام وجنة البرزخ ـ كما في الأخبار ـ نسيم على الدنيا وما فيها. ولكون هذه الأرض هي مجمع الروحانيين ومجاورة لمرقد رئيس الروحانيين، فقد أصبحت محبوبة الأرواح النقية إلى الحدّ الذي لا نتذكر لديها أوطاننا، بل إنني نسيت إيران تماماً. حتى أنني حين رأيت في المنام أنّ حاجّاً جاء من مدينتي يريد اصطحابي إلى هناك، وكان الآخوند

---

(١) الشقاوة وجمعها الشقاوات، تقابل القبضاي والقبضايات في لبنان، والفتوة والفتوات في مصر.

موافقاً على ذهابي، استولى عليّ الحزن والفزع من فراق النجف. وانتفضت من النوم فزعاً، واستيقظت وأنا أشكر الله على أنّ الأمر كان حلماً ولن يتحقق في اليقظة إن شاء الله.

الفراش أو النجف:

ولمّا كان نومي في النجف على الحصير واللبادة، ولحافي عباءتي فقط فقد قال لي أحد رفاق الدرس الذي كان أهل زوجته في النجف: اصنع لنفسك فراشاً من القطن ليكون ما تحتك ناعماً ولن يكلفك ذلك غالياً، لأن القطن سيكون نفس قطن هذا اللحاف القديم المطروح في هذه الخزانة. أعطه لنداف ينفشه بنصف قران، وأعطِ ثلاثة قرانات ثمن الشرشف والبطانة، وأتِ به إلى أهل زوجتي كي يصنعوا لك فراشاً.

وكنت قد أعددت ما طلبه رفيقي لصناعة الفراش البارحة وأعطيته لأهل زوجته فرأيت عندها تلك الرؤيا في نفس الليلة. لذا فقد ذهبت في الصباح إلى بيت رفيقي وطلبت إليه أن يخبرهم أن لا يصنعوا لي فراشاً لأنني لن أنام عليه.

قال: إذاً ماذا يصنعون؟ قلت: ليصنعوا لي منه وسادة إذ ليس لدي ما أضع رأسي عليه، ولا أستطيع النوم بلا وسادة.

قالوا: إن هذا كثير.

قلت: ليجعلوه وسادتين. وعلى أي حال فأنا لا أريد فراشاً، لأنه مستحب بالنسبة لي، بينما الوسادة واجبة، إذ يجب أن يكون ما تحت رأسي عالياً حتى لو كان من الطابوق والحجر. وقد أفهمني الإمام علي عليه السلام: إما أن أنام على فراش، أو لأن أبقى في النجف. وأنا غير مستعد لاستبدال أرض النجف ورملها بالعرش السلطاني، فكيف بفراش ثمنه ثلاثة قرانات وقطنه من عهد نوح؟

فلسفة الجوع:

أما في الطعام فقد كنت دائماً رفيقاً للجوع والحرمان، حتى أنني حين عدت من زيارة كربلاء لم يكن معي شيء من النقود. وعند الغداء ذهبت إلى الغرفة فوجدت بين الرفوف كسراً من الخبز اليابس الذي كان بعضه قد تغيّر طعمه

واخضرّ لونه، أو من العجين غير الناضج أو المحروق، أكلت بعضاً منها لسدّ الرمق وإشغال المعدة حتى المساء لأرى ماذا سيحدث. إلّا أنني لم أجد ما آكله في العشاء سوى ذلك الخبز الذي ظللتُ ألوكه منتظراً ما سيحدث في الغد، وهلمّ جرّاً: فقد كنت أعد نفسي نهاراً بشيء في الليل. وفي الليل أعدها بشيء في النهار، حتى انقضى أسبوع على ذلك المنوال أكلت فيه كل كسر الخبز اليابسة الموجودة في الرفوف، والتي عليها العفن والغبار منتظراً حصول الفرج. وقد أصبح لي واضحاً أن كل ذلك الضيق هو من الحق تعالى، ولم أكن أنا من جانبي مشتغلاً بتسبيب الأسباب، بل كان فكري منصباً على الدرس والبحث فقط، لا أفكر في طعام أو لباس، معتقداً بأنّ الله هو الكفيل برزقي، وسواء أكانت الدنيا رخاء أم شدة، عسراً أم يسراً، فقد كنت لا أعبأ بها كالثور، وكنت سعيداً على أيّ حالٍ كنت من الضيق أو السعة، لأن كلا الاثنين منه سبحانه وليسا تابعين لي. ولو كنت بصدد تهيئة الأسباب وخيِّل إلي أنني أنا الذي أهيئها، فأنا واهم في ذلك، إذ إنّ ذلك أيضاً لم يكن مني، بل من المؤكد أنه منه وليس مني. وكما كل التقلبات التي يمرّ بها العبد من حالٍ إلى حال إنما هي منه سبحانه وتعالى الذي يعرف صلاح عبده، وقد اقتضت ربوبيته أن يكون هذا العبد عاشقاً لتلك الواردات سواء أكانت سيئة في نظر العامة أم حسنة:

عشقت قهره ولطفه فيا عجباً لعشقي تلكما الضدّين

إنّ حقيقة اللطف هي في اللطف. ولا يوجد قهر في هذا المقام. وإنما وُضع اسمُ القهر على نوع من الألطاف حسب اصطلاح عامة الناس. إن إعطاء الدواء المرّ للطفل من قبل أبويه هو في حقيقته لطف، وإن تخيل الطفل أنه قهر.

وقد حدث مرة أخرى ما وقع لي آنفاً ساعة عدتُ ليلة الجمعة إلى غرفتي دون أن يكون معي طعام أو نقود، فتناولت شيئاً من كسر الخبز اليابس الموجود في الرفوف. ثم قلت لنفسي: ما دامت هذه الكسر اليابسة من الخبز موجودة فإن الله سبحانه لن يسعفني، إذ إنها هي حارسة حياتي، ولذا ينبغي عليّ أن أتخلص منها في أسرع وقت. انتهيت من أكل شيء منها لسد رمقي. وفي الصباح وحين أخذت ثيابي إلى البحر كي أغسلها أخذت معي كل الكُسيرات المتبقية وأعطيتها لأحد

السقائين ليعطيها لبغله. إذ إنها لا تليق لأكل الإنسان. غسلت ملابسي وعدت إلى غرفتي وناجيت ربي قائلاً: الآن وحيث لم تعد في الغرفة كسر الخبز اليابس لتطمئن علي، لن يكون هناك إلّا الموت أو الرزق. لأنه سبحانه وتعالى قد قال على لسان أنبيائه وأوليائه إن الرزق يسير مع الإنسان طوال حياته، ويتحرك مع عرضها أيضاً. ولا يستطيع أحد أن ينال رزق آخر أو يتخلف عن رزقه هو.

لم يحدث لي شيء من الله طوال ذلك اليوم فنمت. وفي الصباح أعددت الشاي فلم أجد ميلاً له وتقززت نفسي منه وكذلك السيجارة. وكأنهما كانا دواء مُقيّئاً فانصرفت عنهما. كان الجوّ حاراً فكنت حين أشرب الماء أحس ببرودته تحت سرّتي. لم تكن عندي قشور للرقي أو البطيخ أسدّ بها رمقي. ومع ذلك كانت قوتي على حالها لم ينقص منها شيء، بل إن قلبي ـ علاوة على ذلك ـ كان مفعماً بالنور. حتى كأن الجمادات والباب والحائط تريد أن تتحدث معي وأنني كنت على معرفة بها.

أخفيت أمري تماماً على رفاقي في المنزل حتى أنني كنت أتغيّب وقت الغداء والعشاء عنهم حتى إذا سألوني بعدها: أين تناولت طعامك؟ أقول لهم: كنت مدعوّاً في مكان ما، وقد أكلت أرزاً ممتازاً. وقد وقعت فعلاً هذه المحاورة.

لعل القرض هو الحل:

وكان اليوم الثالث الذي لم أتناول فيه شيئاً سوى الماء. فخطر ببالي أن باب الاستدانة مفتوح إذ إنني سأكون آثماً إذا بقيت على هذه الحال فمرضت أو متّ. وقد أصبح عليّ واجباً ـ لأجل دفع الضرر المحتمل ـ أن أستدين من أحد زملائي كي أُسقط عن نفسي ذلك الوجوب. طلبت بلامبالاة لواحد أو اثنين منهم أن يقرضني قليلاً من المال كي أطبخ به شيئاً من (ماء اللحم) وبمجرد أن اعتذرا عن ذلك سارعت إلى الانصراف عنهما، وأنا أرى أنّ التكليف قد سقط عنّي كما سقط من باب أولى وجوب المطالبة. وبذلك هدأ بالي.

ناجيت ربي: يا إلهي، ما الذي تقوله الآن، وقد انحصر رزقي بك وحدك، وأنا راضٍ بكل ما قسمت لي. فافعل ما تريد.

عند ظهر اليوم الرابع وحيث بلغ عنادي مداه، أرسل الله لي تومانين بيد أحدهم. فسددت رمقي، ولم أصب بمرض والحمد لله.

وبهذا العوز وإدبار الدنيا عني وإقبالها على طالبيها، لم يجد الفتور إلى عزيمتي سبيلاً، ولم يمرّ ببالي ما يبعث فيّ الهمّ، وواصلت انشغالي بدأب بالدرس والبحث. ورغم أنني كنت قد حضرت دروس السيد محمد كاظم اليزدي في الفقه لأكثر من خمسة أشهر، إلّا أنني لم أستسغها وتركتها. بينما أخذ شغفي يزداد يوماً بعد آخر بدروس الفقه والأصول التي يلقيها الآخوند وذلك لأسلوبه المتميز حتى أنني كتبت أحد تلك الدروس في رسالة بعثتها إلى صديقي اليزدي الذي خلّفته في أصفهان. وقلت: هكذا هو درس الآخوند.. مختصر ومفيد. حتى يمكنك أن تستدل بكلمة واحدة على صحة أو سقم ألف كلمة. ولك أن تقدِّر قيمة هذا السطر الذي بين عصارته مطلب طويل مفصل، بحيث تستطيع أن تكتشف الصحيح والفاسد من الآراء، ليس لأن الآخوند يشير إليها في درسه، بل إن الطالب يدرك ذلك بنفسه، فإذا رغبتَ في الدراسة حقاً فما عليك إلّا أن تأتي إلى النجف وتدرس لدى الآخوند، إذ إنّ الدرس والتدريس الواقعيين منحصران في حوزته، وقد ذكر الخراساني وهو واحد من قدماء دورة الميرزا حبيب الله الرشتي[1] أنه سأل الآخوند ـ وكانا لوحدهما ـ: قل لي بصراحة ما الذي تطلب من الله؟

فقال الآخوند: أريد اثنين من الطلاب يفهمان ما أقول. ولا أريد بعدها دولة أو رئاسة أو مريدين وأمثال ذلك.

قال أحد الفضلاء: إنه كانت تأتي إلى الشيخ فيما مضى من الوقت أموال وكنا نطلب إليه أن يوزعها كالآخرين بين الطلاب. فكان يمتنع ويقول لا أفعل. حتى مضت سنتان أو ثلاث واشتد زحام الطلاب على درسه، وانخفض في دروس سائر الفضلاء والمجتهدين. فسأل في أحد الأيام: هل أصبح معلوماً ومسلّماً بين العلماء والفضلاء وجود مدرسٍ باسمي يشيرون إليه؟

---

(١) من تلاميذ الشيخ مرتضى الأنصاري البارزين، ومن مراجع الطبقة الأولى للتقليد لدى الشيعة عاش في العراق وتوفي عام ١٣١٢ هـ ودفن في النجف. له مؤلفات كثيرة في الفقه والأصول والكلام.

قلنا: نعم، وهم كلّهم مسلّمون ومعترفون بذلك [إذ أنتَ] كالنار على المنار، والشمس في رابعة النهار.

قال الآخوند: الآن وقد أصبح هذا الأمر مقبولاً ومسلّماً به بالمجّان. فقم يا فلان واذهب إلى فلان الذي أودعت النقود لديه، فخذها ووزّعها بين الطلاب.

وقد حدث في وقتنا أن قلّت الحقوق الشرعية التي تصل إلى الآخوند، فكان لا يعطي شيئاً للطلاب إلّا للخراسانيين والأصفهانيين الذين كانوا أشدهم فقراً. إذ كان يعطيهم ـ إضافة للخبز السنوي ـ ثلاثة تومانات في شهر رجب، كما يعطي كذلك للعوائل المحترمة التي تعاني العَوز.

ولم تكن تصلني منه نقود، وقد طلب إلي رفاقي أن يذكّروه بذلك، فرفضت أن آذن لهم. إذ إنني كنت أحب الآخوند حبّاً جمّاً وقد عرفته متديناً واقعياً، ولم يكن ممن يخدع العوام أو طالباً للدنيا إطلاقاً. ولم يكن يبغي إلّا التدريس. وكانت هناك عطلة محدودة. وحين يعطّل درسه كان جميع الأساتذة يعطّلون دروسهم حتى المقدَّمون منهم، وحين يبدئ الدرس يبتدأ الجميع، فكان تدريسه بمنزلة قطب التدريس في النجف.

كان قلبي لشدة سروري وفهمي لدرسه، يريد الرقص أثناء حضوري له. وكان لي عشق عارم لكتابة دروسه في الفقه والأصول، إذ كنت أكتبها بتفكير ورويّة.

في الصيف حيث الليالي قصيرة لم أكن لأستطيع أن أكتب الدرسين، وفي الصباح الباكر، وبعد انتهاء الدرس ومرور ساعتين على طلوع الشمس كنت أتناول رغيف خبز ـ إن كان معي ـ وأنزل إلى السرداب للنوم إلى قبيل الظهر، عندها يبدأ الطلاب بجلب فرشهم للنوم هناك. فأصعد إلى غرفتي حيث المدرسة هادئة، فأعدّ الشاي وأصلّي، ثم أجلس بعد ذلك. فإذا أزعجني العرق خلعت ثوبي وبقيت بسروالي، وحسرت عن رأسي، إلى أن يغادر الطلبة السرداب بين التاسعة والعاشرة فأكون قد انتهيت من المطالعة والكتابة وتناول الشاي وأداء الصلاة.

وفي إحدى الليالي وبعد عودتي من درس الآخوند الذي كان ينتهي في الساعة

الثانية من الليلة السابقة[١]، دخلت غرفتي ووضعت لوازم الطعام من رز وماء وملح وسمن في القدر وتركته على النار وانشغلت في الكتابة حيث كنت أُسند الكراسة إلى كتاب وأجلس على الأرض متكئاً عليها بساعديّ وأكتب وأنا منحنٍ، وأدخن أحياناً سيجارة وأنا أفكر. وبعد أن انتهيت من كتابتي وتفكيري رفعت رأسي نحو القدر كي آكل الطبيخ وأنام فوجدت الشمس قد دخلت الغرفة من ثقب الشباك. ذهبت خارجاً حيث كانت قد مرت ساعة على طلوع الشمس، والطعام قد نضج وبرد. فحرت أآكل الطبيخ أم أُعد شاياً كالعادة أم أنام؟ ولما كانت قواي الذهنية مركّزة على الكتابة فلم يأتني نوم. وتساءلت: لماذا لم تتألم ركبتاي أو لماذا لم أحس بالحاجة للتبول، مع أنني كنت أفرغ مثانتي مرتين حتى الساعة الرابعة في الليلة الواحدة، وكذلك في السَحَر. وهذا الميرزا القمي الذي كان ذا حافظة جيدة حين وقعت له مثل هذه القضية ألّفوا عنها القصص. وكل هذه المعاجز ناتجة عن عشق الدرس والتفكير به وكتابته. والعشق يُعطّل القوى الطبيعية عن العمل، وقد قيل (جذبة إلهية، بل هو تجرد النفس وانسلاخها عن المواد الظلمانية والقوى الحيوانية ودخولها إلى عالم النور: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٢]).

* * *

التحاق زميلي بي:

إثر وصول رسالتي إلى أصفهان والتي دعوت فيها رفاقي للمجيء إلى النجف، جاء رفيقي اليزدي في العام التالي بصحبة أربعة ممن كانوا أصدقاء لي في أصفهان. وقد حصلتُ على غرفة لرفيقي اليزدي في نفس المنزل الموقوف الذي أُقيم فيه، حيث كنا نتباحث هناك في رسائل الشيخ. أما الباقون فقد أقاموا في غرف بصحن الإمام.

كنت أذهب إلى درس الآخوند مع اليزدي الذي أعجب بدرسه، وكان يقول إنه لم يرَ مدرّساً مثله حتى الآن.

---

(١) كان التوقيت السائد آنذاك هو الغروبي.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

قلت: إن قولك (لم أرَ مثله حتى الآن) ليس مديحاً، وأنا أقول: لم يوجد في الإسلام مدرّس على هذه الدرجة من البيان والإفادة ورفع مستويات الطلاب في أسرع وقت.

فأيد صاحبي كلامي. ثم سألني عن أستاذ آخر أذهب إلى درسه إضافة للآخوند. قلت درس السيد محمد كاظم اليزدي الذي قيل إنه أفضل من الناحية الفقهية، إلّا أنني بعد حضوري درسه لأكثر من ستة أشهر لم أرَ ما يشدّني إليه، وربّ مشهور لا أصل له، وأنا الآن أحضر درس شيخ الشريعة الأصفهاني(١) والشيخ محمد باقر الاصطهباناتي الذي يدرّس **الهداية** في منزله لعدد من الطلاب.

قال: إنني أرى حضور درس لغير الآخوند أمراً عديم الفائدة وخسارة ومضيعة للوقت. قلت: وهو كذلك، لكن تعال إلى درس الاصطهباناتي، فهو فلسفي وليس عديم الفائدة، على الرغم من أنه يفتقر إلى النطق والبيان.

قال: لن آتي ولا تذهب أنت. فلسنا منه وليس منّا.

ومع ذلك وبعد أيام حضر صاحبي ذلك الدرس. كما حضره الأصفهانيون وجاء أيضاً ستة آخرون واثنان من طلابه، فأصبح العدد حوالي عشرين طالباً.

حين دخلت النجف لم يكن فيها أكثر من ثلاث إلى أربع مدارس متواضعة. وكان أغلب الطلاب العزّاب الذين ينبغي عليهم أن يعيشوا في المدرسة، قد استأجروا سكناً. وكان إيجار سكن صعباً على هؤلاء الذين أغلبهم من الفقراء، إضافة إلى ضيق المكان.

---

(١) (فتح الله بن محمد جواد الأصفهاني الملقب بشيخ الشريعة أصله من شيراز ونشأ بأصفهان (١٢٦٦ ـ ١٣٣٩هـ) فقيه إمامي من كبار المشاركين في ثورة العراق الأولى عام ١٩٢٠م على الإنجليز وبرز اسمه أيام الاحتلال البريطاني للعراق. وكان في بدء الثورة عوناً لآية الله محمد تقي الشيرازي، ثم انتقلت إليه زعامة الثورة بعد وفاته عام ١٣٣٨هـ. وهو الذي كتب رسالة إلى اللفتننت كولونيل السر آرنولد ولسن الحاكم الملكي العام في العراق الذي كان قد دعاه للدخول في مفاوضات معه لوقف الثورة، كتب إليه الأصفهاني مشترطاً: منح العراق استقلاله التام قبل الدخول في المداولات السياسية. (الأعلام للزركلي ١٣٥/٥).

غرف جديدة.. محتلة:

بنى الهنود أول مدرسة هناك حيث تعاونوا مع الكشميريين وآخرين فانتهوا منها بسرعة. بينما بنى ثانية تاجر تركي كان مقيماً في خراسان وقدم إلى النجف بهدف الزيارة. وقد أتمَّها في حوالي ثلاثة أشهر. وقد حصلت أنا واثنان من طلبة خراسان ـ بسبب سابق معرفة وكوننا من خراسان ـ على ثلاث غرف. ولم يكن قد سكن أحد من الطلبة حتى ذلك الحين في المدرسة. إذ إنه كان قد بقي شيء من البناء والترتيبات الأخيرة وحين ذهبنا إليها لنشاهد فيما إذا كانت قد كملت، فوجئا بأن جميع الغرف قد أُشغلت من قبل الطلبة حتى غرفنا نحن الثلاثة. كان في غرفتي سيد تركي فقلت له: من الذي سمح لك يا سيدي بالسكن في هذه الغرفة التي هي غرفتي؟ أجابني بحنجرته ذات الطبقة الصوتية الغليظة: إنّ المدرسة جميعها وغرفها هي ملكنا فماذا يعنيك؟ قلت: ستعرف فيما بعد ما يعنيني. وحين ذهبت إلى الغرفة الثانية وجدت أن أحد الطلبة العرب قد احتلها. أما الثالثة فقد كانت من نصيب أستاذ تركي. لم نقل شيئاً وغادرنا المدرسة.

سألنا عن مؤسس المدرسة وأين ذهب؟ فقالوا إنه قد عاد إلى إيران. فسألنا: من الذي أوكلت إليه المدرسة؟ قالوا: أحد خدم الحرم، وقد ذهب لمشايعة التاجر التركي حتى الكاظمية وسيعود. ذهبنا إلى المقسِّم وهو شيخ من أهل شاهرود وقدمنا شكوى طالبنا فيها بإخلاء غرفنا ووضعها تحت تصرفنا.

قال: اصبروا حتى يعود المتولّي وسأطلب منه إخلاءها فوراً.

تركنا الشيخ وانتظرنا أربعة أيام وعُدنا إلى المدرسة لننظر هل عاد المتولّي أم لا. قالوا لنا من الصعب أن يعود قبل شهر أو شهرين آخرين إذ إنه والتاجر قد ذهبا الآن إلى سامراء. عُدت إلى حجرتي فرأيت السيد التركي وقد انتصب فيها كالنمر الجالس في عرينه متحفزاً. فقلت له: أيها السيد بإذن من سكنت حجرتي؟

رد بصوت غليظ: ومن أنت حتى تعتبر الحجرة ملكك؟

فعُدت إلى القول: ستعرف فيما بعد إن شاء الله.

غادرنا المكان وفي الطريق قلت لصاحبيّ: ما الذي تنويان عمله والمتولّي لن يعود قبل شهرين؟

قالا: ليس هناك من سبيل إلّا الصبر حتى يعود الرجل.

قلت: ينبغي لنا أن نعود لاستخلاص حقنا المشروع. إذ إن من الجبن وانعدام الغيرة أن يتأمَّر هؤلاء الحقراء والغاصبون، ويرفعوا أصواتهم علينا، بينما نقف صامتين حتى يعود المتولي النكرة الذي قد يسمع أو لا يسمع شكوانا. أما إذا رفضتما المجيء معي، فسأذهب لوحدي لإخلاء غرفتي، وليكن ما يكون.

قالا وهما يضحكان ساخرين: هل جُننت؟ ماذا نستطيع أن نفعل في مدرسة مليئة بالأتراك المجانين والمتهورين سوى أن نُعرِّض أنفسنا للضرب المبرّح؟ لن نعود مهما حدث. وأنت أيضاً ينبغي لك أن لا تعود فليس بعيداً أنك ستقتل.

قلت: إذاً، أستودعكم الله ومهما حصل فعلى الرحب والسعة. ضحك رفيقاي وغادراني مسرعين كي لا يسمعا صوت استغاثتي ـ على حدّ قولهما ـ.

قلت: اذهبا إلى جهنم وبئس المصير.

ذهبت إلى المدرسة ووقفت بباب غرفتي وقلت: قم يا سيد واترك الغرفة.

ردّ علي وهو ما يزال متكئاً على وسادته غير مبالٍ بي: نعم؟ ومن أنت؟

معركة ضارية:

لم أُجبه بشيء، بل دخلت الغرفة على الفور، وحملت قطعة الحصير والسجادة والأثاث البسيط الذي كان فيها، وقذفته إلى باحة المدرسة. وإلى أن تحرك السيد من مكانه كنت قد أخليت الغرفة من كل ما فيها إلّا قطعة حصير كانت تحته ووسادة يتكئ عليها. وبما أن السيد كان أضخم منّي بدناً ولحيةً وسناً وهيكلاً فقد كنت يائساً من الانتصار عليه، وانحصر همّي في منعه من السيطرة عليّ وضربي، وبينما كان يتقدم نحوي غير عابىء، بادرت إلى إمساكه من كُمّيهِ وبرمتهما معاً وأحكمت القبض عليهما بشمالي، بينما ألقيت يدي اليمنى إلى جانبي كي لا أضربه بها. وهكذا احتفظت بها ـ وكأنها سيف الإمام علي ذي الفقار ـ لساعة لا ريب فيها. وقد حاول السيد تخليص يديه من قبضتي اليسرى التي كانت تمسكهما كالقيد ولكنه لم يُفلح. عندها أدركت أنه لا يملك القوة وهو كالجوز الأجوف، ليس له سوى صوت غليظ وجسم ضخم.

وفي تلك الأثناء دخل اثنان من الأتراك كانت لهما رئاسة وعظمة في المدرسة، بل كانا كالوزيرين اللذين يجلسان عن يمين وشمال حجة الإسلام الشرابياني الذي كان حقاً سيداً بين علماء النجف، وكان الملك مظفر الدين شاه من مقلّديه.

كان دخولهما حسب الظاهر لغرض الإصلاح والفصل بيننا نحن السيدين. ولاحتمالي أن تكون وساطتهما صورية، ولخوفي من أن أُضرب فقد ظللت ممسكاً بأكمام السيد. وكان في وسط المدرسة واحد من الطلاب البربر وآخر كشميري كان لهما بي معرفة لا بأس بها، وكانا يؤيدانني في الباطن إلّا أنهما كانا يتظاهران بالحياد ويهددان الأتراك. جاء اثنان آخران من الأتراك كان أحدهما يُعد أبا الأتراك في العناد والتهور والنخوة والحمية والرجولة، والآخر كأنه أستاذ الشيطان في الحيلة والشيطنة والنفاق، وقد أحكما شدّ أحزمتهما وربط أحذيتهما وألقيا بعباءتيهما في غرفتيهما وبدآ يطوفان في المدرسة متبخترين كجنود القوزاق وهما يناديان: أيها الطلبة! إن هذا الخراساني قد أغار بمفرده على هذا الجيش الكثير. فويلٌ لهذه المدرسة وساكنيها من بقية الخراسانيين الذين إذا علموا بالأمر لم يُبقوا فيها حجراً على حجر. وكلما وصلا إحدى زوايا المدرسة وقفا وأعادا نداءهما ثم عاودا السير. وكانا في أثناء ذلك يراقبان وضعي ليتدخلا إذا وقف أحد إلى جانبي، وإلّا فإنهما كانا يريان في السيد لوحده قوة متكافئة. بينما بقيت أنا وسط الغرفة ممسكاً بالسيد على الرغم من دعوة المصلحين لي بتركه. وكان الضحك يتملكني وأنا أرى هياكل البربري والكشميري وطوافهما وتهديدهما ووعيدهما. وفي تلك الأثناء قام السيد التركي عديم الإحساس بعد أن يئس من خلاصه من يدي بتوجيه ضربة إلى أعضائي السفلى، عندها رفعت يدي اليمنى التي ادخرتها لهذا الوقت وكلتُ له عدة ضربات على رأسه فانحدرت عمامته على عينيه. وبينما كان التركيان الآخران يحاولان تخليصه من يدي، واصلت أنا توجيه الضربات إليه، حتى أفلحا أخيراً في ذلك بعد أن انتفخت أوداجهما، وقالا لي: سيدنا، هل يُحل الأمر بالقوة؟

قلت لهما: أيها الروحانيان! لماذا لم تنتبها إلى أسلوب القوة الذي غصب هذا بموجبه الغرفة مني؟ نعم إنها القوة! لقد أغمضتم عيونكم حين أخذتم غرف

غيركم بالقوة، ولم تروا في ذلك غصباً. انتظروا فأنتم لم تروا شيئاً حتى الآن إذ إنني سأُحرق آباءكم وأكنسكم جميعاً وألقي بكم خارج المدرسة.

وقف الكشميري والبربري أمام باب الغرفة، وقد ظهرت عليهما الدهشة من جدّيتي يبخبخان لبعضهما وكأنهما يقولان: ألم نقل؟ وفجأة وبعد أن خلّص التركي يده من التركي الآخر الذي كان يمسكه تناول بيده مروحة يدوية وهجم عليّ مسدّداً مقبضها كسهم حرملة إلى سرّتي وقلبي المبارك! وقد رحمني الله إذ سحبنا المصلحون إلى الخلف، فمسّت قبضة المروحة سرّتي التي كُشفت مسّاً خفيفاً بحيث لو لم يسحبونا لوصلت إلى قلبي، وقطعت نياطه، وحوّلت المدرسة إلى عرصة كربلاء.

كنت غاضباً أغلي أُريد بلوغ السيد والاقتصاص منه قبل الجناية. وحين أدرك الأتراك من خلال تهديد الطالبين الكشميري والبربري وغلياني وسبابي جدية الأمر، أصرّ رئيسهم على الصلح، وقال: أتعهد لك أن أُخرجه من الغرفة بعد ثلاثة أيام بالحكمة والموعظة أو بالإجبار والقهر، إذ إن ذلك غير ممكن الآن، فأين سيذهب بأثاثه؟ اسمح لنا الآن أن نضع أثاثه في إحدى زوايا الغرفة إلى أن يحصل على مكان يستقر فيه، وتنتهي المسألة على خير.

قلت: سأوافق على سبيل التجربة، إذ إنني لا أثق بكلامكم أيها الترك، بل أثق بعزيمتي وقوتي وأنني أستطيع طرده من الغرفة بعد ثلاثة أيام إذا اقتضى الأمر. ولن أُخيب ظنك الآن. فأتِ بأثاثه وضعه مؤقتاً في تلك الزاوية، ولكن لا تنسَ أنّ المهلة هي ثلاثة أيام فقط.

استرداد الغرفة:

خبت نار الحرب، وأخرجوا السيد من الغرفة التي تحت تصرفي، فجئت بأغلب أثاثي، إلّا أن الحمى انتابتني قبيل الغروب. ولمّا لم يكن معي في غرفتي القديمة لوازم إعداد الحساء، فقد ألقيت بعباءتي على رأسي وحملت شيئاً من الأثاث المتبقي واتجهت إلى مدرستي ومنزلي الجديدين. ورغبت وأنا في الطريق أن أتناول قليلاً من حساء الكروش الخالي من الدسم ليكون غذاءً ودواءً لي.

مررت على دكان الروّاس فتناولته ثم ذهبت إلى غرفتي. أشعلت الضوء وبسطت فراشي على الأرض وجلست، وإذا بالسيد التركي يأتي وهو يقول: الآن وقد اغتصبت الغرفة، فاكتفِ بغصب جانبٍ منها فقط، ثم بسط فراشه في إحدى الزوايا وجلس. فانتابني الضحك لبلاهته. غضضت طرفي إلّا أنه وبرغم وجود الحمى فقد جلست منتفخاً متجلداً:

وتجلدي للشامتين أريهمُ إني لريب الدهر لا أتزعزع

وكنت قد استخرت الله على المجيء إلى هذه المدرسة وأخذ غرفة فيها فكانت غير مؤاتية إذ ظهرت لي الآية التالية: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]، ومع ذلك ولكون غرف المدرسة جديدة البناء فقد كانت عزيزة الوجود إضافة إلى أني ألفت هذه المدرسة. وكان المنزل الوقفي قذراً مليئاً بالبعوض ولم يكن به سرداب وكنت منزعجاً منه، فأتيت إلى هنا على الرغم من كون الاستخارة غير مؤاتية. وقد بلغ أمر استلامي الغرفة المرحلة التي ذكرتها آنفاً.

استلقيت على فراشي وقد استولت عليّ الحمى والخمول كي أنام. بينما كان ذلك السيد جالساً على فراشه. فكرتُ فيما سمعته من أنه لم يأتِ إلى هذه المدرسة ولَوْ لمرّةٍ واحدة حتى الآن، بل أنه كان قليلاً ما يأتيها في النهار. فقد كان دائباً في البحث عما يملأ معدته ولم يكن من أهل الدرس والعلم بل اتخذ من العمامة والعباءة والمدرسة قصيدة كما هو حال الأغلبية.

لم يغمض لي جفن. وبعد نصف ساعة ذهب السيد إلى حجرة تركي آخر كان قد اغتصب غرفة أحد رفاقي إذ إنهما متشابهان فيما اقترفاه. وبينما كنت غارقاً في الحمّى والخيالات مرّت الاستخارة ببالي. لقد كانت صريحة في نزول العذاب ليلاً وأثناء النوم أو في النهار حال اللعب. وها هي قد مرّت بسلام أثناء النهار حيث أعانني الله سبحانه وإلّا لأنهى مقبض المروحة اليدوية حياتي، وقد نتجت هذه الحمى عن غلياني وغضبي نهاراً، وكانت يداي طليقتين في حينه وكذلك

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ٩٧، ٩٨.

رجلاي. لكن ماذا أنا صانع إذا نزل العذاب ليلاً وأنا في نوم الغفلة؟ ويبدو أن ما رآه التركي المتهور العاطل من قوتي وشدة ضرباتي والظلم الذي أنزلته فيه ـ من وجهة نظره ـ كل ذلك جعله يذهب إلى حجرة نظيره في التعامل ليتشاورا في كيفية قتلي. وبسبب قصور تفكير هذا الصنف من الجهلة فسيتخذان قرار قتلي عند منتصف الليل، يذهبان بعدها خارج النجف ويعودان بعد فترة ويمكن أن يدفعا التهمة عنهما بقسم، ومن ذا الذي سيسعى للأخذ بثأري في بلد الغربة هذا؟

إذاً المقتضي موجود، والمانع مرفوع. وأنا محتمل القتل في هذه الليلة ودفع الضرر المحتمل واجب. لذا فقد نهضت وذهبت إلى حجرة سيد مهيب من الأتراك كانت لي به معرفة سابقة. فخفَّ لاستقبالي وفرش لي فراشاً وأشعل السماور وأدى مراسم الاحترام.

قلت له: يا حضرة السيد أنا خائف الليلة من هذا السيد الذي يبيتُ معي في الغرفة.

قال: من حقك أن تخاف، بل حرام عليك النوم في تلك الحجرة. وأقسم بحق جدك ﷺ، وأنا متيقّن، من أنه سيقتلك الليلة. بل هو لم يأتِ إلى المدرسة الليلة إلّا لقتلك. إنك لا تعرف هذا الشخص. لقد ذهب إلى بلدته ليأخذ الخمس، وقد تشاجر مع شخص آخر عند البيدر، فقتل عدة أشخاص لأجل منّين من الحنطة، وخرج من هناك وقدم إلى النجف ولم يكن ممن يهتم بالعلم في بلدته أو هنا. ولم يكفه أنه ظل حيّاً. وإن جميع الأتراك الذين يعرفونه وشاهدوك هناك أول الليل قالوا ـ رحمة بك ـ يجب لفت نظر هذا السيد المسكين كي لا ينام في حجرته. وأنا لن أتركك تذهب بل ينبغي أن تنام هنا الليلة، فالغرفة واسعة والحمد لله، والأغطية كثيرة، فنم هادىء البال حتى الصباح.

قلت: نعم، سأنام هنا. إلّا أنّ سياستي تقتضي أن أقول كلمة للسيد وأعود إليك.

مكيدة:

ذهبت فوجدت السيد قد جاء من غرفة نظيره، وأطفأ النور، ونام تاركاً الباب مفتوحاً. قلت له بصوت غليظ: لقد ألحّ عليّ فلان بالبقاء في حجرته، ومن

الممكن أن لا أعود حتى الصباح، وقد تركتَ أنتَ الباب مفتوحاً، وذلك ليس عملاً حسناً. أغلق الباب ونم، فربما جاء أحد وسرق أثاثي.

ردّ علي: اذهب ولتكن مطمئن الخاطر. أيُّ ابن لعينٍ يستطيع أن يسرق من هذه الحجرة؟

قلت: أنا لا أعرف الصالح من الطالح في هذه المدرسة. ووالله إذا فُقد ملقط من أمتعتي فسأسلخ جلدك، وآخذ منك غرامةً أضعاف ثمنه.

قال ضاحكاً: اذهب وخُذ مني الغرامة.

عُدت إلى غرفة السيد المحترم فنمت حتى أذان الفجر، حيث كان السيد الذي في غرفتي قد أقفل بابها وخرج. ولنصف ساعة كانت الهمسات بين الطلاب تقول أن السيد الخراساني ـ وهم بذلك يقصدونني ـ قد قُتل، لكنهم هدأوا بعد أن رأوني.

بعد ثلاثة أيام أخرج السيد متاعه من الغرفة، وقد استطعت أن أقطع الأيدي الأجنبية من غرفتي التي هي بمثابة المملكة السلطانية، وأعزف لحن الاستقلال، سعيداً مسروراً، إلّا أنني لم أقطع علاقتي بالمنزل الوقفي بسبب التردد الذي يراودني من تلك الاستخارة.

ذهبت إلى الآخوند في المدرسة الكبيرة التي كانت لمّا تزل في طور البناء. وكان يأتي إلى هناك يومياً فيجلس جانباً ينظر إلى العمال والبنائين ويُسر بذلك، إذ إن النظر إلى عمليات الإعمار خاصة إذا كانت خيرية ـ وهو نوع من الصدقات ـ هو مجلبة للسرور. كان الطابق الأول قد شارف على الانتهاء فطلبت إليه أن يخصّص لي غرفة في تلك المدرسة فأجابني: ولمن تبنى هذه المدارس إذاً؟ ثم رفع صوته: يا ميرزا مهدي، أعطِ السيد أي حجرة يريد وسجّلها باسمه.

فسألني الميرزا مهدي: أي غرفة تريد؟

أشرت إلى واحدة في زاوية المدرسة وقلت: تلك.

قال: إن الجميع يختارون الغرف المفتوحة على فضاء المدرسة، وأنت الساذج تختار هذه الغرفة المعزولة؟

قلت: أريد غرفة للدرس أستطيع أن أُركز فيها أفكاري، وليس للتفرج كي أختارها جميلة المنظر، إذ إن تلك تصلح لأمثالك. والآن قل لي متى أجلب أثاثي ويصبح هذا منزلاً للطلبة؟

قال: بعد شهرين.

قلت: لا تُخلف هذا الوعد فأنا أريد الزواج، وإعطاء الغرفة التي أنا فيها لشخص غيري.

قال: على الرغم من أنني لم أدرس كثيراً، وقد مُنعت من الدراسة، إلّا أنني أفهم أن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[1]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[3] ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾[4].

حين اطمأن بالي من هذه الناحية، ذهبت إلى رفاقي الأصفهانيين الذين كانوا يسكنون في حجرات الصحن وقلت لهم: لقد تركت غرفتي التي في مدرسة الأتراك وأريد أن أعطيكم إياها بشرط أن آتي صيفاً وأنام في سردابها النظيف البارد.

قالوا: نحن موافقون حتى لو شئت أن تبقى هناك طيلة الوقت.

وهكذا بقيت على اتصال بهم في تلك الغرفة لمدة أسبوع، ونمت السنة الأولى بسردابهم، ثم انتقلت تدريجياً إلى مدرسة الآخوند وانشغلت بجد في الدرس والبحث والكتابة. كما واظبت على حضور درس الفلسفة لدى الشيخ الاصطهباناتي الذي كان عدد طلابه يزداد يوماً بعد يوم، وكان من تلاميذ الميرزا محمد حسن الشيرازي وقد اشتهر أغلب زملائه وذاع صيتهم، إلّا هذا المسكين الذي ظل منزوياً فقيراً مديناً إلى الوقت الذي بدأنا نحن فيه بالذهاب إلى درسه حيث ازداد عدد طلابه تدريجياً واشتهر بينهم بالأستاذية. وكان خروجه من العزلة بهذه الصورة قد تم على يدي أو نتيجة دعايتي، ولذا فقد أحبني، وأصبحت موضع سرِّه.

---

(١) سورة المائدة، الآية ١.
(٢) سورة الصف، الآية ٢.
(٣) سورة مريم، الآية ٥٤.
(٤) سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

درس الحكمة المتعالية:

وفي أحد الأيام، ونحن نقترب من شهر رمضان وتعطيل الدراسة، وحين كنت أنا ورفيقي اليزدي وثلاثة من رفاقي الأصفهانيين مجتمعين عنده قال: أليس من المناسب في شهر رمضان المبارك أن ندرس في البحث الخارج مباحث الملّا صدرا[١] التي وصلتني مناولةً، كي يصبح واضحاً أن مقاصده رحمه الله كانت هي الحق، وليس كما يدلّ ظاهر كلماته التي أدت إلى التوهم وأوجبت تكفيره، وأن أحقية بحث مواضيعه منحصرة بي وبكم، وهي موضوعات جيدة، إذا اجتهدتم فيها.

قلنا: نحن متعطشون لفهم الواقعيات، خاصة بحث المعاد الذي هو أمامنا وصراطنا. وسؤال العطشان عما إذا كان يريد ماءً عذباً بارداً لا محل له. فابدأ الآن، فنحن حاضرون وراغبون من صميم قلوبنا، كمَيل المريض إلى الشفاء.

قال: اختاروا المكان والزمان الملائمين.

قلت: إن أردت رأيي فإنّ أغلب الأساتذة، وبسبب قرب بداية العطلات سيُخلون بعض أماكنهم، لذا عليك أن تبادر إلى حجز أحد تلك الأماكن قبل ليلة واحدة من بداية الشهر، على أن ترتقي المنبر بعد ساعة من حلول الليل أو ساعتين. وسوف أتكفل أنا بالباقي حيث سأعلم بقية الزملاء بالزمان والمكان المعينين، وكل شيء يهون بعد ذلك.

وكما اتفقنا فقد أعلنّا بين الطلاب أنّ على كل من لا يعلم شيئاً عن معاده ومصير حياته، أن يحضر إلى الدرس الشيخ الأصطهباناتي حيث إن السير العشوائي في هذا الطريق محفوف بآلاف المخاطر.

ولما كان الطلاب في النجف لا يعرفون شيئاً عن المباحث الفلسفية، بل إن

---

(١) من كبار فلاسفة الإسلام في القرن الحادي عشر الهجري، مزج بين حكمة المشّائين والإشراقيين والفلسفة العرفانية لابن عربي، ومزج الحقائق العرفانية بالبراهين الفلسفية، وهو الذي قال: نحن قد جعلنا مكاشفاتهم الذوقية مطابقة للقوانين البرهانية. (فرهنگ معين). أشهر آرائه ونظرياته: نظرية الحركة الجوهرية في المادة. ورأيه بأصالة الوجود على الماهية. توفي بالبصرة عام ١٠٥٠هـ.

بعضهم كان يرى التكامل مقتصراً على معرفة الفروع وكثرة الاحتمالات الأصولية المتداولة في مباحث الألفاظ والأصول العملية، وأنّ الخوض في الفلسفة والعقائد وكيفية الاستدلال وإقامة البرهان موجب للكفر والضلالة، فقد اعتُبرنا، نحن الروّاد والمروّجين، مضحّين وفدائيين.

ومهما يكن، فإن الشيخ الأصطهباناتي الذي لم يخطر على باله طيلة حياته أن يعتلي منبر التدريس، وأن تتحلّق حوله مجموعة كاملة من الطلاب، قد ارتقى سدة المنبر. ولما كان الطلاب عاطلين عن الدرس في شهر رمضان، وكانت المباحث من أمثال: الوجود والماهية وإثارة الشكوك حولها، وكذلك مبحث الحركة في الجوهر، من المسموعات الجديدة والفاكهة الباكورة، فقد غصّ المسجد والمقبرة والصحن بالفضلاء، حتى بلغنا ليالي الإحياء من شهر رمضان، وقد لمع نجم رئاسة الشيخ، واتسعت حوزته. وكنت أنا وآخرون نمشي خلفه بعد نهاية الدرس حتى باب منزله، نسأله خلالها بعض الأسئلة. وقد انتبهت حينها أن الشيخ العجوز كان مبتهجاً جدّاً لتلك الرئاسة والشهرة اللتين لم يرهما حتى في المنام.

أفل الشهر الكريم ومعه الدرس العظيم:

وبعد انتهاء ليالي الإحياء سألناه أن يأتي لإلقاء الدروس. فقال: لن أدرّس.

قلت: لقد درّستنا المقدمات، ولم تستخلص النتيجة. وإن ذلك يعتبر لغواً عديم الفائدة، بل يوقع في الضلالة. لأن كل طالب من الطلاب كان يتوقع من خلال هذه المقدمات أن يخرج على الأقل من الحيرة والعلم التقليدي المتوارث عن الأبوين. فالعلوم العقلية التي هي من أصول الديانة لا يمكن أن تترك ناقصة. إنها ليست كالمسائل الفقهية والأصول العملية التي إن بلغ بها المرء الاجتهاد أصبح مجتهداً، وإلّا سيكون مقلِّداً.

قال: إن الطلاب لا قدرة لهم على الاستيعاب.

قلت: الأصل في الاستيعاب هو فهم المقدمات. أما تفريع النتيجة فلا يحتاج إلى ذلك. ولقد كان من الأفضل ـ وأنت تنوي ترك الدرس ـ أن لا تبدأ الدروس ولا تعرض المقدمات. وعلى الرغم من كوني لست مغروراً بذكائي، فقد حدست نتيجة تلك المقدمات قبل أن تبيّنها، لأنّ تشخُّص الجسم في المعاد إنما يكون

بالروح وفعلياتها، فهو عين البدن الدنيوي، وفي نفس الوقت هو غير عينه إذ إن صورته وفعليته وغيريته هي من مادة الهيولى وليس فيه مستلزمات المادة.

وبعبارة أخرى: إن الجسم في الدنيا مركب من الهيولى والصورة. وهو في الآخرة محض صورة بغير الهيولى الدنيوية، وحقيقة كل شيء إنما هي بصورته وليس بمادة مبهمة.

فالبدن الأخروي هو عين حقيقة البدن الدنيوي، نظير الصورة المرئية في النوم أو المرآة إذا افترضناها جوهراً حياً.

فقال: نعم هذه هي النتيجة وكما قلتَها.

قلت: إذاً هي لا تحتاج إلى كفاءة كثيرة كي يتخلّى الأستاذ عن تلاميذه ويترك الدرس.

الأستاذ يكشف سرّه:

قال: إن همّي منحصر الآن في تدريس الفقه والأصول بعد نهاية الشهر المبارك. شريطة أن تعينني بعزيمتك. فأنا قد اكتسبت من تدريسي للفلسفة اسم (الحكيم) الذي هو مرتبة اللاإبالية وانعدام الديانة والعلم، ولهذا السبب ابتليت لسنين بالعزلة والفقر والحرمان والديون، بينما أنا في الفقه والأصول مساوٍ على الأقل للآخوند والسيد محمد كاظم اليزدي وغيرهما ممن لهم المقام العالي، إن لم أكن أفضل. وكل ما حدث لي كان بسبب تركي لتدريس الفقه والأصول. ولكوني عُرفت بلقب الحكيم (الفيلسوف) فلن يقبل أحد على تدريسي للأصول إلّا إذا أعنتني بالعزيمة التي أبديتها في درس الفلسفة عندما أوصلت عدد طلابي من اثنين إلى مائتين، حيث سيكون لي درس في الأصول بعد نهاية شهر رمضان في نفس هذه المقبرة. لعل أولادي لا يرون الفاقة من بعدي. ولا تُلقى أمتعة بيتي في الشارع بسبب عدم تمكني من دفع الإيجار.

لا تمت أيها العنز فقد جاء الربيع وسوف يأتي الرمان حبةً حبة[1]

(١) هذا البيت أورده المؤلف للسخرية من الشيخ الاصطهباناتي.

قلت: قد فاتتك الفرصة حينما أتتك القرصة. وفي الصيف ضيَّعت اللبن. ولا يصلاها إلّا واحد بعد واحد، ولا يردها إلّا وارد بعد وارد. أتريد المصارعة بعد أن بلغت الشيخوخة. وإني لأعجب لشدة رجائك بي. إنّ الدهور والأفلاك والكواكب المنتشرة والنَّيرات المتحيرة[١] والأرضين السبع والسماوات السبع والجن والإنس والملائكة والله رب العالمين قد مهّدوا لأولئك العلماء كي يصلوا مبتغاهم. وتريد أنت منّا نحن الذين أحدنا خراساني والثاني يزدي والثالث أصفهاني ـ وكل واحد منا لا يخلو من نقص ـ أن نشدّ من عزائمنا ونقف بوجه كل هذه الموجودات والعلل والمقدمات كي يصل أحد المعدمين إلى ما يريد. إن هذا خارج عن قدرتنا، بل إنّ سبعة من أجدادنا لا يستطيعون ذلك. فلا تحلّق حول هذا كي لا ينفضّ هؤلاء النفر المعدودون من حولك.

قال: ليس الأمر كذلك. وليس في الأمر مستحيل. وكل عمل كبير يكون في بدايته نادراً. وإن همم الرجال تزيل الجبال. ولو شددت عزيمتك فذلك ممكن.

قلت: إن حال السادة الطلاب كحال قطيع الخراف الذين إذا رأوا واحداً منهم قفز عبر الساقية قفزوا خلفه شاؤوا أم أبوا. حتى لو أن الراعي شقّ جيبه لمنعها، وليس هنالك من سدّ سديد يمنعهم. ونحن نرى الآن وجهة هذا القطيع تنحدر صوب الآخوند لسحر بيانه وللنَفَس العيسوي[٢] الذي لديه. وليس باستطاعتنا أن نستعرض عضلاتنا أمامه. وإنّ ما رأيته من ارتفاع عدد طلابك من اثنين ووصولهم المائتين هو لأسباب أخرى:

أولها: أنّ دروس الفلسفة مقتصرة على جنابك، وهي من قبيل الفاكهة الباكورة، والشيء الجديد في النجف، وهو مرغوب بحدّ ذاته، إذ لكل جديد لذة.

والثاني: أنه جاء في وقت تعطيل الدروس (رمضان) وقد اتخذ منه الطلاب وسيلة لرفع كلال النفوس. فكما قيل: تكلّ النفوس كما تكلّ الأبدان، فاحملوها

---

(١) قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم ص٢٢٨: (الكواكب المتحيرة هي التي ترجع وتستقيم وهي خمسة: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد).

(٢) تشبيهاً بأنفاس المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام التي تحيي الموتى.

بطرائف الحكم. وهذا الإقبال الشديد على درسك إنما هو للإراحة وليس للإزاحة. فاقنع بجدّك ولا تتعدّ طورك، كي لا يصيبك الذي أصاب أهل الطمع.

دخل في الحلقة أحد الأدعياء للتفرج فامتدت يد الغيب وضربته على صدره

قال: ليس الأمر كذلك. وإنّ نقاشك مبني على ظواهر الأسباب، وهو أمر لا يخلو من شائبة الشرك. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[1]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].

قلت: نعم، ولكن نحن مأمورون في دار الأسباب، وقد أبى الله إلّا أن يُجري الأمور بأسبابها.

لم يدعني تفوق الأستاذية أن أستمر في الأخذ والردّ معه، وخرجنا من عنده. وفي الطريق سألني الرفاق عما كنت أبغيه من اقتراحي معه؟

قلت: أنا لست من أولئك الذين يستطيع محاصرتهم.

وتحدّث الأصفهاني في الموضوع أيضاً وعقّبت على كلامه.

بينما قال اليزدي: أنا أخالفكما ولن أبخل في سعيي وجدي في الدعاية لهذا العالِم الكبير، وهي لا تخلو من الأجر والثواب، بل إننا سننتفع من البركات بعد انفتاح باب العلم أمامنا، إضافة إلى أننا قد أخذنا بيد مستضعف ونصرنا مظلوماً لا ناصر له:

ما أحلى أن نجني ثمار عملين في آنٍ واحد زيارة الشاه عبد العظيم ولقاء المحبوب

قلت: أيها الروحاني، ألم تكن أنت القائل: إن حضور درس غير الآخوند حرام ومضيعة للعمر. ولم أتمكن من جلبك إلى هذه الحوزة إلّا بالقوة ولطائف الحيل، فكيف أضحت القصعة أكثر سخونة من الحساء؟

فضحك وقال: القصعة النحاسية تعني اليزدي.

قلت: لمعرفتي بعنادك فقد قلت لك مراراً إن عليك شكر الله أن عقد نطفتك بالتشيع، وأصبحت شيعياً بالولادة. ثم افترقنا بعدها حتى نهاية شهر رمضان.

ومن المصادفات الحسنة ـ وبينما كنا نفكر في أعذار نستطيع بها التخلص من درس الأصول للشيخ بعد شهر رمضان والذي هو كتناول خبز الشعير غير المقشور

---

(١) سورة البروج، الآية ٢٠.
(٢) سورة يوسف، الآية ٨٧.

من المائدة التي فيها ما لذّ وطاب من الطعام ـ أن انتابتني الحمى بشكل لم يكن معه داعٍ للزوم الفراش، إلّا أنني لازمت الفراش عمداً. وحين سألت رفيقي اليزدي عما إذا كان درس الشيخ قد بدأ،

قال: نعم، وقد سأل عنك، فأخبرته أنك محموم، فدعا لك كثيراً بالشفاء، وليس من المستبعد أن يأتي لعيادتك إن لم تتحرك وتذهب إلى الدرس.

قلت: إنني لا أريد الشفاء بهذه السرعة، ولا أريد أن يأتي لعيادتي. وأرى أنك تجلب عليّ كل هذه المصائب. فاترك درس أصول هذا الشحص أيها الروحاني. فأي فائدة تُجنى من بطء بيانه وثقل لسانه؟

فقال: إنك لم تجرّب حضور درس من دروسه في الأصول:

لو نظرتَ وميّزت بين يدك والفاكهة يحقّ لك أن تلوم زليخا

قلت: السنة المؤاتية تُعرف من ربيعها. أما الآن وقد وجدت ذريعة للتملص من الدرس، ولا أرى الصلاح الذي تراه فأنت أعرف به.

وفي اليوم التالي جاء بجناب الشيخ لعيادتي حيث جلس فترة وذهب. وكان رفيقي اليزدي كلما جاءني بدواء أو غذاء، يكرّر عليّ ضمن حديثه أن الشيخ الاصطهباناتي يسأل عن حالك، وقد أوصاني أن أخبرك لتذكّر الطبيب أن لا يغفل عن الدواء الفلاني أو الغذاء الفلاني لتشفى بسرعة.

قلت: سواء أشفيت سريعاً أم متأخراً، فلن أحضر درسه. فلتيأسا مني، ولن يؤدي إلحاحكما هذا إلّا إلى أن أخفي وجهي خجلاً عن الشيخ كلما رأيته، وتزول المعرفة التي بيننا، بل يحلّ التناكر محلها. وقد حصل ذلك فعلاً، لأنّ مرضي دام أسبوعاً حتى شفيت بشقّ الأنفس. وكنت كلما رأيت الشيخ الاصطهباناتي أتوارى خجلاً. وقد نسي كلٌّ منا الآخر بمرور الزمن. كما أصبح رفيقي اليزدي التابع للشيخ غريباً هو الآخر. وانقطعت علاقتي به تماماً.

درس غريب وشحة تلاميذ:

أخذوا جناب الشيخ إلى أحد المساجد للتدريس كي يكون في مرأى من الناس، ويذيع صيته. ومن حسن ذلك المسجد أن منبره كان ذا أربع مراقٍ وسدّته

ربما كانت أعلى من ذلك بذراعين، وكأن الجلوس على تلك السدة يجعل البحوث العلمية أكثر. كان ذلك المسكين عاشق الرئاسة يجلس على السدّة. وليت الطلاب كانوا كثيرين إذاً لأمكن تسويغ ارتقائه. إلّا أن عددهم كان منحصراً في اثنين هما: الشيخ اليزدي وشيخ يدعى جعفر الكاشي كانا يجلسان عند قاعدة المنبر ويصغيان بدقة ليسمعا صوت الأستاذ. وكان منظر الدرس هذا باعثاً للضحك بين مجاميع الطلاب في الصحن. ولأن رفيقي اليزدي كان يرى الدعاية للشيخ من أوجب الواجبات، فقد قطع علاقاته مع جميع معارفه من الطلاب الذين لم يحضروا الدرس وتشاجر معهم. وحين يئس منهم اتجه نحو الغرباء. وأخذ يطري مزايا درس الشيخ متخذاً من ذم درس الآخوند أساساً لذلك. ولقّب الشيخ بـ(المطلق) لينحصر التشخيص به فقط. وبعد ليلتين من الدعاية الشاقة والسحر كان يأخذ أحدهم إلى الدرس. وحين يصبح الخبر عياناً يمتنع عن المجيء في الغد. فيذهب اليزدي خلف طالب آخر على أمل اصطحابه معه لدرس الشيخ، وهكذا.

كان أحد رفاقي من أهل گلبايگان يقول إن درس الشيخ الاصطهباناتي مثل الخانات التي بناها الشاه عباس بعيدة عن طريق الزوّار. فكأن صاحبنا اليزدي قد فتح دكاناً للبقالة، فهو يجلس كل يوم على أحد طرق الزوار ويشير إلى محاسن بضاعته. وحين يكتشف الناس دعايته الكاذبة لا يعودون إلى الذهاب للدرس في الليلة التالية. فيتحتم عليه أن يخدع مجموعة أخرى ويصطحبها معه. ولو كان ذا عقل لنقل دكانه من هناك.

قلتُ: إنه ليس من ذوي العناد الذين لا علاج لهم. إن العجب من ذلك الشيخ الذي يعمل بما يمليه عليه هذا الجاهل. فيا جناب الشيخ أي معنى لصعود المنبر مع وجود طالبين اثنين فقط. إنه ليس أمراً تعبدياً. بل لو كان الطلاب كثيرين لكان أمراً حسناً لأنهم سيرون وجه الأستاذ ويسمعون صوته. أما الصعود إلى الدرجة الرابعة من المنبر فسيجعل سماع الصوت شاقاً:

العدو العاقل أفضل من الصديق الجاهل

ولأنني سمعت أن رفيقي اليزدي يتكلم ضد الآخوند فقد ساءني ذلك كثيراً. وجعلني أتغاضى حتى عن تلك الملاحظات التي كنت أؤاخذه عليها. كما انتقلت

نهائياً من الغرفة التي بمنزل الوقف إلى مدرسة الآخوند الكبرى. فقطعت العلاقة تماماً بيني وبين الرفيق اليزدي، إضافة إلى تحملي ألم حديثه ضد الآخوند.

الوباء الرهيب:

وفي تلك الأيام اجتاح النجف وباء عام أرعب القلوب، بحيث كان يدفن في اليوم الواحد ما يقرب من أربعمائة إنسان من النجف وما حولها. وقد نصبت في عدة ميادين من النجف خيام لتغسيل الموتى. ولم يقتصر الأمر على الوباء، بل رافقه رعب وسطوة إلهية زلزلت القلوب وغلبتها بالقدرة: كانت السماء وقت الغروب تُغطى بسُحُب حمراء وصفراء ونارية، والجوّ حاراً جداً. وكنت أسمع من باب غرفتي الواقعة غربي المدرسة والمفضية إلى الباب المتجه إلى طريق الماء حيث دكة غسل الأموات، أسمع كل خمس دقائق نداء (لا إله إلّا الله) يرتفع من هناك، مدللاً أن الميت شخصية كبيرة، لأنه يعادل ما يُنادى به في تشييع عشرة أموات من الفقراء ومتوسطي الحال الذين تحمل جنائزهم بدون نداء (لا إله إلّا الله). كنت خائفاً إلى أقصى حدّ، حيث أحاط بي الوباء من جميع الجهات وانتقل واحد أو اثنان من طلاب المدرسة إلى ديار الآخرة.

وفي إحدى الليالي ـ وكان في ضيافتي سيد من أهل أصفهان، وكنا نائمين على السطح ـ انتابني الإسهال ثلاث مرات، وفي الثالثة شعرت بإنهاك شديد في ركبتيّ بحيث لم تتمكنا معه من حملي إلى السطح، فاضطررت إلى الاستلقاء في رواق الحجرة على الطابوق مستعداً للموت. فاستدعيت السيد الأصفهاني فنزل ليعتني بي. وكان هو الآخر ينتظر حلول الصباح ليهرب.

وكانت الميتة بالوباء سيئة، فالكل يسلمون أرواحهم غرباء دون أن يكون قربهم أهل أو أقارب. ومع ذلك كان الطلاب أكثر اهتماماً ورحمة ببعضهم من رفاق وأقارب عامة الناس.

توارى السيد الأصفهاني عنّي صباحاً. بينما ظللت أنا مستلقياً على الأرض واهن القوى منتظراً الموت، إلّا أن عزرائيل لم يُشرفني بزيارته. فنهضت وذهبت إلى الطبيب الذي وصف لي شراباً فاشتريته من دكان العطار، وشربته كله عند

باب الدكان، فتوقف الإسهال، وانتابتني حالة من الغثيان. ومع أنني لم أتقيأ إلّا أن حالتي كانت من السوء بحيث تملكني خوف ملأ بالقلق والاضطراب قلبي، وكنت على يقين من أن الموت إن لم يختطفني اليوم فغداً.

تركت مدرسة الآخوند وذهبت إلى غرفتي بمدرسة الأتراك قرب رفاقي الأصفهانيين الذين كنت آنس بهم كثيراً، وكي أبتعد عن أخيلة الموت. إلّا أنّ قصصهم ونكاتهم أيضاً لم تفلح في صرف ذهني عن التفكير بالموت، وبلغ بي الأمر حدّاً كنت وأنا جالس معهم ـ لا أسمع شيئاً مما يقولون، وكنت أبتسم حين أنتبه فجأة إلى ضحكاتهم دون أن أعرف سبب هذا الضحك أو القصة التي قيلت.

كنت غارقاً تماماً في التفكير بالموت، وماذا سأجيب لدى تحقيق الملَكَيْن معي. أحياناً أُعدّ أجوبتي المتعلقة بأصول الدين بجملٍ مختصرة مفيدة في ذاكرتي. وأخرى أقول إنه لا يوجد في العالم الآخر ظلم وجور، فبعد الإجابة عن التوحيد لن أُسأل عن مسائل نظير شُبهة (ابن كمونة). وإن هدداني في طلب الجواب لن أصغي إليهما. إذ إنني أعلم أنهما من عبيد الله أيضاً، ويعرفان الله مثلنا على وجه من الوجوه. ومن الممكن أن يناقشهما الإنسان أو يجادلهما. وسأفعل ذلك.

وكنت أفكر في أعمالي أحياناً أخرى، فأقوم بتصنيفها إلى: صلاة وصوم ودرس وبحث ويقظة ونوم وواجبات ومستحبات. وكنت حين لا يحصل لي الاطمئنان القلبي في قبولها أناجي ربي قائلاً: لقد أخذتنا على حين غرّة فأمهلنا ستة أشهر أخرى، آمنّا فيها من هذا البلاء، واتركنا في النعمة التي كنا فيها سابقاً، بل حتى في أي حال. فنحن لا نستطيع مع بقاء هذا البلاء أن نركز انتباهنا للعبادة والاستغفار.

ومن المعروف أن البكاء مفيد أيضاً في تسلية الإنسان وتركيز انتباهه. لذا كنت أحياناً في ذلك الجوّ الحار الخانق ـ الذي يودّ فيه الإنسان أن يدخل مكاناً بارداً أو يستنشق هواءً بارداً كالذي في السرداب، بحيث لا يرى إلّا القليل من اللوحات الجنائزية والمأتمية، خاصة وأنني كنت متيقناً من الموت ـ كنت أذهب إلى حرم الإمام علي عليه السلام حيث الجوّ المقفل فأقرأ زيارة وداعية لعلها تكون سبباً لنجاتي، وبعد الانتهاء من الزيارة كنت أقول: اصغ لكلامي يا علي! أنا لا

أشكّ في أيّ من هذه المقدمات اليقينية. فمن البديهي أن وجودي في النجف لم يكن وليس لأجل الدراسة فقط، وليس لأجل بعض التصورات الواهية المتمثلة بالشهرة والنفوذ والرئاسة وأمثال ذلك مما ينتشر بين الناس. كما تعلم أنت من سري، إن الأصل الأصيل والركن الرُّكين في ذلك هو أنت ولأكون في جوارك وبالقرب منك. فأنت المحبوب. وأنا ضيفك، ولقد قال النبي ﷺ وهو أخوك: «أكرم الضيف ولو كان كافراً». وإني لأقطع بالضرورة أنك أطوع الناس لنبيّك، وكيف وأنت وصيّه وخليفته؟ وأنت القائل: «أنا عبدٌ من عبيد محمد ﷺ» فافرض أني كافر ولستُ بمسلم، واجعل قراي نجاتي من هذا الوباء، وإكرامي التخلص من ميتة السوء. وإن لم تحفظني لكنت شاكياً وأنت مسؤول.

قلت ذلك وذهبت وأنا أقول: أنت تدري. وحين أصبحت في الخارج عاودتني خيالات ما بعد الموت، واستولى عليّ الخوف الشديد ولكنّي كنت على يقين تام أن سببه ليس الوباء والموت فقط، لأنني كنت قد خبرتُ كثيراً من الوقائع غير السارة خاصةً وعامة، كما رأيت الموت كثيراً أيضاً ولم يتملّكني الرعب والخوف بهذه الصورة. إنه الخوف من غضب الله وعلي عليه السلام ذلك الذي أحاط بالقلوب ونفذ إليها.

الحساب قبل يوم الحساب:

وجدت لي خلوة جلست فيها وبدأت التدقيق في أعمالي. فرأيت أيضاً أنه لا يوجد لي عمل يطمئنني وينقذني من العذاب، إلى أن انقدحت بذهني زيارة الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء. عندها قلت: حسناً، من الممكن أن تجد هنا السيل الجارف الذي يغسل جبال معاصيك. وبدأت أُحصي الدموع التي ذرفتها في مجالس العزاء الحسيني، أو في الحضرة الشريفة وغير ذلك فخمّنتها بمائة ألف دمعة منذ بلوغي حتى الآن، وخمّنت أن حجم كل دمعة كان بحجم جناح الذبابة. وهكذا صنعت ألف منقذ من البكاء. ثم بدأت بحساب الخطوات التي قطعتها في طريق الزيارة من أصفهان إلى كربلاء ومن النجف إلى كربلاء أربع أو خمس مرات في السنة. فوجدت أن مجموع خطواتي من أصفهان إلى كربلاء هو مليون ونصف

خطوة. وبين كربلاء والنجف حيث المسافة هي اثنا عشر فرسخاً والعودة منها إلى طويريج ثلاثة فراسخ، فيكون المجموع خمسة عشر فرسخاً. فإذا زرت خمس مرات في السنة يكون مجموع الخطوات في أربع سنوات ثلاثمائة فرسخ أي ثلاثة ملايين خطوة. فإذا جمعناها مع خطوات طريق أصفهان ـ كربلاء أصبح المجموع أربع ملايين ونصف خطوة. إضافة إلى الأذى الذي لقيته في تلك الطرق التي كنت في أغلب الأوقات فيها حافياً، من حرارة الجوّ، إلى دخول الأشواك في قدمي، أو اصطدامهما بالحصى، وسقوطي على الأرض، وإصابة يدي أو قدمي، والخوف والرعب، واحتراق باطن قدميّ من حرارة الرمل أو تقشّر الجلد عنها، والرياح الساخنة التي لفحت رأسي ووجهي، والعطش الذي لقيته مع مسافر آخر حين غادرنا خان المالح وقت العصر، وكانت الرياح الحارة تعصف بنا، فاشترينا إبريقاً ملأناه بالماء وانطلقنا. لم يكن هناك في الطريق زوار. ولم نكد نمشي مائة خطوة في ذلك الجوّ حيث السماء والأرض والهواء كلها تعجّ باللهب، حتى جفت حلوقنا، بل حتى رطوبة أبداننا. كان الإبريق بيدي.

قال لي رفيقي: ناولني إياه لأشرب.

قلت: لن أعطي أصل الوجود هذا حتى لو لم نشرب. فهو أساس حياتنا. وربما كان الماء على بعد فرسخين منا. ولذا لن نشرب من هذا الإبريق حتى نرى لمعان الماء.

ارتفع أنين رفيقي وهو يرمق الإبريق بعينيه: واعطشاه. وكنت أسوأ حال منه، ونحن وسط تلك الرمال الساخنة نندفع مسرعين كي نصل الماء مع ما في المشي على الرمال من صعوبة. وبعد فترة من الزمن والمكابدة رأى رفيقي الذي كانت عيناه حادتين الماء من بعيد، فارتفع صوته مترنماً بحبور، وأشار بيده إلى تلك الجهة لأراه.

عندها تناول الإبريق من يدي، وبدأ يعبّ منه.

ناديته: يا ظالم! إياك أن تشربه كله، فأنا أكثر عطشاً منك.

شرب أكثر من نصفه، ثم ناولنيه فشربت البقية. ومشينا حتى بلغنا الماء. قدّرتُ ذلك الأذى بخمسمائة ألف خطوة. كذلك الأمر عندما كنا نسافر أحياناً

عن طريق الماء ويحدث أن تسير السفينة ببطء فنتركها ونبدأ بالسير بمحاذاة الشاطىء فينال أقدامنا الشوك عند كل خطوة نخطوها.

وهكذا كان الحاصل من الدموع التي بحجم جناح الذبابة هو مليوناً، ومن مجموع الخطوات في طريق الزيارة خمسة ملايين. ومن الأذى الذي لحقني في نفس الطريق خمسين ألفاً. ومن مجموع هذه الثلاثة سيكون واحد منها هو المقبول على وجه اليقين. فإن حدث ذلك على الإجمال، فهو السدّ المنيع من عذاب النار. بقيت عليّ تبعات ومشقّات مناقشاتي في البرزخ وكفالتي وكفايتي منها في عهدة حبي لعلي بن أبي طالب وأولاده المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين. ولفرط سروري أنشدت:

إن كان الموت رجلاً فليأتِ كي أحتضنه بكل ما لدي من قوة

خرجت من خلوتي، بل من العالَم الذي اختلسني، بل عُدت من معراجي وهنّأت نفسي بالنجاة:

سافرت النفس والبدن ظل واقفاً ولذا قال سلام حين الرجعة

ترى من يزعم أن الصلاة والصيام مفيدان فقط في إسقاط التكليف، أو أنه ليس مفيداً فهم الصلاة والصيام والركوع والقيام والسجود والسلام والميزان والحساب والصراط والكتاب؟ ورغم أن الخوف والرعب قد زالا تماماً آنذاك، إلّا أن كون الإيمان مستودع في البعض، ويُستحصل في نهاية العمل، جعلني أرتعد وأقع في الخوف والخشية. فقلت: يا إلهي! هل أقسمتَ أن لا يذوق عبدك طعم الراحة في الدنيا، وأن لا يشرب جرعة ماء هنيئة؟ يا لها من دنيا سيئة!.

منام.. وحوار مع الموتى:

في إحدى ليالي الجمعة رأيت في المنام في فضوة المشراق[١] واحداً من الطلاب الدشتيين الذي كان قد توفي بالوباء قبل خمسة عشر يوماً، كنتُ ذاهباً باتجاه بوابة الكوفة بينما كان هو قادماً من خارج المدينة، فكان يركب بغلاً،

(١) الفضوة: الفضاء الخالي من الأبنية. والمشراق محلة من محلات النجف.

ويضع أمتعته المعبأة في خرج كأنه سجادة على بغل آخر. كما ألقى بطانيات حمر بغدادية على الخرج، ووضع بقية الأمتعة عليها. ظهر أمامي نظيفاً مرتباً يرتدي ملابس جديدة. حين وقعت عيناه علي وقف وهو يضحك. ولما كنت أعلم أنه مات حديثاً فسألته عن حاله: كيف أنت يا شيخ علي؟

قال: جيد جداً. وقد أُذن لي الآن ليلة الجمعة هذه بالمجيء للزيارة.

قلت: كيف أنت بخير؟

قال: إنّ الفاكهة والمكسّرات الممتازة متوفرة لي بكثرة، والغيد الحسان كثيرات أيضاً ولكنهن لا يدعنني أتمتع بهنّ.

قلت: من المؤكد أن الحسان اللواتي أردت الزواج بهنّ هناك متمردات على الأصول.

قال: وما يدريني.

ثم غادرني متجهاً نحو الصحن، بينما اتجهت أنا صوب بوابة المدينة.

وأمي أيضاً:

وحين أصبحت خارجها رأيت أمي التي توفيت قبل اثني عشر عاماً والمدفونة في قوچان بهيئتها الريفية وهي متلفعة بإزار قادمة من جانب البحر ومتجهة إلى الوادي، فتقدمت منها وسألتها: أين أنت الآن؟

فقالت: في جهنم.

قلت: أي هراء هذا؟ لقد قرأت لك كل هذا القرآن، واستغفرت لك كثيراً، وتصدّقتُ عنك، ثم تقولين هذا الكلام؟

قالت: إن ذلك لم ولن يؤثر إطلاقاً.

قلت: إنني غير مقتنع بما تقولين أبداً، لأن النبي الصادق المصدّق ﷺ قال إن هذا النوع من المبرات فيه فائدة كبيرة للأموات، وسبب لنجاتهم وسعادتهم. بل إنني في إحدى المرات قد ذهبت إلى كربلاء لزيارة عرفة بنيّة كونها نيابة عنك. وفي أغلب زياراتي للإمام علي عليه السلام كنت إما أن أزور لك زيارة كاملة، أو أسلّم

نيابة عنك، فقد ورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أن ذلك تترتب عليه فوائد عظيمة. كما روي أن عذاب أحد الأموات المشهود به من قبل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رُفع عنه بعد ذلك، فأمر النبي أن يسألوا عائلته عمّا فعلوا ذلك اليوم من أعمال الخير. فقالوا: كان له طفل أُرسل إلى الكتّاب، وتعلم هذا اليوم البسملة وقرأها فارتفع العذاب عن أبيه.

كانت أعمالي تلك التي قدمتها نيابة عنك خالصة لا أبغي من ورائها شيئاً. ولا يمكن الكذب بهذه الصورة، وأنت تكذبين، وينبغي علي أن آتي وأرى مكانك الذي أنتِ فيه.

قالت: هيا بنا نذهب.

دخلنا المقبرة من ذلك المرتفع، فرأينا وادياً بحجم القرية، وفيه أزقة طويلة. دخلنا زقاقاً يقع بين مقبرة هود وصالح وسور النجف، وطوله يمتد بين الشرق والغرب. اتجهنا ونحن نسير جنباً إلى جنب نحو الغرب، حتى وصلنا قرب مقبرة هود وصالح. كانت أبواب المنازل التي هي عبارة عن حجرات بدون باحات تقع وسط الزقاق، وتبدو للعيان على جانبيه. وعندما وصلنا أحد الأبواب أشارت أمي بيدها إلى أن هذا هو مكانها، ثم توقفت. بينما تقدمت أنا إلى الأمام وأدخلت رأسي في الحجرة وأمعنت النظر في أرضها وسقفها وبابها وجدرانها. لم تكن حديثة البناء. وكانت مجصّصة إلّا أن البلى والقدم واضحان عليها، ولم تكن مفروشة، وليس فيها أي أثاث. وقد بلغ مسامعي من حواليها أصوات بكاء أطفال وآخرين.

نظرت إلى والدتي نظرة أقول فيها: إنك تعلمين أين دفنتِ وأين أنت الآن. هنا وادي السلام ومكانك ليس رديئاً رغم أنه ليس ممتازاً أيضاً، وسيتحسن تدريجياً. لقد قطّعت نياط قلبي بشكواك.

قالت: إنّ ضجيج جيراني هو الذي يؤذيني.

قلت: الحمد لله أنك لستِ في العذاب على الأقل، وهناك أمل في أن يكون الوضع أحسن، ثم تركتها، وجئت إلى النجف. ثم أفقتُ من منامي.

استمر الوباء من أواخر الربيع حتى نهاية الخريف، حيث كان فتّاكاً في البداية إلّا أنه تباطأ بعد أكثر من شهرين. وكان يشتدّ في أواخر كل شهر. ولم يُفرحني موت أي إنسان إلّا موت مغسّل أموات في النجف كان يتولى تغسيل مائة ميت منذ الصباح حتى المساء، ويتقاضى عن كل واحد منهم توماناً واحداً، حيث بلغ دخله بعد شهرين أو ثلاثة وفي وقت انخفاض عدد الوفيات، ما يزيد على ثمانية آلاف تومان. وقد سمعت أنه أعلن عن ابتهاجه وسروره حين سمع أن الوباء قد بدأ يشتدّ في الكوفة مما سيمكنه من تغسيل مائتي جثة في اليوم الواحد. وقد حداه ذلك إلى مغادرة النجف، والذهاب ماشياً إلى الكوفة. وفي الطريق ظهرت عليه إمارات الإصابة بالوباء، فأسلم الروح بذلك القفر في حمّارة القيظ. وقد نال جزاءه وفاقاً لما تمنّاه في أن يفتك الوباء بالمسلمين بشدة.

الحركة الدستورية:

ومنذ هذا التاريخ بدأت كلمة الدستورية[1] تتردد على الأفواه وتدخل آذاننا. وقد ورد استفتاء إلى العلماء يسأل عن الحكم الشرعي في مجلس مكوّن من وجهاء وعقلاء بلدٍ ما بهدف رفع الظلم أو تقليله، فأجابوا أنه من الواجبات الإلهية. وهو حكم عقلي بالضرورة، من غير حاجة إلى البيان وإقامة البرهان. أو إلى اجتهاد واستنباط وترديد واحتياط[2].

وقد جيء بالدستور بعد ذلك إلى الميرزا حسين ابن الميرزا خليل الذي كان من كبار العلماء وأكبرهم سناً، وله كثير من المقلدين في طهران ونواحيها فختمه بختمه.

وقال بعض الحاضرين هناك: لنذهب به إلى بقية العلماء كالآخوند والسيد محمد كاظم اليزدي ليختموه أيضاً.

---

(١) المقصود الحركة الدستورية (المشروطة) التي اندلعت في إيران عام ١٩٠٦ م وقادها علماء الدين ضد حكم مظفر الدين شاه ومحمد علي شاه وطالبوهما بأن تكون السلطة مقيدة بدستور.

(٢) قال المؤرخ ناظم الإسلام كرماني في **تاريخ بيداري إيرانيان** ٢ : ٧١ إن وصول تلك الفتوى إلى إيران كان في ١٣ من ذي الحجة ١٣٢٤هـ. وانظر نص الفتوى في كتاب **تاريخ الحركة الإسلامية في العراق** للدكتور عبد الرحيم الرهيمي ص٢٩٥.

فقال الميرزا: لا داعي لذلك. فإن أختامنا تكفي كي يُنفّذ.

إلا أنهم أخذوه إلى الآخوند فختمه. وحين أخذوه إلى السيد محمد كاظم اليزدي الذي كان قد بلغه قول الميرزا حسين أعلاه قال: لا ضرورة لختمي، فختم الميرزا كافٍ. ولم يختمه، فاستعاضوا عنه بختم الشيخ عبد الله المازندراني[١].

حين قرأت الدستور، واطّلعت على أصوله قلت: أي نعيم هذا فليدمه الله.

نسيني دهراً.. فذكرني بخمس:

وبعد مضي خمس سنوات على مقامي في النجف أرسل لي والدي خمسة تومانات. قلت لنفسي: بعد أن أسقطتُ عنه مائة منّ من ضرائب الدولة، وسُدد دينه البالغ ثمانين توماناً. وبعد أن زرت نيابة عنه زيارة عاشوراء لأربعين يوماً. تصوّر أنني أنا الذي استطعت أن أوفر له كل تلك العائدات، أستطيع أن أفعل ما هو أكثر لنفسي. وكان يطمع أن أرسل له مرتباً سنوياً. ومن المؤكد أن التومانات الخمسة كانت ضربة موجهة لي يقول فيها إن الأمر قد أصبح معكوساً. وحينها مرّ بخاطري أنه ليس له عليّ من سلطان. وهو لا يستطيع أن يمنّ عليّ بقوله: لقد صنعتُ منك عالِماً فتعال إلينا لننتفع بك، وربما لن أكون راغباً في العودة. حسن إذن. إنني في راحة من جميع قيوده وأوامره وملاحظاته، أعيش وحيداً لا أبغي أي شيء منه إطلاقاً. ولأجل هذا لم أكن أسأل عن الزوار أو الحجاج القادمين من مناطقنا، ولا أعلم متى قدموا ومتى ذهبوا.

الاسترزاق من الزوار:

على العكس تماماً من بعض رفاقي الطلبة الذين يهجمون على الزوار المساكين، وقبل أن يكونوا قد حطوا رحالهم بعد على الأرض، ويستلبون منهم أموالهم، بل حتى طعامهم الذي أعدّوه لسفرهم بأنواع الحيل والخدع، ليُعطوهم

(١) ولد عام ١٢٥٩ هـ من الفقهاء المعروفين، درس على السيد علي القزويني، والشيخ مرتضى الأنصاري، والميرزا حبيب الله الرشتي. وهو واحد من ثلاثة مراجع حملوا على عواتقهم عبء الحركة الدستورية في إيران. توفي عام ١٣٣١هـ.

بدلاً منها وصولات بالاستلام وحُجّة أولئك المتحذلقين عديمي الحياء وطالبي الرئاسة أن لهم إذناً بذلك من أمين الشريعة أو موثّق الشريعة أو كشخان الشريعة. وكانوا يرحّبون بهؤلاء الزوّار بشكل يتحملون معه فيما بعد الفضيحة، إذ إن الزائر البائس ولحرارة الاستقبال لا ينتبه أول الأمر، وحين يفكر مع نفسه فيما بعد بهذا النوع من المتظاهرين بالروحانية يجد أنهم أسوأ من أسوأ تركماني[١]، وأنهم قد سرقوه، فيلتهب من رأسه حتى قدميه، ويفتح فمه بالسباب والشكوى. وقد بقي في زماننا هذا غيض من فيضهم.

وهكذا تضيع كل الطبقات الاجتماعية بسبب هذا الصنف من المتظاهرين بالديانة ويضيع الإسلام. والعجيب أن هؤلاء الطفيليين قد أعطوا لأنفسهم صفة مروّجي الإسلام، لأنهم يأمرون الزوار بالمعروف ويقولون للزائر: أعطني الخمس والزكاة اللذين هما حق الإمام، وصالحني على كل مالك المشكوك فيه كي يصبح حلالاً، ولتأكله بعد ذلك طيباً، وإلّا فلن تقبل زيارتك أو عبادتك وحجك وطوافك. والأنكى من ذلك أنهم يأملون من الله سبحانه وبسبب ترويجهم لأحكامه، الدرجات العالية. بل يفتخرون وهم يجتازون صحن الإمام علي عليه السلام بجيوبهم المليئة بنقود الزوار البائسين، بأنهم قد حقّقوا ما حقّقه الإمام علي بذي الفقار الذي طوله ذراع واحد، وما لم يُحققه أحياناً، قد حققوه بلسان طوله أربعة أصابع!

ومنهم من هو أكثر حقارة، حيث يمسك بزمام الزائر المسكين ويصطحبه إلى هذا وذاك. مثلما يفعل الثعلب حينما يخدع حماراً ويقوده إلى عرين أسد مريض ليأكله ويترك شيئاً من فضلاته للثعلب[٢].

ويستنكف بعضهم من التبعية لرئيس ما، أو الذهاب إلى محط القوافل لرؤية المعارف. فيجتمع عددٌ منهم مؤلفين هيئة باسم جند الله والرياضة والتقوى ويعقدون بين الحين والآخر جلساتهم في مسجدي السهلة والكوفة محققين بذلك مآربهم.

---

(١) كانت القبائل التركمانية آنذاك تشنّ غارات على بعض مناطق خراسان وما جاورها، وتنهب وتأسر.
(٢) قصة شهيرة من قصص كليلة ودمنة.

ولست راغباً في فضح أحد أو التشهير به، إلّا أن أمرهم فَقَد قبحه لكثرة شيوعه بين الناس، حتى أن أي غريب يمكنه التعرف إلى أحوالهم لو عاشرهم يومين اثنين فقط حتى دون أن يسأل عنها.

مجانبة لصوص الدين:

ولقد فهمت كل ذلك أخيراً لأنني لست ممن يدسون أنوفهم في كل شيء واعتمد على قواعد: غض البصر وأصالة الصحة وقولوا للناس حسناً. يا إلهي إن لم تكن طاقة لي على خلع الزيّ الروحاني الذي أساء إليه هؤلاء الظالمون ومخربو الشريعة، فذلك يحتاج إلى سليمان بن داود أو قدرته وشوكته. هذا الزي الذي قد أصبح عاراً عليهم، فإنني أستطيع ـ ولكي لا أكون شبيهاً لهم وداخلاً في البلاء الذي هم فيه ـ أن أغيّر في هذا الزيّ.

وهكذا، كنت شيئاً فشيئاً وكلما لففتُ عمامتي أقتطع ما يقدّر بنصف ذراع مما هو تحت الحنك الذي أصبح بالياً أيضاً. إلى أن أصبحت عمامتي لفّتين خلال شهرين فاكتفيت بذلك. وأما عباءتي الخلقة التي دأبت على وضعها على كتفي وإدخال يديّ في فتحتيها، فقد تركت أمر لفّها على نفسي وجعلتها تنزل إلى الأرض فتمسها أو لا تمسها على طريقة العرب في لبس عباءاتهم. وهكذا خرجت تماماً من الهندام الروحاني والطلاّبي، وارتحت من خيره وشرّه. وكنت قد رأيت بخراسان سيئين كُثُر، كما رأيت هنا أنّ من الصعب مع وجود معارف كثيرين أن أختلف عنهم. وحين ذهبت إلى أصفهان دار غربتي شاهدت أيضاً كثيرين من عديمي الدين. وكان أغلب أولئك الذين ذكرتهم عديمي الفهم والدراسة.

حُظوة عند الآخوند:

أما الدارسون الذين كنت في عدادهم، فقد كانت أغلب أهدافهم تندرج تحت قاسم مشترك هو الدنيا. وعندما اطلع أحد رافقي على كتاباتي لدرس الآخوند ألحّ عليّ في أن أعرض على الآخوند نماذج منها ليراها.

قلت: إن من يفعل ذلك يدلّل على أن هدفه هو إما الحصول على المال، أو على إجازة الاجتهاد. ولست طالباً أيّاً منهما، لأن الرزق كما قال تعالى: ﴿وَفِي

﴿ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2] ولو كان رزقي مقدراً له أن يكون بيد الآخوند فسيكون عليه لزاماً أن يوصله لي.

وفي أحد الأيام، وبينما كنت أذاكر مع أحد رفاقي، دخل علينا خادم الآخوند، فسلّم وجلس، إلّا أنه سرعان ما نهض بحجة أن الغرفة حارة جدّاً واتجه إلى رفّ يقع خلف رأس رفيقي كانت عليه مروحة يدوية، فوضع هناك مجيديّين ثم جاء بالمروحة اليدوية، وكانت بالية، فجلس وروَّح بها عن نفسه ثم نهض بعد ذلك مودعاً. وهكذا أصبح واضحاً أن الآخوند قد كلفه بإعطائي نقوداً دون أن يطّلع أحد على ذلك.

وقد سألت ذلك الرجل فيما بعد هل كان للآخوند تقسيم عام للنقود؟ قال: لا.

قلت: فهل سعى أحد لديه نيابة عني؟

قال: لا.

قلت: فهل حدس الآخوند أنني لا أملك شيئاً من النقود؟

قال: لا أعلم. كنا لوحدنا عندما قال لي خذ مجيديين واعطهما لفلان بحيث لا يراك أحد.

وأما إجازة الاجتهاد فقد علمت أنني قد بلغت الاجتهاد بعد سنتين من قدومي إلى النجف، وكان رأيي يتفق في أغلب الأحيان مع رأي الآخوند في المسائل المطروحة للبحث قبل أن يبدي هو رأيه بها، وكنتُ لا أقلّده إلّا في موارد نادرة لا أستطيع فيها استنباط الحكم.

قال صاحبي: إنّ الهدف من عرض كتاباتك على الآخوند لا يقتصر على الأمرين اللذين ذكرتهما. بل هو النظر فيما إذا كانت جيدة، حيث إن ثناءه سيشجعك، وإن لم تكن كذلك غيّرت طريقتك. وإن كنت تخجل فهاتها لآخذها أنا له.

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٢٢.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

كتاباتي عند أستاذي:

أعطيته كراستين أو ثلاثاً من أوائل كتاب **الكفاية** حيث نقلت مبحث المعنى الحرفي. وقلت: خذها إليه ولا تقل لمن هي. وقل إنّ صاحبها يريد أن يعرف إن كانت جيدة أم لا. وإن لم تكن كذلك فليضع ملاحظاته على حواشيها لتكون مشجعاً له.

ذهب إليه، وحين سأله لمن هي، لم يخبره. إلّا أن الأمر عُلم في النهاية بعد أن اكتشفه الآخرون.

وقد طالع الآخوند جميع الكراسات بدقّة وهمّش عليها، وعرف أن لصاحبها شأناً. وقد كتبت بعد ذلك رسالة في أحد الموضوعات فاطلع عليها، وعرف أنني ذو شأن عظيم، وكان الآخوند قد أعطى الكراسات لأحدهم ليقرأها بينما كان هو يستمع، ثم استوقفه عدة مرات وسأله: من كاتبها؟ أجابه شخص لو رأيته لظننته لا يميّز بين الناقة والجمل.

كان السبب في ذلك هو أنني كنت لا أتكلم بحضور العظماء من أمثال الآخوند حتى أنني لم أتكلم طيلة ما يقارب اثني عشر عاماً قضيتها مع الآخوند أكثر من اثنتي عشرة كلمة على الرغم من أنني من عشاقه الذين يفتدونه بأرواحهم لمعرفتي أنه في أعلى مراتب العلم والتدين الخالص.

هجرة الشيخ وتلميذيه:

أما الشيخ الاصطهباناتي الذي تحدثت عنه فيما مضى، فبعد عدة أشهر من اعتلائه سدة ذلك المنبر العالي، ونظراً لعدم حضور الطلاب إلى درسه، سوى طالبين اثنين فقط ـ مما جعل الهيئة التدريسية المذكورة وسيلة للتندّر بين الطلاب ـ فقد آثر الرجل العزلة بشكل مأساوي، ولم يكن له من أحد إلّا عاشقاه الاثنان اللذان كانا أحدهما رفيقي اليزدي العنيد والآخر الكاشي. وقد يئس من الرئاسة في النجف، بل من الحياة فيها. وبسببه كنت قد قطعت علاقتي التي دامت أكثر من سنتين من العِشرة والودّ مع صديقي اليزدي. ولم يكن لأحدنا خبر عن الآخر.

وكان تأثري منه بسب الكلام الجارح الفاضح الذي كان يقذف به الآخوند. بل إن هدفه في الدعاية للشيخ وتعظيمه قد أدى إلى عكس ما توخاه وأصبح سبباً للانتقاص منه.

إن الصباح الذي يؤججه الله يحرق لحية كل من ينفخ عليه لإطفائه

ولأنه كان يعلم بسبب تألمي فقد عاند من جانبه وهجرني هو الآخر أيضاً. وإلّا فإنه لا شأن لي به أو بأستاذه، ولم أقل شيئاً يسيء إليهما. بل كان قلبي يتألم أحياناً لحالهما.

ولما رأوا الحياة عسيرة عليهم في النجف، آثر الثلاثة الذهاب إلى إيران: الشيخ الاصطهباناتي وتلميذاه اليزدي رفيقي والكاشي. وقد صمّموا على الذهاب إلى خراسان وربما كان اختياره لخراسان بتحبيذ من رفيقي اليزدي الذي كان قد نشأ هناك. وبعد اتخاذهم القرار المذكور. جاء رفيقي اليزدي إلى مدرسة الآخوند لوداعي، ولأخذ رأيي بسفره ـ وهذا هو الأهم ـ على الرغم من العداوة:

العدو العاقل أفضل من الصديق الجاهل

دخل غرفتي وبادرني بالسلام. كنت مستلقياً أطالع في كتابي، فأغلقته إلّا أنني لم أنهض، وبقيت مستلقياً كما كنت أفعل أيام صداقتنا الحميمة.

جلس على الحصير وسط الغرفة وقال: إن الشيخ ينوي الذهاب إلى خراسان.

قلت: أي شيخ؟

تغيّر لونه وصُعق. إلّا أنه فخّم من حروفه التي ملأت فمه وقال: جناب الشيخ محمد باقر. بينما كان يتميز غيضاً لِمَ لم ينصرف ذهني أثناء قوله الشيخ مطلقاً إلى الشيخ الكامل. بل هو رأى في ذلك تقليلاً من شأنه حين قرنته بالبقية وسألت طالباً منه التحديد. قرأت ذلك على صفحات وجه ذلك الشيخ المفتون إلّا أنني لم أظهر شيئاً. ثم قلت: من الأفضل له أن لا يذهب. إذ إنه لن يوفق للرئاسة، بل سيفتضح أمره بصورة أكبر مما هو عليه الآن.

وفجأة انفجر وهو يقول: إنّ الشيخ ليس كالآخرين من طلاب الرئاسة. وسواء لديه أحصل عليها أم لم يحصل، فالدنيا لا تساوي لديه شيئاً. كم أنت سيّئ الظن بهذا الشيخ المنزّه عن كل العيوب.

وهنا جلست على ركبتي وقلت وأنا أضحك استهزاءً من أمر ذلك الروحاني الأحمق: هل إنّ علي بن أبي طالب أول أئمتك أم لا؟ وهل تعترف بالأئمة الآخرين أم لا؟ وهل تبكي لمظلوميتهم وعزلتهم أم لا؟ وهل كانوا هم أيضاً متألمين لذلك الحال أم لا؟

قال: إنهم أئمتي، وأنا أبكي لأجل حقوقهم المغتصبة. كما كانوا هم أيضاً محزونين لأجلها. بل إنّ بعضهم قد خاض حروباً لاستردادها.

قلت: إنّ حقوقهم المغتصبة كانت غير الرئاسة. وطلب الرئاسة واجب علي وعليك حين نكون واثقين من أنفسنا، وأن لا نقصّر في التمهيد لذلك، بهدف أن نستردّ حقوق المظلومين من الظالمين، ونمدّ يد العون للمعوزين وننقذهم مما هم فيه.

ينبغي أن يكون جناب الشيخ محمد باقر المنزّه من العيوب ـ كما تقول ـ طالباً للرئاسة، لأنها لم تخصص للفراعنة فقط. بل إنّ الرئاسة العلوية هي رئاسة ونفوذ كلمة أيضاً، إلّا أنها لإحقاق الحق وليست للشهوات.

رأيته وقد انفرجت أسارير وجهه، فالشيخ محمد باقر رغم أنه طالب رئاسة، هو نائب علي عليه السلام أيضاً.

قال: إذاً أين يذهب؟

قلت: أخبره أن يذهب حيثما توجد الرئاسة ونفاذ الكلمة، ولا تخف. فأنا الذي تظنني عدوّاً لك ـ ولستُ كذلك ـ أقول لك هذا وبحسب ما تعلّمته وبصراحة فالمستشار مؤتمن.

أما حصوله على الرئاسة هنا، فكما قلت لك في اليوم الأول، هو أمر مستحيل. حتى الرئاسة التي يقصد من ورائها تدبير المعيشة كما صرّح هو بذلك وأكدتُ له حينها أنّ ذلك غير ممكن، وكنتَ حاضراً وسمعتَ إلّا أنك لم تعرني أذناً صاغية؛ إلى أن بلغت الأمور ما هي عليه الآن وضاع منه حتى ما كان بيده. لأن عرض عضلاته أمام أولئك الذين تمكنوا من الصعود إلى سدة الرئاسة لمؤاتاة الظروف، يشبه الضرب بالحديد البارد، أو جمع الماء بالمنخل، أو حك أنياب

الأفاعي، أو اللعب بذنب النمر. إضافة إلى أن تلك ستكون رئاسة باطلة لأن الهدف منها الدنيا، وإنّ هناك الكثير من أمثاله. وهو إذا ذهب إلى خراسان فلن يمرّ عليه يومان حتى يرى الأسوأ، لأنك قد حضرت معنا وسمعت يوم كنا ندرس عليه **شرح المطالع**[١] كيف أنّ المقدسين كانوا يبتعدون عنا لأننا ندرس الفلسفة وقد وقعنا في الضلالة، مع أن شرح المطالع لم يكن فلسفة، بل منطقاً. وكنا ندرس **شرح التجريد** للقوشجي وقت السحر، وننتهي منه والوقت ما يزال مظلماً. وفي أغلب الأوقات لم يكن الطلاب يستوعبون الدرس خوفاً من أن يكفّرهم الحمير المقدّسون الموجودون هناك.

والآن وبما أن جنابه حكيم عارف بأصول الفلسفة، ومن البديهي أن كل إنسان يحبّ ما لديه من المعلومات على العكس من الناس الذين هم أعداء ما جهلوا، فإنه سينكشف ولو أخفى ألف مرة محبوبه هذا واستتر بالتقية.

إن ظهور هذا الرجل الفيلسوف في مشهد المقدسة سيجعل العلماء هناك يتربصون به لاعتبارات معينة، وبذلك سيقع في الذُّل والهوان وهو ما لا ينبغي وقوعه. ولهذا قلت يجب عليه أن لا يذهب إلى خراسان.

فإن غضّ النظر عن الذهاب إلى هذين المكانين ـ أصفهان وخراسان ـ وذهب إلى طهران. فإن محلة من محلاتها ستكون من نصيبه. وإن ذهب إلى شيراز فسيكون نصفها متبعاً له، بينما النصف الآخر للميرزا إبراهيم الذي هو رئيس هناك فعلاً. أما لو ذهب إلى اصطهبانات التي هي موطنه الأصلي، فإن القصبة بأكملها وما حولها سيكون واقعاً تحت رايته الشرعية وسيطرة نفاذ كلمته. وأنا أطلب السماح من الجميع. فنهض رفيقي وغادر المكان.

عمل الشيخ بالنصيحة:

وبعد أيام سمعنا أن الشيخ الأصطهباناتي قد سافر مع عائلته بصحبة رفيقي اليزدي والشيخ الكاشي اللذين كانا كالخادمين له، إلى شيراز عن طريق البصرة

---

(١) كتاب في المنطق للمولى العلامة قطب الدين محمد بن محمد الرازي البويهي. الذريعة ١٤: ٦٩.

وكما كنت قد توقعت، فقد أصبح هناك ذا كلمة نافذة، كما تزوج ابنة أحد التجار. وهكذا بلغ الشيخ ذو السبعين عاماً مراده وتحسن حاله.

كانت موجة الحركة الدستورية في إيران قد تصاعدت آنذاك، وتصاعد الجدل حولها، وقد بلغني أنه ولسذاجته قد ارتقى المنبر بهمة وعزم، وأثبت لعامة الناس بالبراهين العقلية والنقلية وجوب الدستورية(١).

* * *

المواظبة على زيارة عاشوراء:

منذ أن وصلت النجف وبعد أن كنت قد زرت في أصفهان زيارة عاشوراء لأربعين يوماً، أعقبتها بأخرى بعد أربعين يوماً أيضاً، وحصلت من ورائها على مرامي، لذا فقد كنت مواظباً على هذه الزيارة لأجل التعجيل بظهور الدولة المحمدية وخروج حجة العصر إن كان لي نصيب في تلك الحضرة، إما بالشهادة أو بالرئاسة وكلاهما نور على نور، وأن لا أسقط في الأعمال القذرة التي يعشقها البعض ممن هم معي وينشغلون بها:

أنا عبدٌ لعشقي وحرٌ في العالَمين

كنت أقرأ تلك الزيارة كل جمعة سواء أكنت في النجف أم في كربلاء أم في الطريق بينهما. وأقرأ في أربعين جمعة من السنة:

(أشهد الله على سرّ قلبي أني أحب حجة العصر حبّاً شديداً، وأظنه سيخرج في حياتي إن شاء الله، وأسأل الله أن يوفقني لخدمته ويريني الغرة الحميدة).

---

(١) إنصافاً للأصطهباناتي ننقل هنا حقيقة ما وقع كما ورد في أحد التقارير السرية المرسلة إلى السفارة البريطانية بطهران من أحد مخبريها في مدينة شيراز بتاريخ جمادى الثانية ١٣٠٢: (كان الشيخ محمد باقر الاصطهباناتي وهو أحد علماء شيراز قد كتب شكوى شرح فيها وضع الحكومة والحاكم بمدينة شيراز وأرسلها إلى طهران. فأُرسلت نفس تلك الرسالة إلى حاكم المدينة الذي قام بإحضار المعمّمين والوجهاء إلى مجلسه كما أحضر الشيخ محمد باقر ولامه على الرسالة: فردّ الشيخ: لقد كتبتُ ما كان فيك. فقام بعض المعمّمين وطلبوا إلى الشيخ أن يقبّل يد الحاكم كي يسامحه. فرفض الشيخ قائلاً: إن ذلك إهانة للدين. فأمر الحاكم بحبسه في بيت النائب حسين كي يطرده من المدينة بعد ذلك. إلّا أن الحاكم طلب إحضاره بعد يوم وليلة من الحبس وقال له: بإمكانك البقاء في شيراز إذا رغبت، وإذا شئت ذهبت إلى اصطهبانات، فقد عفوت عنك) انظر وقائع اتفاقية ص٢٣٧.

ديوني تصاعدت فشغلتني:

تصاعد ما اقترضته من رفاقي من نقود خلال سنتين من قرانين وأربعة إلى سبعة وعشرين توماناً. ومهما فكرت في تسديده لم أجد وسيلة لذلك. وعلى الرغم من أن الدائنين لم يكونوا يطالبونني به، بل كانوا يبدون استعدادهم لإقراضي مجدداً. إلّا أنني كنت خجلاً لعدم تسديدي ولطول المدة. وكنت أتشاغل عن ذلك وأتظاهر باللامبالاة، وأقنع نفسي بأنني واحد من أولئك المسلمين الذين اغتصب بعضهم عمداً المئات والآلاف من بعضهم الآخر. وهذه ليست أول قارورة كسرت في الإسلام. إلّا أنني مع كل ذلك لم يفارقني التفكير في ثقل الدين، وكنت حزيناً مهموماً دائماً. وإن حدث أن سهوت عن الأمر وانهمكت في الضحك أو الحديث، فمجرد تذكري له كان يستولي على كل كياني الانقباض والغم.

وقد سألني أحد رفاقي ـ وكان من أهل العرفان ـ يوماً عما يشغل فكري؟

قلت أرى أن هذا الدين سيقتلني آخر الأمر.

سألني: هل كنت قد استدنتَ لقضاء أمر غير مشروع؟

قلت: لا.

قال: أيها المجنون! استدن وانفق كما كنت تفعل وعلى نفس المنوال، ومُت. وإذا قامت القيامة فإنني سأحمل ديونك في رقبتي ـ قال ذلك ثلاث مرات ـ لأنّ الحجة حين يجيء يسدّد أمثال هذه الديون.

قلت: على الرغم من أنك جعلتني سعيداً لدقائق، إلّا أنني لم أسترح بعد من المالنخوليا المستولية عليّ وصدق من قال: لا همّ كهمّ الدين، ولا وجع كوجع العين.

التوسل لقضاء الدين:

ولذا فقد اتجهت إلى تأدية الأعمال المسموعة والمدونة والتوسلات بالأئمة والنبي ﷺ. كما ذهبت لزيارة كربلاء سيراً على الأقدام في غير الأوقات المتعارفة للزيارة. وشكوت همّي تحت قبة الإمام الحسين عليه السلام. ثم عُدت بعد

يومين وصلّيت على النبي ﷺ أربعة عشر ألف مرة على عدد المعصومين الأربعة عشر، حيث جلست على ركبتي بعد صلاتي المغرب والعشاء مستقبلاً القبلة. وحين لم يبق على أذان الفجر إلّا نصف ساعة، كنت قد أتممت ثلاثة عشر ألفاً، أما الألف التي باسم حجة العصر فلم أؤدها إذ ينبغي أن أعلّق المسبحة على الحائط إلى أن تنقضي الحاجة وأؤديها ليلة الجمعة القادمة. وقد جاءت ليلة الجمعة ولم يحدث شيء.

فقمت وتوضأت وبعد أن صليت المغرب والعشاء أمسكت بالمسبحة وصليت الصلوات الألف على النبي ﷺ والتي كنتُ احتفظت بأدائها كرهينة، وقلت: لا يهم أقُضيت الحاجة أم لا. وقد أهديتها لهم ولا أريد مكافأة بدلاً منها. وكان الهدف من أدائي الصلوات والتحدي هو تحريك غيرتهم ليسعفوني بسرعة. إلّا أن شيئاً لم يحدث أيضاً. ثم تمثّلت بعد ذلك في خاطري صورة قبر النبي ﷺ وصلّيت ألف مرة عليه قائلاً: صلى الله عليك يا رسول الله. ثم ذكرت إلى الله حاجتي. فلم يحدث شيء أيضاً.

وعلى أي حال لم أترك شيئاً من كتب الأدعية وما فيها وخواص سور الآيات القرآنية، وما سمعته من الأعمال إلّا أديته لأجل قضاء ديني وسعة رزقي. وحين لم يحدث شيء استولى علي الحزن والغم وازدادت أوهامي وخاصة المضطربة منها حتى أوشكت على الجنون.

التوسل إلى الله مباشرة:

عند عصر الجمعة خرجت من الروضة الحيدرية إلى الصحن وأنا أفكّر في الأدعية والأعمال التي لم تُحدث أثراً. وحين وصلت باب مسجد الهندي مرّ ببالي أنني قد توسلت بالنبي ﷺ والأئمة والأولياء عليهم السلام إلّا أنني لم أتوسل بدون واسطة بالحضرة الإلهية الأزلية، التي بيدها كل شيء وإليها يعود كل شيء.

كان المسجد خالياً حين دخلته والجوّ حاراً، فالتجأت إلى أحد الأعمدة الخلفية وخلعت عباءتي لشدة الحرّ وصلّيت ركعتي قضاء الحاجة وقرأت سورة ياسين وآية ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1] ولكوني وحيداً فقد اكتفيت بتكرار تلك

---

(١) سورة النمل، الآية ٦٢.

الآية ألفاً ومئتي مرة، وانتهيت منها عند الغروب، ثم رفعت يدي إلى الله قائلاً: إن كان أغاظك منّي لجوئي إلى غيرك فأقسم بالله ثلاثاً إنما كان ذلك لكونهم مقربين من حضرتك، ووسائل ووسائط فيضك. وليس معنى ذلك أنهم يستطيعون عمل شيء بدون إذنك كي لا ترضى عن ذلك. وعلى فرض كونه كذلك فماذا تقول الآن؟ لا يمكن القول أنني طلبت حاجتي من باب المسجد وجدرانه. وإنما منك وحدك. ولا يمكنك الرجوع عن قولك: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[1] وإن قلت إنني لم أبلغ حد الاضطرار، فما هو الاضطرار يا ترى؟ أهو الجنون؟ أم الموت همّاً؟ وحينها لن يكون هناك اضطرار. فالمضطر هو الذي لا تصل يده إلى شيء مما في الأرض أو السماء مثلي أنا. فلم يبق لك عذر بعد هذا. ولن أقرأ دعاءً أو ورداً بعد هذا أيضاً. وأنت أدرى بكل شيء. ثم خرجت من المسجد، وحين أصبحت في الصحن سلّمتُ على الإمام. فمرّ بي شخص قد غطى رأسه بعباءته ووضع في يدي ثمانية عشر قراناً، وقال: أرسلها لك الآخوند، ومضى.

رفعت رأسي فوراً نحو السماء وقلت: على الرغم من أن هذا المبلغ جاء في وقته، إذ إن بطني خالية إلّا أنني أرجو أن لا يختلط الأمر، فحاجتي التي طلبتها منك هي أداء دَيني وليس سدّ جوعي. ودَيني هو سبعة وعشرون توماناً نقداً وليس بالتقسيط، فحتى لو كانت مائة تومان على دفعات فلن تحتسب من دَيني، ولن أُغلب مرة أخرى. وقد بلغ السكينُ العظم.

بعد قولي ذلك العتاب تملّكني الأمل بأن الله الذي رأف بحالي حين أرسل لي الثمانية عشر قراناً هذه، سيقضي لي حاجتي. وعليّ أن لا ألحّ حول الموضوع لعدة أيام، فالسماء لا تمطر نقوداً. وسيقضي عنّي ديني تدريجياً. فينبغي عليّ الصبر لأرى ما الذي سيجري في هذا الوادي القفر.

اشتريتُ لحماً، وذهبتُ إلى غرفتي، حيث قضيتُ ليلتي ببالٍ مطمئنٍ وبطنٍ ممتلئة.

ومع انعدام النقود لديّ كان يكفيني دائماً تومانين، أُنفق منهما أكثر من أربعة قرانات للسكر والشاي، وأكثر من قران للتبغ أو السجائر. وكنت لا أُعير أهمية

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

للطعام. بينما كان الشاي والتبغ موجودين لدي دائماً. ولهذا السبب ـ وحين أكون مفلساً جائعاً ـ كان الحياء يمنعني من أن أطلب نقوداً وخبزاً من الله أو أن أستشفع علياً. وحين يحدث أن أكون داخل حرم الإمام وأدعو الله سبحانه بطلب المغفرة والتوفيق في العلم والعمل، ويجيء على لساني طلب السعة في الرزق، كنتُ أتصور حينها أن الإمام علياً يخاطبني قائلاً: فلتبقَ جائعاً لتعلم أن معدتك كانت ستمتلىء من خبز الحنطة لو أنك تخليت عن الشاي والسيجارة. إنني لم أكن قد شبعت حتى من خبز الشعير. وأنت تحوم حولي وتدّعي الاقتداء بي وليس فيك ما يشبهني؟

وآنذاك كنت أحسّ بالخجل، وأغادر الحرم مطأطئاً رأسي. إلّا أنّ هذه الحالة لم تكن تنتابني في حرم سيد الشهداء. وحين كنت أدعو لم يكن الأمر كذلك. حيث أقول كل ما يحلو لي دون خجل أو وجل. لأن الإمام الحسين عليه السلام هو باب رحمة الله الواسعة.

كان غذائي معلوماً في الصيف والخريف حين أكون لا أملك شيئاً. وحين يوجد الطعام فهو عبارة عن الخبز واللبن، وربما أضيف إليه أحياناً التمر أو الرطب. كما كنت أطبخ في الأسبوع مرة أو مرتين ماء اللحم. وفي الشتاء كنت آكل في وجبة الغداء الخبز والجبنة. وعند المساء يكون عشائي الطبيخ أو ماء اللحم.

كلفة وجبات الطعام:

تكلّف وجبة الطبيخ أربع قطع[١] نقدية للرز، واثنين للفحم، وستاً للسمن، وثلاثاً للتمر فيكون المجموع خمس عشرة قطعة. وغالباً ما كنت أطبخ المرق مع الطبيخ ولا أشتري التمر؛ حيث يكلفني المرق عشر قطع نقدية لشراء اللحم، واثنين للفحم، واثنين للجزر الذي أبرشه بواسطة السكّين وأرمي وسطه المتصلّب ولا أنتفع به. أما المبروش فأضيف إليه قدحاً صغيراً من السكنجبين الذي يكلفني خمس قطع نقود، وأضيف المزيج إلى اللحم، وأسكب على الجميع قدحين من الماء الذي سرعان ما يتبخر، فأضع الطعام بعدها في قصعة خالية فيكفيني لثلاث ليالٍ.

---

(١) القران الواحد يساوي ٤٠ قطعة نقدية.

وعلى هذا يكون ما أنفقه يومياً كالآتي: ست قطع للمرق، واثنتا عشرة للطبيخ، وستاً للغداء. فإذا أضفنا إلى ذلك ما أنفقه على الشاي والسجائر والنفط والذي لا يزد عن ست عشرة قطعة. يصبح ما أنفقه يومياً هو قراناً واحداً تماماً. وكنت سلطان وقتي، أسير برأس مرفوع، لا أهتم بأحد في الدنيا إلّا بمن ينفع الناس. ولم يكن ذلك من التكبر المذموم. وكان مجموع نفقات سلطنتي في العام الواحد ستة وثلاثين توماناً، عدا نقود الملابس والإبريق وجرة الماء وحصيري الحجرة والسرداب وموقد النار والقصعة الفخارية وزجاجة الفانوس والقدح الذي ينكسر أحياناً والذهاب إلى الحمّام والحلاقة.

كلفة الملابس:

وكنت قد لبست الملابس التي اشتريتها بثلاثة تومانات لمدة ست سنوات حتى لم يبق من القميص في أواخر أيامه إلّا مقدمته التي تظهر منها الياقة. كما لم تكن ملابسي الداخلية لتستر عورتي. لذا أطلقت على القباء والعباءة اسم (ستار العيوب).

كنت أحتاج كل عام خمسة قرانات للملابس، وخمسة أخرى للأشياء التي ذكرتها. وكنت أحلق رأسي مرة كل أسبوعين، تكلّفني كل واحدة منها عشر قطع نقدية، أي نصف قران في الشهر وستة قرانات في السنة. ولم أكن أذهب للحمام في الأشهر الستة للصيف، لأن حمّامي خلالها يكون حوض المدرسة أو شط الكوفة. أما في الستة أشهر الأخرى فأعطي للحمام عشر قطع نقدية في الأسبوع الواحد. فيكون المجموع قراناً واحداً في الشهر، وستة في السنة.

وهكذا تكون نفقاتي بصورة إجمالية ثمانية وثلاثين توماناً وقرانين في العام الواحد. يصلني من الشيخ المامقاني ثمانية عشر توماناً منها، وثلاثة من الآخوند لا غير. أما النقص في الميزانية فأعوضه بالاستدانة والجوع، أو يصلني من الغيب دون أن يطّلع عليه أحد.

وعند حسابي لنفقاتي لمدة شهر قياساً إلى ما يصلني تبيّن لي ما وصلني منها تبرعاً وما اقترضته. وكان ما أنفقته يفوق دخلي. وفي ذلك ما يثير العجب وقد قررت بعدها أن لا أُجري كشفاً على حساباتي كي لا يُفشى سرّ الله الكريم الجواد العطوف الرحيم، القائم عطاؤه على السرِّ والإخفاء. ويجب أن يكون

عبده ذا ضمير حيّ وعارفاً بالحق. وكنت بصورة عامة ممتناً ومظهراً للامتنان بحيث لم أكن أشكو لأحد أو أُظهر له حاجتي. وإن فعلها أحد غيري كنت أعتبره كافراً بنحو من النواحي. وبعد انتهائي من ورد «أمن يجيب المضطر إذا دعاه. . .» بأسبوع وصلت من خراسان حوالة مالية قدرها مائة تومان للآخوند، كما وصلتني رسالة تقول إن سبعة وعشرين توماناً من تلك المائة مخصصة لي. وعليّ أن أذهب وآخذها منه.

كنت سعيداً لأن الله سبحانه أكثر سمعاً وإنجازاً للأعمال من النبي والأئمة وأسرع إجابة. ذهبت إلى منزل الآخوند وكنت أفكر في الطريق بأن تلك الرسالة كُتبت قبل شهر. وعليه فإن أرضيتها قد هُيِّئت بتأثير الأدعية والأوراد السابقة. وليتني كنت أعلم أنها ستنفعني فيما بعد. وحين وصلت الآخوند أخبرته بأن رسالة بهذا المضمون قد وصلتني. فقال: قد كتبوا لي أيضاً. إلّا أن ذلك التاجر الذي ينبغي أن تؤخذ منه الحوالة غير موجود في النجف فاصبر حتى الأسبوع القادم، وسننفّذ ما جاء في الرسالة عند مجيئه. عندها شعرت بأنني هويت من قمة السعادة إلى الحضيض. وتحولت فرحتي إلى مرارة. وربما كان ذلك جزاءً وفاقاً من الله على تصوراتي التي راودتني في الطريق.

والآن ليس من المعلوم أن أستلم ذلك المبلغ أصلاً. كان قلبي مضطرباً فتمنّيت لو أن تلك الرسالة لم تكن قد وصلت. حيث كنت سأظلّ مرتاح البال. يا إلهي! إنك تعلم أن ذلك لم يكن إلّا مزاحاً صادراً عن قلبي، أو خيالاً ألقاه الشيطان فيه. والله وبالله أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وبيدك ملكوت كل شيء، وأنا مذعن لمضمون أسمائك الجمالية والجلالية. والنبي والأئمة لا يشفعون إلّا لـ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[1]. إنني لست من المؤلهين لعلي أو الحسين عليهما السلام. التوبة التوبة. سوف لن أمزح بعد ذلك. سأغلق باب فمي، ولكن ماذا لباب خيالي؟

يا ويلتاه من عيني وقلبي — فكلما رأت العين تذكر القلب

سأصنع خنجراً نصله من الفولاذ — أفقأ به عيني ليتحرّر قلبي

(١) سورة النبأ، الآية ٣٨.

أداء الدين:

وبعد أسبوع وصلت النقود فأديت دَيني.

وفي ذلك العام (١٣٢٥هـ) كان قد مضى على وجودي في النجف سبع سنوات، كنت خلالها منشغلاً بالدراسة. أنهيت فيها دورة ونصفاً من دروس أصول الآخوند، حضرت فيها الدروس وكتبتها. إلّا أن الورق الذي كتبت عليه الدروس من **مقدمة الواجب** أول أيام حضوري دروسه وإلى انتهاء **مباحث الألفاظ** لم يكن جيداً.

وفي الحقيقة فإنّ شروعي بالكتابة مع التحقيق والنظر، والورق الخميسي الصقيل المخطط قد بدأ بدرس الأصول العملية، تلك الدورة التي انتهت بمسألة الاجتهاد والتقليد. وحين بدأ الآخوند دروس الدورة الثانية التي تبدأ من أول مباحث الألفاظ كنت أكتب في ورق جيد أيضاً مع الدقة والتحقيق. إلّا أن كتاب الآخوند **كفاية الأصول** كان قد طبع منه آنذاك دورة أو دورتان. وقررت في البداية أن تكون كتاباتي شرحاً على متن **الكفاية**، ولم أكد أشرح عدة أسطر منها حتى اكتشفت أن في بعض مواضعها عدة أسطر وحتى نصف صفحة لا تحتاج إلى شرح، بل إن الأستاذ قد كرّر وبسّط كثيراً بعبارات مغلقة بطريقته الخاصة. فكتبت المباحث ولم أنقل عبارات **الكفاية** بنصها إلاّ في المواضع المستعصية. وأخيراً تركت عبارات **الكفاية** مطلقاً، وكتبت البحوث مرتبة ومنقحة حتى أنهيت مباحث الألفاظ بصورة متقنة.

وأعطيت الكراسات التي كتبتها لأحد رفاقي الذي طلبها منّي. فكونت كرّاسات **مباحث الألفاظ** مجلّداً. بينما شكلت **الأصول العملية** جزءاً آخر، لأن أوراق كراسات هذين المبحثين لم تكن متعادلة، وقد أصبح متداولاً بين أيدي رفاقي الطلاب واستنسخوه. كما كنت قد كتبت أثناء ذلك كتاباً في **الفقه**. إلاّ أنني بعد أن أنهيت دورة كاملة في **الأصول** كنت أحضر الدروس بعدها للاستماع فقط، إذ إن أغلب كتاباتي ومعظم تفكيري كانا منحصرين في الفقه. وكان لي مع بعض الطلاب وأبناء السادة مناقشات في الفقه والأصول.

زيارة كربلاء:

كان لي ولرفاقي الطلاب المقيمين في النجف زيارة لمدينة كربلاء في مناسبات: الأربعين، ونصف رجب، ونصف شعبان، وعرفة من كل عام. وكانوا يذهبون أحياناً إلى هناك أول شهر رجب، وفي عيد الفطر، وعاشوراء. وجميعها من المستحبات. وقد لا يذهبون في عاشوراء إلى هناك لأنهم يرون أن المآتم ومظاهر الحزن في مدينة النجف هي أكثر تأثيراً في النفس. لذا يظلون فيها ويزورون منها.

وغالباً ما كنت أذهب للزيارة مع بعض الرفاق، إلّا أن مصاحبتي لهم كانت لا تتعدّى اللقاء في أول خان وآخر خان. أما وسط الطريق فقد كنت أسير وحدي نظراً لكوني أسرع منهم. وكنت أفكر حين أكون وحيداً بحركات وأوضاع بعض الأمور السماوية أثناء سيري. فكرت مرة في تفسير الخبر الذي قيل فيه إن الإمام الصادق عليه السلام أجاب أحدهم رداً على سؤالٍ منه عن المجرّة، فقال: «إن الماء لم يكن ينزل من السماء في زمن النبي نوح، قطرة قطرة. بل إن السماء انفطرت وتدفق الماء منها دفعة واحدة. ثم إن جرح الشرخ السماوي قد اندمل فيما بعد وخلّف في مكانه خطاً أبيض هو المجرّة». وفي توجيه الخبر الذي يقول إن البيت المعمور قد بُني في السماء مقابل الكعبة، وأن ذلك قد وقع خلال أربعٍ وعشرين ساعة. وذلك نادر بين الكثير. والنادر كالمعدوم وأمثال ذلك.

التمايز الطبقي:

عند منتصف شهر رجب دبّرت توماناً واحداً، وتوجهت كعادتي إلى كربلاء. كان الجوّ بأرضه وسمائه في الفراسخ الثلاثة الأخيرة حاراً، بينما كنت أنا أمشي حافياً دائماً إذ لم يكن السير ممكناً بالحذاء. كان الفصل ربيعاً آنذاك، وفي مَوْسم الخس الذي لم أكن أميل إليه، أو إلى الرقي وأمثالهما في ذلك الوقت. إلّا أن الحرارة في ذلك السفر أثرت عليّ، إضافة إلى رؤيتي لبعض أبناء السادة من كربلاء الذين كانوا يأتون النجف للدراسة وكيف كانوا يركبون البغال الجيدة التي كانوا ينزلون عنها للاستراحة أحياناً ويتخلّفون عني، ثم سرعان ما يلحقون بي

ويتقدمونني. إن رؤيتي لهم كانت تجعلني أشعر بالمرارة. فأنا لست أقل منهم قدراً. إذاً هذا التفاوت؟

أحسست بقلبي يحترق إلى الدرجة التي قررت فيها أن أشتري بمجرد وصولي إلى كربلاء حقة أو أكثر من الخس وآكله مع السكنجبين لينطفىء اللهيب الذي يستعر في كبدي. ونفَّذت قراري، واشتريت بعد وصولي ما نويت شراءه، أي الخس وفنجان واحد من السكنجبين، وأخذتهما إلى مسجد مدرسة حسن خان وكان خالياً. جلست ومددت يدي إلى وسط أول رأس من الخس كي أنتزع وسطه الذي يمتاز بالرقة، إلّا أنني اكتشفت أن وسطه قد انتزع منه. انتقلت إلى الثاني فوجدته كذلك وهكذا بقية الخس. أما ما بقي من أوراقه فقد حاولت أن ألوكه إلّا أنه كان كجلد الثور عصيّاً على الفكين. ملأتني المرارة واللوعة، وضاقت بي الأرض والسماء بشكل لا أستطيع وصفه. كما اكتشفت أن ذلك السكنجبين قد مُزج بقليل من الماء فأحسست حين تجرعته ـ وكان كالماء الحار ـ كأني تناولت مقيئاً.

ولما كان احتراقي يزداد، فقد قررت النوم للقضاء على الإرهاق الذي اجتاحني من شدة سَورة الحرارة الطارئة. وضعت حذائي تحت رأسي واستلقيت على حصير المسجد.

وفي تلك اللحظات غزت أفكاري صور أبناء السادة الذين كانوا يركبون البغال في الطريق إلى كربلاء، وأنهم الآن ليسوا مثلي، بل هم مستلقون على الفرش المخملية، وقد وضعوا تحت رؤوسهم الوسائد المحشوة بريش البط ليناموا هانئين. ثم إنّ الغضب استولى عليّ مجدداً، فناجيت ربي: إلى متى تبتليني؟ إن هذا يكفي فاتركني.

لك ما تريد:

نمت قليلاً واستيقظت عصراً فأديت صلاتي، وزرتُ الإمام، وحين خرجت وأصبحت في الصحن التقى بي أحد رفاقي وسألني عن مكان إقامتي.

قلت: ليس لي مكان حتى الآن.

قال: تعال معي، فنحنُ مجموعة من الأصدقاء الخراسانيين قد اتخذنا لنا منزلاً في المدينة الجديدة.

وافقته على رأيه وذهبت إليهم في المساء. فنهضوا لي احتراماً وأجلسوني على حَشِيّة في صدر المجلس. تناولنا بعدها شيئاً من الطعام وتجاذبنا أطراف الحديث. فلما حل وقت النوم قالوا: ليستلق كل واحد في المكان الذي هو جالس فيه الآن. فنمت أنا على تلك الحشية، وتذكرت ما خطر ببالي حين كنت في المسجد.

التفت إلى الأصحاب الموجودين هناك وقلت: أتعلمون لِمَ لمْ ينم أحد في هذه الغرفة سواي على حشية؟

قالوا: لا.

قلت: لأنني كنتُ قد طلبتُ من الله أن أنام على واحدةٍ مثلها. وأنا على يقين بأن الله سبحانه قد جعل ما تمنيته واقعاً ليقول لي: ما الذي فُضّلت فيه من منامك عليها، على أولئك الذين لم يناموا عليها؟ إنني الآن أشعر بالاشمئزاز من هذه الحشية. فيا إلهي إنني سأقبل بعد الآن كل ما تريده أنت. وإن كان ما يأتي منك من ابتلاء أحياناً كثير على ابن آدم مما يؤدي به إلى التحرّق.



الفصل الخامس

الزواج وموت الآخوند وحوادث أخرى...

الأمل بالزواج

صباحاً وفي وسط الصحن قال لي رفاقي الذين كانوا معي في الليل: إن كنت تريد الزواج، فصلِّ ركعتين بعد زيارة حبيب بن مظاهر[1] واقرأ سورة يس واهدِ ثوابها إلى روح حبيب ثم اسأل الله حاجتك، بحيث إنك لن تأتي إلى زيارته مرة أخرى إلّا وعندك زوجة. وما أقوله لك هو شيء مجرَّب.

قلت: إنه عمل سهل، إلّا أن زواجي من ضمن المستحيلات.

أخيراً ذهبت وفعلت كما قال لي هذا الرفيق، إلّا أنني حين طلبت إلى الله حاجتي عقّبت قائلاً: أنا أريد زوجة أعيش معها بسعادة وهناء، لا أن تطوّق رقبتي بطوق اللعنة، قدِّر أنت الآن وضعي الذي لا أستطيع فيه توفير احتياجاتي الشخصية، فكيف بالزوجة والأطفال الذين هم حقاً بئر الويل، والطمع الحاد، وجهنم الدنيا التي مهما قلت لها: هل امتلأت؟ فتقول هل من مزيد؟

لقد دأبت على البقاء أحياناً دون غداء أو عشاء، ومع ذلك لا أجرؤ على الاستدانة من أصحابي، ومن غير الممكن أن أصبر مع وجود الزوجة والأطفال على عدم وجود الطعام. والاقتراض أثقل عليّ من جبل أُحد.

أنا الآن ساكن في وادٍ غير ذي زرع، ولست من الوجهاء أو من أتباعهم، كما أستنكف عن ممارسة بعض الأعمال. إن هذه الدار الدنيا هي دار أسباب.

---

(١) من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام الذين استشهدوا معه في كربلاء، وهو مدفون قرب ضريحه.

والأسباب العادية منقطعة عن أمثالي. ومن المعلوم أن الله لا يعطي الرزق للإنسان بزنبيل من السماء. ولم يفعل ذلك إلّا لواحد أو اثنين من رسله. إنني أترقّب من مسألة زواجي وأنا على هذا الحال من العوز وقوع أمر غير عادي في فترة زمنية قصيرة، إذ ينبغي أن تكون رغبتي حين آتي للزيارة القادمة في منتصف شعبان قد تحققت، بحيث أنام وأصحو لأجد الزوجة قد نبتت في غرفتي بالمدرسة كما ينبت العشب ومعها مستلزمات العيش إلى آخر العمر. إن ذلك قريب من الاستحالة كاستحالة وجود شريك للباري عزّ وجلّ. وهو من المعجزات الكبيرة، وربما قارب معجزة شق القمر أي مما لا يمكن أن يتمّ إلّا بأمر الله ورسوله. إن حاجتي ليست الحصول على زوجة فقط، وإنما العيش بشكل طبيعي كما هو متعارف كي لا أكون في موقف حرج أمام المرأة أو أعرّض للخجل. كل ذلك ينبغي أن يتم حين آتي من النجف لزيارة نصف شعبان.

وإن لم يكن بالإمكان تدبير الزوجة ومستلزماتها فلست راضياً أن تُخطى خطوة واحدة لأجلي كي يوضع حمل آخر على جَمَلي. وها أنا قد قلت كل شيء بصراحة: فإما البقاء دون زواج حيث تكفيني مسؤولية قيامي بأعباء نفسي. وإما إن دُبِّر زواجي فليكن حسب الأصول ومن جميع الجهات والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في اليوم التالي عُدت سيراً على الأقدام عن طريق طويريج وركبت الزورق إلى النجف وواصلت انشغالي بالدراسة والبحث، ونسيت ذلك الموضوع. وحين كنت أرغب في التمتُّع كنت أذهب إلى المنزل الوقفي الذي كنت أقيم فيه سابقاً ـ إذ إن ذلك لم يكن متعارفاً في المدارس كمدرسة الآخوند الكبيرة ـ وقد بقيت لي في المنزل الوقفي علاقات صداقة مع ساكنيه حيث مكّنني ذلك أن أتمتع باللواتي بلغن سن اليأس ممن كنّ يترددن عليه. وكنّ يوافقن على ذلك حتى بالدَّين.

وفي أحد الأيام، وبعد أن حصلت بشقّ الأنفس على قرانٍ واحد، توجهت إلى ذلك المنزل بحثاً عن واحدة من النساء اللواتي كنّ يترددن عليه، والتي كنت مَديناً لها على وجه الخصوص، علّني أؤدي دَيْنها السابق، وأدفع نقداً ما يمكّنني من الدخول إلى الثواب مجدداً. أما ما يتبقّى من القران، فسأشتري به لحماً لأُعدّ به طعام العشاء في المدرسة، لأني كنت قد دعوت أحد الطلبة لتناول (ماء اللحم).

الزواج المؤقت يتيسّر رغم العوز:

حين تحركت باتجاه المنزل، لاح لي وأنا أمشي في الطريق شيء يلمع في التراب، رفعته من الأرض فإذا به قران إيراني قديم. تملّكني السرور وكأنني أُعطيت الدنيا بأسرها، حتى إن سلطنة شداد وفرعون لم تكن لتستحق هذا السرور، بل إنني أوشكت على أن أُصعق. ثم دخلتُ المنزل وأنا ممتلىء بذلك القدر من السرور، فوجدت ـ لحسن المصادفات ـ تلك المرأة هناك. فتمتعتها باثني عشر نقداً. وبعد الانتهاء، وإسكات نداء الشهوة واللذة النفسانية عن هذا الطريق الحلال والمستحب المؤكد، الذي جُمع فيه واجبان مؤكدان أحدهما التولّي والآخر التبرؤ، أعطيت ذلك القران الذي ساوى لديّ الدنيا إلى تلك المرأة وقلت لها: خذي الاثني عشر التي كنتُ مديناً بها لكِ، مع اثني عشر أخرى عن هذا اليوم، وأعطني الباقي الذي هو ستة عشر الآن. قالت لتبقَ البقية عندي إلى الأسبوع القادم أو الشهر القادم. قلت: أيتها المغفلة! إنّ لي أكثر من حاجة بتلك النقود.

أخذت بقية نقودي واغتسلت من الجنابة في حوض ذلك المنزل الذي كان قد بُني تحت سقف السرداب. كان ماؤه بارداً، فخرجت بسرعة وتوجهت إلى حرم الإمام علي عليه السلام وقرأت زيارة (أمين الله) وصليّت ركعتين ـ بينما كان جسمي لا يزال رطباً من الغسل وكذلك شعر لحيتي ـ وأنا أشعر أن علياً عليه السلام قد سُرّ كثيراً لرؤيتي. خرجت من الحرم واشتريت بالنقود التي معي لحماً بثلاث قطع، وحمّصاً بثلاث، وفحماً بثلاث أخرى أيضاً. ثم عُدت إلى حجرتي ووضعت اللحم على النار.

البركة.. كلّ البركة:

أما الآن، فاصغ جيداً إلى ما صنعه ذلك القرن: لقد ورد عن المعصومين عليهم السلام «أنّ من جامع مَن أحلّها الله كان كمن قتل كافراً» بل كأنه قتل كافراً كبيراً كعمرو بن عبد ودّ. وهو قتل لشهوة النفس الأمّارة. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[1]. وواضح أن حديث النبي والأئمة عليهم السلام

---

(١) في **مفتاح كنوز السنة** ص٣٧٦ والحديث موجود في **صحيح البخاري وسُنن الترمذي وصحيح مسلم** وغيرها.

له معانٍ باطنية مثل القرآن، «إن حديثنا صعب مستصعب» إذاً فالمقصود من السلب ليس منحصراً في المقتنيات فحسب، بل إنّ الجنة الأخروية لذلك الكافر ستُخصّص لقاتله كما في ذيل الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾[1].

وقد رُوي أن كل فرد من البشر الذين يأتون إلى الدنيا يُهيأ له مكان في الجنة، وآخر في جهنم، وبحكم ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[2] فإن المنزلين يوضعان أمام بصره. وحين يذهب إلى أي منزل فإنه يورِّث الثاني لأهل تلك المحلة التي كان ينتمي إليها في الدنيا، حتى لو كانت الرابطة هي رابطة قاتل ومقتول. إذاً فعلاوة على جنَّتي سأرث أيضاً جنّة ذلك الكافر الملعون الذي قتلته.

كما روي أيضاً: «أن من قارب من تحلّ له مقاربتها؛ بنى الله له قصراً في الجنة» ومن المؤكد أن ذلك القصر أفضل من قصر وجنة شدّاد.

وممّا روي أيضاً: «أن من أتى هذا العمل واغتسل؛ خلق الله له من كل قطرة من ماء غسله ملكاً يستغفر له ويطلب له العون».

ومن المؤكد أن هؤلاء الملائكة أنشط وأكثر رأفة من جيش فرعون على الإنسان. فهُم قد خلقوا من قطرات ماء غسل هذا الرجل وهذه القطرات كأنما هي خُلقت من نطفته، ولها حكم الولد. ولأن الغُسل تهيأ مع طهارة هي أنقى من الوضوء، فقد تشرّفت بزيارة الحرم. وكل زيارة لعلي بن أبي طالب عليه السلام تعادل ملايين الملايين التي لو جُمعت خزائن الدنيا، لعُدّت نقطة في بحرها، فكيف بخزائن السلاطين.

وبالطبع فإن علي بن أبي طالب عليه السلام قد فرح لرؤيتي في الحرم وبدني رطب لسببين:

الأول: الموالاة له، إذاً فقد وجبت لي الجنة.

والثاني: البراءة من أعدائه، وهذا يوجب لي الجنة أيضاً، نتيجة لإدخالي السرور على قلب مؤمن.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١١.

(٢) سورة البلد، الآية ١٠.

وكنت قد أعددتُ الطعام ببقية ذلك القران. وبديهي أن الطالب الذي سدّ احتياجات أسفل بطنه، وعلى خير ما يرام سيكون سعيداً فرحاً خصوصاً أنها جاءت مجّاناً. فلا شك في ذلك، ولا نهاية لسروره حتى أنه لا يوجد سلطان ذاق تلك اللذة في سلطانه؛ لأنّ الملك إذا كان رؤوفاً ومهتماً برعيته وجب عليه أن يتحمل مشقة أَوَدِهِم ليلاً ونهاراً. ولن يهنأ له حينها عيشُ نهارٍ أو منامُ ليل وإن كان ظالماً فعلاوة على مصائبه في الآخرة، فإنه سيكون في قلق دائم وتشويش بال من أن تتمرد عليه الرعية أو تتفق ضده مع أحد غيره.

أما ذلك الطالب فقد تناول طعامه، واستلقى على الفراش مستريح البال، هانئاً دون منّة من أحد أو وقوع في شراك الأوهام، غير عابىء بالدنيا، وقد استولى عليه النوم. هذا شأنه في دنياه، وذاك شأنه في آخرته. وماذا يطلب الأعمى من الله سوى عينين بصيرتين؟

وإضافة إلى ذلك فقد أديت حق شكر نعم الله تعالى واستزدت منها. لأن معنى الشكر كما قال العلماء المحققون ليس باللفظ فقط. بل هو استخدام النعمة التي يعطيها الله في المكان الملائم الذي خصصه لها سبحانه. فمثلاً استخدام العين في رؤية آيات الله ومطالعة الكتب الإلهية هو شكر لنعمة البصر. واستخدامها في النظر إلى ما حرَّم الله وعورات الناس كفران لتلك النعمة. وقس على ذلك الأذن واللسان واليد والرجل. وكان أفضل وجوه استخدام ذلك القِران الذي وهبه الله لي ذلك التمتع الذي أطفأت به نار الشهوة، وفقأت به عين العدو، وأدخلت السرور على قلب علي عليه السلام وتناولت مقداراً من اللحم، فأبعدت عنّي سوء الخلق الناتج عن عدم أكل اللحم كما استضفت الضيف الذي هو حبيب الله. إذاً فقد أديت أعلى ما أستطيع من درجات الشكر. ومن المؤكد وبحسب: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] فإنّ هذا القران ستتبعه قرانات أخرى. فأي سلطان يبلغ ما بلغت: من يكون شداد أو من يكون فرعون تجاه أحد الطلبة المخبتين البسطاء، وهو الذي ملأت رأسه نيران العنجهية فنادى: أنا ربكم الأعلى؟ وأين هو من

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

ضيفي المقيم في المدرسة الذي دعوته قائلاً: تعال لنهجم على (ماء اللحم) هذا. فإنه قد مضى على حلول الظلام ساعتان، والليلة ليلة المبعث، وفيها زيارة، وعلينا أن نخرج متأخرين من الحرم. فوافقني على ذلك قائلاً: حَلّت البركة.

عروض زواج بالجملة:

خرجت من الحرم الساعة الثانية عشرة مساء، وأسرعت في السير كي أصل المدرسة وأُعدّ ماء اللحم للأكل. كان هناك اثنان من رفاقي الخراسانيين جالسين في الصحن، طلبا إليّ الجلوس معهما فاستجبت. وكان أحدهما قد تزوج فتاة من أهل مدينة كربلاء. قال لي: لماذا لا تتزوج؟

قلت: إنك تعلم أنّ من كان عاري المؤخرة لا ينبغي له أن يلعب بالنار. وأي شيء عندي كي أتزوج؟

قال: إن الزواج لا يتطلب شيئاً، ولن يُحدث تغييراً كبيراً في النفقة. ولقد جرّبت ذلك سنين طويلة منذ زواجي.

قلت: إن هذا غير معقول، فالمرأة لا يمكن أن تكون حتى مثل الرفيق الذي يعيش معي وأنا أتحمل نفقاته. بل هي بئر البلاء الذي لن يمتلىء، وكلما قيل له: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ بل إن نفقات معسكر سلطاني الذي يضم ثلاثين ألف جندي أقل من نفقاتها. فلا تقل (امرأة) بل بلاء سماوي. ألم يبلغك قول النبي ﷺ: «يأتي زمان حلّت العزوبة فيه» إلّا أن العزوبة في بعض الأمكنة كالنجف واجبة لطلبة العلم. خاصة لمن كان مثلي لا يملكنَّ من أسباب العيش إلّا ما يقيم أوده. ألم يمنع الآخوند زواج الطلاب، وقال مازحاً: إن الطالب في النجف يحتاج إلى زوج يعيله، وهو ليس بحاجة إلى امرأة يعيلها. ألم يقل النبي: «ذُبحت العلوم في فروج النساء».

قال: إنّ أهم نفقات الإنسان هي الشاي والسكر ولوازمهما واللحم ولوازم طبخه. ومن دأبك أن يكون معك واحد من الطلاب حين تشرب الشاي، وبإمكانك أن تستعيض عن ذلك الطالب بامرأة تشرب معك قدحاً أو قدحين. إذاً لن تزيد نفقاتك عما هي عليه في أمر الشاي. وكذلك لن يختلف الأمر معك في

اللحم، إذ إنك لم تكن وحدك يوماً في تناولك الطعام. فبدلاً من هذا الشريك ستكون زوجتك. وليس هناك من فرق في إنارة الغرفة بمصباح حين يكون فيها واحد أو اثنان. أما رغيف الخبز فسيصبح اثنين. إضافة إلى أنك لم تأخذ مخصصات الخبز من الآخوند طيلة خمس أو ست سنوات، بينما يأخذ جميع الخراسانيين والأصفهانيين ذلك منه. وأنا أتعهد أن يتحمل الآخوند نفقات خبزك. وأما الدرس، فوالله إن دراستي وبحثي قد تحسّنا بعد زواجي، لأن الإنسان يكون مرتاح البال من إدارة شؤون المنزل، حيث ستأخذها المرأة على عاتقها. نعم إن الاختلاف بين حالة العزوبة والزواج سيكون في إيجار المسكن. فهل تعجز عن توفير ذلك، أي ثلاث ليرات في السنة، ولو من أجور الصوم والصلاة نيابة؟

قلت: إن كان الأمر متوقفاً على الثلاث ليرات هذه، فقد تأخرت كثيراً. انهضوا وابحثوا لي عن واحدة واثنين وثلاث وأربع. وإن كنتُ لا أعتقد أن المسألة بهذه السهولة التي وصفتموها. فأنا على الرغم من كوني غير متزوج إلّا أن ما رأيته وسمعته من المتزوجين يجعلني أقدّر المصائب والابتلاءات والتأنيب والمخاوف والخجل والخيانة مما لا مجال لشرحه.

قال: إن تلك المشاكل إنما تصدر عن سوء الخلق. إن أقاربي الكربلائيين قد جاؤوا لزيارتنا وهم موجودون الآن في البيت. وهم عائلة شريفة، وعندهم بنت أيضاً. ولي بهم اختلاط وعلاقة لسنين طويلة. فإذا سمحت لي فسوف أخطبها لك.

قلت: يا شيخ! لقد تقدمت بسرعة في الموضوع، وجعلته نقداً وجاهزاً، بينما أنا أتخوف منه، وأراه يحتاج إلى تفكير عميق، فهو من المسائل المستعصية.

قال: أُهيىء لك الأمور، وأنت تقول لم يحن حينها بعد؟!

قلت: إن كان الأمر كما تقول فقد تأخرنا. وإن لديّ ضيفاً في غرفتي ينتظرني وينبغي أن أذهب. ثم نهضت وذهبت وتعشيت مع ضيفي ونمت وأنا سابح في الأفكار.

الاستخارة للزواج:

استيقظت في الصباح واستخرت بالاستخارة المعروفة بـ(ذات الرقاع) حيث يؤتى بست رقاع، كُتب في ثلاث منها (افعل) وفي الثلاث الأخرى (لا تفعل) وتوضع تحت الفراش، ثم تسحب على التوالي. وقد سحبت الأولى فكانت (افعل) بينما كانت الثانية (لا تفعل). والثالثة والرابعة (افعل). وعلى الرغم من كون الاستخارة حسنة. إلّا أن مجيء (لا تفعل) في الرقعة الثانية يجعلها سيئة قليلاً كما هو مجرّب لدى العلماء.

جاء حضرة الشيخ الخاطب صباحاً إلى المدرسة، وأخبرني أنه قد تحدث معهم في الموضوع، وأخبروه أنهم سيُجرون استخارة، وهم يريدون رؤيتك على أي حال.

وأضاف: بإمكانك الحضور لديّ في البيت عصراً، حيث أقيم فيه مجلساً للعزاء الحسيني.

قلت: سأجيء وينبغي عليك أن تشير لي بإشارة خاصة إلى أبيها لعلّي أستنبط شيئاً من طوله وهيئته على قاعدة (البعرة تدل على البعير)، كي لا أُخطىء الهدف.

عندما رأيت أباها عصراً في المجلس، وجدته وضيع الأصل، ذليلاً كما تبادر إلى ذهني للوهلة الأولى. أطرقت رأسي وأنا افكر بتؤدة قائلاً: إنّ النظرة الأولى حمقاء. دقّقت النظر فيه ثانياً محاذراً أن يفطن لي أحد. فرأيت أيضاً نفس ما رأيته في المرة الأولى. والظاهر عنوان الباطن، والإناء ينضح بما فيه. وقد ثبت بالبيّنة العادلة والشهود العديدين أنه هو. أما ما الذي استنتجه هو عنّي فلم أعبأ به. ومرّ ببالي سؤالي الله سبحانه قبل خمسة عشر يوماً حاجتي في ضريح حبيب بن مظاهر. فتكدّر خاطري من حبيب وممن هو أكبر من حبيب ثمّ نهضت من المجلس، وذهبت إلى مرقد الإمام علي عليه السلام وخاطبته: يا علي. أنت لا تسعف إنساناً. وإن أسعفته، فإن ذلك يتمُّ بأسوأ الوجوه. إنني لم أكن راغباً في الزواج، وما طلبتُه في مرقد حبيب كان مشروطاً بآلاف الشروط. لقد أردت امرأة تسعدني، وليست واحدة تجلب عليَّ الويل وتقصّر من عمري. ويبدو أنني لستُ راغباً في

ابنة هذا الشخص. ولن أريد امرأة إن كان الأمر على هذه الشاكلة. لقد قضيت ثلاثين سنة من عمري هكذا، ولم تسقط السماء أو تتزعزع الأرض. كنتُ خلالها مرتاح البال، شاكراً لله سبحانه. وإنّ المرأة السيئة تجعل المؤمن كافراً. فأي لزوم لذلك؟ لقد كانت رغبة لم تتحقق. فليكن. فأنا لا أريد الزواج.

بعد ذلك العرض زرت زيارة (أمين الله) وصلّيت ركعتين بعدها. وعلى العادة رفعت يديّ بالأدعية التي كان من بينها قولي: يا إلهي! لقد تحدثت في ضريح حبيب بن مظاهر بكلام. ففهم صاحبي على الظاهر وحسب طبعه العربي مني ما أدّى به إلى العجلة في إتمام موضوع زواجي من ابنة أقاربه. فأسألك يا إلهي أن لا تُتم هذا الأمر بوضع عقبة أمامه. وفي تلك اللحظة دخل في روعي أنني قد تجاوزت حدود الأدب. فإن لم يكن هذا العمل وما يليه من الله فهو لن يتحقق. وإن كان من هؤلاء، فلا حاجة لهذا الإلحاح والاغترار بفهمي فأنا لا أريد ما أرادوه.

وعدا عن ذلك فإن فهمي قاصر عن إدراك حقيقة الأشياء، إذ كثيراً ما تكون الظواهر سيئة، بينما بواطنها حسنة، وقد يقع العكس. والله يُخرج الحي من الميت والميت من الحي. وسواء أكان الأب سيئاً أم حسن الخلق، فليس من المؤكد أن يكون أولاده سيئين. والله هو الذي يعلم ما هو صالح أو طالح لنا أفضل منّا. وإنّ على أمثالي أن يكونوا في مقام الفناء والتسليم، وأنا بحمد الله كذلك. وإن كل هذا الإلحاح والتعلق بهذا المطلب غير لائق. لقد كانت غفلة منّي. فاللعنة على تلك الغفلة التي أخرجتني عن طوري. ولا يمكن للمعصية أن تصدر عن الإنسان المؤمن إلّا حين يغفل عن مقام الإيمان، وإنما تأتي الغفلة من الإنسان بسبب تعلقه بالدنيا وأهل الدنيا.

التراجع عن الخطأ فضيلة:

ذهبت إلى ضريح الإمام علي والتصقت بشبّاكه وقلت: يا أُذن الله الواعية. لقد أخطأتُ وأنا مقرّ بتقصيري، فاعفُ عني بلطفك العميم، وانظر إلي نظرة رحيمة. التوبة التوبة. التوبة. إن كان حبيب مشغولاً، فليكن. فأنا حاضر من صميم قلبي وأنا مريدك. وليتصرف بطريقة عربية أو أعجمية. فأنا كنت حتى الآن أريد زوجة، وأنا أريد الآن حبيباً وذوقه ومن يختاره، وهو الذي يعدّ من أحبّ

فدائيي الحسين الذي هو قرة عينيك. وأنت ولي الله وبابه وعينه وأذنه ولسانه و﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[١]، وأنت نقطة تلك الفاء التي في ﴿فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ وحين تنزل تصبح نقطة الباء التي تحت «بسم الله» فمن أكون أنا كي أستعرض عضلاتي أمام حوارييك أو أتجادل معك؟

غادرت الحرم، وذهبت إلى المدرسة، وجلست أنتظر الأخبار والواردات الغيبية. وعند صباح اليوم التالي، وكان الجمعة، دخل إلى غرفتي الشيخ الذي توسَّط لي في الخطبة، وقال وهو يرتعد بينما جفّ ريقه: عندما خرج أبوها من الحرم بين الطلوعين وهو وقت استخارته سألته عما قالت الاستخارة فقال: إنها سيئة. وبعد أن وجهت إليه العتاب واستيائي من عدم وقوع المصاهرة. تأثر هو من جانبه، وغادر منزلنا متجهاً إلى كربلاء. وعلى أي حال فإنني أعرف الآن في النجف أربع بنات جيدات. فإذا رأيت الصلاح في اختيار أية واحدة فانهض لأباشر العمل خلال يومين.

ابتسمت وأنا أقول له: اجلس، فلا داعي للغضب والغيظ. إلّا أن الشيخ لم يكن على علم بما في باطني، ولا ما وقع لي بعد خروجي من الحرم. وقد حدست بصورة مختصرة أن هذه الخاتمة قد حُدّدت من قبل حبيب. وأنّ استخارة أبيها لم تكن سيئة إلّا أن امتناعه هذا كان في باطنه نتيجة عدم رضى حبيب ولاستشارته ـ بحسب الظاهر ـ أصدقاء له من كربلاء. ولأنني أظهرت دلالاً في المسألة بادىء الأمر. فإن حبيباً أيضاً قد قرر أن يقابلني بالمثل، وتخلّى عن الأمر وردّني.

ومع ذلك قلت لحضرة ذلك الشيخ: إنني لم أكن راغباً في زوجة. إلّا أنك ألححت عليّ وجعلتني أوافق، أنا الذي لم أذلّ نفسي حتى الآن كي أطلب زوجة لي ممن لا لياقة لهم ولا يساوي أحدهم فلسين، العوام الذين هم كالأنعام. وهم سيزوّجونها لأحدٍ ما على أي حال. وحين تمنّعوا أرادوا أن يعلموني برفضهم لي. فاللعنة عليك أيها الزمان حين يتمنّع من هم من أوساطنا عن تزويجنا. وها أنتَ جئتَ الآن لتعلمني بوجود أربعة أماكن أخرى توجد فيها فتيات للزواج. فأقسم بالله، إن لم يتحقق الزواج هذه المرة. فسوف أترك الأمر إلى الأبد وأعيش

---

(١) سورة الفتح، الآية ١٠.

بقية عمري وحيداً: أداوي جراحات اللسان التي حمّلوني إياها، وأخفّف من ألم الحجر الذي رموا به جبهتي، وأنسى إهانتهم لي، فكل ذلك كافٍ لأن يؤذي حتى جدي السابع.

اذهب وقل للشيخ أن يُخرج فكرة الزواج من رأسه، ويتخلى عن الأمر، وينشغل بكل هدوء واطمئنان بالدرس والبحث:

يا صديقي! لو أنّ الأمور جاءت متّسقة فإنّ النملة يمكنها أن تصبح سليمان

الزيارة الشعبانية:

أودعت الأمر زاوية النسيان، حتى جاء النصف من شعبان، حيث اعتدت زيارة كربلاء. وكان من عادتي في تلك الزيارات أن أرتدي ثياباً بالية. فإذا حدث وكنت وحيداً في الطريق وقت المساء أو النهار وطمع فيّ أحد قطاع الطرق، فلن يجد ما يُغريه. لذا فقد ارتديت قباء كان لديّ في السنة الأولى لقدومي، وكان ممزقاً من كل ناحيةٍ فيه. كما لبست حذاء بالياً أيضاً ذهب عقبه تماماً، بينما كان مفتوحاً من مقدمته على الرغم من أنني لم أكن ألبسه في الطريق، بل أثناء إقامتي بكربلاء ليومين أو ثلاثة. ولبست أيضاً عباءة وقميصاً باليين، إضافة إلى الملابس الداخلية التي لم تكن غالباً تسترني، ويعلم الله كيف كان حالها. ولم يكن لي ما يكفيني في سفري هذا من النقود.

أخذت معي سبعة قرانات، على الرغم من أن خمسة منها يمكن أن تكفيني حيث أنفق واحداً في الذهاب وآخر في الإياب بينما أنفق الثلاثة الأخرى أثناء إقامتي في كربلاء ليومين أو ثلاثة. ولم أكن أقيم في كربلاء أكثر من ثلاثة أيام، إذ لم أكن أرتاح للإقامة أكثر من ذلك عملاً بالقاعدة المروية «زوروا وانصرفوا» لأن الإطالة تجعل الاشتياق النقي يزول تدريجياً. ويبدأ القلب بالقساوة والاسوداد، ويدخل الشرك والرياء إلى الزيارة.

والسبب الآخر هو أن سيد الشهداء عليه السلام اشترى أراضي كربلاء ووضعها في أيدي المالكين الأوائل شريطة أن يضيّفوا الزوار في الثلاثة أيام الأولى. ويبدو أن هذا الشرط يسري على أي مالك جديد يشتري هذه الأراضي من مالكيها الأوائل،

وينبغي أن يعملوا به، وهكذا إلى يوم القيامة. وكانت هذه المعاملة ممكنة في السنين الماضية التي كان فيها الزوار قليلي العدد ومقبولة من المزارعين، إلّا أن ازدياد أعداد الزوار في السنوات الأخيرة ليصل إلى نصف مليون كل عام، وهو عدد ضخم، حتى أنه إذا حدث ما يشبه الحج الأكبر حين يجتمع عيد الأضحى مع النوروز مع يوم الجمعة، فإن عدد الزوار يصل إلى ثلاثمائة ألف حسب إحصائيات الحكومة التي تقول إن عدد الحجاج إلى الديار المقدسة قد لا يبلغ هذا الرقم. فإذا كان يجتمع في الزيارة الواحدة ما يقرب من ثلاثمائة ألف إلى نصف مليون أو أقل، فإن عددهم في السنة الواحدة مجتمعين أو متفرقين يمكن أن يصل المليون. كلّ تلك الأمور جعلت قبول المعاملة القديمة غير ممكنة من قبل المزارعين. حيث إن إطعام هؤلاء لليوم الواحد يستلزم ألفي حمل، ويحتاج إطعام دوابهم إلى خمسة آلاف حمل شعير وعشرة آلاف حمل تبن. ويرتفع ذلك خلال ثلاثة أيام إلى عشرين ألف حمل من الحبوب، وثلاثين ألف حمل من التبن. ومن المعلوم أن المزارعين يزرعون بنظام المناصفة. فينبغي أن يكون ناتجهم أربعين ألف حمل من الحبوب في السنة الواحدة. وإذا أردنا أن نحدّد حرم الإمام الحسين عليه السلام فسيبلغ ثلاثة فراسخ من كل جهة على أكثر تقدير وفرسخاً واحداً على الأقل. وبما أن مربعنا من الأراضي هو ذو ستة فراسخ في كلّ ضلع منه، فإن الحاصل من ضربنا ٦ × ٦ يكون **٣٦** فرسخاً مربعاً. ولو كانت جميع هذه الأراضي زراعية لأمكن عندها أن يصل محصولها إلى أربعين ألفاً.

أما الطرف الجنوبي من قصبة كربلاء مما لا يُسقى أو يزرع، فلو فرضنا أن كربلاء تقع في مركز هذا المربع كما يستنتج من تحديد العلماء، فسيكون نصف ذلك المربع غير مزروع، والنصف الآخر لا يعطي محصولاً جيداً، لأن كل فرسخ لا يمكن أن يعطي إلّا ما يقل عن ألفَيْ حمل. إلّا إذا وضعنا كربلاء بين الضلعين الجنوبي والغربي لذلك المربع، في حين يصل الضلعان الشمالي والشرقي منه إلى المربع المسيب وجرف نهر الفرات. وبالمحصلة فإن أراضي ذلك المربع كانت وما تزال قابلة للزراعة على هذا الفرض. وإن كان أغلبها لا يزرع فعلاً.

والمعضلة الأخرى أن القيمة المعقولة لذلك المحصول لو حُسبت بخمسة

تومانات للحمل الواحد لزادت في السنة على مائتي ألف تومان، وعشرة أضعاف هذا المبلغ الذي هو قيمة الأرض سيكون مليوني تومان أي عشرين مليون قران. ولو استبدلنا القران بالدرهم الذي هو نصف مثقال وثلاثة أخماس حبة الحمص، فينبغي لسيد الشهداء أن يأتي بمائتي حمل فضة إلى العراق لشراء تلك الأراضي. وهذا بعيد بحسب ما هو متعارف.

ولو افترضنا الحرم فرسخين في فرسخين سيكون الناتج أربعة فراسخ مربعة. فيكون تسعة أضعاف ذلك المبلغ مقارباً لـ٢٢ حمل فضة، وهذا ليس بمستبعد. إلّا أن ذلك الناتج لا يمكن أن يأتي من هذا المقدار من الأراضي إلّا أن يكون شرط إطعام الزوار قد وضع في السنين الأولى لأجل ترويج أمر الزيارة وذيوعها بين المسلمين. فافهم وتأمل.

كان ذلك ما جال بخاطري وأنا في طريقي لزيارة كربلاء في النصف من شعبان، وقد استمرت تلك الأفكار من خان المالح حتى خان النخيلة وهي مسافة تقدر بثلاثة فراسخ ونصف.

حين وصلت خان النخيلة اشتدت حرارة الجوّ. لم يبق بيني وبين كربلاء سوى ثلاثة فراسخ. كانت مجاميع الزوار تحط رحالها في الخان، ثم يمكثون قليلاً ويأكلون طعام الغداء ثم يغادرون. ولأنني كنت وحيداً أسافر ماشياً فقد مكثت هناك فترة أطول لأستريح من وعثاء السفر. وبقيت إلى ما بعد الزوال بقليل حيث بدأت حرارة الجوّ تخفّ. غادرت المكان بعد أن شربت كمية كبيرة من الماء، إذ إنه لا يوجد ماء في المسافة الفاصلة بين خان النخيلة وكربلاء. كما لم يكن معي وعاء لحمله. لذا فقد آثرت أن أودع كمية من الماء في بطني غافلاً عن أن البطن لم تكن في يوم من الأيام من حملة الأمانات. فكل ما وضع فيها تتصرف فيه فوراً فيكون معدوماً بعد ساعة، سواء أكان حلالاً أم حراماً، صغيراً أم كبيراً، طاهراً أم نجساً. لا فرق بين كل ذلك وهي تهضمه بأسره.

قطعت ما يقارب من ألف خطوة كانت الشمس خلالها في مواجهتي، بينما كانت الرمال ساخنة إلى الدرجة التي أحرقت قدميّ. غلبني الظمأ فأوصلت نفسي إلى أحد مجاميع الزوار وسألتهم إن كان لديهم قليل من الماء، فأجابوا بالنفي. عدوت نحو مجموعة أخرى أجابت بالنفي أيضاً. وهكذا قطعت ما يقرب من

نصف فرسخ كنت أسأل مجاميع الزوار عن الماء فيجيبون بالنفي. والسبب في عدم حملهم الماء هو قرب كربلاء منهم، ولأنهم كانوا يركبون الدواب فلا حاجة بهم إلى الماء إذاً. وأخيراً اشتدّ ظمئي بعد أن يئست من الحصول على الماء، وجفّ ما في بدني من رطوبة بسبب الركض وزيادة التّعرق والحركات العنيفة وحرارة الشمس.

ولاحت لي كربلاء:

بمجرد أن لاح لي بريق قبة الإمام الحسين عليه السلام وسواد بساتين كربلاء، انتقل ذهني مباشرة إلى صحراء كربلاء. فرأيت سيد الشهداء وحيداً وقد أحاط به ذلك العسكر الجرّار. كان لمعان القبة المتلألئة وسط سواد البساتين، إضافة إلى عطشي الشديد قد جعلني أكاد أتلمس بصورة واقعية ما كنت أتصوره في خيالي. انتابني البكاء الجارف، ولكي لا يسمع الزوار نشيجي، فقد ابتعدت عنهم مسافة مائتي خطوة. كنت أعدو كالغزال في ذلك القفر، بينما كان صوت بكائي يتصاعد، ودموعي تنحدر على وجهي ولحيتي كالمطر لتستقر على الأرض.

كنت أستمع أحياناً إلى نداء: «هل من ناصر ينصرني» الذي أطلقه الإمام الحسين عليه السلام فكنت أجيبه وسط نشيجي المرتفع: لبّيك. ثم أضاعف من ركضي إلى الدرجة التي نسيت نفسي فيها تماماً.

رأيت العسكر وهو يُضرم النيران في مخيم الحسين عليه السلام فتتصاعد ألسنة اللهب والدخان. سمّرت عيني على سواد كربلاء. ومرت بخاطري الأطوار المختلفة لتلك الصحراء المثيرة للأسى، فأقسم بالله أنني لم أكن أعلم حينها وأنا أعدو بغير إرادتي، أوقعت في حفرة أم دُستُ على أشواك. فجأة ومن بين ألسنة اللهب المنبعث من الخيام المشتعلة، انطلقت النساء والأطفال يركضون متناثرين في الصحراء الواقعة إلى الجنوب من المخيم باتجاه النجف. كانت بعض النساء يتعثرن بأذيال عباءاتهن فيقعن على الأرض.

استولى عليّ الاضطراب، فأسرعت لإنقاذهنّ فتعثرت قدمي بجذور الأعشاب وسقطت على وجهي بشدة، لم أكن أحسّ بشيء، على الرغم من الجراح التي أصابت أصابع قدمي، فجميع حواسي كانت مركزة على تلك الصحراء المرعبة.

لم أتوقف عن البكاء والنحيب والجري خلال المسافة التي امتدت فرسخين ونصفاً حتى رأيت نفسي داخل مدينة كربلاء في أحد الأزقة.

أداء الزيارة:

وحين وقعت عيناي على أبوابها وجدرانها وبناياتها عدت إلى نفسي واستولى عليّ الخجل والحياء من الناس. جففت دموعي وتوقفت عن الجري، ولبست حذائي الخلق، وألقيت عباءتي على كتفي. توضأت من حوض الماء الذي في صحن سيد الشهداء عليه السلام ودخلت الحرم، وقضيت ساعة في الزيارة، خرجت بعدها متوجهاً لزيارة أبي الفضل العباس عليه السلام ثم عدت بعد ذلك إلى صحن سيد الشهداء عليه السلام.

كنت لا أزال واقفاً في أحد زوايا الصحن أتجاذب أطراف الحديث مع بعض الرفاق، والوقت قبل الغروب بساعتين، حين دقت الساعة الواقعة عند باب صحن سيد الشهداء عليه السلام والتي كانت من نوع الساعة الصغيرة الموجودة في الصحن الجديد للمشهد المقدس. وحين أصغيت إلى صوتها الرقيق النفّاذ. وأتمت دقاتها العشر سمعت صوتاً يقول بوضوح: «هل من ناصر؟ هل من ناصر؟ هل من ناصر؟» وهكذا إلى عشر مرات. فاقشعر بدني وأصختُ السمع لأرى من أين سيأتي الجواب، بينما اغرورقت عيناي بالدموع، حيث لم يكن هناك من مجيب.

وفجأة ارتفع من الساعة الكبيرة لصحن أبي الفضل العباس صوت دقاتها الغليظ وهو يقول: «لبيك... لبيك... لبيك» إلى عشر مرات أيضاً. فكفكفت دموعي وقلت: فديتُ وفاءك، إذ كنت أيضاً أنت من ردّ الجواب. سعدت لوجود ناصر حتى الآن، وانحدرت دموعي مرة أخرى لفرط سعادتي. ثم تذكرت فجأة العطش الذي أصابني وأنا في الطريق، وبينما كنت غارقاً في خيالي، توضأت وذهبت لزيارة الحرمين وعدت إلى المكان الذي كنت واقفاً فيه. فانتبهت إلى أنني قد قطعت خمس مراحل لم أتناول فيها الماء، ومع ذلك لم أستشعر العطش. فكيف يمكن تفسير ذلك من خلال الطرق الطبيعية؟ ومن أي ماء ارتويت؟

التقى بي أحد رفاق زيارتي في منتصف شهر شعبان، حيث ذهبنا مساء برفقة ثلاثة أو أربعة آخرين إلى نفس ذلك المنزل في المدينة الجديدة والذي كنا فيه في منتصف شهر رجب، كانت ليلة سبت. مُدّ السماط، ووضع عليه الطعام الذي كان (ماء لحم). وكان في المجلس ذلك الشيخ الذي كان قد رغَّبني بالزواج في منتصف شهر رجب. قال: أيها الأصحاب! إن كل من يأكل البصل ليلة السبت سيحصل على نقود. قال آخر: بشرط أن تكون اللقم الثلاث الأولى من طعامه مع البصل إضافة إلى شرط آخر هو أن يأكل الحلوى على الريق ويقول: اللهم العن اليهودي الخيبري.

ولأنّ الغريق يتشبّث بكل حشيش، والفقير يدعو بكل عزيمة ويشد بكل تميمة، فقد احتطتُ وأتيت بكل ما قيل بشرطه وشروطه.

عودة إلى الزواج:

في الصباح، وقبل أن نخرج من المنزل، جاء رفيقي الذي تولى الخطبة لي فيما مضى وقال: إنني الآن مقيم لدى أهل الفتاة التي خطبتها لك. فإذا أعطيتني إذناً فسأفتح الموضوع.

قلت: إن تحدثت فتحدث بلغة من لا يُعير الأمر اهتماماً كبيراً، اسألهم إن كانوا يوافقون على زواجي بمهر السُنّة[١]، وإياك من الإلحاح أو التكرار. فأنا لا أُريد امرأة منك. لذا فإن كلمة واحدة تقولها لهم بهدوء ورويّة ستكون كافية.

ولأن الله سبحانه مسبّب الأسباب سيجعل لهذه سبباً أيضاً إن كانت مقدرة، وإلّا فلو اجتمع الثقلان على أن يُخرجوا هذا الأمر من حيّز الاستحالة لما استطاعوا.

نهض الشيخ، ولم تمضِ ساعة حتى عاد وقال لي: أخبر بعض رفاقك النجفيين، واتِ بهم قبل الظهر إلى منزل فلان الهندي إمام جماعة صحن العباس

(١) هو المهر الذي جعله رسول الله ﷺ صداقاً لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام وهو خمسمائة درهم ويعادل خمسين ديناراً. (ش).

الذي هو من جيرانهم، حيث سينعقد حفل الاستقبال في بيته. قلت له: إنني لن أجيء معهم. قال: لا بدّ من مجيئك.

وقبل ساعتين من الظهر، ذهبت مع بعض الرفاق، فرأيت أنه لم يكن في المجلس مَن ثيابه أكثر رثاثة مني. فاستولى عليّ الخجل بين الكربلائيين، إلّا أنني حين رأيت بين رفاقي النجفيين سيداً يرتدي ملابس جيدة قلت لنفسي: إن الكربلائيين ليس لديهم من معلومات عن العريس سوى أنه سيد نجفي. وهم لا يميزون بيني وبين غيري. ولذا فسيحتملون أن العريس هو من يرتدي الملابس الجيدة. ولكي أضلّل الكربلائيين فقد فتحت منديلي ووضعت قطعة الحلوى التي أعطوني إياها فيه بمنتهى الوقاحة.

خرجت من الغرفة، فجاء أبو الزوجة وأعطاني عشرين ليرة ذهباً صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين من سهم الإمام عليه السلام كي أعطيها بعنوان المهر لهم.

أخبرني الشيخ بعدها أن آتي قبيل الغروب إلى نفس ذلك المنزل مع أصحابي لإجراء العقد الميمون.

قلت: وكم هو المهر؟

قال: خمس وعشرون ليرة معجلة، وخمس عشرة مؤجلة فيكون المجموع أربعين ليرة[1]، طبقاً لميقات موسى أربعين ليلة.

أعطيت الشيخ عشرين ليرة ليعطيها لهم. وذهبت عصراً إلى هناك حيث تمّ العقد، وكان من ضمنه شرطان: أن لا أنتقل من الإقامة في العتبات المقدسة إلى مكان آخر دون رضاها. والثاني أن تكون هي الوكيل في الطلاق عن نفسها.

أسرَّ إليّ ابن إمام جماعة صحن العباس عليه السلام الذي كان إلى جانبي: لقد أحسنوا شدك إليهم بهذين الشرطين.

قلت: ليس الأمر كما تقول. إذ أستطيع ـ إذا لم يعجبني العقد الذي جرى في هذا المجلس ـ أن أقول: فسختُ البيع. فينهدم عليهم الشرط والمشروط.

---

(١) كانت قيمة كل ليرة في ذلك الزمان تعادل خمسين ريالاً.

وكان أبوه الذي هو وكيلهم قريباً منا فسمع ما دار بيننا. فنهض من مكانه إلى خارج الغرفة، ثم عاد ليقرر (أن البيع لازم) فتصنعت حينها ابتسامة بريئة وجعلت نفسي على شاكلة أغلب الناس الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويقولون ما لا يفعلون. وبطبيعة الحال فإنه لم يكن في نيتي التراجع عن قولي، فذلك مخالف للرجولة، كما أن الله سبحانه قال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾[١].

غادرت المنزل، وذهبت إلى الصحن، فوجدت هناك أحد رفاقي الشيخ جامي وهو من الجهلة أدعياء القداسة، قد أنفق عمره في درس علوم المعيشة والحياة الدنيا بدلاً من العلوم الأخروية، وهو على دراية تامّة بمصادر الثروة والبضائع الجيدة، وله ذلاقة لسانية واطلاع تام على ما يلزم في هذه المناسبات. أخبرني أن لدى الشيخ عبد الله المازندراني مبلغاً من المال مخصص للسادة الذين يتزوجون حديثاً، حيث يعطي مساعدة لكل متزوج منهم خمسة عشر توماناً. وقال: سأذهب لآتيك به. فقلت له: إن كان الشيخ المازندراني قد أصبح لي أباً في دار غربتي، فلتكن أنتَ أمي.

لمّا كانت ليلة زيارة منتصف شهر شعبان ذهبت لزيارة الحرمين، ثمّ اجتمعت بعدها برفاقي في نفس ذلك المنزل الذي اعتدنا الاجتماع فيه. سألتهم عن الفائدة التي جنَوها من أكلهم البصل في الليلة الماضية فقالوا: لم يظهر أثر لذلك حتى الآن. قلت: لقد تحققت لي فائدة. حيث وقعت في يدي عشرون ليرة أنا الذي لم أملك حتى الآن ليرة واحدة. قالوا: وكيف كان ذلك؟ قلت: ما زال أمامي عقبة حتى الآن ولن أترك بعد اليوم أكل البصل ليلة كل سبت. ولأنها بدأت بليرة فستكون ثمارها الليرات أيضاً.

وفي الصباح وبعد الزيارة جاءني الشيخ الأم الشيخ جامي بخمسة عشر توماناً. قلت: ينبغي أن أعطي هذه النقود بهيئة ليرات، فلنذهب إلى الصراف لاستبدالها. طلب إلي الصراف قراناً واحداً، فأعطيته له بعد أن رأيت أن في كيسي ثلاثة قرانات من مجموع السبعة التي جئت بها للزيارة. وهكذا استلمت ثلاث ليرات بدلاً من توماناتي الخمسة عشر.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

أعطيتها للشيخ الأُم ليعطيها بدوره لأبي الفتاة، ويخبرهم أن مجموع ما بذلتُهُ لهم أصبح ثلاثاً وعشرين ليرة، ولم يبق إلّا ليرتان. وعليه لا بدّ من إعطائي الفتاة بأسرع وقت. إذ إنني لم أنوِ الإقامة في كربلاء، وأريد اصطحابها إلى النجف. ذهب الشيخ والتقى أبويها اللذين أخبراه أنه لا يمكن أن يتم الزواج بهذه السرعة. فحمل إليَّ الجواب وأضاف: إنه ليس من مصلحتك أيضاً أن تسرع في الأمر. إذ كلما طال مكثها في بيت أهلها فستحصل على أمتعة وأثاث أكثر. أي أن أبويها سيجهزانها من مالهما الخاص. وقد قال أبوها إنه لا يجب إنفاق الخمس وعشرين ليرة التي أعطيتها لهم، بل ينبغي أن يضاف عليها مبلغ ما يكفي لشراء بيت في النجف، أو إعطائه رهناً كي تستريح من همّ الإيجار على الأقل. وعلى أي حال فإنّ القصد من وراء كل ذلك هو منفعتك.

أريد رؤية زوجتي:

قلت لصاحبيَّ: إنني لا أعرف شيئاً، وقد دخلت هذا العالم الجديد لتوّي. وأنا تلميذ بالنسبة لكم، أي ينبغي أن أتتلمذ على أيديكم. إلّا أنني أودّ أن أعرف هل تقرر إعطائي هذه الزوجة دون أن أراها؟

قالا: لا بدّ من الصبر حتى نهاية شهر رمضان المبارك، وكما قلنا فإن التأخير في مصلحتك.

قلت: إنني لا أطمع في مال أو تجارة هذه الفتاة كي تتحقق تمنياتي بهذه الأماني والمواعيد التي ربما يضاف من ورائها على جهاز العروس منديل أو موقد عتيق أو لا يُضاف. لقد تزوجت تلك الفتاة ولن أصبر بعد هذا أبداً.

قال الشيخ الأم: ألا ينبغي يا ولدي أن يخيطوا لك ولها قطعتي ملابس. وهو أقل ما يمكن أن يكون من مستلزمات العرس؟ إنك لم تكن متلهفاً قبل هذا للزواج إلى هذا الحد. فلماذا نفد صبرك يا من ادّعيت أنك قد كبحت جماح شهوات نفسك؟

قلت: إن استعجالي يا حضرة الشيخ ليس بسبب ما تتصوره. بل لأنني أريد أن أعرف في أي مصيدة وقعت، وبأي بلاء ابتليت؟ إن الإمام علياً عليه السلام فسّر

قـولـه تـعـالـى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١) بهذا الشكل: ربنا آتنا في الدنيا امرأة صالحة، وامرأة صالحة في الآخرة تكون لي جنة، وقني من المرأة السيئة التي هي جهنم. وأنا الآن في حيرة من أمري: ترى أرزقت الجنة، أم وقعت في جهنم؟ إذ إنني لم أشاهد زوجتي، كما لم تكن من جيراننا كي أسمع أخبارها من المحيطين بي. وليس لي أُم أو أُخت تريانها وتستقصيان أحوالها. لقد كانت صفقة مجهولة كنت فيها كالحاطب بليل. ومن المؤكد أنه كلما مرّ وقت أطول ازددت حيرة وجهلاً. لن أنام مستريح البال. وسأكون كالحر بن يزيد الرياحي الذي ظل في حيرته مضطرباً بين الجنة والنار. ولقد قيل أن العبور على الصراط الذي لا تُعلم عاقبته أصعب وأسوأ من دخول جهنم. إذ إن في اليأس راحة.

قالا: أما من حيث الحسن والسيّئ فلتكن مطمئن البال. وإننا ننظر في منفعتك ونجهد أنفسنا في ذلك أكثر منك ومن أمك وأختك وعمتك. وإنّ الهدف من تأخير العرس هو خيرك وصلاحك. وأهلها لا يوافقون على وقوع العرس قبل منتصف شهر رمضان على الأقل. لأنّ لديهم أعمالاً ينبغي أن يقوموا بها ولا يمكن ذلك بأقل من هذه الفترة. وسوف نطلب إليهم أن يهيئوا العروس في منتصف شهر رمضان كي نأتي من النجف، وسنرسل من هناك بالليرتين اللتين بقيتا على حسابك.

قلت: هذا طلب معقول وعادل. وسأسافر اليوم إلى النجف.

قالا: انتظرنا لنذهب سوية.

إلى النجف الأشرف:

قلت: إنني سأسير حتى طويريج ماشياً. وسأنتظركم هناك. ثم ذهبت وبقيت إلى أن جاءا، فركبنا الطرادة حيث دفعت القرانين اللذين ظلا في كيسي: نصف قران أجرة ركوبي، وقران واحد عنهما، إذ إنهما كانا ضيفيّ.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠١.

كنت منشغلاً طوال الوقت في نتائج ما أقدمت عليه، إذ كيف سأدبر معيشتي أنا الذي لا أملك المال الكافي. والحياة مع زوجة غير حياة العزوبة. وهكذا كنت أعيش الخوف في داخلي، مع أنني حين كنت أغوص في أعماق قلبي أشعر بالسرور لما حدث. إلّا أن قلبي يثوب مرة أخرى إلى رشده، والقرب من التصورات والمشاهدات الواقعية، فيُلقيني في الأمواج المتلاطمة للأوهام والوساوس من باب ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾[1].

قلت لصاحبيَّ: إنني كلما أجلتُ الفكر في الأمر أراني قد ألقيت نفسي في البحر، وأنني ألعب بالنار، وأنا عاري المؤخرة، بحيث أحس الخوف والغم والحيرة، ومع ذلك أشعر أن أعماق قلبي ملأى بالبهجة والسرور.

قالا: إن الحق هو ما تجده في أعماق قلبك، وأما البقية فهو باطل وصبح كاذب.

قلت: بما أنني قد أصبحت تلميذاً في مدرستكم، فسأوافق على كل ما تقولانه.

قالا: الأمر لا يحتاج إلى أن تقلّدنا. وإلّا ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

القلق على المعيشة:

قلت: إنني أكثر إيماناً منك يا حضرة الشيخ بالآيات القرآنية وأخبار المعصومين عليهم السلام. وإن الله لا يخلف وعده، وهو أصدق الصادقين. وإنما الكلام في أنني غير مطمئن إلى كوني ممن ﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فمن البديهي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي تزوج تسع نساء، تصدُق بحقه مرتبة ﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ تسع مرات، إلّا أننا حين نراجع التواريخ نجد أنه لم يكن قد شبع حتى من خبز الشعير، ولم يكن قد شرب الشاي أو دخن السيجارة والغليون. بينما نحن نبادر قبل كل شيء عند وقوع مال في أيدينا إلى شراء السكر والشاي والتبغ لما يكفينا

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٨.
(٢) سورة النور، الآية ٣٢.

لعدة أيام، فإن بقي لنا شيء من المال أكلنا به الخبز وإلّا فلا. وهكذا حوّلنا أنفسنا بعدم القناعة وبالإسراف إلى فقراء. ولذا لا نرى أن ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تصدُق علينا. ومن المؤكد أننا كنا سنصبح أغنياء لو تركنا الإسراف، أي امتنعنا عن شرب الشاي والتبغ الذي ينبغي تركه على الاحتياط شرعاً لأنه من الأقسام المشتبهة الحرمة. إن الله لم يعدنا الغنى ونحن على حالنا هذا الذي نعيشه والذي جعلنا فيه من أنفسنا فقراء بأيدينا، لم يعدنا أن يصبح حالنا أفضل حين نتزوج.

قالا: إن القرآن لم يقل ذلك فقط لأهل الصدر الأول للإسلام، بل لجميع المسلمين إلى يوم القيامة. وبطبيعة الحال فإنّ أحوال عباد الله تختلف من حيث المعاش من عصر إلى آخر، وستظل كذلك والله عالم أيضاً. ومع ذلك فإن تلك الآية قد قيلت لعامة العباد، مختلفي الأحوال دون تمييز، والنتيجة المستحصلة من محتوى الآية الكريمة ـ وبعد كل هذه المقدمات ـ هي أنه لا ينبغي لكل المسلمين أن يتركوا الزواج بسبب الخوف من الفقر. لأن الله لن يبتليهم بالفقر الذي يخشونه. ويجب أن يكون لك حسن ظن بخالقك وليس سوء ظن. إذ ورد في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي المؤمن». أي: إذا كانت مرآة قلبه خالية من الصدأ سيراني بالصورة التي يحب. وإن كانت معوجّة فسيراني بصورة معوجة كريهة.

قلت: إنني كنت وما زلت حتى الآن على ظن حسن بالله ومتوكلاً عليه، بل إنني لا أسعى حتى في تهيئة الأسباب. ولكنني كنت وحيداً في إعالتي لنفسي. أما الآن فقد أصبحنا اثنين، بل سنكون في تزايد متواصل سنة بعد أخرى، وستكون عيونهم في طلب كل شيء معلقة بي، ويعتبرونني ربهم الصغير. وأنا لا أريد ـ ومن خلال حبي لهم وعلاقتي بهم والعهد والميثاق الذي يربطني إليهم ـ أن أمدّ يدي لأحد بالسؤال في سبيل تهيئة كل احتياجاتهم. ومن ناحية أخرى فإن جميع حركات وفوائد ونتائج وأعمال العباد منوطة بالقضاء والقدر الإلهيين بحسب ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] خاصة

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٨٨.

الفقر والغنى والعز والذل والصحة والمرض، حيث لا يد للعبد في هذه الأمور. وإذا أردنا استبطان عرفاننا نجد بصورة مجملة أن لا دخل لاختيارنا في أي شيء، وهو ما يقتضيه توحيد الأفعال.

أقول بعد هذه المقدمات: إذا لم يكن لدى الإنسان خوف ورعب من الحوادث التي لم يتوقعها، فينبغي عليه أن يتحمل ما يقع عليه من زوجته من اللوم وقول: يا تافه، يا عاطل، يا عديم الحياء، يا عديم الغيرة، يا عديم الوفاء. وأنا غير مستعد لسماع أمثال تلك الكلمات. فكيف تطلبان إلي أن لا أخاف أو أُصاب بالرعب في أرض عُدمت فيها وسائل تحصيل الرزق الذي هو موجب لسلوان الإنسان؟

ليس أمامك وأنت بين مخالب الأسد المفترس إلّا التسليم والرضا.

قالا: بديهي أن الدنيا ليست دار راحة، بل هي مدرسة ومكان لبلوغ الكمال، وبلوغ الكمال لا يكون بغير مشقة وعناء، وقد قيل: «إن الدنيا مزرعة الآخرة». وكل هذا التشجيع والترغيب في الزواج لا تقتصر منافعه الشرعية على تكثير أعداد القائلين «لا إله إلّا الله»، وأن تصبح الأرض بوجودهم أكثر ثقلاً فلا تعتريها الرجفة. وليس بسبب أن يعصم الإنسان نفسه عن بعض الشهوات حيث إن: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه» فحسب، بل إن واحدة من منافعه الشاقة هي حدوث التربية للزوجة على يد زوجها الذي هو مربّيها بالأحكام الشرعية والأخلاق الحميدة والعقائد الحقة، وحصول الكمال للزوج لصبره على عناء التعليم وسوء أخلاق النساء والكلام القبيح الذي يواجههن به الرجال مما ذكرنا آنفاً. فإن لم تكن مستعداً لسماع تفاهات النساء، فلن تفوز بنيل مقام الصبر. وفي الحقيقة فإن الزواج هو تأسيس دار لتربية الطرفين إن عملا بما ورد في الشرائع المنزلة بشأن العلاقة الزوجية. وبطبيعة الحال فإن الزواج بأكثر من واحدة يجعل مجال تربية الطرفين أكثر اتساعاً، لأن كثرة عدد الطلاب سيضاعف من عناء الأستاذ. إذاً ليس صادقاً ذلك الذي يقول: إن تعدّد الزوجات يؤدي إلى سوء الأخلاق. لأن ذلك ـ وبموجب التعاليم الإسلامية ـ سيؤدي إلى الصبر الجميل، وبلوغ الكمال للطرفين.

وغالباً ما يكون الزواج بواحدة غير مناسب. إذ إن القليل من النساء، وبسبب قصر أنظارهن، يمكن أن تنسجم أخلاقهنّ مع الرجال.

قلت: على هذا ينبغي لي أن أسلّم أمري لصروف الدهر والتقديرات الإلهية، وأكون راضياً، وأسأل الله الرفاه والسعادة وحسن المعاشرة. فإن كان قضاؤه على غير ما يؤمله العبد؛ صبر وتحمّل ليشمل بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾[1].

قالا: لقد أدركتَ الآن الموضوع بصورة جليَّة. وعلى أي حال فالزواج مستحسن ومندوب إليه لما يترتب عليه من مصالح. وهو إما أن يكون موفَّقاً فتغمر الزوجين السعادة، و«من سعادة الرجل زوجة صالحة إذا نظر إليها سرّته» وهي نعمة عظيمة يجب أن يشكر الإنسان ربّه عليها. وإما أن يكون غير موفق، فيؤدي إلى الشقاء في المعاشرة بسبب سوء أخلاق الزوجة وقسوتها اللذين هما بلاء نازل على رأس الرجل المسكين، الذي ينبغي عليه أن يصبر إنّ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

ومهما يكن فإنه سيحرز نصف دين الإسلام. لأن الشكر نصف الدين. ونصفه الآخر الصبر، كما وردت به الأخبار وشهد بذلك الاعتبار. فإن كانت المرأة غير مؤاتية معه، عقد العزم ولبس ثياب الصبر و«عليكم بالجهاد الأكبر»، وإذا كانت ليلة الهرير ليلة واحدة من ليالي صفّين. فإنها ستمتد سنين طويلة في هذا الجهاد مع العدو البيتي. والهدنة فيها بغيضة، إذ إن «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

الاطمئنان إلى الله:

ولكن مع كل ذلك، كان قلبي مطمئناً بأن وجه النحس هذا لن يطل في أفق حياتي الزوجية. ولن يظهر زحل في طالعي. بلحاظ أن يكون للأربعين زيارة عاشورائية التي قرأتها يوم كنت في أصفهان تأثير في هذا الأمر الذي وقع بعد سبع سنوات. والأمر الآخر هو أنه أصبح معلوماً على نحو ما أن لحبيب بن مظاهر وساطة فيه. وليس بيني وبين حبيب مشاجرة أو سوء تفاهم، كي يؤدي إلى ما يضرني. بل إن ما بيننا هو منتهى الصداقة والمحبة. وعلى الرغم مما ورد في الروايات عن النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام من قول: «من أحبنا أهل البيت فليُعد للفقر جلباباً» مما يجعل محبتهم مقتضية وجالبة للفقر الشامل من قمة الرأس حتى أخمص القدم. فأنا لم أرَ حتى الآن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

خبراً مثل هذا صادراً عن الإمام الحسين عليه السلام رغم أن ما يصدر عن الإمام علي عليه السلام صادر عن أهل البيت عموماً، فكلام كل واحد منهم هو كلام الآخرين ونورهم واحد. إلّا أنني أقدّر بالحدس الصائب أن ظهور الكلام على لسان واحد منهم، يجعل تأثيره مقتصراً على مجاله وعصره فقط، وليس على ما هو خارج هذين ـ أي المجال والعصر ـ مع فارق كون عشاق علي عليه السلام وعشاق الإمام الحسين عليه السلام مختلفين من حيث الفقر والغنى. وينبغي أن يؤول الكلام حين يتعلق الأمر بمحبي الإمام الحسين عليه السلام كي لا يظل على عموميته، وبعبارة أخرى فإن ظاهره يدل على المتكلم، بينما باطنه يدل على غير المتكلم الذي هو في الباطن محسوب من المتكلم. فافهم.

الاستعانة بعلم الرمل:

وصلت النجف إلّا أن قلبي لم يخلُ تماماً من مخاوف الزواج. كانت لديّ رسالة في علم الرمل. أخرجتها. فخططت عدة أشكال للزائجة[1] علمت منها خصوصيات الزوجة خَلقاً وخُلقاً ومعاشرة عن طريق سير النقطة في مراحل السير طولياً وعرضياً حيث تقاطع مع الأشكال السعيدة حتى وصل إلى المنزل المقصود الذي هو شكل اللحيان[2] المنسوب للشرفاء والفضلاء والعلماء والعظماء واستقر فيه. كما استقر في مربع المآل بنصرة الداخل. وفي عاقبة العاقبة بنصرة الخارج. وعلى الرغم من سعادتي بالأدلة الرملية التي دلّت على الحال والمآل بالحسن. فقد كانت تجول برأسي بعض الأوهام المرعبة. ولكي أتخلص من تلك الأخيلة الشيطانية قررت أن اقرأ كل يوم بعد الاستعاذة سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾. ولم ينقضِ يومان على التزامي بذلك حتى ملأت نفسي السكينة والأمان. وقد قام أبناء الموسرين الذين يدرسون لديّ أو رفاقي الذين عرفوا بأمر زواجي بتقديم هدية من كل واحد منهم هي ليرة عثمانية ذهبية، فأصبح لدي منها مثنى وثلاث ورباع.

(١) قال الخوارزمي في **مفاتيح العلوم** ص٢١٩ (الزائجة: صورة مربعة أو مدورة تعمل لمواضع الكواكب في الفلك لينظر فيها عند الحكم لمولد أو غيره).

(٢) الشكل اللحياني من أجزاء الرمل الستة عشر، وهو من جملة الكواكب السبعة المنحوسة. **فرهنگ اصطلاحات نجومي** ص ٦٧١.

اكتمال المهر:

وفي إحدى الليالي التقى بي الشيخ مهدي وهو ابن الآخوند في الصحن فسألني: ما الذي تتوقّعه من خيرٍ من أبي وأنت على عتبة الزواج؟

قلت: لا شيء.

قال: ينبغي أن تقول الحق.

قلت: ما الذي يتوقع العاشق من المعشوق؟

قال: قل الحق.

قلت: لقد حصلت منه على كل ما أتمناه، وأنا الآن تلميذ علومه التي هي غذاء روحي. والنظر أو الاستماع إليه غذاء روحي أيضاً، و(ما وراء عبادان قرية). ترى ماذا أبغي بعد كل هذا مما لا أستطيع أداء شكره. فماذا تفهم أنت يا من هو بعير يجترّ؟

قال: إن العطاء الروحاني لا يصلح أن يكون صداقاً لزوجة.

كنت أنا في الأرض حائراً في منعرجاتها بينما كنتَ تجيبني وأنت فوق الأفلاك

قلت: إن كان ولا بدّ فليكن مما دأب على تقديمه للآخرين، وسأكون شاكراً وممتناً له.

قال: أيسعدك أن يُعطيك بدلاً من الليرة الواحدة، ست ليرات هي ثمن صلاة بالنيابة لمدة سنة واحدة، حيث تستطيع أنت بدورك أن تكلّف أحداً بأدائها بليرة واحدة. وسيبقى لك خمس ليرات؟

قلت: علاوة على سعادتي، سأرمي في الهواء غطاء رأسي الذي طوله عشرة أذرع للتعبير عن تلك السعادة. إذ إنني أعرف أنه لا يُعطي أكثر من ثلاث ليرات مع وجود الوساطات الكثيرة.

وهكذا استلمت الليرات تدريجياً. فما أن اقترب منتصف شهر رمضان حتى ذهبت إلى أبي وأمي المصطنعين، وطلبت إليهما الحركة. فقالا: سنسافر مع زوجتينا وأطفالنا.

رزق غير منظور:

وحدث أن ذهبت في ليلة الجمعة لحضور مجلس العزاء الحسيني الذي يُقام عادة بمنزل الآخوند. وما أن وصلت باب المنزل حتى ناولني ابنه الصغير أحمد ورقة طلب إليّ أن أضع ختمي عليها. قلت: إن الختم في المدرسة. فحثّني على الذهاب بسرعة والإتيان به، لأنه كان يريد الخير لي. فذهبت إلى المدرسة وجئته بالختم، فأخذه مني ووضعه على الورقة، وقال: أسألك الدعاء فاذهب. قلت له: أنني لم أفهم معنى هذا. قال: غداً تفهم. قلت: أنا أريد الذهاب غداً إلى كربلاء. قال: من الأفضل أن تفهم هناك.

ذهبت إلى أخيه الأكبر مهدي وشرحت له الأمر، وسألته عن معنى كل ذلك، فقال: أختمت على الورقة؟ قلت: لم أفعل أنا، بل هو. قال: من المقرر أن يمكث بعض الطلاب هنا. وبما أنك قد ختمت على الورقة فستكون واحداً منهم. حينها لُمت نفسي: لماذا يوقّع الإنسان على ورقة لا يعرف ما فيها أو يعطي ختمه إلى شخص آخر. إن هذا العمل أسوأ من مدّ الرقبة تحت سيف مصلّت.

إن الطالب الأعزب لا يحمل إلّا همّ نفسه، وهو مستريح في مهد الأمن والطمأنينة، لا يجد الخوف من أي شيء إلى نفسه سبيلاً. إن طالبي الرئاسة والشهرة أو الذين لهم تعلق بشيء هم الذين يخافون. أما نحن فلا في العير ولا في النفير. أنا عبد العشق وحرّ في العالَمين.

في اليوم التالي قلت لأبي المصطنع: لقد وقّعت الليلة الماضية على ورقة ولم أفهم شيئاً.

قال: استمع إلى نموذج من تدبير الله. قدمت مجموعة من الزوار الأتراك وكان لديهم مبلغ ثلاثمائة ليرة هي سهم الإمام عليه السلام وكالعادة أحاط بهم الطلبة الأتراك وأخبروهم أننا فقراء ومحتاجون، وإذا أعطيتم هذا المبلغ إلى مرجعكم السيد محمد كاظم اليزدي فلن يصلنا منه شيء. ومن الأفضل أن تأخذوا منه إذناً تقسّمون فيه أنتم بأنفسكم المبلغ بيننا.

ذهب الزوار إلى السيد اليزدي والتمسوا منه ذلك وألحّوا عليه، فلم يوافق

وقال: ينبغي أن أتسلم المبلغ بيدي، فأنا أعرف منكم بالموارد التي يجب أن يُنفق فيها. وأخشى أن لا تبرأ ذمتكم فيما لو وزعتموه بأنفسكم، وفي ذلك خسران الدارين. فأخبر الزوارُ الطلاب بفحوى كلام السيد اليزدي فسألهم الطلاب: أتعلمون أننا فقراء معوزون؟ قالوا: نعم. فسألوهم: أليس مذكوراً في الرسائل العملية أن سهم الإمام ينبغي أن يُنفق بإذن من المجتهد سواء أكان مقلَّد الشخص أم لا؟ قال الزوار: نعم. فقال لهم الطلاب: اذهبوا إلى الآخوند الخراساني الذي هو أكثر علماً وورعاً وعدالة من الجميع. وخذوا منه إذناً. فذهبوا إليه، وقد أعطاهم إذناً بأن يقوم الزوار الأتراك بتوزيع المبلغ على الطلاب، شريطة أن يُعطوا منها لما بين عشرة إلى خمسة عشر طالباً ممن يكتب الآخوند أسماءهم في قائمة يُدوّن فيها إلى جانب كل اسم المبلغ الذي ينبغي أن يُعطى له، فخرج الزوار من عنده مسرورين. وإن الورقة التي وضعت ختمك عليها هي القائمة التي أمر الآخوند بإعدادها بأسماء الطلبة الفقراء المحيطين به. وقد كتب الآخوند أمام كل اسم ليرة واحدة، إلّا أنت فقد كتب لك ثلاث ليرات بسبب حداثة عهدك بالزواج.

قلت: فرج الله عنك كما فرّجت عنّي. ولكن ينبغي أن نعجل بالسفر إلى كربلاء فقد تأخرنا.

قال: سأتحرك مع زوجتي وأطفالي عصراً أو غداً إلى كربلاء بواسطة الزورق. فأجبته سأسافر في الگاري[1] ما دام كيسي ملآن بالنقود، أنا الذي لم أركب الگاري حتى الآن، بل حتى البغل، ولم أرَ الليرة حتى في الأحلام. فأي عالم عجيب هو عالم الزواج إن استمر الحال كذلك؟

إلى ديار الحبيب:

ذهبت إلى كربلاء والتقيت بأبويّ المصطنعين في غرفة أحد الأصدقاء الكشميريين بمدرسة الصدر الواقعة إلى جنب صحن سيد الشهداء عليه السلام. وقد ذهب الشيخان ـ الأم والأب ـ إلى بيت العروس المجاور لصحن أبي الفضل عليه السلام وبذلك أصبح سيد الشهداء وحبيب وسائر الشهداء من مجموعة

(١) حافلة ذات عجلات من الحديد تسير على سكة حديد وتجرّها الخيل.

العريس. بينما كان أبو الفضل العباس لوحده من مجموعة العروس. ولمّا كان الوقت شهر رمضان فقد نويت الإقامة هناك. ولم أكن قبل ذلك قد أقمت فيها لعشرة أيام متوالية. وعند السَّحَر جاءني مضيفي الكشميري بصحن من مرق الشلغم مع صحن أرز. وكان المرق كثير الفلفل لاذعاً ولذيذاً. كما كانت المرة الأولى التي آكل مرق الشلغم فيها.

كلما يُروى بهذا البستان يزداد نضارة على نضارة

نقاش عقيم مع هندي:

قلت لصديقي الكشميري: لا تُكثروا من إضافة الفلفل إلى الطعام بحيث لا يمكن تناوله. فقال: بالرغم من أن زوجتي ليست كشميرية ولا تُكثر من استعمال الفلفل، فقد أخذنا حالك بنظر الاعتبار، وإلّا فالكشميري يضيف ثلاثة أضعاف هذه الكمية من الفلفل. ولو رأيت تناول الهنود له لترحّمت مائة مرة على الكشميريين. وإنما تعرف ضيافة الهنود من كمية الفلفل. كما هو الخبز والأرز بالنسبة للإيرانيين. فحين تُحصى كمية إطعام الضيوف في إيران مثلاً، يقال: إن فلاناً قد استهلك في الوليمة مائة منٍّ أو حملين من الأرز. أما في الهند فيقال: إن فلاناً قد استهلك مائة منّ أو حملين من الفلفل في الوليمة.

عجبت وقلت: بما أن طبيعة الفلفل الإمساك والسوداوية، فقد أصبحت بشرة الهنود مليحة، فكأنهم قد رُبّوا في الملح. وهذا دليل على صحة هذا الكلام. ولكن الملاحة الظاهرية تقتضي الذكاء والنباهة والفطنة، لأنّ منشأ الإدراك هو السوداء النقية التي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[١]. إلّا أن هذه المسألة معكوسة في الهنود، حيث لم يشاهد منهم إلّا الغباء والسذاجة والبلادة. حتى أن أحد مهراجاتهم[٢] قال لمتولي الحضرة الحيدرية: أريد أن أقوم بعمل خيري في النجف بأن أنشئ جسراً بين بوابة النجف ومسجد الحنانة ـ وهي مسافة تقل عن ربع فرسخ ـ

(١) سورة النور، الآية ٣٥.
(٢) حاكم الهند أو الملك (فرهنگ معين).

كي يعبر عليه الناس. وليس مهماً كم يكلف هذا المشروع فإن لدي مئات الآلاف من الروبيات. فقال له المتولي: يا صاحب! إنه لا يوجد ماء في هذه الأرض يحتاج إلى جسر فوقه. فقال المهراجا: فلنحفر بئراً ونبني عليه جسراً.

كما رأيت بنفسي أحد كبار الشخصيات الهندية جاء للزيارة، وكان يسير برفقته خمسة من الخدم على هيئة خاصة هي: خادم واحد يحمل مظلة على رأس السيد لم تكن مصنوعة من القماش بل من نحاس رقيق جداً. بينما كان خادمان آخران يحملان هراوتين فضيّتين نظير ما كان يحمله فرّاشو الملوك والسلاطين القدماء. والفارق بين الحالتين أن أولئك كانوا يمشون أمام السلاطين، بينما هؤلاء يسيرون خلف الهندي. أما الخادم الآخر فقد كان يمسك بيده ساعة صغيرة، سمّر عينيه على عقاربها. وأخيراً فإن خامسهم لم يكن لديه ما يفعله إلّا الحركة مع سيده حيثما ذهب، وقد فتح عينيه وأذنيه لكل ما يصدر عنه. كان هؤلاء الخمسة يتحركون مع سيدهم حركة منسّقة منضبطة لا يفارقونه فيها أبداً ولا يبتعدون عنه، ولو حتى لنصف ذراع، كما كانوا يحافظون على المسافات فيما بينهم وبينه بحيث لا يبتعدوا عنه مسافة تمكن أحد المارة من الاجتياز في حلبتهم، حتى لو كانوا وسط السوق. فهم يتحركون بهيئة واحدة، بل حركة شخص واحد.

سألت أحد رفاقي العالمين بأحوالهم عن الحكمة والفائدة التي يتوخّونها من تلك الهيئة. فقال: إنما ينظر الخادم حامل الساعة إلى عقاربها دائماً لمعرفة مرور ربع ساعة أو نصف أو ساعة كاملة، فيشير بإصبعه إشارة متفق عليها، يحدد بموجبها الوقت، فيفهم حملة الهراوات أنه مرت ربع ساعة أو نصف أو ساعة، حيث يقوم هذان بالطرق بهراوتيهما على المظلة النحاسية، مِمّا يعطي علماً للمهراجا بالوقت على وجه التحديد، دون أن يحتاج لسؤال حامل الساعة أو النظر في ساعته.

سألته عن المظلة، وهل ينبغي أن يُظلّل بها حتى في الليل أو في الأيام الغائمة؟ قال نعم. إلّا أنه يجوز للخادم أن يظلّل بها رأسه في المساء. فسألته: وإذا جلس المهراجا في مجلس، هل يجب أن تكون المظلة مفتوحة على رأسه، ويقف حاملا الهراوتين أيضاً، ومعهما حامل الساعة؟ وعلى فرض حضورهم هل

يظلون واقفين أم يجلسون؟ ولو جلسوا فأين يكون جلوسهم خلف سيدهم أم أمامه؟ وما إلى ذلك من الفروض مما يُضحك الثكلى.

قال: ليس الأمر كذلك. فهو في المجالس ينظر إلى ساعته التي في يده. إلّا أنه حين يحدث أن يعاني من رياح في بطنه وهو في أحد المجالس، لا يتورّع عن إطلاقها. وإن سُمع لها صوت بادر فوراً إلى الاعتذار قائلاً: إنّ الإفرنجيين يقولون إن بقاء الرياح في البطن ضار. ولكي يظهر الآخرون قبولهم لعذره كانوا يقولون له: لقد ارتحت. إلّا أن اعتذاره دليل قبح الفعلة التي زكمت أنوفهم، ودليل على عدم رسوخ عادة الإفرنجيين.

قلت: ألا ترى أنه لا توجد حماقة أكبر من هذه التي يدفع فيها إنسان رواتب خمسة أشخاص ليعرف منهم الوقت، بينما لا ينظر إلى ساعته المعلقة بيده؟

استاء ذلك الهندي من كلامي وقال: إن وجهاءكم في إيران يسير وراءهم بدل الخمسة عشرون شخصاً، بل أكثر دون فائدة أو عمل يؤدّونه. بينما للخدام الهنود عمل موكل إليهم على الأقل.

قلت: ما أكثر الأعمال ذات الفضيلة مما يفوق ألف مرة هذه النماذج من الأعمال الغبية. وإن أقوى دليل على سذاجة وبلاهة الهنود بقاء هؤلاء الإنجليز سنين طويلة في بلادهم، بينما لم يطل مكثهم في مستعمراتهم الأخرى إلّا قليلاً. انظر إلى بلاد أمريكا وأستراليا ومصر وغيرها. بينما تستثنى الهند وبعض إفريقيا من ذلك، حيث ما يزالون بعد كل هذه السنين يرقصون على نغماتهم. ولقد سمعت أنه بعد ثورة الهنود الماضية وقتلهم لآلاف الإنجليز، أحضر الإنجليز سفنهم إلى سواحل الهند مع أسلحتهم. وقد استعد الهنود على الساحل بالحجارة والعصي للدفاع. قال الإنجليز: إن لم تستسلموا لنا فسنهدم بيوتكم بهذه المدافع. فأنكر الهنود أن تكون لدى الإنجليز تلك القدرة على تدمير بيوتهم ومنشآتهم المحكمة البنيان. وكان قرب الساحل تل مرتفع، فضربوا عليه بعض القذائف فدُمر بعد خمس دقائق وغاص في الماء. عندها استسلم الهنود وخُدعوا خديعة لم يستطيعوا أن يرفعوا رؤوسهم بعدها. إضافة إلى أن غنى الهنود وكثرة ملكيتهم كاشف عن بلاهتهم. لأن الله قد قضى أن يعطي الثروة في الدنيا لغير العقلاء كي يعلم العقلاء والأذكياء أن الغنى والثروة لا يأتيان بالحيلة والشيطنة وليس بالعلم

والحكمة. والخلاصة: إن تناول الهنود للفلفل مع هذه السذاجة والبلادة أمر مثير للعجب!.

انتفاضة المتلهف:

في اليوم السابع عشر من شهر رمضان جلست على ركبتي في صحن أبي الفضل عليه السلام في مواجهة أبويّ المصطنعين وقلت لهما: صدق من قال: إن الشبعان لا يعرف شيئاً عن ألم الجوعان. ولست أدري إلى متى أعيش في المدرسة، وأهيىء بيدي طعام سحوري وإفطاري. فسألاني ما الذي حدث؟ قلت: أنبئاني لأي شيء قدمتما إلى كربلاء؟ ولماذا جئت أنا؟ هل هي زيارة خاصة؟

قالا: نحن منشغلان في إعداد بيت مناسب للخمسة عشر يوماً التي ستقضيها هنا. حيث استأجرنا غرفتين في الطابق العلوي لأحد البيوت. إحداهما نظيفة ومرتبة ومزخرفة، مفروشة بالسجاد وفيها حشيَّة ووسائد ممتازة، خصصناها لك. أما الأخرى العارية من الزخرفة والأناقة فقد ألقينا فيها لحافاً بالياً واتخذناها سكناً لنا ولنسائنا وأطفالنا. أما من جهة العروس وأهلها فقد أتموا استعداداتهم. إلّا أننا ننتظر أن تنتهي ليالي القدر، وعليك بالصبر حتى اليوم الثالث والعشرين.

قلت: لن أصبر ولَوْ لساعةٍ واحدة. ويجب أن أدخل في هذه الليلة ـ الثامن عشر من رمضان ـ إلى حجرتي المُعدّة لي وأرى العروس.

قالا: ليس مناسباً أن يكون ذلك في ليالي القدر.

قلت: إن استعجالي ليس بسبب تلهفي للأنس والمعاشرة مما لا يتناسب مع تشيّعي؛ بل لأعلم أي بلوى ابتليت بها، وأستريح من القلق على المجهول. أما ما أجيب به علياً وأولاده عليهم السلام فأنا أتكفل به.

نهضا وهما يقولان: نحن ذاهبان لترتيب الأمر، وما عليك إلّا أن تفطر في المدرسة وتصلي، وبعد ساعتين على حلول الظلام تعال إلى هذا المكان كي نصطحبك إلى حجلة العروس. قلت: (حلّت البركة. الآن أصبحتم أوادم).

وجهاً لوجه مع العروس:

في المساء وصلا في الموعد المحدد واصطحباني معهما حيث كان أحدهما يحمل فانوساً، بينما كان الآخر يمشي إلى جانبي يرشدني إلى الطريق. كنت غارقاً في عرق حيائي، وأنا أحسّ بوحدتي وغربتي. وحين أصبحت مع زوجتي وجهاً لوجه في الغرفة. جاءت امرأة أحد الشيخين وسكبت الماء على أقدامنا، ونثرت شيئاً منه حوالينا. صلّى كل منّا بعدها ركعتين، دعوت في نهايتها: اللهم ألِّف بيني وبينها كما ألفت بين آدم وحواء. ثم وضعت ليرة في يد تلك المخدّرة، وسحبت الشادور عن رأسها. ومع حلول سَحَر ليلة العرس تلك كان كلٌّ منّا قد شفى غليله من الآخر، حيث شرح له أطوار حياته. ولقد قالت امرأتا الشيخين اللتان كانتا ـ على ما جرت به العادة ـ تسترقان السمع من وراء الباب حتى السحر، قالتا لبعضهما: إنهما يتناجيان ويبثان أسرار قلبيهما كما لو كانا يعرفان بعضهما منذ أمدٍ بعيد.

ولم أدخل بها حتى انتهى الثالث والعشرون من شهر رمضان احتراماً لشهادة ولي الله علي عليه السلام. والسبب الآخر هو أنني كنت طيلة تلك الفترة منشغلاً في مطالعة مقتضيات المحبة والألفة، من محاسن القول والعمل والنظر والأخلاق والضمائر والإشارات خاصة الذاتي والطبيعي منها التي كانت في ذلك الوقت مستورة، فزال الستار عنها وأصبحت واضحة للعيان. ومن تلك المطالعة التي استغرقت أياماً صار واضحاً حصول المحبة من الطرفين لتناسب الذاتين وانعقاد الأرواح بين الزوجين.

انقلاب معيشي:

وقد توالت عليّ بعد ذلك النعم الإلهية وتكررت، حيث: الجسم النظيف، والملابس الجديدة من قمة الرأس إلى أخمص القدم. والكيس الملآن بالصفراء والبيضاء. واحتساء الشاي الفاخر في الإفطار، والخبز المحلّى بالسكر، والطعام المتنوع من الكباب والحلوى والشورباء، والحجرة المرتبة بأثاثها الكامل النظيف. أما في السحر فقد كان هناك: الأرز والمرق المعدّ دون أن تكون يدي

قد لامست الماء البارد والحار. والجسم مرتاح لمواصلتي المحبوب، وأدائي سنّة النبي ﷺ. كنت مسرور القلب، قرير العين، دائباً في شكر الله على تلك النِّعم التي لم أرها أو أسمع بها حتى ذلك الحين. وهكذا مرّت عليّ أيام الصيام التي كان كلّ يوم منها كأنه سنة، مرت وكأنها دقائق.

العودة إلى النجف:

بعد انقضاء الشهر المبارك جمعت أمتعتي وتحركت مع زوجتي وأبويّ المصطنعين باتجاه طويريج فوصلنا النجف عن طريق النهر، حيث نزلت وزوجتي في غرفة من غرف منزل أحد أبوي المصطنعين لمدة شهرين.

أقمت في الشهر الأول عدة دعوات كبيرة لرفاقي المقيمين في النجف والمعارف الجدد من كربلاء. وقد أحصيت آخر الشهر ما أنفقته فيه، فوجدته مع رخص أسعار الأرز والسمن وبقية الأشياء قد بلغ ست ليرات، فطاش صوابي حين رأيت يدي تكاد تخلو من الثلاثين ليرة الذهب التي كانت لديّ، وأمطارها بدأت بالانقطاع، وعادت الأرض قفراً والسماء صحواً. ومن البديهي أن تنفد الثلاثون ليرة في خمسة أشهر حين تكون النفقة على هذا المنوال. ولذا فقد احتوشتني الظنون والفِكَرْ في وديان الحيرة والطرق المسدودة. ترى ما الذي أفعله بعد خمسة أشهر عندما تنفد كل الليرات في هذا الوادي غير ذي الزرع والفلاة المقفرة؟ لا بدّ من وقوع أحد أمرين: إما الجنون والموت، أو أن تطلب زوجتي مني الطلاق ـ حسب الشروط المدوّنة ـ وهو ما يعادل الموت عندي، وإنّ توقعي من الحبيب وغير الحبيب أن يرعاني إلى آخر العمر، هو توقع في غير محله. لأن الحب يستلزم الدلال، والدلال مع العزوبة سهل، لكن ما العمل وقد أصبحت رجلي مغلولة بهذه العلاقة مع من «همّها علفها وشغلها تقمّمها»[١] ولا تعرف غير نفسها؟ فمن أين وكيف يُستطاع الصبر والتحمل؟ لقد صدق الآخوند عندما قال: إن طالب العلم في النجف يحتاج إلى زوج يعينه، ولا يستطيع أن يكون زوجاً. وقد قال النبي ﷺ: «هلاك الرجل بيد زوجته في آخر الزمان». وأنا لم أعرف حتى الآن هذه الزوجة في موارد الصبر والفقر والفاقة لأنني لم أختبرها، ومن

(١) هذا الكلام للإمام علي عليه السلام في **نهج البلاغة** ص ٤١٨ يصف فيه البهيمة. والتقمم هو التقاطها للقمامة.

البديهي أنه توجد بين النساء بصورة عامة منافسة بحيث تعيب كل منهنّ الأخرى بفقر وفاقة زوجها، أو تفاخر بغنى وثروة وعزة وشهرة الزوج. لأن حب الدنيا غالب على النساء، ولهنّ حرص على جمع كل ما فيها، إذ إن الحياة الدنيا هي لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد.

كنت غارقاً لوحدي في غرفتي بتلك التصورات المختلفة التي كانت تمرّ بي حشوداً مليئة بالرعب والمخاوف ولونها القاتم، فيهتزّ لها بدني. وفجأة دخلت زوجتي ورأتني مشتّت البال، غارقاً في التفكير. فسألتني عما بي. إلّا أنني لم أرد أن أخبرها بشيء، إذ ينبغي للرجل أن يُخفي قدر الإمكان فاقته عن زوجته التي تزوجها حديثاً.

مواساة الحبيب لي:

رأيتها وقد تخلت عن كل شيء لديها وجلست قائلة: ينبغي أن تحدثني بما أهمّك. فأنا لست من أولئك النساء اللواتي يجب أن تُحجب الأسرار عنها. قل لي إن كنت مقصرة في شيء تجاهك كي أقوم بتلافيه أو كي لا أعود إليه. رغم أنني لا أرى لديّ تقصيراً عن عمد وسبق إصرار. وإن كان ما أهمّك ناتج عن صروف الدهر مما جرت به عادته من قديم الزمان، ولا نتوقع منه شيئاً غير هذا، فقله أيضاً كي أكون شريكة لك في الهمّ والغمّ، أو أن أُساعدك في دفعه. إن احتياج الرجال للنساء والتزوج بهنّ ليس لأجل اللذائذ وقضاء الشهوة، وإنما ينظر فيه إلى أشياء أخرى كحصول الأنس وسكون النفس ودفع مخاوف الوحدة. ويد الله مع الجماعة. والرهبانية بدعة، وتكثير الأمة افتخار النبوة، في المحشر والحوض والكوثر، وغير ذلك مما يطول ذكره، ولا يُحصى ثمره، وسوف يظهر فيما بعد أثره، فقل أي شيء في روعك قد دهاك وأبلاك. فأنا طوع أمرك وموضع نجواك وشكواك.

قلت: يا حبيبتي! لقد كشفت بهذا الكلام اللامع المتلألىء السحب السوداء المتراكمة. وجعلت أجواء قلبي صافية مضيئة. فلم يبق من همٍّ كي أدعوك لتشاركيني إياه. وإن وجد فمن المؤسف أن أجعلكِ شريكة فيه.

قالت: إن كان ذهب أم لا يزال باقياً، فينبغي أن تقوله. وإلّا أصبحتُ رهينة الهمّ والحيرة واللوعة. إذ من المحتمل أن يكون سبب ذلك الهمّ هو مني.

وستظلمني بسكوتك إذ سأبقى على جهلي، وسأعود إلى تكرار ما صدر مني وسيكون قلبك جريحاً، من غير علم وعمد منّي. وهذا أيضاً ظلم فاحش غير لائق بي، إذ إنه سيؤدي في آخر المطاف إلى تبديل الوفاق والاتفاق بالنفاق والفراق.

ابتعد ما اسطعتَ عن أمر الفراق أبغض الأشياء عندي الطلاق

ثم امتلأت عيناها بالدموع.

قلت: من ناحيتك، فأنا لم أشاهد إلّا الحسن والأدب والحب والوفاق. وإن خوفي هو من عدم مؤاتاة الزمان الغدار. ولم يكن لديّ من خوف حتى الآن وإلى الوقت الذي كنت فيه أعزب، بل كنت شجاعاً أحسّ بالقدرة. لكن الأمر قد اختلف منذ أن أصبحت ربّاً صغيراً لك. وأصبحتِ أنت المملوكة المحبوبة المطيعة لي. وللأسف فأنا ربك الفقير العاجز الذي لا فائدة من ورائه. وليس في يده شيء. وأما هذه الليرات العديدة التي انهمرت علينا بهذه المناسبة الميمونة المباركة، فلم تكن إلّا برقاً خُلَّب، كانت فلتة وابتسامة من الزمان الذي هو في أغلب ساعاته عبوس قمطرير. ولن يبقى الأمر على هذه الصورة النادرة الوقوع، وسيكشّر مرة أخرى عن وجهه القبيح المرعب، الذي أنا في هلع منه كلما تصورته مخافة أن يأتي اليوم الذي تتحول فيه تلك الصورة المتخيلة إلى واقع معاش.

قالت: بحسب ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾[1] و﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[2] فإن هذه الخيالات هي من وساس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس. وعبد الله ينبغي أن يكون دائماً على حُسن ظن بخالقه وأن يلقي بسوء الظن بعيداً عنه، وقد ورد في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي المؤمن». ومن الأمثال المعروفة: ما خلق الله أشداقاً، إلّا وجعل لها أرزاقاً. ومن رأى ستر العورة واجباً، أعطاه الله ساتراً وهيأ أسباب حصوله. وحين رغَّب بالنكاح والزواج تكفَّل بالمعاش أيضاً. فليس فيما يقدّره الله عبث أو تكليف بما لا يُطاق. وحين تذكر أنتَ اسم الزمان غير المؤاتي، وتعيش في خوف منه، إنما تقوم بما ينافي مقام التوكل والتوحيد. فأي منزلة للزمان كي يطاولَ تقدير الله الرحيم؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

(٢) سورة النور، الآية ٣٢.

لو أن سيوف العالَم حَزّت في مكان فإنها لن تقطع شرياناً واحداً إذا لم يشأ الله ذلك، يجب على العبد لله أن يخاف منه وحده، وأن يرجوه وحده دون سواه، وإلّا فلن يكون موحِّداً أو عبداً لله بل مشركاً. وإنك لتعلم هذه المعاني أفضل منّي، وإنما عرضتها أمامك لأجل التذكير فقط وأرجو المعذرة.

مكابرة العلم:

وفجأة صعدت غيرة العلم ومنزلتي الجبروتية إلى رأسي، مضافاً إليها سلطان ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1] فقلت: نعم إنني أعلم أفضل منكِ، لأن معرفتي هي بمنزلة حق اليقين، فإن لم يكن، فإنها ترقى إلى مرتبة عين اليقين. بينما أنتِ في مرتبة علم اليقين التي هي منزلة وصلتِ إليها بالاستدلال والبراهين اليقينية وهي أمر مشكل أيضاً. بل وصلتها من خلال إنصاتك للوعاظ وإمام الجماعة الهندي الساذج الذي هو من جيرانكم. ومنزلة الخطابة نافعة للظن وليس للعلم. ولم يكن عرضك لهذا المتاع الكاسد في سوقي إلّا لعدم معرفتك بمقامي.

أيتها الذبابة إنّ ميدان العنقاء ليس لكِ ومع ذلك تجولين وتؤذيننا

إنّ خوفي من الزمان ينبع في الأساس من خوفي عليك أنتِ التي عشتِ حتى الآن عزيزة مدلّلة من قبل أمك وأبيك، ينفّذان لك كل ما طلبتِ أو يسليانكِ بالنصائح. ولم تشربي مما تسقيه الدنيا بصروفها، كما لم تتجرعي مرارة صبرها. ولم تصلي إلى منزلة التوكل. لا تعرفين سوى الأقراط والأساور والكيس الملآن بالذهب وملابس الحرير وأنواع الملبوسات والمأكولات اللذيذة والنوم على الفرش الناعمة. ولا تعرفين حتى الآن النوم بالقميص المتّسخ البالي على الحصير. ولم تنطبع خطوط نسيج الحصير على أضلاعك. لم تأكلي الخبز اليابس المنقوع بالماء القراح. ولم تظلّي ليلة بغير غداء أو عشاء. ولم تضحّي لحدّ الآن بشيء مما يعزّ عليك: من ذهبك وجهاز عرسك وملابسك الحرير وشادورك المُهدى إليك، لأجل طعامنا.

إن كل هذه البلايا والمصاعب موجودة في طريقنا الذي سنسلكه، وهي وإن

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٤.

لم تكن مستمرة، إلّا أنها ستكون في أغلب الأيام، وأنتِ لا طاقة لكِ على تحملها. بالنسبة لي فأنا طالما قضيت أوقاتاً على الطوى والضرب في آفاق الأرض، حتى صرت قريباً من بوابة الموت، ثم عدت منها. أما أنتِ التي أصبحت زوجتي، فإما أن تكوني قد تصوّرت راحةً أكثر مما لديك، وستجدين على ما يبدو ما هو عكس ذلك. وإما أن تكوني قد توقّعتِ هذه المصاعب وأنت الآن في بداية السفر إليها. والمسافر حديثاً لا يمكن أن يقاس بمن هو مسافر دائماً. لأنه لم يعتد على وضع قيد الصبر والتحمل في رقبته. وإن وطّنتِ نفسك على الصبر والتحمل فإن ذلك سيكون صعباً عليّ، إذ لا أرتضي لكِ أن ألقيكِ في المصاعب والمضايقات. أنتِ الآن في أول خطوة على طريق الصبر، بينما تجاوزت أنا الصبر، وتجاوزت أيضاً قصبة ومدينة التوكل، وغادرت عاصمة الرضا، ومتجه الآن نحو مقام التسليم.

إنّ الفلك لن يؤذيني لأنه أسفل منّي وأنا فوقه

أيتها الصبية! أتريدين تذكيري بعقلكِ الناقص وعنقكِ الملتوية، وتطلبين العفو أيضاً. وهو العذر الأسوأ من الذنب.

رأيتها وقد غلا الدم في عروقها، ودلل على ذلك احمرار بشرتها المعلم باستيلاء الغضب عليها، وهي تقول: إن كنتُ تجاسرتُ عليك وأسأت الأدبَ بحقكَ فلأنني لم أعرف قدرك. والجاهل معذور، والقلم عنه مرفوع. إن خوفكَ عليّ من أن لا أسعدَ معكَ مع أنه شيء ممدوح لأنه كاشف عن شدّة الحب والعطفِ على هذه الذرة التي لا وزن لها. إلّا أنه نابع من عدم معرفتك بي. ولك الحق في ذلك، إذ إننا حديثي التعرف إلى بعضنا.

اعلم أنه شائع بين النساء أن ما يثبُتُ في القلب من حبٍّ أو بغض إنما مردّه إلى النظرة الأولى، وهو دليل على عواقب الأمور، وذلك في موقعين: الأول ساعة العقد، والثاني الساعة الأولى من لقائهما ليلة الزفاف. وكنت أنا في تينك الساعتين اللتين هما بمنزلة عالم التقدير إلى عالم الوجود، بل بمنزلة عالم الذر إلى عالم الحشر، وانطباق المبدأ على المعاد ـ فذلك مجمل هذا المبيِّن، وهذا شرح ذلك المتن ـ كنتُ قد أحببتك منذ تلك اللحظة، وفتحت القرآن متفائلة منذ الساعة الأولى تلك، وتلوت الشرح المفصل للآية الكريمة التي يُستشف منها

الصداقة الراسخة التي تزول معها الآلام، وتتحول المرارة إلى عذوبة. كما يحدث أيضاً أن تتحول بسبب البغض والنفاق بين الزوجين مظاهر العزة إلى ذلّ، ومع وجود الثروة يعيشان في رِقّ الفاقة، وتنقلب العذوبة إلى ما لا يُستساغ، والحلاوة إلى مرارة. وعلى العكس من ذلك فإن الحبّ والاتحاد بين الزوجين يحوّل الذلة إلى عزّة، والفقر إلى ثروة، والقبح إلى الحسن. فهو الكيمياء الذي يحوّل كل ما يلامسه إلى ذهب. ويبدّل السيئات بالحسنات.

إن الصداقة والاتحاد الذي يبقى ثابتاً إلى الأبد ليس فيه (أنا) و(أنت). فما لي منك، وما لك منّي، ومن الطبيعي أن لا يخون أحد في ماله أو بيته، بل يسعى إلى حفظهما. وإن لي يداً طولى في علم المعيشة أُظهر فيه القليل كثيراً، وأجعل من اللاشيء شيئاً. وأستطيع أن أجعلك تعيش عيشة السلاطين بليرة واحدة في كل شهر. فلا تتصور أن نفقاتك ستكون كما هي عليه الآن. لأن ولائم قد أقيمت في الأيام المنصرمة وكانت ضرورية. ومن جهة أخرى فإنني قد أسرفت نسبياً لظنّي أن أصول المعيشة في بيوت الطلاب هي على هذا المنوال. ومهما يكن فلا تدع للهمّ والغمّ إليك سبيلاً. لأنّ مدير بيتك صديق لك. والبركات تأتيك منه. وهو عطوف عليك. ولن تقع في ضائقة خانقة ما دمت مع هذا الصديق، بل ستعيش في سعادة. فطب نفساً وقرّ عيناً وكن من الشاكرين.

وعلى فرض وقوع ما لا يسرّ. فأنا لست بالشكل الذي تصورته. رغم أنني لم أكن قد رأيت الجوع والعري، إلّا أنني لا أستصعب الحالات الطارئة وما ينتج عنها، ولا ينبغي أن تعار أهمية كبيرة. لأنها قبل رسوخها مَثَلُها ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1] فالمهم هو الأخلاق الكريمة من القناعة والصبر وغنى النفس وعزتها وغيرها. فتلك هي ذاتياتها الحاصلة للإنسان دون تكرار وتمرين لأنها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[2] وسرُّ ذلك كله وروحه ومفتاح فتوحه ما ذكرت من حصول العشق الطاهر والمحبة الخالصة، وهي بحمد الله حاصلة في البيِّن. وبتلك النعمة الجسيمة تنعُم كل نقمة، وتسهل كل مشكلة، وتهون كل بلية، فطب نفساً وقرّ عيناً وكُن من الشاكرين.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان ٢٤ و٢٥.

وأضافت: سوف يكون أمر الطبخ على النحو الذي تريد.

قلت: افعلي كما كنت تفعلين في السابق. اطبخي الرز كل ليلة، وفي النهار اطبخي اللحم بأي شكل ترغبين. ولا تغيّري شيئاً مما اعتدته. وفي هذا الشهر الثاني لزواجنا، ولعدم وجود ولائم، فقد أحصيت نفقات طعامنا، فلم تزد عن الليرتين ونصف. لأنّ ثمن الوزنة[1] الواحدة من الرز المتوسط الجودة الذي هو عماد الطعام، خمسة تومانات. وعلمت بعد ذلك أننا نستطيع تصريف أمورنا بشكل معقول بأقل من ليرة في الشهر الواحد. كنت سعيداً بالبيت الذي استأجرته في محلة الحويش قرب مدرسة الآخوند، حيث أمتلك غرفة فيها. كان البيت يضم خمس غرف وسردابين من الحجم المتعارف. وقد اتفقنا أن يكون الإيجار ثماني ليرات في السنتين. ومر كل شيء بهدوء وسعادة وراحة بال، فانشغلت بفقه الآخوند والدرس والبحث والمناقشة.

ظهور نغمة الحركة الدستورية:

في هذه الفترة أي سنة ١٣٢٥هـ بدأت نغمة الحركة الدستورية في إيران، وارتفع صخبها في النجف. وكأن الحق تعالى قد أوجد محكّاً في هذه الفترة من الزمن لامتحان المسلمين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[3] فالشيعة الاثنا عشرية، ومنذ الغيبة الكبرى لصاحب الزمان الذي يعتبرونه المنقذ لهم، لم يُمتحنوا امتحاناً شاملاً كهذا؛ بل كانوا جميعاً، قبله، يبدون صالحين، بحسب ظاهرهم.

التقى بي أحد رفاقي وقال لي: لم نعرف هل أنت مع الدستورية أم مع المستبدة. ألم تكن من عشاق الآخوند؟

قلت: وما زلت. إلّا أنني لم أفهم بداية كلامك. ترى ما الذي ينبغي أن يُعمل للدستورية والمستبدة مما لم أفعله أنا؟

---

(١) الوزنة العراقية = ٦٦ كغم.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

قال: ألم تسمع أن الحركة الدستورية قد انشقت على نفسها، فأصبحت اثنتين: الديمقراطية والمعتدلة؟

قلت: لقد سمعت. ومن المعلوم أن الدين الإسلامي أنسب وأقرب إلى النظام الجمهوري أو الملكية المقيدة بدستور. وهو أمر جوهري عقلاني لكل فرد من أفراد البشر الذين أراد الشرع الإسلامي أن يكونوا أحراراً. لأن الإنسان سلطان عادل لا يليق به الظلم أو ارتكاب القبائح. بل إنه بحكم جوهره الذاتي طالب للمعارف والأخلاق الكريمة والأعمال الحسنة. ولذا خلقه الله حرّاً.

أما الجوهر الثاني فيه فهو النفس الحيوانية التي هي في البدن سلطان ظالم سفّاك متكبر مستبدٌ شهواني. ولذا فقد قيدته الشريعة بالآراء العقلية والقوانين الحسنة الشرعية التي لا ينبغي له أن يتخطاها ليعمل ما يمليه عليه هواه، بل عليه أن يبقى دائماً أسير الأحكام العقلية والشرعية ويتقيد بها. إذاً فالديانة الإسلامية تقيم الدولة الدستورية في وجود كل فرد من أفراد البشر وحقيقته.

أما الأسماء مثل: الحرية والانعتاق، فهي لأجل العقل والقلم واللسان ولكي تظهر المدركات العقلية إلى العالم الخارجي. أي أنّه ينبغي أن تكون تلك الوسائل المذكورة ـ العقل والقلم واللسان ـ حرة كي يُستطاع بها تعليم وإرشاد الجاهل وهداية الضال. وقد وضع اسم الدستورية لأجل النفس الحيوانية التي تكون الحرية لها موجبة للفساد وسفك الدماء، مما ينتج عنه في آخر الأمر خراب الدنيا والآخرة وهلاك النفس أيضاً. ولذا لا ينبغي أن تكون النفس الحيوانية حرة، بل مقيدة بأحكام العقل والشرع. وإن من النتائج العظيمة لهذا الاشتراط والحرية ارتفاع العناد والنفاق وحصول الاتحاد والاتفاق ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[1]. كما أن من فوائدها الجسيمة سكون النفس واطمئنانها وسفرها إلى رضا ربها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[2].

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٣.
(٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠.

وإنك لو نظرت إلى الآيات القرآنية وإلى المندوبات التي ندب الله إليها بعين العبرة والاستفادة لرأيت فيها مراعاة دقيقة ومتوازنة للمصالح الدنيوية والدرجات والمنازل الأخروية. وهذا الاشتراط والحرية هو مقصود خاتم الأنبياء ﷺ وحقيقة الديانة الإسلامية كي لا يطغى على الإنسان حبّ الدنيا والشهوة المستحكمان والراسخان فيه إلّا في بعض الحالات النادرة والأمزجة المنعزلة. كما أن ظهور شيء من ذلك القبيل مع الاستبداد والبربرية والتوحش، وإن كان باسم الاشتراط والحرية، لا ينبغي أن يكون مدعاة لليأس والفتور والتقاعس. إذ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب حتى لو كان تأثيره نادراً وقليلاً، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

ولقد قال النبي ﷺ: «يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً أفضل مما طلعت عليه الشمس». وأفضل من إنفاقه وتصدقه بالنقود والمجوهرات. ولو أن الإسلام قد طُبّق في جانبيه العبادي والسياسي، وأُقيمت موازينه العادلة في مجال المعاملات بموضعها، وامتُنع عن غير المنصوص عليه شرعاً بحسب مقتضيات الزمان؛ فأي شيء سيكون أفضل من هذا: سنّة مسنونة وطريقة مأمونة.

لكنَّ ما تفور به الأفواه، وتدور به الألسن دوراً، وتمور موراً، مشوب بالأغراض، ومخلوط بالأمراض، لا يطلع من قلوب صافية، ولا ينبع من منابع نقية طاهرة، فيخشى أن يكون وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة:

ليس كلُ من أمال قَلَنْسوته وجلس مقطباً يكون ملكاً أو يعرف عادات القياصرة

كذلك ليس صادقاً كلّ من ادعى أنه من عشاق الحركة الدستورية. فالغلبة للمستبدّين وعبّاد ذواتهم، وإن شياطينهم هي بالمرصاد للأحرار. ولو أن جميع الأطراف سحبت أيديها من المعارضة، فإن أول رائد لهم في هذا الانسحاب سيكون من هذه المجموعة، أي من هؤلاء الشياطين المروجين لظلمهم وشهوانيتهم تحت شعار الدستورية والحرية. كما صنع بنو أمية عندما نسبوا أنفسهم للإسلام وقالوا: إنّ الحسين قُتل بسيف جدّه. ويعنون بذلك ما قاله ﷺ: «من خرج على إمام زمانه فدمه هدر». هكذا أفتى ابن زياد الذي كان من علماء عصره.

---

(١) سورة سبأ، الآية ١٣.

وهذا عمل كبير عهد به الزمان للآخوند، وعباءة ثقيلة حيكت على قامته. بل هو رداء النبي ﷺ. وإنّ لكل نبي حواريين، وأنا من حواريّي الآخوند. فلي ما له وعليّ ما عليه، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

قال الشيخ: إن كنت من حواريّي الآخوند. فإن الآخوند من الدستوريين المعتدلين، وليس من الثوريين الديمقراطيين[١]. بينما يبدو من حديثك الميل إلى الديمقراطيين.

قلت: إن حضرة الآخوند أجلّ شأناً من أن يقدم في مجال الحقوق المدنية الأسياد، ويضيّع حقوق الكادحين والعمال ويغتصبها، مع توغله في العلم والفقاهة، وتحققه بالحكمة والنباهة.

نعم قيل: إن من مرامات تلك الطائفة الفصل بين القوة القضائية والروحانية، فأنكره (دام ظله) لكونه بمعزل عن الحق ومرمى بعيد. ونحن أهل المعنى غير مقيدين بالأسماء والألفاظ المستحدثة؛ بل طوع أمر الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢] والمواساة والمساواة من لوازم الأخوّة. ونحن شيعة علي أمير البررة، القاسم بالسوية، والعادل في الرعية، الذي نزل في شأنه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣] والذي قال: «لا أفسد نفسي بإصلاح الناس». وفي النجف خُصصت قاعة أو اثنتان للمطالعة لتكون مجمعاً للكتب العلمية والجرائد والمجلات حيث لزمتُ ـ أنا الذي أرى في الكتاب زادي ـ تلك القاعة، وكنت دائم التردد عليها لقراءة المجلات والجرائد. وكان الطلاب والفضلاء والزاهدون في الدنيا والنابهون وأهل الأذواق والسرائر النقية من مؤيدي الحركة الدستورية متحلّقين حول الآخوند. أما الذين في قلوبهم مرض، بل أمراض، وزادهم الله

---

(١) كانت صحيفة (**إيران نو**) المعبرة عن أفكار الديمقراطيين قد نشرت مقالاً اعتبرت فيه حكم القصاص القائم على ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ مخالفاً للسياسة والحكمة. وقد أرسل الآخوند الخراساني من النجف إلى طهران برقية يستفسر فيها عن ذلك المقال، وطالباً أن ترسل إليه نسخة منه (كي يعلن لعموم المسلمين ـ في حال صدق ما نقل عن الصحيفة ـ الحكم الإلهي) في تلك المسألة.
انظر: **خاطرات وأسناد مستشار الدولة صادق** ٢: ٣٠٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٣) سورة الحشر، الآية ٩.

مرضاً، الذين كانوا يعبدون ذواتهم، من مؤيدي المستبدة، فكانوا يحومون حول مركز الاستبداد، ويسجدون لآلهتهم وجامعة جمعهم يوم التناد.

حقاً إنّ هذا الماء الحلو هو ماء مالح وهو يجري في الخلائق إلى ساعة نفخ الصور
أهل النور يطلبون أهل النور والناريون منجذبون إلى الناريين

وقد انهمك بعض أنصار اتجاه (المستبدة) من الحمير المتظاهرين بالقداسة ومن المحتالين، في الشيطنة واستخدام الأساليب السياسية ضد أنصار (الدستورية) حيث عرَّضوا أرواح وأموال وأعراض وكرامات أولئك المساكين للخطر[١]. ولم يتركوا تهمة أو بهتاناً وانتساباً (للبابية)[٢] أو الارتداد عن الإسلام إلّا ألصقوه بهم. وقد ادعوا أن الشيخ الآخوند هو من أصل إفرنجي، وأنه غير مختون[٣]، وأن أماكن الحجر الصحي في العراق التي أصبحت سبباً لإلحاق الأذى بالزوار، بل موتهم، قد أُقيمت بأمر من الآخوند، وإلى غير ذلك من الاتهامات التي أُلصقت بطلبة العلوم الدينية، والتي كانت تهمة (البابية) واحدة

---

(١) يقول هبة الدين الشهرستاني ـ وهو من تلاميذ الآخوند الخراساني ـ: (وفي خلال عام ١٣٢٥هـ بدأ النزاع على أشده بين جماعة شيخنا الخراساني والسيد اليزدي وقويت الخصومة التي بلغت منتهى الوحشية من إيذاء العوام لإخواننا وهيئتنا، بتسميم فكرة العوام، من أننا نريد الحرية التي هي ضد الدين. وكثيراً ما كانوا يضربونهم على رؤوسهم...) **ثورة النجف** ص٥٨.

(٢) (ظهرت الفرقة البابية على يد مؤسسها الباب علي محمد الشيرازي في إيران بتاريخ ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠هـ ـ ١٨٤٤م.... التف حوله جماعة ناصروا هذه الدعوة ومال إليه استغلاليون في الدين والسياسة. فرأت دولة إيران في هذه الفرقة خطراً يهدد سلامتها ومن ثم حدثت معارك. وبعدها أمرت أن يقتل هذا الداعية فقتل رمياً بالرصاص في تبريز بتاريخ ٢٧ شعبان ١٢٦٦هـ ـ ٨ تموز ١٨٥٠هـ... ولما قُتل عاد الكثير من أشياعه إلى الإسلام لتحقق كذب دعوته وأصر آخرون على ما عندهم... ثم ظهر فيهم عباس أفندي المسمى عبد البهاء فأعلن أنه ناله الظهور أي صار إلهاً ووضع عقيدته الجديدة بزعم أن (الباب) بشر به وذلك عام ١٢٧٩هـ. وهي لا تختلف عن عقيدة أهل الحلول والاتحاد والوحدة...) ملخصاً عن **تاريخ العراق بين احتلالين** ٧: ٧٢ ـ ٧٤.

(٣) الاتهام بالبابية وعدم الختان لاستغلال عقول العوام السذج مما شاع وانتشر في ذلك الزمان حتى إننا نجدها قد ألصقت بالمؤيدين لجمال الدين الأفغاني قبل أن ينفى من إيران. كما قال الأفغاني نفسه في رسالة كتبها للميرزا محمد حسن الشيرازي وشكا فيها من تصرفات ناصر الدين شاه ملك إيران آنذاك وأضاف قائلاً: (كما أشاع ـ أي ناصر الدين شاه ـ بين الناس ـ قطع الله لسانه ـ إني كنت غير مختون ـ واإسلاماه ـ ما هذا الضعف؟ ما هذا الوهن؟..)
تاريخ بيداري إيرانيان ١: ٧١.

منها. ولم تكن تلك الدعايات مقتصرة على داخل مدينة النجف، بل تعدّتها إلى العراق بأسره، وإلى العشائر، إلى الحد الذي لاقى فيه الطلاب الأذى على أيدي أعراب البادية. ولم يكن هناك أمان حتى في النجف. وازداد الوضع تردياً حتى أن الطلاب لم يجرؤوا على الذهاب لزيارة كربلاء لمدة سنة. كما لم يستطيعوا الذهاب إلى الكوفة للنزهة أو المبيت فيها وفي السهلة خوفاً على أرواحهم، وظلوا سجناء داخل جدران سور المدينة.

وقد تحسّن الوضع بعد إعلان الإصلاحات الدستورية العثمانية، حيث نصَّت القوانين على ضرورة احترام طلاب العلوم الدينية في النجف، وضمان سلامة أرواحهم. إلّا أن الحمير اللابسين مسوح القداسة واصلوا تحريض أهالي الأرياف الذين تحمسوا لقتل أي طالب إيراني يرونه في خلوة. ولذا فقد حُرم هؤلاء الطلاب من السفر من النجف إلى كربلاء أو الكوفة لأداء بعض الأعمال العبادية المستحبة كتلك الزيارة التي تعادل تسعين حجة وعمرة كحج وعمرة النبي ﷺ.

وكنت أنا، بل كل السادات، في أمان من تلك المصائب. وقد سافرت إلى كربلاء عن طريق خان المالح سيراً على الأقدام لأداء زيارة عرفة، حيث التقى بي هناك أحد زملائي الطلاب النجفيين وهو مُعَمّمٌ وَمِن مدينة دامغان أصلاً. فقال لي: لم تسألني عن كيفية وصولي إلى هنا.

قلت: الأمر لا يحتاج إلى سؤال. لقد جئت كما في كل مرة.

قال: ليس الأمر كذلك، ولم آتِ كما اعتدت كل مرة.

قلت: فأخبرني بما جرى.

صديقي والرعب القاتل:

قال: ركبت الزورق من الكوفة، وكان كل الراكبين من أعراب البادية وأواسط العراق، ممن يقيمون على بعد عشرين وثلاثين فرسخاً من الكوفة. وكنت الوحيد من بينهم الطالب الإيراني. فلما قطعنا في الماء ثلاثة فراسخ مبتعدين عن الكوفة وقد بقيت ساعة إلى الغروب دار الحديث بين الأعراب، وكان موضوعه أن بين شيوخ النجف كثيرين من أتباع المذهب البابي، وقد قدموا إليها بهدف

اغتيال السيد محمد كاظم اليزدي. وبعد أن أنهى المتحدث كلامه هبّ المستمعون مؤيدين بصوت واحد: هاي حجايه صدگ ما بينها خلاف، إحنا هم سمعنا[١].

قال أحد الجالسين: إن أحد أولئك البابية موجود بيننا، ولا بدّ أن نقتله ونذبّه[٢] بالشط قربة إلى الله، وينتهي كل شيء. فأجابه آخر: إذا أردتم قتل هذا الملعون الوالدين دون أن تتحملوا شيئاً من الوزر، فانتظروا حتى غروب الشمس ليكون الظلام ساتراً لكم عن حدوث مشاكل. استحسن الآخرون رأيه وأظهروا موافقتهم بأن قالوا جميعاً: هاي خوش حجايه. عندها نهض شاب من بينهم وقال: أنا أقتله بهذا الخنجر وخنجري براق، ثم سحب خنجره من غمده. فصاح الجميع: زين، زين، اقعد الساعة [وانتظر] حتى تغرب الشمس.

أعاد الشاب خنجره إلى غمده، وجلس على أحد الألواح الخشبية في الزورق منتظراً الغروب.

استمعت كل ما قالوه وفهمته. أطرقت برأسي وآثرت السكوت وتظاهرت بأنني لم أسمع أو أفهم شيئاً. إلّا أنني كنت أرتعش في داخلي، وقد جفّ فمي من الخوف. كانت ضفّتا النهر خاليتين من الناس، وأنا وحيد في الزورق دون معين، فأيقنت بالهلاك، واستولى عليّ قلق لا حدود له. فكنت أتوجه إلى الله تارة وأدعو بدعاء «أمّن يجيب المضطر» وأخرى أتوسل بالحجة قائلاً: يا بن الحسن، أدركني، أدركني، أدركني. العَجَل، العجل، العجل.

قال أحد العرب وهو الجالس إلى جانبي بعد أن رآني أجلس هادئاً: هل فهمت ما قاله هذا؟

---

(١) عن هذه الإشاعة قال السيد هبة الدين الشهرستاني:

(أعتقد أن بعض الشياطين منهم ـ من العوام ـ عملوا عملاً سيئاً خدموا فيه جماعة اليزدي بنشرهم إعلاناً ألصقوه على الجدران رسموا فيه يداً فيها مسدس خاطبوا فيه السيد اليزدي وناشدوه النزول على رأي رجال المشروطة ـ أي الدستورية فإن لم يفعل قتلوه. فكان لهذا الإعلان أثر سيىء في نفوس العوام، فزاد انتصارهم لليزدي. فقد هاجت عواطفهم واعتبروا أن هؤلاء مجرمون يريدون القضاء على ابن رسول الله).

ثورة النجف ص ٥٩.

(٢) نلقيه.

قلت: لا.

قال: إنه يريد أن يقتلك ويذبّك بالشط.

اصطنعت ابتسامة على وجهي وقلت متعجباً: إنك تكذب، فأنا مسلم وهم مسلمون، وهم زوّار أيضاً.

أشار بيده إلى قبة مرقد الإمام علي عليه السلام وهو يقول: وحق أمير المؤمنين هذا. الساعة يقتلونك ويذبّوك بالشط.

أشحت بوجهي عنه وأنا أقول: أنتَ تكذب. ثم عدت إلى الانهماك بدعواتي الخالصة التي لم أكن في أي وقت من الأوقات قد استعنت بها بهذا الشكل النقي. وكنت أزداد اضطراباً مع اقتراب موعد الغروب. حتى شعرت بالخور يدبّ إلى كل أعضائي رغم أنه لم تزل فيّ بقية من الشعور والحركة. وكنت أحصي أنفاسي كمن هو في حالة الاحتضار.

جاء الفرج:

وفجأة ارتفع من ضفة النهر صوت مرعد ينادي: يا ملاّح جَدِّمْ(١). فزع راكبو الزورق، وحين نظرنا إلى المكان الذي انطلق النداء منه رأينا عربياً طويل القامة ضخم الجثة أسمر اللون، شاربه تجاوز أذنيه طولاً، حليق اللحية. أمسك بيده بندقية وتمنطق بحزام مليء بالرصاص، وشدّ حزاماً آخر مليئاً بالرصاص أيضاً إلى صدره. كان كالنمر في هيبته والمريخ في نحوسته، وعزرائيل في طلعته، والأسد في زمجرته. استولى الرعب على الراكبين في الزورق وشحبت وجوههم، وكأن عزرائيل قد وصل لقبض أرواحهم. أما الشاب الذي كان يريد قتلي فقد جبُن وزحف من الخشبة التي كان عليها إلى وسط الزورق، حيث انصرف عن نواياه، وبدأ بالتفكير بخلاص نفسه.

جلس ذلك العربي المسلح على مقدمة السفينة مقعياً كما يجلس الكلب بحيث أصبحت بندقيته على رؤوس المسافرين. كنت الوحيد من بين الحاضرين الذي أحببته حبّاً جمّاً لأنه قد أعاق عملية قتلي.

---

(١) أي قدّم الزورق إلى ضفة النهر كي أركب.

بعد عشر دقائق من السكوت والدهشة اللذين رانا على الركاب، تجرأ رجل مسنٌّ منهم ممن عركته تجارب الحياة ورأى حلوها ومرّها، وخاطب الرجل المسلح: أغاتي وين تروح؟ أجابه الرجل بصوته الغليظ: شيخصّك يا ملعون الوالدين أنا لوين أروح[1]؟

حين رأى الجالسون أنه لم يحترم ذلك الشيخ المسنّ بذلك الجواب، حسبوا له حسابه وأعرضوا عنه. وبينما استولى الظلام على الوجود، قبعوا جميعاً في أماكنهم بذل صمّاً بُكماً عُمياً. لم أذق طعم النوم حتى الصباح، وكلما تطلعت إلى الرجل المُسلّح كنت أراه على جلسته لا ينفكُّ ممسكاً بندقيته بيده وعيناه تجوبان آفاق السماء. ومهما يكن فقد كنت هادىء البال لنجاتي من القتل.

بعد طلوع الشمس بساعة وصلنا طويريج. فقال ذلك العزرائيل: يا ملاح! جَدِّمْ. فاندفع الملاّح بزورقه نحو ضفة النهر بحيث أمكن للرجل المسلح أن يغادر الزورق.

قال له الملاح: أغاتي! كروه.

فجأة سحب الرجل بندقيته ومد رأسها إلى صدر الملاّح وهو يقول: ماكو عندي إلّا جيله، تريد؟ هاك.

تراجع الملاح بسرعة عن طلبه وقال له: روح وداعة الله[2]. وغادرنا ولم أفهم شيئاً سوى أنني نجوت من الموت. وربما كان الرجل يريد الذهاب إلى منزله إلّا أن الله سبحانه قد جعله يرغب في ركوب الزورق لينقذ الشيخ الدامغاني. ولو أنّ أولئك الأعراب لم يخطر على بالهم قتل الشيخ، لما احتيج لمجيء ذلك العربي المسلح، وربما كان إخطار الشخص الجالس إلى جانبه له لتخويفه وذلك جزاءً وفاقاً لذنب أذنبه، ولو لم يعط الله الرغبة في ذلك الذنب لما وقع هذا الإخطار، وهو فعّال لما يشاء، ولا يشاء ما يشاء عبثاً ولا جزافاً.

---

(١) هكذا ورد الكلام بالعامية العراقية في الأصل. أغاتي = سيدي. شيخصّك = ماذا يعنيك أو ما دخلك في الأمر. لوين = إلى أين.

(٢) كروه = أجرة. جيله = رصاصة. وداعة الله = لتكن وديعة عند الله.

حين وصولي إلى طويريج ذهبت إلى المقهى، وجلست فرأيت اثنين أو ثلاثة ممن كانوا معي في الزورق، فطلبت إلى القهواتي أن يأخذ نقود شايهم مني. ثم دنوت من أحدهم وكان يعرف شيئاً من الفارسية وسألته أن يخبرني بحقيقة ما جرى في اليوم الماضي، إذ إنني لم أكن أتصور أنه أخبرني الحقيقة.

قال: بحق أمير المؤمنين لو لم يأتِ العربي المسلح إلى الزورق، لكانوا قتلوك وألقوك في النهر، ولكنت الآن طعاماً للأسماك.

قلت: من أين علموا بوجود أتباع للمذهب البابي في النجف، وأنهم جاؤوا لقتل السيد؟ وعلى فرض صحة ذلك من أين علموا أنني أحد أولئك البابيين؟ ألم يكن محتملاً أن أكون من أتباع السيد المخلصين، وأنهم ربما كانوا سيفجعونه بقتلي ومصابي؟

قال: يا حضرة الشيخ! إنّ مسألة البابية واغتيال السيد هو عذر مختلق ولقلقة لسان. إذ إن الهدف من قتلك هو العبث والاستهانة. وقد رأف الله بحالك. وإلّا فإنهم لا يعرفون حتى ربّ السيد فضلاً عن السيد.

وقد وقع من أمثال هذه الحوادث المؤلمة الظالمة الكثير على الفضلاء والمجتهدين. وعلى الرغم من أنني لم أكن من المشمولين بها إلّا أن الإنسان الغيور لا يستطيع تحمل رؤية وقوع كل تلك المظالم على أهل صنفه، ولكن بما أنها تصدُر من بين أوساطنا فينبغي علينا الاحتراق بصمت:

لم يكن تأوهي من الغرباء أبداً فكل ما وقع عليّ كان من ذوي القربى

التظاهر واستعراض القوة ضد روسيا:

ونظراً لغزو الجيش الروسي لإيران واعتداءاته عليها، فقد أصدر الشيخ الآخوند ـ بهدف الجهاد والدفاع وإخراج الروس من إيران وإسقاط نظام محمد علي شاه ـ أمراً بالتحرك نحو الكاظمية. وقد بادرنا نحن الطلبة والمجتهدين الآخرين، وحتى السيد محمد كاظم اليزدي إلى التحرك أيضاً. ولما كان حماسي شديداً فقد تحركت مع بعض الأشخاص قبل يوم واحد من نية الآخوند على السفر، فوصلنا مدينة الكاظمية ورأينا أهالي بغداد من مختلف المذاهب قد جاؤوا إلى خارج مدينتهم مسافة فرسخ واحد لاستقبال القادمين وإظهار التضامن معهم،

وكانوا قد نصبوا خياماً، اتصلت ببعضها على امتداد فرسخ أيضاً، ووضعوا أمام كل خيمة منضدة رصت عليها أدوات الشاي والقهوة والأواني الزجاجية المليئة بالعصير بكميات كبيرة، وكانت كل خيمة تمثل صنفاً من الأصناف. وحين كان شعاع الشمس ينعكس عليها، تبدو الأرض وكأنها سماء رصعت بالنجوم المتلألئة. وكان الحشد يموج بكل الأصناف: كان هناك الآلاف من أفراد الجيش ورجال الدولة العثمانية، كما كان سفراء الدول حاضرين بأسرهم لمشاهدة قوة وشوكة الإسلام. وكان السفير الروسي خائفاً مرتجفاً كما علمت آنذاك.

كنا قد أقمنا في حسينية الكاظمين وهي مدرسة صغيرة. وكان عدد من أبناء العشائر المحيطة بالكاظمين يُقدّرون بعشرة آلاف شخص مسلحين قد ذهبوا وهم يهوّسون (يهزجون) للاستقبال حتى وصلوا المحمودية. إلّا أن كل تلك القوة والشوكة الإسلامية التي بلغت أوجهاً قد سكتت دفعة واحدة وعاد المستقبلون خائبين لأن الآخوند لم يأتِ في الموعد المحدد ولن يأتي.

يا إلهي! أي حظ تعس هو حظنا؟ لماذا وقع هذا؟ واويلاه! أية أخيلة احتلت رؤوسنا، وأي شتائم أطلقناها على الروس؟ ترى ما الذي أعاق الآخوند عن المجيء؟ هل سقوه السم؟ أم أنه سقط من عربة الگاري التي تقلّه؟

قال أحد رفاقي ـ بينما كنت منشغلاً في تلك التصورات ـ: حسناً! ما دمنا قد وصلنا إلى هنا، فلا بأس بزيارة سامراء. قلت: من الأفضل أن نذهب إلى المقبرة. ثم غادرت المكان متجهاً إلى كربلاء مع أحد زملائي، فوصلناها في اليوم التالي، وحين سألنا عن الذي جرى، قيل لنا إن برقية جاءت من طهران تقول: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] أي أن طهران قد فُتحت، وخُلع الشاه محمد علي ميرزا، واستقرت سفينة المُلك على الجودي الأحمدي الصغير[2]. وقد نُفي محمد علي ميرزا ومن تبعه. وكان الناس قد ذهبوا إلى الشيخ عبد الله وقالوا: من الواضح أن الاعتداء الروسي على إيران كان

(١) سورة هود، الآية ٤٤.

(٢) حدث ذلك في ٢٧ جمادى الثانية ١٣٢٧ هـ حيث عيّن أحمد شاه وكان عمره يوم أصبح ملكاً اثني عشر عاماً وهو ابن محمد علي شاه المخلوع في نفس اليوم ملكاً على إيران.

بإشارة من محمد علي ميرزا ولذا يجب أن يتزامن خلعه من العرش مع خروج القوات الروسية من أراضينا. ونحن إنما تحركنا إلى مدينة الكاظمين بهدف الجهاد لإخراج الروس. أما وقد ثبت أنهم سيغادرون إيران فسيكون ذهابنا كمن يعدو خلف كلب مجنون مصاب بداء الكلب ليرميه بالأحجار. لذا ينبغي عليك أن تمنع الآخوند من التحرك، إذ سيكون ذلك عديم الفائدة، وسيكون سبباً لتعريض الإسلام والمسلمين للمخاطر. وسنكون نحن في خدمتكم وتأييدكم.

أصاب الضعف الآخوند وظهرت على ناصيته آثار المغلوبية. بينما انتعش شياطين الإنس، واستولى عليهم الفرح والسرور. ولما كان اليوم جمعة فقد ذهبنا كالعادة لقراءة زيارة عاشوراء في الحرم الحسيني للدعاء بتعجيل ظهور الحق ودولته الحقة. وكنا قبل هذا نلقي باللعنات الموجودة في (دعاء علقمة) على رأس الشيطان ورؤوس أعداء الإمام، إلّا أننا بدأنا بتوجيهها منذ ذلك اليوم إلى الروس.

ولما كان أغلب الكربلائيين من علماء وعامة من مؤيدي (المستبدة) حتى أنهم قد أظهروا الأفراح ووزعوا المرطبات والحلوى وأقاموا الزينة عندما توفي الميرزا حسين بن الميرزا خليل وهو من المجتهدين الكبار الموقعين على ورقة الحركة الدستورية، فقد سمعنا منهم في تلك الأيام التي جئنا فيها، نحن الطلاب من الكاظمية بعد أن توقفت (حركة جند الله) نحوها، سمعنا الكثير من اللوم والهزء من الكربلائيين أصدقاء كانوا أم أعداء. وقد استمروا في تلك السخرية طويلاً. وكان هناك إمام الجماعة الهندي الذي كنت على علاقة معرفة به نظراً لصلته بعائلة زوجتي، والذي كانت (الدستورية) لديه تعني الكفر، ويرى في الآخوند كافراً على الرغم من أنه لم يُظهر ذلك أمامي. لكنه كان يدأب على كيل المديح والإطراء للإنجليز؛ فإن قلت له إن الإنجليز هم دستوريون كان يقول لا سمح الله أن يكونوا دستوريين. فالإنجليز برلمانيون وقد اتخذوا لهم بواسطته نظاماً راقياً تعيش الرعية في ظله بالطمأنينة والرفاه. أما (الدستورية) فهي البلاء الذي لم ينزل إلّا على رؤوس العثمانيين والإيرانيين[١]. كان إمام الجماعة ذاك يهزأ منا بالشكل التالي: لقد ذهبتم وقطعتم رقاب الروس بأقلامكم الحادة كما تُقطع رؤوس الدجاج،

(١) يبدو أن الرجل لا يعرف أن الدستورية هي وجود برلمان ودستور.

ونثرتموها أشلاء متفرقة. فاذهبوا الآن بهدوء وانشغلوا بدروسكم ونقاشاتكم. اللهم اكشف عنّا هذه الحيرة.

كانت كربلاء لنا في تلك الرحلة أسوأ من السجن. بسبب وقوع ذلك الأذى والسخرية من أهاليها الذين كان أغلبهم من الأراذل، وهؤلاء بمعظمهم من العجم، حتى قيل إن أي لصّ وقاتل وناهب لأموال الناس لا يستطيع العيش في إيران قد جاء إلى كربلاء وسكنها، فأصبحت مجمع الرذائل.

وعلى كل حال، فقد عدت إلى زوجتي التي كانت عند أهلها كي آخذهم معي ونعود للنجف فقالت: إننا لم ننتهِ بعد من رؤية الأقارب والمعارف، فلو أمهلتنا عدة أيام أخرى. قلت: لم أعد قادراً على تحمل هذه المحنة لذا سأذهب أنا أمامكم والتحقوا أنتم بي فيما بعد. وهنا تقدمت أم زوجتي بطلب قالت فيه: ليس لدينا رجل يسعى في أمورنا. ولنا دار أغارت عليها مجموعة من النساء العربيات ليس معهن رجل، وأقمن فيها. وكلما طلبنا إليهنّ الخروج جابهننا بالشتائم والبذيء من الكلام. إذ إن العرب عموماً لديهم نظرة سيئة عن العجم ويرونهم بعين الحقارة ولا يعدّونهم بشراً، على الرغم من أن معيشة أهالي العتبات المقدسة ترتكز على أموال أهالي إيران سواء منها ما أخذوه عن طريق الرضا والمعاملات التجارية، أم عن طريق القوة والإجبار.

معركة رابحة... مع النساء:

قلت: إن نظرتهم السيئة شنشنة أعرفها من أخزم. قومي ودليني على البيت. فذهبنا وحين أصبحت على بابه ناديت: أيتها النسوة العربيات والنبطيات البدويات والسليطات السلقلقيات، إن كنتنّ تردن اللطف والكرامة، فاخرجن بالسلامة وإلا. عندها ارتفع صخب متداخل من داخل البيت، وكأن فيه حماماً للنساء، فلم أفهم ماذا قلن، إلّا آخر ما ورد في كلامهنّ وهو: روح، روح، إن ابننا من أولاد السلطان.

وكان لديهنَّ ابن قد استدعي للخدمة العسكرية الإجبارية، ولذا فقد اعتبرنه ابناً للسلطان، وأصابهنّ الغرور ليُغرن على أموال الضعفاء.

أجبتهنّ: قد أنذرتكم فأعذرتكم، فإذا حلّ الغضب ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[1].

---

(١) سورة الصافات، الآية ١٧٧.

طلبت إلى صهرتي[١] أن تعطيني سند ملكية البيت، فأخذته وجئت إلى السوق حيث أعطيت قرانين لكاتب عرائض كتب لي واعدة بمضمون القضية موجهة إلى متصرف كربلاء. ومن هناك انطلقت إلى دار الحكومة ووضعت العريضة ـ بعد السلام ـ على منضدة موظف هناك. فقرأها وكتب كلمتين في ظهرها وأشار إليّ أن آخذها. التقطتها وذهبت إلى غرفة دفتر العرائض فقرأها الموظف وقرأ ما في ظهرها ومدّ يده إليّ قائلاً: سند التمليك. وحين سلمته إياه، فتح دفتراً وبدأ بمطابقة ما فيه مع ما في سند التمليك، ثم أعطاني السند، وقال: اذهب إلى غرفة التنفيذ. وهناك، ما إن قرأ الموظف المسؤول عريضتي حتى أشار إلى اثنين من ذوي الوجوه الغاضبة كانوا يجلسون على الكراسي في غرفته. فنهضا وطلبا إليّ الذهاب معهما. وحين وصلنا إلى الميدان حيث توجد إدارة الشرطة والسجن قالا: سيدنا انتظر هنا حتى نجيء إليك. قلت: لعلكما لا تعرفان موقع البيت. فردّا: إننا نعرفه. ثم ذهبا وجاءا بعد ساعة وهما يسوقان أمامهما أربع نساء أو خمساً. قالا: إن القانون سيجازيهنّ. والأمر إليك. إذ إنّ البيت خالٍ الآن وبإمكانك التصرف فيه. قلت: لأنهن لم يكن يعرفنني فسأسامحهنّ هذه المرة. والتفتُّ إليهن قائلاً: لكونكن، نساء، وقد قيل إنه لا تقابل المرأة إلّا المرأة، ولو كان ابنكُنّ خوّفتُمُنِّي به من أولاد السلطان حقاً لصنعتُنّ لي ما صنعتُنّ. «اذهبوا فأنتم الطلقاء»: كلام جدّي لأجدادكن.

سلمت البيت إلى صهرتي. وعُدت إلى النجف خائباً خاسراً مهيض الجناح.

ولم ينقض وقت طويل حتى رفع السلطان عبد الحميد كنظيره محمد علي ميرزا راية العصيان اغتراراً بما في نفسه من القوة والعظمة بهدف إلغاء مجلس المبعوثين. فانطلقت ألسن الطلاب والمشايخ من أشرار وذئاب العراق وأنصار (المستبدة) عديمي الحياء بالسوء. وانشغلوا في إثارة الاضطراب. ولقد أدركت آنذاك حقيقة قول النبي ﷺ: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت» والذي لم أكن أدركته قبلها. قلت: أي أحداث جسام تلك التي يشهدها قرننا هذا؟

---

(١) أم زوجته.

أرسل النواب من استانبول برقيتين واحدة إلى سلانيك والأخرى إلى الآخوند قالوا فيها: أدركنا، بل أدركوا الإسلام، فقد أوشكنا على الفناء. وقد بعث الآخوند إثر ذلك رسالة تهديد إلى السلطان عبد الحميد قال فيها: ينبغي عليك أن تتلافى ما صدر عنك من مخالفة للقرآن الكريم في حاله صدق ما نُقل خبره إلينا. وإلّا سنسقطك عن عرش خلافتك كما فعلنا بملك إيران.

معارضة العشائر:

حين سمع العرب ما ورد في تلك البرقية[١] جاء شيوخهم إلى الآخوند وتحلّقوا حوله خائفين شاحبي الوجوه وقالوا: ما الذي فعلته يا جناب الشيخ؟ إن هذه البرقية ستأتي بالمدافع المدمرة إلى هذه البقعة المطهرة. هل ظننت هذا سلطان العجم؟ لقد أباد هذا بإشارة واحدة وضربة واحدة سبعين ألف أرمني. وقد أراد أن يعلن الحرب على كلّ الدول. وهو معروف بالجزار. إنه سيبيد أرواح وأموال الأربعين ألف شخص من سكان النجف، ويحيل النجف وهذه البقعة المطهرة قاعاً صفصفاً. ما الذي جعلك مطمئناً وأنت ترسل هذه البرقية؟ هاي اشلون قضية؟ هاي شلون بلية؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

أجابهم الآخوند: يا جماعة! لا تخافوا ولا تلوموني، فقد استخرت الله فخار لي ذلك، وإنه معنا وسينصرنا على القوم الكافرين. فطيبوا أنفسكم وخافوا الله إنه من ورائهم محيط.

صدق الله ظن الميرزا:

جاء جواب السلانيكيين بعد ست ساعات عندما وصلوا استانبول. وبعد معركة قصيرة قاموا بخلع السلطان، ووضعوه تحت الرقابة في سفينة اتجهت به إلى سلانيك. وجلس على العرش محمد رشاد الذي أرسل برقية إلى الآخوند مع

---

(١) يذكر السيد الشهرستاني أن برقية الخراساني ملأت صحيفة كاملة وقد حملها شخصياً إلى دائرة البريد التي امتنعت عن إرسالها، حيث لم يبعثها الموظف المسؤول إلّا بعد أن بعث إليه الخراساني بتطمينات تدفع عنه كل خطر ينجم عن ذلك وصادف وصول البرقية مع إعلان خلع السلطان عبد الحميد. **تاريخ الحركة الإسلامية في العراق**، ص١٥٠.

برقية أخرى من شيخ الإسلام العثماني يشكرانه فيها على موقفه. ويدعوان والي بغداد وبتأكيد شديد إلى حفظ حرمة السادة والطلاب.

كل نبات يُسقى بهذا البستان يزداد نضارة على نضارته

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].

وكان الأتراك أكثر ذكاءً من الإيرانيين في هذه المسألة، إذ لو كان الإيرانيون وضعوا محمد علي ميرزا تحت الحفظ ولم ينفوه، لما عانوا من المشاكل التي رأوها فيما بعد.

العودة إلى الدرس:

انهمكت مرة أخرى بالدرس والبحث. وكان درسي في المساء **مباحث الاستصحاب** وكنت أحضر للمرة الثانية تلك الدروس بهدف الاستماع والتبرك، وإلّا فإنني كنت قد اجتزتها فيما مضى ولم أغادر شيئاً منها إلّا كتبته بتعمّق وتدبر وبذلت كل ما في وسعي في سبيل ذلك.

الآخوند في مواجهة روسيا:

ولما تجاوز الروس بغرورهم وعنجهيتهم الحدّ في عدوانهم وظلمهم، على الرغم من أن أدلّاءهم وموجهيهم هم من المنافقين الإيرانيين من داخل البلد، قرر الآخوند في آخر ذي الحجة من عام **١٣٢٩** أن يذهب إلى إيران لمجاهدة الروس. وقد ارتقى الطلاب المنابر لتحريض الناس وتشجيعهم على مقاتلة الروس وحفظ بيضة الإسلام. وكان أبناء العشائر ورؤساؤهم قد احتشدوا في النجف لأجل الزيارة الغديرية. وقد عبّأ الآخوند جميع العلماء الذين أصبحوا يداً واحدة لأجل التحرك للجهاد. أما رؤساء العشائر فقد بايعوا الآخوند وتعهد كل واحد منهم أن يحضر معه عدة آلاف من الرجال المسلحين. وقد وصل عدد أولئك الرجال المتعهدين بالحركة مائتي ألف شخص خلال يومين اثنين. كما أرسل رؤساء العشائر في أطراف كرمانشاه من داود خان وشيرخان وسائر الرؤساء برقية قالوا

---

(١) سورة الشرح، الآيتان ٥ و٦.

فيها إنهم على أتمّ الاستعداد للالتحاق بالركب المظفر. وقد استعد كلّ العلماء والطلاب في النجف للتحرك. فقرر الآخوند أن يذهب في اليوم التالي إلى مسجد السهلة للدعاء والتوسل، ومن هناك ينطلق بالركب.

اتخذ حواريو الآخوند والمقربون منه في تلك الليلة أماكنهم في الغرف المحيطة بالمسجد، بحيث تجمّع كل خمسة أو ستة منهم مع أمتعتهم المعدّة للسفر في غرفة. كما وضعوا أمتعة الآخوند نفسه في إحدى الغرف. ولمّا كنتُ بصدد نقل زوجتي وطفلي إلى كربلاء، فلم أذهب إلى مسجد السهلة.

ونظراً لازدحام الزوار من أبناء العشائر الوافدين على النجف لم يتمكن الآخوند من الصلاة في الرواق، ولذا فقد صلى خارج منزله، وصلّينا نحن خلفه. تفرقنا بعد الصلاة حيث جئت إلى المنزل، ووضعت أمتعة سفرنا إلى كربلاء في الخرج ثم نمنا.

أفقت قبل طلوع الشمس وذهبت إلى بوابة الكوفة كي أكتري بغلاً من هناك لأجل السفر إلى كربلاء. حين وصلت إلى الطمّة[١] رأيت سيداً عربياً من رفاقي فسألني: إلى أين؟ قلت: أريد أن أكتري بغلاً للذهاب إلى كربلاء.

قال: لقد سمعت أن صحة الآخوند ليست على ما يرام، وهو لا يستطيع الحركة.

قلت: هذا كذب. فقد كان صحيحاً معافى الليلة الماضية.

قال: وقد قيل إنه مات.

وفاة الآخوند:

قلت: اللهم فُضَّ فاه. فبعد نصف ساعة سيتضح كذب هذا الكلام. غادرني الرجل، بينما أسرعت أنا إلى الطريق الذي يقع منزل الآخوند في نهايته. ومن هناك انعطفت إلى الزقاق الذي شُيِّد فيه، فسمعت عندها أصوات بكاء ترتفع من داخل المنزل. دخلت إلى غرفة الاستقبال فرأيت مجموعة من الناس أخبروني أن الشيخ قد انتقل إلى رحمة الله عند السحر.

---

(١) منطقة مرتفعة مقابل الباب الرئيسي لمسجد الهندي في سوق الحويش بالنجف الأشرف.

لم يكن مريضاً، وبعد أن أوصى بكل ما يمكن أن يوصي به المسافر، أمسك بخاصرته وقال: آخ. ثم أسلم الروح. لقد مات. مات حقاً وغادر الدنيا. فأين ذهب؟ كانت نيته في الذهاب إلى مسجد السهلة رمزاً. وموضوع السفر كان رمزاً. والذهاب إلى إيران كان رمزاً. لقد ذهب إلى وطنه الأصلي. هناك حيث لا شتائم ولا توافه ولا روس. هناك حيث الحريةُ حريةٌ لا قانون، لأن القانون نفسه موجود هناك. القانون الطبيعي. حقّاً حقّاً لقد مات الآخوند. ما الذي أزعجه منا؟ ماذا نفعل؟ وحين نجلس تحت المنبر بمن تقرّ عيوننا، ومن نسمع؟ وبمن تفرح قلوبنا؟ أصبحنا أيتاماً. نعم أصبح الأحرار أيتاماً، أذلاء، ذاوين متفرقين. أين ذهب الآخوند؟ يا ميرزا مهدي أين ذهب الآخوند؟

عُدت عصراً وعيناي باكيتان، فأنزلت الخرج الذي وضعت فيه الأمتعة عندما نويت السفر إلى كربلاء. قالت زوجتي وعيناها مليئتان بالدموع: ألا تريد السفر؟ قلت: لقد سافر الآخوند وحيداً ولم يأخذ معه أحداً. لم نكن نستحق السفر معه. لم نكن من الآدميين. اذهبي الآن إلى أي مكان في النجف، هل تجدين مكاناً خالياً من الدموع والنواح واحتراق القلوب وذوبانها؟ الجميع يبكون: النساء والرجال، الشباب والشيوخ، الأصدقاء والأعداء، أنصار الدستورية وأنصار المستبدة. الأرض تبكي والسماء تبكي أيضاً. شمدريني شكو قضية، هالمصيبة هالرزية هالبلية، إنّا لله وإنا إليه راجعون.

حوّلت مجالس الفاتحة التي أقامها العرب والعجم في البيوت والمساجد والفضوات، حوّلت النجف بأسرها إلى مجلس عزاء تواصل حتى يوم عاشوراء. كانت مجالس خطباء المنابر الذين لا يُعرِّجون أثناء ذكرهم لمصائب كربلاء في مراثيهم ونواحهم، على المصيبة بوفاة الآخوند، كانت مجالسهم تفتقر إلى الحرارة والحيوية. لأنّ الناس كانوا يعيشون أجواء هذه المصيبة الجديدة لاشعورياً[١].

---

(١) قال هبة الدين الشهرستاني: (وكان في تشييعه الآلاف بين باك ونائح ولاطم وصارخ، من أرباب التُقى والعلم. ولم يشهد التاريخ ـ كما قيل ـ لقطرنا العراق حتى اليوم مثل هذا الاحتفال لغيره نظراً إلى جلاله المعنوي). **مرگي در نور** ص ٢٨٨.

الروس يهاجمون المقدسات:

في ربيع الثاني من عام ١٣٣٠ وصل الخبر أن الروس وبذريعة أعطاها إياهم غير المسلمين قصفوا ضريح الإمام الرضا عليه السلام بالمدافع، ثم دخلوا بخيولهم وكلابهم إلى الرواق والصحن وفعلوا ما فعلوا. وقد تألم المؤمنون الغيارى في النجف لسماع ذلك. ولم يكن أمامهم إلّا أن يبكوا كالنساء ويلطموا صدورهم. وأُقيمت مجالس العزاء التي كان يُتلى فيها دعاء الفرج بكثرة. وكان صبرنا ينفد أحياناً، فننطلق بعتاب حجة العصر: إلى متى الصبر؟ لقد قُتل أجدادك وأخذوا أُسارى وحُبسوا، فقلنا إن الباعث لذاك هو ما اقتضته السياسة الظالمة والطُغيان والحفاظ على مصالح الحاكمين. إلّا أن إظهار العداء لتُراب قبر الإمام لا تترتب عليه فائدة إلّا العناد الصرف وإعلان العداء، مَثَلُ ذلك كمثل أخذ السيدة زينب أسيرة، وقتل علي الأصغر وعدم إعطائه الماء، وجولان الخيل على أجساد الشهداء، ورمي جثة الإمام الحسين عليه السلام بالسهام. فكل تلك الأعمال ومنها قصف مرقد الإمام الرضا عليه السلام بالقذائف، وإدخال الخيل والكلاب إلى صحنه وغير ذلك من المصائب المتلاحقة لا فائدة فيه للعدو، إلّا مجرد العناد وإظهار الغرور والعنجهية. وأمثال هذه المصائب على العقلاء مؤلمة ولا تُطاق.

قلت لرفيقي في السفر إلى الكاظمية: ألا ترى أن هذا التصرف من قبل الروس هو واحد من نتائج تحركنا نحو الكاظمية، كي يقولوا لنا إنهم سيفعلون من الآن فصاعداً كل ما يحلو لهم؟ وإلّا أي أذى أوقعه الإمام الرضا بأبناء الكلاب أولئك كي يصنعوا ما صنعوه؟ إنني لا أظن أن الحجة سيصبر على هذه المسألة وهو يعلم أن الشيعة لا طاقة لهم على الرد.

التعرف إلى المحلاتي:

قال: تعال نذهب سوية إلى الشيخ إسماعيل المحلاتي وهو من المجتهدين الذين يؤثرون العزلة، ولكنّه حلو المعشر وحسن القريحة. ولا بُدّ أنه سينفس عما في قلوبنا من الهمّ.

حين التقيناه أظهر الكثير من التعاطف والمواساة، وكان يرى أيضاً أن تلك من المصائب الكبيرة.

قلت: هل من الممكن أن يزول هذا الهمّ عن قلوبنا ويقع الانتقام؟

قال: إن ذلك ممكن بحدِّ ذاته. إلّا أنه غير ممكن إذا نظرنا إليه بحسب الظواهر المعهودة. إذ لا توجد دولة في الكرة الأرضية في يومنا هذا لها قدرة على مقاومة الروس. بل إن كل الدول لو اتحدت، فسيبقى هناك عائق، لأنك لو نظرت إلى خارطة العالم فسترى أن نسبة دول العالم إلى روسيا هي كنسبة معسكر على الحدود إلى دولة. إن سعة الدولة الروسية تبلغ من الشرق إلى الغرب أي أنّه إذا غربت الشمس عن غرب البلاد، فإن الصباح سيطلع في الطرف الثاني والشفق لم ينتهِ بعد في الغرب. وعلى هذا فإن ليل هذه البلاد يستغرق انتقال الشمس من هذا الطرف إلى الطرف الآخر، أي ٣٦ درجة التي هي عشر الدورة الكاملة المكوّنة من ٣٦٠ درجة. وبالتالي فإن من الصعب على الدول بقوتها وجيوشها أن تحل هذه المعضلة بهذه السرعة، وأن يزول هذا الهمّ عن قلوبنا، فينبغي إذاً أن نهرع إلى الدعاء.

وقد مدّ الشيخ المحلاتي يده بعد هذا إلى الرف وتناول ديوان **المثنوي** وانشغل بالصلوات وقراءة سورة الفاتحة كي يستفتح بأشعاره. ولقد عجبت لأمر هذا المجتهد العجوز الذي يضع **المثنوي** في متناول يده ويهتم فيه إلى الدرجة التي يستفتح معها به. أخيراً فتح الكتاب وابتسم وقرأ الأبيات التي تتحدث عن هجوم فيلق الجسمانيين على قلعة الروحانيين كي يمنعوا أهل عالم الغيب من القدوم إلى هذا العالم، وكيف أن الغلبة كانت في النهاية لجيش الروحانيين القادمين من عالم الغيب، في حين أحجم قائد الجسمانيين عن التفكير مرة أخرى في شن هجوم جديد، بعد أن رأى قوة أهل عالم الغيب.

أحسسنا بعد استماع تلك الأبيات بالسعادة، وكأنها كانت وحياً نازلاً علينا من السماء، وأيقنّا أن الروس سيُهزمون في المستقبل القريب بواسطة جيش ذلك العالم، وهو ما لن تستطعه جيوش عالمنا ـ كما تقدم في قياسنا لنسب الجيوش ـ إلّا أن يكون جيش الحجة أو من هو مرسل من الله، وبدأ اعتقادنا في **المثنوي** يزداد قوة بعد أن أعطانا تلك البشارة وأدخل السرور على قلوبنا. فقرأنا بنيّة خالصة

الفاتحة وأهديناها إلى قبره المليء بالأنوار، ثم نهضنا من هناك وبقينا ننتظر من أي قائد أو جهة سيكون تأييد الإسلام ووصول البريد مبشّراً قلوب المؤمنين بل العالم بأسره باضمحلال الدولة القيصرية والخلاص من هذا الدبّ الشمالي.

العثمانيون يستعطون الزائرين:

وشيئاً فشيئاً حلَّ الشتاء ببرده القارس. وكان والي بغداد ناظم باشا وهو من رجال الدولة العثمانية المرموقين. وبسبب قلّة النقود الفضية العثمانية فقد أقام بحجة المرض والخوف من المكروبات أربعة محاجر صحية بين خانقين ومركز كربلاء. حيث كانوا يأخذون من كل زائر بعد حجره لمدة عشرة أيام في كل محجر، بين اثنين إلى خمسة تومانات. كما أقام أيضاً في الطريق المتجه من النجف إلى كربلاء محجرين صحيين. وكان الدخول إلى كربلاء سهلاً، إلّا أن الصعوبة كانت تكمن في مغادرتها. وأما الطلاب فقد كانوا يتجنّبون الطريق الرئيسي، ويسيرون في الطرقات البعيدة، بعد أن يدفعوا قراناً أو اثنين لمأموري الدولة ليُخلوا سبيلهم. وكان الهدف من ذلك هو استلاب أموال الزوار الإيرانيين الذين بلغ عددهم خلال تلك الأشهر ما يقرب من مائتي ألف زائر دفعوا إلى الدولة ـ بغضّ النظر عن المظالم والاعتداءات التي كانوا يتحمّلونها ـ مليوني تومان بصورة رسمية بمعدل عشرة تومانات لكل فرد. ونظراً لكون المجيدي والقران العثماني يعادلان نصف وزن القران والتومان الإيرانيين، فإن المليوني تومان يصبحان أربعة ملايين إذا حوّلا للنقود العثمانية. وبسبب تلك المحاجر لم أذهب في مناسبات الزيارة إلى كربلاء. لذا فقد أخذت زوجتي وأطفالي لمناسبة زيارة شهر رجب إلى هناك لأضعهم هناك شهراً أو شهرين على أن أعود إلى النجف كسائر الطلاب عن الطريق غير العام. وكنت قد اتفقت مع المكاري أن ينحرف بي عن الطريق العام قبيل وصولنا إلى نقطة تفتيش المحجر الصحي بنصف فرسخ، وبعد أن نصبح في أمان من الخطر، نعود إلى الطريق العام، وقد حدّدنا موعد الحركة ظهر اليوم التالي. إلّا أنه حدث في المساء أن نزل الثلج بسمك شبر واحد، حيث أُزيل من السطوح قبل طلوع الشمس. وهو أمر تاريخي إذ لا يتذكر الشيوخ المسنّون نزول ثلج هناك.

علقنا في ما كنا نتحاشاه:

عند الظهر تحركنا ـ كما هو مقرر ـ مع أربعة من طلاب النجف، وكان معنا بعض الزوار العرب من نساء ورجال. كنا نسير في طريق طويريج. ولمّا لم يبقَ إلّا نصف فرسخ للوصول إلى المحجر الصحي، وبينما كنا نهمّ بالنزول عن الطريق العام إلى الطرق الترابية، داهمنا أحد العساكر ووقف أمامنا، نحن الذين كنا كالماعز ذوي اللحى في مقدمة قطيع الزوار. ومهما حاولنا التخلص من هذه الورطة بدفع النقود والتوسل، لم يُجدِ ذلك نفعاً. ثمّ تحرك العسكري إلى الخلف حيث بدأ بسوق طابور الأسرى إلى المحجر الصحي.

قال لي أحد الرفاق من الطلاب وهو من أهل ساوة: يا فلان هل سيأخذوننا حقّاً إلى المحجر؟ قلت: نعم. سيأخذوننا حقّاً. وهل كنت تتوقع أن يأخذوننا كذباً؟ إنها فرصة لي كي أرى هذا العالم الذي لم أشاهده من قبل حتى في الخيال. قال لي: إن أمرك عجيب. فأنت تضحك وتمزح. قلت: وما الذي تجنيه من بكائك؟ وعلى أي حال فهم لن يقتلونا. فلا تجزع. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾[1].

أُخذنا إلى ضفة نهر الفرات حيث نُصبت هنالك عدة خيم، في منطقة بعيدة عن مدينة طويريج. وكانت واحدة من هذه الخيم قد نصبت حديثاً لمناسبة قدومنا.

ترجلنا عن البغال، فجاء الطبيب وهو يحمل ورقة وقلماً، فوقف أمامي أولاً وسأل: شسمك؟ قلت: سيد حسن. فدّون الاسم ثم سأل: ابن من؟ قلت: ابن سيد محمد. اتجه بعدها إلى سيد مازندراني من رفاقي وسأله: شسمك؟ فقال: سيد حسن. سأله: ابن من؟ قال: ابن سيد محمد. وحين انتقل إلى أحد السادة من الزوار وسأله عن اسمه واسم أبيه اتضح أيضاً أنه سيد حسن ابن سيد محمد. عندها قال الطبيب: كلكم سيد حسن ابن سيد محمد. هاي عجيبة! فقلت له: شيخصّك أسامينا؟ العدد يفيدك. اكتب: ثلاثة سادة.

بعد أن أكمل الطبيب كتابة أسمائنا، وكنا خمسة طلاب وخمسة من العرب أبناء الريف، وُضعنا في تلك الخيمة. بينما كانت هناك عشرون خيمة أخرى مليئة بالناس. لم يكن الجوّ بارداً، إلّا أن ثلج الليلة الماضية كان يرصّع صفحة الفلاة.

---

(١) سورة البروج، الآية ٢٠.

وبعد نصف ساعة من حلول الظلام جاء الحارس الخافر المدجج بالسلاح ووقف بباب الخيمة قائلاً: إنني سأراقب هذه المنطقة، فكل من رأيته خارج الخيمة بدون أن يعلمني بذلك، أطلقت عليه الرصاص وأرسلته إلى ديار العدم، فيجب عليكم قبل الخروج أن تصيحوا: نوبجي، نوبجي[١]. وحين تسمعون مني الجواب والإذن يمكنكم الخروج آنذاك. فقلنا: حتى لو كان ذلك منتصف الليل؟ قال: حتى لو كان منتصف الليل.

فرشت عباءتي وصلّيت. ثم تناولت طعام العشاء. وكل من أراد الخروج من الخيمة نادى على الحارس الذي كان يردّ بصوت أجش من إحدى الجهات: شتريد؟ فيقول مثلاً: أريد أبول. فيأذن له قائلاً: روح، روح.

أفقت قبل رفاقي مبكراً لتأدية الصلاة، فرأيت أن الثلج الذي كان بسمك نصف قدم قد غطى الخيمة وأدى إلى انكماشها. فخرجت وناديت ـ حسب الأوامر ـ نوبجي نوبجي. فسمعتُ: شتريد؟ قلت: أريد الماي. فقال: روح. روح.

الصلاة بين الصحة والبطلان:

اتجهت إلى النهر. ولما كان الثلج يغطي الأرض ولشدة الظلام واحتمال أن أصل النهر فأقع فيه، فقد كنت أتحسس الأرض بعصاي حتى وصلت النهر أخيراً فملأت الإبريق وتوضأت وجئت إلى الخيمة فأديت الصلاة. وشيئاً فشيئاً ومع اقتراب شروق الشمس بدأ رفاقي بالاستيقاظ لأداء الصلاة. وكان آخرهم شيخاً من أهل بهبهان ضخم الجثة قوياً عريض المنكبين واسع الجبهة عريض الوجه مستدير الذقن جامعاً لكل صفات المصارع. نهض قرب شروق الشمس ثم تيمّم كي يصلّي. قلت له: شيخنا! إن الإبريق ملآن بالماء فتوضأ. فردّ علي: إن الواجب هو التيمم، وإن وضوءك باطل. ثم اتجه نحو القبلة وصلّى وهو جالس.

سألته: لماذا لا تصلّي واقفاً؟ فقال إن الخيمة واطئة إلى الدرجة التي لا أستطيع معها الوقوف. قلت: تستطيع ذلك إذا وقفت بإزاء عمود الخيمة. فقال:

---

(١) نوبجي = يعني الحارس الخفر.

ليس واجباً عليّ أن أتحرك من مكاني. ثم واصل صلاته جالساً. وكان من الفضلاء أيضاً!.

قلت لنفسي: لقد سمعت عن ضخام الأجسام من عديمي الحياء، ولكنني لم أشاهد أحداً منهم حتى الآن. فالحمد لله الذي أراني أي مخلوق هذا. إذ من المؤكد أنني لم أجد أي حرج أو أذى في وضوئي أو صلاتي، بينما أفتى هذا الشيخ ـ إضافة إلى مخالفته هو لأمر الله ـ ببطلان وضوئي وصلاتي أيضاً. فيا جناب الشيخ! أصبح واضحاً الآن أن وقوعنا في هذا السجن هو بسبب شؤمك. لأنه لم يحدث حتى الآن أن حُبس طالب من طلاب العلوم الدينية في المحجر الصحي، فليحفظنا الله مما بعد هذا.

بعد شروق الشمس وصل إلى المخيم بائع متجول للشاي قادم من مدينة طويريج وهو يحمل معدات الشاي معه. دعوته فجاء إلى الخيمة حيث شرب الجميع من شايه حتى العرب إلّا ذلك الشيخ البهبهاني. فألححت عليه مشيراً إلى أن ذلك سيدفئه في هذا الجوّ. رفض طلبي قائلاً: أخشى أن تمتلئ مثانتي وأنا غير قادر على الحركة. قلت: وبدون الشاي، ما الذي ستفعل لو أردت التبول؟ إنك ستتبول في الخيمة حتماً. والآن اشرب الشاي وتبوّل وسط الخيمة فإن الضرورات تبيح المحظورات. ومع كل ذلك لم يشرب الشيخ الشاي آخر الأمر.

عند مغادرة بائع الشاي. نظرت إلى الريفيين المساكين وهم يحاولون إشعال عود ثقاب لتدخين غلايينهم. كانت أيديهم ترتجف من شدة البرد. تألمت كثيراً لأجلهم، وفكرت خاصة في الذي سيحدث في المساء حيث الجفاف والبرد القارس. سنكون جميعاً في خطر طيلة بقائنا في هذا السجن، وعلى ما يبدو فإن بقاءنا فيه سيطول إلى عشرة أيام.

التوسل بالنبي وآله:

قلت لرفاقي: استمعوا إليّ ووافقوا على ما أقوله واعملوا بنصائحي. إن ما جرت به العادة هو أن مخرّبي البيوت هؤلاء يحبسوننا هنا لعشرة أيام وسط هذه الفلاة الباردة والقفر المجرد من وسائل العيش. فإذا لم نمُت ـ ومن المؤكد أننا

سنموت ـ فإنهم سيأخذون من كل واحد منا تومانين، بينما لا نملك الآن أكثر من عدة قرانات. وتلك هي صروف الدهر على ما جرت به العادة. وإذا كان الجوّ على هذه الدرجة من البرودة مع وجود الشمس، فإن مجيء الليل مع وجود الثلج على الأرض وكون السماء مغطاة بلحاف السحاب وهبوب رياح الصحراء العربية سيجعلنا في يأس من الحياة، ويتحقق برد الله الذي يطّلع على الأفئدة، وسنموت جميعاً من البرد بالقطع والضرورة ميتة السوء.

قال الريفيون العرب: أي والله سيدنا.

قلت: يا جماعة! نبينا محمد ﷺ قد حلف في حديث الكساء أنه «ما ذُكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض، وفيه جمع لشيعتنا ومحبينا، وفيهم مهموم إلّا وفرّج الله همّه». ونحن ولو لم نكن من الشيعة لسموّ مقامها وارتفاع مكانها ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[1] فعلى الأقل أننا من المحبين، وإن همّنا وحاجتنا اليوم لمن أعظم الهموم وأعظم الحوائج. فردّ الريفيون بحرقة: إي والله سيدنا.

فقلت للسيد المازندراني الذي كان بحسب الظاهر أكثرنا جميعاً تقوى وصلاحاً: تناول كتاب مفتاح الجنان واقرأ فيه حديث الكساء كي لا تسهو أو تغلط في قراءته. فقرأه حيث كانت الصلوات تتعالى خلاله حتى بلغت سبعيناً وحين انتهى منه، قلت بصوت خفيض: أيها الإخوة! إن المحبوس مضطر. فليقرأ كل واحد منكم مائة مرة: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[2] إلّا أن بعض رفاقي قرأوا ذلك بصوت مسموع كي يردّد معهم من لا يعرف ذلك من الريفيين.

وهنا خاطبت رفاقي: إن الشخص الجواد السخي، يكون عطاؤه سرّاً قدر الإمكان. وقد جرت العادة أن يكون عطاء الله كذلك. وهو لا يعطي رزق الإنسان بواسطة زنبيل يُدلّيه من السماء. ولا بدّ من أن نهيّئ الستارة التي ربما ينتظر منّا أن نمدّها كي ينزل الرزق بعدها. انتفض الشيخ البهبهاني قائلاً: عن أي ستارة تتحدث في هذا الجوّ البارد الذي فاح فيه عطر حديثك العرفاني؟ إن الله يعطي الرزق إذا شاء ذلك. أما الستارة فلم نسمع بها.

---

(١) سورة الصافات، الآية ٨٣. (٢) سورة النمل، الآية ٦٢.

قلت: إن المراد بهذه الستارة هو الأسباب الظاهرية التي وضعتُ لها اسم الستارة والغطاء والتي لا أرى سببيتها حسبما اقتضاه التوحيد، بل سُميت كذلك حسب آراء الناقصين المشمولين بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[1]. وأما أنت فمن الكاملين، وكان ذلك واضحاً من تيممك وصلاتك جالساً مما هو أسوأ في حقيقته من جهل الكردي أو اللري.

قال: لا أُريد أن أُجادلك في هذه اللحظات الحرجة، وسيكون كل شيء واضحاً بعد أن ننجو من هذا الموقف ونتبسط في الحديث، فيُعرف من هلك ومن غلب. قلت: حينذاك لن تكون روحك لوحدها هي المنبسطة:

لقد أظهر أحمد ذلك الشعاع الجليل فبقي مندهشاً إلى الأبد جبرئيل

قال: حسناً، ضع الآن الستارة كي نرى.

حصاد زرع التوسل:

قلت: ينبغي أن نكتب ثلاث رسائل، نوجه اثنتين منهما لإماميّ الجماعة في طويريج كي يشفعوا لنا عند الحكومة والدكتور، والثالثة لدكتور البيت الخرِب ـ المحجر الصحي ـ بهذ المضمون: إلى جناب رئيس حفظ الصحة دكتور الدكاترة والمحافظ على الأصاغر والأكابر والمحارب لمكروبات المسافر. سلام عليك، أما بعد فإن الأمر يستدعي منكم أن تغلقوا كل المحاجر الصحية المصطنعة الكاذبة، كي يستطيع كل مسافر مسكين أن يوصل نفسه إلى مأمنه، حيث إنه لا وجود لمكروب وباء الكوليرا في أي مكان حتى في بغداد التي هي مركز الولاية بل مزبلة العراق.

ثانياً: أعيدوا هؤلاء المساكين إلى كربلاء التي هي بزعمكم المكان الذي ينطلق منه المكروب، كي لا ينقلوا العدوى إلى أماكن أخرى، لأن المقام في هذا القفر الذي لا تتوفر فيه أسباب الحياة موجب لهلاك النفوس.

ثالثاً: ليكن مكان المحجر الصحي في منطقة عامرة كي يمكن المحافظة على

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٤.

الأرواح، وتوفير وسائل العيش بدرجة ما. إذ إن الوضع الحالي يجعل من أمر أي مكروب أو وباء أسوأ مما هو عليه. فأي ظلم وعناد هذا الذي ارتكبتموه؟ وأي وحشية وبربرية هذه التي تظهرونها؟ إن العالم المتحضر والدين والإنسانية لا تستدعي ذلك. والسلام على من اتبع الهدى.

انتهينا من الرسائل الثلاث، ثم سألت بائع الشاي: كم تتوقع أن تحصل من بيعك الشاي هذا؟ قال: قران واحد. قلت: ضع معدات الشاي هنا. وخذ هذا القران مكافأة لك، واحمل هذه الرسائل الثلاث إلى طويريج وسلمها إلى من كُتبت لأجلهم وعُد إلينا. أخذ القران والرسائل وانطلق كالبرق، بينما كنا نتطلع إليه وهو ذاهب إلى مدينة طويريج.

من حيث لم نحتسبْ:

لم يمض وقت طويل حتى رأينا خمسة أو ستة أشخاص قادمين نحونا، كان اثنان أو ثلاثة منهم يضعون على رؤوسهم قبعات حمراً، ويلبسون الملابس البيض. وربما كانوا الأفندية والدكاترة، بينما كان أحد العرب يقفز أمامهم في مشيه وهو يصيح: البشارة، البشارة، أعطوني حق البشارة.

قلت لمن معي: انهضوا فقد جاء ذو الأنفاس المسيحية يتقدّمه المبشّر قائلاً: العجل. وبعد أن جاوزنا ذلك العربي قلت لرفاقي: لا تتعجلوا في إعطاء الدكتور ما يطلبه منكم حتى يتبين الحق من الباطل.

تقدمنا ـ وقد شاهدنا الأفندية والدكاترة مقبلين نحونا ـ بضع خطوات لاستقبالهم، حيث اندفعت للسلام على الدكتور ـ عليه ما عليه ـ وبعد أن رد علي الجواب، قال: أعطوا عن كل واحد منكم أربع فتّات، وشيلوا غراضكم أمتعتكم.

قلت: يا أفندينا! ليس لدينا نقود كثيرة ندفعها لك، إن كلاً منا لا يملك أكثر من أربعة قرانات وهي أيضاً نفقات سفرنا.

قطّب حاجبيه، ثم أشاح بوجهه عنا ولوى فمه، وقال: شيلوا! كلهم مگادي[1]. وذهب وهو يدمدم. فقلنا: إن كل ما قاله ينطبق على نفسه. وانشغلنا

---

(١) أي: ارفعوا أمتعتكم واذهبوا فكلكم شحاذون.

بعد ذلك في إعطاء أمتعتنا للحمالين الذين كانوا موجودين. أما الشيخ البهبهاني أو تنبل بغداد، والذي هو إنسان ميت في حقيقته فقد وضع أمتعته على عجل على ظهر الحمال وانطلق خلفه بصحبة الشيخ الساوجي بائع الخُردة. فأوصيتهما أن يحجزا لي غرفة ممتازة في الخان، إذ إننا سنقضي الليل هناك. ثم عدت بهدوء إلى الخيمة وجمعت أمتعتي وارتديت عباءتي واتخذت طريقي وسط الثلوج.

الوصول إلى طويريج:

وصلت إلى سوق مدينة طويريج حيث لم تكن الحوانيت قد فتحت بعد أبوابها إلّا قليلاً منها. وكان أحد الكسبة قد أشعل ناراً في حانوته فلما رآني وحيداً سألني: هل أنت ممن كانوا في المحجر الصحي؟

قلت: نعم.

فقال: تعال اجلس وتدفّأ بهذه النار.

قلت: على الرغم من أن عرقي قد تصبّب لفرط سروري، إلّا أن استفادتي خبراً من الأخبار أمرٌ لا ضير فيه، ثم جلست، فوضع الرجل حطباً إضافياً على النار ليزيد في إضرامها.

سألني: هل في المعسكر حصير أو ما شابه يفرشونه على الأرض في المحجر الصحي حيث يحبسون الناس؟ وما الذي حدث حتى جاءت برقية من بغداد على سلك التلغراف تقول: فُكّوهم. فانتشرت هذه الكلمة في كل أنحاء المحجر الصحي: فكّوهم؟

قلت: أنا أحدثك لتقرّ عينك. لقد اتصلنا صباح هذا اليوم بواسطة حديث الكساء المعروف لدى الشيعة بالتلغراف الذي لا سلك له، اتصلنا بعرش الله، متوسلين بالزهراء ابنة النبي ﷺ: إننا مجموعة من الشيعة وإن لم نكن كذلك، فمجموعة من المحبين، وقعنا في ورطة بهذا القفر البارد، بعد أن عُدنا من زيارة حسينِك الذي هو حبيب أبيكِ ﷺ وقد حُبسنا لا لذنب اقترفناه. ونُريد النجاة من هذا الحبس. فاتصلت تلك المخدرة والشفيعة في العَالمين بالعرش فوقعت

كلمة (فكّوهم، وإلّا قطعتُ وتينك) في القلب النحس لناظم[١] باشا. ومن هناك انتشرت كلمة (فكّوهم) إلى كل النقاط.

لماذا التوسل بالزهراء عليها السلام؟:

قال: وَلِمَ انتخبتم الزهراء لوحدها من بين أولئك الخمسة (أصحاب الكساء)؟

قلت: لسببين اثنين:

الأول هو أن قلب الزهراء عليها السلام أكثر رقة كالأم التي هي أكثر عطفاً ورأفة بأولادها من الأب، بل إنّ قلوب كل النساء أكثر رقة من الرجال، فإذا عُرضت عليهن حاجة كن أكثر استماعاً. بينما لا يكون الرجال كذلك بسبب سعة الصدر وبُعد النظر، وبالتالي يكونون أبطأ في الاستجابة، وينتظرون الوقت الأكثر ملاءمة. وحسب رأيي فإنه إذا تردّد الأمر بين عرض حاجة على النبي صلى الله عليه وآله وابنته الزهراء عليها السلام، أو على الحسين وأخته زينب، أو على حجة العصر وأمه نرجس، فإن عرضها على تلكم المخدرات أقرب إلى النجاح، وربما كان ذلك مجرباً بصورة عامة.

أما السبب الثاني فإن الله تعالى قد جعل من الزهراء عليها السلام في حديث الكساء هذا، الأصل ومركز الدائرة بالنسبة لأولئك الأربعة، لأنه بدأ بالزهراء ثم عطف على أبيها. ثم عاد إلى فاطمة مرة أخرى بدلالة الضمير أي إلى مركز الدائرة. وانتقل إلى زوجها بعد ذلك، ثم عاد إليها بعود الضمير عليها وهكذا، وإن ما ورد في هذا الحديث من بناء السماء سقفاً محفوظاً، ودوران الأرض في الفضاء، ودوران الفلك، وسير السفن في البحر، وجريان الماء، بل تأثير المؤثرات بمحبة هؤلاء الخمسة في عالم الخلق، أصله فاطمة، بعبارة أخرى: فاطمة أقرب الوسائل إلى عالم الخلق والماديات، كما أن أباها أقرب الوسائل إلى الله.

حين وصلت إلى رفاقي في الخان، رأيت الشيخ الساوجي ذاهباً لشراء فحم

---

(١) هو والي ولاية العراق حيث باشر عمله بوصوله إلى بغداد في ٢٥ ربيع الآخر ١٣٢٨ (١٩١٥م) وعُزل من منصبه فيما بعد وذلك في عام ١٩١١. وقد قام أيام ولايته بعدّة إصلاحات وأعمال نافعة وأقر الأمن في كثير من المناطق وكان أغلب الأهلين راضين عنه وولّد رهبة في قلوب أهل الشقاوة. انظر **تاريخ العراق بين احتلالين** ٩: ٢٠١.

يعدّ عليه الشاي. فقلت له: ارجع. وعندما دخلت الغرفة رأيت الشيخ البهبهاني وهو يملأ السماور المصنوع من الصفيح بالماء.

قلت: يا رفيقيَّ! تصوروا أن الدكتور خرّب الله بيته قد أخذ أربعة قرانات من كل واحد منّا.

قالا: نعم تصورنا ذلك.

قلت: سيكون مجموع ما دفعناه اثني عشر قراناً. وعليه فسنقوم بهذا المبلغ الذي هو الآن في جيوبنا بتوفير وسائل العيش من الرز والمرق والسكر والشاي والنار كي تكون هذه الوسائل الخارجية منضمّة إلى تلك الروحانية الباطنية والسرور القلبي. ولنحوّل هذا الخان القذر إلى جنة مليئة بالعنبر. وينبغي للشيخ البهبهاني أن يتذكر شفاعة جدة السادات التي أنقذتنا من جهنم التي كنا فيها وأدخلتنا إلى هذه الجنة.

ولأن الشيخ البهبهاني عديم الحياء بسبب ضخامة جسمه قد ظل في الغرفة ليتصل بالمشرف على الخان ويأخذ منه حطباً ويهتم بالسماور، فقد ذهبنا أنا والساوجي لشراء متطلبات هذا اليوم والليلة من السوق والمجيء بها.

الكسل لا ينتج:

حين عدنا قال الشيخ البهبهاني: لا يوجد حطب في الخان إلّا عدة جذور لأشجار التوت باقية هنا منذ سنين لم يستطع أحد تقطيعها، يبلغ وزن الواحد منها عشرة أمنان، وهي متينة جداً ومتشابكة وجافة كأنها الحديد، بحيث لا يوجد أي فأس أو قوة أو ذراع يقدر على تحطيمها. وأنا واثق من كلام المشرف على الخان الذي أعرفه من سنوات طويلة. وقد قلت له: يا حاج عبد الله! إننا محتاجون للحطب. فأجابني: والله يا سيدي، ليس لدي غير جذور شجرة التوت تلك الموجودة في الحجرة وهي لا تنكسر، كما لا يوجد حطب في السوق أيضاً.

عندها ذهبتُ إلى الحجرة فرأيت أن الرجل العجوز لم يحقق نجاحاً بضرباته التي كان يوجهها للجذور، بل إن الفأس كانت ترتدّ إلى الخلف بمقدار ذراع واحد.

قلت: أيها العجوز أعطني الفأس لأستخدم أنا قوتي أيضاً. فقال: اذهب

لحال سبيلك. فقد مضى عليّ ساعة لم أكسر منها شيئاً. وتجيء أنت الآن لتحقيق شيء ما بهذه السرعة. كم هم أنانيون هؤلاء الطلبة؟ إنهم لا يعبأون بأحد وكأن أحدهم قد جاء برأس القيصر لمجرد لفّه ذراعين من القماش حول رأسه. ألا تدركون أن لي روحاً مثلكم؟

رأيت الرجل وكأنه أصفهاني لا يعمل في أغلب الأحيان إلّا برأيه. ومهما يكن فقد تريثت قليلاً كي أفهمه عجزه ثم خاطبته: إنني لستُ ذلك الذي تصورته أو فهمته، فإن ما أقوم به من دقائق العمل نافع ومفيد ولست معنياً بتجاهل من هم أمثالك، لأنني أؤمن بقانون المساواة والمواساة، بل معنيّ بإنارة سبل الهداية للناس. ناولني الفأس وبإمكانك أن تأخذ لنفسك الحطب الذي سأحطمه به لتقضي به وطرك. فأنا أقدّمك على نفسي. وحتى لو كنتَ شاباً سأفعلُ ذلك لأجلك، فكيف بك وأنت شيخ عاجز؟

أعطاني الأصفهاني الفأس وتنحّى جانباً، فقمتُ أولاً بإزالة الموانع التي كانت حول الموضع المفترض لضربة الفأس، بعدها أهويت به بكل ما في روحي من نشاط وهمّة لكسر تلك الجذور الشبيهة بمرحب الخيبري. ولقد كان وقوع الفأس فيها من القوة بحيث زلزل أركان الخان التحتية والفوقية، وبدلاً من أن ينقطع الجذر إلى قطعتين تحول إلى أربع، حينها أظهر المشرف على الخان ورفيقاي تعجبهم بقولهم: يا رب! أي قوة هذه، وأي ساعد الذي لا يطيقه إلّا ميزان بقوته؟

ثم صاح المشرف على الخان الحاج عبد الله: إن الخان سوف ينهار، فاستخدم الرفق في تقطيع الجذور.

وعلى أي حال فقد استطعت خلال ساعة من الوقت أن أُحيل بضرباتي تلك الجذور الأكثر عناداً من اليهود إلى قطع متناثرة كالجراد المنتشر في الهواء يميناً وشمالاً. فوقف الشيخ البهبهاني والشيخ الساوجي والمشرف على الخان أمام المشهد وقد وضعوا أصابعهم في أفواههم مندهشين كيف استطاع صاحب الجسم الهزيل هذا أن يمزّق تلك الجذوع الفولاذية؟

قلت: لا تعجبوا من الروح الإنساني الذي هو كأوراق الملفوف المكورة على

بعضها، أو كبرعم الزهرة النائمة حيث لا تُعرف قوته وعظمته إلّا عند بروز الآثار لأنه خليفة الله وآيته الكبرى. فإن استعان بالعلم والعزم فسيرى أنه قادر على شقّ السماء بقبضته، بل سيفعل أفعالاً إلهية وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]. وباب خيبر لم يُقلع بقوة جسدانية، بل بقوة ربانية. وذلك ليس خرافة بل إن كل إنسان حينما يرى نموذجاً من تلك المعاني في نفسه إنما يصبح محض تصديق لكلمات العظام: «اللهم أرني الحق حقاً حتى أتبعه».

أخذ الأصفهاني شيئاً من الحطب، بينما أخذنا نحن إلى حجرتنا ما يقرب من ثمانية أمنان منه، فطبخنا به طعامنا، وأعددنا به الشاي، وامتلأت الحجرة دفئاً. فكنّا في أهنأ عيش وحبور وغاية النشاط والسرور.

إذعان الشيخ:

قلت للشيخ البهبهاني: هاتِ كل ما في نفسك من الانبساط والانشراح. فقال لي: الآن عرفت أنك أكثر منا انبساطاً، إذ افترضتَ بسرعة أن الطبيب قد أخذ منك القرانات الأربعة، ثم تجاوزت ذلك، كما رأيت شجاعتك في تكسير الجذوع. وبما أن كرمي وشجاعتي ليسا على هذه الدرجة، إذاً فقد أصبح واضحاً أنك تفوقني في انشراح صدرك، وقد قال النبي ﷺ: «علامة شرح الصدر، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار السرور».

والسخاء والشجاعة منوطان بالتخلي عن دار الغرور.

قلت: لقد وصلتَ بهذا الاعتراف والتواضع اللذين أظهرتهما هذا اليوم إلى الشِّبر الثاني من العلم، إذ إن الإمام الصادق عليه السلام قد قال: «العلم ثلاثة أشبار، الأول تكبّر، والثاني تواضع، والثالث علم أن لا يعلم شيئاً».

وقد كان حضرتكم في الشبر الأول، أما الآن فقد بدأت بالدخول تدريجياً إلى الشبر الثاني. وحدوث هذه الحركة الجوهرية فيك مردّه إلى ما وقعتَ فيه خلال البارحة وهذه الليلة، لأنك لو نظرت إلى بلايا ومصاعب هذه الدنيا بعين الحقيقة لوجدتها نعماً وألطافاً ترد من الله إلى عباده، والقصد منها محض رقيّ أولئك

---

(١) سورة الأنفال، الآية ١٧.

العباد، لأن رقيّ الإنسان مرهون بروحانيته، وكذلك نجاته من ظلمات الطبيعة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[١].

وقد قيل: البلاء للأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل. وإن لكل عسر يسراً.

وبحسب اصطلاح العارفين فإن في خطوات السفر إلى الله سبحانه قبضاً وبسطاً. فالقبض للرِّجل اليسرى، بينما البسط لليمنى. وبحسب اللغة الكيمياوية فإن القبض والبسط، يُسميان الحل والعقد، حيث إن تزايد الحرارة والبرودة بتعاقب الشتاء والصيف والليل والنهار موجبة للحل والعقد والقبض والبسط. وإن متاعبنا وعدم ارتياحنا بالأمس وسعادتنا ونجاتنا في هذا اليوم هو قبض وبسط وحل وعقد أرواحنا. وقد حصل لنا من الرقي ما يعادل خطوة واحدة. وكلا الحالين نعمة من الحق تعالى ينبغي لنا أن نشكرها. ولو كنا من العارفين الكاملين لم ينبغِ لنا أن نطلب إلى الله رفع البلاء عنّا، إذ من الواضح أن البلاء هدية ونعمة من جانبه وينبغي أن نسلّم إليه، وكما قال المولوي:

إنـني أعـرف جـماعـة مـن الأولـيـاء أفـواهـهـم مـغـلـقـة عـن الـدعـاء

إذاً ينبغي الشكر في الحالين اللذين هما: لطف ونعمة:

عـشـقـت قـهـره ولـطـفـه فـالـعجـب من عـشقـي لـهـذيـن الـضـدّيـن

حوار حول الدنيا:

كان قلب جنابك العالي والسيد الساوجي ينبضان بعنف متلهفين لمعرفة ماذا سيحدث، وقد تحول كيس الصفراء لديكما إلى ماء بعد انفجاره ويبس الفم وارتعش البدن وأصبحتما قريبين من اليأس[٢]. بينما الواقع هو أنكما كنتما غارقين بنعمة ورحمة الحق تعالى. وبسبب عدم الفهم والمعرفة تتوقعان دون

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

(٢) كان القدماء يعتقدون أن الخوف الشديد يؤدي إلى انفجار كيس الصفراء. فإذا أُغمي على أحدهم بسبب الخوف قالوا إن كيس الصفراء لديه قد انفجر. **فرهنگ عميد**. مادة (زهرة).

مسوّغ من الدنيا الوضيعة أن ينقضي كل شيء فيها بالحبور والسرور، وأن لا يصل إليكم شيء من البلاء، بينما وصفها الإمام علي عليه السلام بقوله: «دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر موصوفة، لا يسلم نزّالها». وأنتم لم تزالوا حتى الآن أطفالاً مدللين، فقد تيمّم جناب الشيخ البهبهاني صباح هذا اليوم بدلاً من الوضوء وصلّى جالساً لكون الجوّ بارداً بصورة عامة. بينما الحقيقة هي أن الدنيا دار المشقة والامتحان والتربية، والرياضة والغربة، وهي مدرسة ومزرعة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته».

فالدنيا إذاً ومن هذه الزاوية هي نعمة كبرى ورحمة عظيمة، ينبغي للعباد أن يعرفوا قدرها وأن يروا الحياة عارية مستردّة: «اللهم أحيني حياة محمد وآله وأمتني مماتهم».

قال الساوجي: نحن لم نسمع حتى الآن إلّا مذمة الدنيا، بينما جعل بيانك الذي تفضلت به الدنيا أفضل مكان.

قلت: إنه نفس كلام الإمام علي عليه السلام الذي قسّم فيه الدنيا إلى اثنتين: ممدوحة ومذمومة، حيث بلغ النهاية في ذمّها، وفعل كذلك بمدحها من خلال استخدامه حرفاً واحداً، إذ قال في مدحها: «من أبصر بها بصّرته» وقال في ذمها: «من أبصر إليها أعمته» وهكذا اختصر بهذا الحرف ما هو بحاجة إلى مجلدات كي يُشرح وإلى فصول مفصلة. فما أعز قوله وأجلّ كلامه، روحي وأرواح العالمين له الفداء.

وإن ما تراه في الغالب من مذمة الدنيا إنما هو بسبب غلبة أهل الدنيا وندرة الذين ينظرون إليه بأبصارهم وبصائرهم. وإلّا فإن أغلب الناس الذين ينظرون إلى الدنيا بعين محايدة يرون المتعلقين بها يزدادون عمًى على عماهم حتى يتحقّق في حقهم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] فلا يؤمنون بالحقائق ولا يسمعون بالمواعظ ولا يبصرون بالدلائل ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٧١.

حوار حول عُلماء السوء:

خاطبت السيد البهبهاني قائلاً: ليس من عادتي إطلاقاً أن أتجسّس أو أكون فضولياً. إلّا أن ما شاهدتُه في سفري إلى مدينة الكاظمية بهدف الجهاد، ـ وقد كان حضرتكم أيضاً من الذاهبين إلى هناك ـ في المواقف التي توقّفنا فيها أو في الكاظمية، وخاصة عندما كان الناس يأتون أفواجاً أفواجاً، إن ما شاهدته جعلني مندهشاً. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام عن علماء السوء: «إذا كان العالم محبّاً لدنياه فاتّهموه».

كما شوهد وفُهم ما ورد في الخبر: «وأما من كان من الفقهاء صائناً لدينه، مخالفاً لهواه، مُطيعاً لأمر مولاه، فعلى العوام أن يُقلّدوه».

وهؤلاء يعتبرون أنفسهم مراجع للتقليد. بينما هم يتصرفون خلاف ذلك. ولو كانوا من عوام الناس قلنا أنهم حمير، وماذا يُنتظر من الحمير؟ ومع ذلك فإن كل واحد منهم يريد أن يضرب له الطبل إشارة لمقامه العلمي. قال أصدق الصادقين وقوله الحق: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1].

والمُثير للسخرية هو أنه مع وجود أكثر من خمسة مراجع للتقليد من الشيوخ القدماء كبار السنّ فقد رأيت ما بين العشرة إلى الخمسة عشر من الفضلاء من تلامذة المرحوم الآخوند يسعون بجدٍّ واجتهاد لنيل درجة الإفتاء والتقليد، ليُعطى كلٌّ منهم سهم الإمام وبقية الحقوق، وليصبح بعدها مشهوراً. هذا على الرغم من أن القضاء والإفتاء من الواجبات الكفائية التي إن قام بها واحد سقطت عن الآخرين. وقد ورد: «فرّ من الفتيا فرارك من الأسد».

ومن البديهي أنه مع وجود هؤلاء الشيوخ المُسنين فلن يستتبّ الأمر لصغار السنّ. ولذا ينبغي عليهم أن يسقطوهم من تلك المقامات الشامخة، إما بالذم والاتهام والافتراء والغيبة، أو باللعن وإيصالهم إلى الموت. فإن لم يتيسر لهم

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٥.

ذلك، حاولوا إثارة الشكوك بعلاقتهم مع الله وإلقاء الشُّبهات وتكفيرهم. ويوجد الكثير من هذا.

قال الشيخ البهبهاني: إنني لا أُجيد الحديث في أمثال هذه الأمور، لأن فيه مضيعة للإنسانية. وإنّ نياتهم حسنة إن شاء الله. فالنية هي الروح لبدن الأعمال، حتى أنّ العمل السيّئ يصبح بالنيّة حسناً، والعكس بالعكس. وقد ورد: «ولا تظن بأخيك سوءاً ما تجد لاحتمال الخير سبيلاً». وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[١].

قلت: يا حضرة البهبهاني! إن هذا هو باب أصالة الصحة وأصالة الحسن الذي يقع في الأعمال الشخصية، والأمور الدنيوية. فمثلاً لو وقع عقد نكاح أو بيع من قبل روحاني أو إنسان ما ممن يعرف المسائل بصورة عامة. ثم وقع الشك في الأمر، قيل: هو صحيح إن شاء الله. وكذلك الأمر فيما لو شرب مسلم أحد المايعات، ثم احتمل أنه ربما كان من الخمور، فإنه ينبغي أن يقال هنا إنه لم يقترف إثماً، وإن يده وفمه طاهران. وأما ما نحن فيه فليس من قبيل تلك المسألة. فمسألة إرشاد المسترشد وهداية الضال هو أيضاً من طرق الآخرة. ولقد مرّ بنا كيف أن الإمام الصادق عليه السلام قد وضع ميزاناً للمفتي والهادي والمرشد وذكر أوصافهم. فلو سألك أحد من عوام الناس كان واجباً عليك أن تجيبه وترشده، لأنك من أهل العلم، والله قد أمرهم بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]. وإن وجد بين العلماء ـ الذين هم موضوع بحثنا ـ الأعلم العادل، فينبغي أن تروّج له أمره وتنهى عن الآخرين. إذ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروع التولّي والبراءة، وهو أصل وفرع كل الواجبات الأربعة. وهنا المقام الشامخ لعنقاء اليقين، وإن ميدان أصالة الصحة مجال صغير يمكن أن يقال فيه للذبابة: أيتها الذبابة إن ميدان العنقاء ليس ميدانك. بعبارة أخرى إن مرتبة الخلافة لا يمكن إثباتها من خلال مبحث أصالة الصحة. وكلامك هذا شبيه باستخارة الأعرابي من سكان الفلوات للاطمئنان والتيقن حول مقلّده. فهو لا يقبل بالنصوص المتواترة والآيات المحكمة من الصدر الأول للإسلام. بينما يريد

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٧.

اليقين وبهذه السماجة من استخارته. ومن الممكن أن يُغضّ الطرف عنهم لكونهم مُعيديين[1]. إلّا أنه لا ينبغي لأمثال جنابك وأنت على هذه الدرجة من الفضل والكمال والهيبة واللحية والعمامة، أن تأخذ الأمور على هذه الدرجة من اللاأُبالية. ولا ينبغي أن تأخذ المطلقات الواردة ـ مع وجود المقيّدات العديدة عقلاً ونقلاً ـ على إطلاقها. إذ من البديهي أن الإطلاق في قوله: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله». غير شامل لمن يترك الأحاديث ويعمل بهوى نفسه، بل إن «رواة الأحاديث» مقيدة بـ«العاملين بها».

ومن الواضح الجليّ أن طالبي الرئاسة ممن يكتبون الفتاوى والاحتياطات في رسائلهم العملية إنما يكتبونها لمقلّديهم فقط، بينما هم مثل حمار جحا لا يقيمون وزناً لتلك المسائل، ولا يرون أنفسهم مكلّفين بها. إن أولئك العلماء غارقون في الدنيا وحساباتها إلى الدرجة التي لا يدركون معها هل إنّ حساباتهم صحيحة أم لا. وهل هم مسؤولون عن أحكام الشرع أم لا. فهم يفتون مثلاً أنّ الرشوة حرام ويروون لمقلّديهم عن النبي ﷺ قوله: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». إلّا أنهم لا يحاسبون أنفسهم بحساب أمة النبي ﷺ فهم يأخذون الرشوة، ولديهم حب الدنيا أيضاً. ولا يترجلون عن ركوبهم لحمار الشيطان ليعدّوا أنفسهم من المكلّفين، على الرغم من أن أكبر أدلة اجتهادهم الذي يقول: (كلما أدّى إليه ظني، فهو حكم الله في حقي وحق مقلدي) يجعلهم أول المكلفين.

فيا أيها السيد الساوجي، واضح أنهم أكثر غفلة من الغافلين، وأشد جنوناً من المجانين.

قال: من المؤكد أن بينهم الصالحين أيضاً.

قلت: الصالحون موجودون طبعاً وإن كانوا منعزلين، وإلّا لظهر الحجة بالضرورة. ولكن أغلبهم الطالحون الذين يسوقون الناس إلى الضلالة. وأخيراً تدور عليهم دائرة السوء، ولات حين مناص.

---

(١) معيدي: كلمة شائعة وسط العراق تعني هنا الريفي غير المتحضر.

قال البهبهاني: لا بدّ لهم أن يصنعوا لأعمالهم الدالة على القبح بصورة أكيدة غطاءً يسوّغها ويخدعون الآخرين من خلاله. وإلّا كيف يتسنّى لهم أن يرتكبوا تلك الأعمال علناً؟

قلت: بطبيعة الحال، ينبغي لهم أن يسوّغوا تصرفاتهم أمام العوام. لقد قال القاضي شُريح: قتل الحسين بن علي بسيف جدّه، لأنه خرج على إمام زمانه يزيد بن معاوية، وقال النبي ﷺ: من خرج على إمام زمانه فدمه هدر.

وكلّ تلك المسوغات نابعة من هوى النفس. ومع ذلك فإنّ ميل القاضي شريح قد انحرف إلى جانب واحد من هوى نفسه. أما علماء السوء في هذا الزمان فهم ينحرفون بأهوائهم النفسانية في شتّى الاتجاهات حتى أنهم يأتون أحياناً بعذر هو أقبح من الفعل، نظير ما قاله جحا لجاره الذي طلب إليه أن يعيره حبلاً ينشر عليه غسيله، حيث اعتذر قائلاً: لقد نشرنا عليه الدُّخن. فلما قال الجار: إن الدُّخن لا يمكن نشره على الحبل. قال جحا: لقد أردت عذراً فقلته.

لقد اعترف جحا أن عذره كان غير معقول. ولكن لو أن أحداً من الناس امتلك الجرأة للاعتراض على الأعذار التي يقدمها علماء السوء أو مؤاخذتهم، فإنهم يُخرجونه من ربقة الإسلام ويُهدرون دمه.

إضافة إلى أن عوام هذا العصر غالباً ما يقلّدون هذا السيد أو ذاك لمجرد تنفيذ مآربهم الفاسدة. ولو أفتى السيد بغير ما ترتجيه مآربهم لانصرفوا عنه. لذلك فهو يؤيد أهدافهم الفاسدة لمجرد إبقائهم حوله وصرفهم عن الذهاب إلى غيره. بل هو مستعدّ لأن يظهر لهم أن ذلك مما يرضي الله ورسوله.

إذاً فحضرته في قرارة نفسه مقلِّد للأهواء النفسانية لأولئك العوام، حيث يتخذ الأمر بينه وبينهم شكل التفاعل المتبادل. فمثلاً إنّ علامة تقليد سلاطين إيران لأحد العلماء هو إرسالهم ألفي تومان بعنوان بدل إيجار بناية شمس العمارة[١] إلى ذلك العالِم، وبدلالة التزامهم بإرسال المبلغ يُفهمونه أن ملكية شمس العمارة

---

(١) شمس العمارة من الأبنية التي بُنيت في عهد ناصر الدين شاه. حيث صمّمها أحد كبار رجال العهد الناصري وهو المدعو دوست علي خان معير الممالك مستفيداً من آراء بعض المهندسين الفرنسيين الذين استقدموا في ذلك العهد إلى طهران وقد أنفق عليها من ماله الخاص وبعد أن أتمها عام ١٢٨٤ هـ قام بتأثيثها ومن ثم قدمها هدية إلى الملك ناصر الدين شاه. انظر **دار الخلافة تهران** ص٤٨ .**ورجال عصر ناصري** ص٤٢.

هي له، لأن الشخص المتدين لا يتصرف في الأموال المشتبه بها إلّا على هذا النحو. وقد تصرّف أخيراً محمد علي ميرزا هذا التصرف. وبطبيعة الحال فإن له أهدافاً من وراء هذا التصرف. كما تجاوب معه الطرف الثاني في هذه المسألة التي لم تتطور فيما بعد لأبعد من ذلك.

قال الشيخ البهبهاني: ينبغي لنا التصديق بأن نظرتي الحب والبغض للأشخاص الكاذبين والخونة والمخطئين هي من باب «حب الشيء يُعمي ويُصم». فلو أحببت شخصاً ما وصدر منه كلّ قبيح، يكون ما صدر منه مستحسناً بنظرك لأنك تحبّه. وكذلك الأمر لو كان هناك بغضٌ لشخص ما، فإنه لو كان ممّن يصلّي صلاة الليل، ويفعل كل الأفعال الحسنة، فإنّ مبغضه سيراه مرائياً ومخادعاً[1]. ومنشأ الحب والبغض في الأغلب هو من الأمور الخفية المعنوية التي لا يستطيع الإنسان أن يضعها في بوتقة الاختبار ليرى ما إذا كانت إلهية أم نفسانية، أرضية أم سماوية. والغالب فيها هو النفساني. فلا ينبغي للإنسان إذاً أن يطمئن إلى آرائه وحدسه في القول بأنّ هذا ليس خطأً بل هو صواب. إذ ربما لهذا السبب قال الإمام الصادق عليه السلام: «كذّبْ سمعك وبصرك عن أخيك» وقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2]. أي أنه حتى لو شاهد أمراً سيئاً، فلا ينبغي له الإطلاق. تُرى! ألا يرى حضرتك المبجل احتمال كون الآراء السيئة التي لديك عن السادة ناشئة عن الأغراض الخفيّة النفسانية، وأنها خاطئة بأسرها، على الرغم من أنك تتصورها من اليقينيات المسلَّم بها التي لا مجال فيها لاحتمال آخر، وهي حالة تُشبه ما ينشأ عن المرض وعدم الارتياح. بل إنني أحتمل أنّ كلّ نظرياتك قائمة على الخطأ، وأن هذه النظرة السيئة ناشئة عن هوى النفس، وأنت غير منتبه إلى ذلك. إذاً فعلى الأحوط أن يسكت الإنسان عن كل ما يراه صادراً عن هؤلاء العظماء.

قلت: إذاً لا ينبغي النهي عن المنكر، لأن الأحوط هو السكوت. كما لا ينبغي أداء الشهادة على وقوع المنكر، ولتتعطل الحدود الإلهية بذلك. إذ إن

---

(١) هذا المعنى قريب من قول الشاعر العربي:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

(٢) سورة البقرة، الآية ٨٣.

السكوت هو الأحوط. فيا سيدي! أنا أعلم وأنت تعلم أنهم لا يطبّقون ما يقولونه هم على أنفسهم. ولن أقول إن علياً عليه السلام قد قال: «أحسن المقال ما صدّقته الفعّال» ولن اقول إن الله تعالى قد قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(١) لأن الأحوط السكوت!.

يا سيدي! إنّ معنى: «كذب سمعك وبصرك» أن لا تغتاب أحداً ولا تنمّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). إذ إن النميمة تجتثّ جذور الألفة والاتحاد بين المؤمنين. ولا يعني ذلك أن تسكت بحجة أن السكوت أحوط. ترى هل كان علي عليه السلام قد عمل بخلاف الاحتياط عندما نصح عثمان بن عفان ووعظه حين جاء المصريون يعرضون مظلوميتهم؟

نعم. إذا رأى أحدهم شخصاً يشرب الخمر أو يقامر أو يزني، فلا ينبغي له أن يشهِّر به هنا وهناك، بل ينبغي أن يقوم هو بنصيحته وينهاه عن المنكر. وحين يدعوه القاضي لأداء الشهادة، ينبغي عليه أداؤها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾(٣).

قال: فاذهب وانصحهم.

قلت: ربما كان قد ذهب إليهم ألف شخص من أمثالي. فإذا كان عديم الحياء مثلي فسيقول لي ضاحكاً: المُلك عقيم. ولا يضيرك إذا أصلحت أمر نفسك إن كنتُ صالحاً أم طالحاً. فذنوب الآخرين لن تحمل عليك. وإن كان ممن ظاهرهم الصلاح فسيختلق لي عذراً هو أسوأ من الفعل، ويعطيني حق سكوتي كأمثال طلحة والزبير. ويقول كما تقول حضرتك المبجّل: السكوت أحوط.

العودة إلى النجف:

غادرنا المدينة صباحاً بواسطة الزورق، حيث وصلنا الكوفة، فأدينا الزيارة، وذهبنا بعدها إلى النجف. ولم ينقضِ وقت طويل حتى توفي الشيخ عبد الله

---

(١) سورة الصف، الآية ٣.

(٢) سورة النور، الآية ١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

المازندراني أحد قيادات الثورة الدستورية. فأصبح عامة الطلاب، بل مؤيدو الثورة الدستورية بغير حامٍ ولا معينٍ وجلّل وجوههم غبار اليتم.

وقد ازداد آنذاك ضغط الدهر الغدّار عليّ، وضاقت بي سبل العيش، حيث لم يكن لي ما يقيم أودي إلّا الخبز الذي كنت أحصل عليه من السيد[١] لي ولأفراد أسرتي الأربعة، ومقداره نصف حُقّة من الخبز لليوم الواحد. أما بقية مصاريفي ومستلزماتي فكنت أؤمنها بمنتهى العناء والمشقة من خلال الديون أو العمل وبعض التدابير الأخرى. وقد مرّ بخاطري آنذاك استخارتي التي أخذتها بشأن زواجي، حيث كانت الرقعة الثانية منها مكتوب فيها (لا تفعل). قلت لنفسي: إنه بحسب الحدس الذي حدسته بعد الاستخارة فقد كان لا بدّ لي من رؤية ضيق في معيشتي. ويبدو أن الله سبحانه لم يرد لفترة الضيق هذه التي مرّ عليها سنة أن تكون قصيرة. وقد مرّ على وقت (افعل) التي ظهرت في الرقعة الأولى ثلاث سنوات. اللّهُمَّ لا تجعل عمر (لا تفعل) طويلاً. فلقد رأيت أنني قد صبرت على فقداني لكل شيء وكنت وحيداً حينها. أما الآن فأنا مبتلى بأربعة آخرين من عبادك يتطلّعون إلى ما تأتيهم به يدي، فلا تتوقع الصبر مني لأنك وصفت نفسك: بالرحمانية، وقاضي الحوائج، ومُجيب الدعوات، وذي الجود والكرم. وجعلتنا نحن بني آدم ظلك وخلفاءك، والمظهر التام لك، وأمرتنا بقولك: «تخلقوا بأخلاق الله». فكيف أستطيع بيدي الخالية تلبية مطالب الغرباء، وكيف أجود وأسخو مع خلوّ كيسي؟ وماذا أفعل للخلق الذين يتدفقون على بيتي أنا الذي لا تأتي قطرة الماء من يدي، فضلاً عن الأعداء الذين يمكن أن يوجدوا بينهم.

ومهما يكن، وعلى الرغم من أن الطلاب في النجف قد اتجهوا أخيراً ـ شاؤوا أم أبوا ـ إلى درس السيد بعد أن رأوا المصداق الخارجي لقوله الذي قاله منذ البداية: ينبغي على الطلاب إذا هم أرادوا تأمين معيشتهم أن يقبّلوا عتبة بيتي، فإنني ومع الأنفة والعناد الراسخين في نفسي قد آثرت أن أعتزل حضرة السيد،

(١) المقصود على الظاهر هو السيد محمد كاظم اليزدي المرجع الديني المعروف آنذاك.

ولم أحضر درسه وأتملق أو أتزلف له. بل كنت أدرّس ثلاثة أو أربعة من الطلاب دروس مرحلة السطوح من المكاسب والكفاية ومنظومة السبزواري. كما كنت أذهب إلى قاعات المطالعة التي كانت مفتوحة حيث أقضي ساعة في مطالعة بعض الكتب والصحف التي لم أكن أترك نصيبي منها.



الفصل السادس

تباشير الحرب العالمية تلوح

قرأت في إحدى الصحف أن واحداً من الصرب قد قتل ولي عهد النمسا بعيار ناري[1] وأنه قد وجد على ذلك العيار علامة حكومية. ولذا فقد أعلنت النمسا حالة الحرب فوراً ضد دولة الصرب (جزء من يوغسلافيا الحالية). قالت روسيا: يا حمار من أنت؟ وأعلنتِ الحرب على النمسا. وقالت ألمانيا: وما أنت أيتها الشقية عديمة الغيرة؟ وأعلنت الحرب على روسيا. كما أعلنت فرنسا أيضاً الحرب على ألمانيا. فردت ألمانيا: وهل جئت أنت إضافة إلى الروس؟ سترين ما أفعله بك. قالت إنكلترا ألا ليصب المرض فمك كي تحرقي أبا فرنسا. وقالت ألمانيا: أيها الثعلب عدت إلى قولك إنك فوق الجميع؟

وهكذا وخلال **٢٤** ساعة تحولت أوروبا المتحضرة بكل وحشية إلى حمير تصارع حميراً. فقلت: قد كسدت البضائع، وسُدّت طرق المبادلات التجارية في البرّ والبحر:

كان همّي واحداً، فصار اثنين   لم أشكر الله، فصار ثلاثة

ذهبت إلى ديوان المرحوم الآخوند حيث كان يجتمع صناديد القوم هناك دائماً. سمعت الابن الأصغر للمرحوم يروي: عندما كنا في طهران كان جارنا سيداً صالحاً وقد رأى في المنام أن الرسول ﷺ والإمام الرضا عليه السلام

---

(١) وقعت حادثة الاغتيال في **٢٨** يونيو **١٩١٤** واندلعت الحرب على أثرها في **١٣** أغسطس بهجوم ألمانيا على بلجيكا واللوكسمبورغ (ش).

والحجة عليه السلام قد دخلوا بيته. وقد وقف احتراماً لهم. وكان الرسول صلى الله عليه وآله جالساً بينما وقف هذان الإمامان في خدمته. وقد شكا الإمام الرضا إلى الرسول من الروس قائلاً: إن شيعتنا في ضيقٍ ونكالٍ بسبب دبّ الشمال هذا فافعل شيئاً. فأجابه الرسول: بما أن مدير أمور الدنيا اليوم هو الحجة بن الحسن فاعرض شكواك عليه. فعرض الرضا شكواه السابقة إلى الحجة الذي قال له: أمهلني عشرين شهراً حتى يتم تدبير أمور هذه المسألة، وبعدها سيضمحل الروس.

والآن وقد بدأت هذه الحرب فقد بقي ثلاثة أشهر وتنتهي العشرون شهراً. وأنا على يقين بأن الروس سيضمحلّون خلال هذه الأشهر الثلاثة. ثم خرجت من هناك، وذهبت إلى صحن الإمام علي عليه السلام وجلست هناك مع بعض أصحابي وقلت: أي نار هذه التي اشتعلت في أوروبا؟

قالوا: إن حضرة الحجة رأى أن المرحوم الآخوند لو تورّط مع الروس فإن المسلمين سيخسرون وسيقدّمون الكثير من الضحايا، ولو أنهم سينتصرون في النهاية. لذا فقد خبت نار الآخوند، واشتعلت النار بهذه الرصاصة على الروس بواسطة الحاج ڤيلهلم[١] الذي يُغذّيها ويسعّرها. فدتك نفسي يا حضرة الحجة يا من رتبت هذا الأمر. فأي طرف الآن يقتل من الطرف الآخر تكون النتيجة بنفع المسلمين. ترى ما الذي كنا نستطيع نحن الروحانيين أن نفعله تجاه الروس المنحوسين؟ بينما نقف الآن على مرتفع النجف ونتفرج عليهم وحين كانت فتوحات الألمان تصلنا كان كل شيء موجوداً: الخبز والماء وغيرهما، ولكن عندما سُدّ الطريق بوجه الخبز والماء والحاجيات الأجنبية وضاقت سبل العيش بالسادة الطلاب كان غذائي الروحي هو أخبار فتوحات الألمان وهزيمة الروس، وبذلك يزداد سروري وانشراحي بمرور الأيام.

وكنت كل يوم وبعد عدة مباحثات أقضي وقتاً في قاعة المكتبة حيث أقلّب الصحف. ومن دون علم لي سابق في الجغرافيا تعلمت جغرافية أوروبا، بل القارات الخمس، وأصبحت أميّز بين أوقيانيا الكبرى والبحار: الأحمر والأسود

---

(١) إمبراطور ألمانيا.

والأبيض. وتنزهت في أفريقيا وأستراليا والأمريكتين الشمالية والجنوبية بدقّة، ورسمت خطاً مستقيماً من وسط بيت الكعبة إلى مركز الأرض، وأخرجته من الجهة المقابلة، فظهر وسط بحر الغرب بين الأمريكتين الشمالية والجنوبية. وحين أردت الصلاة في تلك النقطة وجدت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[١] لأنه لا توجد قبلة داخل الكعبة. ويقع الكلام في معنى تخوم الأرض في قولهم إن المسجد مسجد من تخوم الأرض إلى عنان السماء. فهل يصل إلى المركز أو يصل إلى النقطة المقابلة؟

وبهذه الجغرافية التي تعلمتها تعلّماً ذاتياً، وعلم الهيئة من القطبين، ومعدل النهار، ومنطقة البروج، ونقطتي الاعتدال والانقلاب، ونجمة القطب الشمالي والجنوبي وغير ذلك من خطوط العرض والطول تصبح البلدان معلومة.

ولأني اكتشفت الأخطاء التي وقع فيها السيد محمد كاظم اليزدي حول قبلة كلٍّ من: زنجبار، والحبشة، وصنعاء، واليمن، والشام، والهند، وطرابلس، ومراكش، وإسبانيا التي كان أغلب سكانها من المسلمين، ولأنني كنت أيضاً قد حضرت درسه، ورأيت أنه مرتجل في كيفية الاستدلال والاستظهار، فقد قررت أن أضع حاشية لكتابه العروة الوثقى وأرد فيها على مواضع أخطاء السيد، وأجعل اجتهادي عملياً بالتدريج، لأن السيد نفسه كان يقرّ بأنه لم يدرس من العلوم شيئاً سوى الفقه والأصول. فلا فلسفة ولا حكمة ولا رياضيات ولا سواها من الحساب والهندسة والهيئة والجغرافيا والنجوم. وبديهي أن الكثير من مسائل وأبواب الفقه مرتبط بالعلوم الرياضية. وفهم القرآن وأخبار المعصومين مرتبط بالحكمة والفلسفة. والسيد وبالرغم من إقراره بأنه لم يدرس هذه العلوم، يعتبرها جميعاً مرفوضة وباطلة بحسب قاعدة (الناس أعداء ما جهلوا). بل إنه لم يكن يسمح للطلاب بقراءة الفلسفة والرياضيات.

قلت لأحد الطلاب من أهالي ترشيز[٢] الذين كانوا يدرسون عندي **كتاب**

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٥.

(٢) ترشيز من مدن إقليم خراسان.

المكاسب وكان من مقلِّدي السيد محمد كاظم: من الأفضل أن تدرس شيئاً من الفلسفة، ولو كان **منظومة الملّا هادي**.

أجابني: لقد أوصاني أبي أن لا أقرأ الفلسفة.

قلت: ليس هناك ما يثبت أن وصية كهذه هي وصية صحيحة. ثم تنازلت قائلاً: ولكنك تعرف أن بعض مسائل الفلسفة ترد أثناء مناقشتنا **لكتاب المكاسب**.

وقد ظهر بعد مدة ميل لدى ذلك الطالب إلى الفلسفة. فقلت له مرة أخرى: إن قراءة الفلسفة تنفع كثيراً في الفقه والأصول وفهم الأخبار والآيات، خصوصاً على مشرب الإشراقيين حيث تنطبق مطالبها تماماً في هذا المورد حتى في الاصطلاحات. بل إن معرفة الرب والنفس لا تحصل بدون علم الحكمة. والكمال لا يحصل للإنسان بدون الحكمة. وكل العلوم داخلة في الحكمة حتى الفقه ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١] لأن الحكمة يبحث فيها عن أحوال أعيان الموجودات من صغيرها حتى كبيرها، ومن دقيقها حتى جليلها، ومن الله حتى الهيولى على ما هي عليه بقدر الطاقة. وعلم الفقه يبحث في أحوال أضعف الموجودات، وهو فعل المكلف، والفعل من مقولة الأعراض غير المستقرة الذي قعد به ضعف الوجود إلى النهاية. إذاً، فوصية أبيك مخالفة لقول الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة» بل إن هدف الحق تعالى من إيجاد بني الإنسان وخلقك وخلقي هو المعرفة واكتساب الكمال كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] عن معرفة، أو ليعرفوني بالعبادة. و«كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف فخلقتُ الخلق لكي أعرف»[٣].

قال: إن وصية أبي هيّنة، لكنني مقلّد للسيد اليزدي الذي يبدو أنه يحرّم قراءة الفلسفة.

قلت: هذا كذب، لأن السيد ليس عديم الفهم لدرجة يعتبر معها تعلّم أصول

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٣) حديث قدسي.

الدين بالأدلة العقلية، الذي هو سبب لإسلام المسلمين، حراماً في نفس الوقت الذي يعتبر فيه نفسه حجة للإسلام. لأنه سيكون حينها حجة للكفر وساحة السيد منزَّهة عن هذه التُّرهات.

قال: لا ضير في الحصول على إذن منه.

قلت: حسن جداً طلبُ الإذن لأمثالك من الذين استعدادهم العقلي معلوم. إذ من المحتمل أن السيد حرّم ذلك على من قدرتهم على الاستيعاب ضعيفة أو على سيئي السرائر، لأن الحكمة هي النور وماء الكوثر. والنور والماء إذا سقطا في المزبلة تستولي عليهما القذارة والعفونة، وذلك يؤدي إلى الكفر. كما أن الفقه إذا سقط في مستنقع فهو يؤدي غالباً إلى الفسوق وارتكاب المحرمات، كأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم وإراقة الدماء بغير حق والظلم. كما يؤدي إلى ظهور الكفر في حالات معينة. فإذا كنت ترى الأمر على هذه الصورة فاعرض نبض قوتك واستعدادك على السيد ليجسّه بيده، فهو الطبيب وهو مقلدك وانظر ما سيقوله، ثم أخبرني لنقيس معاً بميزان العقل أو بميزان الشرع فأنا ـ لا قدر الله! ـ أعتبر نفسي مجتهداً أيضاً.

وبعد مدة عاد إلي الطالب الترشيزي وهو يقول: التقيت بالسيد اليزدي وسألته عن رأيه بقراءتي للفلسفة بمقدار يمكنني من معرفة مصطلحاتها. فقال لي: لا ينبغي أن تدرسها إذ إن موضوعاتها ليست حقاً ولا باطلاً صرفاً. فإن لم تسقط في الضلالة فإنك ستضيّع عمرك على الأقل. ولهذا فأنا أعتبرها حراماً. ولقد قررت عدة مرات أن أؤلف كتاباً في الردّ على كتب الفلسفة، ولكني لم أوفق حتى الآن. ومع أنني لم أقرأ الفلسفة في المدرسة إلّا أنني فهمت من خلال المطالعة أن ما كُتب فيها هو ترّهات. وما زلت مصمّماً على الرد عليها بكتاب وكيف لا تُرد مواضيعها والحال أن هذه العصابة قد أجمعت على عدم وجود الكلي الطبيعي بكليته ومن غير المشخصات في الخارج وعالم المواد الكونية. والحق عندي وجوده كذلك، كخط يُرسم بمتحرك. فإن الخط موجود في حال حركة الراسم، وحصوله التدريجي من غير تعيّنه بحدّ معين ومقدار شخصي، يفرضُه تحرك الراسم وتزايد الخط متدرجاً، والحركة قابلة الانقسام إلى غير نهاية.

إن هذا الردّ نموذج على كون باقي مطالب الفلسفة مردودة.

قلت: لا يقال إن الخط محدود الوجود، وما يتدرج في الوجود فهو خارج عما فرض محدوداً. فظهر خطأ ما قرره، وسقط بناء ما أصّله، كما هو أوضح من الضحى في أوله. انتهى.

وإن هذه الترهات ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1]. وإن أردت أن تكون فاهماً وعارفاً بالحق فيجب عليك دراسة الفلسفة.

الحرب العالمية إلى توسّع:

بما أن ألمانيا قد أصبحت في حرب مع سبع دول إضافة إلى الصغيرة منها كالصرب وبلجيكا وغيرهما، فقد كان انتصارها يبدو مستبعداً على الروس. إذ يقال إن لألمانيا ١٢ مليون جندي تحت السلاح، بينما لدى الدول التي تحاربها ٤٠ مليوناً، لذا وجب على الطلاب الدعاء لها حيث لقبوا إمبراطورها بالحاج ڤيلهلم، مؤيد الإسلام. وكانوا يسعدون لانتصارات ألمانيا وخاصة تلك التي على الروس. وعلى الأخص أنا الذي لم أكن أعبأ بوجود الطعام من عدمه إذ كنت قانعاً بذلك السرور الروحي.

كان جور الزمان يزداد أيضاً يوماً بعد يوم، وقد اختفت السلع الأجنبية التي كنا نحن المسلمين نحتاجها واعتدنا عليها، أو أن أسعارها تصاعدت بشكل جنوني. ومن جهة أخرى فقد انقطعت حوالات التجار والطلاب وزيارات الزوار التي كانت خيراتها عامة لأهالي العتبات المقدسة.

قالت زوجتي: بهذا الحدث العالمي، وعدم تدبيرك، انقطعت بنا سبل العيش تماماً. وفتوحات الألمان وإن كانت مدعاة لسرور جميع المسلمين من جهة، إلّا أنها من جهة أخرى لا تتحول إلى خبز أو ماء أو سكر أو شاي للعيال، وخاصة قضية إيجاد الماء في هذا الجوّ الصيفي الحار الذي جف فيه ماء مدينة النجف نتيجة العواصف الترابية الصفراء والحمراء الشديدة. وانقطع عنها الماء تماماً، وكان المقدار الذي يأتي به السقاؤون من الكوفة لا يتعدى عشرة أمنان، ويكفي لمدة أربع وعشرين ساعة، وثمنه يتراوح بين ٦ قرانات وتومان واحد. ولقد جعل هذا الفقر والعدم العيش شاقاً، وهددا حياة الإنسان قبل كل شيء بالخطر. أما

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٦.

بقية مستلزمات الحياة كالفحم والكبريت والنفط وغير ذلك فقد غدت مفقودة وخاصة بالنسبة لنا، وكان الحصول عليها عسيراً. فرأيت أن الحياة مستحيلة بدون التدابير الكاملة والقناعة المندوبة. وقد بلغ زمان (لا تفعل) الذي ورد في استخارتي على الزواج ذروته، فينبغي التذرع بالهمّة وترتيب أمر المعاش بأقل مؤونة، حيث إن أمر معاد الإنسان بغير هذا سيكون في خطر أيضاً. ولن تهدأ النفس المليئة بالوساوس الشيطانية بغير هذا كذلك.

الخياطة.. بعد صلاة النيابة:

وكان لزوجتي في ذلك الوقت ماكنة خياطة، وكانت تخيط بها أحياناً الطاقيات وتبيع الواحدة منها بواسطة بعض العجائز بقران ونصف بعد أن يكون قد كلفها نصف قران. ولم تكن تصنع منها أكثر من أربع يومياً. فاقترحت عليها أن تهيىء القطعة وترتبها، وأقوم أنا بخياطتها في الماكنة على أن تعطيني خمس الوارد من المبيع.

قالت: إن ذلك حسن جداً. ولكن لا يليق بالروحاني أن يتكسب.

قلت: لا تتوهمي فأصحاب النبي ﷺ والأئمة كانوا جميعاً من الكسبة، وسأخصص لهذا العمل ساعتين أو ثلاث بعد منتصف الليل بحيث لن ينتبه أحد إلى ذلك، في هذا الزمان الذي أصبح فيه تكسب أهل العلم مستهجناً، بينما أصبحت الأعمال القبيحة كأخذ أموال الناس بالحيل والدسائس والأساليب الوقحة التي دأبوا على استعمالها، والتي هي في الحقيقة بيع للدِين، بل تكسب بالهندام والوجه والنظافة والاستياك وتمشيط اللحية وما تحت الذقن مما هو في واقعه صنع للأصنام وبيعها، وهو كسب آزر الذي كان ينحت الأصنام، وهو أفضل منهم لأنه لم يكن يتحمل منةً أو يطأطئ رأسه للزبائن، كل تلك الأعمال القبيحة أصبحت أموراً عادية مقبولة.

ومهما يكن فقد كنت مشغولاً في أوقات السحر بالعمل في الماكنة حيث كنت أحصل يومياً على أربعة أو خمسة قرانات من هذا العمل، إضافة إلى ما أحصل عليه من ثمن الصلاة نيابة.

كنا نتناول الشاي مع التمر الخستاوي[١]. أما السجائر فقد تركتها واستعضت عنها بالغليون مستعملاً تراب التبغ الذي كنا نلقي به فيما مضى في المزبلة، بينما ندفع الآن قراناً ثمناً له، حيث نحمل منه ما يقرب من نصف مَنّ بين طيات العباءة كي نصل المنزل لننخله فلا يبقى منه سوى ما بين ١٥٠ ـ ٢٢٥ غم من عروق ورق التبغ بعد سقوط ترابه إلى الأرض. كما تخلينا عن شراء علب الثقاب واستعضنا عنها بحجر الزناد الذي كنا نلف حوله قماشاً منقوعاً بالسباخ ونشعل النار بواسطة الكبريت الذي نشتريه من السوق بعد أن نضعه في قصعة نحاسية ونذيبه فيها على النار، ثم نشحذ عيدان الخشب الصغيرة التي نكون قد حزمناها بالكبريت، وبضربة واحدة تشتعل النار فيها. أما نفط العراق وغيره فقد كان مقتصراً على نفط عبادان الذي كان سعر برميله ٨ ـ ٩ قرانات، ثم ارتفع إلى ليرتين. وكان مصباح إضاءتنا من النوع الذي حجم مخزن النفط فيه بقدر التفاحة أو الرمانة، وزجاجته بحجم الجوزة، وفتيلته عبارة عن قيطان دقيق مما كان يستخدم فيما مضى لتزيين حجال العرائس وليس للإنارة. وكنت أضعه على صفحة الكتاب لدى المطالعة، ونضعه عند رأس ماكنة الخياطة عند العمل، ولم يكن يستهلك من النفط أكثر من ثلاثة مثاقيل في الليلة.

ولعدة سنوات كنت آخذ من السيد [اليزدي] صلاة بالنيابة بعد أن تصالحت معه، وعادت علاقاتنا عادية. وكانت المرة الأولى التي تقبَّلت فيها الصلاة بثمن ثلاثة تومانات ونصف لسنة واحدة، أعطاني خادمه منها تومانين نقداً، وقال: تعال عصر الغد وخذ التومان والنصف الباقية.

مرض ابني الذكر الوحيد:

حين ذهبت إلى البيت قيل لي إن أحد أطفالك مُصاب بالحمّى فخُذه إلى الطبيب. حملت الطفل إلى الطبيب الذي وصف له دواءً اشتريته بقرانين وعُدت إلى البيت حيث وضعت الثمانية عشر قراناً المتبقية في إحدى الرفوف وقلت: لا تمسوها وإلّا فسيظل من يمرض منكم بلا دواء.

---

(١) أحد أنواع التمور العراقية.

عند غروب اليوم الثاني وضعت خمسة عشر قراناً في كيس وأخذتها متجهاً إلى الصحن حيث اجتزته مع الأذان، فوجدت أحد رفاقي وكان قد أقرضني ثلاثة قرانات، فقلت له: تعال أعطيك دَينك.

فردّ عليّ: لستُ مستعجلاً وعندي الآن نقود.

قلت: وأنا أيضاً عندي نقود، ولذا وجب عليّ أداء دينك كي أكون مرتاح البال من ناحيتك إذا متّ الليلة.

إلّا أنني حين أدخلت يدي في جيبي لم أجد الكيس. ففتشت الجيب الآخر فلم أجده أيضاً. وهكذا فتشت في كل ناحية من ثيابي فلم أجد الكيس الذي كان يحتوي على ختمي ووسائل الزناد. قلت للشيخ. ابقَ هنا حتى أعود إلى السوق. ذهبت وأنا أفتش في السوق علّني أجده مرميّاً، فلم أجد شيئاً. سألني بائع لبن وسط السوق عمّ تبحث؟

قلت: عن كيس نقودي الذي سقط مني.

قال: لم يسقط، بل سرقوه، وأنا أعرف السارق الذي يقع هذا السوق من باب الصحن حتى آخره في نطاقه.

قلت: أرني إياه.

قال: وهل استغنيت عن نفسي كي أريك إياه؟ ومهما يكن فإنني سأراه وأحاول أن أستنقذ منه شيئاً.

قلت: إذا أعطاني توماناً فسأهبه القرانات الخمسة الباقية. ثم عُدت إلى الصحن وأخبرت صديقي أنني لم أجد شيئاً.

ذهبت في اليوم التالي إلى بائع اللبن الذي قال: أقسم لي السارق أنه لو لم يخسرها في المقامرة الليلة السابقة لأعادها جميعاً إليك. وأقسم بجدّك أنه خسرها جميعاً، ولم ينتفع منها حتى بقرانٍ واحد.

قلت: ليت يد مغسّل الموتى مسّت يده المنحوسة. وباختصار فإنني منذ أن أخذت التومانين إلى البيت استغرق مرض ذلك الطفل عشرة أيام، كنت آخذه خلالها كل يوم إلى الطبيب، وأشتري له دواء وغذاء بقرانين حتى نفد التومانان.

بعد تلك الأيام العشرة غادرته الحمى وشُفي من مرضه. قلت: ليت هذين التومانين كانا قد ضاعا أيضاً فربما لم أكن لأُبتلى بتلك المصائب والهموم.

انشغلت بجدٍّ في أداء صلاة النيابة علّني أنتهي منها لأتقبل صلاة سنة أخرى. وكانت هذه الصلاة أسوأ من أي عبء يحمله مأمورو الدولة على الرعايا. بل إن القبول بأداء صلاة النيابة عمل قبيح مليء بالمشاق، يكون الإنسان فيه روحاً وعملاً ويداً معذَّباً خائفاً من العواقب. وكنت حين يشتدّ بي التعب أحياناً أدعو الله أن يعاقب أبي لأنه أدخلني المدرسة وجعلني أحتاج الرزق القذر للمعمَّمين.

أنهيت الصلاة بعد أكثر من ثلاثين يوماً، ثم ذهبت ورويت لخادم السيد اليزدي ما جرى لي. فأضاف إلى المبلغ ـ وبعد المنّة والتمنّع ـ خمسة قرانات. ولكي يتلافى شيئاً مِمّا فات، فقد أعطاني صلاة نيابة أخرى مدتها سنة بمبلغ أربعة تومانات.

بين تدبير المعيشة ومراقبة الحرب:

كان نومي يقتصر بعد ذلك على الإغفاءات القصيرة ليلاً ونهاراً، وهي عبارة عن مجرد استرخاء أريح به أعصابي، أما في الليل فقد كنت أكتفي بإغفاءة قصيرة دون نوم حقيقي، كي أضاعف قدر الإمكان من ساعات أداء صلاة النيابة. وأحياناً كنت أستغرق الليل والنهار بأجمعهما فأصلي بجدٍّ وجبة أو وجبتين في الليل ومثل ذلك في النهار، حيث تستغرق الوجبة الواحدة ساعتين متواصلتين ينتابني الدوار بعدها، وتكاد عيناي أن تخرجا من محجريهما. كما كنت أنشغل لساعتين أو ثلاث بعد منتصف الليل في الخياطة. وأدرس كذلك لساعتين أو ثلاث. وكنت أيضاً أذهب إلى المكتبة ساعة كل يوم أتصفح فيها الصحف وأتعرف إلى أخبار العالم الخارجي حيث الحاج فيلهلم قد حاصر مدينة أنقرس والعاصمة الثانية لبلجيكا التي كانت من المدن المنيعة في الدنيا، وهي محاطة بخمسة أسوار طبيعية واصطناعية، وواحد حديدي عرضه خمسة أمتار. وقرر بعد تهديمه للأسوار وفتح عدة ثغرات في السور الحديدي أن يمطر المدينة بالرصاص، أي أن يفرغ المدافع والبنادق في الهواء حيث الرصاص يهطل كالمطر من الأعلى وتغرق المدينة فيه. وبعد أن استمر في عمله ذاك لساعة أو اثنتين فرّ

الملك بمعونة مائة ألف من جنوده إلى فرنسا بينما رفع الناس علم الاستسلام طالبين الأمان من الرصاص الذي أغرقهم. وهذه المدينة هي التي قال نابليون عنها: إن كل من يفتحها بالسيف يصبح الأقوى المرهوب الجانب وسلطان السلاطين.

متابعة الحرب... والشماتة بروسيا:

وكنت أحياناً أتابع حركة السفينة إِمِدن التي لا تذر ميناء من موانىء كاله أو مدارس أو بحر البلطيق أو المحيط الكبير أو الشمال والجنوب والشرق والغرب إلّا جابته. فقد كانت تلك السفينة الملعونة تحيط أي مكان تحاصرها فيه سفن العدو بالدخان إلى مسافة أربعة فراسخ من جميع الجهات، وتجعله كالليل الحالك، وتتسلل خارجة من إحدى الزوايا بسرعة تفوق سرعة أي سفينة تريد أن تتعقبها بساعة من الفرسخ الواحد، بحيث لا تدركها السفن، ومن أدركتها أغرقتها. وكنت سعيداً ومسروراً بمجيء السفن لأن قصف السواحل وإغراق السفن استمر لفترة طويلة. وكنت أتابع ذلك لحظة بلحظة وأنا أقول: فدتك نفسي أيها الحجة بن الحسن. إذ إنه هو الذي رتّب تلك المسألة وخطّط لقضية الحرب هذه. وكنت التفت إلى جهة روسيا قائلاً: يا ابنة الكلب! كيف أنت الآن؟

سأنتف لحيتكِ شعرة شعرة   كي تعرفي أنّ القدر يُعمي البصر

ماذا كنت تظن أيها الدبّ الأكبر؟ فلتُحتضر الآن ولتمُت. لقد أردتَ احتلال إيران فأين ذهبت بولندا الآن وأين وارشو؟ تُرى هل كانت المسألة مزاحاً أم عقلاً؟ هل يعقل أن تكون الخسائر في حرب ما تسعين ألف قتيل وتسعين ألف أسير؟ إن الأسرى الروس مشغولون بالعمل في المصانع البلجيكية، أو بنقل جبال فرنسا إلى أرض ألمانيا. ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1] فديتك يا ربي الرحيم يا من جعلت غيظي وحزن قلبي يزولان تدريجياً، وأستعيد مرحي قليلاً قليلاً. فهل يمكن يا إلهي لحزن قلوبنا الكبير أن يزول بالانتقام من بني أمية ومن الحمير أدعياء التدين الذين رفعوا عشرين ألف سيف بوجه الإمام علي عليه السلام في

---

(١) سورة الدخان، الآية ٤٩.

صفين أن أوقفِ الحرب وإلّا قتلناك مثل عثمان بن عفان يا رب: وأنا أريد البقاء في الدنيا لأجل رؤية قرة العيون هذه. أنت الذي قلت متفضلاً: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]. يا إلهي! لقد مرّ الآن على الغيبة الكبرى ما يزيد على ألف ومائة سنة. فمن أي فترة هو قريب؟ إن كان المقصود هو كونه قريباً من الميعاد في الجنة، فأي لطف في ذلك؟ لأن من البديهي أن اليوم الأخير من الدنيا هو قريب أيضاً بالنسبة للآخرة. ولن يكون للفتح في ذلك اليوم بشارة سارة للمؤمنين قياساً للعذاب الأخروي الذي سيبدأ من غد ذلك اليوم. فيا قريب الفرج! فرّج عنا كلمح البصر، أو هو أقرب من ذلك. اللهم أرني الغرة الحميدة، وكحّل ناظري بنظرة مني إليه.

كنت قد رتّبت أمور معيشتي إلى حدٍّ ما بالقناعة، وأحياناً بالصلاة نيابة، وبالخياطة. وكانت الأمور تسير على أيّ حال. ومع أن زوجتي كانت تملك مالاً إلّا أنني لم أطلب منها حتى ولو على سبيل الدَّين. إذ من العيب والعار أن أمدّ يد الحاجة إلى المرأة؛ بل إنني كنت قانعاً بذلك البيت البسيط الذي اشترته هي، إذ كنا نسكن فيه بالمجّان. وحين كان يصاب شيء منه بالتلف، كنت أنا الذي أدفع المال اللازم لترميمه.

موت صبي وولادة ابنتين:

كان لي آنذاك بنتان وابن واحد، وكان أصغر الجميع. وقد مرض منذ بلوغه الشهر السادس، وظللت بعدها أحمله بين ذراعيّ متنقلاً به بين الأطباء. وفي أحد الأيام استخرت الله سبحانه لأجل دواء ما، فاستنبطتُ من الاستخارة أنه سيموت وسيعوّضني الله عنه ببنت. وقد وقع ذلك فعلاً، حيث حملت زوجتي بعد ذلك وأنجبت بنتين. ولما كان حليبها قليلاً إلى الدرجة التي لم تكن تستطيع معها أن تكفي به طفلة واحدة. فقد وجب علينا أن نعطي البنت الأخرى إلى مرضعة. وبعد البحث الطويل وجدنا مُرضعة اتفقنا معها على أن تُرضع إحدى الطفلتين وتعتني بها لقاء تومانين شهرياً. ولكي لا أحار في تدبير التومانين فقد آليت على نفسي أن

(١) سورة الصف، الآية ١٣.

أصلي كل شهر صلاة سنة كاملة بالنيابة، لأنفق ثمنها على الطفلتين. وقد بلغ ضغط الظروف والأيام، بل ضغط الله القهّار ذروته في تلك الفترة على روحي وبدني وتفكيري.

والأسوأ من ذلك كله حاجتي للوقوف على باب دار السيد محمد كاظم الذي كان ملتزماً وبإصرار على إذلال وإهانة من هم على شاكلتي، وإن كان يُظهر المودة في الظاهر. وكان أملي به إعطائي صلاة نيابة لمدة سنة بثلاثة أو أربعة تومانات، وحتى في هذه المسألة فإنه لم يكن يفتح لي بابه إلّا مرة واحدة بعد أن أذهب إليه عدة مرات. وكان يُعطيني في مرة من المرات جواباً مؤمّلاً، بينما يكون جوابه الرد في المرات الباقية. وحين قال لي مرة إنه لا توجد صلاة بالنيابة الآن كان قد سُلم في ذلك المجلس: عشر ليرات، وعشرين، وثلاثين ليرة، بعنوان خمس أو سهم الإمام، ولم يفكر في إعطائي واحدة منها ـ.

وإذا تجرأت مرة وقلت له: يا سيدنا! لم أكن قد نذرت نذراً أن أعيش حياتي كلها بثمن صلاة النيابة، فأعطني واحدة من هذه الليرات التي تضعها في الكيس. فإن لم يكن هناك صلاة نيابة فالخُمس موجود، كان يلتزم الصمت.

وحتى في المرة التي يُجيب فيها كان يقول: يا شيخ عبد الرحيم، أعطه صلاة سنة. وإن عبد الرحيم هذا يقرأ صيغة التوكيل بأربعة مجيديات مع تعيين الأوقات وقراءة الإقامة. وبعد ذلك يقول لي: اذهب وتعال غداً لاستلام المبلغ إذ ليس لدي الآن شيء منه. وبعد عدة مراجعات ومشقّات كان يعطيني أربعة تومانات مقابل **٣٦٠** يوماً من الصلاة بلياليها بحيث إنه إذا لم يؤدّ حرف واحد منها من مخرجه أو كان البال مشتّتاً، أو تحرك الوجه باتجاه اليمين أو اليسار، أو لم تكن فيها نية خالصة في القربة بطلت وظلت الذمة مشغولة. وعلى هذا فإن أيّ سجن مع الأشغال الشاقة ليس فيه هذا القدر من الأذى الروحي والجسدي.

الماء.. الماء:

في أحد أيام الصيف وكان ماء النجف قد انقطع لتوّه، وبينما كنت متجهاً إلى دار السيد لأخذ صلاة سنة بالنيابة لنحلَّ بثمنها مشاكلنا التي كانت واحدة منها

انقطاع الماء حيث كان الحُبّ خالياً منه، وليس للأطفال صبرٌ على الظمأ صادفني أحد السقائين وكان قادماً من باب المدينة وهو يحمل القِربة الملآنة بالماء. سألته أهو حلوٌ أم مالح؟ فقال: حلو. فعرفت أنه قد جمعه من أعماق الساقية. سألته عن ثمنه فقال: بقرانين. إلّا أنني أقنعته بعد الإلحاح والمماكسة أن يبيعني إياه بقران واحد، فوافق، ثم جاء معي وسكب القربة في الحب الذي كنت قد نظفته سلفاً. وبعد أن أخذ القران وانصرف. ذهبت لأُغطي الحبّ فرأيت الماء أسود ملآن بالطين، وينبغي تصفيته ليكون قابلاً للشرب. كما رأيت فوق الماء شيئاً طافياً. ولظني أنه ربما كان روث بغل فقد رفعته بغطاء الصفيح الذي أغطي به الحبّ. وحين تفحصتها جيداً وجدتها قذارة إنسان. عندها رفعت طرفي نحو السماء ضاحكاً وقلت: يا إلهي! حين تبتلي أحداً فتحاربه، لا تخلّي سبيله بسرعة! لن أشكو بؤسي الآن، بل سأنتظر إلى أين ستصل الأمور.

جئت بقصعة وحملت ماء الحبّ شيئاً فشيئاً وأفرغته في الحوض بدقة كي لا ينجس هذا الماء النجس مكاناً آخر، فلما فرغ، حملته وطويت السلم درجة درجة حتى بلغت الحوض، فأمسكت بقعره بيد وبحافته العليا باليد الأخرى وأغرقته في الحوض، ولم أتمكن من تطهيره إلّا بعد لأي. ثم أخذته إلى مكانه السابق، ووضعته فيه، وجلست لأستريح، وأنا متبرم جداً مما وقع لي من أحداث.

خرجت زوجتي من الغرفة، فوجدتني تعباً من مصائب الدنيا التي هجمت عليّ، ومن الصفعات التي تلقيتها أينما توجهت. وكجدّي العظيم الذي وقف ليستريح ساعة في هذا الوادي غير ذي الزرع، الذي لا يقل عن كربلاء في جفافه، كنت جالساً بحيرة واندهاش.

تألمت لحالي وقالت: لقد سألتُ فعرفت أن علبة الصفيح الكبيرة من ماء الكوفة تُباع بقران ونصف. فخذ هذه النقود، واشتر لنا واحدة من منطقة الطمّة. وعليك أن تستعدّ لما هو أكثر من ذلك، أنت يا من هو كالنبتة النامية في صحراء أفريقيا، حيث لا ماء نهر ولا عيناً أو قناة جارية، وينبغي انتظار ماء النهر فحسب. ففهمتُ عندها أنني سعيد الحظ لقوله عليه السلام: «ومن سعادة الرجل زوجة صالحة إذا نظر إليها سرّته».

اشتريتُ الماء، وانفرجت أسارير وجهي بعد ذلك نسبياً، فذهبت إلى قاعة المطالعة لأُبعد عن ذهني جميع المشاكل، مع أن وقوع المشاكل على الإنسان في الدنيا خيرٌ ألف مرة من الرفاهية وتوفر وسائل العيش والسرور، حيث إن المشاكل والبلايا موجبة لذكر الله ومناجاة الحق سبحانه، بينما يكون توفّر الرفاهية سبباً في الانشغال والغفلة عن الحق وفي الطغيان والتجبر.

﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[1] ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2] وإن البلاء يقع على الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل. والبلايا تُظهر غالباً محبة الخالق لأنها شعار الصالحين. كما كان أصحاب النبي ﷺ يُسرّون ويستبشرون حين يصيبهم الفقر والبلايا، أن مرحباً بشعار الصالحين. وحين كانت تتحسن أوضاعهم، وتُقبل الدنيا عليهم، يخافون أن يكون ذلك استدراجاً، فيقعون في الغفلة ولا يشكرون الله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

إذاً وعلى أساس ما يراه أهل الكمال وذوو البصائر المستنيرة من كون الابتلاءات والمصائب هي النِّعم الكبيرة للحقّ تعالى وهداياه وتُحفه التي يُتحفُ بها من يحبّ. يكون شُكرها أوجب على العبد العارف من الشُّكر على نعمتي الخبز والماء اللتين يعتبرهما العامة بمثابة النِّعم لوحدها. ولكن بحكم أن الإنسان لم يتخلص من بشريته إذ كان ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾[4] فإن ذلك يجعلنا ننزلق أحياناً ـ نحن الناقصين ـ من السلّم بواسطة الهلع الذي يتملكنا.

محاكمة الملائكة بقسوة:

حين فرغ شيخ رشتي من قراءة صحيفته قال: يا فلان! أنا كلما فكرت في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

(١) سورة التكاثر، الآيتان ١و٢.
(٢) سورة العلق، الآيتان ٦و٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٧٨.
(٤) سورة المعارج، الآيتان ١٩ و٢٠.

يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١]. وأنا أرى أن كلام الملائكة كان في موقعه، واعتراضهم على خلق هذا المفسد وسفاك الدماء معقول، ويتضح ذلك جليّاً لمن يطّلع على صفحات التاريخ.

وهنا وجدت الفرصة مناسبة لأفرغ غيظي على أولئك الملائكة المقدسين فقلت: يا جناب الشيخ! إن ما جال في خاطر حضرتك ما هو إلّا فكر باطل وخيال فاسد، فاعتراضهم كان في غير محله. بل إن الاعتراض عليهم في بعض وجوهه وارد ومعقول.

أولاً: بعد المعرفة بأن الحقّ تعالى هو الخالق ووليّ النعمة والمحيطُ بكلّ الموجودات ما يُرى منها وما لا يُرى علماً وقدرةً، وهو خير محض، ولا ينبغي أن يُتوقّع من الخير المحض سوى الإحسان. وتجب طأطأة الرأس خضوعاً لأمره. وأن يظهروا ذلك قولاً وعملاً إذ إنّ «كل ما يفعل الحبيب حبيب» وذلك أمام سلطان قاهر أحاط بكل شيء صالح أو فاسد علماً.

وثانياً: من المعلوم أن الله قد جعل أولئك موضع استشارة لمجرد تعليم العباد، وذلك لكي يستشير سلاطين ورؤساء كل قوم العقلاء في حفظ النظام الاجتماعي، وإلّا فإن الله فعال لما يشاء، وليس بحاجة إلى مستشار ومشير. ولكنَّ هؤلاء ـ ولأنهم أصبحوا في موضع الاستشارة ـ فقد كان لزاماً عليهم الإقرار بجهلهم وأن يقولوا: الله أعلم. وإن أزمة الأمور كلها بيدك يا الله. لا أن يغتروا بأنفسهم ويضيعوها ويُجَهِّلوا الله، وكأن أحد البقّالين قد استشارهم أأزرع بطيخاً بدل الحنطة؟ فأدلوا برأيهم على الفور قائلين: إنّ هذا العمل فيه فساد.

وثالثاً: لم يكتفوا بهذا، بل أخذهم العجب وتكبّروا في مقابل: «الله أكبر من أن يوصف» وكونه المُنعم الحقيقي كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[٢]. والرضا عن النفس والتكبُّر والعجب حرام ومُبطل للأعمال.

ورابعاً: استغابوا آدم، ومدحوا أنفسهم. وكلا العملين حرام.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠. (٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

خامساً: اعتبروا الله محتاجاً للعبادة، حين قالوا إن الإنسان مفسد وليس عابداً. ونحن نعبدك ونقدّس لك وننزهك، فاقنع بهذا، وإن توقّع العبادة من الإنسان توقع في غير محلّه ـ والعياذ بالله ـ وطمع ساذج، ولو أنهم لم يطيعوا الأمر بالسجود لآدم لكانوا أكثر رجساً من الشيطان، لأنهم لم يكونوا أقلّ منه اعتراضاً.

سادساً: إن المخبر الصادق أخبرنا أن غذاء الملائكة هو التسبيح والتهليل. إذاً فهؤلاء يعبدون ويهلّلون من أجل لذّاتهم وبقائهم، أي أن عبادتهم مثل تناولنا الطعام. إذاً فهم يعملون من أجل أنفسهم، وكأنهم يريدون التمويه على الله. ولو أن أحداً منا نحن البشر فعل شيئاً لنفسه وحمّل غيره جميلاً بأنه فعله لأجله، لاعتبرناه منافقاً مخادعاً.

سابعاً: إن عبادة أولئك هي التسبيح والتقديس فقط. بينما عبادة بني الإنسان شاملة للحمد والشكر والتسبيح والتقديس. إذاً فإن دائرة عبادة بني الإنسان الذي هو مظهر جميع الأسماء أوسع من عبادة الملائكة. بعبارة أخرى فإن عبادة الملائكة هي من طرف واحد كعبادة الحيوانات، وينظرون إلى الحق تعالى بعين واحدة، وليست جامعة. على العكس من الإنسان، فعبادته مثلاً فيها القيام الذي هو عبادة النبات، وفيها الركوع وهو عبادة الحيوان، والسجود وهو عبادة المعدن، كما أن فيها التسبيح والتهليل وهو ذكر الملائكة. إلّا إنّ الملائكة المساكين «منهم قيام لا يركعون»، ولم يكن من الخير أن يستروا العبادة الكاملة والجامعة للإنسان ويظهروا عبادتهم الناقصة في حضرة ذي الجلال.

ونضيف أيضاً: إنّ الإنسان أجوف ومحتاج إلى الأغذية المادية ومكلَّف بالحصول عليها وتحصيلها، وذلك مستلزم لمقدمات وشروط وإزالة موانع وعقبات لا تُحصى. إذاً وجب تحصيل كل المقتضيات والشروط الوجودية، ورفع الموانع والعوائق وقطّاع الطريق. وقد يستعصي رفع مانع في بعض الأحيان أو إيجاده. وأحياناً لا تُسعفه الأسباب المألوفة التي لا تدخل في اختياره. وفي أحيان أخرى تمنع النوازل السماوية أو الأرضية أمراً ما. فيجب في تلك الحالة اتخاذ طريق آخر من المكاسب، ليرى ماذا سيحصل. وبعد الحصول على الغذاء يجب عليه أن لا يتناوله لوحده، بل أن يُشرك فيه من هم في كفالته من زوجة وأطفال وعجزة وأقرباء.

وقد جعل الله طريق الرزق الحلال في الدنيا ضيقاً جداً، وجعل شهوة وغضب الإنسان واسعين جداً، بحيث لو أُعطي الدنيا بأسرها لما اكتفى. ولو جعل العالم موضعاً لغضبه لأحرقه بأجمعه وطمع بالسماء. وقد هيأ هاتين الحزمتين الغليظتين، ثم الهوى النفساني الذي هو منشأ الغضب أو الشهوة. ثم نسج هاتين الحزمتين مع بعضهما، فأصبحتا حبلاً غليظاً كحبل ليف النخيل الذي يربط به العرب الجسور ببعضها، ويطلقون عليه اسم (الجمل). وإن مرور هذا الحبل الذي نُسج من ألوف الخيوط الدقيقة من خلال ثقب إبرة منوط بدقته وتماسك نسيجه. وهذا قريب من المستحيل. ولذا فإن نجاة بني آدم منوطة بدقة وتوحيد مثل هذا الحبل حيث ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[١] إذاً فالإنسان المسكين مكلف أن يضيّق هذا الحبل الغليظ، وذلك بالرياضات والمجاهدات، وأن يدبّب رأس ذلك الحبل المكون من ألف فرع برطوبة العدل وإشراقة التوحيد. فيا أيها القلب المكوّن من مائة قلب، اجعل القلب واحداً ليلج ثقب الإبرة ويجتاز الجسر بثقة واطمئنان. وهكذا، فكلّ واحد من بني البشر قد حُشي بمائة ألف عدوّ، كلهم يحولون دون وصوله إلى الحق تعالى، وهم جنود الغضب والشهوة. ومائة ألف عدو من الشياطين الخارجية الذين يوسوسون في صدور الناس من الجنة والناس يحيطون به مبتغين جلب وإغواء هذا المسكين قهراً ومكراً. ومائة ألف من الأعداء وموانع العروج من بئر الطبيعة التي مُلئت بمختلف نوازل الدهر والآفات السماوية والتي قال عنها أمير المؤمنين عليه السلام: «دار بالبلاء محفوفة وبالغدر موصوفة...» فضلاً عما ينزله الله من الأقدار بصورة مباشرة دون وسائط.

ثم بعد ذلك وبحكم «النكاح سنّتي» يأتي الزواج ووجوب دفع نفقات الزوجة والأولاد على هذا البائس ولزوم تربيتهم وتعليمهم الدين والأخلاق، مع ثلاثمائة ألف عقبة يجب أن يواجهها أيضاً ويقاومها. فإذا أصبح العالِمُ ـ لا قدر الله! ـ متمدّناً مترقياً وجب عليه أن يحارب أعداء أبناء الشعب أيضاً. وكلما كان عطفه وحنانه على من هم تحت حمايته ورعاياه ومن يعولهم جدياً؛ زادت بالطبع مشقاته

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٠.

في الحروب والجهاد. كل ذلك جعل ميدان الجهاد أكثر سعة حتى أن النبي ﷺ قال: «ما أوذي بني مثلما أوذيت» ويكون من أول عمره حتى آخره مبتلى بمثل ليلة الهرير في صفين بحرب وجدال ومقاومة، فما بين السعي وتحمّل الجراح والغبار والتراب وظلمة فضاء هذا الميدان الذي تصطرع فيه آلاف السهام والسيوف والرماح على الدوام وبين ما ينبغي العملُ به يأتي الخطاب من الحق تعالى أنهم: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[(١)]. وبالتالي فإنْ حصلت لهم غفلة أو تقصير في عدم الإخلاص فسيقعون في الخطر العظيم. وبين الخوف والرجاء يجب أن يملك الإنسان البائس القدرة على الصراع بين الموت خوفاً والحياة رجاءً.

أما الملائكة المقدسون قصيرو النظر، فهم مثل المرتدين مسوح القداسة من الناس، الذين يرون الدين بتطهير اليد. فلا يفكّرون بالهمّ والمرض أو وجع القلب وزيارة الطبيب، أو شماتة الأعداء ولا يعبأون بحربٍ وجهاد، أو زوجة وأطفال، أو كسب وزراعة، أو حمارة القيظ وصبارة الشتاء. أو شهوة وغضب وشيطان ومشاكسة. فهم ـ الملائكة ـ مع كل تلك الطمأنينة وهدوء البال اللذين وُهبا لهم، يتباهون ويفخرون بتلك العبادة الناقصة التي هي في حقيقتها غذاؤهم وموجبة لبقائهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[(٢)].

إنه لجهل وقصر نظر أن يتظاهر إنسان ما مع كلّ تلك الابتلاءات وبسبب قصر نظره، بصلاة الليل وارتدائه مسوح القداسة، مما يجعل العقلاء يؤاخذونه ويلومونه. وإنه الجهل والرضى عن النفس والأنانية أن لا يشكر الإنسان النِّعم الإلهية المتعددة ويُظهر الكفر. وأن يكبر في عينه عمله ذاك، ويتصوره أكبر من جبل أبي قبيس.

تاسعاً: إن الملائكة مع تجرّدهم من الحجب التي ترين على فهم الإنسان، كانوا في حيرة وعجز ذهني إلى الدرجة التي لم يدركوا معها أن الذي اختاره حضرة الحق تعالى خليفة له لا بدّ أن يكون أعجوبة الدهر ونادرة عالم الوجود، وأن السرّ والجوهر الكامنين في ذلك الطين المظلم والقوة الحيوانية أفضل وأسمى

---

(١) سورة البينة، الآية ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ٣٠.

من الملكوت والجبروت. فإن لم يعلموا تفصيلاً، لزمهم أن يعلموه إجمالاً أنّ تحت ذلك المظهر سرّاً مخبوءاً. لأن الحق تعالى لا يعمل شيئاً جزافاً وعبثاً، فيختار خليفته ممن هو غير جدير بها، أو الوضيع الفطرة والحيواني الصفات. وكان ينبغي للملائكة السكوت على الأقل احتياطاً، وأن لا يبادروا للذم، فإن العجلة من الشيطان. وأن يتجلببوا الحزم والصبر ليروا ما سيظهر من ظهر الغيب، وأن يخجلوا على الأقل من حضرة آدم الذي أصبح معلمهم على الرغم من عدم وجود القوة المنفعلة لديهم ليخجلوا، وهو نقص آخر في الملائكة.

عاشراً: ما هو معنى الخليفة؟ حين كنا تلاميذ صغاراً في الكتّاب، يحدث أحياناً أن يذهب المعلم لعملٍ ما. فإذا اختار واحداً من التلاميذ، وعيّنه خليفة له وجلس ذلك الخليفة في نفس مكان المعلم. كنا نحن التلاميذ نخشاه ونطيعه كما لو كان المعلم نفسه. بينما لم نكن نعير ذلك الطالب اهتماماً قبل تعيينه خليفة، وربما كان أقلنا شأناً. مع أن تلك الخلافة مجرّد جعل صرف من غير ملاك وخصوصية فيه. إذ من الممكن صدور الأعمال جزافاً من معلمي الكُتّاب بينما لا يمكن تصوّر صدور ذلك عن الله تعالى بأن يعطي الخلافة لأحد بدون مِلاك أو حكمة.

وعلى هذا يكون الملائكة قد تلقوا الجعل الإلهي بأقل مما يُتلقى أمر معلمي الكتّاب. أو ربما نكون نحن أبناء آدم أكثر فهماً من الملائكة، أو أن يكون معنى الخليفة ليس بالشكل الذي نفهمه نحن أبناء آدم.

فإن صحّ الاحتمال الأول فهو الكُفر، بينما لا نتخلى نحن عن إيماننا بأن الملائكة عباد مكرمون. كما أنهم تعاملوا معنا خلاف قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1].

وإن صح الاحتمال الثاني، فقد ثبت المطلوب بالأولوية أن أطفال بني آدم أكثر ذكاءً وفهماً من الملائكة، فكيف سيكون حال الكبار والمسنّين.

وأما الثالث فقد وضح بطلانه لأن الخلافة والنيابة والوكالة والوصاية والولاية مستعملة بنفس المعنى أو بمعانٍ متقاربة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٢.

وبناءً على عدم الترادف في الكلام ـ كما هو الحق عندي ـ فإنّ معنى كل هذه العناوين هو أن يجعل كلٌّ منها الآخر بديلاً عنه في كل الأمور. وذلك هو معنى عرض الأمانة على كل الموجودات الأرضية والسماوية ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾[(١)] لعدم قوتها واستعدادها لقبولها ذاتاً ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[(٢)] لتمامية استعداده وسعة قابليته بما لا يتناهى، فهو باستعداده وقابليته يريد أن يكون إلهاً ولأجله كان جهولاً لنفسه ومجهولاً قدرةً ومنزلة.

متُّ في الجماد لأحيا في النبات ... ومتّ في النبات لأحيا في الحيوان
ومتُّ في الحيوان فأصبحت بشراً ... ولم أخشَ من نقص آدميتي
فإذا متُّ مرة أخرى من بشريتي ... فسأحيا مرة أخرى في الملائكة
وأخرى سأنبعث محلّقاً من الملَكَ ... وأصبح شيئاً أكبر من الوهم
وأتحقق من وجودي مرة أخرى ... كل شيء هالك إلاّ وجهه
فينبغي أن أفنى وقد قالت لي القيثارة: ... إنا لله وإنا إليه راجعون[(٣)]

«لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يرى»[(٤)].

ولأنه يفني نفسه بنفسه، إذاً فقد ظلم نفسه. وهذا الظلم أسمى من أي عدل. لأن الثنائية والمشاركة موجودان في العدل. وإنّ الشرك لظلم عظيم. ولأنه باقٍ ببقاء الله كأنه مرّ بساقية حدود الإمكان:

فهو حيّ لا يموت، اقتلوني يا ثقاة ... إنّ في قتلي حياة في الحياة

خلافة الله الواسعة:

إذاً فقد كان ما روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في فقرات الخطبة البيانية الذي كرّر فيها قوله: «أنا، أنا» ونسب فيها أوصاف وأفعال الله إلى نفسه، من خلق الأرض والسماء، بل كونه خالق الدنيا والآخرة، ومالك يوم الدين، وقسيم الجنة

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
(٣) الشعر لجلال الدين الرومي في المثنوي.
(٤) حديث قدسي.

والنار، ومكلّم موسى من الشجرة وأمثال ذلك، كان في محلّه وموقعه. وعلى الرغم من أن (المجلسي)[1] ـ بسبب قصر النظر وقلة المعرفة ـ قد أشكل على تلك الخطبة، إلّا أنه لا محل للإشكال لدى من هو غوّاصُ بحارِ الحقائق، والطيّار في الفضاء الواسع للمعارف. بل إن ما ورد في فقرات تلك الخطبة الشريفة لم يتجاوز ما يقتضيه مقام الاستخلاف والولاية المطلقة ونيابة السلطة الإلهية التي نصّ عليها القرآن الكريم. وعلى فرض عدم ورود تلك المعاني في الخطبة، فإنّ من لديه اعتقاد بالولاية الكلية لا بدّ أن يكون معتقداً بهذه المستلزمات. ولا يستدعي هذا الإيمان وقوع خلل أو نقص في عقيدة التوحيد. ولذا فلا ينبغي الالتفات لتشكيك الشيخ المجلسي وأمثاله من قِبَل العارف الزكي والذكي الألمعي.

ولأنّ الحق تعالى هو السلطان المطلق. فإنه يسلّم إلى خليفته الذي جرت العادة أن نسميه بنائب السلطان كل أمور المملكة، حتى إدارة شؤون الوزراء والعساكر وقادة الجيش. وينبغي لهم أن يطيعوه ويخدموه كما يطيعون ويخدمون السلطان نفسه. وينبغي لإسرافيل وعزرائيل وجبرائيل وميكائيل الذين هم وزراء الحرب والمعارف والمالية والأرزاق، وكبار شخصيات تلك الحضرة أن يكونوا خُدّاماً ومطيعين للخليفة. ومن غير اللائق أن يفتح أحد فاه بما لا يليق أمام سيّده. وإن ما قيل من أن الملائكة هم جنود الحقّ تعالى إنما هو بالاسم فقط، بل إن الله سبحانه هو المتصدّي بنفسه لأمور ونظم وتنسيق عالم الوجود، وهو غير محتاج على الإطلاق للسادة الملائكة الذين هم كالبنات العمياوات المحتاجات لمن يضع لقمة العيش في أفواههنّ. ولأن الإنسان حاصل على رتبة الاستخلاف، فإنه هو الذي يوفر المأكل والمشرب له ولمن معه من الأرض، ويعدّ آلات

---

(١) محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١١ هـ) من علماء الإمامية اشتهر بنشاطه العلمي في العهد الصفوي. دُفن في مدينة أصفهان. له كثير من المؤلفات أشهرها بحار الأنوار في أخبار الأئمة الأطهار وهو موسوعة حديثية ضخمة. وقد نعته المؤلف هنا بقصير النظر وقلة المعرفة لمجرد إشكاله على الخطبة المنسوبة للإمام علي عليه السلام المسماة بـ(البيان) فالخطبة مليئة بما لا يمكن صدوره إلّا عن الغلاة الذين قال فيهم الإمام نفسه (هلك فيّ اثنان: محبٌّ غالٍ ومبغضٌ قال). ويرى القارىء هنا أعلاه، نموذجاً مما ورد في تلك الخطبة من الغلوّ الذي نسبت فيه أفعال الله جل وعلا إلى الإمام عليّ. نعوذ بالله من ذلك. وهو مما يستحيل صدوره عن الإمام علي.

الحرب والجهاد من المعادن، ويهيىء من أوراق الأشجار وصوف الأغنام ما يستر عورته، ويُكابد مختلف المشاق ليسدّ احتياجاته واحتياجات عائلته وأقاربه وأصدقائه، بل حيواناته ومواشيه، بل النباتات والأشجار. وفي منتصف الليل، الوقت الذي يستريح فيه البدن، وتعود فيه القوى المتحللة، ينهض ليغسل يديه المليئتين بالفقاعات بالماء البارد، متوضئاً يذهب بعدها إلى محراب العبادة والمناجاة مع قاضي الحاجات، ويبكي بين يديه كالأم الثاكل. أما المعصوم فيقول في بكائه: إن التقصير مني ولن يتأتى مني أنا الخارج من بئر الطبيعة أكثر من هذا، ومن غير الممكن أن أؤدي حقّك: «ما عرفناك حقّ معرفتك، ولا نُحصي ثناءً عليك».

وأما بُكاء غير المعصوم فلكي يتوب عن معاصيه التي تمرّ بخاطره، والتي صدرت عنه بسبب غليان ما يوجب صدور المعاصي منه، أي بسبب ما رُكّب فيه. ليصبح بعدها نادماً ذائباً. والعجيب الغريب هنا أن ذلك الشيء الذي اعتبره الملائكة سبباً لإفساد الإنسان هو نفسه منشأ رتبة الاستخلاف، وبسبب السموّ غير العادي والعشق العميق، وكأن تلك القوى الحيوانية هي أساس وأصل هذه الشجرة الطيبة التي أصلُها ثابت وفرعُها في السماء. وقد امتلأت الأرض والسماء من ثمارها. وكل الموجودات جالسة في بيت نعمته حتى هؤلاء الملائكة، يتلقون إفاضات ثمراته الوجودية، ولم يعرفوا حقّه ولا قدّروه حق قدره وهو في حقيقته ليلة القدر. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] ولكن ليس أولئك الملائكة الذين عُلم استعدادهم وأصلهم فهم كالورود وسط الأصص، وحيث عُلمت مقاماتهم التي دللت على محدوديتها. وما وقع فيه هاروت وماروت اللذان سيطرت عليهما خلال ساعة القوى الحيوانية شاهد على ادعائهم.

إن الهدف من خلق بني آدم هو كونه الأعجوبة. إذ لم يُخلق حتى الآن مخلوق مثله في هذا الكمال وسعة الوجود، ولن يُخلق أيضاً. إذ إن الله سبحانه وتعالى قد مدح نفسه ـ بعد أن أتمّ خلقه للإنسان ـ بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2]. هذا في الوقت الذي لم يكن الملائكة قد عرفوا الإنسان بصورة

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ١٤.

تامة. بل إن جبرائيل الملائكة الذي له كل هذا الصيت والشهرة في العالم، هو في الجنان الصافورة قد ذاق من حدائقنا الباكورة:

إنّ هذا العسل والسكّر المتناثر من كلامي إنما هو أجر لصبر ذلك الغصن المليء بالحلاوة

لست أدري هل رأى الشيطان طينة الإنسان بينما شاهد السادة الملائكة قواه الحيوانية، أو أنهم رأوا قامته القصيرة. وقد رأوا النقص الذي كان لابن آدم في نصفه الأسفل. ولا يخفى أن النظر إلى عورات الآخرين غير لائق وحرام. ولم يكونوا قد رأوا صدره ورأسه ليعرفوا على أي عرش قد مرّ، وإلى أين هو ذاهب، ومع من يتناجى ليقول أسرار قلبه ويبوح بعشقه. ومن فراق من يخشى ويتأوه ويخاف حتى من تأوّهه هو؟

أبكي وأخاف أن يصدّقني ويعطف عليّ فيخفف من جوره

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[١]. ترى ألم يسمعوا أن جبرائيلهم الذي يعرفونه بـ(طاووس الملائكة) و(حَمَام الجبروت) قد قال في ذلك السفر: «لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ». حقّاً إنهم معصومون، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[٢]. لكن أين العصمة اللاإرادية عن الشهوات من داعية الشهوة المركبة في ابن آدم؟

إنّ الخال الذي في وجه الحسناء أسود، وحبة الفلفل سوداء أيضاً، وكلاهما تحرقان القلب. ولكن أين هذه من ذاك؟

إذاً. فقد أصبح ثابتاً، وجرى البرهان على أنّ المعارف لدى بني آدم أكثر رقيّاً وسعة منها لدى الملائكة. وأنّ الله قد أودع الأسرار لدى هذا الآدم الترابي، وقد قيل في المثل المعروف: (إنّ الكنز في الخربة).

وفي الحديث القدسي: «كنتُ كنزاً مخفياً، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف» لأنه آيته الكبرى وخليفته العظيم وصورته العليا، وهو تعالى الذي قال: «لم تسعني أرضي ولا سمائي بل وسعني قلب عبدي المؤمن»[٣]، حيث

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ و٢٧.

(٣) هذا حديث قدسي على الظاهر.

يعرج سبحانه أحياناً بعبده إلى عرشه ليكون في ضيافته. وفي حين آخر يكون هو جلّ وعلا في ضيافة عبده: «أنا عند المنكسرة قلوبهم، والمندرسة قبورهم» بل ظاهر أنه دائماً هناك. ليكون معلوماً أنه عاشق لابن آدم، ليكون ابن آدم بقربه معتكفاً اعتكاف (مجنون) لدى قبر (ليلى). بل نحن في حيرة: هل هو العاشق وآدم المعشوق، أم أن آدم العاشق وهو المعشوق، أم أنه هو هو الذي يتجلى في مرآة بني آدم بكل معنى الكلمة عاشقاً ومعشوقا لنفسه؟

فمن يكون ابن آدم وما هو ليملأ العالم بالضجيج؟

الكل معشوقٌ والعاشق هو الستار والمعشوق هو الحيّ والعاشق ميت

فيا سادتي الملائكة إنه هو الذي قال لموسى: «إني قد مرضت. فَلِمَ لم تأتِ لعيادتي؟»[١]. إنني لا أفهم حقّاً معنى هذا الكلام. فأرجوكم أن تقولوا وبدون خجل: هل أنتم لم تفهموا هذا الكلام أيضاً؟

إن بين العاشق والمعشوق سرّاً فما الذي يعلمه راعي البعير المجترّ؟

قال النبي ﷺ: «لي مع الله حالات أنا فيها هو، وهو أنا، أنا وهو هو».

وقال علي عليه السلام: «معرفتي بالنورانية معرفة الله».

وقال أولاده عليهم السلام: «لنا مع الله حالات فيها هو، وهو نحن. ونحن نحن، وهو هو!».

أخيراً. أرجو العفو من الملائكة للتقصير أو سلاطة اللسان التي أصبحت عادة لنا نحن الطلبة. ولوجود احتمال أن لا يؤدي ذلك الجواب الإجمالي النازل من الحق تعالى إلى رفع تلك الشبهة وذلك الإشكال الذي أوردوه عن الأذهان. وإنّ اعترافهم ذاك إنما نشأ عن الخوف. لذا فقد أتيتُ بكل هذه التفصيلات. وأكرر اعتذاري من السادة الملائكة. والعُذر عند كرام الخلق مقبول.

---

(١) هذا الكلام وما يليه من عبارات المتصوفة الذين قد يبلغ بهم الشطح حدوداً يقولون فيه ما يرونه هم مكاشفات.

العثمانيون تورطوا بالحرب:

على الرغم من أن طلاب النجف قد أطلقوا على الألمان لقب مؤيدي الإسلام نظراً لموقفهم من الروس، إلّا أن الألمان وبواسطة الدسائس والحيل استطاعوا أن يورطوا العثمانيين الحمقى بالحرب بعد عشرة أشهر من اندلاعها. حيث أعلنوا (السفر برلك)[١] ودقت طبول الحرب في أزقة كربلاء والنجف. وقد بلغ صوتها من الإرهاب حدّاً جعل قلوبنا ترتجف هلعاً منها، وهي طبول جوفاء. فعرفنا أننا لا نمتلك أي شجاعة، إذ إنه قد قيل:

إن الشجعان لا يخافون صدى طبل الحرب فهو مكوّن من خشبتين وقطعة جلد

ولم يكن الخوف لأجل سماع صوت الطبل. بل لأنّ قرع الطبول ذاك كان ينطوي على روح الحرب التي يخشاها أغلب الناس. وعلى أي حال فإنّ تكديس الأسلحة وأعداد الجيوش الاحتياطية إنما هو لليوم الذي يلبّون فيه نداء الخدمة العسكرية. وإذا كانت تلك الأيام للتخطيط والافتراضات الذهنية، فإنّ اليوم هو يوم تحقُّقها في ميدان التطبيق. أما العرب الذين دأبوا على الفرار من الخدمة العسكرية، ومن مجرد التدريب على الحرب، فمن باب أولى أن يفرّوا منها حين تكون حرباً حقيقية. وهناك سببان لهذا البرود:

أولهما: العداوة بين الترك والعرب. حيث إنّ ما بينهما كان علاقة تناقض وعناد، وليس المحبة والودّ.

والثاني: أنّ العشائر المقيمة خارج المدينة لا يلتزمون بقواعد الرعية عادة. فهم أهل المدر وسكان البيوت الطينية، وعلاقتهم مع بعضهم كانت من باب الاضطرار. فالرابطة الوطنية هي أوثق الروابط بعد رابطة القربى، حتى أنها تتفوق في أغلب الأحيان حتى على الرابطة الدينية. وإلّا فإنه لم يعهد عن العرب طوال تاريخهم خوفهم من الحرب أو الفرار منها. بل إنّ الحرب في النجف ذاتها قائمة بصورة مستمرة بين طائفتي (الزكرت والشمرت)[٢] حيث تغلق الأسواق لأسبوع أو

---

(١) السفر برلك: تركية تعني الخدمة العسكرية الإجبارية.

(٢) حول هاتين الطائفتين الشعبيتين النجفيتين اللتين طالت الحرب بينهما انظر: **ماضي النجف وحاضرها** ١: ٣٣٠ ـ ٣٤٠.

أسبوعين، يُقتل فيها خلق من الطرفين. ولقد أظهروا ـ أي العرب ـ في صدر الإسلام تضامناً وشجاعة مما زلزلوا به العام وأدهشوه.

النجف ثورة ضد العثمانيين:

وصل قائمقام جديد إلى النجف حديثاً، وبادر بالضغط على العرب لإجبارهم على الخدمة العسكرية الإلزامية، وقد شُنّت الغارات حتى على المنازل وفُتشت حتى النساء، إذ إنّ العرب كانوا يتخفّون بملابسهنّ[١]. وقد قام العرب من جانبهم بطلب العون من العشائر المحيطة بالنجف. وفي إحدى الليالي ـ وكانت الساعة السابعة ـ امتلأت أجواء المدينة فجأة بأصوات رصاص البنادق وضجيج العرب الذين ثاروا على الحكومة. أفقنا من النوم الذي رأيناه حراماً على أعيننا. كما عاش ضيف قدم حديثاً من إيران الخوف الشديد وهو يستمع أصوات العيارات النارية وهوسات[٢] العرب، وقد أخذته في الصباح إلى المدرسة التي هي الحصن الحصين، ثم عُدت إلى مكاني.

وعند حلول العصر كان العرب قد احتلّوا جميع المباني الحكومية، وأحرقوا ما فيها من الوثائق والملفات ونهبوا أثاثها. وقد تحصّنت جميع العساكر التي

---

(١) اسم القائمقام هذا هو بهيج بك وكان سيّئ السيرة. وقد بدأت حملات ملاحقاته للجنود الفارين هذه بعد الهزيمة المخزية التي تحملتها القوات العثمانية أمام القطعان الإنجليزية التي غزت جنوب العراق آنذاك. والتي وقف فيها رجال العشائر العراقية في الوسط والجنوب فيها موقفاً شجاعاً بذلوا فيه الأرواح والأموال دفاعاً عن الدولة العثمانية متناسين سنين طويلة من الظلم والجور والعسف الذي كابدوه على أيدي الولاة العثمانيين. كان للنجف نصيب كبير في تلك المقاومة بوصفها مقر قيادة العلماء الشيعة الذين أصدروا فتاواهم بوجوب صدّ الغزو الأجنبي بل وتقدموا صفوف المجاهدين إلى ساحات القتال. علماً بأن عدد الجنود الفارين لم يكن يستحق كل تلك الملاحقات والأذى الذي أُلحق بالسكان. حيث ذكر حسن الأسدي في كتابه **ثورة النجف** ص٩٣ أنهم كانوا خمسين فرداً. وأن تفتيش النساء كان يشمل جس أثدائهن للتحقق من عدم كونهن رجالاً ارتدوا زي النساء وأضاف إلى ذلك أن الحكومة كانت تعلم بمكان الفارين وأنهم متجمعون خارج سور مدينة النجف. وقد أثارت تلك التصرفات حفيظة النجفيين فثاروا على السلطة هناك.

(٢) الهوسة: بيت شعر يردّد بشكل جماعي من قبل الرجال في حالات الحرب في أغلب الأحيان الهدف منه إثارة الحماس والنخوة. ويصاحبه جولان المجموعة في مكانها وضرب الأرض بالأقدام وإطلاق عيارات نارية في الهواء.

قدمت من بغداد في أحد الخانات، واتخذوا لهم مواقع على سطحه[١]. وهكذا اشتعل أوار الحرب.

وقد طلب سادن الروضة الحيدرية هدنة، يدخل فيها الخان، كي يطلب من الحكومة الاستسلام وتسوية الأمر بسلام. وبينما كان عساكر الحكومة يزعقون من على سطح الخان: سنقتلهم، سنقتلهم جميعاً أطل رأس أحد العرب من نَقْبٍ كانوا قد حفروه من خارج الخان ينفتح وسط الخان[٢]. عندها اندفع أحد المتحصنين الأتراك نازلاً إلى السيد خادم الروضة الحيدرية الذي كان موجوداً هناك، وسلّمه سلاحه، وقال إنه (دخيل) لديه. فأخذ السيد الهيئة الحاكمة إلى منزله، بينما قام العرب بنزع الأسلحة من سائر العسكر الموجود هناك. كما حاولوا الاستيلاء على بغالهم. إلّا أن شفاعة السادن حالت دون ذلك. فغادروا إلى بغداد مجردين من السلاح.

وقد ظلّت النجف وما حولها بكامله تحت إدارة العرب بقيادة أربعة من شيوخها الذين أصبحوا يداً واحدة، وهم الذين كانوا على الدوام في حرب مع بعضهم. وقد عادت الإدارات الحكومية إلى مواصلة أعمالها، وأصبحت النجف مستقلة، حيث سعوا إلى إدارتها بصورة جيدة من حيث التنظيم وتأمين ما تحتاجه من مستلزمات[٣]. وعلى الرغم مما قيل من أنه لا يمكن أن يجتمع سلطانان اثنان في دولة واحدة، إلّا أن أولئك العرب الأربعة الذين كانوا أعداء بعضهم، قد أداروا دولة واحدة، ولذا قالوا: إن العرب ماهرون في علم الإدارة.

بعد ما يقرب من عام جاءتنا المرضعة التي كنا قد أودعنا طفلنا لديها لقاء

---

(١) كانت السلطات العثمانية وبعد مرور شهر على الهزيمة التي مُنيت بها في «الشعيبة» قد أرسلت قوة عسكرية مؤلفة من الف جندي من المشاة والفرسان بقيادة عزت بك للقبض على المنهزمين من الجندية. انظر **ماضي النجف وحاضرها** ١ :٣٤٢.

(٢) تم ذلك قبل الفجر ليلة الثامن من رجب **١٣٣٣**هـ (مايس **١٩١٥**م). **ثورة النجف** ص٩٣ و**ماضي النجف وحاضرها** ١ : ٣٤٢.

(٣) قال مؤلف «**ماضي النجف وحاضرها**» ١ : ٣٤٢ «حكم في النجف زعماء المحلات الأربع وألفوا حكومة وطنية دامت سنتين سارت سيراً حسناً. وكانت بأيديهم حاصلات البلاد توزع على الطوائف النجفية وهم يتولون شؤون البلاد من مرافعات ومخاصمات وما يلزم من كل شيء».
وقال الأسدي ص٩٤ إن تلك الحكومة استمرت حتى احتلال بغداد من قبل الإنكليز عام ١٩١٧م.

تومانين في الشهر نحصل عليهما بمشقة الأنفس لتقول لنا: تعالا إلى منزلي فإن طفلكما على وشك الموت. ذهبت مع زوجتي إلى منزل المُرضعة الواقع في آخر المحلة. جلست أنا من ناحية، وزوجتي في الناحية الأخرى، بينما كان طفلنا يحتضر. بعد نصف ساعة أسلم الروح، فقمت بمعونة اثنين من رفاقي، بحمله إلى وادي السلام عبر الثلمة ثم دفناه. وهكذا حُزْنا على أول الوادي وآخره بدفننا جثث ثلاثة أطفال لنا. وكان لنا أمل ـ وبحسب قاعدة الظاهر عنوان الباطن ـ أن نحوز باطن وادي السلام.

ارتفعت عنّا نفقة إرضاع ذلك الطفل البالغة خمسة وعشرين توماناً والتي كانت تُرهقنا ونحن في ذلك الضيق المالي والحياتي. وكان هذا الأمر رحمةً من رحمات الحق تعالى. فله الملك وله الحمد، يحيي ويميت ويحيي، وهو على كل شيء قدير.

كربلاء تسير مع الركب النجفي:

اقتدت مدينة كربلاء بالنجف فثارت على العثمانيين، إلّا أنّ رجالها لم يتمكنوا من دحر القوات العثمانية، فأرسلوا طالبين النجدة من النجف، حيث أُنجدوا بثلاثمائة من العرب الأشداء. وقد صادف وقت ذهابهم ارتفاع منسوب المياه في نهر الفرات، وكان هناك سدّ قد بُني على بعد ربع فرسخ من المدينة كي يحمي القسم الحديث الإنشاء المسمى بكربلاء الجديدة من طغيان المياه وقت الفيضان. وقد قام النجفيون بكسر ذلك السدّ، حيث طوقت المياه الحامية العثمانية من جانب، بينما حمل عليهم النجفيون الماهرون من الجانب الآخر، فاضطرت القوات العثمانية البائسة إلى الفرار باتجاه بغداد. وقد عاد النجفيون بعد ذلك مرفوعي الرأس إلى مدينتهم، بعد أن نهبوا كمية من الأموال من الأغنياء.

لم يكن العرب يفكّرون بعواقب ما هم مقدمون عليه، بل كانوا ينفذون أعمالهم تزجية للوقت، أما الغد فالله كفيل به. وقد يكون ما قاموا به هو تحريض من انكلترا شيطانة الدول، كي تهيىء الأرضية اللازمة لما هي مقدمة عليه[1].

---

(١) هذا رأي المؤلف الشخصي. أما الانتفاضة النجفية فقد كان لها أهدافها وإلّا لما استمرت سنتين في إدارة المدينة إدارة ذاتية. وقد كتب الكثير عنها في مؤلفات شهيرة أفدنا منها في هوامش هذه الترجمة.

أما في جبهات الحرب. فقد دخلت السفن الروسية والفرنسية والإنكليزية البحر الأحمر. وسدّت مضيق جبل طارق بوجه السفن الأخرى. ثم هاجمت سواحل جناق قلعة والدردنيل(١).

وعلى الرغم من قيام الغواصات الألمانية باستئصال شأفتهم من بعض السواحل اليونانية، إلّا أن فرنسا وُفقت في النهاية إلى إنزال قواتها على سواحل بيروت. وقد تمكن الإنكليز وبحجة كون الشريف حسين ملكاً للعرب من انتزاع الحجاز من مخالب العثمانيين، ودخول البصرة، ولم يتمكن ثمانون ألف عسكري تركي كانوا أمامهم من أن يصنعوا شيئاً بالرغم من أنه لم ولن يوجد جنود كالأتراك في الشجاعة وفن الحرب. والسبب في ذلك هو أن العثمانيين قد ركزوا كل جهودهم على استرداد بلاد القفقاز من أيدي الروس.

ذهب العثماني وجاء الإنكليزي:

وأخيراً أصدر العلماء فتاواهم بضرورة الدفاع. وساقوا العشائر إلى الميدان. ولكن ما الفائدة؟ فبيمنا كانت العشائر متجهة للميدان من الكوفة، وبينما كان الإنكليز يفرون من البصرة، ومع تصاعد زعاريد نساء المدينة المبتهجات ببطولة المسلمين، تراجع العرب، ودون أي سبب إلى الخلف، كما فرت القوات التركية أيضاً، وقد انتحر القومندان العثماني، بينما قاء سيد من المجتهدين العرب دماً من جوفه تأثراً مما حدث(٢). وقد قام العرب الفارون بنهب خيمة السيد أثناء فرارهم(٣).

---

(١) قال عباس العزاوي ٨: ٢٥٧ «إن موقعة چناق قلعة من أعظم معارك الحرب العالمية الأولى حيث تمكنت القوات التركية من المحافظة على المضايق فلم تمكن أحداً من اجتيازها وأوقفت الإنكليز والفرنسيين وغيرهم عند حدودهم».

(٢) القائد العسكري هو سليمان عسكري بك وقد انتحر في ١٤ نيسان ١٩١٥. وأما السيد المجتهد فهو السيد محمد سعيد الحبوبي قائد قوات المجاهدين. يقول عبد الله النفيسي وهو يحيل في جزء من كلامه إلى الجنرال البريطاني طاونزند «جدير بالذكر أن القبائل الشيعية قامت بأهم دور من أدوارها في معركة الشعيبة ضد جيش الاحتلال البريطاني. كما يحسن بنا أن نذكر أن سليمان عسكري بك قام بهجومه في ١٤ نيسان ١٩١٥م على الإنكليز وكان معظم قواته المهاجمة من محاربي القبائل الشيعية» انظر ص٨٨ من كتاب **دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث**.

(٣) على الرغم من أن المؤلف لم يشترك مع العشائر المجاهدة في قتالها ذاك فقد قال أسوأ كلام يقال ضد=

أما خزعل عديم الغيرة وعميل الإنكليز، فقد أطلق الرصاص على الجنود العثمانيين الذين حاولوا عبور شط العرب بواسطة الزوارق متجهين إلى إيران، بحجة أنه لم يُؤذن له بإعطائهم طريقاً للدخول إلى إيران، فعاد العثمانيون خائبين خاسرين بعد أن امتلأت زوارقهم بالجثث. بينما خرج الإنكليز الذين كانت أيديهم أطول من أرجلهم من السفن، ودخلوا البصرة متجهين إلى معسكر عثماني، قد ادخروا فيه آلاف الأحمال من الحنطة لتموين قواتهم، فأضرموا فيه النار، ومن هناك اتجهوا إلى كوت الأمارة فحطوا رحالهم.

أما العرب عديمو الغيرة الأجلاف المحملون بالعار والشنار فقد ذهبوا إلى بيوتهم، متصوّرين أنه لم تعد للعثمانيين يد عليهم، وأن سلطتهم قد زالت، وأنهم لن يأخذوا منهم الضرائب، كما لن يسوقوهم للخدمة العسكرية. بل تصوروا أيضاً أن تموين القوات العثمانية الموجودة في العراق وبغداد ستؤمّن من استانبول، وهم أسوأ من الإنكليز، وأن الإنكليز سيتركونهم وشأنهم، وغير ذلك من التصورات الباطلة.

الإنكليز عديمو المروءة:

وقد قاتل الإنكليز مرتين دون أن يعيروا أهمية لقواعد الرجولة. فعندما اشتبك الجنود الأتراك مع الجنود الهنود اشتباكاً مباشراً، بحيث لم يكن هناك من مجال إلّا للسلاح الأبيض، وتوقف إطلاق النار طبقاً للقانون ومقتضى الإنصاف، قام

=أولئك المجاهدين الذين لم يبخلوا بالغالي والنفيس في سبيل مقاومة الاحتلال البريطاني. يقول النفيسي ص٨٩ من كتابه **دور الشيعة** «كان بعض رجال القبائل يبيعون ما لديهم من متاع وأثاث ـ على ما هم عليه من فقر ـ لكي يبتاعوا بثمنه سلاحاً إطاعة للفتوى التي أصدرها المجتهد الأكبر» وعن المجتهدين الشيعة الذين شاركوا مشاركة فعلية في القتال قال: «إن المجتهدين لم يتقاضوا أجراً أو مرتباً كي يحاربوا، حتى أن الأتراك لم يقدموا لهم الأطعمة. ولم يكن هناك من نظام للتعويض على الزوجات والعيال في حال الوفاة. وعلى الرغم من هذا كله، فإنهم استجابوا للدعوة إلى الجهاد وحاربوا وماتوا في ساحة المعركة».
وعن ضعف إمكانات الجيش التركي انظر ص٣٢٨ وما بعدها مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها لمحمد رؤوف الشيخلي وهو عراقي خدم ضابطاً في الجيش العثماني وقاتل في جبهة البصرة وأسر هناك حيث يقول إن الجنود إضافة إلى فقدانهم الطعام كانوا لا يملكون حتى المساحي التي يحفرون بها مواضع لهم في الأرض تقيهم الرصاص وإن قائدهم قال لهم إن الأرض يمكن أن تحفر بالقصاع التي يأكلون بها الطعام، ص٣٣٦.

الإنكليز مرتين وبخسّة بفتح نيران مدافعهم ورشاشاتهم فأصابت آلاف الطلقات الجنود الأتراك والهنود معاً، وقتل من كلا الجانبين ثمانون ألفاً. أما في المرة الثانية، فحين رأى الإنكليز أنه لا خلاص للهنود من أيدي الأتراك، وأن قتل الهنود سيؤدي إلى انتصار الأتراك، فقد بدأوا بإطلاق النار لقتل الجنود الأتراك أيضاً، ولكي لا يَدَعوهم يحققون الانتصار، بل لجعلهم يُهزمون. وبهذه العدالة!! في تلكم الموقعتين استطاع الإنكليز أن يحتلوا بغداد بعد عدة شهور. وحين ارتفعت أصوات العثمانيين من خلال جرائدهم شاكية من سلوك الإنكليز في الحرب، وأنهم قد قاتلوا خلافاً للقانون الدولي، ضحك الإنكليز من القوانين الوضعية، وقالوا: إنّ القانون السائد في عصرنا هو ذلك الذي يُشاهد ويُسمع من أفواه المدافع. وليس بعد ذلك من قانون آخر.

الانسحاب العثماني:

وقد انسحب العثمانيون بعد ذلك من مدينة بغداد، وعسكروا في سامراء. وهنا توقع يهود بغداد الذين يصل تعدادهم إلى ثمانين ألفاً أن يكون لهم موقعهم المفضل في النظام الجديد. ولتصورهم أن الجنود الإنكليز سيصلون بغداد بسرعة، فقد أعدوا ترتيبات وليمة ضخمة تكفي لإطعام خمسمائة ألف شخص ذبحوا فيها الكثير من الأبقار والأغنام والجمال، كما طبخوا ما يكفيهم من الرز أيضاً مما يقدر ثمنه بمائة وخمسين ألف تومان. وحين نضج الطعام فرشوا الأزقة والشوارع بالحُصُر، وألقوا بالرز المطبوخ عليها، ووضعوا فوقه اللحم، كما وضعوا على جوانب كل حصير أرغفة الخبز. إلّا أن الضيوف لم يحضروا حتى بعد ثلاثة أيام. وبعد بقائه ـ الطعام ـ ليلةً وتعفنه وامتلاء بطون الكلاب منه، قام الحمالون بنقله وإلقائه في نهر دجلة. ولو لم يكن النهر موجوداً لكان أحدث وباءً في البلد[1]. فالحمد لله على عدم تحقق آمال هذه الحمير المنافقة الذين إن لم

---

(١) «اعتبر ممثل الطائفة اليهودية في سورابايا وممثلها أمام الجنرال مود أن استيلاءه على بغداد جاء بمثابة خلاص للأمة اليهودية بأسرها» ص١٠٩ من كتاب «**دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث**» وفيه أيضاً وثائق بريطانية أخرى عن نفس الموضوع.

يكونوا مشتركين في الدين مع المسلمين، فعلى الأقل أنهم يشتركون معهم في الرابطة الوطنية التي هي مجبولة في طينة بني آدم، بل حتى في طينة الحيوانات، فما الذي يدعوهم إلى أن يكونوا كالعاهرات ينتقلن بين أحضان الرجال يومياً. ولكن أبشّرهم بأنه قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة كي لا يرفعوا رؤوسهم.

في البلاد البريطانية لُقّب مود قائد الحملة على العراق بفاتح العراق حيث دخل بغداد بعد ثلاثة أيام متبختراً[1] وحين أصبح على بعد نصف فرسخ من مقر الحكومة الذي كان خالياً، أطلق عليه من بندقيته رصاصة، ثم دخله بلهفة جارفة ولسان حاله يقول:

أين ذهبت تلكم الحسناوات الرشيقات؟ وأين ذهب أولئك الأُسود والشُّجعان؟

بل سمع عنه قوله علناً: أنا فاتح العراق، وفاتح العاصمة الكبرى للمسلمين. ترى ما الذي حلّ بتلك اليد الطويلة التي ادعى صاحبها ـ مود ـ يوماً أنه مالك الأشتر. إذ لم ينقضِ يومان على ذلك، حتى أغمض عينيه عن العراق وغير العراق، وانتقل إلى جهنم[2]. إلّا أن الإنكليز دفنوا الجثة النجسة لقائدهم هذا حسب المراسم الإسلامية، وأقاموا له ضريحاً أمام المرقد المعظم للإمام موسى ابن جعفر عليه السلام. كما بنوا له مزاراً كي يحرقوا قلوب المسلمين من سنّة وشيعة، بل ليقتل الهمّ علماءهم ويموتوا كمداً. وقليل ما هم، ولكن أكثرهم لا يفقهون.

المنطقة كلها تحت الاحتلال:

احتلت فرنسا بلاد الشام، واحتل الإنكليز العراق من الموصل إلى حدود كركوك، وبذلك أطبقا على المنطقة، كما خرجت جزيرة العرب بأسرها من أيدي العثمانيين الذين لم تكن لهم عليها سيطرة تامة. وكان مثل الفرنسيين في احتلالهم بلاد الشام مثل قيصر الروم الذي استغل فرصة حرب صفين فأنزل قواته على سواحل الشام. عندها أرسل له معاوية رسالة قال فيها: يا كلب الروم! اخرج

---

(١) قال العزاوي (٨: ٣٠٠) إن سقوط بغداد على يد الإنكليز كان في ١٧ جمادى الأولى عام ١٣٣٥هـ (١١ آذار ١٩١٦) الساعة ١٢ أذانية.

(٢) توفي مود في حزيران ١٩١٧ مصاباً بالكوليرا. حسن الأسدي ص١٦٨.

وإلّا فواللهِ سأصطلح مع علي وسأقتلعك من ملكك كما يُقتلع الجزر من الأرض الرطبة، وأجعلك راعياً لقطيع من الخنازير.

وبتلك الرسالة المليئة بالغيرة فرّت الجيوش الرومية حتى دون أن تلتفت وراءها. فانظروا كم هو الفرق بين هذا وذاك. حيث آل أمرنا نحن الشيعة إلى التحسر على قائد واحد كمعاوية، أو خالد بن الوليد، أو مالك الأشتر، وهاشم المرقال، وعمر بن الخطاب، فلم نحصل عليه. إلّا أن الإيرانيين قد وجدوا مالك الأشتر فليؤيده الله. وقد يتبادر للذهن بأنهم وهم بدون قوة واستعداد كانوا ضعفاء مثلنا في هذه الفترة ولا يقدرون على عمل شيء. والجواب هو أن قوتهم في ذلك الزمان كانت تكمن في العمل بهذه الآية فقط: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1] إلى أن يواسي في النتيجة عباد الدنيا بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[2] وإن هذه الآية الكريمة موجودة الآن في القرآن ولم تنسخ. فلماذا لا يُفسّرها العلماء، ولماذا لا يدوّنون هذا الواجب في الرسائل العملية؟ ولم لا يحضّ الوعاظ من فوق المنابر على هذا الأمر الواجب ويتوعّدون من لا يعمل به. وإذا كانت جميع الواجبات الأخرى يمكن أن تحدّ بوجود أقل حرج وعسر، فإنّ وجوب هذا الواجب يمتدّ على قدر الاستطاعة، لأن الهدف منه حفظ الدين والبيضة. وحفظ البيضة منوط بالأمان. وحين تقع الدولة بأيدي الأجانب يرتفع الأمان. وعليه فإن الواجب يحتّم إعداد القوة. هذا الإعداد الذي يشمل الجانبين المعنوي والمادي، وعلى هذا فإن وجوب الخدمة العسكرية والقناعة وعدم الإسراف والتبذير في النفقات، وتعلّم صناعة الأسلحة هو من القوى المعنوية التي ليست عندنا الآن، بل نفرّ منها حتى أن بعض العلماء ـ واستمالة للعوام وإرضاءهم ـ يمنعون عنها. وبدلاً من الأمر بهذا الواجب، يأمرون بالمستحبات التي هي غير خالصة من الشوائب.

وكما أن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «وكان الخضاب من القوة». فينبغي لعلماء العصر أيضاً أن يقولوا إن المدفع والرشاش والسفينة والدبابة من القوة.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠. (٢) سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

ولقد سُمع مراراً وتكراراً من بعض المعمّمين قولهم: إن هذه المسائل منوطة بالإمام المهدي. أو أنهم يقولون إن الله قد تكفّل بحفظ دينه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١). وهم مخطئون في ذلك. فالله كان موجوداً أيضاً في زمان النبي ﷺ وعلي ﵇. وتعهّد منذ البداية بحفظ دينه. فلماذا تحمّل النبي ﷺ كل تلك المشقات، وإعداد الجيوش في ذلك الجوع والظمأ تحت رحمة رياح سموم تلك القفار الوعرة للحجاز! ترى ألم يكن لديهم نساء وأطفال؟ ألم يكونوا راغبين في الاستراحة والاسترخاء في ظل النعيم؟ ألم يكن الله سبحانه قادراً على أن يُصيب قلب عمرو بن عبد ودّ العامري بمرضٍ ما فلا يستطيع ركوب فرسه؟

نعم. إن الله تعهّد بحفظ دينه بواسطة المؤمنين الذين لا ينبغي لهم أن يكونوا كبني إسرائيل الذين قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٢).

إن الله يحفظ الذكر بواسطة واحد ذي عزم وهمّة. كان لا بدّ من وجود شخص كعلي ﵇ يعاهد نفسه أن لا يلقي الرداء عن كتفيه حتى يجمع القرآن بالشكل الذي أُنزل فيه، حتى لو سُلبت منه الرئاسة والسلطة، أو أحرقوا باب داره، أو ضربوا زوجته الكريمة ابنة النبي ﷺ. وليس حفظ الذكر أن أصون نفسي من الحرّ والبرد، هادىء البال، بأن عمود الدين وعيون المؤمنين قريرة بي. وأتمتع باللباس الفاخر والغذاء الدسم لتظهر علي آيات جمال وجلال الديانة. كما ينبغي أن يكون لي القصر المنيف ومستلزماته الرائقة، كي أحافظ على عزة الدين.

لقد أعدّ أولئك لكل غنيمة من مغانم الدنيا أو هوًى من أهواء النفس ولكلّ هدفٍ من الأهداف الفاسدة حيلة يحتالون بها، وأسموا الدنيا الصرف بالآخرة كي يتحقق فيهم ما سمع وشوهد من أن: «الدنيا والآخرة ضرّتان لا تجتمعان». وهما كالمشرق والمغرب، كلما بعد عن أحدهما؛ قرب من الآخر. وأنه «إذا كان محباً للدنيا فاتهموه في دينه».

إن كلّ ذلك إنما هو لتضليل العوام الذين هم كالأنعام الذين لا تدوم رئاستهم

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.
(٢) سورة المائدة، الآية ٢٤.

إلّا أياماً قليلة. ووالله إنهم يسيرون في الطريق المعوج، وإنهم يعلمون ذلك. وإن الدين ليس في الألفاظ الفارغة. فقد قيل: «الإيمان كله العمل» وإن استخدامهم الدين للأهداف الدنيوية الصرف إنما هو افتراء على الله والرسول. والافتراء على الله كفر: «الناس كلهم هالكون إلّا العلماء. والعلماء كلهم هالكون إلّا العاملون. والعاملون كلهم هالكون إلّا المخلصون. والمخلصون في خطر عظيم وخوف شديد». أي أن الأمر صعب جدّاً على العلماء، وغفلتهم أكثر ضرراً من الجميع ـ فليحفظهم الله ـ وقد كلفوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١). بينما هؤلاء قدموا إطاعة أنفسهم، (وإنما النهي بعد التناهي). حيث أهملت كل هذه الواجبات، ولم يعودوا يفكرون بها. بل تعلّلوا بأعذار غير منطقية ليريحوا أنفسهم. وبديهي أنّ الاطمئنان للعواقب منوط باليقين. فكلما ازدادت المعرفة على أي مستوى؛ ازداد الخوف من عواقب الاعتماد على وعود الشيطان الكاذبة والاتكال عليه. وإنّ منتهى الجهل أن يتّكل الإنسان على الوعود العرقوبية لعدوّه، ويعتقد أنه يريد له الخير. إذاً، فأولئك ليسوا هم العلماء حملة العلم الحقيقي. لأن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء، ويهتف بالعمل، فإن أجاب وإلّا ارتحل.

الإنكليز يثبّتون دعائم حكمهم:

بعد أن دخل الإنكليز بغداد، وأخرجوا العثمانيين ـ بعد حرب قصيرة ـ من سامراء، انهمكوا في إدارة دفة الحكم وشؤونه في العراق. إلّا أنهم تركوا النجف وكربلاء لمدة سنة ونصف بيد العرب، فلم يتعرّضوا لهم بشيء: فكان الوضع كما لو كانت فيهما دولة مستقلة وقد أُديرت كما كانت عليه أيام الدولة العثمانية، حيث كانوا يجبون الضرائب والرسوم الجمركية لمصلحتهم، كما حافظوا على الأمن والنظام في المناطق التي يديرونها.

احتلال على مراحل وبدهاء:

وبعد سنة ونصف من حكم المسلمين لكربلاء والنجف والكاظمين وسامراء،

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

نصَّب الإنكليز في تلك المدن حكومات لإدارة العتبات المقدسة التي لا ينبغي لكافر أن يحكمها! كما قاموا بإجراء الترميمات في المواضع الخربة من مسجدي السهلة والكوفة، وخصصوا لإنارة المسجدين المذكورين حصة من النفظ. وعيّنوا لخدامهما رواتب شهرية كي لا يؤذوا الزوار كما كانوا في السابق. كما خصّصوا خلال شهر المحرم السكر والشاي للمجالس والتعازي الحسينية. وقد ألقموا تدريجياً في الأفواه أن يقوم الناس بالدعاء لهم. كما وضعوا على ألسن أجلاف العرب: أن عيسى عليه السلام أفضل من محمد صلى الله عليه وآله إذ إن لقب عيسى هو روح الله بينما لقب محمد هو حبيب الله. والروح مقدمة على الحبيب. لأن للحبيب غيرية وثنائية. وقد أثاروا هذا الإشكال على الطلاب.

قلت: يا عديم الغيرة والدين! كلنا روح الله بمقتضى الآية الشريفة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1] إن الخصوصية التي في عيسى هي ما قاله وهو صبي في المهد ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾[2]. وقد نظر الحق تعالى إلى أنبيائه فاختار من بينهم له حبيباً أكرمه أول ما أكرمه بالإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[3].

إن بين قمري (حبيبي) والقمر الذي في السماء فرقاً يمتدّ ما بين الأرض إلى السماء

توالي الخِدع الإنكليزية:

ومن الأعمال المهمة التي حاول الإنكليز بها جذب قلوب المتعصبين الجهلة، وقصموا بها ظهر الإسلام في تلك الأيام، هي المبلغ الذي يأتي من الوقف الهندي ومقداره ٢٤ ألف روبية شهرياً كي يوزع بين المجتهدين في النجف وكربلاء مناصفةً[4]. فلم يكن الإنكليز يعطونه للمجتهدين بحجة أنهم لا يعطونه لفقراء الطلبة. وعليه فقد كانوا يرون أن يوزعوه هم ـ أي الإنكليز ـ بأيديهم. وقد خصّصوا لذلك دائرة خاصة لتقسيم الاثني عشر ألف روبية ـ حصة النجف ـ فكان يذهب إليها أولئك الذين ارتدوا لباس أهل العلم لتحقيق مآربهم الدنيوية بوسيلة

---

(١) سورة الحجر، الآية ٢٩.
(٢) سورة مريم، الآية ٣٠.
(٣) سورة الإسراء، الآية ١.
(٤) وقف أوده: انظر ما كتبناه في مقدمة الكتاب.

أو أخرى ليسجّلوا أسماءهم في دفتر (مالك) خازن جهنم كل شهر، ويقبضوا بذلّة تلك الدراهم المعدودة منهم، ويرفعوا أيديهم بالدعاء الحار لمن يعطيهم بحضوره وغيابه. ولقد ارتأى أولئك المتعصبون الجهلة، بل الكافرون، بل المنافقون، بل مكروبات وحشرات الأرض، تقديس الإنكليز، لأن أيديهم كانت سخية، ويقيناً أنهم من أهل الرحمة! ولعن العثمانيين الذين لا دين لهم، وأنّى لهم أن يصلوا رتبة التقديس بمجرد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ التي لا يجودون معها بشيء، مبتغين من ورائها الدخول في جمهور المسلمين. بينما كان حضرات الإنكليز يقظين، ولذا فقد كانوا ينفقون.

كانوا يرمّمون الآثار الإسلامية الخربة التي لم يكن أحد يفكّر بها، وكأنهم كانوا يفكّرون ليل نهار بالإسلام وترميم زوايا مسجدي الكوفة والسهلة، وتعيين الخدام لهما، وتخصيص نفط للإنارة، وتشجيع إقامة المجالس الحسينية. وتوفير النفط الأسود المتخذ لمشاعل مواكب مسيرات العزاء، وتعيين الحراس ليرافقوا تلك المسيرات حتى الصباح. اللهم العن العثمانيين، بل المطالبين بالدستور والديمقراطية، الذين دأبوا على ذم الإنكليز فأوقعوا الشبهات في أنفسنا. لقد نجونا الآن من تلك الشبهة، ولن نستمع إليهم بعد اليوم. ونرى أن غيبة الإنكليز محرمة. اللهم أدم ظلهم الوارف على المستضعفين!!.

انظر إلى مبلغ الأربع وعشرين ألف روبية الذي كان يصل إلى المجتهدين، ولا يرى منه فقير حتى نصف روبية، كيف أنهم باتوا يوزعون بأيديهم اثني عشر ألف روبية شهرياً لفقراء الطلاب الذين لم يكونوا يحصلون حتّى على الخبز اليابس. فإذا شبع مائة ألف جائع شهرياً، فإنهم يشبعون ما يزيد على مليون إنسان جائع سنوياً. وقد قال النبي ﷺ: «إن من أشبع إنساناً واحداً وجبت له الجنة». وبطبيعة الحال فإن لهؤلاء رؤساء أعلى منهم في السلّم الوظيفي قد أمروهم بهذا العمل وهكذا إلى أن يصل الأمر إلى البرلمان الذي صوّت بالموافقة على توزيع هذه المبالغ. وعليه فإن الحديث النبوي بوجوب الجنة لمن أشبع جائعاً ينطبق على جميع أولئك القوم. وإن الخوف حاصل الآن من أن تكون الجنة بأسرها من ضمن المستعمرات الإنكليزية أيضاً، فلا يبقى مكان للمسلمين المستقلين، كما حصل في دنيانا التي نعيشها حيث أصبحت الدول الإسلامية جزءاً من المستعمرات الإنكليزية!.

نفد صبري ولم تعُد لي قدرة على التحمل.

لقد كان ما قاله وما سمعته كلاماً كالجوهر، إلّا أن عمامتك وأثر السجود في جبهتك لا يغطيان ملفك الأسود.

فيا من أنتم أسوأ من الإنكليز! أيها النهروانيون عبّاد البطون! يا قصيري النظر! ليحشركم الله مع الإنكليز يوم القيامة. يا من تدورون حيثما دارت الدنيا كزهرة عباد الشمس، التي تتخذ من الشمس قبلتها، وتحنون رؤوسكم، وتضعون جباهكم على الأرض. (فهو عبد لها ولمن في يده شيء منها). إنه من غير اللائق أن تقولوا أمثال هذا التجديف في حضرة أمير المؤمنين. بل إنّ كلامكم هذا أسوأ من السيوف التي سُلّت عليه في حرب النهروان فمتى يأتي خبر فتلكم أيها الكفار؟ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[١].

وحين رأى الحمار المبطان الذليل أن كلمة الحقّ قد مزّقت الأبهة السحرية لدولة الإنكليز التي اختار ضعيف العقل هذا أن يتحصّن بها، كما يتمزق بيت العنكبوت من أصوله، تزلزلت أركانه وآثر الفرار من ساحة القتال.

ومن البديهي أنّ قبلة الإنكليز ومقياس تحركاتهم وهم يدخلون العراق كانت الدنيا. وبحكم أن الناس على دين ملوكهم، فإن النهروانيين من المسلمين الذين كانت قبلتهم الباطنية هي الدنيا أيضاً قد ظهروا، بل كانوا يتفاخرون وبدون حياء، واتخذوا من سلوك الإنكليز دليلاً على أحقيتهم. فبدأت حرب القيم بين المسلمين أنفسهم وخاصة الطلاب. وكان عدد المؤمنين الذين استقر الإيمان في قلوبهم قليلاً، أمام أولئك الجهلة، وأمام الضرر الذي لحق بالدين من دولة بريطانيا وضغوط صروف الدهر من: الفقر، وتشتت البال، والذل والهوان، وخاصة شماتة الأعداء الذين هم من بيننا:

لم أتأوه من الغرباء إطلاقاً ... فإن كل ما أصابني كان من ذوي القربى

(١) سورة الزمر، الآية ٩.

ولم يكن أمام الإنسان وهو يواجه ذلك السيل العرم، إلّا أن يهيىء جبهته لتلقي الضربات، ويسلّم بدنه ورأسه للقضاء، ويُغمض عينيه، ويتمسك بالعروة الوثقى، ويتقدّم للجهاد والدفاع متحصّناً بالحُصن الحصين لـ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُتذرعاً بمنتهى الصبر والثبات.

وكما أنّ الحرب بين دول الشرق والغرب قد شملت البرّ والبحر، وتصاعد دخانها إلى السماء، فلم تكن الحرب الدينية والأخلاقية التي نشبت في النجف ـ التي كانت كأنها قلب العالم ـ بأقل من تلك الحرب. فقد كانت حرباً بين عاهرة الدنيا التي زينت نفسها بالزينة الكاذبة والشيطنة كبريطانيا العظمى، وبين السيدة النبيلة عروس الآخرة التي تزينت بالصدق والصفاء والكمال الواقعي الدائم والجمال الحقيقي والزينة الإلهية: «الدنيا والآخرة ضرّتان لا تجتمعان». فما الذي يدعو منحرف الطبع وقليل الذوق إلى أن يفضّل تلك الشوهاء على هذه الحسناء؟

نعم. إن الدنيا ساحرة، يُعمي سحرها العيون:

طريق الدنيا جميل مليء بالخضرة والورد   لكن طريق الآخرة كله صخور وأشواك

قال النبي ﷺ: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات».

وبطبيعة الحال فإنه لا يوجد في هذه الحرب المتكافئة رجال كي يكونوا رجال دنيا أو رجال آخرة. إذ يحدث أحياناً أن يقف أحد الطرفين إلى جانب الإنسان فتكون حرباً استعراضية، بينما يحدث في أحيان أخرى أن نرى نحن أنفسنا مغلوبين أمام ما تخطه الأقدار، وقد ظهرنا بزيّ السياح المشغولين بالتفرج على تلك المعركة والضجيج، وكنا نشعر بشعور غريب مثير للضحك وكأننا لم نكن في الدنيا آنذاك حيث نكتشف تفاهة كل ذلك الضجيج الذي يملؤها ويظهر جميع العقلاء كَمَنْ يُمثّلون دور مجانين يتشاجرون من أجل لا شيء، ومع ذلك هم جادّون في حربهم لبعضهم ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ﴾[١].

مرة أخرى قام ثعلب العصر والمحتال الغدار بعزل حكام المسلمين عن إدارة العتبات المقدسة، وعيّن بدلاً منهم حكاماً إنكليز. ولأنّ المعروف عن النجفيين

---

(١) سورة الحديد، الآية ٢٠.

أنهم من شقاوات[١] الدهر وشجعان العراق، فقد اختاروا لحكم مدينة النجف شيطاناً متجسداً في صورة إنسان وجريئاً معروفاً[٢]. واختاروا مقراً لحكومته في أحد الخانات خارج حدود الكوفة. وكان السبب الحقيقي في اختيار ذلك المكان هو الخوف من النجفيين، أما السبب الظاهر فهو كسب المغفلين بالتظاهر أمامهم أنه لا ينبغي للكافر النجس أن يكون داخل النجف حيث مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

رأى العرب أن تكون سياستهم حيال الإنكليز مثل سياستهم مع العثمانيين وهي أن يوجّهوا ضربتهم إليهم كي يلقنوهم درساً يخيفهم ولا يجعلهم يتدخلون في شؤونهم.

التخطيط لقتل الحاكم المحتل:

في إحدى الليالي عقد أربعون من الشجعان العرب المتحالفين، خارج سور مدينة النجف ووسط القبور، مؤتمراً قرروا فيه أن يقتلوا الحاكم، وذلك قبل ليلتين من النوروز. ونظراً لكثرة الزائرين العرب الذين يقدمون إلى المدينة، وبما أن قتل الحاكم سيكون مع الفجر، فلن يُعرف عندها ما إذا كان القاتل من أهل النجف أم من الزوار القادمين للمدينة.

اتُّخذ القرار بأكثرية الأصوات، وتقدم أربعة من المتطوعين لتنفيذ تلك العملية، حيث ظلوا ينتظرون الفجر بين القبور، بينما ذهب الآخرون ودخلوا النجف.

وقبل شروق الشمس[٣] دق هؤلاء الأربعة باب مقر الحاكم، ففتحها الحارس المسلّح، وكان هندياً ليسألهم عما يريدون. قالوا: إن لديهم شكوى ينوون تقديمها للحكومة، وقد قدموا من على بعد أربعة فراسخ. فأمرهم بالانتظار قليلاً

---

(١) الشقاوة وجمعها الشقاوات. تقابل القبضاي والقبضايات في لبنان. والفتوة والفتوات في مصر.

(٢) في تشرين الأول **١٩١٧** م اختير الكابتن بلفور حاكماً سياسياً لمنطقتي النجف والشامية. وقد أرسل فيما بعد الكابتن دبليو. أم. مارشال مساعداً للكابتن بلفور فوصل النجف في اليوم الأول من شباط **١٩١٨** وسكن في خان عطية خارج سور النجف. والمقصود مما ذكره المؤلف هو الكابتن مارشال **حسن الأسدي** ص٢٢٢ و٢٣١.

(٣) تم الهجوم صباح الثلاثاء ٦ جمادى الثانية **١٣٣٦** هـ (**١٩** مارس **١٩١٨**). **الأسدي** ص ٢٤٥.

لأن الحاكم قد أفاق لتوّه، وهو مشغول الآن بغسل وجهه ورأسه بالصابون. فتظاهر بعضهم بالجلوس، بينما هجم واحد منهم بخنجره وقطع رأس الهندي المسكين. وعلى الفور دخل الأربعة دار الحكومة، فرأوا الحاكم ما يزال منشغلاً بغسل رأسه، فأطلقوا عليه عدة عيارات نارية، وتركوه غارقاً بدمه، ثمّ أطلقوا بعدها عيارات أخرى باتجاه الجنود الموجودين هناك، وانسحبوا خارج دار الحكومة بعد أن ألقوا بجثة الحاكم في سرداب هناك. تفرقوا في الطرقات، وذهبوا إلى دكاكينهم وفتحوها، وجلسوا يمارسون أعمالهم. بينما كانت سائر الدكاكين مفتوحة أيضاً والزوار الوافدون منشغلين بالزيارة أو بأعمالهم الأخرى.

التحقيق بالحادث:

أُجري اتصال تليفوني مع الكوفة، فجاء حاكمها وتجول في أزقة النجف وسوقها ليدرس الأمر، فلم يصل إلى معرفة ما إذا كان القاتل من أهالي النجف أم من خارجها. كما شاهد الناس منصرفين بهدوء لممارسة أعمالهم. فلو حدث أن سأل أحدٌ آخر: يقال إن الحاكم قُتل. فإن الآخر يجيبه باللامبالاة: لا أدري. أو: إنني سمعت ذلك أيضاً. ويذهب كلٌّ منهما إلى سبيله.

لم يدرك بلفور المسكين شيئاً من الأمر، وغادر المدينة. إلّا أنه أصدر أوامره للدوريات العسكرية وكانوا من الأكراد الكرمانشاهية الذين كانوا على وشك الذهاب إلى نوباتهم، أن يأخذوا السلاح من كل عربي يحمله تحت عباءته، لعله يجد حلاً لهذا اللغز.

الإنكليز يحاصرون النجف:

التقى اثنان من أفراد إحدى الدوريات بأخوين اثنين من أبناء أحد شيوخ النجف وكانا مسلحين. فطلبا إليهما أن يسلّما أسلحتهما. فقال الأخوان: أنتما مسلمان وشيعيان، ونحن أيضاً مسلمان وشيعيان، فلا ينبغي لكما أن تكونا جادّين إلى هذه الدرجة في أذيَّتنا من أجل الكافر المتحكّم. اذهبا وغضا الطرف عنا.

رد أفراد الدورية الاثنان عليهما: أيها العرب يا أبناء الملاعين! أنتما خونة وتدعواننا أيضاً إلى خيانة الدولة التي نخدمها. هيا سلّما أسلحتكما، إذ ينبغي أن

تُستجوبا بعد ذلك. عندها أشار أحد الأخوين إلى الآخر إشارة، أنزل هذا على أثرها البندقية من كتفه وقال: خذ. وقبل أن ينتبه الشرطيان كان رأساهما قد حُطِّما بالرصاص.

عندما بلغ هذا الخبر بلفور أغلق على الفور باب المدينة من الجهة التي تليه، وزعق طالباً أن يخرج الزوار قبل غروب ذلك اليوم من الباب القريب من البحر، وأن لا يبقى أحد منهم وإلّا قُتل.

غادر جميع الزوار من نساء ورجال المدينة قبل حلول الغروب. بينما اتّخذ مئتا مسلح من أهالي النجف مواقع لهم في سور وبرج المدينة متحصنين خلف اثنين أو ثلاثة من الخنادق التي كانوا يعرفونها خارج المدينة. وعندها ملأت أصوات طلقات بنادق العرب والمدافع الرشاشة الإنكليزية الجوّ بالضوضاء والأرض بالعزاء. فقد كان الرصاص ينهمر كزخات المطر.

أُغلقت الأبواب والمنافذ، وطُمرت الآبار، وأحيطت النجف ـ إضافة إلى سورها ـ بسور آخر من الأسلاك الشائكة: حيث أقيمت أعمدة من الخشب يبعد كل منها عن الآخر عدة أذرع، ثم ربطت جميعاً بالأسلاك الشائكة كي لا يستطيع أن يفرّ أحد من النجفيين، ولا يمدّ أحد يد العون لمن هم داخل المدينة. كما علّقوا على مسافات معينة أجراساً على الأسلاك ووقف أحد الحراس بالقُرب منها، فإذا رن الجرس بسبب تعلق ثوب أحد ينوي عبور الأسلاك الشائكة في الليل البهيم، أطلق ذلك الحارس النار بالاتجاه الذي جاء منه صوت الجرس لقتل المتسلّل.

كما حفروا أيضاً خارج الأسلاك الشائكة خنادق أحاطت بجميع أطراف النجف من خارجها باستثناء مؤخرة البحر، حيث اتخذ ستون ألف جندي لهم فيها مواضع. كما وضعوا ست مدرعات بين سور النجف وسور الأسلاك الشائكة نصب على كل منها مدفع رشاش، وكانت تدور حول النجف بسرعة البرق. كانت أصوات العيارات النارية المنطلقة من الرشاشات تملأ سماء المدينة، وحين ينعكس صداها في طاقات صحن الإمام علي أو قبته أو المآذن، يبدو وكأنه صدى قُبلات. وقد ألّفتُ هذه السورة القصيرة في ذلك الحين حيث رُكّبت آياتها على الشكل التالي:

(وإذا أصابها سمعت صوت تقبيلها كان ذا زائراً وذاك مزوراً. فيا ليتني متّ قبل هذا وما رأيتها منثوراً. فرماتُها عتوا عتواً وكانوا قوماً بوراً).

تجمّع مائتا عربي خلف السور وفي الخنادق، وبدأوا في إطلاق الرصاص. إلّا أنه لم يكن لذلك الجيش إلّا إطلاق الرصاص في الهواء فقط إذ لم يصب أحد بأذى، واستمر الحال على هذا المنوال عشرين يوماً بلياليها. وكان خمسمائة من عرب العشائر قد وصلوا لنجدة النجفيين. ففي منتصف إحدى الليالي وبينما كانت قوات العدوّ قليلة في مؤخرة البحر، حاول أحد أبناء العشائر عبور الأسلاك الشائكة إلّا أن رداءه تعلق بالسلك. وأثناء محاولته تخليص ردائه تحرك السلك فتحرك الجرس المعلق هناك تبعاً لذلك، وأثار انتباه الحارس القريب من هناك، فأطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلاً.

حين رأى الآخرون ما حلّ بزميلهم، تجنبوا الاحتكاك بالسلك، حيث جمعوا مقداراً من التراب ودفعوه قرب السلك حتى شكل تلاً مرتفعاً. ثم رفعوا ثيابهم إلى أعلى وبدأوا يقفزون الواحد تلو الآخر فوق السلك بمقدار نصف ذراع حتى أنه لم يمس أي منهم الأسلاك الشائكة. وهكذا دخلوا النجف. إلّا أنهم حين رأوا أن لا فائدة من مقاومة النجفيين، انسحبوا من المدينة في منتصف الليلة الثانية.

وهكذا فقد أقام العرب لهم متراساً خارج سور المدينة من تلٍّ ترابي كان قد تجمع لسنين طويلة حتى أصبح كالجبل في ارتفاعه وكان يُدعى المقلاع.

وقد نقل عن كاظم صبي ـ وهو من شقاوات النجف ـ وكان مسؤولاً عن ذلك المتراس قوله عن المدرعة الإنكليزية: مهما أطلقنا من رصاص عليها فلم يكن ليؤثر فيها، وقد ركضنا خلفها مرة أو اثنين محاولين الإمساك بها، فكانت تفرّ كالبرق فلا نستطيع الوصول إليها. وأضاف: هاي فرد بِلّيّة مثل الخنزير تركض! شمدريني شنسوي[١].

وعلى هذا فقس شجاعة العرب.

---

(١) الجملة بالعامية العراقية وتعني: إن هذا بلاء يركض كالخنزير، لا ندري ماذا نفعل معه.

وكان العرب قد تحصّنوا في سطح أحد الخانات الواقع خارج النجف حيث مقرّ الحاكم الإنكليزي قريب من هناك ـ وهو المقر الذي قتل فيه الحاكم قبل أيام ـ تفصلهم عن الإنكليز ومخزن أسلحتهم الموجود هناك مسافة مائتي متر من الأرض المكشوفة.

محاولة لمهاجمة الموقع الإنكليزي:

وكان الحاج نجم ـ وهو أساس هذه الحركة ورئيس ذلك المتراس ـ قد فكّر بحيلة، وذلك في إحدى الليالي المقمرة. فقد كان لمقر الحكومة بابان، كانت المقابلة منهما للعرب مغلقة، وكان الجيش الإنكليزي قد تحصّن على سطح المقر. قال (الحاج نجم) لرفاقه: سأحرق هذا الباب، وحين ينفتح ادخلوا بسرعة علّنا نستولي على مقر الحكومة المليء بالعتاد.

لفّ حول بطنه قربةً مليئة بالنفط وشدّ على ظهره سعفة يابسة بحيث كان رأسها متجهاً إلى أعلى، واتجه نحو مقر الحكومة، وهو يسير على يديه ورجليه مرتدياً ثوباً أبيض قد مزّق أذياله ولفها حول رجليه. كان يسير بشكل معوج مطأطئاً رأسه، مظهراً أنه كلب يبحث عن عظم، وكأنه يقول هذا لوني الأبيض، وهذا ذيلي الصلب وهذا ثديي المليء بالحليب. وهكذا كان يسير على مرأى من الجنود الذين وقفوا على السطح مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة ليرموا أي سواد يرونه. كان يهرول حيناً ويبطىء سيره في حين آخر، مرة نحو الشمال وأخرى للجنوب. كل ذلك وهو يتشمم الأرض حتى بلغ الباب المغلق للمقر. ولشدّة ما ضحك رفاق هذا الكلب من حركاته، فقد بلغت أصداء ضحكاتهم مسامع الجنود الإنكليز الذين على الرغم مما كان لهم من الاستعداد والقوة فإن خمسة أو ستة من العرب المعدمين يقفون بوجه تلك القوة التي زلزلت العالم ولا يعيرونها اهتماماً، بل يستهزئون بها. ففكّروا في أن هؤلاء إما أن يكونوا حميراً أو شياطين.

كان الجنود على السطح مندهشين، بينما كان الحاج نجم يقتلع ذيله عند الباب، ويفتح قربة النفط، ويضرم فيه النار حيث تصاعدت ألسنة اللهب من الباب ووصلت سطح الخان. عندها تيقن الجنود أن أولئك شياطين وليسوا حميراً.

هرع الجنود إلى نزول السلم، وهم يطوون كل درجتين بقفزة واحدة بصخب. واتجهوا بهلعٍ من وسط الخان إلى سردابه العميق، بعد أن نزلوا أكثر من ستين درجة، واجتمعوا هناك حيث ملأوا السرداب وسلمه، ولم يبق وسط الخان إلّا رئيسهم.

ظلّ الحاج نجم(١) ينتظر انهيار القفل الخشبي للباب الموجود خلفه ليفتحه كما ظلّ رفاقه ينتظرون إشارته. بينما كان قائد الجنود يشتم ويتهدّد ويتوعد جنوده: تعالوا واطفئوا النار قبل أن يحترق الباب، يا من لستم بالرجال! يا أبناء الملاعين! تعالوا قبل أن يصبح السرداب مقبرتكم. فتجرأ بعض الجنود وبدأوا يرشون النار بالماء من داخل الخان بينما وقف الحاج نجم من الخارج وهو يركل الباب برجله علّه ينفتح قبل أن يكمل احتراقه. واستمر الأمر هكذا إلى أن زاد عدد الجنود الذين يرشون الماء على النار، وتمكنوا في النهاية من إخمادها. وعاد الحاج نجم إلى موضعه يائساً.

تبعات الحصار على الناس:

أما حال الأهالي خلال مدة الحصار فقد كان صعباً للغاية، وابتلي الناس بعُسرٍ شديد. فبالإضافة إلى خوفهم ورعبهم من عواقب الأمر من قتل وإغارة وما يفعله هذا الكافر عديم الدين، والشيطان عديم الرحمة الذي لا يردعه رادع، فقد عاشوا أوقاتاً صعبة لقلة المؤونة والطعام وماء الشرب ومستلزمات الطبخ. ولأن هذا الحصار قد وقع فجأة، فإن أحداً لم يكن قد فكّر في الاستعداد له، حتى الكسبة والتجار، وخاصة بالنسبة للماء الذي كان ينبغي للسقائين أن يأتوا به من خارج المدينة، إذ أصبح معدوماً. أما العرب الذين كان بإمكانهم أن يشربوا من ماء البئر المالح، فقد كانوا يضعون ما كان لديهم من الماء الحلو الذي يقدّر بمنٍّ أو منّين في جرارٍ فخارية لا تتسع أحدها لأكثر من مَنّ ماء كي يبيعوا الواحدة منها بتومان واحد، يشترون به طعاماً لهم.

---

(١) الحاج نجم البقال هو أحد المهاجمين الأربعة الذين قتلوا الكابتن مارشال وقد أعدم فيما بعد ضمن من أُعدموا من زعماء ثورة النجف.

وقد ابتلي أبناء الوجهاء والأطفال بالإسهال جراء تناولهم الماء المالح. ووقف أحد أبناء الوجهاء أولئك في منزله الذي كان مقراً للشخصيات المعروفة ـ وكنت أذهب أحياناً إلى هناك استهلاكاً للوقت ـ وأمسك بيده قدح شاي وأقسم أنه مستعد لشراء القدح الواحد من الماء بقرانين، فمن كان لديه فليعطه إياه.

كان لدينا حين أُغلقت أبواب المدينة وبدأت الحرب، حباً من الماء الحلو. وقد حلّ أحد أبناء المدينة مع عياله لخوفه ضيفاً عليّ، وكان لديهم نصف حبّ أيضاً. فجمعنا الاثنين في حبّ كبير آخر. وكنا نذهب يومياً إلى مقبرة الميرزا حسن الشيرازي لنملأ برميلاً أو اثنين من عين ماء هناك نسبة الملوحة فيها أقل من غيرها. نحتفظ به لطبخ الرز. وقد أقسمنا كما هدّدنا الأطفال أن لا نستخدم الماء الحلو إلّا للشرب وإعداد الشاي. وقد أعطينا جرة من ذلك الماء إلى أحد الأصدقاء الذي أصيب طفله بالإسهال، فأخذته تحت عباءتي وكأنني أخفي كيساً فيه ألف ليرة. كما حملت جرتين أخريين لبعض الأصدقاء الخلّص الذين كانوا في المدرسة.

أما الطعام، فقد استطعنا خلال ثلاثة أو أربعة أيام أن نجد مخبزاً واحداً يبيع الخبز، وكان يبيعنا الخبز سواء أكان تام النضج أم متوسطه. ووقفت منذ الصباح حتى الظهر حتى تمكنت من شراء كيلوغرام واحد من الخبز بعد المشقة والعناء بثلاثة عشر قراناً. وذهبت بعد ذلك مرتين إلى دكان الخباز إلّا أنه أُغلق.

حتى الرز طالته السياسة البريطانية:

اشترينا أيضاً خمسة أمنان من الرز الهندي. إذ إن الإنكليز قد حملوا كلّ ما استطاعوا حمله من الرز العراقي إلى بلادهم، والذي قُدر آنذاك بخمسة وعشرين ألف طن. وجلبوا بدلاً منه الرز الهندي ذي الرائحة الكريهة، وكان ثمن الحقتين من الرز ليرة واحدة. كان رخيصاً فاشتريناه وطبخناه في الماء الذي نأتي به من العين. وبعد ساعة من الفوران يصبح ليناً نستطيع مضغه بأسناننا. وكنا سعداء به إذ إنه أصبح قوتنا. كما استعضنا عن السمن الذي فُقد تماماً من النجف، بالزيت الذي نستخرجه من السمسم بعد دقّه بالهاون، ثم نغليه في الماء ونضع فيه قليلاً من الماش أو العدس ليصبح كالمرق، نصبّه بعدها في كاسة تضعها قرب الرز

على المائدة وكأنه مرق (الفسنجون)[١] ثم نغترف منه بالملعقة شيئاً نضعه على الرز الكريه الرائحة الذي لم ينضج تماماً، ليقوم مقام السمن والمرق معاً. وقد نستعيض عن المرق أيضاً بالتمر الخستاوي[٢] الذي كان جيداً ورخيصاً أثناء فترة الحصار، بحيث أنّ لم نشاهد في هذه الفترة شيئاً جيداً ورخيصاً في آنٍ واحد إلّا الخستاوي هذا، وربما كان هو القوت الوحيد للعرب الفقراء، لأنه كان غذاءً وإداماً في آنٍ واحد ولا يحتاج للطبخ حيث لم يكن يوجد أثر للحطب والفحم، وكان وقود الناس يقتصر على الأخشاب التي يحصلون عليها من الصناديق أو الشبابيك والأبواب وخشب السقوف المحطمة وأمثالها. وكان كثير من الفقراء يبيعون تلك الأشياء لتستخدم حطباً بقرانين أو ثلاثة للمنّ الواحد ليحصلوا على ما يعيشون به.

طلبت زوجة جاري ـ وكان سقّاءً فقيراً له طفلان أو ثلاثة ـ من زوجتي أن لا نلقي بالماء الذي نطبخ به الرز، بل نعطيه لها لتعدّ منه غذاء لأطفالها. وحين سمعت ذلك تأثرت كثيراً، واقتطعت شيئاً من قوتنا وأرسلته إلى أولئك المساكين.

وبالعودة إلى التمر الخستاوي فقد كان السبب في رخص سعر ذلك التمر اللذيذ هو أن أحد التجار كان قد اشترى كميات كبيرة منه ليبيعها بسعر مرتفع فيما بعد ويحقّق منها أرباحاً. إلّا أنه عندما رأى شدة تأثير الحصار على السكان جاء بأحمال التمر ووضع كل حمل أو اثنين على رأس أحد الطرق، وطلب إلى واحد أو اثنين من العرب أن يبيعوه للناس بنفس القيمة التي كان قد اشتراه بها. وأما أرباحه فقد آثر أن يأخذها من الثواب الأخروي. وهي أرباح عظيمة في رأيي.

الجوع سبب الالتذاذ بالطعام:

وإنما كان ذلك التمر لذيذاً جداً بسبب يأس النفوس من العثور على ما هو أفضل منه. وإن ألذّ وأفضل الأغذية هو ما أُكل على الجوع. فمثلاً إذا أكلتَ قرص شعير وأنت جائع فستراه ألذّ طعماً من الرز المزعفر الذي تأكله وأنت غير

---

(١) أكلة نجفية عبارة عن مرق مكوّن من لحم الدجاج مع عصير الرمان ولبّ الجوز المبروش.
(٢) من أنواع التمور العراقية.

جائع. وقد ورد في الأخبار أيضاً شيئاً يدل على هذا وهو: «واجعلوا إدامكم الجوع» وقد جربت ذلك حين عودتنا من كربلاء، عندما اشترينا من إحدى القرى رغيفين من الشعير، واستسغنا طعمهما كثيراً، وقررنا أن نشتري منه حين نصل النجف. إلّا أننا لم نستطع أكله بعد أن اشتريناه مرة في النجف. إضافة إلى أن هضم الطعام يتمّ بصورة أسرع في حالة الجوع دون أن يُحدث أذى للبدن.

وعلى الرغم من أن مرضَي (المحرِقة) و(المطبِقة)[١] كانا شائعين في فصل الربيع بين الناس، وازداد عدد من كانوا يموتون بهما، إلّا أنه وفي هذه السنة، وبالرغم من تناول هذه الأطعمة البسيطة والتمر بكميات كثيرة، لم يصب أحد بهذين المرضين، فضلاً عن الموت بهما. ويعود السرّ في ذلك إلى أن أكل الأطعمة كان يتم على الجوع. قال النبي ﷺ: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء».

وحدث مرة أن عُدت من كربلاء ماشياً، وكانت معي أم زوجتي التي أركبتها على بغل، ولم أكن قد تناولت ـ كعادتي ـ طعام الإفطار. وحين سرت مع القافلة مسافة أربعة فراسخ، وبزغت الشمس أحسست بالجوع. وبما أنه لم يبقَ للوصول إلى النجف سوى ثلاثة فراسخ فلم أعر الأمر أهمية حتى بعد أن وصلنا أول الصباح إلى أحد المقاهي التي كان فيها التمر (الزهدي)[٢] موجوداً، إذ إنّ المتبقي من الزمن حتى النجف هو ساعتان أو ثلاث. ولم نكد نقطع فرسخاً حتى اشتدت بي وطأة الجوع بحيث عرقلت سيري، وبدأ الضعف يدبّ في ركبتيّ، فتخلفت عن المكارين، وحين وصلت مجموعة من الزوار الإيرانيين راكبي البغال ممن كانوا خلفنا، كنت خجلاً من أن أسألهم شيئاً من الخبز. إلّا أنني حين لم أجد بدّاً سألت أحدهم، فأجاب: ليس لدي خبز.

وحين رأى اضطرابي قال: يوجد في طيات سماط الطعام شيء من فتات الخبز اليابس وغير الناضج والمحترق، فإن استطعت أن تأكله فخذه. كما كان لديه قطع من العظام وقشور البصل ونوى التمر.

---

(١) المحرقة: التيفوئيد. والمطبقة هي الحمى التي تتواصل ليلاً ونهاراً (ش).
(٢) من التمور العراقية ويمتاز برخص سعره.

فأمسكت بأطراف ثوبي وقلت: القِ ما عندك كي أرى.

فقال آخر: يوجد في سماطي أنا أيضاً مثل الذي لدى صاحبي. وهو غير قابل للأكل.

قلت: القِ أنتَ أيضاً ما عندك. ومهما يكن فهو جيّد. وبعد أن أفرغاه مددت يدي ودون أن أنظر ما فيها كنت ألقيها في فمي، ثم طحنتها بسرعة، وكانت هناك قوة جاذبة تسحبها إلى أسفل، فحولتها فوراً إلى (كيلوس)، ومن ثم إلى (كيموس) يذهب من هناك إلى سائر أعضاء البدن. كنت أشعر أن كل لقمة تنزل إلى جوفي تزيد من قوة ركبتيّ وقلبي. وكان في ذلك الطعام من اللذة مما لم أكن قد تذوقت مثله في أفضل الأطعمة. عندها فهمت مضمون الأخبار التي قالت إنّ أفضل أنواع الإدام هو الجوع وإنّ البحث عن ألوان الأطعمة إنما هو ناشىء من الجهل والوساوس الشيطانية. وبعد أن أنهيت تناولي لفتات الخبز استطعت اللحاق كالغزال بالمكارين الذين كانوا قد سبقوني بنصف فرسخ.

وقد عُدم تماماً اللحم والسمن في ذلك الحصار الذي كان صعباً على أهالي النجف. وسمعت أنّ القصابين قد دفعوا تسع ليرات ثمناً لعنز كان صاحبه قد اشتراه بخمسة وأربعين توماناً، فلم يوافق على بيعه.

حمار عليل يقضي الحاجات:

ومن الحوادث المعروفة أن أحد الحمير قد أُصيب بشلل في ظهره جعل صاحبه يتخلى عنه. فكان يسحب نفسه إلى هذا الطرف أو ذاك لعدة أقدام في أحد الأزقة المحيطة بمسجد الهندي. وقد حل الإقبال عليه فواتاه الدهر وطلع نجم سعده حيث أصبح لنساء النجف اعتقاد فيه. فكانت كل واحدة منهنّ تجلب إليه على قدر استطاعتها من الشعير والتمر والعلف نذراً أو سدّاً لحاجته. ولم يكن استطاع بعد سنة ونصف أن يتحرك في الزقاق لما يزيد على عشرين قدماً، إلّا أنه أصبح مشهوراً لدى اصحاب العقول الناقصة ليقضي لهم حاجاتهم بواسطة ما يقدّمونه له من نذور. وقد فقد أثر ذلك الحمار الذي أصبح بديناً جدّاً في الأسبوع الأول للحصار.

أما الوجهاء الذين دأبوا على تناول لحوم الحملان والخراف فقد قنعوا بالماعز الذي كان سعر المنّ الواحد من لحمه أكثر من ستة تومانات وكان نادراً أيضاً. بل أُكل حتى الحمار الذي كان للنساء اعتقاد فيه إضافة إلى كونه حماراً.

فتح أبواب المرقد:

كانت أبواب صحن الإمام علي عليه السلام كباب الحرم قد أُغلقت منذ الأسبوع الأول للحصار، خشية أن يتخذ العرب المسلحون مواضع لهم في المنائر مما يؤدي بالأعداء إلى ضرب المرقد الشريف. وقد تجمع عدد من الوجهاء طالبين إلى سادن الروضة أن يفتح أبواب الصحن كي يستطيع الطلاب والكسبة العاطلون عن العمل الذين استولى عليهم الانقباض والضجر أن يقضوا ساعة من الوقت في الصحن يتحدثون فيها ويسلّي بعضهم بعضاً. وقد رفض السادن هذا الطلب متعلّلا بالخشية من اتخاذ العرب لهم مواضع في منائره. وقد شوهد العرب وهم يقولون: إننا أولاد علي، ولن نكون سبباً في إهانة كهذه للمرقد الشريف، إضافة إلى أننا لو أردنا أن نتخذ من الصحن متراساً نتترس به، فلن يكون مُمكناً إغلاق الصحن بوجوهنا حتى لو أدى ذلك إلى قتل السادن نفسه. وإن في فتح أبواب الصحن فوائد حيث يجلس السادة والكسبة يبثّون همومهم إلى بعضهم، كما يبثّون شكواهم إلى الإمام علي عليه السلام علّه يعين على رفع هذا البلاء.

فُتح باب الصحن، وبدأت أفواج الطلاب والكسبة ليومين أو ثلاثة يتوافدون عليه، ويتجمعون، ويسلّي بعضهم بعضاً. وكان يحدث أحياناً أن تطلق المدافع الرشاشة للعدو عدة إطلاقات، فتصيب بعضها أعلى باب الرواق والمنائر والقبة ويتساقط الذهب منها.

إعادة إغلاق المرقد الشريف:

وحدث مرة أن ارتقى أحد المنابر المنصوب في الرواق شيخ كاشي كان فيه شيء من لوثة عقلية، وكان حوله مجموعة من الناس المتعطشين لسماع مجلس حسيني. بدأ حديثه بالنصائح والمواعظ وأحاديث النار والجنة، ثم أضاف قائلاً:

إن السادن اللعين قد ارتكب حماقة بإغلاقه باب الحرم وسد طريق زيارتنا نحن المؤمنين. فينبغي علينا أن نكسر باب الحرم وندخل للزيارة. ونتجه بعد ذلك لحرب الكفار وإخراجهم من وادي السلام الذي هو الجنة، ونبعدهم عنه، بل نطردهم من العراق ونلقي بهم في البحر. استولت الدهشة على العوام والفقراء الذين كانوا يستمعون إليه حين رأوه يخرج من تحت عباءته مطرقة ومثقباً وينزل من المنبر مندفعاً نحو باب الحرم، ويضع المثقب في قفله، ثم يهوي عليه بالمطرقة ليكسره. فهبت مجموعة من خدام الحضرة الذين كانوا موجودين هناك حين سمعوا أصوات ضربات المطرقة، وأمسكوا بالشيخ وسحبوه من رجليه إلى خارج الصحن. وأعقب ذلك إغلاق باب الصحن بعد إخراج الناس منه. وهكذا فبعد أن فتح شقاوات العرب باب الصحن للمؤمنين، أغلقه هذا المعمّم. وحين ينعدم العقل تعاني الروح من العذاب.

هجرة واعتقال:

ومنذ أن أغلق الصحن كانت أيامنا تزداد ظلاماً وصعوبة. وفي أحد الأيام أخذ الميرزا أحمد وهو النجل الصغير للمرحوم الآخوند إذناً من قيادة جيش العدوّ بالسماح له بمغادرة النجف للذهاب إلى السَّهْلة والإقامة مع أخيه الأكبر الميرزا المهدي فسُمح له بذلك. حيث قام بحمل شيء قليل من المتاع، واستأجر عربة ذهب فيها مع زوجته وخادمتها متجهين إلى الكوفة. وعند خروجه قام أحد الموظفين في الكوفة بأخذ كتاب من متاع الميرزا أحمد وحين فتحه وجد فيه ورقة فيها فتوى بتوقيع المرحوم السيد مصطفى الكاشي بهذا المضمون:

(يجب على المسلمين الدفاع عن بلاد المسلمين، والجهاد ضدّ الكفار المهاجمين).

وعلى الرغم من كون الفتوى المذكورة كانت قد صدرت أيام الحكم العثماني، إلّا أن عدم وجود تاريخ فيها جعل موظفي الحكومة ينزلون الميرزا أحمد من العربة، ويضعونه في قفص حديد، ولم يتمكن أخوه الميرزا مهدي من تخليصه إلّا بعناء شديد، بعد أن اشترطوا عليه أن لا يغادر السهلة لمدة سنة كاملة.

الماء من السماء:

وبعد سبعة عشر يوماً من اشتداد الحرب وشحة مياه الشرب في النجف، ظهرت ـ وبرحمة من الحق تعالى ـ في السماء عدة قطع من الغيوم. عندها قام الأهالي بتغطية فضاءات البيوت بالستائر وقطع القماش ووضعوا في وسطها قطعة حجر كي يتجمع المطر فيها إذا انهمر. كما وضع تحت تلك النقطة وفي وسط البيوت إناء أو نحو ذلك. وحتى اليوم العشرين للحرب لم يأت المطر، وظل الناس في الانتظار. وما أن حلت الليلة العشرون حتى انهمر المطر بغزارة فملأنا الحُباب من الماء الصافي ومن الماء الكدر الذي نزل عبر المزاريب. وأصبحنا مطمئنين من ناحية الماء نسبياً، إلّا أن الصعوبة ازدادت بالنسبة للوقود والمواد التموينية لأن الطعام يحتاج إلى الطبخ، وقد انعدم وجود الحطب والفحم، فكنا نستخدم ما نكسره من خشب الشبابيك والأبواب والأعمدة والصناديق والكراسي للوقود. فالنار نعمة كبرى، وكذلك الماء والهواء والتراب، لأن الإنسان بطبيعته مخلوق منها، ومتصل بها لدى تحلّله أو ذوبانه. ولا بدّ أن يكون له مدد متصل بها وإلّا مات. وكذلك روح الإنسان فهي محتاجة للغذاء أيضاً، وغذاؤها العلم والعمل والأخلاق الكريمة، فإن لم يصل هذا الغذاء لروحه ماتت فلا يبقى فيه إلّا الحياة الحيوانية. وقد أعطى الإسلام أهمية كبرى، لغذاء الروح هذا. وإنّ من مقدمات الحصول على الغذاء الروحاني التقليل من الغذاء الحيواني كما قال النبي ﷺ: «إن الله جعل العلم في الجوع».

وكما أن الجوع غذاء الروح، فهو سبب في صحة البدن أيضاً، وفيه فوائد كثيرة. ولقد كان حدساً صائباً من الإمام علي عليه السلام حين أوصى أن يدفنوه في النجف بما يبعد فرسخاً واحداً من الماء والعمران. إذ إن إحدى هذه المنافع هي الرياضات والمجاهدات القسرية التي تحصل للساكنين هنا ليكملوا بها إنسانيتهم، لأنه لا فرق بين حياة المعصومين ومماتهم. فكما أنهم يحثّون محبيهم حال حياتهم على الرياضات وتربية الأوراح، كذلك هم في حال الممات، حيث اختاروا مدافنهم في أماكن يمكن للمقيم حواليها أن يمارس الرياضات القسرية

ليصبح إنساناً كاملاً. كما نقل عن أحد العلماء الذي أغمي عليه لشدة الجوع أثناء إقامته في النجف، قوله وهو في حالة الإغماء:

إنّ النجف تعني هذه الرياضات: ماء البئر، وخبز الشعير، وزيارة الأمير. فإن لم يعجبك هذا، فاذهب إلى بلدك.

رفاهية النجف قبل الحصار:

ولكن في زماننا هذا سميت النجف بباريس لوفرة النِّعم، حيث عُبّدت سراديبها العميقة والمتوسطة العمق بالموزاييك، وشيّدت السطوح العالية، وكثرت الفواكه بأسعار رخيصة نسبياً. حتى أن تمر العراق الجيد كان متوفراً في النجف، في حين لا يمكن الحصول على تمرة واحدة منه في كربلاء التي يمتد نخيلها لمسافة فرسخين، لأن الكبار من المجتهدين وأبناء الذوات وتجار الجملة قد كثر عددهم في النجف، حتى أن بعض الوجهاء كان لديه ماكنة لإنتاج الثلج في بيته، في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه معمل لإنتاج الثلج في أي مكان من البلاد العربية.

ولقد قلنا عدة مرات للإمام عليه السلام إن الشيعة ينوون أن يُسقطوا صفة النجفية عن النجف، فقد حدثت أسباب توجب نقض ذلك. وكان من المعروف فيما مضى أنّ الكلاب لا تدخل أرض وادي السلام وكذلك الخمر. وبلغنا أخيراً أن الخمر موجودة في النجف يشربها بعض العرب. ونرى في الليالي الكلاب الكثيرة في الطرقات والأزقة. ولكنها كانت تختفي نهاراً خوفاً من أذى الأطفال العرب، حيث تغادر قبل شروق الشمس مباشرة.

هجوم الإنكليز على الثغور النجفية:

وفي إحدى الليالي التي كانت الغيوم فيها متراكمة والجو رطباً جداً، بدأ العدو هجومه على خنادق العرب الواقعة خارج السور والمشرفة على المدينة، فارتفع ضجيج العربات المدرعة، إضافة إلى أصوات العيارات النارية الصادرة من المدافع الرشاشة المحمولة على المدرعات نفسها. كانت كل تلك الأسلحة والمدرعات لتنفيذ هجوم على خنادق العرب التي لم يكن في كل واحد منها سوى خمسة أو ستة من الرجال. وكانت أصوات الطلقات وضجيج العربات تتداخل مع بعضها:

ززززز، طق طق، بق بق، وق وق، دم دم. وكان الجوّ الرطب يسرّع ويضاعف صداها. فظن الناس أن العدو قد هاجم المدينة نفسها، وأن هذا الضجيج ناتج عن أصوات المدرعات في الأزقة الضيقة والطرقات. كنت قد نمت لتوي، بينما كان صديق لي ينام مع زوجته في الغرفة الأخرى. وفجأة رأيت ضيفي وزوجته يدخلان غرفتي وهما يبكيان من الخوف. وعبثاً حاولت إقناعهما بالسكوت وتقديم الأدلة، فلم أفلح، وواصلا بكاءهما. فضحكت منهما ضحكة استهزاء.

قلت: من المؤكد أنكما مجنونان! ثم أدخلت رأسي تحت اللحاف غير مهتم بالأمر. وحين نظرا إلي ذهبت للنوم غير عابىء، توقفا عن البكاء، وبدأ النوم يستولي عليهما. ومن المؤكد أن العمل في أي أمر أبلغ أثراً. كما أن النظر أفضل من السماع: «النظر إلى وجه العالِم عبادة. والنظر إلى باب داره عبادة».

فكم هو مناسب أن يغلق العالم الجليل فمه عن الكلام أيضاً، ويهدي الناس من خلال العمل: أي أن يحثّهم بعمله على العمل بالواجبات، وينهاهم بعمله عن اقتراف ما نهى الشرع عنه، ويكون هو بنفسه ذا أخلاق حميدة وأعمال محمودة لتنطبق عليه مواعظه فـ«أحسن المقال ما صدقته الأفعال» لا أن يكون مرائياً فـ«أشد الناس حسرة يوم القيامة، عالم اهتدى الناس بأقواله، وهو يسلك طريق جهنم».

ولقد أصبح أغلب العلماء في زماننا هذا أتباعاً ومقلّدين لعوام الناس. فأباحوا المكروهات الشرعية التي تميل أهواء التجار الفجرة إلى إباحتها. بل إنّ الأمر اختلط على العلماء أنفسهم، فأخذوا يرون أن كل ما يقولونه هو الحق، وما يعملونه هو ما يريده الشرع. ولا يدركون أن ذلك هو هوى النفس: «اللهم إنا نعوذ بك من غرور العلم وطغيان الغنى».

انسحاب المدافعين وتقدم المحتلين:

استولت القوات المعادية في تلك الليلة على كل الخنادق المطلة على النجف، والتي كان المسلحون العرب متحصنين فيها، وتجمع العرب في الصحن (صحن الإمام علي) وبعد المداولة والتشاور رأوا أن لا فائدة من مواصلة القتال بعد هذا، وقرروا أن يذهب كلٌّ منهم إلى بيته، ويلقي السلاح، ومهما حدث فإن النجف ستنجو على الأقل.

قصف النجف:

بعد ساعة ونصف، وحين اطمأن الإنكليز إلى أنّ العرب قد توقفوا عن القتال وذهبوا إلى بيوتهم، باشر الإنكليز بقصف المدينة بالمدافع الثقيلة التي كانت قذائفها تخترق سماء المدينة من جانب إلى آخر. وكان هدفهم إخافة العرب. ولقد بلغت شدة القصف حدّاً زلزل المدينة، وأوشك بيتنا على التداعي. وتملّكني الخوف الشديد، أنا الذي لم أكن قد خفت حتى تلك الساعة، وذلك لاحتمال سقوط البيت. وعليه فقد أخذت بالتجول في باحة البيت كي أفر إلى الطرف الآخر إذا وقعت قذيفة على أي طرف منها. كنت وحيداً في البيت، إذ إنني نقلت زوجتي وأطفالي إلى بيت أحد أصدقائي الواقع وسط المدينة لخوفي عليهم، وانتظاراً لسكوت المدافع المدمرة.

لائحة بالمطلوبين للمحتل:

وصلت المدينة قائمة من خارجها بيد مجموعة من العرب المؤيدين للإنكليز وفيها أسماء مائة وعشرين شخصاً من المطلوبين الذين طلبت القوات الإنكليزية تسليمهم خارج سور المدينة. وفي حال عدم تسليم هؤلاء بأسرهم، فإن الحصار لن يرفع عن المدينة، ولن تفتح أبوابها[١].

قامت تلك المجموعة من العرب المؤيدين للإنكليز بإلقاء القبض على الواحد والاثنين ممن وردت أسماؤهم في القائمة، وسلّموهم خارج السور إلى الإنكليز. بينما قمت أنا من جانبي بإعادة زوجتي وأطفالي إلى بيتنا، وانهمكنا في آلامنا التي لا علاج لها.

---

(١) يقول حسن الأسدي ص ٢٦٧ إن الشروط التي أبلغت لأهل النجف في ٩ جمادى الثانية ١٣٣٦ هـ(٢٢ مارس ١٩١٨م) هي:
أولاً: تسليم القتلة ومن اشترك معهم بالفتنة تسليماً بلا شرط ولا قيد.
ثانياً: غرامة ألف بندقية وخمسين ألف روبية يجمعها الشيوخ المخلصون من محلات البلدة التي كانت لها يد في الفتنة.
ثالثاً: تسليم مئة شخص من المحلات الثائرة إلى الحكومة البريطانية لسوقهم من النجف الأشرف بصفة أسرى حرب.
وإن البلدة ستبقى تحت الحصار الشديد إلى أن تسلم بهذه الشروط وتنفذها.

خداع شيخ القبيلة واستدراجه:

أما شيخ طائفة الشمرت الذي حكم في النجف لمدة سنة ونصف، وكان رجلاً ضخم البنية قوياً وغنياً، فقد استخدموا معه اللسان الناعم للقبض عليه حيث أخبروه: بما أنك الشخصية المرموقة في النجف، فإن الإنكليز النبلاء ذوي المروءة سيعفون عنك. وقد لبس ذلك الغبي لباسه الفاخر، وألقى على كتفيه بالشال الكشميري، ووضع في جيبه أكثر من سبع ليرات، وحمل ساعته الذهبية وجعل سلسلتها تتدلى على صدره. وقد سار خلفه الثلاثون شخصاً الذين أرسلوا لإلقاء القبض عليه. ساروا وكأنهم حاشيته وخدمه. إلّا أنه بمجرد وصوله خارج السور قاموا بخلع جميع ملابسه حتى غطاء رأسه وحذائه، وألبسوه بدلاً من ذلك إزاراً من الجوت لستر عورته. كما وضعوا في عنقه حبلاً طويلاً وشدوا جانباً منه إلى وسطه، وأعطوا طرفاً من الحبل إلى أحد الفرسان الذي كان يسير خلفه، وطرفاً آخر لفارس أمامه، وآخر لفارس يسير عن يمينه، وآخر لمن يسير عن شماله. وهكذا ساقوا هذا الشيخ التعس على هذه الهيئة إلى الكوفة. حيث عانى من حرارة الجوّ والأرض والرمل مع ضخامة جسمه وعظم كرشه، وكان مضطراً للركض لمجاراة سرعة خيل الفرسان الذين كانوا يسحبونه. لقد تصور أنه ذاهب إلى بيت خالته حين اقتطع الليرات من قوت عياله ووضعها في جيبه.

محاولات دبلوماسية فاشلة:

طلب بلفور قائد قوات الأعداء مرة أو مرتين الإذن من السيد محمد كاظم اليزدي وجاء للقائه من خارج المدينة. وكان بين الإنكليز وبينه أثناء هذه الفتنة شيئاً يمكن أن يشير إلى صفقة. وكلّما قدم بلفور للقاء السيد كان الناس يفرحون بشدة، ويترقبون أن يكون ذلك اللقاء سبباً للفرج واليُسر. إلّا أن الفرج واليسر لم يحصلا، بل حصل العكس. ولقد سمعت بعدها أن بلفور طلب الإذن من السيد لزيارته، إلّا أن السيد رفض إعطاءه ذلك الإذن. كما سمعت أن السيد ينوي الرحيل إلى الكوفة كي ينجو بنفسه من محنة النجف. فذهبتُ إليه بحجة السؤال عن أحواله، والسؤال عن صلاة بالنيابة، وقلت له: لقد سمعت أنك تنوي الرحيل إلى الكوفة.

فقال: نعم.

قلت: وإن كان الأمر صعباً عليك، مع العلم أنه ليس هنالك فرق بين ما قبل الحصار وما بعده إلّا ترك الدرس وصلاة الجماعة، ولكن بقاءك في النجف واجب. إذ إن من البديهي أن أهالي النجف لو عانوا ألف مرة من أمر المعاش فإن قلوبهم ستكون أقوى مع وجودك، وستقرّ عيونهم، خاصة الطلاب الذين سيطمئنون أن الكفار لن يدخلوا المدينة وأنت موجود فيها ليعيثوا فيها نهباً وفساداً واعتداءً على الأعراض. فلو غادرت المدينة فإن الاضطراب سيصيبهم لتوقعهم حدوث هذه الفظائع، حتى لو لم تقع.

أما الأمر الثاني فهو ما الذي سيقوله لك الناس، وكيف ستسوّغ لهم ذلك؟ وبطبيعة الحال فإنّ ذهابك سيجعلك محرجاً أمام الخالق وأمام المخلوقين. ثم إنني سمعت أن هذا الرجل الأوروبي قد طلب إذناً بزيارتك فلم توافق.

قال: نعم. حدث هذا. فأنا لست بمأمن من أيدي المتعصبين من الطلبة، ولا من ألسنتهم، فقد دأبوا على لَوْكِ الإشاعات أنى اتجه الإنسان. ولقد ذهبت مرة إلى الكوفة، وبقيت هناك أسبوعاً أو أسبوعين، فزارني بعض الموظفين الإنكليز، واستطعت خلال تلك اللقاءات أن أُزيل الكثير من الأوهام الباطلة والمضرّة من أذهانهم، بما فيه نفع المسلمين، واضعاً نصب عيني مصالح المسلمين ودفع المفاسد. وقد شنّ هؤلاء المتعصبون من أمثال فلان وفلان في ذلك الوقت حملة ضدي، أخبروا فيها الرائح والغادي: كيف يمكن أن لا يُعطي السيد إذناً للعثمانيين المسلمين الأطهار الذين أمرنا بصداقتهم مجالاً لدخول بيته، ويتجنّب لقاءهم ومعاشرتهم، بينما يُظهر المحبة لهؤلاء الإفرنج النجسين المحرز كفرهم والمعتدين، ومجلسه ممتلىء دائماً بموظفي الحكومة، ولا يسمعون منه إلّا الكلام الحسن، فما معنى هذا؟ وأنا إنما لم أسمح بالزيارة كي لا أسمع مثل هذا الكلام.

بلفور يلتقي السيد:

حين خرجت من بيته إلى الزقاق رأيت بلفور وبيده سلك التليفون، ثم ألقاه على الأرض، واتجه مع عشرين فرداً من العرب المسلحين نحو بيت السيد. ولم يظهر شيء فيما بعد عن تلك المقابلة[١].

---

(١) يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي في مذكراته عن ثورة النجف: «في ضحوة هذا اليوم ـ الثالث والعشرين=

آخر عمليات الاعتقال:

استغرقت عملية إلقاء القبض على المطلوبين المائة والعشرين، عشرين يوماً إلى أن نفذ الماء الذي كنّا قد ادخرناه من ماء المطر، وعاد الناس إلى المعاناة الشديدة والعسر. وقد بقي شخص واحد من المطلوبين للسلطات حيث لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه إلّا بعد سبعة أيام من البحث الجدّي الذي قام به الإنكليز، وأعلنوا خلاله أن أبواب المدينة لن تُفتح، ولن يُرفع الحصار عنها إلّا بعد إلقاء القبض عليه. كان مأمورو السلطات يفتشون العرب بدقة. ومع ذلك لم يلقوا القبض عليه بسبب كونه شاباً جسوراً اختار للتخفي أن يرتدي ملابس النساء، ويتجول في الأزقة والطرقات والمحافل العامة التي ترتادها النساء غالباً، وكان يتناول المكسرات غير عابىء. وبعد سبعة أيام من بحثهم وتفتيشهم ـ وكانوا جميعاً من أشرار العرب المسلحين[1] ـ قال أحد البقالين لمفتشي السلطات: إن أردتم فلاناً، فأمسكوا هذه المرأة التي تمرّ الآن من أمامكم، فستظفرون ببغيتكم، تردد أولئك المفتشون للحظات إذ إن إمساك امرأة في السوق أمر قبيح جداً. إلّا إن أحدهم تجرّأ وتقدّم عدة خطوات، وأمسك برأس المرأة من خلفها. ولما كان الشخص المطلوب جريئاً. فقد صرخ بوجه المأمور صرخة فضحت تخفّيه، إلّا أن المأمور أُغمي عليه لشدة الصرخة. فما كان من الهارب إلّا أن سحب مُسدسه وحاول أن يطلق الرصاص لقتل المأمور، إلّا أن رفاقه ألقوا القبض عليه، واقتادوه إلى خارج سور المدينة، وسلموه للسلطات.

=للحصار في ٨ رجب ٢٠ نيسان ـ دخل النجف، من الباب الصغير أو باب البركة، الكابتن بلفور وضابط إنكليزي من أركان الحرب مع طائفة من الجنود ببندقيّاتهم والحِراب ذاهباً إلى مطالعة اليزدي. وقد وصلوا دار اليزدي حيث هم بسلك مسرة ـ تلفون ـ ثم صعد بلفور وحده واختلى باليزدي وببعض خواص بطانته ـ ساعةً أو شبه ذلك ـ دار الكلام على رفع الحصار وتجهيز الأقوات للمدينة والكف عن تفتيش الدُور. ومما قاله اليزدي: إن لحصار الأبرياء فيمن يتولى حصرهم أسوأ مغبة وأشأم».

(١) كان هؤلاء من المتعاونين مع سلطات الاحتلال وكان يقال لهم (اللجان التفتيشية) وكانت السلطات تعطيهم المكافآت والرواتب. وقد احتقرهم الأهالي لدورهم ذاك. **الأسدي** الفصل الرابع عشر: (بعد الواقعة) ص٣٠٦ وما بعدها.

إنهاء الحصار:

حيث فُتحت أبواب المدينة بعد ذلك انطلق أهل النجف بقضّهم وقضيضهم من الرجال والنساء والأطفال راكضين باتجاه الكوفة. وذهبت أنا إلى هناك أيضاً للحصول على منٍّ واحد من اللحم على الأقل لزوجتي وأطفالي. ولم يستغرق ذهابي وإيابي أكثر من ساعتين. إلّا أنني حين وصلت سوق النجف وجدته مليئاً باللحم والخبز. تعجبت للأمر. ترى من أين جاؤوا بكلّ هذا في الوقت الذي لم يكن يوجد شيء منه في المدينة. وليس هناك مكان يمكن أن تؤتى به هذه الأشياء أقرب إلى النجف من الكوفة. وقد احتملت أنّ الخبز واللحم قد جيء بهما من الكوفة بواسطة عربات الترامواي إليها. ومهما يكن فقد انتهى القحط والغلاء بسرعة، وتحول كلّ شيء إلى الخصب والرخاء. والحمد لله على كل حال.

تنفيذ أحكام الإعدام:

حين شنق الإنكليز ثلاثة عشر شخصاً في مدينة الكوفة[١]، قيل إنه قد أُعطيت لهم جميعاً قرب المشانق عدة دقائق كي يقولوا شيئاً. فسكتوا إلّا ذلك الشاب الجريء فقد انبرى ـ والحبل في عنقه ـ لسبّ الإنكليز وأولئك الذين نقضوا العهد وأعانوا الإنكليز. ثم توجه بعد ذلك للموكلين بالإعدام وقال: جُرّ يا كافر[٢].

---

(١) تم تنفيذ حكم الإعدام بأحد عشر نجفياً يوم الخميس ١٩ شعبان ـ ٣٠ مايس في خان بيت شلاش بالكوفة. انظر **حسن الأسدي** ص٣٤٢ وفي ص ٣٤٧ أن أحداً من المعدومين لم يقل شيئاً إلاّ كريم الحاج سعد الذي خاطب السيد مهدي السيد سلمان ـ وهو من مؤيدي الإنكليز ـ بكلمات قاسية. فإذا ثبت أن هذا الشاب هو كريم الحاج سعد فإن طريقة إلقاء القبض عليه ليست كما وصفها المؤلف. قال **حسن الأسدي** ص٣٢٩ «في اليوم الثالث والأربعين للحصار ١٨ رجب ٣٠ نيسان. . . . في غروب هذا اليوم ألقي القبض على الثائر الشهم الشجاع كريم الحاج سعد في أحد الدور الواقعة في سوق القاضي، فخف الألوف لمشاهدته وإظهار الحسرة عليه. وعندما استلمه الإنكليز أوجعوه ضرباً ولكماً دونما أي أصول أو شرف عسكري أو ذوق حتى كاد أن يغمى عليه ويقول المرحوم الشبيبي إن مطلك المعمار الذي ألقى القبض على كريم قد كوفىء بألف وخمسمائة روبية».

(٢) يقول لجلاده: اسحب حبل المنشقة يا كافر.

أحكام بالنفي:

نفى الإنكليز مائة وبضعة أشخاص أيضاً إلى واحدة من جزر الهند وحبسوهم هناك وأطلقوا سراحهم بعد سنة واحدة. وقد التقيت بمدينة كربلاء بذلك الشيخ الذي حاول كسر قفل حرم الإمام علي يوماً ما. بعد عودته من المنفى، وكان قد أصبح أعمى.

سألته: يا حضرة الشيخ! ما الذي حدث؟

فقال: ساقونا إلى جزيرة، حيث كان السجناء هناك كثيرين، وهم من مختلف المذاهب. وحين جاء شهر المحرم، قلنا نحن الشيعة للموظف الإنكليزي: إن لنا عادة في شهر المحرم من كل عام هو أن نقيم مجلس عزاء ونلطم صدورنا لمناسبة ذكرى استشهاد سيد الشهداء، فهل تسمحون لنا بذلك؟

قال: اعملوا ما هو متعارف لديكم، فنحن لا نتدخل بالتقاليد الدينية لأي شعب. أنتم أحرار ما دمتم لا تمسّون قوانيننا وسياستنا.

فاجتمعنا نحن الموجودين من سنّة وشيعة، وأقمنا مجلساً حاشداً للعزاء مع لطم الصدور.

قلت للشيخ: إنّ هذا العمل حسن، خاصة وأنك قمت به بمرأى من شتى القوميات الأخرى، وأظهرت بدون تقية الشعائر الحسينية، وهو نوع من العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولربما كان نافعاً في هداية الأمم الأخرى. إلّا أن عملك الذي حاولت فيه أن تكسر قفل حرم الإمام علي كان بلا جدوى، وهو الذي أدّى إلى وقوعك في هذا البلاء. كما سمعت أنك قد كسرت مصابيح حرم الإمام الرضا، وقد ضُربت حينها ضرباً مبرحاً. وحين تقع بعض الأمور بمرأى ومسمع من عموم المسلمين وخاصة العلماء والمجتهدين ويسكت كل هؤلاء، فلا ينبغي أن تتدخل أنت في الأمر، وتجلب الأذى على نفسك وعلى الآخرين.

قال: ربما كان سكوت الآخرين بسبب خوفهم على أرواحهم واعتباراتهم. أما أنا بل المسلمون، فلا ينبغي أن نكون خائفين، ونحن نسلك طريق الدين.

قلت: ليست المسألة هكذا. فلست أنتَ وحدك الذي تتألم من بين كل هؤلاء

الكبار، ليكون لديك مثل هذا الظن السيّئ بالآخرين. فلعل الأمر ليس منكراً، أو كان منكراً لكن ليس فيه مورد للنهي. فينبغي أن تسأل العلماء على الأقل عن سبب سكوتهم. فالله سبحانه قد قال في القرآن الكريم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] ولربما لم تكن أنت من هذه الأمة، وليس من الواضح أنك هو، إذ إن المقصود هو العالم العامل، حتى أنّ الإمام علياً عليه السلام قال: «إنما النهي بعد التناهي» وأنت لست من العلماء العاملين. وإذا لم تكن مجنوناً ـ وهو ما يعتقده الناس ـ فأنت ساذج أحمق على أقل تقدير. ولقد سمعتُ بأنك قد التقيت في مصر بالإمام الحجة. كما ادّعيت الرؤية، ومقام نيابة ذلك الإمام. على الرغم من أنه قد بلغنا يقيناً أنّ مدعي الرؤية في زمان الغيبة الكبرى ملعون وكذاب. إضافة إلى ما سمعته من أنك كتبت نسخة من القرآن الكريم، أسقطت منها الآيات المكررة كما كتبت قصة النبي موسى مرة واحدة، وادعيت أن البقية تطويل بلا طائل. وكتبت (بسم الله) مرة واحدة. كما كتبت فيه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2] مرة واحدة، وأسقطت البقية لأنه عديم الفائدة. فلو اعتبرتك مجنوناً كما يراك الآخرون، فإنّ هذا سيكون أفضل من اعتبارك عاقلاً، إذ إنك ستكون في هذه الحالة عاقلاً كافراً لأنك ترى نفسك الآن أكثر علماً من الله والنبي ـ إذا كان ما روي عنك صحيحاً ـ وعليه سيكون قتلك واجباً. اللهم إلّا أن يكون ما نُقل عنك كذباً، وعندها ستكون مجرد ساذج أحمق.

قال: لك أن تعتبرني ما تشاء.

قلت: إنني أحذّرك من أنه لن تكون هناك فائدة من مجلس العزاء الذي تقيمه، واللطم على الصدور، والتهريج مع وجود هذا الارتداد الباطني، وتخريب أصول الدين، وقلة العقل. ولا ينبغي لك أن تكون مغروراً بهذه المظاهر. فالعقل ضروري للعبادات والتكاليف الدينية، ومحتاج لخصوص النية والفكر واتباع العالِم العامل، وليست الشريعة أن يرد الماء كل حمار مطلق العنان وينتفع بذلك. تُرى أين ذهب أربعة آلاف من المتعصبين النهروانيين ممن هم أكثر تظاهراً بالدين

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية ١٣.

منك ومن أمثالك؟ إن الدور الذي قاموا به لن تنمحي آثاره حتى يوم القيامة: «تلك البذور في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات باقية إلى يوم القيامة». فلا تظنن أنهم انتهوا. وانظر إلى نفسك كل يوم، وتفكّر وحاذر أن تكون قد أصبحت منهم. فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

تباشير الزائرين:

وصلت إلى النجف مع الشتاء مجموعة من الزوار من أهالي قوچان، وكان من بينهم حاج كبير السن كانت لي به معرفة سابقة، ولذلك فقد خصصته من دون رفاقه بدعوته إلى بيتي، حيث أسكنته في غرفة بأعلى البيت، ولم أقصّر في خدمته. بحيث إنني كنت أعدّ له صباح كل يوم موقداً صغيراً من الفحم المشتعل، في الوقت الذي لم أكن أفعل ذلك لأطفالي ثمّ أصعد به إليه مخافة أن يصاب بالبرد. وأهيىء له ماءً دافئاً لوضوئه. كما أُعدّ له الشاي، ثم أصعد إليه بعد أن ينهض ويصلي كي أقدّم له الفطور، وأتجاذب معه أطراف الحديث لساعة كي أطيّب خاطره. ثم أعود بوسائل الشاي والفطور إلى أسفل. وكل ظهيرة كنت أعد له أكلة (ماء اللحم) لغذائه. أما في المساء فأطبخ له الأرز. إذ إن الضيف ينبغي أن يُخدم إلى أقصى حدود الإمكان. وبعد أكثر من خمسة أيام مدّ يده إلى الخرج، فأخرج منه نصف منٍّ من الإجاص المجفف، مع زوج جواريب، وهو ما يُهدى من تلك المدينة، ثم تفضل علي بتقديمهما قائلاً: لأنني جئت إلى هنا كي أموت لذا أقدّم هذا لك.

قلت: بارك الله فيك. وسيطول عمرك إلى مائة سنة أخرى إن شاء الله. كما دعوت رفاقه مرة أو مرتين، ثم إنهم عادوا إلى بلادهم بعد عشرة أيام، إلّا ضيفي الذي ظل هنا وهو يقول: لقد جئت كي أموت في النجف.

وبعد أكثر من ثلاثين يوماً من الإقامة لديّ لم أقصّر خلالها في خدمته، جرى بيني وبينه حديث تفقدت فيه أحواله ـ وكانت أربعينية الشتاء قد انتهت ـ ولما رأى

(١) سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و١٠٤.

أنه لم يمت فقد صمّم على العودة إلى بلاده. وقد أظهر خجله وامتنانه للخدمات التي قدمتها له. وكالعادة ـ ولما لم أكن طامعاً في شيء ـ فقد قلت له: إن ما قمت به كان واجباً.

اقتراح بالسفر إلى قوچان يثير جدلاً:

سألني إلى متى تنوي البقاء في النجف؟ إن السفر شيء جيد. وعلى الرغم من أنني لم أنوِ السفر إلّا أنني قلت له: إن السفر لن يكون ممكناً مع هذه الزوجة والأطفال وما يتطلبه ذلك من نفقات.

قال: اذهب إلى كربلاء، وائتني بإذن بجمع المال لك من الميرزا محمد تقي الشيرازي[1] وأنا أحمله إلى مدينتك قوچان، وأجمع المال لك من هناك، وبالتأكيد سأجمع لك خمسمائة تومان، ولن يصيبني الكلل في سبيل ذلك.

قلت: إن فضلك كبير. ثم غادرت الغرفة، وقد امتلأ قلبي غيظاً وغمّاً.

وفي صباح اليوم التالي كرّر عليّ الموضوع نفسه وقال: إن الذهاب إلى كربلاء ليس صعباً، فبإمكانك أن تركب العربة بهذا اليوم وتعود غداً.

قلت: هذا ممكن، إلّا أن الصعوبة تكمن في أخذ الإذن من الميرزا الشيرازي وجمع النقود وإرسالها إليّ من قوچان. فإن كنت مصرّاً على ذهابي إلى قوچان. فليس صعباً عليك أن تذهب إلى هناك، وترسل النقود على أن أرسل لك أنا ورقة الميرزا الشيرازي وعلى احتمال أن لا يعطيني الإذن، وهو احتمال ضعيف قد

(١) محمد تقي الشيرازي: مجتهد إمامي من أركان الثورة العراقية على الإنكليز سنة ١٩٢٠م وأول من دعا إليها من رجال الدين. ولد بشيراز وأقام بسامراء. وولاه حملة الفكرة الاستقلالية في النجف زعامتهم الدينية فانتقل إلى كربلاء وأصدر في «أن المسلم لا يجوز له أن يختار غير المسلم حاكماً عليه» فكانت الصيحة الأولى للثورة وألف مجلساً سرياً للمشورة. أما أشهر فتاواه فهي التي أصدرها بعد أن عمدت السلطات البريطانية للمماطلة في مسألة استقلال العراق والتي أعطت الغطاء الشرعي لثورة العشرين وهي: أن المطالبة بالحقوق واجبة على العراقيين. وعليهم رعاية السلم والأمن ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز من قبول مطالبهم.
ظل يرعى الثورة إلى أن مات قبيل أيامها الأخيرة. عن **الأعلام** ٦: ٦٣ باختصار. وفيه بيان ثالث له فراجعه.

يصل إلى واحد بالمائة، فسأقوم عندها بتسليمه المبلغ الذي سترسله لي، على أن أرسل لك مصادقته بذلك. ولن تضيع نقودك، وستبرأ ذمتك أيضاً.

قال: إن عقولنا في أعيننا، وحين نرى إذن الميرزا الشيرازي فسندفع النقود. وإلّا فإن شتّى التصورات ستمرّ على النفس، ولن يعطي أحد شيئاً من ماله.

قلت: وهل أنت حمار كي يكون عقلك في عينيك، ولا تأكل إلّا حينما ترى العلف بهما؟ إن لكل طائفة قدراً من الإنسانية والشعور، إلّا أنتم الذين ينبغي أن تزدادوا حمارية يوماً بعد يوم. إنني لا أطمع ولا أتوقع شيئاً منك. فإذا أحببت البقاء هنا حتى الموت، فسأكون لك خادماً، وإن رغبت في الذهاب إلى مدينتك فلن أمنعك من ذلك. فلماذا تتحدث بهذا الكلام الذي ليس وراءه إلّا تعكير المزاج ووجع القلب.

قال: إنما أردت إسداء خدمة لك. إلّا أن مزاجك يتعكر بدون سبب. وأنا لم أقل ما يسوؤك.

قلت: أنت معذور لأنك لا تفقه. ولست أنت الذي يريد إسداء خدمة ما وطلب رضا الله. ثم اعلم يا هذا أن النجف، وبسبب كثرة الزوار القادمين إليها من كل المدن والقرى، ووجود الطلاب المقيمين فيها من كل المدن والقرى، هي بمثابة مكان للسياحة بالنسبة لنا. أي أن التصرف الذي يتصرفه القادمون من شتى المدن مع الطلبة من أبناء مدنهم على مرأى ومسمع منا، يجعل أخلاق كل الطبقات والطوائف من الإيرانيين مكشوفة وظاهرة أمام أعيننا بحسنها وقبيحها. ولقد حدث في الوقت الذي أنت مقيم فيه هنا في النجف أن قدمت مجموعة من الزوار من مدينة اصطهبانات، وكانوا يعرفون طالباً من أبناء مدينتهم لم يكن أحد غيره هنا. وهو سيّد قد شارف على نيل الاجتهاد، وهو ليس أقل منّي من حيث الفقر والفضل والتدين. وحين وصلوا إلى كربلاء طلبوا إذناً من الميرزا محمد تقي الشيرازي أن يخصّصوا من الحقوق التي لديهم مبلغ مائتي ليرة مما هو مال الإمام عليه السلام كي يعطوها إلى هذا السيد لدى وصولهم إلى النجف. فأذن لهم بذلك. وفعلاً اشتروا للسيد المذكور داراً بمائتي ليرة، كما منحوه مبلغ خمسين ليرة أخرى بعنوان الخمس كي يسدّ بها بعض احتياجاته وديونه من غير أن يحمّلوه

مشقة أو منّاً أو أذى أو سفر إلى كربلاء للإتيان بإذن. وسلّموه كل شيء نقداً، وهو ما يعادل مرتين أو ثلاث مرات مبلغ الخمسمائة تومان التي وعدتني أن تعطيني إياها. بينما جعلتني أشعر بالخجل الشديد نقداً. هذا إضافة إلى أن السيد المذكور قد حصل على ذلك المبلغ الضخم وهو جالس في النجف مشغول بدرسه وبحثه، الذي ربما نال من ورائه في النهاية رئاسة في الدنيا أو مقاماً في الجنة يوم القيامة، بينما تكلّفني أنت ولأجل مبلغ بسيط أن أستدين ثلاث مجيديات أجرة السفر، أركب بعدها العربة إلى كربلاء كي أذهب عدة مرات إلى بيت الميرزا محمد تقي وأغتنم أي فرصة تسنح لأخذ الإذن منه، وأسلمه لجنابك المعظّم، ومن ثم تذهب أنت إلى مدينة قوچان وتخوض هناك نضالاً تجمع فيه من هنا توماناً ومن هناك عشرة ومن آخر عشرين. فبأي أسلوب قذر ستجبي تلك النقود؟ وكم من الناس سيشتمونني بدلاً من إعطاء النقود؟ وكم من تلك النقود سيؤخذ حياءً مما يجعل المال المأخوذ بهذه الطريقة أكثر حرمة من المأخوذ بالسرقة؟ وبعد التي واللتيا كم ستحمّلني وتسجّل على الله ورسوله من المنّ بعد جمعك لهذه الخمسمائة تومان التي هي لديك بمنزلة جبل أُحد؟ إذ إنك سترى عملك كمعجزة انشقاق القمر، بل إنك ستتوقع مني هدايا أو عطايا، ومن الله الدرجات العالية، ومن رسوله الشفاعة الكبرى.

وبعد كل هذه المشقات في جمع الخمسمائة تومان. فسأقوم بمجرد وقوعها في يدي بتوزيعها فوراً لتسديد ديوني المستحقة في النجف. وكأي أجير أو مستخدم سأجعل ما يبقى منها أجرة لسفري مع زوجتي وأطفالي إلى مدينة قوچان كي أغسّل موتاكم، وأعلّمكم كيف تغسلون مؤخراتكم وغير ذلك. كان ينبغي ـ بعد مرور ألف سنة على إسلامكم ـ أن تبلغوا الدرجات العالية من الإنسانية، بينما تجيء الآن لتعتذر قائلاً: إنّ عقولنا في عيوننا. إنّ هذه الحالة موجودة لدى كل الحمير والأبقار، فأين ذهبت كمالاتك النفسية؟

يا حضرة الحاج! اجلس في خلوة قليلاً، وضع على رأسك عمامة القاضي، وانظر كيف تحكم على هذه الأعمال والتصورات الباطلة؟ تستطيع اليوم وغداً أن تتخفّى خلف هذا الهيكل الإنساني والوجه الحسن النوراني واللحية البيضاء الطويلة، ولكن ماذا أنت صانع يوم تُبلى السرائر؟ ما أقرب ما تتكشف ذاتك على

حقيقتها، وأخلاقك الذميمة في الحشر العظيم. ذلك يوم الخزي الأكبر، ويوم الحاقة، يوم الصاخة، يوم الندامة، يوم الحسرة، يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه. فكما أنك تشعر بالخجل حين تكون مكشوف العورة في ملأ من الناس، كذلك ستكون حين تخلع ثيابك الجميلة هذه، وتلبس الثياب التي تخاط وتُهيأ لأجلك منذ اليوم، ثياب تحسن عندها صور الكلاب والخنازير، ونعوذ بالله من ذلك.

قال: كان هدفي خدمتك، ولم يكن هناك داع لكل هذا الغضب.

قلت: إن من كان عقله في عينيه لن يفهم أمثال هذه العبارات التي تجرح كالخنجر والسنان. فأولاً: لا ينبغي لي أن أستدين من الميرزا الشيرازي وإنّ الفقه لا يوزن بالقبان والميزان يا أعمى الباطن!

وثانياً: ليس واضحاً ـ بعد استدانتي أجرة الذهاب إلى كربلاء والعودة منها، وأخذ الإذن من الميرزا الشيرازي، ووضعه بيد حضرتك المبجلة ـ هل أن تلك الدراهم المعدودة ستقع في يدي أم لا.

ثالثاً: لو كنتَ عاقلاً، ولم يكن هدفك إهانتي، لذهبتَ أنت إلى كربلاء، وإلى الميرزا الشيرازي، وقلت له لتكون استجابته أسرع وأفضل. وكان لي في ذلك احترام، وكانت خدماتك لي أكثر صفاء.

بعد عدة أيام غادر ذلك البائس الأحمق النجف متجهاً إلى بلاده.

عيد النوروز وزيارة الصالحين:

بعد انتهاء عيد النوروز رأيت مع اثنين من العلماء المقيمين لسنين عديدة في العراق أن من غير الإنصاف ـ وبعد كل هذه السنين من الإقامة هناك أن لا نزور مراقد أبناء الأئمة المنتشرة في نواحي مدينتي الحلة وبغداد. لذا قررنا أن نشدّ عصا الترحال بالمتاع القليل، ونزور مقامات أولئك الأولياء.

تحركت معهما، وكان أحدهما قوچانياً والآخر جامياً نحو كربلاء، فقضينا الليل في خان المالح ثم بدأنا سفرنا من هناك صباحاً. ولما كنت سريع السير إضافة إلى شعوري بالانطلاق، فقد أخذت وسائل إعداد الشاي من السماور

والشاي والسكر معي وسرت. فتقدمتهما بفرسخ واحد، حيث وصلت مع بزوغ الشمس إلى ضفة نهر. أوقدت النار قرب النهر، وأعددت الشاي ريثما يصل رفيقاي. ولما كنت قد نظفت إبريق الشاي وأقداحه جيداً، فقد كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس. وقد كمل السرور للقلب مع وجود الماء والجوّ الربيعي المثير للبهجة، ففاض طبعي بهذه الأبيات:

كان محفلاً تمنّاه غبطةً الملك كسرى   بل تمنّته ملائكة السماء

إلاّ ذلك العظيم فقد قنع   بانعكاس صورته على كأس البلور

أي شاي كان كلون شفاه الحسناوات   لوناً وطعماً وبرائحة الريحان

احتسى كل منّا قدحاً أو اثنين من الشاي ودخن سيكارة واحدة. ثم تحركنا فقضينا الليل في كربلاء، وزرنا العتبات صباحاً، وتحركنا من هناك فوصلنا مدينة المسيّب حيث كانت قدما الرفيق القوچاني مليئتين بالفقاقيع المليئة بالماء، مما جعله غير قادر على الحركة، وحين بحثنا عن بغل نكتريه للوصول إلى المحمودية أو الكاظمية لم نجده. جلبنا شيئاً من بعر البعير، ثم أحرقناه وأمررنا قدمي صاحبنا على دخانه، بعد أن يئسنا من الحصول على بغل. سألنا عن محطة سكة الحديد الممتدة بين الحلة وبغداد، فقالوا: إنها تبعد فرسخين من هنا. أما السيارة فتصل إلى هناك الساعة التاسعة صباحاً، ولا تقف أكثر من عشر دقائق تتحرك بعدها إلى بغداد.

قلت: يا حضرة القوچاني ينبغي علينا أن نقطع هذين الفرسخين حتى لو اضطررنا أن نزحف زحفاً من الآن حتى التاسعة صباحاً، وليس هناك حل آخر. ولما كانت الليلة ليلة جمعة فلن ندرك زيارة ليلة الجمعة بغير ركوب السيارة، ولكن إن ركبناها فليس من المستبعد أن نصل الليلة إلى الكاظمية.

وقليلاً قليلاً اقتدنا الشيخ القوچاني باتجاه محطة وقوف السيارات التي وصلناها قبل التاسعة، فألفيناها قفراً خالياً من الماء والسكان، ولم يكن هناك إلّا خيمتان أو ثلاث نصبها الإنكليز في المكان، فشكلت محطة للسيارات. تفيأنا ظل أحد المسقفات التي أقيمت لتقف السيارات تحتها إلى أن وصلت سيارة في الساعة التاسعة، فدفعنا سبعة أو ثمانية قرانات عن كلّ واحد منا وركبنا في حوض

السيارة المليء بالبضائع، فوصلنا بغداد الساعة الثانية عشرة مساء. حملنا أمتعتنا على عجل وذهبنا مسرعين إلى إحدى عربات النقل التي تسير بين بغداد والكاظمية والتي كانت لحسن الحظ واقفة هناك. ركبناها فوصلنا إلى حسينية الكاظميين بعد أربع ساعات من حلول الظلام.

زيارة الكاظمين وسامراء:

أعد أحدنا الشاي بينما ذهبنا نحن الاثنين إلى الزيارة. كما زرنا في اليوم التالي أيضاً. وفي يوم السبت ركبنا السيارة متجهين إلى سامراء، حيث مكثنا هناك أكثر من خمسة أيام، ذهبنا في إحداها إلى المنارة الملوية التي بناها المتوكل العباسي قرب باب المسجد الجامع، والتي يُصعد إليها بواسطة سلمها الذي يدور حولها من خارجها، بصورة ملتوية. وما تزال المظلة المنسوجة من الخوص التي وُضعت في رأسها أيام الحرب العثمانية موجودة.

تسلّق الجامي والقوچاني المنارة بسرعة، وصعدا إلى أعلى. بينما وقفت أنا وأحد العرب بعد أن صعدنا دورة واحدة ننظر إلى سامراء وقباب ومنائر الإمامين التي كانت تحتنا. كان المكان الذي نقف عليه ضيقاً كما كانت هناك بعض الرياح تهب علينا. فاستولى عليّ الخوف وصحت: يا أخا العرب! انزل فإني أخاف.

قال: أي سيدنا! أنا هم[1] أخاف.

نزلنا إلى الأرض فرأينا صاحبينا قد التصقا بالمنارة وهما يدعواننا أن هلموا إلى الصعود.

قلت: أي مجنونين أنتما. لقد وقعتما الآن في مأزق، ومع ذلك تدعوان غيركما وكأنكما في دعوة للضيافة؟ انزلا حالاً.

ولأنهما كانا محبّين للتظاهر، ولأنني خشيت أن يسقطا في النهاية. فقد قلت: انزلا فها هنا أفعى مخيفة سوداء ضخمة الحجم، وهي تريد الهجوم علينا. ثم التفتّ إلى العربي قائلاً: يا أخا العرب! شوف الحية.

---

(١) هَمْ: عراقية تعني: أيضاً.

فقال: وين. وين. سيدنا.

قلت: هاذي هيّ، ما تشوف؟ إنتَ أعمى؟

ثم رميت حجراً على أحد الجهات وركضت هارباً إلى الجهة المقابلة. وقام العربي بدوره بضرب حجر على نفس الجهة، وفرّ خائفاً من الأفعى التي لم يرها وهو يردد: وين؟ وين؟

وقد نزل أولئك المجنونان حينها من رأس الملوية وهما يسألان: أين الأفعى؟

قلت: دخلت أحد الثقوب.

من مات من أنفاس الأفاعي   إنما الموت من الهمّ المستعصي

فيا أيها الروحانيان! ألم تسمعا أنّ نفسيكما المخلوقتين بمجرد أن تتصورا السقوط ستقومان بقذفكما من المنارة؟ كانت الأفعى هي أنفسكم الأمارة بالسوء، وحين هبطتما اختفت في أحد الثقوب، وأصبحتما في أمان من السقوط.

العودة من سامراء إلى الكاظميين والحيرة:

عدنا من سامراء ومكثنا بضعة أيام في الكاظمين، ذهبنا خلالها لزيارة مقبرة الكليني[١]. وبإرشاد من أهل بغداد قمنا بزيارة مقابر السفراء الأربعة الكرام لإمام الزمان. وقد سأل رفيقاي عدة أشخاص عن أماكن وجود قبور النواب الأربعة فلم يخبروهم بشيء. وكان واضحاً أنهم لم يكونوا يسألون من له دراية بتلك الأماكن إذ كانوا يسألون إما يهودياً أو نصرانياً أو سنياً متعصباً. ولذا فقد قلت لهما: إن أنوار بصيرتيكما لم تتنورا حتى الآن، وقد قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[٢]. إنني أعرف الشيعة أفضل منكما. فنور التشيع يُدرك ولا يوصف. دعوني أوجه السؤال بنفسي. هكذا وبعد عدة خطوات وسط السوق والأزقة والتفرس في وجوه الناس، كنت أحصل على الجواب بسهولة لدى سؤالي عن

---

(١) الكليني: محمد بن يعقوب: فقيه إمامي من أهل كلين ببلاد الري. كانت له رئاسة الشيعة ببغداد في عصره وتوفي فيها عام ٣٢٩م. أشهر مؤلفاته: **الكافي** وهو أحد الأصول الأربعة للفقه الإمامي الاثني عشري.

(٢) سورة الرحمن، الآية ٤١.

قبور النواب الأربعة[١] بحيث إنّنا لم نقترب من الظهر حتى كنا قد زرناهم جميعاً. ثم اشترينا بعض أقراص الخبز فتغدينا بها، وغادرنا بغداد متجهين إلى مقبرة سلمان الفارسي، حيث وصلنا قبيل الغروب إلى منطقة مأهولة نسبياً اسمها ديالى تبعد مسافة ثلاثة فراسخ عن بغداد، وقضينا الليل هناك.

مؤامرة ضدنا:

وقد سمعت وأنا جالس هناك اثنين من السنّة يتآمران لقتلنا وهما يتهامسان باللغة العربية. فقلت لنفسي إنّ كل ما رأيته وسمعته وعلمته كان حلماً وقد انقضى. فيا أيها المسكينان إن الإنكليز سيقضون علينا دفعة واحدة، سواء أكنا سنّة أم شيعة. ثم صحت بصوت عالٍ: حجي! روزنامة أكو عدكم؟

فقال: نعم.

قلت: أعطني أشوف شني مكتوب[٢].

فلسفة الموت:

قرأت قدراً من الصحيفة، وغزا النوم عيني تدريجياً فنمت. وحين نهضت في الصباح قال لي رفيقاي: إننا لم ننم طيلة الليل لخوفنا مما سمعناه، بينما نمت أنت غير عابىء.

قلت: لم يكن لكلامهما من أثر في أذنيّ إلّا بقدر طنين الذبابة. أولاً لأنني قد ذقت حلو الدنيا ومرّها، وقطعت الفيافي المخيفة في الليل والنهار قبلكما، ومن الطبيعي أن أكون أكثر رزانة وشجاعة منكما.

ثانياً: إنّ إيماني بالقضاء والقدر الإلهيين، وكوننا في رعاية الله في كل الأحوال، واستسلامي إلى القضاء والقدر، هو أكثر منكما. فلو كان هؤلاء قد

---

(١) السفراء الأربعة: هم أربعة نواب للإمام المهدي المنتظر، الإمام الثاني عشر للشيعة الاثني عشرية، نابوا عنه على التوالي في إدارة شؤون الطائفة، أثناء غيبته الصغرى.

(٢) الجملة بالعامية العراقية وتعني: يا حاج هل لديكم صحيفة أعطني لأقرأ أي شيء مكتوب فيها. وقد أراد أن يشعر أولئك اللذين زعم أنهما يتآمران لقتلهم أنه قد فهم ما قالاه لأنه يعرف العربية. وروزنامة: كلمة فارسية تعني الجريدة وكانت مستخدمة آنذاك بالعامية العراقية.

قتلونا لعلمت أن ذلك من الله، لأننا سننتهي إليه في آخر الأمر. ولا ينبغي علينا أن نخاف من إرادة الله أو نهرب منها:

حين تكون بين يدي سبعٍ سفّاك فليس أمامك إلاّ التسليم والرضا

إضافة إلى ذلك، لماذا نخاف الموت والقتل؟ ما الذي غنمناه من هذه الدنيا الدنية، وماذا رأينا من الخير والسعادة كي تكون لنا بها علاقة حميمة تجعلنا نشعر بالشقاء لمفارقتها؟ إننا لم نرَ منها إلّا الألم والتعاسة والمشقة والحرّ والبرد والجوع والعطش وغير ذلك مما يطول شرحه. وفي النهاية سنموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[١] ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[٢] بل ينبغي لنا أن نحب الموت، لأننا كلما قرأنا في صفحات هذه الدنيا لم نجد ما يبهج، فلنقلب الصفحة، فربما كانت في صفحة الاخرة موضوعات ممتعة من أفضال الحق تعالى.

فقال الجامي: ربما سنُشوى بجحيم تلك الدار الآخرة، لأنّ العاقبة مجهولة لنا. وحين ننظر إلى أنفسنا نجد العقوبات الشديدة قد وقعت علينا. فلعل هذا الألم والبلاء والفقر والحوادث هو نسيم عقوبات الآخرة الذي يهب على دنيانا. وبطبيعة الحال فإنّ نسيمها ورائحتها أفضل منها.

قلت: نعم. ولكن ينبغي أن يُنظر إلى رحمة الله أيضاً التي تدك الجبال، وتحوّل الذليل إلى باشا بكلمة واحدة. حقاً إنه لا بدّ للإنسان أن يخاف من نفسه، ولكن لا بدّ له أيضاً أن يجعل عين أمله معلّقة برحمة الحق تعالى، وأن لا يسيء الظن بربّه، وهو الذي قال: «أنا عند ظن عبدي المؤمن» وقال الإمام السجاد عليه السلام: «إذا نظرت إلى نفسي قنطت، وإذا نظرت إلى رحمتك الواسعة طمعت».

قال القوچاني: إن كل ما قلته هو في محله. ولكن لو أنهم قتلونا، فأنا أعلم ـ وذلك مما علمني ربي ـ أنّ قتلنا غير جائز بالموازين الشرعية، وهو يتفق مع رأي القائلين بالجبر. ترى، لو أن الله هو الذي قتلنا، فلن يكون هناك ذنب على

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.
(٢) سورة مريم، الآية ٧١.

قَتَلتنا بينما الحقيقة هي التي قررها الله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾[١].

قلت: على هذا فإن إرادة القَتَلة ستكون نافذة بغير إرادة الله. وعليه فإنهم سيصبحون إلهاً ثانياً وخالقاً ثانياً. بينما عقيدة الموحدين هي:

لو أنّ سيوف العالمين امتشقت لقطع وريد واحد فلن تقطعه إذا لم يشأ اللّه

وبديهي أنّ التوحيد لن يتحقق في تلك الحالة.

قال: فإن كان القتل بإرادة الله، فسيكون هناك إشكال في المسألة أيضاً.

قلت: نعم. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين». وقد سأله الراوي: هل بينهما منزلة؟ قال عليه السلام: «نعم كما بين السماء والأرض».

إذاً فالجبر كفر، والتفويض كذلك، وما بين الكفرين هو الإيمان. وعلى هذا ينبغي أن تكون عقيدة المؤمن بمكان هو بين المنزلتين، وأن يختار مكانه في ذلك الوسط الذي ذكره الإمام وقال عنه إنه واسع سعة ما بين السماء والأرض. ولكن عليه أن يختار وسط المكان تماماً، لا أن يميل إلى هذا الطرف أو ذاك. وبالطبع فإنّ الوسط الحقيقي لأيّ شيء أدقّ من الشعرة وأكثر حلكة من الليل، بحيث لا تستطيع الرؤية ما لم تكن ذا نظر دقيق. وكل مؤمن حافظ على نفسه في الوسط ظل على الصراط. وإلاّ فإن ميله إلى هذا الطرف أو ذاك يجعله يميل ويهوي.

قال القوچاني: لا يمكن تصوّر حدٍّ وسط بين النقيضين أو الضدّين اللذين لا ثالث لهما. والجبر والتفويض إما أن يكونا نقيضين أو بحكم النقيضين.

قلت: لأنّ للاثنين وجوداً قائماً، فهما ليسا نقيضين، كما أنهما ليسا ضدّين لا ثالث لهما. لأنّ الجبر هو صدور الفعل من الفاعل بإرادة الغير وليس بإرادة الفاعل. أما التفويض فهو صدور الفعل عن الفاعل، وبإرادة نفس الفاعل، وليس بإرادة الغير، كي لا يكون الحدوث بسبب صادر عن غير إرادة الفاعل. أي أنّ

---

(١) سورة النساء، الآية ٩٣.

سلسلة وجودية هذا الفعل لا تنتهي إلى الله. وهذا يستلزم موجودين اثنين في عالم الوجود. وكما قال النبي ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة»، وهم معتزليون في مقابل الأشعريين والجبريين.

والوسط بين هذين المحذورين، أو الجنة ما بين الجحيمين هو أن الفعل واقع بإرادة العبد الناشئة عن إرادة الله. إذاً فهذا ليس جبراً ولا تفويضاً. وهو ليس ارتفاعاً للنقيضين، بل الأمر بين الأمرين، وقول الحق وهو معتقد الإمامية والطائفة الاثني عشرية.

قال: إن تعقّل الوسطية أمر عويص؛ بل إنّ تعقّل وجود وسط بين السماء والأرض أكثر تعقيداً.

قلت: لو لم يكن الأمر عويصاً لما تاهت طائفتان كبيرتان[1] من المسلمين ممن هم ليسوا على خط أئمة أهل البيت عليهم السلام.

لا تسلك الطريق بغير الشيخ المجرِّب   حتى لو كنت قوياً كالإسكندر

وعلى الرغم من أنّ الإمام علياً عليه السلام قد قال: «لا تلج البحر العميق»، إلّا أنني ـ ولغرض استكمال البحث، ودفعاً للملل، وأن نشم شيئاً من عطر الموضوع ـ أضرب بعض الأمثلة والتنظيرات لأجل تقريبه للأذهان، وإيضاح المطالب الأخرى:

حين تشرق الشمس من المشرق، ويقع نورها على الحائط، يبدو ذلك الحائط منيراً من الطرف الذي تشرق عليه الشمس، بينما يظهر الظل على الجانب الآخر منه. فلنفترض أن الحائط هو الإنسان المكلَّف، وأن الطرف الذي يقابل نور الشمس منه هو العبادة. أما طرف الظل منه فهو المعصية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[2]. مع العلم أنه لو لم يكن هناك حائط لما كان شعاع في هذا الطرف من الحائط، ولا ظل في الطرف الثاني منه. وسيقول الناس

---

(١) يعني: المجبرة والمفوضة. والفرقة الأولى قالت إن الإنسان مجبر غير مخير في كل ما يأتيه من أعمال بينما قالت الثانية إنه مختار في كل أعماله. وقد أخذ على الأولى أنها سلبت الإرادة من الإنسان. بينما أخذ على الثانية أنها سلبت الإرادة من الله سبحانه.

(٢) سورة النساء، الآية ٧٩.

ـ طبقاً للآية الكريمة ـ إن هذا الشعاع هو من الشمس، وذلك الظل من الحائط. بينما حين يحلّ الليل حيث لا وجود للشمس، فإنه لا يكون وجود للظل أيضاً. إذاً يمكن نسبة الظل إلى الشمس أيضاً. قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾(١).

مثال آخر يوضح ما نحن فيه:

إنّ ماهيات ومفاهيم الأشياء قبل الوجود كالنقش على الحائط، لا يترتب عليه شيء. وتترتب الآثار المختلفة على الماهيات المختلفة بمجرد أن تتحقق في الوجود. والوجود خير، وأثره خير أيضاً، والشر ينتسب إلى العدم والنقص، وهو من نوع الماهيات. وبطبيعة الحال فإنّ وجود الماهيات مزدوج من وجود الماهية ووجود الأفعال، وكذلك آثارها. فرسم وظل السيف لا يقطعان شيئاً، وكذلك الحديد بما هو حديد لا يقطع شيئاً. وقطع السيف إنما هو مرتبط بهذا الشكل ـ شكل السيف ـ. وهذا هو الأمر بين الأمرين.

ويمكن للإنسان أن يرى وجهه بوضوح في المرآة الصافية، ويرضى عن تلك المرآة وتعجبه لأنها أظهرت وجهه بصورة صحيحة. أما في المرآة الصدئة فإنه ينزعج منها لأنها لم تظهر وجهه كما ينبغي. فالأولى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٢) والثانية كافرة لأنها حجبت الحق. فلا جبر في إظهار الصورة لأنها قد ظهرت في كلتا الحالتين ولا تفويض، إذ إن الصورة لا تتحقق في المرآة إذا لم يكن هناك وجود حقيقي يوضع أمامها. وعلى هذا فإنّ أصل الوجود هو من الحق. والحدود والنقائص هي من الماهيات والقابليات. وإذاً فالأمر بين الأمرين هو ما بين الأرض إلى السماء.

وحين يقع الشعاع على الزجاج الملون، وينفذ من خلاله، فإنّ اللون الأحمر يلوّن الحجرة. ومعلوم أن شعاع الشمس لا لون له، وأنّ اللون الأحمر هو من الزجاج. فالنور الأحمر الموجود في الحجرة ليس من الشمس فحسب، لأنها بلا لون، فلا جبر. وهو ليس من الزجاج فقط، لأنه لا نور له، لا أسود ولا أبيض، فلا جبر ولا تفويض، بل أمر في البين كما بين السماء والأرض. فطرف منه في

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٣٠.

الأرض والآخر في السماء. فافهم واغتنم. ومع أنّ هذه الأمثلة يعتورها النقص من بعض الجوانب، إلّا أنها كانت لتقريب الموضوع إلى الفهم.

زيارة سلمان المحمدي:

وصلنا سلمان باك وكان له مرقد وحرم وضريح وصحن. وبعد الزيارة والسلام وأداء ركعتي صلاة هدية إلى تلك الروح الطاهرة، صلينا الظهر والعصر. وكان خدام تلك الحضرة من نساء أهل السنة، وكذلك جميع سكان ذلك الجزء من القرية الذي يقع فيه الضريح. وقد اشترينا بعد ذلك عدة بيضات من أولئك النسوة، حيث طهوناها بالزيت، وتناولنا طعام الغداء والشاي في أحد أروقة الصحن الشريف. ثم نهضنا وقمنا بجولة في المكان حيث شاهدنا إيوان كسرى الواقع على بعد مائة قدم. كانت إحدى غرفه ما تزال موجودة، وقد تساقطت بعض أحجار سقفها مما أدى إلى حصول شق فيه. وكانت الأحجار التي ظهرت من خلال الشق من الطابوق الكبير حجم الوزيري، وتُعدّ بسبعة من الطابوق العادي، وقد قدرنا سمك سقف الإيوان بثلاثة أذرع، ولم نسجل طول وعرض الإيوان. وكان الإنكليز كثيراً ما يأتون من بغداد لمشاهدة الإيوان، وكانت سياراتهم في ذهاب وإياب مستمرين. وقد عدنا بعد ذلك وقضينا الليل في ديالى الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ من بغداد.

التوجه إلى بغداد:

تحركنا في الصباح متجهين إلى بغداد حيث رأينا قربها ميداناً للتدريب شاهدنا فيه جنوداً من الهندوس، وقد اصطف كل ثلاثين أو أربعين منهم في صفين متقابلين كانوا وهم يحملون الحراب يشبهون تماماً مجموعتين من الديكة التي تريد الهجوم على بعضها. وبعد عدة هجمات يقومون بها، وهم في حالة أشبه بالركوع، يزحف كل منهم إلى مكان من يقابله ويسلم حربته إلى الجندي الذي أمامه. ولأنهم قد خسروا الكثير من الضحايا في حربهم بالحراب مع القوات التركية، فقد جَدّوا في استكمال تدريب قواتهم.

دخلنا بغداد وتشرفنا بزيارة الإمامين الكاظمين. وبعد مبيتنا ليلة، ذهبنا في

الليلة الأخرى إلى محطة توقف الترامواي قاصدين الذهاب إلى الحلة. وقد اشترينا تذاكر السفر في الثالثة ليلاً، وركبنا بعد ذلك عربة الترامواي التي لم تتحرك قبل الساعة السابعة، إذ كانت تنتقل بين هذا الخط وذاك، وتتقدم حيناً وتتقهقر إلى الوراء حيناً آخر، وكانت العربات الأخرى تتقدمها أو تتأخر عنها. وقد أصابنا الدوار لكثرة فروع الخطوط العديدة وتعاكس حركات العربات. ولم نكن نعرف ماذا يحصل، أو ماذا يريدون إظهاره؟

قلت: يا رفاقي! إنّ التفكير في هذه الحركات المختلفة قد أصابنا بالدوار. فلننظر إلى هذه الساحة الواسعة التي يقرب طولها وعرضها من نصف فرسخ وتزينها المصابيح الكهربائية. وكأن الأرض بهذه المصابيح المتلألئة وهذا الجوّ الليلي الممتع في سباق مع السماء اللازوردية تريد أن تقول أنا سماء أيضاً!.

قال القوچاني: أما أنا فأحسّ بالنعاس، وسأنام، وإنّ الأرض لن تصير سماءً. وإنّ وجود الأضداد في الإنسان، وتصارع الأهواء النفسانية في صدره ـ حتى أنك لا تجد شخصين اثنين يحملان نفس الأخيلة والتصورات، بل إنّ الشخص الواحد لا يستطيع أن يواصل التفكير بتصوّر واحد في وقتين مختلفين ـ إنّ تجدد الآراء واختلاف الأهواء هذا مستلزم لسلب الأمان والاطمئنان من القلوب، وسلب السعادة والدعة من العقل آخر الأمر. وإنّ راحة البال والتمتع هو نتيجة الجهل بالجهل ونقص الذات. وهذا هو الداء الذي لا دواء له. أستودعك الله، فأنا سأنام الآن.

قلت: أجبني أولاً، ثم نم بعد ذلك. انظر إلى النواب الأربعة الخاصين لصاحب الزمان صلوات الله عليه، والكليني، وغيرهم من المؤمنين والروحانيين المدفونين في بغداد على الرغم من أنها أرض مشؤومة نجسة. ترى لماذا لم يوصوا بدفنهم في الكاظمية رغم قرب المسافة؟ إنّ ذلك يظهر أنّ نقل الجثث إلى العتبات المقدسة أمر غير مستحب، وإلّا لما ترك هذا المستحب خاصة النواب، وكذلك العلماء والمجتهدين. وكما نعلم فإنه قد شاع نقل الموتى بوصية منهم أو بدونها إلى كربلاء أو النجف من مسافة مائة أو مائة وخمسين فرسخاً من إيران إلى العراق، بل أفتى كثير من العلماء بذلك أيضاً. وإنّ النقل قبل الدفن علاوة على

ما فيه من ترك تعجيل الدفن مؤدٍ إلى هتك حرمة الميت، وإلحاق الأذى بالأحياء نتيجة الرائحة الكريهة المنبعثة من تعفّن الجثة. كما أنّ النقل بعد الدفن موجب لنبش القبر، وهتك حرمة الميت، إضافة إلى ما يترتب على ذلك من المفاسد التي تحصل في طريق النقل. والحق أن نقل الجنائز غير جائز، إلّا إذا كان الطريق آمناً وقريباً، أو كان الفصل شتاء كي لا تتعفن الجثث في الطريق، وإن كان هناك إشكال في الأمر.

سكتُّ منتظراً جواب جناب الشيخ، إلّا أنني سمعت شخيره وقد علا، وهو يغط في نوم الغفلة. والحال أن النوم كالموت وفقدان الوعي، واختيار الإنسان للمرض والموت بإرادته جهل مفرط. وكذلك اختياره غض البصر عن مباهج الحياة، خاصة في ليلة كهذه تتلألأ فيها النجوم في حلكة الليل، ويهبّ فيها نسيم منعش، وتنهب فيك عربة القطار الأرض كالبرق، وأنت جالس هادىء البال مرتمياً في مهد الأمن والأمان. فكم من التعاسة وقلة التوفيق أن ينام الإنسان في جوّ كهذا. إن النوم ينبغي استعماله كدواء، والنظر إليه كعلاج. ويجب على الإنسان أن لا يتعوّد استعمال الدواء. وباختصار فقد قضيت تلك الليلة منشغلاً بسكون الطبيعة، وانطفاء نار الشهوات، ورحلة النفوس الشريرة والمتمردة، وروحانية الجوّ، وهدهدة حركة القطار، وبريق النجوم التي كانت كل واحدة منها تغمز لي بأنّ الفرصة مؤاتية فحلّق باتجاهنا.

اهتزّت روحي واتسعت خلايا دماغي، فانشغلت بمطالعة الآيات الكونية، والكلمات المكنونة الآفاقية، وتحولت جميع حواسي من التشتت إلى التوحد، واتجهت صوب مركز الإحساس والحس القائم بالذات، ورقّت الحجب السميكة فأصبحت كأن لا وجود لها لرقتها، وتناثرت الحواجز كالعهن المنفوش.

وهنالك عرفت أشياء لا يمكن الحصول عليها في سفط أي عطار، ولا تخطر على بال أحد. فأية نعمة كبيرة هي العزلة، وهي معين على تكميل الناقصين. إلّا أنه ينبغي بعد الكمال الانشغال بين الناس وبكل جدٍّ لتعليمهم وتربيتهم، وهي طريقة الأنبياء، وتُسمى في الأسفار الأربعة ـ كما اصطلح على ذلك الملّا صدر الدين الشيرازي ـ بالسفر من الله إلى الخلق، وهو السفر الرابع للإنسان.

الوصول إلى الحلة:

بعد ذلك المعراج الروحاني والعودة منه، بدأ الصباح بالطلوع. وشيئاً فشيئاً سرت في رفاقي الموتى نفحة إسرافيلية، وعادت أرواحهم إلى أجسادهم، وتحركوا وصحوا وهم يتمطّون، فإذا هم قيام ينظرون. تراءى لنا سواد مدينة الحلة ووصلنا محطة القطار عند بزوغ الشمس. كان الوقت لا يسمح لنا بالوضوء، فتيممنا وأدينا الصلاة. ثم حملنا متاعنا القليل ودخلنا الحلة. تجولنا في السوق ساعة، ثم ألقينا رحل الإقامة في ساحة رواق مرتفع خالٍ من الآخرين، نظيف من قاذورات الأعراب. أرسلنا بعد ذلك الجامي لشراء فحم للسماور، فجاء به وهو يقول: لقد دفعت عن نفسي شرّاً بالشطارة والحيلة.

قلنا: وكيف كان ذلك؟

قال: سألت أحد البقالين عن دكان بائع الفحم، فأشار إليه معتذراً أنه هناك. عندها أشرت أنا بطرف عصاي لتعيين المشار إليه إن كان هو ذلك الدكان. فاصطدمت رأس عصاي بشدة بشحمة أُذن امرأة يهودية وقور، وارتفع صوت تأوهها وسط السوق. وقبل أن تستدير بوجهها نحوي لترى من الذي وكزها، اتجهت بوجهي إلى الجانب الآخر، وكأنني لم أفعل شيئاً، وأخذت أنظر بحيرة إلى هذه الجهة وتلك، إلّا أن انتباهي كان مركّزاً على تلك المرأة لأرى ما ستفعله معي.

رأيت أنها بدورها قد استدارت نحوي وراقبت بدقة حركاتي المختلفة، ولكن دون طائل. أخيراً قالت وهي تحدث نفسها: هذا مسودن[١].

فقلت في نفسي: أحسنتِ الفهم يا امرأة! ليرحم الله والديك. فلو لم أكن مجنوناً لما أشرت بطرف عصاي الطويلة في هذا السوق الضيق المزدحم بالناس.

غادرت المرأة مكانها، فغادرت أنا بدوري مكاني. أنا الذي أصبحت عاقلاً واشتريت الفحم وعُدت، وإلّا كنت الآن في وضع استجواب وسجن وتعذيب. ولبقيتم أنتم في انتظاري، وكان يومكم أسود كالفحم.

---

(١) عامية عراقية تعني المجنون. وهي مشتقة من مرض السوداء.

قلت: وهل تطمع أن تنقذ نفسك يوم القيامة بمثل هذه الحيل أيضاً؟

قال: إنّ الله كريم، ومن صفاته الكمالية الانخداع.

قال القوچاني: الانخداع انفعال. والانفعال لا يليق بالله، بل هو فعّال لما يشاء.

قال الجامي: لقد ورد في ذيل الآية: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[1] وعلى هذا فإن الله ينخدع.

قال القوچاني: لا يمكن للدليل السمعي أن يتعارض مع العقل.

قلت: لا يهم. فالحق تعالى لا ينخدع حقيقةً، ولكنه لكونه كريماً ورحيماً يُظهر الانخداع. كما يحصل لنا في أحيان كثيرة حين نرغب في إعطاء شيء لأحد، فنبحث عن حجة كالنذر أو الرهان الذي خسرناه، كي نظهر الطرف الآخر بمظهر المستحق. إذاً فقضية حكم العقل هي الانفعال الحقيقي، وهو لا يليق بالله. وقضية الدليل السمعي هي إظهار الانخداع والتظاهر به. وحينما لا يتّحد موضوعا الدليلين، فلن يكون هناك تعارض بينهما.

قلت: يا رفاقي! إنّ الدافع الأساس لمجيئنا للحلة هو زيارة الحمزة والقاسم، حيث إن المعروف هو أن الحمزة حفيدُ حفيدِ أبي الفضل. والحمزة الذي هو في بلاد الريّ هو ابن موسى بن جعفر. ويبدو أنّ الأمر معكوس. أي أن الحمزة المدفون بالريّ هو حفيدُ حفيدِ أبي الفضل. وهذا الحمزة هو ابن موسى بن جعفر. وبالنتيجة فإنّ القاسم هو ابن موسى بن جعفر.

تبعد الحلة عن مقام الحمزة مسافة خمسة فراسخ، ويبعد القاسم بن موسى بن جعفر مسافة فرسخين عن الحمزة. لذا أرى أن نتناول غداءنا، ثم نتحرك.

والحلة مدينة عربية، وهي قذرة، وخاصة في السنوات الأخيرة، حيث بدأت تتحول إلى خرائب. وهي ليست مكاناً للنزهة والتفرج.

ومهما يكن، فقد تناولنا طعامنا وتحركنا قبيل الظهر. وحين قطعنا ما يقرب

(١) سورة الانفطار، الآية ٦.

من فرسخين سمعت رفيقيّ اللذين ـ لم يكونا قد تعودا المشي إضافة إلى أنهما لم يناما جيداً الليلة الماضية بسبب حركة القطار ـ سمعتهما يتحاوران حول المكان الذي سنقضي الليل فيه. قلت لنفسي إذا سايرت هؤلاء وجب عليّ المبيت في إحدى هذه القرى على أي حال. وبما أنني في موقع الأقلية وهما في موقع الأكثرية فإنهما سيتغلبان عليّ. لذا فقد رأيت من الأفضل أن أسبقهما بالمسير، كي يضطرا إلى اللحاق بي. وعليه فقد زدت من سرعتي تدريجياً كي لا أشعرهما بها، حتى ابتعدت عنهما كثيراً بحيث لا أسمع صوتيهما مهما نادياني، ولا يريانني كلما أسرعت في المشي أو ركضت. وقد قررت أن أركض حتى وصلت إلى ساقية ماء تبعد عن مدينة الحمزة بأقل من نصف فرسخ. توقفت هناك، ودخنت غليوناً حتى بلغاني مرغمين، وهما مقطبا الوجهين يكيلان لي السباب والشتائم قائلين: إن هذا ليس تصرفاً لائقاً، وإنّ مرافقتك في السفر عمل حرام، لأنك لا تتصرف كما تستوجب الصداقة.

قلت: وما الذي حدث؟ إنني لم أفعل شيئاً، ولم يصدر عنّي تقصير يستدعي كل هذا اللوم.

قالا: لقد كنّا مصمّمين على المبيت في إحدى القرى، ولكننا وبسبب تقدمك في السير اضطررنا للاستمرار في السير حتى كدنا أن نموت من شدة التعب.

قلت: حسناً! إنّ ذلك لا يحتاج إلى كل هذا التقطيب والشتائم. تعالوا لنمضي الليلة هنا على حافة نهر صافٍ، وفي أرض منبسطة واسعة، وجوٍّ هادىء.

قالا: أتهزأ منا؟ الآن والحمزة على مقربة من هنا؟

قلت: طبعاً إنني أهزأ بكما. ألا تخجلان من التعب، وأنتما لم تقطعا فرسخين من الطريق بعد، وتريدان المبيت، بينما لم يبق إلّا ثلاث ساعات إلى الليل. وأنتما رجلان تشهد على رجولتكما لحيتاكما وشارباكما. لكن يبدو أن الجماد يشهد الزور أحياناً. فقد مضى زمان كان فيه الناس ولشدة صدقهم في الشهادة يقسمون بالشاربين، وكانوا يحترمون اللحية والشاربين كثيراً ويخضبونها بالحناء ويمشطونها. ويقدّمون ذوي اللحى البيض، ويجلسونهم في صدر المجلس. وكل هذه الأمور تثبت صدق أقوالهم. وبطبيعة الحال فإن نتيجة الكذب

وشهادة الزور هي الذل والهوان وعدم الاعتبار. وكمَثَل اليوم الذي لا ريب فيه ينبغي أن يُنتظر ذلك للحية والشاربين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

لم ينبس رفيقاي ببنت شفة، إما لشدّة غيظهم، أو أنهم لم يكونوا يملكون جواباً لأنّ الحق يعلو ولا يُعلى عليه.

وباختصار، فقد تشرفنا بزيارة ذلك العظيم، وبعد استراحة قصيرة تناولنا فيها الشاي، تجولنا لنصف ساعة في ضواحي تلك القرية. كان الزوار العرب مشغولين ببناء صحن لذلك الضريح. وشيئاً فشيئاً بدأ نزول الظلام، وارتفع معه صوت الجامي بالأنين والصراخ، وهو يشكو ألماً شديداً في الخصيتين. فسكبنا في فمه بعض الأدوية والشاي. كان الإثنان يلقيان بمسؤولية ما حدث على عاتقي، من أنّ هذا الألم ناجم عن التعب وكثرة السير. وكنت لشدة خوفي لا أتفوّه بشيء. اشترينا ثلاث عشرة بيضة، ومقداراً يسيراً من السمن، قلينا به البيضات. وكنا قد أقمنا في أحد الأروقة التابعة للمقام.

ثم جاءنا بعض العرب قائلين: إنّ هناك مجلساً للعزاء الحسيني يقام خلف الصحن، فتعالوا وكُلوا من طعام العشاء المطبوخ لهذه المناسبة.

قلنا: نحن متعبون كما أنّ أحدنا مريض. ولن نأتي إلى المجلس، ولسنا بحاجة إلى طعامكم.

لم يتناول الجامي شيئاً من البيض المقلي بالسمن لشدّة ألمه. فأكلت أنا والقوچاني الطعام بأكمله. وقد جاؤونا بعد ذلك بصحن من الرز حاولنا إعادته فلم نفلح. فأفرغناه في القدر بعد أن أكل الجامي منه لقمة أو اثنتين كعشاء، وظل الباقي إلى الغد. وبما أننا كنا متعبين إضافة إلى عدم نومنا الليلة السابقة، فقد استولى علينا النوم بسرعة، بينما ظل الجامي يئن ويتأوه بين الفينة والأخرى من شدة الألم.

في الصباح وبعد أداء الصلاة وتناول الشاي انشغل القوچاني بمعالجة

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

الجامي. وبعد ساعة قلت: بما أن الطريق إلى مرقد القاسم فرسخان فقط، فمن الأفضل أن نتحرك.

انفجر القوچاني قائلاً: لا أستطيع أن أترك صاحبي الميت هنا وأذهب. إن شئت الذهاب فاذهب، فأنا لن آتي.

قلت وقد سيطر عليّ الخوف: إنه لم يمت فلماذا تكذب. إنّ الإنسان الحي ينبغي أن يتحرك، وإذا مات وسط الطريق فسيسكن حينذاك في قبر وسط الطريق كما قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1]. إذاً فما زال اليقين ـ الذي هو الموت ـ لم يأتِ بعد، فقد وجب التحرك والعبادة.

قال: أنا لا أتجادل معك، وإنما أقول: إن شئتَ الذهاب فاذهب. فنحن سنقضي على أي حال اليوم والليلة أيضاً هنا.

قلت: من أين لي أن أعلم أنكما لم تتآمرا، وأنكما قد اتخذتما من ألم الأعضاء التناسلية والصراخ ذريعة تستريحون بها هنا اليوم وتجبرونني بها على البقاء معكما، كما أتيت بكما بالأمس مجبرين إلى هنا؟ وإلّا فلمَ تتألم الأعضاء التناسلية دون غيرهما من أعضاء البدن، وهي المعلقة دائماً ولا يثقلها شيء، ولا يختلف الأمر بالنسبة إليها سواء أمشي حاملها أم ظل في المنزل؟ نعم! لو أن الرِّجل تألّمت، لكان هناك وجه في المسألة. أما ذلك المكان الخاص فكلا وألف كلا.

قال: لقد تجمع الهواء من أعالي البدن، وتكدس هناك في الأسافل، وسبب الألم. ولو لم يكن صاحبنا يتألم حقيقة، لما تخلّى عن وجبة البيض المقلي الليلة الماضية.

قلت: إنّ شيطنته وكسله يجعلانه يغضّ النظر حتى عما هو خير من وجبة الغداء، فغبار قطيع الغنم هو قرة عين الذئب. وأما ما تقوله من تجمع الهواء في خصيته فمن المؤكد أنك لم تر ذلك، بل سمعته منه. ومن قال إنه صادق في دعواه؟ وما الذي يثبت صحة ما يقول؟ بل إنه ينافق. وأنت أيضاً أخذت تدور في

(١) سورة الحجر، الآية ٩٩.

فلكه، وصرت صديقه الوفي الذي يسعى في معالجته، وأصبحت عطوفاً عليه: فإما أن تكون في صلب النفاق أو في حاشيته. ولقد صدق العظماء حين قالوا أنه (في الأسفار تعرف جواهر الرجال). وأنا سأظل على أية حال أجاريكم لأعرف مقدار هوى نفسيكما، وقدرة أجسامكما، وأحصل بعد ذلك على ميزان أتعامل به معكما، ولا أغطس في الماء قبل أن أقيس عمقه، ولا أنخدع بكما.

معجزة شفاء الجامي:

قضينا الليل هناك، وفي الصباح تحركنا، وإذا بالجامي الذي لم ينم ليلة لشدة ألم أعضائه التناسلية يركض كالغزال في الصحراء. قلت: يا جناب الشيخ! المعروف أنّ الألم يأتي فجأة ويزول تدريجياً. فكيف اختفى ألمك فجأة؟

قال: وهل أنت مُنكر لكرامات هؤلاء العظام[١]؟

قلت: أي والله. حقاً لقد تفوقت حتى على الأصفهانيين[٢].

وصلنا مرقد القاسم وبعد الزيارة والدعاء للمؤمنين وتناول الغداء وإغفاءة قصيرة، نهضنا وصلّينا الظهر والعصر وتناولنا الشاي وتحركنا.

بعد مسير ثلاثة فراسخ، وصلنا عند الغروب إلى قرية تبعد عن الحلة ثلاثة فراسخ. وقبل دخولنا القرية كان قطيع من الأبقار يعود من المرعى ويدخلها. دخلنا القرية ونحن نؤمل أنفسنا بطعام مكون من الخبز والحليب والشاي. ألقينا رحلنا في المسجد، وحملت أنا القصعة الكبرى التي كانت معنا وذهبت لأجلب الحليب. طرقت أبواب عدة منازل وسألتهم إن كان لديهم حليب، فأجابوا بالنفي. قلت: يا إلهي! فأين ذهبت تلك الأبقار إذاً؟

وصلت إلى باب أحد البيوت، فشاهدت امرأة تحلب بقرة، فصحت: هل يوجد لديكم حليب يا أهل الحوش[٣].

---

(١) يعني صاحب المرقد الذي زاروه.

(٢) عُرف الأصفهانيون بين الإيرانيين بالشطارة والتدبير.

(٣) يا اهل البيت.

أجابت المرأة: لا يوجد.

فشتمتها بالعربية عدة شتائم وقلت لها: أنا مشترٍ ومستعد لدفع النقود.

قالت: نحن لا نبيع الحليب.

قلت: إذاً فاعطيني بالمجان.

قالت: لا أعطيك. عُدت وشتمتها مرة أخرى.

وفي تلك الأثناء ظهر عربي وسط الزقاق، فسألني عما حدث.

فقلت له: أريد شيئاً من الحليب، وهو موجود عند هذه المرأة، إلّا أنها ترفض أن تعطيني.

فقال الرجل بضع كلمات شتائم، ثم لام المرأة، وأخيراً جاء ابنه وأخذ القصعة وملأها حتى نصفها حليباً. وقد أعطيته بدوري قراناً، فرفض أخذه، ولكنني قلت له: هذا مالك ولا تقل لأمك.

جئت بالحليب إلى المسجد وقلت: يا رفيقيّ! إنّ هذه الكمية لا تكفي لإعداد الشاي بالحليب، ويجب أن نفتّ فيه الخبز اليابس ثم نأكله.

عند أذان المغرب جاء إلى المسجد شيخ من تلك القرية وصلّى المغرب والعشاء، ولكونه روحانياً أيضاً، فقد شكونا له أهل تلك القرية، لأننا طلبنا حليباً ولم يعطونا. فقال: إنّ هؤلاء كفرة.

فعرفنا أن الشيخ المسكين متألم أيضاً منهم. وأنهم لا يُعيرونه اهتماماً.

وقال الشيخ: يوجد مضيف هنا، فلماذا لم تذهبوا إلى هناك كي تأكلوا طبيخاً على الأقل.

قلنا: يا جناب الشيخ نحن نقنع بالخبز اليابس. وبطبيعة الحال فإنّ القناعة مدعاة لرفع الرأس والعزة. كما أنّ الطمع مجلبة للذلّ والهوان. قال رسول الله ﷺ: «عزَّ من قنع وذلّ من طمع».

خرج الشيخ العربي من المسجد، وعاد ومعه رغيفان يابسان، ومقدار من اللبن الرائب، والتمر الخستاوي الفاخر، واعتذر لكون الخبز يابساً.

قلنا: يا جناب الشيخ لم نكن نرضى بتكليفك، إضافة إلى أن الخبز اليابس

موجود لدينا بكثرة. ولكننا أردنا أن نطلعك على حال أهل هذه القرية، الذين رفضوا ـ بالرغم من كثرة ما لديهم من الأبقار الحلوب، أن يعطونا الحليب الذي لم نرد أن نأخذه مجاناً منهم. وهذا نوع من العناد والانحطاط قد اتصفوا به. ونحن لم نطلب من جنابك المحترم أن تكلّف نفسك كل هذا العناء. فنحن ممتنون لك ونشكرك كثيراً.

نهض الشيخ ليُصلّي الفريضة الأخرى، فقلت: يا رفاق أنا الذي يجب أن أعدّ طعام العشاء هذه الليلة، ولا أريد أن تعترضا عليّ. ثم نهضت وخفقت اللبن الذي جاء به الشيخ بالماء، ومزجته بالحليب، ثم قطعت جميع الخبز اليابس الذي كان معنا إلى قطع صغيرة وألقيتها في ذلك المزيج، بحيث امتلأ الطاجن الذي جاء به الشيخ، ثم غطيته بعد ذلك بقطعة قماش ووضعته جانباً كي يتشرب الخبزُ اللبن. وجلست مع رفيقي ندخن الغليون ونشرب الشاي. وبعد ساعة فرشنا السماط وهجمنا على الطاجن. كنا نضع مع كل لقمة تمرة بعد فصل نواتها ونمضغها. ولم يكن معلوماً لنا ما كنا نأكله: أهو اللبن أم الخبز والحليب أم الحلوى، إلّا أنه كان واضحاً أن الطعام لذيذ، وكنّا نأنس به. إنّ المهم في النِّعم الإلهية من مأكولات ومشروبات كونها سائغة، والالتذاذ بها، وعدم اتباعها بألم وبلاء. ومن هذه الناحية فلن يكون هناك فرق بين أنواع الأطعمة والمشروبات، بل إنّ خبز الشعير اليابس يكون أحياناً ألذ وأشهى من الرز المطبوخ بالزعفران. كما إنّ إنسانية الإنسان ليست بجمال ملابسه ووجهه، بل بحسن سيرته ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] وحين يكون الإنسان حسن السيرة فلا فرق عندها أن يكون قبيح الوجه أو حسنه.

إذاً، فنحن الليلة وفي بيت الله هذا غارقون في النعمة، ويجب علينا الحمد والشكر وأداء النوافل، إضافة إلى ما علينا من الواجبات.

قال القوچاني: إنّ أحد النِّعم الإلهية النوم في الليل، خاصة للشخص المتعب، حيث يُزيل التعب ويُعيد القوى المفقودة، ونحن فاقدون لتلك القوى

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

الآن. فينبغي أن ننام لندرك تلك النعمة الإلهية: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[٢] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾[٣].

اغتاظ الجامي وقال: إذاً لم يبقَ وقت لشكر الحق تعالى وعبادته، لأنّ الزمان منحصر في الليل والنهار فقط. فإذا انشغلنا في أمور المعاش نهاراً، ونمنا وآثرنا السكون ليلاً لنستعيد القوى التي تحللت نهاراً، وتُفاض علينا من الله الفيّاض ـ وكلا العملين: العمل في النهار والنوم في الليل نعمة ـ فمتى سنشكر الله؟ إنّ عمرنا مكوّن من سنين، والسنين مكونة من أشهر، والأشهر من ليل ونهار، وهكذا دواليك.

أما أنا فقد استولت عليّ حالة عرفانية. فقلت للجامي بغضب: هل يمكن لك بهذه العنق المنكسرة أن تشكر الحق تعالى؟ أتظن أنك إذا صلّيت ركعتين ليلاً فإنك قد شكرته سبحانه؟ كلا. بل إنك لن تستطيع طيلة حياتك أن تشكر نعمة أحد أظفارك. بل حتى هذه الصلاة وهذا الحمد مما تظنه شكراً لله، هي نعم وهداية من الله أُعطيت لك. وهذه النعمة بدورها تحتاج إلى الشكر، وهلمّ جرّا. إذاً فمتى وأين ستشكر؟ ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾[٤].

قال الجامي: إذاً فكل هذا العدد من كلمات (شكور) و(شاكر) التي وردت في القرآن الكريم مثل ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ و﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ لا مصداقية لها. وإن كانت بلا مصداقية ـ والعياذ بالله ـ فينبغي تكذيبها. لأنه ـ وحسب قوله ـ فليس عندنا شاكر؟

قلت: أيها البائس. لقد توّجوك بالورد حين سمّوك شاكراً. ولو كنت شاكراً حقاً لكنت رباً آخر، ولكان هو محتاجاً. وحين قال موسى عليه السلام: «أنا أشكرك بحولك وقوتك وهدايتك. فشكري إياك أيضاً نعمة منك عليّ. إذاً فليس بإمكاني شكرك وأنا عاجز عنه». قال الحق تعالى في جوابه: «الآن شكرتني، وعرفت معنى الشكر». وإن إدراك معنى كون كل النِّعم هي منه سبحانه، وكذلك الحركات

(١) سورة النبأ، الآية ٩.
(٢) سورة النبأ، الآية ١١.
(٣) سورة غافر، الآية ٦١.
(٤) سورة الحجرات، الآية ١٧.

والسكنات التي يؤديها العبد، وبحوله سبحانه وقوته، وأنّ العبد عاجز عن الشكر وإدراك عجزه، هو بعينه شكر لله. «من عرف نفسه، فقد عرف ربه». وإن اغتررت بصلاتك وصومك والعبادات الأخرى، واعتبرتها من نفسك، وجعلت بدلها مقابل نعم الله، ولو كان لسان حالك يقول:

ورقة خضراء هي هدية الدرويش ماذا يفعل المسكين؟ هذا كل ما لديه

فستكون مشركاً، ولن تكون عارفاً بالألوهية، وتكون قد أضعت نفسك أيضاً. حيث إنّ نقيض هذا ما ورد في الآية الكريمة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] وأنت تصوّرت أنك عبد شاكر؟ أي جهل وغرور وخيال باطل؟

قال: إذاً ماذا نفعل؟

قلت: لا شيء سوى المعصية، وهذا أيضاً نقص وأمر عدم. ومنذ اليوم الذي خَلَقنا فيه، لم يرَ منّا سوى المعصية (ما عرفناك حق معرفتك). وبأي مقدار عرفه العبد فذلك عطاء الله. وأي درجة أعطوه في الجنة فذلك أيضاً عطاء الله. وإن قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2] إنما هو من شدّة رحمة الله ولطفه بحق العبد، وهو إتمام الحجة على العبد الذي لا حياء له، حيث جعل الله نفسه ـ مع عظمته اللامتناهية ـ متعاملاً بالبيع والشراء مع هذا العبد المخلوق من الطين المظلم. وعلى الرغم من أخذه ـ منذ اليوم الأول ـ المواثيق والعهود على الإنسان على أن يفي بها فإنك أيها الإنسان لم تفِ بذلك العهد، ورأيت نفسك مغبوناً في معاملة الله. ترى هل هناك وقاحة أكبر من هذه؟

نهاية النقاش نعاس:

شيئاً فشيئاً أخذ النوم يتسلّل إلى عيون رفيقيّ، وقد أضيف تعب تلكم النقاشات إلى تعبنا الذي لقيناه من المشي فنمنا. وبعد استيقاظنا وأدائنا صلاة الصبح وشربنا الشاي، تحركنا مع شروق الشمس باتجاه مدينة الحلة حيث وصلنا

(١) سورة الحشر، الآية ١٩.
(٢) سورة التوبة، الآية ١١١.

إلى بساتينها، وزرنا مقبرة النبي أيوب الواقعة وسط البساتين. ووصلنا بعد ذلك إلى مقبرة محمد بن إدريس[١] وقرأنا سورة الفاتحة على روح ذلك العظيم.

وصلنا الحلة قرب الظهر، وتناولنا غداءنا. قلت: يا رفيقيّ! إلى أين سنغادر بعد ذلك؟

قال القوچاني: يجب الذهاب من هنا إلى كربلاء التي تبعد عنّا سبعة فراسخ. والأفضل أن نذهب هذه الليلة إلى مقام ردّ الشمس الواقع وسط مقبرة الحلة، وننام هناك، وفي الصباح الباكر نتحرك باتجاه كربلاء، ومنها إلى مدينة النجف ونختتم سفرنا.

قال الجامي: إنّ المسافة من هنا حتى النجف سبعة فراسخ أيضاً. وبما أننا كنا قد زرنا كربلاء، إذاً فلا داعي لجعل فراسخ النجف السبعة عشرين فرسخاً. ولنقضِ الليلة كما قال القوچاني في مقام ردّ الشمس ونتحرك في الصباح الباكر باتجاه النجف.

قال القوچاني: أنا لا أعرف الطريق من هنا إلى النجف. وبما أنه يتحتم علينا المرور بين أعراب البادية، فالطريق غير آمنة. وبما أنّ الحسين بن علي هو سيد الشهداء، فزيارة مرقده مرة أخرى أحق وأوجب.

قلت: يا رفيقيّ! أما أن تكونا قد أصبتما بالدوار، أو أنّ كسلكما استدعى هذه الآراء. ألا تعلمان أنكما لم تزورا مرقد أطفال مسلم في مدينة المسيب. ولا قبر عون بن زينب الذي يبعد فرسخين عن كربلاء؟ فإن هذين الطريقين اللذين اختار كل منكما واحداً منهما يمكن أن يكونا غضًّا للنظر وتجاهلاً لزيارة هؤلاء العظماء. لذا ينبغي الذهاب من هنا إلى (المسيب) إن أمكن، ومن المسيب إلى كربلاء لكي يُزار هؤلاء العظماء أيضاً، ولا يُخلف شيء من العهد الذي اتخذناه حين شرعنا بسفرنا هذا من مدينة النجف. وتكون لكم إرادة صلبة.

هجم الإثنان عليّ بقولهما: هل جننت؟ إنّ المسافة من هنا إلى المسيب

---

(١) هو الفقيه الشيعي محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس العجلي الحلي المتوفى عام ٥٩٨هـ اشتهر بكتابه السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي.

خمسة عشر فرسخاً عبر طريق صحراوي مقفر خالٍ من الزرع والماء. وسيكون هلاكنا حتمياً هناك، وحفظ النفس من أوجب الواجبات. إذاً فرأيك هذا سخيف جداً وغير معقول. إضافة إلى ذلك فإنّ طريقنا إلى كربلاء سيكون عشرين فرسخاً. فلو أنك قلت لنذهب إلى كربلاء، ومن هناك إلى المسيب ثم نعود ففي ذلك شيء من القبول. فبالرغم من أن مجموع ما سنقطعه في هذه الطرق سيكون أيضاً اثنين وعشرين فرسخاً، إلّا أننا سننجو من خطر الهلاك.

قلت: لقد وطّنتما نفسيكما لأن تكونا في كربلاء بعد طيّ سبعة فراسخ سيراً على الأقدام. وأنا سأوصلكما إلى كربلاء ـ إضافة إلى زيارة هؤلاء العظام ـ بنفس هذا المقدار من السير على الأقدام. والآن وقد بقيت خمس ساعات إلى غروب الشمس. فأنا أدعوكما إلى شرب الشاي في صحن أطفال مسلم بشرط أن تُطيعا أوامري لمدة ربع ساعة وتسمعا كلامي.

قالا: سمعاً وطاعة. وإن استطعت أن تحقق هذه المعجزة، فسنكون مطيعين لك حتى لعشر ساعات.

قلت: انهضا واحزما الأمتعة كما لو أننا نريد الذهاب سيراً على الأقدام، واحملا أنتما الاثنان جميع الأمتعة حتى ما يعود منها لي. ففعلا ما قلت لهما. ثم إني تقدمتهما بعد ذلك قائلاً: تعالا. حيث أخذتهما خارج مدينة الحلة وسط ساحة فيها شجرة وارفة الظلال وماء. قلت لهما: اجلسا في هذا الظل حتى أعود.

قطع المسافات بالقطار:

كان الطريق إلى محطة السكة الحديد ربع فرسخ. ذهبت راكضاً إلى موقف القطارات، وقد ارتفع صوت بوق للقطار مؤذناً بحركته باتجاه بغداد. تحركت لأخذ التذكرة من الموقف الفلاني الذي يبعد حوالي ثلاثة عشر فرسخاً وسألت عن موعد الحركة فقالوا: لن يكون أكثر من عشر دقائق قلت: توكلت على الله. ثم أعطيت ثلاث روبيات واشتريت ثلاث تذاكر طويت بعدها الثلاثة عشر فرسخاً كالغزال وركضت نحو رفاقي، وكنت أناديهما باستمرار أن انهضا وتعالا. وكنت واثقاً من أنهما لن يسمعاني. إلّا أنّ جدي هذا نابع من خوفي على ضياع

الروبيات الثلاث، وعدم الوصول إلى المكان الذي نبغيه. وصلت أخيراً أمام رفيقي، وأشرت بيدي وأنا أقول بصوت عالٍ: يا أشباه الرجال اركضا فإن السيارة ستتحرك.. أنت.. اسرع... اسرع..

رأيتهما وقد تحركا أيضاً وسارا. وحين اطمأننت من ناحيتهم ـ وكانت مثانتي قد ضايقتني لكثرة ما فيها ـ نزلت في إحدى الحفر. وعندما انتهيت وجدتهما قد سبقاني. فأوصلت نفسي إليهما وأنا أركض وأنفاسي تتلاحق، حتى بلغت القطار. جلسنا في إحدى عربات النقل المكشوفة، ووجوهنا نحو المشرق، بينما كانت ظهورنا إلى الشمس. تحرك القطار فوراً. وحين ارتاح البدن وهدأ القلب، وانتظم صعود أنفاسي وهبوطها وجفّ عرقي، أشعلت الغليون. كان القطار منشغلاً بحركته السريعة، وقد أصبح الجوّ لطيفاً عند العصر. غطى الفرح والابتهاج أساريرنا بعد أن تأكدنا من بلوغنا المرام. قلت: أيها الجامي! اصغ إليّ. فمن لساني تجري ينابيع الحكمة والتحقيقات الشريفة، لأنّ بحر التحقيق قد ماج بقلبي بسبب هبوب النسيم المؤاتي.

ها نحن قد أصبحنا في السفينة فهبي أيتها الرياح المؤاتية لعلنا نلتقي بالحبيب

سوف نصل الآن، وقبل غروب الشمس إلى مرقد طفلي مسلم وسنلقي برحل الإقامة في أحد أروقة الصحن، وبعد الزيارة والصلاة وسنعد الشاي الذي أردتما تناوله في الحلة.

كنا جلوساً في العربة والأرض تطوى لنا طياً، حيث تطوى معها الثلاثة عشر فرسخاً بسرعة البرق، وكأننا ما زلنا جلوساً في مدينة الحلة هادئي البال. ولن يكون بعدها إلّا سبعة فراسخ نقطعها سيراً على الأقدام. وهذا هو ما عنيته بقولي إنني سأجعل العشرين فرسخاً سبعة فراسخ، إضافة إلى زيارة هؤلاء العظام. وهذا ليس من الكرامات والمعاجز، بل نتيجة علو همتي وكدحي وإرادتي الصلبة؛ وهو أمر صعب في نظر عديمي الحياء والكسالى الذين لا يعملون. وحين يكون الإنسان ذا همة فلن يكون أي عمل مستحيلاً بالنسبة له ـ كما يقول الإفرنجيون ـ لأنه ظل الله وخليفة الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٢٠.

قبل الغروب بساعتين وصلنا محطة القطار، وهي المحطة التي كنا قد ركبنا منها إلى بغداد في سفرنا الأول، وتبعد عن المسيب مسافة فرسخين. وبما أنه لم يكن للسيارات موقف في هذا المكان بالذات، فقد حملنا أمتعتنا بأيدينا، وبمجرد وقوف القطار قفزنا نحن الثلاثة منه. فتصور مأمور المنطقة أننا ركبنا بدون تذاكر كسائر الريفيين من العرب. وقبل أن نتحرك وصلنا وبيده بندقيته وقال بحدة: تذاكر! ولما كنت قد أحسست بتصوّره الباطل فقد قلت له بما يشبه الزمجرة وأنا أخرج التذاكر الثلاث أمامه: هاي! واحد، اثنين، ثلاثة. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾(١).

لم نتريث أو نتطلع إلى ما حولنا أو ندخن غليوناً. تقدمت وأنا أقول لرفيقيّ: اركضا فالمسافة إلى المسيب فرسخان، والوقت ضيّق وما زلتما نشيطين غير متعبين.

وقبل الغروب بنصف ساعة وصلنا صحن أولاد مسلم. فقلت للقوچاني: اذهب أنت لأداء الصلاة والزيارة. وقلت للجامي: ائتنا بماء للسماور. بينما انهمكت أنا بالوضوء وإعداد النار للسماور. وجيء بالماء وألقيت بالنار في السماور، وطلبت إلى الجامي أن يذهب للحرم للزيارة والصلاة، وأن يطلب من القوچاني أن يأتي بسرعة. بينما فرشت أحد الأروقة، وبدأت بالصلاة، وتصاعد صوت فوران الماء في السماور تأوهاً وأنيناً في نغمتيه العالية والواطئة.

حين انتهيت من صلاتي كان القوچاني قد غادر الحرم. فقلت له: تعال وأعدّ الشاي ريثما أذهب للزيارة. ثم ذهبت وأديت الزيارة، وخرجت بصحبة الجامي حيث جلسنا نشرب الشاي وندخن، ويأنس بعضنا ببعض، لكوننا قد وفقنا لخير الدنيا والآخرة.

لم يبق لنا للوصول إلى كربلاء إلّا خمسة فراسخ من مجموع الفراسخ السبعة، بعد أن نقطع فرسخين منها نوفق فيها لزيارة أولاد مسلم ومقبرة عون الواقعة على بعد فرسخين من كربلاء. ترى ما الذي يريده الأعمى من الله غير عينين مبصرتين؟

---

(١) سورة المائدة، الآية ٧٣.

قضينا الليلة في ذلك الصحن. وفي الصباح وبعد الزيارة وتناول الشاي ذهبنا إلى المسيب واشترينا منها خبزاً يكفي لوجبتين، ولبناً طازجاً معروفاً بجودته، وذلك بنية البقاء في القرية التي يوجد فيها قبر عون الواقع وسط صحراء جرداء قفر. سكبنا اللبن في منديل حملناه معنا ليذهب ماؤه ويصبح أفضل، وسرنا. وحين لم يبق إلى عون إلّا فرسخ واحد، وكان الجوّ معتدلاً، وفي الصحراء بعض العشب، اقترح رفيقاي أن نجلس ونتناول غداءنا. ففرشنا السماط، وخفّفنا شيئاً من اللبن الرائب، فأكلنا معه الخبز، بينما بقي القسم الآخر منه لم يُمسّ. إلّا أنّ رفيقيّ بدآ بالتناول منه، ومهما حاولت منعهما عن عملهما القبيح هذا لم أفلح. حتى بعد أن ذكرت لهما المنافع والمفاسد، وكيف أنهما سيظلان دون طعام وقت العشاء في هذه القفار، وأن من الصعب على الإنسان المسافر على قدميه أن يأكل خبزاً يابساً، فلم يجدِ كل ذلك معهما شيئاً. ومن أين لقوة وعظي أن تتغلب على قوة شهوة اثنين من الروحانيين. بل مهما كررت عليهما النصائح لم يجدِ معهما، فكنت كمن يضرب حديداً بارداً، أو يحمل ماء بالغربال. لذا فقد شاركتهما فيما هما فيه:

إن كنت لا تريد الفضيحة، فكن مع الجماعة فيما يعملون.

وهكذا أكلنا اللبن الرائب حتى آخره. ثم غادرنا المكان.

طلب الكرامة:

قلت لهما: نحن الليلة ضيوف السيدة زينب. وأنا أنتظر منها وفي هذه الفلاة المقفرة عشاء فاخراً مكوناً من ماء اللحم(١). حيث مضت لنا مدة مديدة لم نتناول فيها لحماً. فإن حدث هذا، فسيكون معلوماً أن زيارتنا قد قبلت.

قال الجامي: إن أكل اللحم مستحيل في هذه الفلاة، وعليه سنيأس من قبول الزيارة.

---

(١) أكلة شائعة في إيران والعراق يوضع فيها اللحم مع الحمص والبصل والتوابل ويطبخ الجميع وبعد نضجه يثرد الخبز في مائه ويؤكل مع محتوياته الأخرى.

وثانياً: إن الأئمة إذا أحبوا أحداً ازدادت بليته كما قال الإمام علي عليه السلام: «من أحبّنا أهل البيت فليعد للفقر جلباباً».

قلت: الآن وقد قيل الكلام، وعُقد الشرط، فقد وجب أن يكون الرجل عند كلامه. فيا سيدتي زينب. إن كنت قبلتِ بنا ضيوفاً عندك في هذه الليلة، فينبغي أن تعطينا ماء اللحم.

قال القوچاني: ألا تسأل تلك المرأة المتجهة نحو الخيام إن كان لديهم حليب كي نشتري منهم إذا أردنا الذهاب عند الغروب، لأن الخبز يابس جداً. وإن سؤالك إياها لن يضرّ بعقيدتك، حيث لن نشتري الحليب إذا ما جاء ماء اللحم كما تمنيت أنت.

ناديت بأعلى صوتي: هاي! يُمّا، يُمّا، يُمّا. هاي.

فقالت: شتريد؟

قلت: حليب أكو عدكم؟

فقالت: إي سيدنا[١].

قلت: يا رفيقيَّ! إن لم يأتِ ماء اللحم، فلن أذهب لشراء الحليب، بل لن آكل حتى الخبز.

قال الجامي: إنك تطمع في تحقيق ما يستحيل تحقيقه، وكأنك جئت برأس قيصر. فما تطلبه هو من الاستحالة بحيث يقارب استحالة وجود شريك للباري سبحانه. حيث إن وجود ماء اللحم في هذا القفر بعيد غاية البعد. وأنت لم تؤدِ عملاً للسيدة زينب كي تتدلّل هذا الدلال. فأنت في طريقك الآن إلى بيتك. ولأنّ مرقد ابنها يقع في طريقك، فقد سلّمت عليه سلاماً هو من ضرورات إسلامك. وهذا السلام المختصر لا يستحق كل هذه الأماني.

قلت: إنّ ركضي ربع فرسخ حتى موقف القطار في الحلة في ذلك الجوّ الحار، وركض ربع فرسخ آخر في العودة لإخباركم، إضافة إلى ربع فرسخ آخر من الركض باتجاه القطار والعرق يتصبّب من رأسي ولحيتي، لأجل من كان؟ ولو كنت ـ كما تقولان ـ في طريقي إلى كربلاء أو النجف، فربما لم يكن هناك داع

---

(١) يُما: أماه. أكوعدكم: أيوجد لديكم؟ شتريد: أي شيء تريد؟

لكل هذا الركض. فليس الأمر إذاً مجرد سلام جاف ذلك الذي ظننته وقسته بنفسك أنت الذي وضعتَ في فمك لقمة جاهزة.

قال القوچاني: لقد كان ذلك الركض لأجل طفلي مسلم. فلماذا تمنّ على السيدة زينب؟

قلت: مهما يكن. أنا لا أمنّ على أحد. كما إنني واثق بأنه لا فرق في نظر هذه السيدة المخدّرة بين طفلي مسلم وابنها. إضافة إلى أننا سنبيت الليلة هنا. فكيف يكون هذا مجرد سلام جاف فقط وبشكل عابر؟ كما إنني لم أطلب شيئاً كثيراً، بل ماء لحم لا يتعدى ثمنه القرانين، وليس الآلاف والملايين.

انبرى الجامي قائلاً: يا رجل! إن النقاش لم يكن حول قيمة اللحم كي تقول إن ثمنه قرانان، بل هو حول إمكانية وجود ماء اللحم ذي القرانين هذا الذي لا مكان لوجوده في هذه الفلاة، مع فقدان أسبابه ووسائله الوجودية. بل ينبغي أن تكون لموجده القدرة على الخلق، بحيث يُخرج ماء اللحم قهراً من زاوية السرّ والعدم، ويأتي به منصّة الظهور وساحة الوجود. ولذا قلتُ إنه أمر خطير وجلل ومن أعمال الله.

رددت أنا بحماس أيضاً: يا رجل! أمنكر أنت أن السيدة زينب لها يد التصرف في الكائنات. وحين يكون في هذا العالَم المظلم عنصر يجعل بإشارة منه الأجراس تتوقف عن الرنين، ويحبس الأنفاس في الصدور، حتى يكون النفس ضيقاً حرجاً على المتنفسين. فكيف يكون الأمر الآن في عالم التجرد والنورانية. حيث لو شاء لجعل هذه الفلوات بحراً من ماء اللحم يغرقك فيها ولَاختنقت بإشارة واحدة منه.

قال: لستُ منكراً، ولكنه لن يعطيك أنت أيضاً ماء اللحم.

قلت: إنني أتحدّاك أن تقول إنك لن تأكل من ماء اللحم حتى لو أُحضر أمامك. كما شرطتُ أنا على نفسي عهداً أن لا آكل الخبز حتى يحضر ماء اللحم.

قال: ولماذا أفعل ذلك؟ إنني لست عنيداً مثلك. بل لو حصل ماء اللحم فسآكل أكثر منك.

سكتنا عن النقاش بعد ذلك، ثم عدنا أدراجنا إلى صحن مرقد عون وذلك قبل الغروب بثلاث ساعات، فتوضأنا وصلينا صلاة الزيارة، وجلسنا في محلنا

نشرب الشاي. وفجأة أقبل علينا شخص له شارب طويل متهدّل على جانبي فمه، وعلى رأسه العقال والكوفية وهو يحمل بيده بندقية، وقد ملأ صدره بحزامين مليئين بالرصاص. وقد لفّ حول ساقيه الأربطة التي دأب أفراد الدرك على شدّها حول أرجلهم، ففهمنا أنّ الرجل منهم.

قلت له: تفضل أغاتي اشرب شاي.

فلبى الدعوة وجلس واحتسى قدحاً. وبعد مدة من الحديث باللغة العربية بيننا وبينه، انطلق فجأة بالحديث بالفارسية، وهو يقول إنني إيراني من أهل أصفهان، وأعمل منذ سنة مستخدماً لدى الإنكليز في سلك قوات الدرك.

قلت: الله يخرب بيتك! لقد أبدلت لباسك ولسانك إلى اللبس واللسان العربيين. فكيف استطعت أن تجعل من سماتك وملامحك عربية؟

قال: الأصفهانيون كالجنّ يظهرون بمختلف الأشكال.

فجأة رأينا أربعة من العرب شاكي السلاح يحملون البنادق وأحزمة العتاد ويمتطون صهوات الخيول العربية، يتقدمهم شاب وسيم الطلعة، جميل الملبس، لا يحمل من السلاح إلّا سيفاً علقه إلى جانبه. كما حمل خنجراً في حزامه، وكان مقبض خنجره وكذلك غمد سيفه من الذهب. اتجه بحصانه الجميل جداً نحو مرقد عون، وقد أصبح واضحاً أن الشاب هو شيخ العشيرة وكبيرها.

نهض رفاقي والدركيّ الأصفهاني خائفين ليروا ما حصل. بينما بقيت أنا جالساً وسط الرواق بالقرب من السماور والأمتعة القليلة أدخن الغليون. تناهى إلى سمعي عندها صوت أنين نعجة ارتفع وكأنه يبشرني بنيل المرام. قلتُ: بشّركِ الله بالخير أنتِ أيضاً. فلا تئني لأنك ستنزعين ثياب الحياة المستعارة، وتحصلين على الحياة الأبدية، وترعين في مراعي الجنة جنباً إلى جنب مع الذِّبْح الذي افتدي به إسماعيل عليه السلام.

عاد رفيقاي وهما يقولان: إنّ الشاب حين ترجل عن فرسه أمر مرافقيه قائلاً: اذبحوه. وحين أصدر أمره ذاك اطمأن قلبانا أننا لسنا المقصودين بالذبح، وإلّا فقد كان قدرنا أن نُدفن إلى جنب عون، وبدلاً من أن نأكل ماء اللحم، سيكون لحمنا طعاماً للأفاعي والديدان.

قلت: يا لكما من ضعيفين في صبركما واستعدادكما! لماذا الخوف؟ إنّ أحداً لا يخاف من الموت وهو بجوار هذه العائلة ـ أهل البيت ـ بل إنهم بكامل الرغبة والشوق يتهافتون على ذهاب الأنفس. وأنا حين سمعت أنين النعجة ولكونها من الحيوانات، ولم تدخل بعد في عالم الملكوت وتجهل العاقبة، فقد واسيتها ولم أكن أعلم ـ وأنتما الروحانيان ومن أولاد آدم ـ أنكما بحاجة أيضاً إلى المواساة. ترى أين ذهبت روحانيتكما؟ يبدو أنكما قد اتخذتما من هذا الزي الروحاني وسيلة توهمان بها الناس. ولم تعلما أن الدنيا مدرسة أمرنا الله أن ندرس فيها على أيدي الأنبياء والمعلمين، كي نفهم ونعمل، ونجعل من أنفسنا آدميين. وفي هذه المدرسة يمتحن الإنسان امتحانين: خاص وعام، والممتحن هو الله ذاته، ليسود وجه كل من كان فيه غش.

أما ذلك الشاب، فبعد أن أمر مرافقيه بذبح النعجة، دخل إلى ضريح عون وأدى الزيارة. وبعد برهة خرج وسلّم علينا، ثم اتجه نحونا، فنهضنا احتراماً. ولأنني كنت سيّداً[1] فقد انحنى ولثم يدي ثم قبّل كتفيّ وجبيني ولحيتي. قلت في نفسي: لعله عون نفسه وقد صُوِّر لي.

خاطبت الشاب قائلاً: تفضل أغاتي اشرب شاي. فلبى دعوتي وجلس وشرب قدحاً. ثم تكلم بعد ذلك معتذراً بأن طعام العرب لا يليق بكم. لذا أرجو أن تأخذوا من لحم النعجة هذه مقداراً وافراً وتطبخوه لأنفسكم.

فأجبته: حلّت البركة.

تحقق الكرامة:

ذهب الشاب، ثم أرسل إلينا فخذاً مع كمية من الشحم، طلبت إلى الجامي أن ينهض ويجمع لنا ما يستطيع من البعر الموجود بكثرة على الأرض، ويضعه على بُعد عشرين قدماً من الضريح كي لا يصل دخانه إلى أنوفنا. بينما انهمكت أنا والقوچاني بتقطيع اللحم الذي ملأنا القدر منه، وسكبنا فوقه أربعة أقداح من

(١) أي من نسل النبي ﷺ ويمتازون بكون عمائهم سوداء.

الماء، إضافة إلى ما يحتاجه، ثم وضعناه على البعر المشتعل. وفي الساعة الثانية عشرة مساء نضج الطعام، فأكلنا في تلك الليلة طعاماً لم نأكل بلذته طعاماً من قبل، وشكرنا الله والسيدة زينب.

تحركنا قبل أذان الصبح فوصلنا كربلاء عند شروق الشمس، حيث قضينا يومين، سافرنا بعدها إلى النجف. وقد استغرق سفرنا ذاك شهراً كاملاً.

توافد العرب على الدراسة في النجف:

عند نهاية الحرب وأيام محادثات السلام بين الدول، واستقرار الإنكليز في العراق، انشغل الناس بالمكاسب والبناء، ونصب مضخات الماء على ضفاف الأنهار الكبيرة، وزيادة المزارع والإثراء. وتحوّل أعراب البادية إلى أغنياء. كما لاحظنا مجموعات وأفواجاً من العرب الذين كان أغلبهم من الملاحين والمكارية[1] أخذوا يتوافدون على النجف، وهم يلبسون العمائم والعباءات لغرض الدراسة. ولكن أي عرب كانوا؟ وجوه سوّدتها الشمس، وجلود خشنة وعظام غليظة، وأقدام ضخمة متشققة لكثرة الكدح، ولحى على الحنك فقط وعمائم كبيرة، إضافة إلى قامات طويلة، وحناجر واسعة، وأصوات تشبه الرعد. وحين كانوا يحضرون للصلاة جماعة خلف شيخ عربي، يسأل بعضهم بعضاً ماذا تقرأ؟

فيجيب: قل أعوذ برب الناس.

ثم يسأله بدوره: وأنت ماذا تقرأ؟

فيجيبه الأول: قل يا أيها الكافرون.

فيعود السائل إلى القول: زين زين أنت هواي قريت[2].

وبعلمهم هذا وكمالهم[3] حرموا الطلاب الإيرانيين من شيئين لا يمكن لهم العيش بدونهما: الكتاب والمسكن، بحيث إنه ولكثرة ما أقبل عليهما العرب ـ الذين

---

(١) المكارية: ساسة الحمير.

(٢) حسن حسن. لقد قرأت كثيراً.

(٣) «بعلمهم هذا وكمالهم» يقولها المؤلف للاستهزاء بأولئك الطلاب.

تعلموا الألف باء ـ شراءً وإيجاراً، فقد ارتفعت أسعارهما، وأصبحت حياة الطلاب صعبة بسبب ذلك، فمثلاً كتاب **جواهر الكلام** الذي لم يكن ثمنه يتجاوز العشرين توماناً قد وصل إلى الستين؛ والبيت الذي كانت قيمته مائتي ليرة، وصل إلى الأربعمائة؛ والمنزل الذي كان إيجاره لسنة واحدة ثلاث أو أربع ليرات، أصبح باثنتي عشرة ليرة، وعلى هذا فقس. ويبدو أن هؤلاء السذّج كانوا يتصوّرون أن كل من يملك عباءة وعمامة، ولديه كتب كثيرة، هو عالم دين أو سيكون عالماً. ولكن ماذا سيفعل من انقضى من عمره الشريف! أربعون أو خمسون سنة، وبدأ لتوه بقراءة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[١]، ماذا يفعل هذا بكتاب **وسائل الشيعة** و**جواهر الكلام** و**الشرح الكبير**؟

وعلى أي حال فقد جاءت الوجبة تلو الوجبة من هؤلاء الحفاة البدو، ودخلت في هذا الزيّ ـ زي الروحانيين ـ. وعلى العكس من: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[٢] فإن الطلاب وأهل العلم الذين قد رأوا الضيق أثناء الحرب وظلوا يعانون بعدها بمدة، وأرادوا أن يتنفسوا الصعداء لتوّهم، قد ابتلوا بضائقة أشد. وبهذه الهياكل الشبيهة بأبي الهول التي ظهرت بلباس أهل العلم، أهين هذا الزيّ الشريف، وثبطت عزائم الطلاب في الدرس والبحث. ويُحتمل ـ وهذا احتمال قوي ـ أنهم إنما قاموا بهذا العمل بتحريض من أعداء أهل العلم، مع احتمال أن يكون ذلك التصرف قد صدر من اولئك السذج أنفسهم لتصوّرهم أن التمتع بالحياة المرفهة منحصر بالظهور بزيّ أهل العلم بعد انحصاره بأهل الثروة، لأنهم رأوا أنّ الطلبة لدى مغادرتهم المدينة لزيارة كربلاء مثلاً عن طريق الماء أو اليابسة أو إلى الكوفة للتنزه أو التعبّد كان شايهم وسجائرهم متوفرة لديهم وكذلك طعامهم. بينما هم لا يملكون في أسفارهم وصحاريهم الشاي، بل لم يكن معهم حتى الخبز أحياناً. وكثيراً ما كانوا يقنعون بالبصل الأخضر الحاد جداً يأكلونه لوحده بغير خبز، أو الباذنجان بقشوره حيث يأكلونه نيئاً كالخيار. وقد كان الطلاب الذين يرافقونهم في الأسفار يجاملونهم في كل ما لديهم. فكأنهم كانوا يتحسّرون على أن يكونوا طلاباً علّهم يرون الرفاهية. ولم يكونوا

---

(١) سورة الناس، الآية١.

(٢) سورة النصر، الآية ٢.

يعرفون أن حال الطلاب الذي ظاهره مليح، يحتوي في باطنه على ألف شكل من الغصص وألف نوع من الكدح. خُدعوا بالظاهر وظهروا بمظهر أساتذة. وبعد سنة اشتروا المنازل القريبة والممتازة، أو استأجروها بمبالغ طائلة. ثم انتبهوا فجأة إلى أن تحصيل العلم يتطلب تحمل آلاف المصائب والتقيد بآلاف القيود والمسائل الشرعية. بينما الحرية في الصحراء الواسعة، حيث يستطيعون هناك أن يمارسوا عاداتهم على سجيّتهم. وإن أفضل أنواع السعادة تتحقق في الحرية. حتى إن أحد الشيوخ المحترمين من أهالي البادية كان قد مرض، فجاء إلى النجف للمعالجة لدى أحد الأطباء. وبعد يومين قضاهما هناك لم يحتمل الإقامة في المدينة، بل أخذ الدواء من الطبيب وكيفية استخدامه لمدة شهر وذهب. وقد قيل إنه لم يحتمل الإقامة لأنه ذهب في اليوم الأول إلى المرحاض. وبما أنه لم يكن قد رآه من قبل، فقد مدّد ساقيه على جانبي المرحاض بطولهما. وحين رأى ذلك شاقاً، ذهب في اليوم التالي إلى سطح الدار لقضاء حاجته، فمنعه صاحب المنزل. كما مُنع من ذلك في المنطقة المحيطة بالمنزل والأزقة الضيقة. لذا فقد استأذن الطبيب في أمرين: أولهما أن يغادر المدينة، والآخر أن يخلط الدواء الذي أعطاه الطبيب وزيت الخروع مع الطعام الذي اعتاد على تناوله ليلاً ونهاراً، وهو الطبيخ العربي الذي كان يسبّب مغص البطون للآخرين.

وباختصار فإن أولئك ـ المتزيين بزيّ الطلاب ـ لما رأوا حريتهم وقد سُلبت تماماً، فكروا بالخروج والعودة إلى زيّهم الذي كانوا عليه. وقد بدأوا بمغادرة المدينة تدريجياً كالمرض الذي يأتي فجأة ويذهب بالتدريج. وقد كان هذا المرض شاقاً بالنسبة لنا. وبالرغم من أننا لم نكن في ضيق من حيث المأكل والكتاب لأننا تعودنا العيش بغير كتاب، أو أي شيء، إلّا أن مشكلة الإيجار ـ إيجار البيوت ـ الذي ارتفع من ليرتين في السنة إلى ثمانٍ كان أمراً لا يطاق.



خاتمة الرحلة

أخيراً، رضينا نحن الإثنين: أنا الذي كنت أرتعد فزعاً لمجرد رؤيتي حلماً أرى فيه نفسي عائداً إلى قوچان، وزوجتي التي كانت تبكي لسماع اسم قوچان منّي، رضينا بالسفر إذا سنحت الفرصة لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، وانتظار ما يحدث: فإن كانت الظروف مؤاتية، أي إن استطعنا الصبر أقمنا وإلّا عدنا. وبينما نحن في تلك التصورات جاءتنا رسالة من مدينتي، أخبروني فيها أنهم سيرسلون لي المال اللازم للعودة إن كنت راغباً في العودة. فأجبتهم إنني سأعود إن توفر المال. وبعد مضي شهرين وصلتني رسالة فيها نبأ وفاة والدي، كما أخبروني أنهم أرسلوا مالاً بيد الميرزا مهدي وهو ابن المرحوم الآخوند الخراساني كي أعود به. وقد أقمت مجلس الفاتحة ثلاثة أيام على روح المرحوم أبي، الذي لم أره منذ خمس وعشرين سنة قضيتها في النجف وخمس سنين أخرى قضيتها في أصفهان ومشهد لم أره خلالها كذلك.

ذهبت إلى الميرزا مهدي وسألته عن المال إن كان قد وصل فقال: لقد أرسلوا معي أربعمائة تومان ألزموني أن لا أسلمك إياه إلّا بعد أن تُظهر رغبتك في السفر فعلاً إلى هناك، وإلّا أعدت المال. فينبغي عليك أن تعطيني كلام شرف وكلام رجال أنك ستسافر لأعطيك إياه، لا أن تأخذه لتنفقه هنا ولا تذهب، لأنك بذلك ستضعني في موضع الضامن.

قلت: أعطيك عهداً بأنني سأغادر.

ثم أخذت المال، فأدّيت منه ديني الذي كان يقرب من مائة وخمسين توماناً، مما ترتب عليّ من الشراء بالدين، أو استلاف المبالغ النقدية لإشباع البطون التي

كنت كفيلاً بإعالتها. إلّا أنني لم أغفل عن أمر السفر إذ إنني كنت أخشى نفاد المال.

وكان قد وصلني من رفيقي اليزدي قبل حوالي ستة أشهر رسالة يقول فيها إن التاجر الفلاني لديه ثلاثمائة تومان من سهم الإمام. فإن أرسلت ورقة موقعة من جناب الميرزا محمد تقي الشيرازي بإعطاء المبلغ لك، فإن ذلك التاجر سيحوّل لك المال. وقد أهملت أنا إرسال ورقة الإذن وتباطأت بالمسألة ولم أرسله إلّا وقد بقي شهر واحد على سفري. وحين كنت أتهيأ للسفر وأبيع أثاث المنزل البسيط وأشتري بدلاً منه مستلزمات السفر، جاء رفيقي اليزدي برفقة عدد من التجار إلى النجف، وهم في طريقهم إلى بيت الله وفي الليلة التي دعوت فيها ذلك الرفيق سألته عن الورقة التي جئت بها من الشيرازي وأرسلتها إلى يزد، فقال إنها لم تصل حتى الحين الذي تحركنا فيه من يزد لذا فقد يئست منك. وجئت الآن بذلك المبلغ لأسلمه إلى الشيرازي في كربلاء عند عودتي من النجف. وقد أخبرت الشيرازي فعلاً أن المبلغ عندي.

قلت له: كم كان حسناً لو وصلني ذلك المبلغ. وقد عرف صاحبي أنني نويت السفر، وأن ما لديّ من المال قليل.

غادر الحجاج اليزديون النجف بعدة عدة أيام عائدين إلى كربلاء. وقد تحركت أنا من النجف بعد حوالي ثلاثة أيام مصطحباً زوجتي وأطفالي. وما كدت أخرج من باب المدينة حتى انحدرت دموعي لفراق النجف، وبقيت ألتفت بوجهي صوب المدينة حتى قطعت فرسخاً واحداً، وأنا أنظر إلى قبة ومنائر مرقد الإمام. كان صعباً عليّ أن أتخلى عن حبي وعشقي للنجف التي كان لها الأثر العميق فيّ، حتى كأنها وطني الحقيقي ومسقط رأسي، حيث نشأت وترعرعت روحياً فيها. دخلت كربلاء وقد غشيتني كآبة شديدة. كان قد بقي معي مئتا تومان فقط لأجل السفر، وكان أطفالي مع زوجتي ستة أفراد. وكان هذا المبلغ ضئيلاً جداً للسفر في ذلك الزمان.

التقيت في كربلاء برفيقي اليزدي الذي قال لي: ذهبتُ إلى الميرزا وشرحت له حالك ومسألة سفرك، وحصلت منه على إذن بأن أعطيك هذا المبلغ وهو

ثلاثمائة تومان. وقد أودعت لديه سنداً موقَّعاً مدته ستة أشهر، ينبغي أن أسدّد له فيها هذا المبلغ ـ ٣٠٠ تومان ـ. أما سفرنا إلى الحج فلم يتم، وسنعود أدراجنا إلى يزد. وعليه فإذا وصل الإذن الذي أخذته من الشيرازي إلى ذلك التاجر بيزد ـ واحتمال وصوله هو ٩٩٪ ـ فسيرسل لك نقوداً تستطيع أن تسدد بها الدين الذي أخذته لك من الشيرازي، ثم تأخذ منه السند الذي وقعتُه له لأكون وفياً بوعدي للميرزا.

قلت له: حلّت البركة. وأخذت منه المبلغ، فأصبح مجموع ما معي خمسمائة تومان هي مصاريف سفري. شكرت الله وفرحت كثيراً، ودعوت الله أن يعجل بوصول النقود لأخرج صاحبي من المسؤولية، وآخذ سند الضمان من الميرزا، وأبعثه له. وهذا بحدّ ذاته نوع من العرفان بالجميل والامتنان لرفيقي اليزدي.

لم تمضِ سوى عدة أيام حتى جاءني أحد رفاقي ليقول لي: إن الحاج عبدالصراف التاجر الأول بكربلاء سأل عنك، ويبدو أنّ حوالة مالية وصلت باسمك. فذهبت إلى ذلك التاجر الذي قال لي: إن ألف روبية قد جاءت من يزد باسمك، فاكتب ورقة باستلامها لأعطيها لك. قلت له: انتظر حتى أذهب إلى منزل الميرزا محمد تقي الشيرازي. وهناك طلبت إلى الميرزا أن يعطيني السند الموقع من قبل رفيقي اليزدي ويرسل معي من يستلم المبلغ. أخذت الوصل ونهضت مع ابنه الأصغر، ثم قلت له: إنّ المبلغ هو ألف روبية، وأنا أرغب أن تضع مائة منها تحت تصرفي.

فقال: ماذا أنت صانع بها؟

قلت: أريد أن أعطيها لعشرة من المستحقّين في النجف. فوافق على ذلك.

ذهبنا إلى التاجر، وسلمته ورقة باستلام المبلغ الذي أخذت منه مائة روبية، ودفعت الباقي لابن الميرزا.

عُدت إلى البيت، وكتبت رسالة إلى النجف حول كيفية تقسيم هذه الروبيات المائة على الأشخاص العشرة، بحيث بقي منها عشر روبيات، فقلت: اصنعوا بهذه الروبيات العشر رزاً ومَرَقاً فاخراً، واجتمعوا وكلوه وامرحوا وتذكروني،

فروحي ستكون حاضرة وناظرة في مجلسكم، رغم أنني لن أشارككم طعامكم. ثم وضعت النقود في الرسالة، وبعثتها إلى هناك. وقد عمل أولئك بوصيتي.

بعد سبعة عشر يوماً قضيناها في كربلاء، تحركنا نحو الكاظمية. وبعد ثلاثة أيام، ذهبنا إلى سامراء، ثم عدنا بعد أن مكثنا هناك يومين. ومن الكاظمية اكترينا دواباً تقلنا إلى طهران، بعد أن نصل مدينة قصر شيرين.

وقد اتفق أن رافقت شيخاً مازندرانياً في سفري، حيث استأجرنا اثنين من الهوادج، جلست زوجتي في قسمه الأيمن، بينما جلست زوجة الشيخ في الأيسر منه. أما الثاني فقد وضعت أطفالي في طرف منه، وجلست أم زوجتي في الطرف الثاني. وبالنسبة لي فقد ركبت مع بعض متاعي على بغل، وركب الشيخ المازندراني على بغل آخر.

كانت أجرة سفري إلى طهران هي مائة وخمسين توماناً. وقد اتفقنا مع المكاري وهو عربي من مدينة الكاظمية أن يسبقنا برفقة أمتعتنا، وطلبنا منه أن ينتظرنا عند قصر شيرين، مع الدواب والهوادج. أما نحن فقد ركبنا السيارة بعد خمسة أيام، وغادرنا بغداد.

كنت قد دخلت النجف عام ١٣١٨هـ في السادس عشر من شهر رجب، وغادرتها إلى إيران في غرة شعبان عام ١٣٣٨هـ فكانت مدة إقامتي فيها عشرين سنة وخمسة عشر يوماً. وقد تحركنا من الكاظمية يوم ٣ شهر رمضان المبارك. ووصلنا إلى أرض إيران.



مراجع التحقيق والترجمة

١ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي. بيروت ١٩٨٦.
٢ ـ إيران. كلده وشوش: مدام ديلافوا. ترجمة علي محمد فره وشي. طهران ١٩٨٥.
٣ ـ إيران أمروز: أوزن أوبين. ترجمة علي أصغر سعيدي، طهران ١٩٨٣.
٤ ـ إيران وقضية إيران: جورج ن. كرزن. ترجمة غلامعلي وحيد مازندراني. طهران ١٩٨٨.
٥ ـ تاريخ بيداري إيرانيان: ناظم الإسلام كرماني. تحقيق سعيدي سيرجاني. طهران ١٩٧٠.
٦ ـ تاريخ الحركة الإسلامية في العراق: الدكتور عبد الحليم الرهيمي. بيروت ١٩٨٥.
٧ ـ تاريخ العراق بين احتلالين: المحامي عباس العزاوي. بغداد ١٣٧٥ ـ ١٩٥٥.
٨ ـ ثورة النجف على الإنكليز: حسن الأسدي. بغداد ١٩٧٤.
٩ ـ الجدري والحصبة: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. تحقيق الدكتور محمود نجم آبادي. طهران ١٩٨٥.
١٠ ـ خاطرات وإسناد مستشار الدولة صادق. تحقيق أبرج أفشار. طهران ١٩٨٣.
١١ ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: حسن الأمين ـ بيروت ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦.
١٢ ـ دار الخلافة تهران: ناصر نجمي. طهران ١٩٨٣.
١٣ ـ دليل الخليج: ج.ج لوريمر. ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر. الدوحة ١٩٦٧.
١٤ ـ دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث: الدكتور عبد الله فهد النفيسي، بيروت ١٩٧٣.

١٥ ـ ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. تحقيق عبد العزيز الجواهري. بيروت ١٣٣١هـ.
١٦ ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة: آقا بزرگ الطهراني. بيروت ١٩٨٣.
١٧ ـ رجال عصر ناصري: دوستعلي خان معير الممالك. طهران ١٤٠٣هـ.
١٨ ـ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥.
١٩ ـ فرهنگ اصطلاحات نجومي: الدكتور أبو الفضل مصفى. طهران ١٩٨٧.
٢٠ ـ فرهنگ عميد: حسن عميد. طهران ١٩٨٥.
٢١ ـ فرهنگ معين: الدكتور محمد معين. طهران ١٩٨٥.
٢٢ ـ لسان العرب: ابن منظور. بيروت ١٣٧٦.
٢٣ ـ ماضي النجف وحاضرها: جعفر الشيخ باقر آل محبوبة. بيروت ١٩٨٦.
٢٤ ـ مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها: محمد رؤوف الشيخلي. البصرة ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢.
٢٥ ـ مرگي در نور: عبد الحسين مجيد كفائي. طهران ١٩٨٠.
٢٦ ـ معجم الحيوان: الفريق أمين المعلوف. بيروت ١٩٨٥.
٢٧ ـ مفاتيح العلوم: محمد بن أحمد الخوارزمي. تحقيق فان فلوتن. ليدن ١٨٩٥.
٢٨ ـ مفاتيح كنوز السنة: أ. ي. فنسنك. ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي. أوفست قم ١٤٠٤.
٢٩ ـ مقدمة الأدب: جار الله الزمخشري. تحقيق محمد كاظم إمام. طهران ١٩٦٣.
٣٠ ـ المنجد في الإعلام: إعداد الأب فردينان توتل اليسوعي. بيروت ١٩٨٠.
٣١ ـ موسوعة العتبات المقدسة: بإشراف جعفر الخليلي. بيروت ١٤٠٧ • ١٩٨٧.
٣٢ ـ نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي تحقيق الدكتور صبحي الصالح. أوفست قم د.ت.
٣٣ ـ وقايع اتفاقية (گزار شاي خفيه نويسان انگليس در ولايات جنوب إيران أزسال ١٢٩١ ـ ١٣٢٢هـ) تحقيق سعيدي سيرجاني. طهران ١٩٨٣.
٣٤ ـ يادداشتهاي قزويني: محمد بن عبد الوهاب قزويني. طهران ١٩٨٤.

الفهـرس



دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف : 5 / 334 544 9611+ - فاكس : 787 546 9611+ - ص-ب : 25/ 16 الغبيري

خليوي: 767 259 71 961+ E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

ISBN 978-9953-551-71-5

9 789953 551715 >